



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة غرداية

مجلة الواحات للبحوث والدراسات

تصدر عن جامعة غرداية - الجزائر

ردمك: 1112-7163

المجلد: 06 العدد: 02، ديسمبر 2013

ELWAHAT

المجلد: 06 العدد: 02، ديسمبر 2013

République Algérienne Démocratique et Populaire

Ministère de l'Enseignement Supérieur
et de la Recherche Scientifique

Université de Ghardaïa

Revue « ELWAHAT » pour les Recherches et les Etudes

Editée par l'Université de Ghardaïa - Algérie

ISSN: 1112-7163



Volume 06 N° 02, Decembre 2013

أحكام زكاة الصبوح

عمر مونة

قسم العلوم الإسلامية جامعة غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000، الجزائر

مقدمة:

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه،
وشرائف صلوات ربي وأتم تسليمه على محمد خير
خلقه، وعلى أزواجه وذريته وصحبه، وبعد:
فإن الله سبحانه أوجب الزكاة مواساةً للفقراء،
وطهرةً للمال، وعبوديةً له جل وعز، وتقرباً إليه
بإخراج محبوب العبد له وإيثار مرضاته، ثم فرضها
على أكمل الوجوه، وأنفعها للمساكين، وأرفقها بأرباب
الأموال؛ ولم يفرضها في كل مال، بل فرضها في
الأموال التي تحتل المواساة، ويكثر فيها الربح والدر
والنسل¹، ولم يفرضها فيما يحتاج إليه العبد من ماله
ولا غني له عنه من حاجاته الأساسية.
وإن للناس في دائم أحوالهم تعاملات وعقوداً
تتنوع حسب الحاجات والضرورات، منها عقود
المعاوضات التي مبناهما المماكسة والتشاح، وأخرى
عقود مواساة وتبرعات مبناهما المسامحة والإحسان،
ومما علم قطعاً أن هذه العقود وتلك تختلف حقيقةً
ومقصداً؛ فعقود التبرعات؛ قصد الشرع إلى تكثيرها
وانتشارها دعماً للمواساة بين الخلق²؛ حتى تقوم
حياتهم ويعيشوا في تكافل وتعاون يعيش الجميع
بالجميع وللجميع، فكان من وسائل الشرع في ذلك
التخفيف والتيسير فيها أكثر من غيرها؛ تيسيراً قد لا
يلحظ نظيره في المعاوضات وإن كان أصل التيسير
مركزاً في التشريع.

فهذا السنن التشريعي ينبغي ألا يغفل عنه وأن
يصار عليه في مستجدات الأحوال، ويجب أن يكون
للباحثين مدركاً في الترجمات بين ما أثر عن السلف
من اختلافات.

والديون والقروض من أهم وأبرز علائم المواساة
وعناوين التكافل؛ فكيف يتعامل معها الشرع في
فرض الزكوات؟ مع علمنا بمقاصد هذه الأخيرة؛ لا
جرم وأن غالب الديون والقروض مواساة، بيد أن ذلك
لا يطرد فبعضها ربحي كما هو الحال في بيوع
الآجال وقروض الاستثمار؟ وما هو منطق التشريع

في التوفيق بين هذه المقاصد دون إهمال لحق من
الحقوق ولا لجانب من الجوانب؛ كيما يتسق ذلك
المنطق في كافة التشريعات، ويبقى العدل مظلة
الأحكام.

من هنا؛ جاء هذا البحث لدراسة موضوع الديون
وحكم زكاتها؛ هل لذلك أثر في منع الزكاة على الدائن
والمدين؟ سيما وهذه الأخيرة من عقود التبرعات في
الغالب.

وقد ارتأيت أن أجعله على وفق المخطط الآتي:
المطلب الأول: مفهوم الدين وأقسامه والألفاظ
ذات الصلة

المطلب الثاني: أثر الدين على زكاة الأموال في
حق المدين
المطلب الثالث: أثر الدين على زكاة الأموال في
حق الدائن

المطلب الأول: مفهوم الدين؛ أقسامه والألفاظ ذات
الصلة

أولاً: مفهوم الدين:

يطلق الدين في اللسان العربي: على ما كان غائباً،
وبقائه العين، وهو ما كان حاضراً، يقال: دنت الرجل: إذا
أخذت منه ديناً، فأنا مدين، وأنت: أقرضت وأعطيت
ديناً³.

والدين في الاصطلاح: عرفه ابن الهمام بقوله:
«الدين اسم لمال واجب في الذمة يكون بدلاً من مال
أتلفه، أو قرض، أو مبيع عقد بيعه، أو منفعة عقد عليها
... كاستئجار عين»⁴، فأسباب الديون متعددة ومتنوعة.

ثانياً: مفهوم القرض:

قال ابن عرفة: «دفع متمول في عوض غير
مخالف له، لا عاجلاً»⁵، فهو تمليك الشيء على أن
يردّ بدله؛ فلا بد أن يكون مثلياً، ويسميه أهل الحجاز
سلفاً⁶، وعليه؛ يكون الدين أعم من القرض وأوسع.

ثالثاً: أقسام الديون:

للدين تقسيمات عدة باعتبارات مختلفة: وتفصيل
ذلك فيما يأتي⁷:

يمكن إخفاؤه كالزروع والثمار والمواشي والباطنة ما أمكن إخفاؤه من الذهب والفضة وعروض التجارة، وليس لوالي الصدقات نظر في زكاة مال الباطن، وأربابه أحق بإخراج زكاته منه إلا أن يبذلها أرباب الأموال طوعاً فيقبلها منهم... ونظره مختص بزكاة الأموال الظاهرة، ويؤمر أرباب الأموال بدفعها إليه»¹⁵.

وغالب المحدثين ساروا على النهج الذي اختطه الماوردي في التفريق بينهما؛ أعني إمكان إخفاؤها، ومدى تمكن الدولة من الإحاطة بها علماً وإحصاءً؛ فينيط واجب جبايتها بها؛ فساعتئذ تكون ظاهرة، وعلى الضد من ذلك تنتظم قسيميها. وبحثوا مدى دخول الأرصدة المصرفية، والسندات، وأموال الشركات المعلنة في الأموال الظاهرة أم لا؟

على أن تفاصيل ذلك ليس من صلب البحث؛ فأولى العدول عنها، والمهم أن يُعرف قصد العلماء عند الحديث عن أثر الدين في الزكاة بالأموال الظاهرة التي تنتظم في المواشي والزروع والثمار والمعادن، والأموال الباطنة وتنتظم عندهم في النقدين وعروض التجارة.

المطلب الثاني: أثر الدين على زكاة الأموال في حق المدين:

أولاً: تحرير محل النزاع: يتفق أهل العلم قاطبةً على وجوب الزكاة إذا بلغ الزائد على الدين نصاباً؛ في القدر الزائد طبعاً، بيد أن التباين في أقوالهم منحصر في المال الزكوي الذي لم يزد على الدين: بين موجب للزكاة فيه وآخر مرتي منعه لها، وثالث يفصل.

قال الرملي: «ومحل الخلاف ما لم يزد المال على الدين، فإن زاد وكان الزائد نصاباً؛ وجبت زكاته قطعاً»¹⁶.

وأيضاً اختلفوا في الزائد على النصاب ولو أنقصنا الدين، هل يزكى قدر الدين منه أم لا؟

ثانياً: أقوال العلماء في المسألة ومداركهم: تمايزت آراء العلماء في أثر الدين في منع الزكاة على المدين؛ على أقوال:

القول الأول: الدين يمنع الزكاة مطلقاً: فالدين مطلقاً على هذا القول يمنع الزكاة إذا أنقص النصاب وكذا في مال بلغ النصاب على صاحبه دين ينقصه في قدر الدين منه، سواء في ذلك الأموال الباطنة والظاهرة، حالاً كان أم مؤجلاً، دينا لله أم للعباد، هذا هو المعتمد في مذهب الحنابلة، وهو قول للشافعية أيضاً رحمة الله على الجميع¹⁷.

وأما عن الدين الذي يمنع الزكاة فضابطه: "كل دين مطالب به يمنع وجوب الزكاة في قدره" سواء في الأموال الباطنة أم الظاهرة، من حقوق الله كالكفارات والنذور أم

أ- أقسام الدين باعتبار المطالبة به:

[دين الله جلّ جلاله، ودين العباد]:

فدين الله عز وجل: هو ما ليس له مطالب من قبل العباد: كالنذور والكفارات، والزكاة، وإن طالب به الإمام، فإنما ذلك على أنه حق لله لا حقاً لنفسه.

ودين العباد: هو ماله مطالب من قبل العباد باعتباره حقاً للمطالب به: كثمن المبيع، وبدل المتأف⁸.

ب- أقسام الدين باعتبار أصله:

[دين بيع، ودين قرض]:

فدين البيع أو دين التجارة هو ما كان أصله من بيع وشراء لتمويل عروض التجارة.

ودين القرض أو "دين النقد" أو "دين السلف" وهو ما كان أصله من قرض لتمويل عروض القنية⁹.

ج- أقسام الدين باعتبار القصد منه: [قرض استهلاكي، وقرض استثماري]:

فالاستهلاكي هو ما كان بغية سدّ حاجة من الحاجات الأصلية للمقترض: كالمسكن والملبس والمطعم وغيرها، ومنه ما يعرف بالقرض الإسكاني.

والاستثماري: هو ما قصد منه تمويل مشروع من المشروعات الإنتاجية الربحية؛ كبناء مصانع ودور است تجارية وفنادق، أو شراء سيارات للأجرة¹⁰.

د- أقسام الدين باعتبار وقت وجوب أدائه: [حال ومؤجل]:

فالتين الحال: ما كان ثابتاً في الذمة، واستحقّ الوفاء به في الحال: مثل بدل الصرف، أو كان مؤجلاً وانتهى أجله.

والدين المؤجل: هو ما تأخر موعد وفائه، ولا يستحقّ القضاء إلا عند حلول أجله، والمؤجل قد يكون منجماً يؤقّى على أقساط¹¹.

رابعاً: مفهوم الأموال الباطنة والأموال الظاهرة:

مصطلح الأموال الباطنة والظاهرة له تعلق كبير بموضوع زكاة الدين، ومسقطات الزكاة فيه؛ لذا كان لزاماً على البحث أن يعرض بإيجاز إلى تجلية معانيها.

ولا يكاد يخلو كلام للأقدمين في الزكاة، إلا ويردّ فيه هذان المصطلحان؛ لكن أكثرهم لم يهتم بإعطاء حدّ لهما -على ما هو معهود المناطقية- بيد أنهم في تصارييف حديثهم يذكرون ما يندرج تحت كل قسم من أموال¹²: فجعلوا المواشي والزروع والثمار والمعادن من الأموال الظاهرة.

وانتظمت الأموال الباطنة عندهم في النقدين "الذهب والفضة" وعروض التجارة¹³.

وقد أرجع النووي سبب التفريق بينهما إلى أن الأموال الظاهرة تنمو بنفسها، بخلاف الباطنة فيكون نماؤها من جهة المالك وتصرّفه¹⁴.

وأما الماوردي فقد عرفها بقوله: «والأموال المزكاة ضربان: ظاهرة وباطنة؛ فالظاهرة ما لا

وزهد إلى هذا القول **الظاهري**³¹، وهو رواية عن أحمد³² -رحمة الله عليهم-

قال الرملي: «(ولا يمنع الدين وجوبها) حالاً كان، أو مؤجلاً من جنس المال أم لا، الله تعالى كزكاة وكفارة ونذر، أو لغيره، وإن استغرق دينه النصاب (في أظهر الأقوال)»³³.

وقال ابن حزم: «ومن عليه دين... وعنده مال تجب في مثله الزكاة، سواء كان أكثر من الدين الذي عليه أو مثله، أو أقل منه، من جنسه كان أو من غير جنسه؛ فإنه يزكي ما عنده، ولا يسقط من أجل الدين الذي عليه شيء من زكاة ما بيده»³⁴.

أدلة هذا القول ومداركه:

- 1- عموم الأدلة الموجبة للزكاة³⁵.
- 2- عدم وجود نص من كتاب أو سنة ولا إجماع في هذا الموضوع، مع أن العموم في نصوص إيجاب الزكاة لم يخص، قال أبو محمد: «إسقاط الدين زكاة ما بيد المدين؛ لم يأت به قرآن ولا سنة صحيحة ولا سقيمة، ولا إجماع»³⁶.
- 3- ومن جهة النظر قالوا: إن ما بيده ماله؛ يجوز فيه تصرفه بالبيع والشراء والهبة، ولم يخرج عن ملكه ما عليه من الدين؛ فوجب أن يستحق الأخذ منه وعليه في الزكاة³⁷.

القول الثالث : وسط بين المذهبين السابقين

فليس كل الدين مانعاً للزكاة، بل بعضه يمنعها، والبعض الآخر لا يمنعها. ثم إنه ليست كل أموال الزكاة محلاً وموضوعاً للمنع بالدين، بل بعضها تمتنع فيها الزكاة بسببه، وآخر لا يؤثر الدين في وجوب بذله لمستحقه³⁸. وفي هذين تتجلى وسطية القولين. وهذا هو الرأي الذي ذهب إليه الحنفية والمالكية وهو أيضاً رواية عن أحمد³⁹:

1/- **الدين الذي يؤثر في الزكاة:** ضابطه "أن يكون له مطالب من جهة العباد" فعُدوا منها: الديون المستحقة للآدميين في نمته حالة أو مؤجلة، ودين زكاة لم يؤدها في وقتها، وديناً وجب بسبب النفقة ونحوها.

وأما الديون التي لا تمنع وجوب الزكاة فعُدوا منها: دين النذر، دين الكفارات بأنواعها ككفارة قتل الخطأ والظهار، هدي المتعة والأضحية⁴⁰.

2/- **الأموال الزكوية التي يؤثر فيها الدين**

إسقاطاً: فليست كل الأموال يسقطها الدين عندهم لكن جرى نوع خلاف بين الحنفية والمالكية: فالحنفية يستثنون المعشرات فقط "الزروع والثمار"، والمالكية يستثنون الأموال الظاهرة من زروع وماشية وكذا المعادن، وما وراء ذلك لا يؤثر الدين في إسقاطه.

* **فعد الحنفية** ليست كل الأموال الزكوية يؤثر فيها الدين عند الحنفية؛ فهم يستثنون المعشر، أي

من حقوق العباد كنفقة واجبة أو أروش جنبايات ونحوها، ولو كان الدين من غير جنس المال المزكي¹⁸.

أدلة هذا القول ومداركه: استدلل القائلون بمنع الدين للزكاة إجمالاً؛ بأدلة منها:

1- ما روى مالك عن السائب بن يزيد قال: سمعت عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول: «هذا شهر زكاتكم، فمن كان عليه دين فليؤد دينه، حتى تحصل أموالكم؛ فتأدوا منها الزكاة»، وفي رواية: «فمن كان عليه دين فليقض دينه، وليزك بقية ماله»¹⁹، قال ذلك بمحضر من الصحابة فلم ينكروه؛ فكان دليلاً على اتفاقهم عليه²⁰.

2- ورؤي عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا كان لرجل ألف درهم وعليه ألف درهم؛ فلا زكاة عليه»²¹ فهذا نص صريح في منع الدين للزكاة²².

3- وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن: «... وأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم»²³. فدل على أنها إنما تجب على الأغنياء، لتدفع إلى الفقراء، والمدين ممن يحل لهم أخذ الزكاة فيكون فقيراً؛ فلا تجب عليه الزكاة؛ لأنها لا تجب إلا على الأغنياء للخبر السابق، ولما جاء في الأثر عنه صلى الله عليه وسلم قال: «لا صدقة إلا عن ظهر غنى»²⁴.

4- واستدلوا بالنظر فقالوا: إن من الشروط المعتبرة في وجوب الزكاة على المكلف؛ تمام الملك وذلك بأن لا يتعلق به حق غيره، فيكون له التصرف فيه على حسب اختياره، والدين يخل بشرط تمام الملك، والإخلال بالشروط يسقط حكم الوجوب²⁵.

5- قياس الزكاة على الحج، فمادام الدين يسقط وجوب الحج؛ فكذلك هو مسقط لوجوب الزكاة²⁶.

6- ضعف الملك للمدين؛ لتسلط المستحق للدين على دينه في مال المدين²⁷.

7- أن الدائن تلزمه الزكاة، فلو أوجبنا على المدين أيضاً؛ لزم منه تنشئة الزكاة في المال الواحد، وهذا ممتنع²⁸.

8- حاجة المدين تُقدّم على حاجة أهل الزكاة؛ لأن الزكاة وجبت مواساةً للفقراء، وشكرًا لنعمة الغنى، وحاجة المدين لوفاء دينه كحاجة الفقير أو أشد، ولا تُعطل حاجة المالك لدفع حاجة غيره²⁹.

القول الثاني: الدين لا يمنع الزكاة مطلقاً:

وهذا الرأي يقابل سابقه؛ فيخالفه جملة وتفصيلاً، فالدين سواء كان لله سبحانه أو للآدميين، حالاً أو مؤجلاً؛ لا يمنع الزكاة مطلقاً، دون تفرقة بين الأموال الظاهرة والباطنة.

وهذا هو الأصح من مذهب الشافعية كما حكى النووي في المجموع، واستظهره في المنهاج³⁰،

الله- هو القول باعتبار الدين المستغرق للنصاب أو المنقص له؛ مانعا من وجوب الزكاة مطلقا؛ سواء في الأموال الظاهرة أم الباطنة⁵¹؛ لكن ذلك بقيود وشروط-لما يأتي:

1- عموم الأدلة التي استدلت بها الفريق الأول تصلح لأن تكون عامة لكل الأموال دونما استثناء.

2- من حديث معاذ رضي الله عنه السابق وغيره من الآثار الواردة يتقرر لدينا مبدأ كلي في تشريعات الزكاة؛ وهو أن الزكاة تؤخذ من الغني لا من الفقير، وأن الشرع يصبو إلى إغناء الفقراء وسد خللتهم، ولا يتغنى إفقار الناس؛ لذا جاء في الأثر: «لا صدقة إلا عن ظهر غني»⁵². والمدين هو ممن يحل له أخذ الزكاة لسد خلته ودفع حاجته وفقره غالبا؛ إذ الدين هم بالليل ذل بالنهار.

3- من الشروط المعتبرة في وجوب الزكاة على المكلف تمام الملك للنصاب، والدين يخل بشرط تمام الملك لتعلق حق الغير بالمال، والإخلال بالشرط يسقط حكم الوجوب.

4- ومن الشروط المعتبرة في وجوب الزكاة أن يزيد النصاب على الحاجات الأصلية الضرورية، ودفع الدين وسداده لا شك من الحاجات الأصلية للإنسان، فامتنع وجوب الزكاة لعدم توفر هذا الشرط أيضا.

ولعله من المناسب هنا ذكر قول ابن رشد -الحفيد- وترجيحه بعد أن أرجع سبب الخلاف في هذه المسألة إلى مدى اعتبار الزكاة عبادة أم أنها حق في المال؟ قال: «والسبب في اختلافهم اختلافهم هل الزكاة عبادة أو حق مرتب في المال للمساكين؟ فمن رأى أنها حق لهم؛ قال: لا زكاة في مال من عليه الدين؛ لأن حق صاحب الدين متقدم بالزمان على حق المساكين، وهو في الحقيقة مال صاحب الدين لا الذي المال بيده.

ومن قال هي عبادة؛ قال: تجب على من بيده مال؛ لأن ذلك هو شرط التكليف وعلامته المقضية الوجوب على المكلف، سواء كان عليه دين أو لم يكن، وأيضا فإنه تعارض هناك حقان: حق لله وحق للإنسان، وحق الله أحق أن يقضى.

والأشبه بغرض الشرع إسقاط الزكاة عن المدين؛ لقوله عليه السلام فيها: «صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم» والمدين ليس بغني، وأما من فرق بين الحبوب وغير الحبوب وبين الناض وغير الناض؛ فلا أعلم له شبهة بينة»⁵³.

شروط منع الدين للزكاة في حق المدين:

1- أن يتعلق بذمة المالك قبل الحول وقبل وجوبها، فإن استدان بعد الحول؛ لم يسقط ما وجب عليه منها؛ فإنما يؤثر الدين في منع وجوب الزكاة لا في إسقاطها بعد وجوبها⁵⁴.

الزرع والتمر؛ فالدين لا يسقط زكاتها، وأما سائر الأموال فيمنع الدين وجوب زكاتها⁴¹.

وأدلتهم: ما استدلت به الفريق الأول من الأدلة القاضية بمنع الدين للزكاة.

ومدركهم في استثناء المعثر؛ أنه حق الأرض فلا أثر للدين في زكاته؛ قال الكاساني: «لأن العشر مؤنة (أي: حق) الأرض النامية كالخراج؛ فلا يعتبر فيه غنى المالك، ولهذا لا يعتبر فيه أصل المالك عندنا حتى يجب في الأراضي الموقوفة... بخلاف الزكاة فإنه لا بد فيها من غنى المالك، والغنى لا يجامع الدين»⁴².

* وعند المالكية يؤثر الدين في إسقاط الزكاة في الأموال الباطنة: كعروض التجارة، والنقود. أما الأموال الظاهرة: كالزروع والثمار والماشية وكذا المعادن؛ فلا تأثير للدين على زكاتها، قال خليل: «ولا تسقط زكاة حرث ومعدن وماشية بدين»⁴³؛ ولو تسلفه فيما أحيا به الحرث، وقوي به على المعدن⁴⁴.

ومن أدلتهم:

1- ما استدلت به الفريق الأول من الأدلة القاضية بمنع الدين للزكاة.

2- مدركهم في استثناء الأموال الظاهرة أن تعلق الزكاة بها أكد، لظهورها وتعلق قلوب الفقراء بها⁴⁵.

3- الأموال الظاهرة نامية بنفسها، فكانت النعمة فيها أتم؛ لذا قوي إيجاب الزكاة شكرا للنعمة؛ فلا يؤثر في سقوطها الدين بخلاف النقد⁴⁶.

4- ولأن النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده كانوا يرسلون السعاة والخراص يأخذون الزكاة من الماشية والزروع لا ينقصون شيئا لأجل الدين في ذلك، وحكى ذلك بن أبي الزناد عن جماعة من فقهاء المدينة كسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وسليمان بن يسار، وإنما كانوا يسألون عن الدين في العين⁴⁷.

5- أما المعادن فإنها نماء مستفاد من الأرض، فإذا تعلقت بها الزكاة لم تسقط بالدين كالزروع والثمار⁴⁸.

6- ولأن الأموال الظاهرة لا يمكن الخيانة فيها بمنع زكاتها؛ لظهورها، خلافا للباطنة؛ لذلك أعين على زكاتها بمسامحة أهلها⁴⁹.

7- الحقوق المتعلقة بالعين كزكاتها- محلها الذمة؛ لأن العين -أي النقود- لا تتعين بالتعيين؛ فاتحد محل الدين والزكاة؛ فتدافعا، وقدم الدين لأنه معاوضة- بمنع الزكاة.

وأما الأموال الظاهرة فمحلها العين؛ لأنها تتعين؛ فافترق المحل فلا مدافعة-لذا وجبت فيها الزكاة مع وجود الدين⁵⁰.

الرأي المختار: بعد عرض الآراء السابقة ومدارك أصحابها، فإن الذي أستلوح وجاهته منها والعلم عند

2- أن يكون الدين حالاً قبل وجوبها؛ ذهب إلى ذلك بعض الحنفية وبعض المالكية وأحمد في رواية⁵⁵.

وذهب جمهور الحنفية والمالكية وأحمد في رواية⁵⁶ إلى اعتبار المؤجل والحال سواء في إسقاط وجوب الزكاة؛ ذلك أن المؤجل آيل إلى الحل بالأجل أو الموت⁵⁷.

والذي يظهر لي - والعلم عند الله - أن الدين الحال هو الذي يؤثر، وإن كان مقسماً اعتبر في ذلك قسماً تلك السنة، ذلك أن المطالب به هو الحال، أما المؤجل فلم يستحق بعد، وأما كونه آيلاً إلى الحل بالموت فهذا احتمال، وليس الاحتمال بدليل أبداً⁵⁸.

وهذا ما ذهب إليه بعض المعاصرين كرفيق المصري وجاء في توصيات الندوة الأولى لقضايا الزكاة المعاصرة: «يسقط من وعاء الزكاة ما يقابل القسط السنوي المطلوب دفعه فقط» ومثله في الندوة الثانية⁵⁹.

3- أن يكون للدين مطالب من قبل العباد؛ كتمن مبيع وقرض وقيم متلفات... أما ما لم يكن له مطالب من قبل العباد كالندور والكفارات " حقوق الله سبحانه " فلا تأثير لها على الزكاة؛ وهو مذهب الحنفية والمالكية وأحمد في رواية⁶⁰.

ومدركهم في ذلك: أن الزكاة أكد لتعلقها بالعين⁶¹. وأما قياسه على دين الأدمي؛ فقياس مع الفارق إذ أن الأدمي الدائن محتاج إلى ماله، وبمنعه عنه أو تأخيريه يتضرر، بخلاف ما كان لله جل جلاله من ديون علي العباد فمبناه على المسامحة والتكرم: لذا قدمت الزكاة عليه؛ تقديماً لحق العبد على حق الله جل وعز، ونظير هذا معهود في الشرع⁶².

4- اشترط المالكية وأحمد في رواية: ألا يكون للمدين عروض قنية تفي بدينه، وإلا جعلت تلك العروض في مقابل الدين وأدى زكاة ماله، طبعاً شريطة أن تكون تلك العروض مما يباع لوفاء دينه، وكان زائداً عن حاجاته الضرورية⁶³.

وهو شرط فيه من الوجاهة ما ليس يخفى؛ إذ من كان عليه دين وله عروض قنية تفي بسداده، فاضلة عن حاجاته الأصلية؛ لا مستوجب لإسقاط حق وجب عليه للفقراء المملّكين، وهو قد يتملك العديد من الدور والسيارات وغيرها من أوجه الكماليات، فالأشبه بمقصود الشرع - والله أعلم - أن تجب عليه الزكاة رعيّاً لحق المحاويج المعسورين.

وقد رجح أبو عبيد ذلك في رجل له ألف درهم، وعليه مثله، وعنده عروض بألف درهم وقال: «وهذا عندي هو القول؛ لأنه الساعة مالك لزيادة ألف عين على مبلغ دينه؛ ألا ترى أنه لو لم يكن له الألف، كان لغريمه أن يأخذه بالدين حتى ثباغ

العروض به»⁶⁴.

المطلب الثالث: أثر الدين على زكاة الأموال في حق الدائن:

تنوّعت آراء العلماء واختلفت أقوالهم في هذه القضية، بيد أن أكثرهم أوجب الزكاة على المدين في أحوال دون أخرى، والقليل منهم جعل الدين مسقطاً لها مطلقاً عن الدائن والمدين، ولا يكاد ناظر هذه المسألة في كتب الفقه أن يلجها مطلقاً على أقوال العلماء فيها؛ حتى تلقى عليه ستائر الدهشة حجابها، وتجلّله الحيرة بأثوابها؛ ممّا يجده من كثرة الأقوال والتفريعات فيها؛ فيصعب الاهتداء إلى تقسيم موضوعي منضبط دقيق ينتظم تحته اختلافهم في تصارييف الأقوال: ولعله يمكننا جعل المذاهب في المسألة ثلاثة: منهم من يسقطها مطلقاً، ومنهم من يفصل. وفيما يلي تفصيل مبين لما أجمل هنا:

أولاً: آراء العلماء في المسألة وأدلتهم:

المذهب الأول: لا زكاة في الدين مطلقاً:

قال قائلون بأنه لا زكاة في الدين مطلقاً، وإن كان على مليء، وهو مروى عن عائشة وابن عمر رضي الله عنهما وعكرمة ويروى عن عطاء وإبراهيم النخعي⁶⁵. وروى ابن حزم عن عائشة رضي الله عنها - قولها: «ليس في الدين زكاة»⁶⁶.

ومدرك أصحاب هذا الرأي: 1- أن الدائن ناقص الملك؛ فالمال عند المدين حقيقة⁶⁷.

2- أن مال الدائن غير نام؛ فلم تجب زكاته كعروض القنية⁶⁸.

المذهب الثاني: يرون في المسألة تفصيلاً بين الدين الحال والمؤجل أو أن يكون على معسور أو ميسور أو مقر أو جاحد؛ فتنتظم الأحوال الآتية:

[1]: الدين الحال: ويكون على ضربين:

[أ]: إما أن يكون على ميسر مقرّ به: فهذا تجب زكاته على الدائن؛ فهو كالوديعة، وهو قول الحنفية والشافعية والحنابلة، ويروى هذا عن علي والثوري وأبي ثور⁶⁹، غير أن الحنابلة يؤخرون إخراجها إلى القبض، وهذا سار في كل حال وجبت فيه.

[ب]: وإما أن يكون على ميسر جاحد: إذا كان الدين مجحوداً؛ فلا يخلو من حالين: إما أن تكون للدائن بينة أو لا:

الحال الأولى: إذا لم تكن للدائن بينة على الدين، ومضى عليه أحوال، ثم استرده الدائن:

1- فعند الحنفية والشافعية في رواية وكذا الحنابلة؛ لا تجب زكاته للسنين الماضية⁷⁰. وإنما لم يوجبوا زكاته لأنه من المال الضّمار⁷¹، ودليل عدم وجوب زكاته:

* قول علي رضي الله عنه: «لا زكاة في المال الضّمار»⁷².
* ولأن سبب زكاته هو نماءه، ولا نماء إلا بالقدرة

على التصرف، ولا قدرة عليه⁷³
2- وقال زفر والحنابلة في أصح الروايتين: تجب زكاته عند قبضه واسترداده لما مضى، ولو تلف قبل التمكن سقطت الزكاة⁷⁴.

ومدرّكهم:

* ما رواه أبو عبيد عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال في الدين: «إذا لم تُرَجْ أخذه فلا تزكّه حتى تأخذه، فإذا أخذته فزكّه عنه ما عليه»⁷⁵.

* ولأنه مال مملوك يجوز التصرف فيه؛ فوجبت زكاته لما مضى؛ كالدين على المليء⁷⁶.

* أما ما تلف منه فهو ضمّار وقد سلف أنه لا زكاة في المال الضمّار عندهم.

الحال الثانية: إذا كان الدين محدوداً وللدائن بينة:

1- **فقال بعض الحنفية والحنابلة:** لا تجب فيه الزكاة كالمال الضمّار، لأن البينة قد تقبل وقد لا تقبل.

2- **وقال الشافعية وبعض الحنفية:** تجب فيه الزكاة؛ لإمكان الوصول إليه⁷⁷.

[ج]: وإما أن يكون على معسر: وفيه روايتان:

1- **قال الحنفية والشافعية في رواية وكذا الحنابلة:** لا يزكيه حتى يحلّ أجله ويقبضه؛ فيزكّيه على الأعوام الماضية⁷⁸.

2- **وقال الشافعية في الرواية الثانية والحنابلة بعدم زكاته**⁷⁹.

ففي المذهبين روايتان: رواية بوجوبها عند القبض على ما مضى، ورواية بعدم وجوبها.

[2]: الدين المؤجل: وفيه نفس التفصيل الموجود في الدين الحال على المعسر عند الشافعية والحنابلة⁸⁰.

المذهب الثالث: مذهب المالكية: وإنما خصصتهم بالذكر؛ لأن المذاهب الثلاثة في تفصيلها تقترب موضوعياً من بعض، بيد أن للمالكية تفصيلاً يختلف عنهم.

فالدّين عند المالكية نوعان: ما كان أصله عن عوض كالقرض ودين البيع، وما كان أصله عن غير عوض، كميراث بيد الوصي، أو هبة بيد واهبها، أو أرش جنابة بيد جانيه، أو مهر بيد الزوج، ولكل من هذين النوعين حكمه⁸¹.

الفرع الأول: حكم الدين الذي أصله عن غير عوض: هذا الدين لا زكاة فيه على الدائن حتى يقبضه ويحول عليه حول من قبضه⁸².

الفرع الثاني: حكم الدين الذي أصله عن عوض: هذا الدين قد يكون أصله قرضاً وقد يكون أصله ثمن عرض تجارة، أو ثمن عرض قنية، وعرض التجارة قد يكون بائعه محتكراً وقد يكون مديراً⁸³؛ ولكل حكمه:

1- **الدين الذي أصله ثمن عرض قنية:** لا زكاة فيه إلا بعد حول من قبضه، مثل الدين الذي أصله عن

غير عوض⁸⁴.

2- **الدين الذي أصله ثمن عرض تجارة لمدير:**

هذا الدين يزكي زكاة عروض التجارة، فيزكي عينه ودينه إذا كان نقداً حالاً ومرجواً، فإن لم يكن نقداً حالاً، بأن كان عرضاً، أو نقداً مؤجلاً مرجوئاً، فوّم بما يباع به على المفلس، فإن كان الدين عرضاً فوّم بنقد لو بيع حالاً.

وإن كان نقداً فوّم بعرض ثم هذا العرض بنقد لو بيع معجلاً؛ وهذا حتى تعرف قيمة المؤجل لو كان معجلاً؛ لما في المؤجل من زيادة.

– وهو ما يعرف بتنقيض المال، وتزكي القيمة. وهذا تفقّه بديع منهم.

وأما إذا كان الدين غير مرجوئاً، بأن كان على معدّم أو ظالم، فلا يقوّمه صاحبه ليزكيه حتى يقبضه، فإن قبضه زكاه لعام واحد⁸⁵.

3- **الدين الذي أصله قرض أو عرض تجارة لمحتكر:**

يزكي هذا الدين بعد قبضه لسنة واحدة فقط؛ وإن أقام عند المدين أعواماً، وتعتبر السنة من يوم ملك أصله أو من يوم زكاه إن سبقت زكاته، لكن إن أخر الدين فراراً من الزكاة؛ زكاه لكل عام مضى عند ابن القاسم، وعومل بنقيض قصده الفاسد⁸⁶.

قال مالك في موطنه: «الأمر الذي لا اختلاف فيه عندنا في الدين أن صاحبه لا يزكيه حتى يقبضه، وإن أقام عند الذي هو عليه سنين ذوات عدد، ثم قبضه صاحبه لم تجب عليه إلا زكاة واحدة»⁸⁷. وله شروط أربعة⁸⁸:

(1)- أن يكون أصله عينا بيده فيسلفها، أو عروض تجارة يبيعها المحتكر لأجل حتى يخرج ما إذا كان أصله عن غير عوض أو باع عرض القنية.

(2)- أن يقبضه من المدين، فإن لم يقبض فلا زكاة عليه.

(3)- أن يقبض عينا ذهباً أو فضة، أما إن قبضه عرضاً فلا زكاة حتى يبيعه.

(4)- أن يقبض نصاباً كاملاً ولو في مرات، كأن يقبض منه عشرة ثم عشرة فيزكيه عند قبض ما به التمام، أو يقبض بعض نصاب وعنده ما يكمل النصاب؛ فإن قبض نصاباً زكى المقبوض بعد ذلك ولو قلّ حال قبضه.

وأما مدرّكهم فبيّنه الباجي بقوله: «فلو أوجبنا عليه فيه الزكاة في كل عام وهو بيد غيره، نماؤه له؛ لأدى ذلك إلى أن تستهلكه الزكاة؛ ولهذا الوجه أبطلنا الزكاة في أموال القنية؛ لأننا لو أوجبنا فيها الزكاة لاستهلكتها، والزكاة إنما هي على سبيل الموساة في الأموال التي تمكن تنميئها، فلا تُفنيها الزكاة في الأغلب»⁸⁹.

الرأي المختار:

سلف من القول أن هذه العقود قصَدَ الشرع إلى تكثيرها وانتشارها دعماً للمواساة بين الخلق؛ حتى يعيش الجميع في تكافل وتساند وتعاون، فكان من وسائل الشرع في ذلك التخفيف والتيسير فيها أكثر من غيرها؛ تيسيراً قد لا يُلحظ نظيره في المعاملات⁹¹. فهذا السنن التشريعي كان منطلق البحث ومُدرّكه في الترجيح والاختيار.

ومما ينبغي ألا يغفل أن غالب الديون والقروض موساة، بيد أن ذلك لا يطرُد؛ فبعضها ربحي كما هو الحال في بيوع الآجال، وهو ما كان ملحظاً للمالكية في تفريقهم بين ديون التجارة وغيرها. فإذا تمهد هذا تبين لنا ما يأتي:

1-: للدين أثر في إسقاط الزكاة عن المدين؛ فالدين المستغرق للنصاب أو المنقص له؛ مانعاً من وجوب الزكاة في قدر الدين؛ بشروط سلفت؛ ذلك أن هذا الرأي هو الذي ينسجم ويتسق مع منطق التشريع في باب الزكاة؛ ولهذا قال ابن رشد: «والأشبه بغرض الشرع إسقاط الزكاة عن المدين»؛ لقوله عليه السلام فيها: «صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم»⁹²، والمدين ليس بغني⁹³. ولكن بشروط فصّلت في تصاريف البحث.

2-: وأما أثر الدين في إسقاط الزكاة عن الدائن؛ ففيه تفصيل وتفریق بين دين التجارة وغيرها؛ إذ المراد بالقرض الإحسان، أما دين التجارة فإنما يؤجل غالباً لما فيه من ربح زائد عن المعجل؛ فمذا ينبغي لحظه ليتواءم منطق الترجيح مع مقصد الشرع في هذا الباب؛ وعلى هذا:

-: كان الدين مسقطاً للزكاة عن الدائن في دين الموساة والإعانة فلا يزكى إلا لعام واحد بعد قبضه؛ فليس يستقيم أن يقصد الشرع الإكثار منها، ثم تُفرض فيها الزكاة لكل عام؛ إذن لا يتعدّ الكثير عن الإقراض؛ أن كانت مستهلكة للأموال لا جرم ما طالت مدته.

وأما دين التجارة؛ فلا تسقطها الزكاة؛ إذ ليس يخفى ما للأجل فيها من قيمة مالية يتقاضاها العدل ألا تُغفله بحال. ومما ينبغي لحظه في دين الموساة ألا يطلق القول في إعفائه الدائن من الزكاة؛ إلا حال استمرار الحاجة؛ فربما حلّ أجل سداد الدين والمدين مليء، فقد يتركها البعض مجاملة أو فراراً من الزكاة أو توكداً؛ فليست هذه الحال مما تستوجب إعفاء الدائن من الزكاة بل تجب؛ إذ أنه بمثابة الوديعة، ولا معنى لإسقاط الزكاة فيه.

كل هذه التوجيهات كان منطلقها الحفاظ على وحدة التشريع واتساق منطقها ومقاصد الشرع في بابها؛ كما تدل عليه نصوص الكتاب والسنة، دون إهمال لحق من الحقوق، والله أعلم.

بعد عرض الآراء ومدارك أهلها مع ما لهم في ذلك من تفرعات وكثرة أقوال، فإن الذي يلوح لي -والعلم عند الله- ترجيح قول قريب جداً من رأي المالكية؛ إذ ما ذهبوا إليه يتساق مع مقصود الشرع، وهو الأشبه بغرض الشرع، فقد فرّقوا ما بين القرض ودين التجارة وغيرها؛ إذ المراد بالقرض الإحسان، أما دين التجارة فإنما يؤجل غالباً لما فيه من ربح زائد عن المعجل. ولقد أبدعوا في كيفية حساب المؤجل وزكاته -تتضيضه-؛ فالمعجل والمؤجل لا يستويان؛ إذ ليس يخفى ما للأجل من قيمة مالية تتقاضاها العدالة التشريعية ألا نهملها بحال، ذلك هو الهدي الذي اختطه المشرع كما يتبدى لنا من سنن التشريع. غير أن ثمة تفصيلاً في الترجيح يخالف مذهب المالكية:

* أطلقوا القول في إعفاء صاحب القرض من الزكاة إلا لعام واحد؛ بيد أن الذي يظهر لي -والعلم عند الله- أن قولهم يتوجّه في حال كون القرض مطلقاً عن التأقيت، أو مؤجلاً لم يحلّ بعد؛ فليس يخفى وجهة قولهم هذا الذي يتواءم ومقاصد التشريع في الإكثار من عقود التبرعات التي غرضها الإحسان والمواساة وهي مصلحة حاجية جليلة⁹⁰.

فليس يستقيم أن يكون القصد الإكثار منها، ثم تُفرض فيها الزكاة لكل عام؛ إذن تُفني الأموال وتستهلكها، وتبعد الكثير عن الإقراض، لا جرم ما طالت مدته.

إلا أنه قد يحلّ وقت سداد القرض، والمقترض مليء ساعته، به غناء عن ذلك المال، وقد يتركه بعضهم حياءً ومجاملةً، ويفعلها آخر فراراً من الزكاة، فالذي يتسق ومنطق التشريع وسننه؛ ألا يعفى المقرض في هذه الحال من زكاة المال الذي عند صاحبه لما يمر من السنين بعد حلول الأجل والمقترض مليئاً؛ فهو بمثابة الوديعة، وقد انتفى مناط إسقاط الزكاة عنه، والحكم يقف على وجوده وعدمه.

أما إن كان معسراً أو جاحداً؛ فيبقى على حكم الأصل من زكاته لعام واحد إذا قبضه، والله أعلم.

الخاتمة:

تتنوع طبيعة المعاملات والعقود وحقيقتها بحسب نوعها؛ فعقود المعاوضات مثلاً مبناهما المماكسة والتشاح، وعقود الموساة والتبرعات مبناهما المسامحة والإحسان؛ ومما هو معلوم أن تلك العقود يختلف مقصد الشرع فيها باختلاف حقيقتها؛ وهذا ما يستوجب لحظه عند تقرير الأحكام الشرعية؛ ليأمن المجتهد الغلط، ويبقى منطق الشرع متسقاً متمكلاً تشريعاً واجتهاداً؛ يصدر من مشكاة واحدة. وغير خاف أن الديون من عقود التبرعات؛ وقد

الهوامش:

- 1- ينظر: ابن القيم، إعلام الموقعين: (69/2).
- 2- ابن عاشور، مفاصد الشريعة: (ص/487).
- 3- ابن منظور، لسان العرب، والفيومي المصباح المنير: مادة دين.
- 4- ابن الهمام، فتح القدير: (471/5) وفي معناه: ابن عابدين، الرد المحتار: (157/5).
- 5- الشريبي، مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج: (117/2)، وفي معناه: البهوتي، كشف القناع عن متن الإقناع: (312/3).
- 6- الشريبي، مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج: (117/2)، وفي معناه: البهوتي، كشف القناع عن متن الإقناع: (312/3).
- 7- ينظر: شبيب، زكاة الديون: (307-306/1) ضمن كتاب بحوث فقهية في قضايا الزكاة المعاصرة.
- 8- ينظر في معناه: السعدي، النتف في الفتاوى: (172/1).
- 9- ينظر: ابن رشد، المقدمات الممهدات: (ص/229).
- 10- ينظر في معناه: أبو سليمان، زكاة الديون: (ص/03)، والضري، زكاة الديون: (ص/228-229).
- 11- الزركشي، المنتور في القواعد: (158/2)، ابن عابدين: رد المحتار على الدر المختار: (645/6).
- 12- ولعله من التعريف بالتقسيم والمثال.
- 13- ينظر: ابن قدامة، المغني: (38/3)، ابن حزم، المحلى: (102/6)، والرافعي، الشرح الكبير: (547/2).
- 14- النووي، المجموع: (309/5).
- 15- الماوردي، الأحكام السلطانية: (128/1).
- 16- الرملي، نهاية المحتاج: (349-348/5) وفي معناه: سحنون، المدونة الكبرى: (326/1).
- 17- الرملي، نهاية المحتاج: (132/2)، والبهوتي، شرح منتهى الإرادات: (369/1).
- 18- ابن المفلح، الفروع: (232-231/2)، والبهوتي، كشف القناع عن متن الإقناع: (176-175/2).
- 19- مالك في «الموطأ»: رقم: 593، كتاب: الزكاة، باب الزكاة في الدين، (253/1).
- 20- ينظر: ابن قدامة، المغني: (41/3).
- 21- ذكره البيهقي في معرفة السنن والآثار: (18/7)، وابن الجوزي في التحقيق في أحاديث الخلاف: (47/2).
- 22- ابن قدامة، المغني: (41/3).
- 23- البخاري في الصحيح رقم: 1425، كتاب الزكاة باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا: (544/2).
- 24- ذكره البخاري في صحيحه تعليقا: في كتاب الوصايا: (299/2)، وأخرجه أحمد في المسند: (385/15).
- 25- البهوتي، شرح منتهى الإرادات: (367/1).
- 26- الرملي، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج: (132/2).
- 27- النووي، المجموع: (346/5).
- 28- نفس المرجع: (346/5).
- 29- البهوتي، شرح منتهى الإرادات: (369/1).
- 30- النووي، المجموع شرح المذهب: (344/5)، والرملي، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج: (132/3).
- 31- ابن حزم، المحلى: (102-101/5).
- 32- المرادوي، الإنصاف: (24/3).
- 33- الرملي، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج: (132/3).
- 34- ابن حزم، المحلى: (102-101/5).
- 35- ابن حزم، المحلى: (102-101/5)، والماوردي، الحاوي: (1243/2).
- 36- ابن حزم، المحلى: (102/6).
- 37- المرجع السابق: (102/6).
- 38- أبو سليمان، زكاة الديون.
- 39- الحصكفي، الدر المختار في شرح تنوير الأبصار: (6/2)، وعليش، منح الجليل شرح مختصر خليل: (71/2 وما بعدها).
- وإبن قدامة، المغني: (43/3)، إلا أن المالكية والحنفية اختلفوا في تفاصيل قوليهما على ما سيأتي قريباً.
- 40- نفس المراجع السابقة.
- 41- المرغيناني، الهداية: (96/1)، الكساني، البدائع: (6/2)، وشيخ زاده، مجمع الأنهر: (193/1).
- 42- الكساني، البدائع: (6/2).
- 43- خليل، مختصر خليل: (62/1).
- 44- الزرقاني، شرح مختصر خليل: (165-164/2).
- 45- ينظر: الدسوقي، حاشيته على الشرح الكبير: (481/1)، الباجي، المنتقى: (117/2).
- 46- القرافي، الذخيرة: (43/3)، وابن قدامة، المغني: (42/3).
- 47- ينظر: سحنون، المدونة: (326/1)، كفاية الطالب الرباني: (609/1)، والدسوقي، حاشيته على الشرح الكبير: (481/1)، الباجي، المنتقى: (117/2).
- 48- ينظر: الصاوي، حاشية الشرح الصغير على أقرب المسالك: (587/1).
- 49- زروق، شرح زروق: (327/1).
- 50- القرافي، الذخيرة: (43/3).
- 51- وهو قريب إلى ما ذهب إليه جمع من العلماء المعاصرين كرفيق المصري، وجاء في توصيات الندوة الأولى لقضايا الزكاة المعاصرة.
- 52- سبق تخريجه.
- 53- ابن رشد، بداية المجتهد: (370/1).
- 54- الباجي، المنتقى شرح موطأ مالك: (117/2)، والآبي، جواهر الاكليل: (135/1).
- 55- ابن الهمام، فتح القدير: (173/2)، الآبي، جواهر الإكليل: (134/1)، الكلوزاني: الانتصار: (257/3).

- 56-الزليعي، تبيين الحقائق: (254/1)، ابن الهمام، فتح القدير: (173/2)، وعليش، منح الجليل: (71/2)، المنوفي، كفاية الطالب الرباني: (608/1).
- 57-عليش، منح الجليل: (71/2).
- 58-ينظر قريب منه: سليم آل ثاني، زكاة الديون: (ص/111).
- 59-رفيق المصري، زكاة الديون: (ص/243).
- 60-ابن الهمام، فتح القدير: (171/2)، عليش، منح الجليل: (72/2)، الشرح الكبير: (603/1)، ابن مفلح، المبدع: (299/2)، المرادوي، الإنصاف: (26/3).
- 61-المرادوي، الإنصاف: (26/3)، والمغني: (41/3).
- 62-ينظر في معناه: سليم آل ثاني، زكاة الديون: (ص/111).
- 63-ينظر: الباجي، المنتقى: (118/1)، والمنوفي، كفاية الطالب الرباني: (609/1) وابن رشد، بداية المجتهد: (417/1)، والمرادوي، الإنصاف: (24/3).
- 64-ابو عبيد، الأموال: (ص/598).
- 65-الأموال لأبي عبيد: (ص/430 و 433)، وابن حزم، المحلى: (133/6)، وابن قدامة، المغني: (46/3).
- 66-ابن حزم، المحلى: (133/6)، وابن قدامة، المغني: (46/3).
- 67-ابن رشد، بداية المجتهد: (245/1).
- 68-ابن قدامة، المغني: (46/3).
- 69-السمرقندي، تحفة الفقهاء: (460/1)، والكساني، بدائع الصنائع: (88/2)، الشيرازي، المهذب: (158/1)، والرمل، نهاية المحتاج: (130/3)، المرادوي، الإنصاف: (18/3)، وابن قدامة، المغني: (46/3). وفي القديم لا زكاة في الدين لعدم الملك فيه حقيقة؛ كما أفاد الشريبي في مغني المحتاج: (125/2).
- 70-السمرقندي، تحفة الفقهاء: (432-434)، وابن الهمام، فتح القدير: (510/1، 511)، الشيرازي، المهذب: (158/1).
- 71-عرف الكساني المال الضمار قائلا: «هو كل مال غير مقنن الانتفاع به مع قيام أصل الملك... كالمال المفقود والدين الموجود إذا لم يكن للمالك بيئة»، بدائع الصنائع: (88/2) وقال ابن كثير: «المال الضمار: الغائب الذي لا يرجى وإذا رجي فليس بضمار من أضمرت الشيء إذا غيبت» النهاية في غريب الأثر: (210/3).
- 72-قال الزليعي: «غريب، وأخرج أبو عبيد... في كتاب الأموال في باب الصدقة- "... عن الحسن البصري رضي الله عنه قال: «إذا حضر الوقت الذي يؤدي فيه الرجل زكاته أدى عن كل مال وعن كل دين إلا ما كان منه ضمرا لا يرجوه انتهى»: نصب الراية: (234/2).
- 73-المرغيني، الهداية: (490/1).
- 74-ابن الهمام، فتح القدير: (510/1، 511)، قال المرادوي: «...وهو الصحيح من المذهب ... وصححه ابن عقيل، وأبو الخطاب، وابن الجوزي، والمجد في شرحه» الإنصاف: (21/3)، والبهوتي، كشف القناع: (172/2).
- 75-ابو عبيد، الأموال: (ص/432).
- 76-ابن قدامة، المغني: (47-46/3).
- 77-الشريبي، مغني المحتاج: (125/2).
- 78-الشيرازي، المهذب: (158/1)، والرمل، نهاية المحتاج: (128/3 وما بعدها)، ابن قدامة، المغني: (47-46/3)، والمقنع: (292/1).
- 79-الشيرازي، المهذب: (158/1)، والرمل، نهاية المحتاج: (128/3 وما بعدها)، ابن قدامة، المغني: (47-46/3)، والمقنع: (292/1).
- 80-الشيرازي، المهذب: (158/1)، والرمل، نهاية المحتاج: (130/3)، ابن قدامة، المغني: (47-46/3)، وقريب منه: البهوتي، كشف القناع: (172/2).
- 81-ينظر: ابن رشد، بداية المجتهد: (370/1).
- 82-ينظر: الدردير، الشرح الكبير: (469/1).
- 83-المحتكر هو الذي ينتظر بالسلعة سوقها وفرصتها المناسبة، وقسيمه المدير وهو الذي يعرض تجارته للبيع في محل دوريا كحال أكثر التجار. الشرح الكبير مع الدسوقي: (474/1).
- 84-ينظر: الدردير، الشرح الكبير: (469/1).
- 85-الشرح الكبير مع حاشية الدسوقي: (474/1).
- 86-الدردير، الشرح الصغير: (634-633/1).
- 87-الباجي، المنتقى: (115/2).
- 88-ينظر تفصيل الشروط، عند الدردير، الشرح الصغير: (634-633/1).
- 89-الباجي، المنتقى: (115/2).
- 90-ذكر ابن عاشور في مقاصد الشريعة مبحثا جليلا في مقاصد التشريع من عقود التبرعات ونوه بهذا المقصد أعني قصد المشرع إلى الإكثار منها، ينظر: مقاصد الشريعة: (ص/488).
- 91-ابن عاشور، مقاصد الشريعة: (ص/487).
- 92-ابن رشد، بداية المجتهد: (370/1).
- 93-ابن رشد، بداية المجتهد: (370/1).

أسرى الحرب في معتقل غوانتانامو

ورنيقي شريف

قسم الحقوق جامعة غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000، الجزائر

مقدمة:

عقب الهجمات الإرهابية التي تعرضت لها الولايات المتحدة الأمريكية في 11 سبتمبر 2001، والتي راح ضحيتها حوالي 3 آلاف قتيل أشار الرئيس الأمريكي بوش بأصابع الاتهام إلى تنظيم القاعدة الذي تزعمه أسامة بن لادن، وطلبت الوهم من حكومة طالبان الأفغانية تسليم بن لادن لمحاكمته وبرفضها لذلك لعدم وجود أدلة تثبت ارتكاب القاعدة لهذا العمل الإرهابي قامت في أكتوبر من عام 2001 بشن الحرب على أفغانستان وسمتها بالحرب على الإرهاب، ودعت الدول إلى مساندتها في حربها وقسمتها إلى دول مساندة لأمريكا وأخرى مساندة للإرهاب فأنجرت إليها العديد من الدول وقد استطاعت مع حلفائها إزاحة حكومة طالبان عن السلطة واحتلال أفغانستان. أثناء هذه الحرب اعتقلت الوهم الكثير من مقاتلي طالبان وتنظيم القاعدة حيث بلغ عددهم حسب تقرير وزارة الدفاع الأمريكية 779 أسير، تم نقلهم إلى خليج غوانتانامو وقد تقلص هذا العدد إذ يصل حالياً حوالي 171 ولم تعترف الولايات بالمعتقلين كأسرى حرب تنطبق عليهم أحكام اتفاقية جنيف الثالثة والبروتوكول الإضافي الأول وإنما وصفتهم بالمقاتلين الأعداء و المقاتلين غير شرعيين¹ وأدأقتهم أبشع صور العذاب والإذلال ضاربة بذلك اتفاقيات القانون الدولي الإنساني و المبادئ الدولية لحقوق الإنسان بعرض الحائط، وبذلك فإن قضية الأسرى في معتقل غوانتانامو أصبحت محط اهتمام العديد من المنظمات وجمعيات حقوق الإنسان. ويرجع سبب اختياري لهذا الموضوع إلى المعانات التي يعيشها الأسرى داخل هذا المعتقل حيث لم يُعترف لهم بأبسط حقوقهم من طرف دولة لطالما ادعت بأنها من دعاة الحرية وحماية حقوق الإنسان فقضية الأسرى في عصرنا تشكل وخزا للضمير الإنساني من خلال الوحشية التي يعاملون بها دون وازع أو رادع.

ويهدف هذا البحث إلى :

- تحديد مفهوم الأسير و إظهار الحماية القانونية التي يوفرها له القانون الدولي الإنساني ابتداء من لحظة الوقوع في الأسر إلى غاية إطلاق سراحه.

تسليط الضوء على الانتهاكات التي يتعرض لها الأسرى داخل هذا المعتقل.

- تحديد المسؤولية الناتجة عن هذه الانتهاكات.

- إثبات أن القانون الدولي الإنساني هو قانون بمعنى الكلمة، ولا يجوز التشكيك في مشروعيته بافتقاره لعنصر الجزاء الذي هو في حقيقة الأمر متوفر سواء من خلال الاختصاص القضائي العالمي بما يخوله من دور بارز للقضاء الوطني أو من خلال القضاء الجنائي المؤقت أو الدائم بإنشاء المحكمة الجنائية الدولية الدائمة. والإشكالية التي أطرحتها هي : ما مدى تمتع الأسرى بمعتقل غوانتانامو بالحماية الواجبة لهم ضمن قواعد القانون الدولي الإنساني؟

وللإجابة على هذه الإشكالية اعتمدت على المنهج التحليلي من أجل تحليل النصوص القانونية لحماية الأسير وعلى المنهج الوصفي لإظهار المعاملة التي يتعرض لها الأسرى داخل هذا المعتقل و إعطائها الوصف الصحيح الذي يمكننا من تصنيفها كجرائم الحرب واعتمدت على الخطة التالية :

المبحث الأول : مفهوم الأسير ومضمون حمايته في القانون الدولي الإنساني

المطلب الأول : مفهوم الأسير

الفرع الأول : المقصود بالأسير

الفرع الثاني : فئات الأسرى

المطلب الثاني: الحماية المقررة للأسير ضمن قواعد القانون الدولي الإنساني

الفرع الأول: الحماية العامة لأسرى الحرب

الفرع الثاني : حماية الأسرى عند ابتداء الأسر

الفرع الثالث : حماية الأسرى أثناء فترة الأسر

الفرع الرابع : حماية الأسرى في مرحلة انتهاء الأسر

المبحث الثاني : واقع الأسرى في معتقل غوانتانامو وترتيب المسؤولية الدولية

المطلب الأول : واقع الأسرى في معتقل غوانتانامو

الفرع الأول: عدم اعتراف الولايات بصفة أسرى الحرب لمعتقلي غوانتانامو

الفرع الثاني : صور الانتهاكات التي يتعرض لها

ثانياً: تميزهم عن بعض المفاهيم يتشابه الأسير مع بعض الفئات في تقييد الحرية كالمعتقل والسجين إلا أنه يختلف عنهم فيما يلي: 1 - **المعتقل**: هو شخص مقيد الحرية في مكان ما بموجب قرار تقديري من سلطة مخولة باحتجاز الأشخاص كإجراء وقائي تقوم به إدارة الأمن أي لا يستند على حكم قضائي، ويسري هذا النظام على المدنيين.

2- **السجين**: مصطلح السجن أو الحبس يدل كل منهما على عقوبة صادرة من المحكمة جراء جناحة أو جنابة ارتكبتها الشخص المحبوس أو السجين. 3 - **الاحتجاز**: يعني منع شخص أو قوات من مغادرة إقليم دولة أو منطقة محددة خلال فترة زمنية محددة فهذا المصطلح يشمل الأشخاص المدنيين أو العسكريين وذلك بسلب حريتهم لسبب لا يتصل بصور حكم بالإدانة .

الفرع الثاني: فئات الأسرى على ضوء اتفاقية جنيف الثالثة لعام 1949 وبرتوكولها الإضافي الأول لعام 1977 ينقسم المقاتلون الذين يتمتعون بمركز أسير الحرب إلى مجموعتين: مقاتلين نظميين و مقاتلين غير نظاميين.

أولاً: المقاتلون النظاميون :

يقصد بهم العسكريون المقاتلون من أفراد القوات المسلحة التابعة لأحد أطراف النزاع المسلح. يحق لهم ممارسة القتال بكل الوسائل المشروعة ضد القوات المعادية، أي ما يقومون به لا يعتبر جرمًا يستحق الحرمان من حقوقهم كأسرى حرب إذا وقعوا في قبضة العدو و تضم هذه الفئة أفراد القوات المسلحة النظامية والأفراد المصاحبون لهم .

ثانياً: المقاتلون غير النظاميون : تطرقت اتفاقيات القانون الدولي الإنساني إلى هاته الفئة من المقاتلين، ويندرجون ضمن ثلاث فئات رئيسية وهي المتطوعين المدنيين وأفراد المقاومة الشعبية المنظمة وأفراد الهبة الجماهيرية (مقاتلو الانتفاضة الشعبية المسلحة) ومقاتلو حركات التحرر.

المطلب الثاني: الحماية المقررة للأسير ضمن قواعد القانون الدولي الإنساني الأسر ليس بالعقوبة أو الانتقام، وإنما هو إجراء وقائي يتخذ في مواجهة خصم مجرد من السلاح لمنعه من مواصلة القتال وتجنباً للمخاطر التي يمكن أن يحدثها لو بقي طليقاً، وقد نصت اتفاقية جنيف الثالثة لعام 1949 على مجموعة من الحقوق والضمانات القضائية الواجب توفيرها للأسير على عاتق الدولة الحائزة وذلك منذ لحظة وقوعه في الأسر إلى غاية الإفراج عنه وعودته إلى وطنه، وقد جاء في المادة 13 منها على وجوب حماية الأسير في جميع الأوقات ولا يجوز للأسير أن يتنازل بأي حال من الأحوال جزئياً أو كلياً عن الحقوق الممنوحة له . ومن أجل إظهار هذه الحماية فإنني أتطرق في الفرع الأول

الأسرى في معتقل غوانتانامو

المطلب الثاني : المسؤولية الدولية عن انتهاكات حقوق الأسرى في معتقل غوانتانامو

الفرع الأول: المسؤولية الدولية المدنية للدولة

الفرع الثاني : المسؤولية الدولية الجنائية للفرد

المبحث الأول: مفهوم الأسير ومضمون حمايته في القانون الدولي الإنساني إن موضوع أسرى الحرب من الموضوعات القديمة في التعامل الدولي، وقد حظي باهتمام بالغ ضمن قواعد القانون الدولي الإنساني والتي بموجبها أصبح يتمتع بحماية قانونية متميزة، ويجمع الفقه الدولي أن هذه الفئة من ضحايا النزاعات المسلحة قد حُصت بالعناية اللازمة والشاملة ضمن اتفاقية جنيف الثالثة لعام 1949. وحتى أصل إلى إبراز قواعد هذه الحماية فإنني قسّمت هذا المبحث إلى مطلبين تضمن الأول مفهوم الأسير و الثاني حمايته الواجبة ضمن قواعد القانون الدولي الإنساني.

المطلب الأول : مفهوم الأسير

يختلف مفهوم الأسير عن العديد من المفاهيم فلا يعتبر معتقلاً ولا سجيناً، كما أنه ليس لكل مقاتل في ساحة المعركة الحق في المركز القانوني لأسير الحرب إذا ما وقع في قبضة العدو، ففئات الأسرى محددة وفقاً لقواعد القانون الدولي الإنساني وبذلك فإنني أتطرق في الفرع الأول إلى تحديد المقصود بالأسير ثم إلى فئات الأسرى في الفرع الثاني.

الفرع الأول: المقصود بالأسير يتم تحديد الأسير وتمييزه عن بعض المفاهيم فيما يلي : **أولاً: تعريف أسرى الحرب:** هي لفظة عربية يقابلها باللغة الفرنسية prisonnier، و بالإنجليزية prisoner تعني من حيث:

1 - اللغة : جاء في لسان العرب لأبن منظور : أسر - يأسره - أسراً - شده بالإسار. و الإسار : القيد الذي يؤسر به ومنه الحبل الذي يشد به الكتف، ومنه سمي الأسير فكانوا يشدونه بالقيد فسمي كل أخيد أسير وإن لم يشد به، و الجمع أسرى و أسارى، و الأسير: الأخيد كل محبوس في قد أو سجن².

2- الاصطلاح الشرعي : عرّف الماوردي الأسرى بأنهم (المقاتلون من الكفار إذا ظفر المسلمون بهم أحياء)³.

3- الاصطلاح القانوني : إن المتأمل في الصكوك الدولية المتعلقة بأسرى الحرب يجد أنها لم تتطرق إلى تعريف مصطلح الأسير فتعاقية جنيف الثالثة لعام 1949 اكتفت في المادة 4 بتحديد الفئات التي ينطبق عليها وصف الأسير. وعرّف الدكتور عمر سعد الله الأسرى بأنهم (أفراد القوات المسلحة الذين يقعون في قبضة العدو، فيجري احتجازهم لمنعهم من العودة للاشتراك في أعمال القتال)⁴. وعليه فإن الأسر ليس بالعقوبة وإنما وسيلة لمنع من وضع فيه من العودة إلى القتال.

الفيزيولوجية، للقيام بالعمل الذي يؤذونه⁹، وللأسير أيضا الحق في ما يكفيه من الكساء . **رابعاً: الحق في المساواة بين الأسرى** طبقاً للمادة 16 من اتفاقية جنيف الثالثة يجب المساواة بين جميع الأسرى في الحقوق والواجبات بغض النظر عن أي تمييز بينهم إلا أن هنالك استثناءات حول ذلك وهذا من خلال منح معاملة أفضل لذوي الرتب العسكرية و عزل النساء عن الرجال ومنحهن معاملة خاصة وضمان معاملة أفضل لمن تتطلب حالته الصحية ذلك أو لعامل السن. **الفرع الثاني : حماية الأسرى عند ابتداء الأسر** بمجرد وقوع المقاتل - الذي له الحق في التمتع بمركز أسير الحرب - في قبضة العدو يطلق عليه وصف أسير حرب وتثبت له الحقوق و الضمانات الواردة ضمن اتفاقية جنيف الثالثة والبروتوكول الإضافي الأول منها ما تعلق ببداية الأسر والتي جاء ذكرها في القسم الأول من الباب الثالث لاتفاقية جنيف الثالثة لعام 1949 وتتمثل فيمالي: **أولاً: إجلاء الأسرى من مناطق القتال** للأسير حق إبعاده من مناطق القتال إلى مناطق آمنة دون إبطاء ومن غير تعريضه للخطر، وذلك طبقاً لما جاء في المادتين 19 و 20 من اتفاقية جنيف الثالثة .

ثانياً : إحتفاظ الأسرى بحاجياتهم الشخصية للأسرى الحق في الإحتفاظ بخوذاتهم المعدنية والأقنعة الواقية من الغازات و بجميع الأشياء والأدوات ذات الاستعمال الشخصي أو القيمة العاطفية و بالشارة الدالة على رتبهم وجنسياتهم أو نياشينهم ولا تسحب منهم إلا لضرورة فقط على أن ترد إليهم بزوال هذه الضرورة¹⁰. **ثالثاً : حقوق الأسرى أثناء الاستجواب** يتم نقل الأسرى إلى مراكز خاصة لاستجوابهم، وحمايتهم خلال هذه الفترة تعد ضرورة ملحة تطرقت إليها المادة 5 من اتفاقية جنيف لعام 1929، والمادة 17 من اتفاقية جنيف الثالثة التي جاء فيها على الأسير أيا كانت رتبته الإجابة عن أسئلة محددة أثناء استجوابه والمتمثلة في اسمه الكامل، رتبته العسكرية، تاريخ ميلاده ورقمه بالفرقة ورقمه الشخصي أو المتسلسل أما غيرها من الأسئلة فله حق عدم الإجابة عنها.

الفرع الثالث: حماية الأسرى أثناء فترة الأسر بمجرد وصول الأسير إلى معسكر الأسر (الدائم) تثبت له مجموعة من الحقوق التي تتمثل فيما يلي : **أولاً: الحق في معسكر آمن وملائم صحياً** على الدول الأسيرة أن تضع الأسرى في معسكرات خاصة ودائمة وأن تتوفر فيها ظروف ملائمة مماثلة

إلى الحماية العامة للأسرى وهي عبارة عن مبادئ عامة للحماية وفي الفرع الثاني إلى حماية الأسرى عند بداية الأسر وفي الفرع الثالث إلى حمايتهم أثناء فترة الأسر وأنكلم في الفرع الرابع عن ما تعلق منها بنهاية الأسر.

الفرع الأول : الحماية العامة للأسرى الحرب نصت اتفاقية جنيف الثالثة لعام 1949 في الباب الثاني منها على جملة من الأحكام تدرج تحت عنوان الحماية العامة للأسرى الحرب والتي تعد بمثابة مبادئ عامة لحماية هذه الفئة وعلى الدولة الأسيرة

الالتزام بها في كل مراحل تواجد الأسير لديها إلى غاية إطلاق سراحه وعودته إلى وطنه وتتمثل فيمالي : **أولاً: الحق في الحياة والسلامة الجسدية** الحق في الحياة وفي سلامة الإنسان في جسده من أقدس الحقوق على الإطلاق فهو الركيزة الأولى التي تعتمد عليها قواعد حماية هذه الفئة فلا يجوز أن يقتل إلا المقاتل القادر على القتال وقد تبنى هذا المبدأ النظام الملحق باتفاقية لاهاي الرابعة لعام 1907 في المادة 23 منه، كما تؤكد هذا الأمر في اتفاقية جنيف لعام 1929 التي حثت على الحفاظ وحماية حياة الأسير من كل خطر⁶. وطبقاً للمادة 130 من اتفاقية جنيف الثالثة فإن جريمة القتل من الانتهاكات الجسيمة لهذه الاتفاقية والتي تعد جريمة حرب .

ثانياً: حماية عرض وشرف الأسير يعتبر المساس بالعرض والشرف من الظواهر الاجتماعية المدانة والمحزنة في مختلف الشرائع وفي وقتي السلم و النزاعات المسلحة، وسعيًا لحماية الأسير في ذلك نصت الفقرة الثانية من المادة 13 من اتفاقية جنيف الثالثة على ضرورة حماية الأسرى في جميع الأوقات خاصة حمايتهم من جميع أعمال العنف أو التهديد أو السباب وفضول الجماهير أما النساء الأسيرات فوفقاً للفقرة الثانية من المادة 14 من اتفاقية جنيف يجب معاملتهن بما يليق بجنسهن. **ثالثاً: الحق في الطعام واللباس والرعاية الطبية** تقضي المادة 15 من اتفاقية جنيف الثالثة بضرورة تكفل الدولة الحاجزة بالأسرى وإعاشتهم دون مقابل وبتقديم الرعاية الطبية التي تقتضيها حالتهم الصحية ومجاناً⁷، والالتزام بذلك يكون ببذل الجهد وفي حدود الإمكانيات المتاحة⁸. وطبقاً للمادة 26 من الاتفاقية المعنية يجب أن تكون وجبات الطعام الأساسية اليومية كافية كمًا ونوعًا بما يضمن سلامتهم الصحية، كما يجب تزويد العاملين من الأسرى والأسيرات الحوامل والمرضعات منهن بأغذية إضافية تتناسب مع احتياجاتهن

للإجراءات القضائية فإن اتفاقية جنيف الثالثة لعام 1949 قد حرصت حرصاً شديداً على مبدأ شرعية الجريمة والعقوبة التي يتابع من أجلها الأسير، فالمادة 99 حظرت المحاكمة أو الإدانة التي يتعرض لها الأسير إذا كان الفعل الذي يتابع من أجله لا يحظره صراحة قانون الدولة الحاجزة أو القانون الدولي في وقت ارتكاب هذا الفعل وحرمان الأسير من ضمانات المحاكمة العادلة يعد طبقاً للمادة 130 من اتفاقية جنيف الثالثة انتهاكاً جسيماً لها .

الفرع الرابع: حماية الأسرى في مرحلة انتهاء الأسر

من أهم حقوق الأسير هو إنهاء أسره بإطلاق سراحه لذلك تضمنت اتفاقية جنيف الثالثة لعام 1949 حالات انتهاء الأسر والذي يتحقق إما بموجب تعهد أو وعد من الأسير أو لأسباب صحية أو بانتهاء الأعمال العدائية أو بهروبه¹⁵، وفي كل حالة من الحالات السابقة يثبت كذلك للأسير مجموعة من الحقوق والضمانات التي على الدولة الأسيرة الالتزام بها والتي سنبينها وفقاً لمايلي.

أولاً : انتهاء الأسر بموجب تعهد أو وعد من الأسير

يتم الإفراج عن الأسير بناءً على تعهد كتابي منه أو بإعطاء كلمة شرف للدولة الحاجزة وذلك بعدم العودة إلى القتال ضدها مرة أخرى وهناك التزامات مترتبة على ذلك تتمثل في :

- لا يجوز بأي حال من الأحوال إرغام الأسير قبول إطلاق سراحه مقابل وعد أو تعهد.
- التزام الأسير بتنفيذ الوعد أو التعهد بكل دقة سواء اتجه دولته أو الدولة الحاجزة وإذا أخل بذلك وحمل السلاح مرة ثانية ثم أُلقي عليه القبض من قبل الدولة الحاجزة لها أن تعاقبه بعد محاكمته.
- التزام دولة الأسير بأن لا تطلب أو تقبل منه تأدية أي خدمة لا تتفق مع التعهد والوعد الذي أعطاه¹⁶.

ثانياً : انتهاء الأسر لأسباب صحية

بإستقراء مواد القسم الأول من الباب الرابع لاتفاقية جنيف الثالثة نجده قد تضمن حالة انتهاء الأسر لسبب صحي وذلك بالالتزام أطراف النزاع بإعادة الأسرى المصابين بأمراض أو جراح خطيرة أو حوادث ما لم تكن إرادية إلى أوطانهم مهما كان عددهم بعد تقديم الرعاية الصحية التي تمكنهم من السفر و يكون ذلك بالتعاون مع دولة محايدة معنية بذلك.

ثالثاً : انتهاء الأعمال العدائية .

ما إن تضع الحرب أوزارها حتى يقع على عاتق

لما توفره الدولة الأسيرة لقواتها المسلحة. وبالرجوع إلى المواد 22، 23، 24، 25 من اتفاقية جنيف الثالثة فلا يجوز حجزهم إلا في مباني مقامة فوق الأرض وأن تكون مزودة بما يكفي من وسائل التدفئة والإنارة وأن تكون بعيدة عن أي منطقة تشكل خطراً على الأسرى ويجب حجز النساء الأسيرات في أماكن منفصلة عن الرجال وتشرف عليهن نساء. **ثانياً : الحق في المراسلة وفي ممارسة الشعائر الدينية و النشاط البدني والذهني بالرغم من احتجاز الأسرى في ظروف و أماكن خاصة فإن اتفاقيات القانون الدولي الإنساني قد حرصت على فكّ عزلة الأسير وذلك بحق اتصاله بالخارج، و بممارسة الشعائر الدينية وللنشاط البدني والذهني داخل معسكر الأسر .** فبالنسبة لحق المراسلة فوفقاً للمواد من 70 إلى 77 من اتفاقية جنيف الثالثة – للأسير الحق إقامة علاقات خارج معسكر الأسر وفي نطاق معين كالاتصال بذويه أو بالوكالة المركزية للأسرى أو ببعض الجهات الأخرى كالمنظمات الإنسانية¹¹ وذلك من خلال بطاقة الأسر والبرقيات والرسائل¹². وللأسير وفقاً للمادة 34 من الاتفاقية جنيف الثالثة الحق في ممارسة شعائر عقيدته الدينية وحضور اجتماعاتها كأداء الصلاة أو الحلقات الدينية. وفيما يتعلق بالنشاط البدني الذهني فعلى الدولة الحاجزة تشجيع الأسير على ممارسة الأنشطة الرياضية والتعليمية والترفيهية¹³ وأن تتخذ التدابير الكفيلة لضمان ممارستها.

ثالثاً: الحقوق المتعلقة بالإجراءات

التأديبية و القضائية المطبقة على الأسير يخضع الأسير للقوانين واللوائح والأوامر المعمول بها في القوات المسلحة بالدولة الحاجزة، ولهذه الأخيرة اتخاذ الإجراءات التأديبية أو القضائية ضد أي أسير يقوم بمخالفتها، على أن توفر له الحماية والضمانات القانونية الواجبة في هذا الظرف فبالنسبة للتدابير التأديبية فقد وضعت اتفاقية جنيف الثالثة مجموعة من الضمانات لحماية الأسير منها عدم مؤاخذته بفعل يجهل أنه يخالف قوانين الدولة الحاجزة والتحقيق فوراً في الواقعة المرتكبة وذلك بعد استجواب الأسير وسماع الشهود وعدم إصدار عقوبة غير مقرر قانوناً، وأن تكون بنفس العقوبات المقررة عن الأفعال ذاتها إذا اقترفها أحد أفراد قوات المسلحة للدولة الحاجزة¹⁴. وبالنسبة

الذي حدد فيه بوش كيفية معاملة كل من يعتقل من غير المواطنين الأمريكيين في إطار مكافحة الإرهاب، كما نص على اعتقال مرتكبي جرائم الإرهاب تحت صفة مقاتل غير شرعي إلى أجل غير مسمى أو حتى بدون تهمة، وتكون محاكمتهم أمام محاكم عسكرية استثنائية¹⁸.

2- قانون اللجان العسكرية الذي أقره الكونغرس في 28 سبتمبر 2006 وصدر في 17 أكتوبر 2006 وهي محاكم عسكرية استثنائية جديدة لمحاكمة الأشخاص غير الأمريكيين المرتكبين لجرائم الإرهاب.

الفرع الثاني: صور الانتهاكات التي يتعرض لها الأسرى في معتقل غوانتانامو الأسرى بدخل هذا المعتقل يعانون من انتهاكات فادحة طالما أثارت اهتمام الكثير من المنظمات وجمعيات حقوق الإنسان تمارس فيه أبشع صور التعذيب والمعاملة اللاإنسانية وذلك من خلال :

1- نقل الأسرى إلى معتقل غوانتانامو :

من خلال شهادات المعتقلين والصور التي بثتها وسائل الإعلام فقد تم نقل الأسرى إلى معتقل غوانتانامو في صورة مرعبة ومذلة، حيث غطت رؤوسهم وأعينهم و وضع عليها نظارات سوداء وكبلت أيديهم و وضعت أقنعة على أفواههم وأنوفهم ويعد ذلك معاملة تعسفية أثناء ترحيل الأسرى وبوصولهم حلقت رؤوسهم ولحاهم كما تم رشهم بالمبيدات¹⁹، وقد أشارت إلى ذلك منظمة العفو الدولية في تقريرها الصادر في أوت 2003 الذي جاء فيه « وصل السجناء الأوائل من أفغانستان الذين نقلوا في مجموعات تضم كل منها 30 شخص من أفغانستان في رحلات جوية مدتها 20 ساعة في أوضاع الحرمان الحسي، والاستخدام الشديد للقيود و وصلوا إلى غوانتانامو في 11 جانفي 2002، وأصدر البنتاغون صور المعتقلين وهم يرتدون بدلة رياضية برتقالية اللون ويركعون أمام الجنود الأمريكيين وهم مكبلين بالأغلال، ويرتدون نظارات سوداء على أعينهم وأقنعة على أفواههم وأنوفهم الأمر الذي أثار قلقاً دولياً واسعاً»²⁰.

2- **معسكر الأسرى:** هو عبارة عن سجن محاط بالعديد من الأماكن المسورة بشباك معدنية، تغطيها أكسية من نايلون أخضر تعلوها أشربة شائكة موصولة بخط توتر عال بداخله أبنية مؤلفة من 48 زنزانة موزعة على صفين من 24 خلية لا تكاد تبلغ مساحة الواحدة منها مترين ونصف (2,5 متر)، أما الجدران و الأبواب فمصنوعة من المعدن المشبك يكشف ما بالداخل وفيها أفرشة بنفسجية وسطل لقضاء الحاجة، ولا يكسر روتين الأسير إلا بنزهة فردية

أطراف النزاع المسلح الالتزام بالإفراج عن الأسرى وإعادتهم إلى أوطانهم وبدون إبطاء مهما كانت نتيجة الحرب ولو لم تكن هنالك اتفاقية مبرمة بين الأطراف حول الإفراج عن الأسرى و هذا ما ورد في المادة 118 من اتفاقية جنيف الثالثة، ومن الحقوق التي تثبت للأسير في هذه الوضعية إطلاعهم على التدابير المقررة لإعادتهم وحق استرجاع الودائع الثمينة المسحوبة منه والإفراج عن الأسرى وإعادتهم إلى أوطانهم بدون إبطاء والحق في ظروف نقل ملائمة، و اعتبر القانون الدولي الإنساني كل تأخير لا مبرر له في إعادة الأسرى انتهاكاً جسيماً لاتفاقية جنيف الثالثة و يعد بذلك جريمة حرب بمقتضى المادة 85 من البروتوكول الإضافي الأول.

رابعا: هروب الأسير أدرجت اتفاقية جنيف الثالثة هروب الأسير ضمن الأعمال المشروعة المرتكبة من قبل الأسير و وفقاً للمادة 92 لا يعتبر هروب الأسير عملاً ينطوي على انتهاك لأحكام القانون الدولي ولا يتعرض من القي القبض عليه بعد محاولة فاشلة إلا لعقوبة تأديبية¹⁷، وحتى في حالة العودة إلى اقتراح ذلك.

المبحث الثاني : واقع الأسرى في معتقل غوانتانامو وترتيب المسؤولية الدولية

الأسرى في معتقل غوانتانامو محرومون من أدنى الحقوق المنصوص عليها في اتفاقيات القانون الدولي الإنساني وسأطرق إلى ذلك أولاً ثم إلى إثارة المسؤولية الدولية عن تلك الانتهاكات.

المطلب الأول : واقع الأسرى في معتقل غوانتانامو

أطرق أولاً إلى عدم اعتراف الوحـأ بالمركز القانوني لأسرى الحرب لمعتقلي غوانتانامو ثم إلى صور إنتهاكها لحقوق الأسرى في هذا المعتقل وذلك في الفروع التالية :

الفرع الأول : عدم اعتراف الولايات بصفة أسرى الحرب لمعتقلي غوانتانامو

إعتبرت الوحـأ معتقلي غوانتانامو محرومين من أي امتيازات أو حماية قانونية و وصفتهم بمصطلح جديد ظهر في حربها الدولية على الإرهاب وهو "المقاتلين الأعداء" أو "المقاتلين غير شرعيين" وقرر الرئيس "بوش" رفض تطبيق اتفاقية جنيف على أي من المعتقلين. بعد هذا الموقف قامت الوحـأ بإصدار عدة قوانين و أوامر تحدد من خلالها الإطار القانوني الذي يخضع له المعتقلون لديها في حربها على أفغانستان وذلك فيما يتعلق بمعاملتهم واستجوابهم ومحاكمتهم و أهم هذه القوانين:

1- الأمر الرئاسي الصادر في 13 نوفمبر 2001

كما أن تقديم جانب من الرعاية الصحيّة يتوقف فقط على مدى التعاون مع المحققين إلى جانب انتهاك الأطباء لمعايير وآداب المهنة الطبية بصورة ممنهجة مما يشكل جريمة حرب.

6- إنتهاك حق الاتصال بالخارج :

تنتهك الو-م-أ في معتقل غوانتانامو حتى حق إتصال الأسرى بالعالم الخارجي، إذ أجازت اتصالهم بعائلاتهم عن طريق الرسائل فقط، مع إخضاعها لمراقبة شديدة من طرف السلطات العسكرية بالمعتقل وتكون في أوقات متباعدة أما زيارة الأهل لهم فهي ممنوعة على الإطلاق، كما أنهم محرومون من الإتصال باللجنة الدولية للصليب الأحمر ومن إرسال الشكاوي إليها.

7- إنتهاك حق ممارسة النشاطات البدنية

والشعائر الدينية : لا يسمح للأسير بالخروج إلا مرتين أو ثلاث في الأسبوع ولمدة 20 دقيق، وصرحت منظمة العفو الدولية في وثيقة أصدرتها عام 2002 أن هذا الانتهاك يتجسد في حبس المعتقل في زنزانة منفردة لمدة 24 ساعة في اليوم، ولا يسمح لهم بممارسة الرياضة إلا 30 دقيقة في الأسبوع وهم مقيدون بالسلاسل وعلى أفراد²³.

أما فيما يتعلق بممارسة الشعائر الدينية فقد أثبتت شهادة المعتقلين المفرج عنهم أنهم تعرضوا إلى الإساءة والاستهانة بدينهم وبشكل استفزازي انتقامي وذلك قولاً وسلوكاً خاصة فيما يتعلق بالإساءة إلى المصحف الشريف ومنع الأسرى من الوضوء و الصلاة. 8-

إنتهاك حق الأسرى في الإفراج عنهم: يأسر المقاتل في مناطق أمنة بعيدة عن القتال لمنعه من مواصلة عملياته العدائية إلى غاية انتهاء القتال ثم يفرج عنه، أما اعتقال الأسرى في غوانتانامو فإنه لأجل غير مسمى، وإلى غاية انتهاء حرب الولايات على الإرهاب أو على أي تنظيم يشكل خطراً على أمنها مما يعني عدم الإفراج عنهم وهذا مخالف لحكم المادة 118 من اتفاقية جنيف الثالثة التي نصت على الإفراج عن الأسرى وإعادتهم إلى أوطانهم بانتهاء الأعمال العدائية، ولحكم المادة 85 من البروتوكول الإضافي الأول التي اعتبرت أي تأخير في ذلك لا مبرر له من المخالفات الجسيمة للاتفاقية ولالبروتوكول وهي بذلك جريمة حرب، ومنذ انتهاء حرب الولايات على أفغانستان لم يتم الإفراج إلا على عدد قليل وعلى الرغم من وعود الرئيس الأمريكي الحالي باراك أوباما بعد يومين من توليه السلطة في 22 كانون الثاني سنة 2009 بإغلاق معتقل غوانتانامو في غضون فترة أقصاها نهاية العام إلا أن المهلة انقضت دون تحقق ذلك بسبب معارضة

لمدة 20 دقيقة في قفص حديدي صغير الحجم مركز على ساحة إسمنتية، وذلك لثلاث مرات في الأسبوع فقط ومع كل حركة للأسير هنالك الأغلال و القيود في الأرجل موصولة بالسلاسل، و تسطع أنوار قوية على الزنازين و المعتقل برمته حتى تبقى على رقابة دائمة من جانب الحراس الذين يتجولون بشكل دائرة أو يتمركزون في محافر الحراسة ويتولى الأسرى رجال الجنرال ميللر الذي يتلقى الأوامر مباشرة من البنتاغون²¹ وتشير عدة تقارير إلى أن ظروف الاعتقال قاسية جداً، ولها تأثيرات بالغة على الصحّة العقلية والبدنية للأسرى حيث سببت كثيراً الإصابات بأمراض عقلية حادة و هذا نتيجة للظروف القاسية التي يعاني منها الأسرى في أقفاص حديدية لا تصلح حتى للحيوانات.

3- التعذيب : إستخدمت الو-م-أ معتقل غوانتانامو لتجارب مدارس التعذيب الخاصة بها على الأسرى بدون رافة ولا شفقة لغرض الحصول على المعلومات منهم أثناء فترة الاستجواب، وكذلك للانتقام وإذلال المعتقلين بالرغم من مصادقة الولايات على اتفاقية مناهضة التعذيب في 11 أكتوبر 1994 وكونها من الدول السابقة فيما يتعلق بالمواثيق الدولية لحقوق الإنسان.

من أساليب التعذيب التي يعاني منها الأسرى نذكر استخدام الأوضاع التي تسبب الإجهاد كالوقوف لساعات و الحبس الانفرادي لمدة تصل إلى 30 يوم، الاستجواب لمدة تصل إلى 20 ساعة إرهاب الأسير خاصة بالأصوات العالية، التعريض لدرجة حرارة عالية أو للبرد الشديد، التعذيب بالكهرباء والضرب خاصة في الأماكن الحساسة من الجسم، إيلاء الأعضاء التناسلية، استعمال الكلاب المتوحشة على الأسير ومنع الأسير من النوم... الخ.

4 - إنتهاك شرف وعرض الأسير: يتعرض الأسرى في معتقل غوانتانامو إلى التّعرية و للإهانة و الإذلال بمختلف الطرق ويتعرضون أيضاً للاعتداءات الجنسية، وقد أكدت لجنة الأمم المتحدة لمناهضة التعذيب في تقريرها الصادر في 23 جوان 2006 أن أساليب الاستجواب في غوانتانامو قد انطوت على بعض سلوك الإذلال الجنسي المخل بالحياء، ودعت الو-م-أ إلى إلغائها²².

5- إنتهاك حق التمتع بالرعاية الصحية : كما ذكرنا سابقاً من حق الأسير طبقاً للمادة 15 من اتفاقية جنيف الثالثة التمتع بالرعاية الصحيّة المناسبة إلا أن ما يحدث في معتقل غوانتانامو على العكس تماماً حيث أن ظروف الاحتجاز لها تأثير مدمر على الصحّة العقلية والبدنية للأسير،

الجسيمة والتي حددتها على سبيل الحصر، وتطُرقت إليها المادة 85 من البروتوكول واعتبرتها جرائم حرب يترتب على مقترفيها دولاً أو أفراد المسؤولية الدول، وعليه فإنني سأطرق إلى المسؤولية الدولية المدنية للدولة في الفرع الأول وإلى المسؤولية الدولية الجنائية للأفراد في الفرع الثالث.

الفرع الأول : المسؤولية الدولية المدنية للدولة
على أي طرف في نزاع مسلح الالتزام بتنفيذ قواعد حماية أسرى الحرب على المقاتلين المحتجزين لديه لا سيما الدول الأطراف في اتفاقية جنيف الثالثة لعام 1949 وإلا فإنها تكون محلاً للمسؤولية الدولية. ومن المستقر عليه في الفقه والقضاء الدولي أن المسؤولية الدولية للدولة حتى الآن هي مدينة فبارتكابها لإحدى المخالفات الجسيمة لاتفاقية جنيف الثالثة فإنها تلتزم بتعويض الضحية عن الأضرار التي لحقت به إلى جانب إلقاء القبض على مقترفيها ومحاكمتهم، وحددت المادة 130 من اتفاقية جنيف الثالثة المخالفات الجسيمة للاتفاقية على سبيل الحصر، واعتبرتها المادة 85 من البروتوكول الإضافي الأول جرائم حرب . وبالرجوع إلى نص المادة 129 من اتفاقية جنيف الثالثة فإنه على كل طرف متعاقد في الاتفاقية أن يتخذ التدابير اللازمة لوقف جميع الأفعال المنتهكة لها، أما ما أعتبر منها بجريمة حرب فعلى الدول المتعاقدة الالتزام بملاحقة المتهمين باقترافها و الأمرين بها ومحاكمتهم أو تسليمهم لطرف متعاقد آخر معني لمحاكمتهم وإن امتنعت أو قصرت في ذلك اعتبرت مرتكبة لفعل غير مشروع دولياً يقع عليها المسؤولية الدولية المدنية، و تلتزم من خلالها بالتوقف فوراً عن ارتكاب هذه الجرائم و تعويض الضحايا عن الأضرار التي لحقت بهم، وتلتزم من جهة أخرى بمحاكمة مرتكبي الجرائم ومعاقبتهم.

الفرع الثاني: المسؤولية الدولية الجنائية للفرد
جانب المسؤولية الدولية المدنية للدولة المرتكبة لجرائم الحرب المتعلقة بالأسرى المحتجزين لديها تقوم المسؤولية الدولية الجنائية للأفراد المقترفين لهذه الجرائم وبالنسبة لاتفاقية جنيف الثالثة، وكما ذكرنا سابقاً فإنها قد أخذت بمبدأ المسؤولية الدولية الجنائية للفرد و تضمن ذلك أيضاً البروتوكول الإضافي الأول و اعتبرها جرائم حرب . وبالرجوع إلى المادة 129 من اتفاقية جنيف الثالثة نجد أنها قد ألزمت الدول الأطراف فيها بأن تتخذ أي إجراء تشريعي يلزم لفرض عقوبات جزائية فعالة على الأشخاص الذين يقتربون أو يأمرن باقتراف إحدى المخالفات الجسيمة لها، كما ألزمت الأطراف المتعاقدة بملاحقتهم و أيا كانت جنسيتهم، أو تسليمهم إلى طرف متعاقد معني آخر لمحاكمتهم، كما تضمنت في

الكونغرس، كما وضع برنامجاً لنقل بعض المعتقلين إلى الو-م-أ لكن الكونغرس أيضاً عارض تمويل البرنامج ووضع قيوداً صارمة على أي نقل للمعتقلين .

9- إنتهاك الضمانات القضائية لأسرى غوانتانامو: كان على الو-م-أ أن تحاكم أسرى غوانتانامو أمام جهات قضائية تتوفر فيها الضمانات القانونية للمحاكمة العادلة للأسير غير أنها قامت بإنشاء لجان عسكرية لمحاكمة المعتقلين وذلك استناداً إلى الأمر الرئاسي الصادر في 13 نوفمبر 2001 واستمر هذا لعدة سنوات إلى أن صدر قرار من المحكمة العليا الأمريكية بمنح للمحتجزين الحق في المثل أمام المحاكم الفدرالية، ثم قامت إدارة بوش في عام 2004 بإنشاء هيئة قضائية لاستعراض وضع المحاربين تتألف من ثلاث ضباط صف على أنها حرمتهم من العديد من الحقوق كالاستعانة بالمحامي، وقيدت حق الحصول على المعلومات والأدلة وأخذت بالأدلة المنتزعة تحت وطأة التعذيب... الخ .

انتقدت منظمة العفو الدولية هذه الهيئة في تقريرها الصادر في 2005 حيث صرحت من خلاله « إن هيأت مراجعة صفة المقاتل العدو تشكل إجراء قاصراً تماماً لا يستوفي معايير المراجعة القضائية لقانونية الاعتقال بموجب المعايير الدولية، إذ لا يحق للمعتقلين الذين أمامها توكيل مستشار قانوني أو الإطلاع على الأدلة السرية و لا تتوفر على قاعدة تستثني الأدلة المنتزعة تحت وطأة التعذيب أو غيره من ضروب سوء المعاملة»²⁴.

إن انتهاك الو-م-أ للضمانات القضائية لأسرى غوانتانامو غرضه الإبقاء عليهم لأجل غير مسمى بما يتوافق مع مصالحها المتمثلة في نزع المعلومات منهم، ومن أجل الانتقام من أعداء أمريكا على حد وصفها.

المطلب الثاني : المسؤولية الدولية عن انتهاك قواعد حماية أسرى الحرب تعتبر المسؤولية السمة البارزة لأي نظام قانوني حرص واضعوه على فعاليته واحترام أحكامه واستمرارها إذ تعمل على تحويل القانون من مجرد قواعد نظرية إلى التزامات، وتكتسب أهمية بالغة في موضوعنا لكونها الأثر المرتب على انتهاك أعراف وقوانين الحرب التي أقرتها المواثيق الدولية. وبالرجوع إلى اتفاقية جنيف الثالثة والبروتوكول الإضافي الأول فإننا نجد أنها قد ميّزت بين المخالفات والمخالفات الجسيمة حيث الأولى يندرج ضمنها كل عمل يتعارض مع أحكام هذه الاتفاقية ما عدى المخالفات

- التمييز بين المقاتلين الشرعيين و غير الشرعيين، و عدم منح هذه الأخيرة الحماية الواجبة للأسير في حالةلقاء القبض عليهم وذلك نظراً لخطورة أعمالهم القتالية، وتعارضها مع شرف القتال و مع المبادئ الوطنية كالجوايس و المرتزقة والخونة.

- توفير الحماية اللازمة للأسير، وذلك من خلال نظام قانوني شمل كل ما يتعلق به ابتداء من لحظة الأسر إلى غاية إنتهائه وعودة الأسير إلى الوطن.

- توفير الوسائل القانونية اللازمة لرعاية الأسرى والدفاع عن حقوقهم و استحداث آليات داخلية و دولية لتنفيذ قواعد حماية هذه الفئة وهذا لضمان فعالية تطبيقها على أرض الواقع كما رتبت المسؤولية على مخالفتها سواء على الدول أو الأفراد.

- توسيع مفهوم جرائم الحرب بإدراج الانتهاكات الجسيمة

- لاتفاقية جنيف الثالثة ضمنها، وترتيب المسؤولية الدولية على مقترفيها سواء المدنية التي تتحملها الدولة، والجنائية التي تقع على عاتق الأفراد. غير أن الممارسات الدولية تثبت العكس، فالحماية القانونية التي حضي بها الأسير بقيت تشكو من التنفيذ والتجسيد على أرض الواقع ومن ذلك ما يحدث في معتقل غوانتانامو حيث انتهكت الولايات المتحدة الأمريكية هذه الحماية وضربت اتفاقيات القانون الدولي الإنساني عرض الحائط، وهذا هو حال أمريكا عندما تتكشف نواياها التي حاولت إخفاءها وراء أفتعة مزيفة حملت اسم سيادة القانون وأنها من حماة حقوق الإنسان والحرية والديمقراطية ولذلك فإننا نقترح التوصيات التالية :

- إطلاق سراح الأسرى و إغلاق المعتقل.
- تفعيل آليات تنفيذ قواعد حماية أسرى الحرب.
- تفعيل تطبيق المسؤولية الدولية عن جرائم الحرب المرتكبة على الأسرى بمعتقل غوانتانامو وذلك من خلال تعويض الأسرى ومحاكمة مرتكبي الجرائم، وضرورة التعاون الدولي من أجل ذلك من خلال إيجاد جهاز تنفيذي داخل هيئة الأمم المتحدة غير مجلس الأمن (المشلول الحركة بحق الفيتو)، و يضم كل أعضاء الأمم المتحدة.

المادة 132 أن التحقيق حول أي أدعاء بانتهاك قواعد حماية أسرى الحرب يتم بناءً على طلب أي طرف في نزاع مسلح، و في حالة عدم الاتفاق على إجراء التحقيق يتم اللجوء إلى حكم يقرر الإجراءات التي تتبع وما إن تثبت انتهاكات الاتفاقية على أطراف النزاع وضع حد له و قمعه بأسرع وقت ممكن وتحميل جميع أطرافها المسؤولية للتصدي وقمع انتهاكات هذه الاتفاقية لاسيما الجسيمة منها²⁵.

كما أدرج البروتوكول الإضافي الأول تطوراً هاماً وذلك في الفقرة 2 من المادة 86 يتعلق بمسؤولية القادة حيث جاء فيها أنه لا يعفى قيام أي مرؤوس بانتهاك اتفاقيات جنيف الأربعة أو هذا البروتوكول رؤسائه من المسؤولية الجنائية أو التأديبية حسب الأحوال إذا علموا أو كانت لديهم معلومات تنتج لهم في تلك الظروف أن يستخلصوا أن المرؤوس في سبيله لارتكاب مثل هذا الانتهاك ولم يتخذوا ما في وسعهم من إجراءات مستطاعه لمنعه أو قمعه. و بناء على ما سبق ذكره فإن محاكمة وعقاب مرتكبي جرائم الحرب على الأسرى بمعتقل غوانتانامو يكون من خلال:

- المحاكم الجنائية للدول الأطراف في اتفاقية جنيف الثالثة لعام 1949.

- إنشاء مجلس الأمن لمحاكم جنائية دولية مؤقتة. - المحكمة الجنائية الدولية الدائمة .

الخاتمة : لقد اتضح فيما سبق ذكره الثوب الجديد الذي اكتسبت به قواعد حماية أسرى الحرب في ظل اتفاقية جنيف الثالثة لعام 1949 والمكملة بالملاحق الإضافي الأول لعام 1977، والذي شمل كل ما يتعلق بالأسير حيث ساهمت هذه القواعد في:

- توسيع مفهوم المقاتل بتوسيع مفهوم الحرب، فبعد أن كان مقتصرًا على القوات المسلحة النظامية أصبح يشمل كلاً من أفراد المقاومة المسلحة والهبة الجماهيرية ومقاتلي حركات التحرير الوطنية، وبذلك أدرج المقاتلين من أجل الحرية والخلاص من التسلط الاستعماري ضمن المقاتلين الشرعيين المشمولين بالحماية المقررة للأسير، وظف إلى ذلك أفراد القوات المسلحة التابعة للمنظمات الدولية والإقليمية.

الهوامش:

- 1 - رشيد حمد العنزي، معتقلو غوانتانامو بين القانون الدولي الإنساني ومنطق القوة، الكويت، 2004، ص30.
- 2 - ابن منظور، لسان العرب، دار الشروق للطبع و النشر، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1985، ص 19 ، 20.

- 3 - وفاء مرزوق، أسرى الحرب في الفقه الإسلامي والاتفاقيات الدولية، تقديم حسان حلاق، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 2008، ص 51، 52.
- 4 - عمر سعد الله، معجم في القانون الدولي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، الطبعة الثانية، 2007 ص 46.
- 5 - كمال حماد، كمال حماد، النزاع المسلح والقانون الدولي العام، تقديم جورج ديب، المؤسسة الجامعية مجد، بيروت، لبنان الطبعة الأولى، 1997، ص 57.
- 6 - عباس هاشم السعدي، مسؤولية الفرد الجنائية عن الجريمة الدولية، دار المطبوعات الجامعية، الإسكندرية، 2002، ص 142.
- 7 - عبد الغني عبد الحميد محمود، حماية ضحايا النزاعات المسلحة في القانون الدولي الإنساني والشرعية الإسلامية، تقديم مفيد شهاب، دار المستقبل العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، 2000، ص 276.
- 8 - أحمد الرشدي، حقوق الإنسان دراسة مقارنة في النظرية والتطبيق، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، الطبعة الثانية، 2005 ص 407.
- 9 - سهيل حسن الفتلاوي، عماد محمد ربيع، القانون الدولي الإنساني، موسوعة القانون الدولي، الجزء الخامس، دار الثقافة عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2009، ص 262.
- 10 - أحمد الرشدي، مرجع سابق، ص 408.
- 11 - عامر الزمالي، مدخل إلى القانون الدولي الإنساني، المعهد العربي لحقوق الإنسان، تونس، الطبعة الثانية، 2007، ص 48.
- 12 - أشرف فايز للمساوي، مبادئ القانون الدولي الإنساني وعلاقته بالتشريعات الوطنية، المركز القومي للإصدارات القانونية القاهرة، الطبعة الأولى، 2007، ص 52.
- 13 - المادة 38 من إتفاقية جنيف الثالثة لعام 1949.
- 14 - راجع المادتان 92، 93 من إتفاقية جنيف الثالثة لعام 1949.
- 15 - يؤخذ على إتفاقية جنيف الثالثة لعام 1949 وعلى البروتوكول الإضافي الأول أنهما لم يتضمنا نظام تبادل الأسرى على الرغم من أن العرف الدولي قد سار على إعتباره وسيلة من وسائل إنهاء الأسر، أنظر في ذلك : محمد فهاد الشلالدة، القانون الدولي الإنساني، منشأة المعارف، الإسكندرية 2005، ص 136.
- 16 - راجع المادة 21 من إتفاقية جنيف الثالثة لعام 1949.
- 17 - ماجد إبراهيم علي، قانون العلاقات الدولية في السلم والحرب، مطابع الطوابجي التجارية، القاهرة، 1993، ص 274.
- 18 - تقرير صادر عن منظمة العفو الدولية في 2003، ص 206.
- 19 - رشيد حمد العنزي، مرجع سابق، ص 40.
- 20 - تقرير منظمة العفو الدولية لعام 2003، ص 20.
- 21 - عمر سعد الله، معجم في القانون الدولي المعاصر، مرجع سابق، ص 48.
- 22 - تقرير منظمة العفو الدولية، مذكرة إلى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية حول تقرير لجنة الأمم المتحدة لمناهضة التعذيب 2006، موقع إلكتروني مطلع عليه في 2012/01/20: www.ara.amensty.org/library/index/ar/51/0932006
- 23 - تقرير منظمة العفو الدولية لعام 2002، متوفر على الموقع الإلكتروني للمنظمة: www.Amensty.org
- 24 - تقرير منظمة العفو الدولية لعام 2005، الموقع الإلكتروني للمنظمة: www.Amensty.org
- 25 - راجع المادتان 131، 132 من إتفاقية جنيف الثالثة لعام 1949.

أَسْأَلُكَ أَنْ تَقْبَلَ مِنْ أَيْمَانِي فِي السَّاعَةِ الْحَرْثِيَّةِ
رُؤْيَاكَ أَعْلَمُكَ لِنُحْسِ الدِّبْلُومَاتِيِّ الْخِزَائِرِي
عَلَى الْعَبْدِي

جامعة الشلف

صراعها مع المحتل الفرنسي لإجباره على الاعتراف
بالحق الوطني ومنح الجزائر الاستقلال. ومن هنا جاء
اختيار العنوان التالي: (أصداء اتفاقيات إيفيان في
الصحافة العراقية: رؤية اعلامية للنصر الدبلوماسي
الجزائري)

من خلال تتبع مسار أحداث الثورة الجزائرية، نجد من أن الأحداث كانت تسير في غير صالح فرنسا، وأصبح هناك قناعة وحقيقة ثابتة لدى الساسة الفرنسيين، والعسكريين أيضاً، استحالة القضاء على الثورة الجزائرية، واخذ تكاليف الحرب المادية والبشرية تتصاعد إلى درجة إرهقت الدولة الفرنسية، وأورثتها إفلاساً اقتصادياً وعزلة سياسية دولية وهزائم عسكرية⁽⁵⁾، فضلاً عن تنامي القلق لدى الفرنسيين من التطورات الخطيرة للأوضاع في الجزائر، وتزايد مخاطر نشوب حرب أهلية فرنسية، فضلاً عن تراجع مكانة فرنسا الدولية بسبب الفضاعات والجرائم اللإنسانية التي تقترفها بحق الشعب الجزائري الذي لم يطلب إلا الحرية، العدالة والاستقلال، وهي المبادئ التي تنبأها بها فرنسا كثرمة من ثمار ثورتها عام 1789⁽⁶⁾. ونتيجة لهذا لم تجد فرنسا مفراً من الجروح إلى السلم والتفاوض لإنهاء هذا القضية. لتجلس مع من اسلمتهم بالفلاحة (واللصوص)، والخارجون عن القانون، دفعوا من الخارج للقيام بما سمته بـ(إطلاق الأمن) واعترفت بهم ممثلين شرعيين وحيديين للشعب الجزائري وثورته، وتفاوضت معهم على قاعدة الاستقلال التام للجزائر⁽⁷⁾.

على أية حال، نالت اتفاقيات إيفيان وما سبقها من مفاوضات، مثل بقية التطورات السياسية والعسكرية التي كانت تشهدها الجزائر إبان ثورة نوفمبر، اهتماماً من جانب الصحافة العراقية. فقد غطت وتابعت مجريات المفاوضات وصولاً الى توقيع الاتفاقيات في إيفيان في يوم 18 مارس 1962، علماً ان هذه

تعتبر الصحافة المطبوعة، خلال القرن الماضي، وسيلة اعلامية ودعائية فعالة وذات تأثير عميق المدى في الرأي العام في مختلف القضايا والأحداث، نظرا لمحدودية وسائل الاتصال آنذاك. ومن هذا المنطلق، لعبت الصحافة العراقية المطبوعة دورا فعالاً ومتميزاً في تعريف الرأي العام العراقي بتطورات وأحداث الثورة الجزائرية منذ انطلاقتها في الأول من نوفمبر 1954 وحتى اعلان الاستقلال في الخامس من جويلية عام 1962⁽¹⁾.

لقد تضمنت صفحات الجرائد العراقية اليومية تغطية إعلامية واسعة تكاد أن تكون تغطية شبة يومية لأحداث الثورة الجزائرية من مختلف الجوانب. وساهمت تلك التغطية في خلق حالة من التواصل والتعاضد الوجداني ما بين المواطن العراقي، البسيط والمتقف، والأحداث التي كانت تشهدها الجزائر إبان الثورة المسلحة، مما خلق حالة من الإدراك لقيمة العمل الجهادي والبطولي الذي يقوم به الشعب الجزائري في مواجهة الاستعمار الفرنسي، وهو الامر الذي زاد من حالة التلاحم الجماهيري في دعم القضية الجزائرية في شتى المجالات⁽²⁾.

ومن بين جملة الاحداث التي نالت اهتمام الصحافة العراقية موضوع اتفاقيات افيان⁽³⁾، التي يمكن اعتبارها تنويجا للمسار النضالي والثوري للشعب الجزائري في مقاومة الاحتلال الفرنسي منذ عام 1830. اذ شكلت الاتفاقيات الموقعة في 18 مارس 1962 نهاية لحقبة استعمارية واستعادة للسيادة الوطنية، كما انها كانت تعبيراً عن الوفاء للمبادئ التي انطلقت من اجلها ثورة نوفمبر⁽⁴⁾. ومن هنا، جاء الاختيار لدراسة جانب من هذا الموضوع الحدث، وجرى التركيز على دراسة احد الجوانب التي تبرز التآزر العربي للثورة الجزائرية عبر دراسة الدور الذي قامت به وسائل الاعلام العراقية في تعبئة الرأي العام العراقي من اجل مساندة الحكومة الجزائرية المؤقتة في

وهذا يدل على أن الصحف العراقية لم تكن تعيد نشر الأخبار التي تخص الأحداث بالجزائر فحسب، وإنما كانت أيضا تعمل على تحليلها واستنباط النتائج والقراءات السياسية أيضا.

وحينما انطلقت جلسات المفاوضات في مرحلتها الاولى ما بين 20 ماي -13 جوان من عام 1961 في مدينة ايفيان، وترأس الوفد الجزائري كريم بلقاسم نائب رئيس الحكومة المؤقتة ووزير الخارجية وترأس الوفد الجزائري لوي جوكس (L.Joxe) وزير الدولة المكلف بشؤون الجزائر. إذ شهدت المفاوضات كثيرا من التقلبات والتي أوقفت في نهاية المطاف من قبل الجانب الفرنسي⁽¹⁶⁾. نجد أن الصحف العراقية تابعت سير المفاوضات بالقدر الذي يمكنها من تقديم صورة واضحة عنها عبر الاعتماد على التسريبات والأخبار الصحفية التي كانت تنقلها الوكالات العالمية، إلى جانب نشرها العديد من التعليقات والتحليلات بخصوصها. ومن بين الأمور التي استوقفتنا في هذا الجانب، تأكيد الصحف العراقية على أن الجانب الفرنسي كان يعمل خلال فترة المفاوضات من أجل الضغط على الوفد الجزائري للحصول على أكبر قدر ممكن من التنازلات وتقليل وقع الهزيمة السياسية والدبلوماسية الفرنسية والتي سبقتها الهزيمة العسكرية. واتفقت أغلب الصحف على مسألة إصرار المفاوض الجزائري على الثوابت الوطنية وعدم التفريط بالحقوق التي ضحى من أجلها الشعب الجزائري عبر سنوات ثورته المسلحة ضد الاحتلال الفرنسي. فقد كتبت جريدة الرأي العام، تقول: "إن ما تقوم به فرنسا هو سلوك عدائي، وهو جزء من الخطط الاستعمارية الذي تعتمد عليها فرنسا، والتي يقوم على أساس المكر والحيلة والاستخفاف بحقوق الآخرين. وعلى الوفد الجزائري ان يكون حذرا من هذه الأساليب الخبيثة"⁽¹⁷⁾. كما ابرزت جريدة الزمان الاتهامات التي وجهها رئيس الوفد الجزائري كريم بلقاسم للطرف الفرنسي خلال المؤتمر الصحفي الذي عقده اثر توقف المفاوضات، حينما أكدت أن فرنسا لن تتخلى بسهولة عن أطماعها في الجزائر، وأشارت إلى أن الإصرار على المواقف من جانب الوفد الجزائري سوف لن يكون إلا الصخرة الكأداء التي ستتحطم عليها المخططات الفرنسية⁽¹⁸⁾. ولم تختلف تعليقات بقية الجرائد الأخرى عن هذا المنحى والموقف في دعم جهود الجانب الجزائري في المفاوضات⁽¹⁹⁾.

ولم تكف الصحف العراقية عند هذا الحد، وإنما ربطت بين تعثر سير المفاوضات وبعض الأحداث والاضطرابات التي شهدتها الجزائر من جانب المتطرفين من المستوطنين في الجزائر. إذ ربطت جريدة الزمان بين المحاولات الفرنسية في إفشال

المفاوضات، كانت قد سبقتها اتصالات ومفاوضات غير رسمية (سرية) كان الغرض منها جس النبض والإطلاع على مطالب الطرفين⁽⁸⁾. فقد تصدرت انباء الاستعدادات التي كانت تجري من اجل بدء المفاوضات بين الحكومة الجزائرية المؤقتة والحكومة الفرنسية عناوين الجرائد العراقية. إذ اشارت جريدة الزمان البغدادية الى تصريح وزير الاستعلامات الفرنسية بالقول: "صرح وزير الاستعلامات الفرنسية بأنه من المحتمل أن تبدأ المفاوضات الخاصة بمستقبل الجزائر في موعد قريب بين الحكومة الفرنسية والحكومة الجزائرية المؤقتة"⁽⁹⁾. ونفس الخبر أشارت إليه جريدة الجمهورية في خبر مستعجل تصدر صفحتها الاولى، وعلقت على الخبر بالقول: "إن الشعب الجزائري يحقق انتصارا جديدا لا يقل اهمية عن الانتصارات العسكرية التي يحققها جيش التحرير"⁽¹⁰⁾، واعتبرت أن إجبار الفرنسيين على الجلوس مع الوفد الجزائري على طاولة واحدة من اجل التفاوض لتحديد مستقبل الجزائر، وهي الخطوة الاولى نحو تحقيق مطالب الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال. ثم اضافت تقول: "ان المفاوضات في ايفيان تعني الإصرار الذي اظهره الشعب الجزائري حينما التف حول قيادته وضحى بكل شي من اجل جزائر حرة مستقلة"⁽¹¹⁾. وفي نفس الاتجاه ذهبت جريدة البلاد، حينما اعتبرت ان الثورة المسلحة كانت الاداة التي جعلت الحكومة الفرنسية ترسخ لمطالب الشعب الجزائري⁽¹²⁾. وأشارت ايضا الى ان المفاوضات الجزائري سيكون هو المتحكم بسير المفاوضات، وأرجعت ذلك الى الانتصارات التي كان يحققها جيش التحرير في جبهات القتال ضد القوات الفرنسية⁽¹³⁾.

كما تناولت الصحف العراقية موضوع الاستعدادات التي كانت تقوم بها الحكومة الجزائرية المؤقتة لتسمية الوفد الذي سيرسل من أجل التفاوض في ايفيان، وكتبت جريدة الزمان بهذا الخصوص، تقول: "أن الحكومة الجزائرية المؤقتة سوف تجتمع لاختيار أعضاء الوفد الذي سيمثلها في محادثات الصلح المزمع إجراؤها مع الفرنسيين في مدينة ايفيان"⁽¹⁴⁾. ولم تكف جريدة الزمان في نشر الخبر فحسب، وإنما حاولت من خلال متابعتها وقراءتها للواقع السياسي في الجزائر ان تقدم للقارى العراقي توقعات عن تشكيلة الوفد الجزائري الذي سوف يسافر إلى ايفيان وتحديد أبرز الشخصيات فيه، حينما كتبت تقول: "يتوقع أن يترأس السيد كريم بلقاسم نائب رئيس الحكومة ووزير الخارجية الوفد، وسيضم من بين أعضائه محمد يزيد وزير الاستعلامات"⁽¹⁵⁾. وهذا ما تحقق بالفعل حينما كلف بلقاسم بمهمة قيادة الوفد الجزائري في المفاوضات الثنائية مع الفرنسيين،

الجريدة، إلى جانب ذكر حصول فرنسا على بعض الامتيازات⁽²³⁾، ما ذكرته بخصوص أن جميع الوثائق الرسمية ستكون باللغتين العربية والفرنسية⁽²⁴⁾. وهو الأمر الذي لم يتحقق لكون الاتفاقيات كانت باللغة الفرنسية فقط. ولكننا نجد أن جريدة البلاد، نشرت في نفس الموضع الذي نشر خبر تسريب المعلومات بخصوص الاتفاق، تكذيباً من جانب الحكومة الجزائرية المؤقتة من أن ما نشر هو مجرد مسودة إتفاق قابلة للتعديل، وأن الجانب الجزائري لم يوقع عليها بعد⁽²⁵⁾.

لم يكن لعملية تسريب المعلومات عن مسودة الاتفاق تأثير على استمرار رغبة الجانب الجزائري. ويظهر ذلك في التصريح الذي أدلى به وزير الاستعلامات الجزائري محمد يزيد بخصوص قرار المجلس الوطني للثورة الجزائرية بالاستمرار بالمفاوضات وتحويل الحكومة الجزائرية المؤقتة الصلاحيات المطلقة في التوقيع على اتفاقية وقف إطلاق النار مع فرنسا. ونقلت جريدة البلاد التصريح بالقول: "إن المجلس الوطني للثورة الجزائرية قد عقد جلسة طارئة في طرابلس في الثاني والعشرين منه (تقصد شهر فيفري)، وبعد بحث المفاوضات مع الحكومة الفرنسية حول المجلس الوطني الحكومة الجزائرية مواصلة المفاوضات من أجل التوصل إلى اتفاق وقف إطلاق النار وتحويل الحكومة الجزائرية المؤقتة الصلاحيات المطلقة في التوقيع على اتفاقية وقف إطلاق النار مع فرنسا"⁽²⁶⁾. وتابع جريدة الزمان الموضوع، وأشارت في عددها الصادر في يوم الثالث من مارس 1962 إلى اجتماع الحكومة الجزائرية المؤقتة في تونس يوم الثاني من مارس من أجل بحث الترتيبات اللازمة من أجل استئناف المفاوضات مع الحكومة الفرنسية لإحلال السلام في الجزائر حسب قول الجريدة. وأضافت أيضاً: "وذكرت المصادر المطلعة في تونس إلى أن الوفد يمثل الحكومة الجزائرية المؤقتة سيتوجه إلى سويسرا في مستهل الأسبوع القادم تمهيداً لبدء المرحلة النهائية للمفاوضات حول مستقبل القطر الجزائري"⁽²⁷⁾.

حينما عقدت الجولة الأخيرة من المفاوضات فمدينة إيفيان خلال الفترة ما بين 7-17 مارس 1962، تابعت الصحافة العراقية هذه الجولة بنوع من الاهتمام لاسيما وأن كل الترسيمات الصحفية كانت تشير إلى تمكن الوفد الفرنسي والوفد الجزائري من تذليل العقبات التي كانت تحول دون التحول إلى إتفاق نهائي، مثلما أشارت جريدة الاخبار إلى ذلك⁽²⁸⁾. في حين نشرت جريدة الزمان في عددها الصادر في 7 مارس 1962 تغطية صحفية موسعة لموضوع استئناف المفاوضات في إيفيان. وتصدر الصفحة الأولى عنوان رئيس: (محادثات السلام في إيفيان)، حيث كتبت تقول: "تبدأ اليوم (تقصد يوم 7 مارس) في مدينة إيفيان الفرنسية جولة من المفاوضات بين الوفدين الجزائري والفرنسي من أجل التوصل إلى تسوية للقضية الجزائرية"⁽²⁹⁾، كما غطت الجريدة موضوع سفر الوفد

المفاوضات وإفراغها من مضمونها الحقيقي وحالة تصعيد العنف في الجزائر، واعتبرت أن ذلك لم يحدث بالصدفة، وإنما أمر مخطط له، حسبما كانت ترى، ودعت أبناء الشعب الجزائري إلى الصمود بوجه تلك الاعتداءات والتجاوزات. وكتبت تقول: "إن الشعب الجزائري يقدم كل يوم شهداء جدد على مذبح الحرية، ودماء هؤلاء لن تذهب سدى إذا ما تحقق الهدف المنشود وهو تحقيق الاستقلال، إن الصمود في ساحات المواجهة ستمكن المفاوضات الجزائرية من الضغط على الفرنسيين من أجل تحقيق ما كان مأمول منه في تلك المفاوضات"⁽²⁰⁾.

لم تتخلى الصحافة العراقية عن اهتمامها بما كان يحدث في المفاوضات التي كانت تتوقف وتتعلق من جديد على مدى أكثر من عام⁽²¹⁾. ولم تتراجع عن موقفها الداعم للطرف الجزائري ضد العنجهية الفرنسية. وحينما عقدت جولة من المفاوضات في مدينة لي روس خلال الفترة ما بين 11-19 فيفري 1962، والتي شهدت طرح الكثير من القضايا الشائكة بين الطرفين. وعندما توقفت تلك الجولة، لقت الصحافة العراقية جام غضبها على الموقف الفرنسي خلال تلك المفاوضات واعتبرته موقفاً متعنّياً في المفاوضات سعياً وراء مصالحه وأهدافه. وفي هذا السياق، كتبت جريدة فتي العراق تتهم فرنسا باستمرارها في سياستها الاستعمارية مما يحول دون اعترافها للشعب الجزائري بحقه في الحياة وتقرير المصير، وأشارت إلى أنه الشعب الجزائري سوف يجبر فرنسا على الاعتراف باستقلاله، وكتبت تقول: "الشعب الجزائري يتحدى الموت بشجاعة فذة وإيمانه الصادق وعرويته الحقة ... هو وحده الذي سيقدر مصير المعركة، وهو وحده الذي سيرغم فرنسا على الرضوخ لإرادته، وهو وحده سيكتب بدمه تاريخه ويخط أسطر استقلاله ويدفع ثمن وحدته"⁽²²⁾. ويبدو أن قراءة الجريدة للواقع السياسي والعسكري في الجزائر كانت واقعية ومنطقية. والذي كانت له انعكاسات ايجابية على سير المفاوضات بين الطرفين، إذ كان الجانب الجزائري يزداد قوة وتمسك بمطالبه الوطنية في حين الجانب الفرنسي كان يفقد من أوراقه ووسائله السياسية الكثير. وهو ما تجسد بالفعل بعد فترة قصيرة.

وبعد انتهاء تلك المفاوضات من دون تطور ملموس، سربت إلى وسائل الاعلام من أن الطرفين قد اتفقا على مسودة تعترف باستقلال الجزائر مع بعض الامتيازات لفرنسا في الجزائر. ونقلت جريدة البلاد، وبقية الصحف الأخرى، عن وكالات الأنباء العالمية تفاصيل الموضوع الذي نشر في الصفحة الأولى من العدد الصادر في يوم الأول من مارس 1962 تحت عنوان كبير: "تفاصيل الاتفاق الجزائري الفرنسي"، إذ أشارت الجريدة إلى أن وسائل الاعلام نشرت مسودة اتفاق بين الطرفين، ومن بين الأمور التي ركزت عليها

وقوع انفجار في مدينة باريس قامت به منظمة الجيش السري، وعلقت على الحادث بالقول: "وقع انفجار عنيف في باريس اليوم اسفر عن مقتل اثنين من رجال الشرطة وطالب جامعي كان يمر بالقرب من مكان الحادث وأصيب حوالي 47 شخص"⁽³⁵⁾. وفي ذات السياق أشارت جريدة البلاد الى خبر نشرته في صفحتها الاولى حمل عنوان: (اطلاق النار على طائرة بريطانية حلقت فوق مقر الوفد الجزائري في ايفيان)، وجاء فيه: "أطلقت المدفعية السويسرية المضادة للطائرات النار على طائرة بريطانية حلقت صباح أمس فوق مقر الوفد الجزائري في ايفيان، حيث تجري المفاوضات الجزائرية الفرنسية. وذكرت ان الطائرة قد أخطأت طريقها"⁽³⁶⁾. وعلى ما يبدو من ان الحادثة كانت تدل على وجود مخاوف من جانب السلطات الفرنسية والسويسرية من احتمالات قيام منظمة الجيش السري بهجمات ارهابية على مقر إقامة الوفد الجزائري ومكان المفاوضات. وما يؤكد ذلك ما أشارت اليه ذات الجريدة من ان منظمة الجيش السري كانت تنوي مهاجمة السجن الذي يقيم به أحمد بن بله ورفاقه⁽³⁷⁾. وكان وزير الخارجية الجزائري سعد دحلب قد أعلن من قبل تمسك حكومته بضرورة انتهاء نشاط منظمة الجيش السري كشرط اساس لوقف اطلاق النار بين الطرفين. ونشرت جريدة البلاد هذا التصريح بعنوان رئيس (لا وقف لاطلاق النار في الجزائر قبل القضاء على منظمة الجيش السري) وأشارت الى تصريحه بالقول: "صرح سعد دحلب وزير خارجية الحكومة الجزائرية المؤقتة بان الموعد وقف اطلاق النار يتوقف على امكانية الحكومة الفرنسية لوضع حد لجرائم منظمة الجيش السري. وقال الوزير الجزائري أن وقف اطلاق النار لا يمكن ان يتم قبل ان يقضى على النشاط الاجرامي للمنظمة الذي تقاوم في الونة الاخيرة. وقد أدلى دحلب بتصريحاته هذه في روما وهو في طريقه الى جنيف"⁽³⁸⁾.

وعلى ما يبدو ان وقع الاحداث الساخنة التي كانت تشهدها الجزائر وفرنسا نتيجة الاعمال الارهابية التي تقوم بها منظمة الجيش السري واضحا على سير المفاوضات في ايفيان. فقد اشارت جريدة الزمان إلى أن الوفدين الجزائري والفرنسي قررا العمل بوتيرة أسرع مما كانت عليه المفاوضات من أجل الوصول إلى الاتفاق النهائي وإعلان الصلح ووقف اطلاق النار. إذ كتبت تقول: "عقد الجانبان الفرنسي والجزائري اجتماعاً غير عادي من اجل التسريع لعقد اتفاقية وقف اطلاق النار... فقد اتفق الجانبان على عقد جلسات بينهما الليل واستمرت حتى ساعات متأخرة من الليل، والتي رفعت على امل استئنافها في الغد"⁽³⁹⁾. كما كتبت الجريدة تقول: "إن الوفدان قررا التوصل الى اتفاق في

الجزائري من تونس نحو ايفيان، حيث كتبت تقول: "وصل الوفد الجزائري برئاسة كريم بلقاسم الى مدينة روما قادمة من تونس في طريقه الى مدينة ايفيان... بلقاسم يعلن قبل ركوب الطائرة عن وجود بعض العقبات، ويأمل في تذليلها"⁽³⁰⁾. كما أشارت إلى أن الوفد المرافق يتألف من الأخضر طوبال ومحمد يزيد وسعد دحلب وزير الخارجية. وفيما يخص الجانب الفرنسي، أشارت الجريدة، في ذات العدد، إلى اجتماع الرئيس الفرنسي ديغول بالوفد الفرنسي المسافرين الى ايفيان، وزوده بالتعليمات الاخيرة من اجل الوصول الى تقاهم مشترك مع الوفد الجزائري⁽³¹⁾.

وفي الحادي عشر من مارس 1962، نشرت الصحف العراقية الخبر الذي وزعته وكالات الانباء العالمية بخصوص مرور المفاوضات المنعقدة في ايفيان بمرحلة دقيقة وحرجة من اجل الخروج بالنتائج المرجوة من قبل الطرفين، وبهذا الخصوص نشرت جريدة الزمان تحت عنوان رئيس: (المفاوضات تمر بأدق وأخطر مرحلة)، وكتبت تقول: "في برقية أرسلتها وكالة اسيسوثيدي برس الصحفية من ايفيان إن المحادثات مرت اليوم بأدق وأخطر مرحلة بين الجانبين، إن الوفدين الجزائري والفرنسي مازالا متفاوتين بخصوص إمكانية الوصول إلى إتفاق لوقف إطلاق النار قبل يوم الثلاثاء القادم"⁽³²⁾. وقد اعتبرت الجريدة في سياق تعليقها على الخبر من أن هذه المرحلة من المفاوضات حساسة جدا ودقيقة، ولا يمكن أن تنتهي من دون التوصل إلى إتفاق نظرا للتطورات التي تجري في الجزائر. كما نشرت جريدة الأخبار تصريحاً لرئيس الوفد الفرنسي لوي جوكس، والذي حاول من خلاله التأكيد على تذليل المصاعب التي واجهت المفاوضات حينما أشارت الى قوله: "الوزير جوكس يتوقع انتهاء المفاوضات بالنجاح وتوقيع اتفاقية الصلح"⁽³³⁾.

وعلى الرغم من انشغال الصحافة العراقية في متابعة أجواء المفاوضات في ايفيان، إلا انها ركزت في ذات الوقت على ما كان يحدث من تطورات في غاية الخطورة في الجزائر وفرنسا، نتيجة الأعمال الإرهابية التي كانت تقوم بها منظمة الجيش السري. إذ نشرت جريدة الزمان تغطية اخبارية بخصوص ما يجري من سلوك عدائي وهمجي تقوم به المنظمة من اجل عرقلة سير المفاوضات في ايفيان. حينما سلطت الضوء على تقاوم الأعمال الارهابية في فرنسا والجزائر من جانب تلك المنظمة. ففي عنوان كبير كتبت تقول: (تقاوم أعمال الارهاب في فرنسا والجزائر)، وكتبت تقول: "تجددت أعمال العنف في الجزائر فقد انفجرت ثمان قنابل بلاستيكية في مدينة الجزائر اسفرت عن مقتل جزائريين وأوربي وسقوط ثلاث جرحى جزائريين"⁽³⁴⁾. كما اشارت الجريدة الى

نهاية الليلة (يقصد ليلة 14 مارس)⁽⁴⁰⁾. وأشارت جريدة البلاد، حسب تسريبات صحفية من كواليس المفاوضات، الى ان الوفدان الجزائري والفرنسي اتفقا خلال جلسات يوم 14 من مارس على تعديل المدة الزمنية لبقاء القوات الفرنسية بالجزائر بعد وقف إطلاق النار، وجعلها من خمس سنوات الى ثلاث سنوات فقط⁽⁴¹⁾.

ومن أجل تهيئة الأجواء وقطع دابر الشائعات بخصوص ما يجري في إيفيان، وإشاعت أجواء من أمل والطمأنينة، أشارت جريدة البلاد إلى البيان الذي صدر عن وكالة الأنباء الجزائرية بخصوص سير المفاوضات في إيفيان. وحمل الخبر عنوان كبيراً: (بيان جزائري يعلن نجاح المفاوضات)، وكتبت تقول: "أعلنت وكالة الأنباء الجزائرية ان تقدماً جوهرياً قد تحقق في مفاوضات إيفيان الجارية الآن. وأنه لا صحة مطلقاً للأنباء الصحفية التي نشرت خلال 48 ساعة خلافاً لذلك. وقالت الوكالة الجزائرية ان النبأ السعيد الذي يترقبه الشعبان الجزائري والفرنسي والعالم بأسره بات وشيكاً"⁽⁴²⁾. كما أشارت الجريدة إلى تأكيد البيان حول عدم صحة الشكوك بخصوص المستوطنين فيما يخص ضمان حقوقهم التي ينص عليها القانون، حينما أشارت الى ما تضمنه البيان من قول: "ذكرت الوكالة إن الأوروبيين سيمنحون ضمانات عادلة لسلامتهم وحماية حقوقهم المشروعة في الجزائر الحديثة"⁽⁴³⁾. وأشارت أيضاً الى موقف الحكومة الجزائرية المؤقتة من الأعمال الإرهابية التي تقوم بها منظمة الجيش السري، حين القول: "ان مغامرات عصابة الجيش السري تسئ الى تعايش الجاليات المختلفة في الجزائر وهو ضروري ويمكن ومنشود"⁽⁴⁴⁾.

وكانت كل المؤشرات تتجه نحو توصل الطرفين المتفاوضين في إيفيان الى توقيع اتفاقية وقف إطلاق النار بينهما. وحاولت جريدة الزمان نقل اصداء المفاوضات في الصحافة الانكليزية وقراءتها لما كان يجري في إيفيان. فقد أشارت جريدة الزمان الى ذلك بالقول: "قالت جريدة التايمز انه لم تصدر عن المتفاوضين الجزائريين أي تلميح للرجوع عن التفاهات التي تم التوصل اليها حتى الان. وان كانت المشاكل لم تحل بعد وهي ذات قيمة واضحة"⁽⁴⁵⁾. وأضافت نقلاً عن جريدة الصانداي تايمز تقول: "من المأمول ان يؤدي التعايش بين الجزائريين والمستوطنين الفرنسيين في ظل النظام الجديد الى بقاء الكثير من الفرنسيين، وهم الذين يقلقهم الخوف من المستقبل المجهول"⁽⁴⁶⁾.

وعادت جريدة الزمان عشية التوقيع على الاتفاقيات، ونشرت في صدر صفحتها الاولى بعنوان رئيس(انهاء حرب الجزائر)، حيث علقت تقول: "بات

في حكم المؤكد اعلان اتفاقية وقف إطلاق النار"⁽⁴⁷⁾. وأسندت الجريدة قراءتها تلك على ما ذكره وزير الاستعلامات الفرنسي، والذي صرح قائلاً: "ان المفاوضات السلام الفرنسية الجزائرية تبعث على الارتياح وان الاتفاق قد يتم خلال الساعات القادمة، ويمكن ان تكون بضع ايام قادمة على ابعد تقدير"⁽⁴⁸⁾. كما اكدت جريدة الاخبار في سياق تغطيتها لسير المفاوضات في إيفيان الى انه لم تعد هناك مسائل شائكة تحول دون توصل الطرفين لاتفاق بينهما⁽⁴⁹⁾. كما ركزت جريدة الزمان على تصاعد وتيرة المفاوضات بين الطرفين حينما أشارت إلى عقد جلستين مطولتين في يوم الخامس عشر من مارس. كما تطرقت الجريدة إلى أن المشكلة الوحيدة التي تقف عائقاً للحيلولة دون الاتفاق هو مسألة تشكيل الحكومة الانتقالية التي سوف تتولى تسيير شؤون الجزائر بعد وقف إطلاق النار⁽⁵⁰⁾. في حين أشارت جريدة البلاد إلى توصل الطرفين الفرنسي والجزائري للاتفاق بخصوص تولي عبد الرحمن فارس رئاسة الحكومة الانتقالية بعد إعلان وقف إطلاق النار. فيما أشارت إلى أن الحكومة سوف تتشكل من 12 وزيراً، أربعة منهم من جبهة التحرير وأربعة فرنسيين، فيما سيتم اختيار أربعة أعضاء باتفاق الطرفين الفرنسي والجزائري⁽⁵¹⁾. كما أشارت جريدة البلاد إلى أن المتفاوضين اتفقوا على تسوية موضوع مستقبل مقاتلي جبهة التحرير الوطني، إذ أشارت إلى: "تم الاتفاق على أن يبقى مقاتلي جبهة التحرير الوطني في المواقع التي يسيطرون عليها، والسماح لأفراد الجيش في تونس والمغرب العودة الى الجزائر من دون أسلحتهم، كما تقرر عودة اللاجئين وتشكيل لجنة تضم في عضويتها جزائريين وفرنسيين والصليب الأحمر الدولي"⁽⁵²⁾.

حينما تكلفت مسيرة الجهاد الوطني للشعب الجزائري والتوقيع على اتفاقيات إيفيان في 18 مارس 1962. فقد هلت الصحافة العراقية للنجاح والانتصار الذي حققه للشعب الجزائري وهزيمة للاستعمار الفرنسي الذي رضخ أخيراً للإرادة الحق والقوة التي عبر عنها في قتال استمر أكثر من سبع سنوات. ونشرت الصحف العراقية البيانات التي صدرت من قبل الحكومة الجزائرية المؤقتة والحكومة الفرنسية التي أعلنت وقف إطلاق النار على جبهات القتال في الجزائر⁽⁵³⁾. وإلى جانب ذلك تابعت التوقيع على الاتفاقيات باهتمام كبير من خلال نشر اللقاءات الصحفية ونشر التفاصيل التي لها علاقة بالموضوع. فقد أشارت جريدة الثورة الى الموضوع الى انه انتصار كبير في صالح قضايا الأمة العربية، لان باستقلال الجزائر يعني قوة إضافية للأمة من أجل خوض المعركة المصيرية ضد الاستعمار والصهيونية في فلسطين. وتابعت الجريدة في اطار

منون وزير الدفاع الهندي ورئيس وفد حكومته لمؤتمر نزع السلاح ادلى بتصريح اعرب فيه عن امله في ان تكون هذه الاتفاقية فاتحة عهد سلام في افريقيا كلها⁽⁶⁰⁾.

لقد ركزت الصحافة العراقية بعد اعلان توقيع اتفاقيات ايفيان على متابعة ردود الفعل الرسمية والشعبية في العراق. فقد نشرت جريدة العهد لقاءات لعدد من الوزراء العراقيين بخصوص موقفهم مما حدث في ايفيان. ومن بين تلك التصريحات، تعليق وزير الصناعة العراقي محي الدين عبد الحميد، والذي نشرتها تحت عنوان كبير في صفحتها الاولى: "الجزائر رفعت رأس العرب"، ثم اضاف يقول: "إن ثورة الجزائر رفعت رأس العروبة عاليا بكفاح أبنائها الاشواش ودماء شهدائها الابرار، وأعطت العالم أجمع مثلاً حياً عن كفاح الشعوب وامتلات الدنيا فخراً واعتزازاً وإيماناً بانتصارات أخرى ايذاناً بتحرير باقي الوطن العربي الكبير"⁽⁶¹⁾. وأضاف الوزير محسن الشيخ معلقاً على الموضوع بالقول: "لا يستطيع وصف شعوري ازاء ما تحقق من انتصار للشعب الجزائري ... وأشعر بأنه من واجبا أن نفرح بهذه المناسبة التي حققت الحرية والاستقلال للشعب الجزائري"⁽⁶²⁾.

كما غطت الصحافة العراقية احتفالات العراقيين بالانتصار الجزائري في ايفيان. وأجرت جريدة تحقيقاً صحفياً حول ذلك، وأشارت على سبيل المثال، بالقول: "لاحظنا في الشوارع والمحلات تجمعات المواطنين حول أجهزة الراديو عند حلول مواعيد نشرات الاخبار وذلك من أجل سماع المزيد من التفاصيل عن لحدث العظيم والانتصار الكبير الذي تحقق للشعب الجزائري الشقيق والذي يعتبر نصراً للشعب العراقي"⁽⁶³⁾. فيما أشارت جريدة الزمان بهذا الخصوص معلقة: "استقبل أبناء الشعب العراقي نبأ وقف إطلاق النار في الجزائر بمزيد من الفرح وأصبح هذا الحادث العربي العظيم حديث الناس في كل مكان من البلاد"⁽⁶⁴⁾. أما جريدة العهد فقد ركزت على هذا الموضوع من خلال إظهار التفاعل الجماهيري مع الحدث، وكتبت تقول: "توجه عدد كبير من المواطنين ومن ممثلي الهيئات والمنظمات العراقية الى مكتب البعثة الدبلوماسية للحكومة الجزائرية في بغداد من أجل تقديم التهاني إلى أعضاء البعثة الجزائرية بهذه المناسبة العظيمة"⁽⁶⁵⁾. فيما وزعت وكالة الأنباء العراقية تحقيقاً اخبارياً تناقلته الصحف العراقية، ومن بين ما ركزت عليه، قولها: "إن الشعب العراقي يعتبر هذا النصر نصراً له... وقد كان الارتياح بادياً على أوجه الجميع في كل مكان... وأعرب عداً كبيراً من أبناء الشعب عن فرحتهم بالنبأ. واعتبروا حملاً ثقيلاً قد أزيح عن كواهلهم واعتبر المواطنون العراقيون استقلال الجزائر وحصولها على حريتها سيقرب يوم استعادت

تغطيتها الاعلامية للموضوع ردود فعل الرأي العام العراقي، والذي بارك بدوره ما تحقق من انجاز في اطار تأكيد الحق العربي واستقلال البلاد العربية⁽⁵⁴⁾. وفي نفس الاتجاه، كتبت جريدة قتي العراق مقالاً افتتاحياً حمل عنوان: "عندما انتصرت إرادة الجزائر"، باركت فيه انتصار الثورة الجزائرية، واعتبرته اكبر نصر للجزائر، بل هو أول ثمرة ناضجة يجنيها الشعب الجزائري من نضاله ضد الاحتلال الفرنسي، وكتبت تقول: "وأخيراً ينحني الاستعمار الفرنسي أمام أعظم ثورة تحررية، وأخيراً تنحني فرنسا أمام إرادة شعبنا العربي في الجزائر بعد ثورة عارمة دامت أكثر من سبع سنوات، فيعلن وقف إطلاق النار في ارض الجزائر الطيبة"⁽⁵⁵⁾.

في حين ركزت جريدة الزمان على مسألة الاصرار على الثوابت الوطنية بالنسبة للمفاوض الجزائري هي التي مكنته في نهاية المطاف من اجبار الطرف الفرنسي على الاستجابة للمطالب الجزائرية، وكتبت الجريدة بهذا الخصوص تقول: "اننا نحي الوفد الجزائري الذي وقف متحدياً كل الاساليب والوسائل التي ارادت فرنسا من خلالها إفراغ المطالب الجزائرية من قيمتها وأحققتها"⁽⁵⁶⁾. فيما نشرت الجريدة في مناسبة أخرى، تغطية صحفية حول الاحتفالات التي شهدتها مناطق عدة من مدينة بغداد بمناسبة توقيع اتفاقيات ايفيان، لأنها اعتبرت المناسبة عيداً عربياً من حق جميع العرب الاحتفال به⁽⁵⁷⁾.

وتابعت الجرائد العراقية اصداء توقيع اتفاقيات ايفيان على الساحة الدولية ايضاً، فقد اشارت جريدة البلاد الى ترحيب دول الاعضاء في مجلس الامن الدولي باتفاقية وقف اطلاق النار وأشارت بالقول: "باعتبارها تطور ذو اهمية قصوى، وأعرب الدبلوماسيون عن أمانهم في ان تبذل الحكومة الفرنسية جهوداً لمعالجة منظمة الجيش السري الارهابية لتطبيق حق تقرير المصير بسرعة"⁽⁵⁸⁾. وتابعت جريدة العهد الأصداء الدولية، وركزت على الموقف البريطاني من اتفاقية ايفيان، حين أشارت إلى ترحيب الحكومة البريطانية بقرار وقف اطلاق النار والتوقيع على الاتفاق الذي تم بين فرنسا والجزائر في مدينة ايفيان، وأكدت على تأكيد الناطق الرسمي البريطاني بان تكون الاتفاقية الاساس الذي يمكن تقام من خلاله علاقات ثنائية بين فرنسا والجزائر على تستند على الاحترام والتقدير بينهما. الى جانب تنويعها الى الخطاب الذي اذاعة الجنرال ديغول للشعب الفرنسي بخصوص الاتفاق، واعتبرته بداية نهاية مرحلة من التعتن الفرنسي بخصوص حق الجزائر وشعبها بالاستقلال والحرية⁽⁵⁹⁾.

فيما اشارت جريدة الاخبار الى ردود الفعل التي أحدثتها توقيع الاتفاقيات داخل اروقة مؤتمر نزع السلاح، وركزت على تصريح وزير الدفاع الهندي وهو رئيس وفد بلاده في المؤتمر بالقول: "اما كريشنا

خلال تغطية ومتابعة المفاوضات وما تمخض عنها من اتفاقيات انتهى بموجبها الاحتلال الفرنسي للجزائر بعد قرابة 132 سنة، في أن تضع المتابع العراقي للأحداث في الجزائر في عين المكان نظرا للمتابعة المستمرة بما مكنها من تهيئة أجواء المناسبة في خلق رأي عام عراقي داعم للثورة الجزائرية ومشروعها الوطني. وخير دليل على ذلك تلك البرقية التي بعث بها المناضل أحمد بن بله الى رئيس نقابة الصحفيين العراقيين يشكره فيها على موقف الصحافة العراقية في دعم القضية الجزائرية وتبنيها. وقد تناقلت الجرائد العراقية هذه البرقية بفخر كبير واعتزاز منقطع النظير، وكتبت جريدة الاخبار في صدر صفحتها الاولى عنوانا كبيرا: (الزعيم الجزائري بن بله يشكر الصحافة العراقية على تبنيها القضية الجزائرية) (70).

وهكذا نجد، أن الصحافة العراقية ساهمت من موقعها في دعم الثورة الجزائرية، وهو ديدنها الدائم، وذلك من خلال تثقيف الرأي العام العراقي بكل مستجداتها وتطوراتها، إذ يمكن اعتبار هذا الاهتمام المتواصل وسيلة من وسائل الضغط التي مارستها الصحافة على السلطات العراقية من اجل اتخاذ مواقف اكثر قوة وصلابة في دعم الثورة الجزائرية، والتي اعتبرتها واجبا قوميا لا يمكن التغافل عنه مهما كانت الظروف. ومن هذا المنطلق، كان موضوع اتفاقيات ايفيان يعكس جزءا من تلك التوجهات القومية للصحافة العراقية، على اختلاف انتماءاتها وتوجهاتها الايديولوجية. وهو ما جعلها تحظى باحترام القارى العراقي الذي كافح من أجل تبني قضايه القومية بالموازاة مع قضايه الوطنية آنذاك.

فلسطين السليبية وتحرير الأجزاء العربية التي مازالت حتى الآن تحت نير الاستعمار" (66). وعلى إثر توقيع اتفاقيات ايفيان، أخذ الصحافة العراقية تركز على مستقبل الجزائر وسير الأمور فيها، لاسيما محاولات الاطراف التي عارضت الاتفاقيات لتضررها نتيجة ذلك. وفي هذا الاتجاه كتبت جريدة الهدف في عددها الصادر في الرابع من أفريل تقول: "إن وقف اطلاق النار لايعني السلام، فان النهاية الرسمية للحرب التي دامت أكثر من سبع سنوات لا يمكن أن تكون نهاية التوتر. وكان الصدى المباشر لوقف اطلاق النار المصادمات في وهران والجزائر وحشد منظمة الجيش السري الارهابية كل أسلحتها وطاقاتها في آخر حملة لها". بينما ركزت جريدة الزمان على صمود الشعب الجزائري في وجه جرائم منظمة الجيش السري التي يسعى من خلالها افشال عملية وقف اطلاق النار، وعلقت تقول: "الشعب الجزائري يعطي مثالا رائعا في الثبات والصبر والصمود بوجه جرائم منظمة الجيش السري" (67).

وحينما نال الشعب الجزائري استقلاله في الخامس من جويلية بعد جهاد مسلح وتضحيات كبيرة وطرده الاستعمار الفرنسي، أبرزت جريدة قتي العراق فرحة وابتهاج الشارع العراقي بهذا الإنجاز العظيم، واعتبرته مؤشرا ايجابيا في تحويل المسار القومي نحو تحرير الأمة العربية بأكملها من السيطرة الاستعمارية بمختلف صورها الذي سيؤدي إلى نهضتها من جديد (68). وعبرت الجريدة عن فرحها بانتصار الثورة الجزائرية على الاستعمار الفرنسي بمقال افتتاحي حمل عنوان: "وأخيرا ... انتصرت الجزائر" مجد من خلال الجريدة انتصار الشعب الجزائري بعد سنوات من الجهاد وتقدير الغالي والنفيس، وقد وصفه هذا الانجاز بأنه: "سبيل أبدأ عيد النصر والعروبة، وسبيل رمز البطولات والكفاح، وسيكتب في سجل عروبتنا الخالد. وسيكون عيدا قوميا نحفل به إلى جانب أعيادنا القومية الأخرى" (69).

ختاما، لقد استطاعت الصحافة العراقية من

الهوامش:

- 1 - علي العبيدي، الثورة الجزائرية في الصحافة العراقية 1954-1962... جريدة فتى العراق نموذجاً، مقال منشور في مجلة: عصور، العدد(8-11) السنة 2006-2007، وهران، ص 73.
- 2 -المرجع نفسه، ص 73.
- 3 -إيفيان (Evian) بلدة فرنسة تقع على بحيرة ليمان (Leman) قرب الحدود السويسرية.
- 4 -إن القيمة الحقيقية التي رسختها ثورة الأول من نوفمبر 1954 جاءت مخالفة لكل من حاول إن يشكك في قدرة الشعب الجزائري في التحرك من أجل حريته واستقلاله. وهنا استعين بمقاله الدكتور يحيى بوعزيز، حيث قال: "إن ثورة نوفمبر 1954 هي التي دفعت هذه الشبهة وأزالت هذا التشكيك وأثبتت للخاص والعام، للعدو والصدیق، إن الجزائر لم تكن قلباً ميتاً، ولا طائراً مكسر الجناحين بل هي قلب شاب ينبض بالحياة والحيوية والنشاط، وصقر لا تتاله السهام، والنبال ولا تقلت منه فريسته مهما كانت طاغية أو شرسة" للمزيد من المعلومات ينظر: يحيى بوعزيز، مكانة ثورة أول نوفمبر 1954 بين الثورات العالمية ودورها في تحرير الجزائر، مقال منشور في مجلة:المصادر، العدد 4، السنة 2001، الجزائر، ص39.
- 5 -المرجع نفسه، ص 46.
- 6 -بشير بلّاح، تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1962، ج2، الجزائر، دار المعرفة، 2006، ص 115.
- 7 -يحيى بوعزيزي، المرجع السابق، ص 46.
- 8 -للإطلاع على سير هذه الاتصالات والمفاوضات السرية الغير رسمية التي سبقت المفاوضات الرسمية المعلنة، ينظر: محمد الأمين بلغيث، فصل الصحراء الجزائرية عن الشمال... أسلوب فرنسي جديد للحرب النفسية ضد الثورة، مقال منشور في مجلة: المصادر، العدد 4، السنة 2001، الجزائر، ص 119-120.
- 9 -جريدة الزمان(بغداد)، في 4 ماي 1961.
- 10 -جريدة الجمهورية(بغداد)، في 4 ماي 1961.
- 11 -المصدر نفسه.
- 12 -لا بد من الإشارة هنا، إلى أن الجنرال ديغول أصبح مقتنعا بأن الجزائر سوف تكون المستنقع الذي سيغرق فرنسا، لاسيما وإن إصرار المستوطنين الفرنسيين في الجزائر رفضوا فكرة استقلال الجزائر وعارضوا أي طرح من هذا القبيل، ونتيجة ذلك قرر ديغول الإسراع بإجراء المفاوضات مع الجزائريين، إلى جانب الضغط عليهم من أجل تحقيق أكبر قدر من المكاسب السياسية والاقتصادية والإستراتيجية. وكان تمرد الجنرالات في 22 أبريل 1961 القشة التي قصمت ظهر البعير، حينما اقتنع ديغول استحالة الحلول العسكرية للقضية الجزائرية. للتفاصيل ينظر: بشير بلّاح، تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1962، ج 2، دار المعرفة، 2006، ص 117-118.
- 13 -جريدة البلاد(بغداد)، في 5 ماي 1961.
- 14 -جريدة الزمان، في 4 ماي 1961.
- 15 -جريدة الزمان، في 6 ماي 1961.
- 16 -صالح بلّاح، تاريخ الثورة الجزائرية، الجزائر، دار الكتاب الحديث، 2010، ص 374-375.
- 17 -جريدة الرأي العام(بغداد)، في 15 جوان 1961.
- 18 -جريدة الزمان، في 16 جوان 1961.
- 19 -انظر على سبيل المثال: جريدة البلاد، في 16 جوان 1961.
- 20 -جريدة الزمان، في 6 جويلية 1961.
- 21 -مرت المفاوضات بين الطرفين الجزائري والفرنسي بمراحل شد وجذب وعقدت اللقاءات في أربع مناسبات، وهي: مفاوضات إيفيان الأولى (20 ماي - 13 جوان 1961)، مفاوضات لوغرّان (20 - 28 جويلية)، مفاوضات لي روس (11-19 فيفري 1962)، وأخيراً مفاوضات إيفيان الأخيرة (7-18 مارس 1962).
- 22 -جريدة فتى العراق (الموصل)، في 27 فيفري 1962 .
- 23 -أشارت جريدة البلاد في صدر صفحتها الأولى الى انه بموجب الاتفاق هذا سيحتفظ كل مستوطن أوربي بجنسيته الفرنسية لمدة ثلاث سنوات بعد استفتاء تقرير المصير على ان يختار بعدها بين البقاء في الجزائر بجنسيته الفرنسية او التجنس بالجنسية الجزائرية وسيكون من حق كل من يختار الجنسية الجزائرية ان يستعيد جنسيته بصورة تلقائية اذا ما غادر الجزائر وأقام في فرنسا، اما اصحاب العقارات والأراضي فقد ضمنت حقوقهم ضد نزع ملكيتهم دون تعويض عادل على ان تقرر هذه المسألة لجنة فرنسية - جزائرية اذا ما قررت الحكومة الجزائرية في المستقبل تأميم الاراضي بشكل من الاشكال، الى جانب امور اخرى مثل بقاء المناهج الدراسية الفرنسية والبرامج الثقافية على ماهي عليه الان. للتفاصيل ينظر: جريدة البلاد في 1 مارس 1962.

- 24 - جريدة البلاد في 1 مارس 1962.
- 25- المصدر نفسه.
- 26 -المصدر نفسه.
- 27-جريدة الزمان، في 3 مارس 1962.
- 28 -جريدة الاخبار (بغداد)، في 5 مارس 1962.
- 29 -جريدة الزمان، في 7 مارس 1962.
- 30- المصدر نفسه.
- 31 -المصدر نفسه.
- 32 -جريدة الزمان، في 11 مارس 1962.
- 33 -جريدة الاخبار، في 11 مارس 1962.
- 34 -جريدة الزمان، في 11 مارس 1962.
- 35- المصدر نفسه.
- 36 -جريدة البلاد، في 13 مارس 1962.
- 37 -المصدر نفسه، في 11 مارس 1962.
- 38 -المصدر نفسه، في 6 مارس 1962.
- 39 -جريدة الزمان، في 13 مارس 1962.
- 40 -المصدر نفسه، في 11 مارس 1962.
- 41 -جريدة البلاد، في 15 مارس 1962.
- 42 -المصدر نفسه، في 11 مارس 1962.
- 43 - المصدر نفسه.
- 44 -جريدة البلاد، في 11 مارس 1962.
- 45 -جريدة الزمان، في 17 مارس 1962.
- 46 -المصدر نفسه.
- 47- المصدر نفسه.
- 48- المصدر نفسه.
- 49 -جريدة الاخبار، في 17 مارس 1962.
- 50 -جريدة الزمان، في 17 مارس 1962.
- 51 -جريدة البلاد، في 17 مارس 1962.
- 52- المصدر نفسه.
- 53 -جريدة الزمان، في 19 مارس 1962؛ جريدة البلاد، في 19 مارس 1962؛ جريدة الاخبار، في 19 مارس 1962؛ جريدة الهدف، في 19 مارس 1962.
- 54 -جريدة الثورة، في 19 مارس 1962.
- 55 -جريدة قتي العراق، في 25 مارس 1962 .
- 56 -جريدة الزمان، في 26 مارس 1962.
- 57- المصدر نفسه.
- 58 -جريدة البلاد، في 19 مارس 1962.
- 59 -جريدة العهد، في 19 مارس 1962.
- 60 -جريدة الاخبار، 20 مارس 1962.
- 61 -جريدة العهد، في 20 مارس 1962.
- 62 -المصدر نفسه.
- 63 -جريدة البلاد، في 20 مارس 1962.
- 64 -جريدة الزمان، في 20 مارس 1962.

- 65 جريدة العهد، في 20 مارس 1962.
- 66 جريدة البلاد، في 20 مارس 1962.
- 67 جريدة الزمان، في 8 افريل 1962.
- 68 جريدة فتي العراق، 6 جويلية 1962.
- 69 جريدة فتي العراق، 6 جويلية 1962.
- 70 جريدة الاخبار، في 15 ماي 1962.

الاستشراف والتكليف المستقبلي في السيرة النبوية: صلح الحديبية أنموذجاً

صالح بن أحمد البوسعيدي

جامعة السلطان قابوس، سلطنة عمان

مقدمة

الحمد لله العزيز الحكيم، بيده الملك يعز من يشاء ويذل من يشاء، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أحسن الناس سيرة وأصفاهم سريرة، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين،
أما بعد:

فإن صلح الحديبية يعتبر علامة فارقة وتحولاً جذرياً في مسيرة الدعوة الإسلامية التي قادها رسول الله ﷺ، فإذا كانت الهجرة بداية لقيام الدولة الإسلامية في المدينة فإن صلح الحديبية كان بداية لرسوخ تلك الدولة وامتداد جذورها بانتشار دعوتها ليس إلى أقاصي الجزيرة العربية كعمان والبحرين فحسب، بل إلى خارجها، إلى بلاد الروم والفرس ومصر.

لقد كان في صلح الحديبية (الذي وصفه الله تعالى بالفتح العظيم) فوائد جليلة للمسلمين لم يدركوها في حينه ولكن الرسول ﷺ الذي كان كأنما ينظر إلى وراء الغيب من ستر رقيق مدركاً بتسديد من الله تعالى حاجة المسلمين لهذا الصلح، ومتوقعاً للفوائد العظيمة التي سيجنونها منه في الأمد القريب قبل البعيد.

وقد تعرض لإجمال تلك الفوائد عدد من الكتاب في كتبهم حول السيرة النبوية، كالمباركفوري في (الرحيق المختوم) ودمحمد سعيد البوطي في (فقه السيرة النبوية).

وفي هذا البحث المتواضع أردنا أن نستجلي بتفصيل أكثر تلك الفوائد التي عادت على الدعوة الإسلامية بالخير العميم، محاولين أن نستقري الأحداث التي سبقت الصلح والتي تلتها، لنفهم كيف نظر الرسول ﷺ إلى هذا الصلح؟ وكيف استفاد منه؟ والنتيجة التي آل إليها؟.

ونورد من الأحداث التاريخية أهمها دون استطراد لنفسح المجال للدراسة والتحليل.

فإن وفقنا الله عز وجل فله المنة والفضل وحده، وإن كانت الأخرى ففسلها سبحانه أن يغفر خطايانا وييسر لنا أمورنا. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المبحث الأول: الوقائع التاريخية.

المطلب الأول: الأحداث التي سبقت صلح الحديبية (غزوة الأحزاب وما أفرزته من واقع سياسي وعسكري).

في مكة، ضايق المشركون رسول الله ﷺ ومن آمن معه من المسلمين حتى اضطروهم للهجرة إلى المدينة، وبعد الهجرة أمل الرسول ﷺ ومن معه أن تكف قريش عنهم فتدعهم ودعوتهم، إلا أن طبيعة قريش التي ترى نفسها الزعيمة الدينية للعرب والحارسة لمقدساتهم آبت عليهم ذلك فأخذوا يهدنون المسلمين بأنهم سيلاحقونهم إلى المدينة للقضاء عليهم بل أنهم راسلوا أياً بن أبي سلول (الذي بقي مشركاً ولم يدع الإسلام إلا بعد معركة بدر) للإعراب له عن تعاطفهم معه واستعدادهم للتحالف معه.

هذا الأمر جعل الطرفين (المسلمين وقريشاً) في حالة حرب مفتوحة نتج عنها في ثلاث سنين – إضافة إلى عدد من المناوشات – معركتان أساسيتان: بدر وأحد، وفي حين انتهت الأولى بهزيمة منكرة لقريش كانت الحرب الثانية رد اعتبار لهم.

وفي السنة الخامسة للهجرة¹ سعى يهود بني النضير –الذي كانوا يقيمون في خيبر بعد إجلائهم الرسول من المدينة نتيجة نقضهم لعهد السلام الذي أبرمه الرسول ﷺ معهم حين هاجر إلى المدينة

– لحشد الجيوش لقتال المسلمين والقضاء عليهم.

سعى اليهود لأن يجمعوا أكبر تحالف ليس لهزيمة المسلمين فحسب، بل للقضاء على الدعوة الإسلامية قضاء تاماً، فذهبوا إلى قريش الذين سارعوا للاستجابة، ثم ذهب اليهود إلى قبائل عربية أخرى وهي: غطفان وبنو سليم وبنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرة² واستطاعوا إقناعهم للانضمام للتحالف، وحينها اجتمع تحالف يضم أكثر من

والقبائل العربية في بقية الجهات، والتحالف الذي حدث بين أن هؤلاء الأعداء رغم اختلافهم في الدين والنسب إلا أن تحالفهم على المسلمين أمر ممكن، وتحالفهم يؤدي إلى خطر جسيم على المسلمين، وعليه فلم يكن من الممكن أن يسمح الرسول ﷺ بتكرار هذا التحالف واستمراره.

2. كما أبرزت معركة الخندق عدم وجود متنفس قوي للمسلمين خارج المدينة، فلو كان للمدينة امتداد خارجها بانتشار الإسلام في عدد من القبائل لكان من الممكن الاستعانة بهم لفض الحصار عن المدينة أثناء معركة الخندق.

3. كذلك أظهرت هذه المعركة وما سبقها من معارك ما يمكن أن تسببه الحروب (خاصة مع قريش) من شغل للمسلمين عن مهمتهم الأساس وهي الدعوة إلى الله تعالى ونشر دينه ليلبغ كل الناس، ومن هنا فقد كانت الحاجة داعية لهدنة مع قريش.

4. أيضاً أوضحت هذه المعركة ما يمكن لقريش أن تفعله، فهي رغم ضعفها ما تزال القبائل العربية تعتبرها الزعامة الدينية لها، وهم على استعداد للاستجابة لها إذا ما دعتهم للتحالف معها على المسلمين.

لأجل كل هذه الأمور وغيرها، فإن الرسول ﷺ رأى أنه من واجبه التحرك لمنع استمرار هذا التحالف، فعليه أن يسعى لتفريقه ليسهل عليه القضاء على هؤلاء الأعداء واحداً تلو الآخر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذا الوضع كان عائقاً أمام انتشار الدعوة الإسلامية، وقد كان المسلمون في حاجة إلى فترة هدنة لتفرغوا فيها للدعوة إلى الله تعالى ولتبلغ دعوتهم إلى أماكن لم تبلغها بعد.

المطلب الثاني: مسير الرسول ﷺ للعمرة.

رأى رسول الله ﷺ في المنام أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، وأنه دخل البيت، وأخذ مفتاحه، فعزم على العمرة بعد أن بقي هو وأصحابه ست سنوات لم يعتمروا، فاستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب، ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت، فأبطأ عليه كثير من الأعراب، وابتاع رسول الله ﷺ بدنا ليقدمها هدياً⁵

وخرج الرسول في يوم الاثنين الأول من ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، وخرج معه 1400 من أصحابه وممن لحق به من العرب لا يشكون في العمرة لرؤيا رسول الله ﷺ، ليس معهم سلاح إلا السيوف في القرب، فساروا حتى نزلوا بذي الحليفة فصلى بهم رسول الله ﷺ الظهر، ثم دعا بالبدن وهي سبعون فجالت، ثم اشعر منها عدة وهي موجهات إلى القبلة في الشق الأيمن، ثم أمر ناحية بن جندب فاشعر ما بقي وقلدهن نعلا نعلا، واشعر المسلمون بدنهم وقلدوها، وكان معهم مائتا فرس، وبعث ﷺ بسر بن

عشرة آلاف مقاتل توجهوا جميعاً لمقاتلة المسلمين.

كانت استخبارات المدينة قد علمت بأمر التحالف العسكري الذي عقد بين قريش في جنوب المدينة المنورة وخيبر في شمالها، وكان هدف هذا التحالف جعل الدولة الإسلامية بين طرفي الكماشة ثم إطباق فكيها عليها وإنهاء الوجود الإسلامي فيها³، وحين استشار الرسول ﷺ أصحابه كما عودهم، أشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق حول أجزاء من المدينة المنورة، فأعجب الرسول ﷺ بالفكرة خاصة وأن طبيعة المدينة تتلاءم مع هذا التكتيك الجديد، لأن المدينة محاطة بالجبال وبالأرض الوعرة التي يصعب اختراقها، ما يعني أن المسلمين كانوا في حاجة إلى حفر الخندق حول أجزاء من المدينة وليس حولها كلها.

وحين جاء المشركون فوجئوا بالخندق ووجدوا أنفسهم أمام تكتيك حربي جديد لا عهد للعرب به، فقد كانوا يظنون أنهم سيشنون حرباً سريعة يستطيعون الانتصار فيها لتفوقهم في العدد والعتاد.

حاول المشركون اقتحام الخندق فلم يستطيعوا، وعاش المسلمون لحظات عصيبة فاصلة في مسيرة دولتهم الوليدة، فهم محاصرون من كل الجهات، ومما زاد الأمر سوءاً نقض يهود بني قريظة لعهدهم مع المسلمون وانضمامهم إلى التحالف الأثم، وهذا جعل المسلمين يخشون من أن يدخل المشركون المدينة من جهة بني قريظة، وقد وصف الله تعالى هذه اللحظات الحاسمة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا، إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ الأحزاب: 9-11.

وأخيراً يتوفيق من الله تعالى نجحت خطة المسلمين، فوجد المشركون أنفسهم في بلاء شديد، فلا هم قادرون على دخول المدينة وليس في يدهم حل آخر، ونفدت مؤناتهم وأصابهم الضجر وأرسل الله عليهم ريحاً قوية شديدة البرودة اقتلعت خيامهم وكفأت قنودهم، وحينها أمر أبو سفيان جنوده بالانسحاب فانسحبوا ليلاً بغير نظام⁴.

وبذلك انتهت هذه المعركة التي حشدت فيها قريش أقصى ما تستطيع وألقت فيها بكل ثقلها ولكن الله تعالى رد كيدهم في نحركم وفرجعوا خائبين مهزومين، غير أن الرسول ﷺ كان يرى في الأمر جانباً آخر فهو يدرك ما أفرزته هذه المعركة من وقع سياسي وعسكري يمكن تلخيصه في النقاط التالية:

1. أبرزت هذه المعركة الواقع الضعيف للمسلمين من الناحية العسكرية فهم محاطون بالأعداء من كل الجهات: قريش في الجنوب وخيبر في الشمال

المطلب الثالث: التفاوض مع المشركين وكتابة الصلح

بعد أن نزل المسلمون بالحديبية بدأت حركة التفاوض بينهم وبين قريش، فقامت قريش بإرسال أربعة مبعوثين لها على التوالي كما يلي:

1 - مكرز بن حفص بن الأخيف أخو بني عامر بن لؤي: وكان رجلاً فاسقاً، فلما وصل الرسول ﷺ وسأله عن سبب مجيئه أخبره الرسول ﷺ بأنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمة، فرجع مكرز إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ.⁹

2 - حليس بن عكمة الكناني سيد الأحابيش: وكان رجلاً متديناً، فلما راه الرسول ﷺ أمر أصحابه بأن يبعثوا الهدى في وجهه حتى يراه ويعلم أن المسلمين إنما جاؤوا معتمرين، فلما رأى حليس الهدى يسيل من عرض الوادي في قلانه قد أكل أوباره من طول الحسب عن محله رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظماً لما رأى، فقال لهم ذلك. فقالوا له: اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك.

فغضب عند ذلك وقال: يا معشر قريش والله ما على هذا حالناكم ولا على هذا عاهدناكم، أبصد عن بيت الله من جاءه معظماً له؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لانفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد.

قالوا: مه كف عنا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به¹⁰.

3 - عروة بن مسعود الثقفي: وكان سيداً مطاعاً في قومه وكثير السراية إلى الملوك، خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال: يا محمد أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتقضها بهم؟ إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمر، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وأيم الله لكأنني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً.

وأبو بكر الصديق رضي الله عنه خلف رسول الله ﷺ فقال: امصص بظر اللات! نحن نكتشف عنه؟ قال: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أبي قحافة، قال: أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بهذه.

ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه، والمغيرة ابن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد، فجعل يقرع يده إذ يتناول لحية رسول الله ﷺ ويقول: اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل ألا تصل إليك، قال عروة: ويحك ما أفظك وأغلظك!.

قال: فتبسم رسول الله ﷺ فقال له عروة: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة.

قال: أي غدر وهل غسلت سؤاتك إلا بالأمس؟!.

سفيان عينا له، ولما انبعثت به راحلته مستقبلة القبلة أحرمت بالعمرة، ليأمن الناس حربه، وليعلم الناس إنه لم يخرج لحرب وإنما خرج زائراً للبيت، ومعظماً له.

غير أنه لما بلغ المشركين خروج رسول الله ﷺ راعهم ذلك فاجتمعوا وتشاوروا فقالوا: أيريد محمد أن يدخلها علينا في جنوده معتمراً فتسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة، وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا؟! والله لا كان هذا أبداً ومنا عين تطرف.

وعزموا على صد المسلمين عن العمرة فقدموا خالد بن الوليد في مائتي فارس إلى كراع الغميم، واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش، وأجلبت ثقيف معهم وأجمعوا على منع رسول الله ﷺ من دخول مكة ومحاربتة.

ولما رجع بشر بن سفيان الذي بعثه الرسول ﷺ عينا له من مكة قال: يا رسول الله!! هذه قريش سمعت بمسيرك، فخرجوا ومعهم العوذ المطافيل⁶، قد لبسوا جلود النمر، وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدمها إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: (يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله تعالى عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تنظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله تعالى به حتى يظهره الله - تعالى - أو تنفرد هذه السالفة)⁷.

ثم قام رسول الله ﷺ في المسلمين فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: (أما بعد: يا معشر المسلمين "أشيروا علي" فقال أبو بكر: يا رسول الله إنما جئنا معتمرين ولم نجئ لقتال أحد، ونرى أن نمضي لوجهنا، فمن صدنا عن البيت قاتلناه، ووافقه على ذلك أسيد بن الحضير، فقال رسول الله ﷺ: "فسيروا على اسم الله".

ودنا خالد بن الوليد في خيله حتى نظر إلى رسول الله ﷺ وأصحابه به فصف خيله فيما بين رسول الله ﷺ وبين القبلة فأمر رسول الله ﷺ عباد بن بشر فتقدم في خيله، فقام بإزائه.

ولما أمسى رسول الله ﷺ غير طريقه حتى لا يصطدم بخالد بن الوليد، لما دنا من الحديبية بركت به راحلته، فقال الناس "حل حل" فأبت أن تتبع وألحت، فقال المسلمون: خلأت القصواء، فقال رسول الله ﷺ: "ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة" ثم قال: "والذي نفس محمد بيده لا يسألوني اليوم خطة فيها تعظيم حرمت الله تعالى إلا أعطيتهم أياها" ثم زجرها فقامت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية.

وبقي بها ينتظر ما تصنع قريش⁸.

3 - من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

4 - أن يرجع المسلمون عامهم هذا فلا يدخلون مكة، فإذا كان عام قابل خرجوا إلى مكة وخرج منها أهلها فيبقى المسلمون فيها ثلاثة أيام معهم سلاح الراكب السيوف في القرب.

ملاحظات عامة على بنود الصلح:

من خلال النظرة إلى الأحداث التي سبقت صلح الحديبية وتحليل الوضع السياسي والعسكري لكلا الجانبين: المسلمين وقريش، فإن الملاحظ أن حال المسلمين في صعود ثابت بعد خلوص المدينة المنورة للمسلمين واتساع رقعة الدولة الإسلامية ورسوخ مكانة المسلمين كقوة مؤثرة في الجزيرة العربية بعد الانتصارات العديدة التي أحرزها المسلمون على اليهود: بني قريظة وبني قينقاع وبني النضير، وعلى القبائل العربية الأخرى.

أما قريش فإن وضعها كان في أفول مطرد بعد هزيمتهم في غزوتي بدر والأحزاب التي حشدوا لها كل قوتهم وحلفائهم، وبعد تعرض شريان تجارتهم الأساس إلى الشام إلى سيطرة المسلمين، بل أن أعداد قريش المهاجرة إلى الرسول كانت في تزايد مستمر يوماً بعد يوم.

وهذا الوضع هو ما عبر عنه الرسول الكريم ﷺ حين بلغه عزم قريش على حربه فقال: "يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وأقرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على هذا الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه الساقفة"¹⁴.

وعليه، فإن المؤمل والحالة هذه أن يستطيع المسلمون فرض شروط قاسية على قريش، غير أن الأمور اتخذت منحى آخر غير المتوقع.

فمن النظرة الأولى يبدو أن الصلح لا يعطي كلا الفريقين حقوقاً متساوية بل أن شروط الصلح تميل لصالح قريش حيث إنه يطالب المسلمين برد من جاءهم من قريش مسلماً في حين أنه لا يطالب قريشاً بالمثل، كما أنه - في مخالفة صريحة للأعراف العربية - يصد المسلمين الذين جاؤوا معتمرين عن دخول مكة المكرمة وهي علي مرمى حجر منهم ويجبرهم على الرجوع إلى المدينة دون أن يعتمرُوا بعد.

ولهذا فقد بقي أغلب المسلمين - إن لم نقل كلهم - مشدوهين لهذا التنازل العجيب من الرسول غير مصدقين لما يرون¹⁵، وكان من أشدهم عمر بن الخطاب فقد أتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر أليس برسول الله؟ قال: بلى.

قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى.

فكلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً، فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ولا ييصق بصاقاً إلا ابتدروه ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش إنني قد جئت كسرى في ملكه وفيصر في ملكه والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه ! ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبداً، فروا رأيكم¹¹.

4 - سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي: بعثته قريش وقالوا له: أنت محمدًا وصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها عنوة أبداً.

فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل، فلما انتهى سهيل إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام، وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح. حينها دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب باسمك اللهم فقال رسول الله ﷺ: اكتب: باسمك اللهم فكتبها؛ ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو؛ فقال سهيل لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك؛ فقال رسول الله ﷺ: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلاحاً على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه، وإن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا إرسال ولا إغلال، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه وأنتك ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فنخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً، معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها"¹².

ثم أشهد رسول الله ﷺ على الصلح رجالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومحمود بن مسلمة، ومكرز بن حفص، وهو يومئذ مشرك وعلي بن أبي طالب¹³.

المبحث الثاني: صلح الحديبية: دراسة وتحليل.

المطلب الأول: قراءة فاحصة لبنود صلح الحديبية.

اشتمل الصلح على عدد من البنود هي:

1- أن توضع الحرب على الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض.

2 - من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه

وأما البند الثاني فقد تم تعديله بطلب من قريش وذلك أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أتاه أبو بصير عتبة بن أسيد، وكان ممن حبس بمكة فلما قدم رسول الله ﷺ بعثت قريش رجلاً من بني عامر بن لؤي، ومعه مولى لهم فقدموا على رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: "يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح لنا في ديننا الغدر وإن الله جاعل لك وللمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجاً، فانطلق إلى قومك"؛ قال: يا رسول الله، أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟! قال: "يا أبا بصير انطلق فإن الله تعالى سيجعل لك وللمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجاً"

فانطلق معهم، حتى إذا كان بذي الحليفة جلس إلى جدار وجلس معه صاحبه فقال أبو بصير: أصارم سيفك هذا يا أبا بني عامر؟ فقال: نعم، قال: أنظر إليه؟ قال: انظر إن شئت، فاستله أبو بصير، ثم علاه به حتى قتله، وخرج المولى سريعاً حتى أتى رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد، فلما رآه رسول الله ﷺ طالعا، قال: "إن هذا الرجل قد رأى فرعاً"؛ فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال: "ويحك ما لك؟" قال: قتل صاحبكم صاحبي.

فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحاً بالسيف حتى وقف على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! وفيت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتني بيد القوم وقد امتنعت بديني أن أقتن فيه أو يعيث بي. فقال رسول الله ﷺ: "ويل أمه محش حرب لو كان معه رجال"

ثم خرج أبو بصير حتى نزل على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون عليها إلى الشام، وبلغ المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة قول رسول الله ﷺ لأبي بصير "ويل أمه محش حرب لو كان معه رجال" فخرجوا إلى أبي بصير، فاجتمع إليه منهم قريب من سبعين رجلاً، وكانوا قد ضيقوا على قريش، لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ولا تمر بهم غير إلا اقتطعوها، حتى كتبت قريش إلى رسول الله ﷺ تسأله بأرحامها إلا أواهم فلا حاجة لهم بهم. فأواهم رسول الله ﷺ فقدموا عليه المدينة¹⁸.

وأما البند الرابع فقد تحقق في عمرة القضاء التي أداها الرسول والمسلمون في شهر ذي القعدة من السنة السابعة، وهو الشهر الذي صده فيه المشركون عن البيت، فقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يتجهزوا للعمرة، ولا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية، فلم يتخلف أحد شهداء، إلا رجال استشهدوا بخير، ورجال ماتوا، وحمل رسول الله ﷺ السلاح، والبيض، والدروع، والرماح وقاد مائة فرس عليها محمد بن مسلمة، فلما انتهى إلى ذي الحليفة قدم الخيل أمامه، واستعمل على

قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه فإنني أشهد أنه رسول الله. قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله. ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أأست برسول الله؟ قال: بلى. قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني¹⁶.

وكذلك أنه لما انتهى الرسول ﷺ من كتابة الصلح قال لأصحابه: قوموا فأنحروا ثم أحلقوا فما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يبق منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق لبعض¹⁷.

ومن هنا ندرك أن الصحابة رضوان الله عليهم كان لديهم ما يشبه الإجماع على أن الصلح لم يكن يلبي طموحاتهم التي كان أولها دخول مكة وأداء العمرة وقد جاؤوا محرمين ملبيين يسوقون الهدى، بل أنهم رأوا في الصلح انتقاصاً من كرامتهم وظنوا أنهم كان بإمكانهم الحصول على شروط أفضل من ذلك بكثير.

مصير بنود الصلح:

أشرنا سابقاً إلى أن الصلح اشتمل على بنود أربعة هي:

1. أن توضع الحرب على الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس وكيف بعضهم عن بعض.
2. من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه.
3. من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.
4. أن يرجع المسلمون عامهم هذا فلا يدخلون مكة، فإذا كان عام قابل خرجوا إلى مكة وخرج منها أهلها فيبقى المسلمون فيها ثلاثة أيام معهم سلاح الراكب السيوف في القرب.

أما البند الأول فقد استمر حتى خرقت قريش الصلح بعد سنتين من كتابته في السنة الثامنة للهجرة.

وأما البند الثالث فقد استمر أيضاً إلى نقض الصلح حيث دخلت قبيلة خزاعة في عقد المسلمين بينما دخلت قبيلة بكر في عقد قريش.

قريش من أهم المطالب التي سعى إليها الرسول ﷺ ليس في صلح الحديبية فحسب إنما منذ هجرته إلى المدينة المنورة بل ربما حتى قبل ذلك، فقد كان الرسول ﷺ يتمنى من قريش - إذ لم تتبعه في دينه القويم - أن تخلي بينه وبين دعوته للناس فلا تحاربه ولا تعاديه وقد عبر عن ذلك حين بلغه عزم قريش على حربه فقال: "يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على هذا الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة"²⁰.

وتمنى الرسول ﷺ لأن تكون قريش على الحياد إنما كان لأنهم أقاربه وأقارب أصحابه، فلم يكن الرسول ﷺ يرغب في أن يلتقي الأقارب في حرب يقتل بعضهم فيها بعضاً، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فلما لقريش من مكانة ومنزلة في النسيج الديني الذي تدين به الجزيرة العربية، ووقوف قريش على الحياد يفتح الباب على مصراعيه للمسلمين للدعوة إلى الإسلام، ذلك أن قريشاً تمثل المدافع والمحامي عن دين العرب الذين يعترفون لقريش بزعامتها الدينية عليهم، ومتى تخلت قريش عن دفاعها عن دين الجاهلية كان إقناع العرب بالدين الجديد أسهل.

كما أن الرسول ﷺ تعلم الدرس جيداً من تحزب الأحزاب عليه في معركة الخندق، فرأى أنه ليس من الحكمة أن يسمح بتكرار ذلك التحزب مرة أخرى، من هنا فلا بد أن يستغل تحييد قريش الذي وفره صلح الحديبية لضرب حلفائها بالأمس الذين وقفوا معها في معركة الخندق، يقول المباركفوري: "إن صلح الحديبية كان بداية طور جديد في حياة الإسلام والمسلمين، فقد كانت قريش أقوى قوة وأعندها وألدها في عداة الإسلام، وبانسحابها عن ميدان الحرب إلى رحاب الأمن والسلام انكسر أقوى جناح من أجنحة الأحزاب الثلاثة - قريش وغطفان واليهود - ولما كانت قريش ممثلة للوثنية، وزعيمتهم في ربوع جزيرة العرب انخفضت حدة مشاعر الوثنيين، وانهارت نزعاتها العدائية إلى حد كبير، ولذلك لا نري لعطفان استفزازاً كبيراً بعد هذه الهدنة، وجل ما جاء منهم إنما جاء من قبل إغراء اليهود"²¹.

ومن هنا فقد بدأ الرسول ﷺ في استغلال صلح الحديبية على محورين: المحور الأول: وهو المحور الدعوي: وذلك بتوسيع رقعة الدعوة إلى الإسلام ليسمع به من لم يكن قد سمع به بعد.

المحور الثاني: المحور العسكري: وذلك بإخضاع الذين حاربوا المسلمين من قبل أو أولئك الذين

السلح بشير بن سعد، فقبل يا رسول الله: حملت السلح وقد شرطوا أن لا ندخلها عليهم بسلح الا سلح المسافر، السيوف في القرب! فقال رسول الله ﷺ: "إننا لا ندخله عليهم الحرم، ولكن يكون قريباً منا، فإن هاجنا هيج من القوم كان السلح منا قريباً".

فمضى بالخيال محمد بن مسلمة رضي الله عنه إلى مر الظهران، فوجد بها نفراً من قريش فسألوه فقال: هذا رسول الله ﷺ يصبح هذا المنزل غدا إن شاء الله تعالى - ورأوا سلاحاً كثيراً مع بشير بن سعد، فخرجوا سراعا، حتى أتوا قريشاً، فأخبروهم بالذي رأوه من الخيل والسلح، ففزعت قريش، وقالوا والله ما أحدثنا حدثاً، وإننا على كتابنا، ومدنتنا، فقيم يغزونا محمد في أصحابه.

وسار رسول الله ﷺ بليبي والمسلمون معه يلبون، حتى انتهى إلى مر الظهران، وقم رسول الله ﷺ السلح إلى بطن يأجج حيث نظر إلى أنصاب الحرم، وبعثت قريش مركز بن حفص في نفر من قريش حتى لقوه ببطن يأجج، ورسول الله ﷺ في أصحابه، والهدي والسلح قد تلاحق، فقالوا له: والله يا محمد ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغمر، تدخل بالسلح في الحرم على قومك، وقد شرطت لهم ألا تدخل إلا بسلح المسافر، السيوف في القرب!! فقال رسول الله ﷺ: "إني لا أدخل عليهم بسلح".

فقال مركز: هو الذي تعرف به، البر والوفاء، ثم رجع مركز سريعا إلى مكة بأصحابه، فقال: إن محمداً لا يدخل بسلح، وهو على الشرط الذي شرط لكم.

وقد رسول الله ﷺ مكة صبيحة الرابع من ذي الحجة، ولما جاء مركز قريشاً بخبر رسول الله ﷺ استتف رجل من أشراف المشركين أن ينظروا إلى رسول الله ﷺ غيظاً وحققاً، وأمر رسول الله ﷺ بالهدي أملمه حتى حبس بذي طوى، ودخل رسول الله ﷺ على راحلته القصواء وأصحابه محدقون به، قد توشحوا السيوف يلبون، فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى ذي طوى على راحلته والمسلمون حوله، ثم دخل من الثنية التي تطلعه على الحجون.

وقال المشركون قبيل دخول المسلمين لمكة: إنه يقدم غدا قوم قد وهنتهم الحمى، ولقوا فيها شدة، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمين، ثم قال: "رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة".

وبقي المسلمون بمكة ثلاثة أيام، فلما انقضى الأجل أتى المشركون علياً رضي الله عنه فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل، فنكر ذلك علي - رضي الله عنه لرسول الله ﷺ فأمر رسول الله ﷺ أبا رافع بالرحيل، وقال: لا يمسين بها أحد من المسلمين "وركب رسول الله ﷺ حتى نزل بسرف"¹⁹.

المطلب الثاني: استغلال الرسول ﷺ للصلح.

لم يضيع الرسول ﷺ لحظة في استغلال فترة الهدنة التي نص عليها صلح الحديبية، فقد كانت الهدنة مع

يخططون لمحاربة المسلمين.

وستتناول كل محور من هذين المحورين بالتفصيل.

أولاً: المحور الدعوي:

ما إن رجع الرسول ﷺ من الحديبية حتى بدأ في دفع الدعوة الإسلامية إلى بعد جديد، فلم يلبث أن أرسل كتباً إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام، الأمر الذي لم يكن يخطر على بال أحد قبل ذلك، وهو مؤشر بالغ الدلالة على أن الدعوة الإسلامية بدأت تحقق رسالة بأنها ليست دعوة إقليمية وإنما هي دعوة عالمية يجب تبليغها للناس جميعاً.

كما إن في دعوة الرسول لملوك وزعماء الجزيرة العربية إيذاناً ببدء توحيد العرب تحت قيادة واحدة، وهو أمر لم يحدث من قبل (وتعد هذه الخطوة نقطة تحول هامة في تاريخ العرب والإسلام ليس لأن الرسول سوف يوحد عرب الجزيرة العربية تحت راية الإسلام فحسب، ولكن لأن هؤلاء العرب بعد أن اعتنقوا الإسلام وتمثلوا رسالة السماء أنيط بهم حمل الدعوة الإسلامية إلى البشرية كافة).²²

ولما أراد ﷺ أن يكتب إلى هؤلاء الملوك قيل له : إنهم لا يقرءون كتاباً إلا وعليه خاتم، فاتخذ النبي ﷺ خاتماً من فضة، نقشه: (محمد رسول الله)، وكان هذا النقش ثلاثة أسطر: محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر²³، واختار من أصحابه رسلاً لهم معرفة وخبرة، وأرسلهم إلى الملوك²⁴

والملوك والزعماء الذين أرسلت إليهم الدعوة إلى الإسلام هم:

1. كسرى ملك الفرس: الذي أرسل إليه الرسول ﷺ كتاباً مع عبدالله بن حذافة السهمي.²⁵

فلما قرئ الكتاب على كسرى مزقه قائلاً: "عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبلي" ولما بلغ الخبر رسول الله قال: "مزق الله ملكه"

2. قيصر ملك الروم: وحمل كتاب الرسول ﷺ إليه دحية بن خليفة الكلبي²⁶.

وكان موقف قيصر من كتاب رسول الله ﷺ أفضل من موقف كسرى فقد طلب أحداً من أقرب الناس إلى الرسول ﷺ فصادف أن كان أبو سفيان في تجارة إلى الشام مع جماعة من قريش فدعا بهم قيصر وأخذ يسألهم عن الرسول ﷺ حتى قال في آخر المقابلة لأبي سفيان: "إن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قلمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أظن أنه منكم، فلو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه"، وقد علق أبو سفيان على هذا الأمر بقوله: "لقد أمر ابن أبي كبشة إنه ليخافه ملك بني الأصفر"²⁷

وقد حاول قيصر أن يفتح قومه بدخول الإسلام ولما رفضوا ذلك رفضاً قاطعاً سايرهم وفضل ملكه على أن

يدخل في الإسلام.

3. النجاشي ملك الحبشة: واسمه أصحمة بن الأبرر، وحمل كتاب الرسول ﷺ إليه عمرو بن أمية الضمري.²⁸

ولما بلغ عمرو بن أمية كتاب الرسول ﷺ إلى النجاشي أخذه النجاشي ووضعه على عينه ونزل عن سريره على الأرض وأسلم، ثم كتب إلى الرسول ﷺ كتاباً يخبره فيه بإسلامه²⁹.

4. المقوقس ملك مصر: واسمه جريج بن متى، وحمل كتاب الرسول ﷺ إليه حاطب بن أبي بلتعة³⁰.

ولما بلغ الكتاب المقوقس سأل حاطباً عن عدد من الأمور، وأخيراً فإنه لم يسلم ولكنه عظم كتاب رسول الله ﷺ إليه وكتب كتاباً إلى الرسول ﷺ³¹

5. المنذر بن ساوي حاكم البحرين: وحمل كتاب الرسول ﷺ إليه العلاء بن الحضرمي، وقد أسلم المنذر وأسلم الكثير من رعيته.

6. هوزة بن علي الحنفي صاحب اليمامة: وحمل كتاب الرسول ﷺ إليه سليط بن عمرو العامري، فلما بلغ سليط كتاب الرسول ﷺ إلى هوزة لم يسلم وإنما كتب إلى الرسول ﷺ بكتاب فيه: "ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، والعرب تهاب مكاتي، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك"، وأجاز سليطاً بجائزة، وكساه أثواباً من نسج هجر.

فقدم بذلك كله على النبي ﷺ فأخبره، وقرأ النبي ﷺ كتابه فقال: "لو سألني قطعة من الأرض ما فعلت، باد، وباد ما في يديه"

وقد مات هوزة بعيد فتح مكة!!³²

7. الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق: وحمل كتاب الرسول ﷺ إليه شجاع بن وهب الأسدي، ونص الكتاب: "بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى، وأمن بالله وصدق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبق لك ملكك"

فرد الحارث رداً قبيحاً وقال: من ينزع ملكي مني؟! ولم يسلم.

8. عبد وجيفر ابنا الجلندی ملكا عمان: ويبدو أن مكاتبتهم تأخرت بعض الشيء ذلك أن الذي حمل كتاب الرسول ﷺ إليهما هو عمرو بن العاص الذي أسلم بعد صلح الحديبية بفترة³³، وبعد محاورة طويلة بين عمرو وملك عمان أسلم وأسلم أهل عمان، وبقي عمرو في عمان يجمع الصدقة ويوزعها بين أهلها وكان عبد وأخوه جيفر عوناً له على من خالفه³⁴.

نتائج حركة الدعوة الإسلامية في فترة الصلح:

كما رأينا فإن موقف الملوك والزعماء الذين خرجت إليهم كتب الرسول ﷺ لم يكن واحداً، فبعضهم

أشر أجنحة الأحزاب الثلاثة لأنهم هم الذين بدؤوا بتأليب القبائل على المسلمين وتعهدها بدفع تكاليف تلك المعركة، ولذلك كان القضاء عليهم أولوية قصوى للرسول ﷺ.

يقول المباركفوري: "أما اليهود فكانوا قد جعلوا خيبر بعد جلائهم عن يثرب وكرا للدس والتأمر، وكانت شياطينهم تبيض هناك وتفرخ، وتوجع نار الفتنة، وتغري الأعراب الضاربة حول المدينة، وتبيت للقضاء على النبي ﷺ والمسلمين، أو لإلحاق الخسائر الفاحشة بهم، ولذلك كان أول إقدام حاسم من النبي ﷺ بعد هذا الصلح هو شن الحرب الفاصلة على هذا الوكر"³⁷.

ولذا فما إن رجع الرسول ﷺ من الحديبية ومكث بالمدينة عشرين ليلة أو قريباً منها، حتى خرج غادياً إلى خيبر واستنفر من حوله ممن شهد الحديبية يغزون معه، وخرج رسول الله ﷺ حتى أتى خيبر من قبل الشام حتى يحول بين اليهود وحلفائهم من غطفان، وانتهى إليها ليلاً فلما أصبح خرج أهل القرية إلى مزارعهم بمكاتلهم ومساحيهم، فلما رأوا رسول الله ﷺ صاحوا: محمد والخميس، وفروا هاربين إلى حصونهم، فقال رسول الله ﷺ ورفع يديه: "الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين"

ثم أخذ المسلمون يفتحون حصون خيبر حصناً بعد حصن حتى حصروهم في آخر حصونهم أربعة عشر يوماً، فلما يئسوا من النصر سألوا رسول الله ﷺ الصلح، فصالحهم على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة، وترك الذرية لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها بذرايرهم، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض، وعلى الصفرأ والبيضاء والكرأ والحلقة، وعلى البز إلا ثوباً على ظهر إنسان، فقال رسول الله ﷺ: "وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كنتمتموني شيئاً"

ثم أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ أن يفرهم فيها على نصف ما خرج منها من التمر، وقالوا: دعنا يا محمد نكون في هذه الأرض، نصلحها، ونقوم عليها، فأعطاهم رسول الله ﷺ خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ونخل على أن للمسلمين أن يخرجوهم متى ما أرادوا³⁸.

2. السرايا: بعد أن قضى الرسول ﷺ على الجناح الثاني من أجنحة الأحزاب وهم اليهود في خيبر، كان لا بد من استغلال الصلح لتأديب الجناح الثالث منهم وهو القبائل العربية التي تحالفت مع قريش لغزو المدينة في معركة الخندق وهي: غطفان وبنو سليم وبنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرة³⁹، ولأجل هذا الهدف بعث الرسول ﷺ عدداً من السرايا إلى تلك القبائل.

فأرسل أبا بكر الصديق بسرية إلى بني فزارة وهزمهم، وأرسل بشير بن سعد بسرية إلى بني مرة

بأدر بالدخول في الإسلام كالنجاشي والمنذر بن ساوي وملكي عمان، وبعضهم رفض الدعوة رفضاً قاطعاً، وبعضهم كان بين بين، لكن هذه الخطوة من الرسول ﷺ حققت - فيما حققت من أهداف - هدفين اثنين:

الأول: وصول دعوة الإسلام إلى أماكن كان الوصول إليها قبيل سنوات ضرباً من الآمال، وهذا إضافة إلى أنه فتح الباب للدعوة الإسلامية على شتى البقاع، فإنه أكد ما وصل إليه المسلمون من عزة وشأن ومكانة في الجزيرة العربية بل في المنطقة بأسرها.

الثاني: وصول الإسلام نفسه إلى أقصى الجزيرة العربية بإسلام أهل عمان وأهل البحرين وقبائل عديدة من اليمن ومن شمال الجزيرة العربية، بل إن الإسلام خرج بقوة لأول مرة خارج الجزيرة العربية بإسلام النجاشي ومن معه، ورغم بعد هذه المناطق عن المدينة المنورة إلا أن أهلها اختاروا الدخول في الإسلام طواعية، وهو ما يؤكد حقيقة أن الإسلام لم ينتشر بالسيف والقوة وإنما باقتناع الناس بعظمة هذا الدين وصدق الرسول ﷺ.

ودعوة الرسول ﷺ لم تقتصر على الملوك والزعماء بل إن الرسول ﷺ كثف من دعوته للقبائل العربية فدخل في الإسلام عدد كبير منهم، يقول الزهري: "فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه إنما كان القتال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فقتلوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ولقد دخل في تينك السنيتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر"، قال ابن هشام: "والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربع مئة في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف"³⁵.

بل أن العديد من زعماء قريش نفسها قد دخلوا في الإسلام في فترة الصلح كخالد بن الوليد وعمر بن العاص وعثمان بن طلحة³⁶.

ثانياً: الجانب العسكري:

كما كانت الهدنة مع قريش ذات فائدة على سير الدعوة الإسلامية، فقد كان لها الجانب الإيجابي في ترسيخ قواعد الدولة الإسلامية، فبالهدنة مع قريش أمكن للمسلمين التفرغ لأعداء الدولة الإسلامية من الأعراب ويهود خيبر.

لقد جعل التحالف الذي حدث في معركة الأحزاب الرسول ﷺ يدرك الأخطار التي يمكن أن تتعرض لها الدولة الوليدة، ولذا فليس من الممكن أن يسمح الرسول ﷺ بتكرار تلك الحادثة مرة أخرى، ومن أجل ذلك قام الرسول ﷺ بخطوات لنخصها في أمرين:

1. غزوة خيبر: كان يهود بني النضير الذين أجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة وسكنوا خيبر هم

مرتبطاً بمكنون الغيب المطوي في علم الله وحده، ولذلك انتزع كما قد رأيت دهشة المسلمين أكثر مما اعتمد على فكرهم وتبويرهم، ومن هنا فإننا نعتبر أمر هذا الصلح بمقدماته ومضمونه ونتائجه من الأسس الهامة في تقويم العقيدة الإسلامية وتثبيتها..... إن صلح الحديبية كان مقدمة بين يدي فتح مكة فقد كانت هذه الهدنة - كما يقول ابن القيم - باباً له ومفتاحاً وتلك هي عادة الله سبحانه وتعالى يوطيء بين يدي الأمور التي تعلقت إرادته إنجازها مقدمات تؤذن بها وتدل عليها.

ولئن لم يكن المسلمون قد تنبهوا لهذا في حينه فذلك لأن المستقبل غائب عنهم، فأنى لهم أن يفهموا علاقة الواقع الذي رآوه بالغيب الذي يتصوره بعد؟

ولكن ما إن مضت فترة من الزمن حتى أخذ المسلمون يستشفون أهمية هذه الهدنة وعظيم ما قد انطوت عليه من خير فالناس قد أمن بعضهم بعضاً واختلط المسلمون بالكفار ونادوهم بالدعوة وأسمعهم القرآن وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين وظهر من كان متخفياً بالإسلام..... ولذلك أطلق القرآن اسم الفتح على هذا الصلح، وذلك في قوله تعالى: "لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ تُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا"⁴³.

كما يقول المباركفوري مجلياً الفوائد العظيمة لهذا الصلح: "هذا هو صلح الحديبية، ومن سبر أغوار بنوده مع خلفياته لا يشك أنه فتح عظيم للمسلمين، فكريش لم تكن تعترف بالمسلمين أي اعتراف، بل كانت تهدف استئصال شأفتهم، وتنتظر أن تشهد يوماً ما نهايتهم، وكانت تحاول بأقصى قوتها الحيلولة بين الدعوة الإسلامية وبين الناس، بصفتها ممثلة الزعامة الدينية والصدارة الدنيوية في جزيرة العرب، ومجرد الجنوح إلى الصلح اعتراف بقوة المسلمين، وأن قريشاً لا تقدر على مقاومتهم، ثم البند الثالث يدل بفحواه على أن قريشاً نسيت صدارتها الدنيوية وزعامتها الدينية، وأنها لا تهمها الآن إلا نفسها، أما سائر الناس وبقية جزيرة العرب فلو دخلت في الإسلام بأجمعها، فلا يهم ذلك قريشاً، ولا تتدخل في ذلك بأي نوع من أنواع التدخل.

أليس هذا فشلاً ذريعاً بالنسبة إلى قريش؟ وفتحا مبيناً بالنسبة إلى المسلمين؟ إن الحروب الدامية التي جرت بين المسلمين وبين أعدائهم لم تكن أهدافها - بالنسبة إلى المسلمين - مصادرة الأموال وإبادة الأرواح، وإفناء الناس، أو إكراه العدو على اعتناق الإسلام، وإنما كان الهدف الوحيد الذي يهدفه المسلمون من هذه الحروب هو الحرية الكاملة للناس في العقيدة والدين {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر} [الكهف:

بذلك ولكنهم استطاع هزيمته فأرسل الرسول إليهم سرية أخرى فيها كبار الصحابة بقيادة غالب بن عبد الله فهزمهم، ثم أرسل الرسول بشير بن سعد مرة أخرى إلى غطفان، وأرسل سرية أخرى بقيادة محلم بن جثامة إلى أشجع⁴⁰.

وبهذا استطاع الرسول الاستفراد بتلك القبائل بعد تحييد قريش وهزيمة اليهود في خيبر فأخذ يقاتل تلك القبائل قبيلة بعد أخرى، وبذلك استطاع أن يحد من خطرهم على الدولة الإسلامية.

وبهذا يتضح لنا بجلاء بعد النظر عند رسول الله ﷺ، فقد تبين كيف استطاع الرسول ﷺ استغلال الصلح لتقوية مكانة المسلمين دعوياً وعسكرياً، فيما بقيت قريش تراقب الوضع مراقبة العاجز الذي كبلت يده فلا يستطيع عمل شيء، فقد رأى زعماء قريش قوة المسلمين تتعاظم ونفوذهم هم يتضاءل شيئاً بعد شيء وهم لا يستطيعون حراكاً، الأمر الذي دفعهم إلى القيام بالخطوة الحمقاء التي قاموا بها حين ناصروا حليفهم بكرة على خزاعة التي دخلت في حلف المسلمين في خرق واضح لبنود الصلح، وبالتالي فقد هيئوا لنهايتهم بأنفسهم، وحفروا قبر زعامتهم بأيديهم.

المطلب الثالث: فوائد صلح الحديبية للمسلمين

مما مر يتبين لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن صلح الحديبية كان فتحاً عظيماً للمسلمين، وتسميته بـ (الفتح العظيم) هي التسمية التي وصف الله تعالى بها هذا الصلح، فما إن رجع الرسول ﷺ من الحديبية حتى نزل عليه قوله تعالى: "إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا، لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا" الفتح: 1-3، فهذه السورة نزلت في صلح الحديبية وليس كما يتصور الكثيرون أنها نزلت بعد فتح مكة⁴¹، فحين بدا للكثيرين أن صلح الحديبية أبعد المسلمين خطوات عن مكة المكرمة، كان تدبير الله تعالى قد جعله خطوة كبيرة نحو فتح مكة.

روى الحاكم في المستدرک من طريق مجمع بن جارية الأنصاري قال: "شهدنا الحديبية مع رسول الله ﷺ فلما انصرفنا عنها إذ الناس يهزون بالأباعر، فقال بعض الناس لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوحى إلى رسول الله ﷺ فخرجنا مع الناس نوجف فوجدنا النبي ﷺ واقفاً على راحلته عند كراع الغميم، فلما اجتمع عليه الناس قرأ عليهم "إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا" فقال رجل: يا رسول الله أفتح هو؟ قال: نعم، والذي نفس محمد بيده إنه لفتح"⁴².

يقول د.البوطي: "إن أمر هذا الصلح كان مظهرًا لتدبير إلهي محض تجلى فيه عمل النبوة وأثرها كما لم يتجل في أي عمل أو تدبير آخر، فقد كان نجاحه سرا

كانت خيارات قريش محدودة، فهم إما أن يبقوا مراقبين للوضع ينظرون سلطان المسلمين يزداد نفوذاً وقوة يوماً بعد يوم، ويكسب أتباعاً جديداً كل يوم، في الوقت الذي يتضاءل فيه نفوذهم هم، وإما أن ينفادوا لصوت العقل الذي يدعوهم إلى الدخول في الإسلام ليس لأن معركتهم معه خاسرة لا محالة فحسب وإنما أيضاً لأنهم يشاهدون بأبصارهم كيف أن الله تعالى متم نوره برغم قتالهم له وكيف أن كل ما كان يعد الرسول ﷺ به أتباعه يتحقق رأي العين.

ومن غير المنصف أن نقول أن صلح الحديبية لم يكن في صلح قريش البتة، فالحق الجلي أن صلحهم مع المسلمين خير لهم من القتال الذي لم يفدهم بشيء، بل إن الصلح أعطاهم فرصة مواتية للراحة ومعاودة تجارتهم إلى الشام التي أضرت بها حروبهم مع المسلمين خاصة وأن المسلمين كانوا مسيطرين تماماً على طريق تجارتهم إلى الشام، ولذا فإن قريشاً بادرت أيضاً باستغلال هذه الفرصة المتاحة لهم فقاموا بتنشيط تجارتهم مع الشام، كما فعل أبو سفيان حين خرج بقاطلة إلى الشام بعد صلح الحديبية مباشرة⁴⁵.

كان بإمكان قريش أن يستمتعوا بتلك المزايا التي وفرها لهم صلح الحديبية، ولكن زعامة قريش كانت قد تأثرت كثيراً بنتائج المعارك التي خاضوها مع المسلمين وخاصة معركة بدر التي قتل فيها الكثير من كبار زعمائهم، فبعد مقتل أبي جهل والوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وأميرة بن خلف وغيرهم من كبار زعماء قريش في معركة بدر انتقلت زعامة قريش إلى الجيل الثاني الذي كان أقل كياسة وخبرة وحكمة كصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وخالد بن الوليد (أسلم قبل فتح مكة)، نعم، كان أبو سفيان (الذي كان يناهز السبعين عاماً)⁴⁶ هو أكبر زعماء قريش سناً، ولكن يبدو أن سيطرته على قريش كانت ضعيفة، فلم يكن قادراً على السيطرة على الاندفاع الذي كان يتمتع به الجيل الجديد.

لم ينظر هؤلاء إلى الفوائد التي جنوها ويجنونها من صلح الحديبية بل كانوا خاضعين لفكرة بقاء زعامتهم للعرب، تلك الزعامة التي بدا أنها في اضمحلال مستمر لصالح المسلمين، لذلك رأوا أنهم لا بد من أن يفعلوا شيئاً، ويجب ألا يكبلهم صلح الحديبية عن التحرك، فقاموا بحركة حمقاء سرعان ما تبين لهم أنهم لم يقدروا عواقبها حق التقدير.

نقص قريش للصلح:

في شعبان من السنة الثامنة للهجرة جاء إلى قريش بعض الرجال من قبيلة بكر التي كانت داخلة في عهدهم يطلبون منهم عونهم على عدوهم خزاعة الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ، فعلم زعماء قريش أن استجابتهم لهذا الطلب يعد خرقاً واضحاً للصلح، ولذلك

29]. لا يحول بينهم وبين ما يريدون أي قوة من القوات، وقد حصل هذا الهدف بجميع أجزائه ولوازمه، وبطريق ربما لا يحصل بمثله في الحروب مع الفتح المبين، وقد كسب المسلمون لأجل هذه الحرية نجاحاً كبيراً في الدعوة، فبينما كان عدد المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف قبل الهدنة صار عدد الجيش الإسلامي في سنتين عند فتح مكة عشرة آلاف.

أما البند الثاني فهو جزء ثان لهذا الفتح المبين، فالمسلمون لم يكونوا بادئين بالحروب، وإنما بدأتها قريش، يقول الله تعالى: {وهم بدؤوكم أول مرة} [التوبة: 13]، أما المسلمون فلم يكن المقصود من دورياتهم العسكرية إلا أن تقيق قريش عن غطرستها وصدها عن سبيل الله، وتعمل معهم بالمساواة، كل من الفريقين يعمل على شاكلته، فالعقد بوضع الحرب عشر سنين حد لهذه الغطرسة والصد، ودليل على فشل من بدأ بالحرب وعلى ضعفه وانهياره.

أما البند الأول فهو حد لصد قريش عن المسجد الحرام، فهو أيضاً فشل لقريش، وليس فيه ما يشفي قريشاً سوى أنها نجحت في الصد لذلك العام الواحد فقط.

أعطت قريش هذه خلال الثلاث للمسلمين، وحصلت بإرائها خلة واحدة فقط، وهي ما في البند الرابع، ولكن تلك الخلة تافهة جداً، ليس فيها شيء يضر بالمسلمين، فمعلوم أن المسلم ما دام مسلماً لا يفر عن الله ورسوله، وعن مدينة الإسلام، ولا يفر إلا إذا ارتد عن الإسلام ظاهراً أو باطناً، فإذا ارتد فلا حاجة إليه للمسلمين، وانفصاله من المجتمع الإسلامي خير من بقاءه فيه، وهذا الذي أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: "إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله"، وأما من أسلم من أهل مكة فهو وإن لم يبق للجوئه إلى المدينة سبيل لكن أرض الله واسعة، ألم تكن الحبشة واسعة للمسلمين حينما لم يكن يعرف أهل المدينة عن الإسلام شيئاً؟ وهذا الذي أشار إليه النبي بقوله: "ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً".

والأخذ بمثل هذا الاحتفاظ، وإن كان مظهر الاعتزاز لقريش، لكنه في الحقيقة ينبئ عن شدة انزعاج قريش واهلهم وخورهم، وعن شدة خوفهم على كياناتهم الوثنية، وكأنهم كانوا قد أحسوا أن كياناتهم اليوم على شفا جرف هار لا بد له من الأخذ بمثل هذا الاحتفاظ. وما سمح به النبي ﷺ من أنه لا يسترد من فر إلى قريش من المسلمين، فليس هذا إلا دليلاً على أنه يعتمد على تثبيت كيانه وقوته كمال الاعتماد، ولا يخاف عليه من مثل هذا الشرط⁴⁴.

وإن فصلح الحديبية كان خيراً محضاً للمسلمين، عاد عليهم بفوائد جسيمة لم يكونوا يؤملوه في حينه، ولكن بدأت تظهر لهم حيناً بعد حين.

المطلب الرابع: نقص قريش للصلح وفتح مكة.

ما شئورت فيه، ولا هويته حين بلغني، والله ليغزونا محمد إن صدقني ظني، وهو صادق، وما بد من أن آتي محمدا فالكلمة أن يزيد في الهدنة ويجدد العهد.

فقلت قريش: قد والله أصبت.

وأقبل أبو سفيان حتى دخل المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ فأراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ فطوته دونه.

فقال: يا بنية! أرغبت بهذا الفراش عني أو بي عنه؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ قال: يا بنية لقد أصابك بعدي شر، فقلت: بل هداني الله للإسلام، وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها، كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام؟ وأنت تعبد حجرا لا يسمع ولا يبصر؟ فقام من عندها فأتى رسول الله ﷺ وهو في المسجد، فقال: يا محمد! إني كنت غائبا في صلح الحديبية فاشدد العهد، وزدنا في المدة، فقال رسول الله ﷺ: "فلذلك جئت يا أبا سفيان؟" قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: "هل كان من قبلكم من حدث؟" قال: معاذ الله! نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبذل، فقال رسول الله ﷺ: "فنحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبذل" فأعاد أبو سفيان على رسول الله ﷺ القول، فلم يرد عليه شيئا.

فذهب إلى أبي بكر الصديق ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ثم علي بن أبي طالب ثم سعد بن عباد يطلب من كل واحد منهم أن يشفع له عند رسول الله ﷺ أو أن يجير بين الناس على عادة العرب ولكنه لم يجد منهم ما يحب، وكانوا يجيبونه: جوارى من جوار رسول الله ﷺ، إلا أن علي بن أبي طالب قال له: والله ما أعلم شيئا يغني عنك شيئا، ولكنك سيد بني كنانة، قال: صدقت، وأنا كذلك، قال: فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك، قال: أوترى ذلك مغنيا عني شيئا؟ قال: لا والله، ولكن لا أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس ولا والله ما أظن أن يخفرنني أحد، ثم دخل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إني قد أجرت بين الناس فقال رسول الله ﷺ: "أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة!!"، ثم ركب بعيره وانطلق.

فلما جاء مكة قالت له قريش: ما وراءك؟ هل جئت بكتاب من محمد أو زيادة في مدة ما نأمن به أن يغزونا محمد؟ فقال: لقد كلمته، فوالله ما رد علي شيئا، وكلمت أبا بكر فلم أجد فيه خيرا، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو، وقد كلمت عليه أصحابه، فما قدرت على شيء منهم إلا أنهم يرمونني بكلمة واحدة، وما رأيت قوما أطوع لملك عليهم منهم له، إلا أن عليا لما ضاقت بي الأمور قال: أنت سيد بني كنانة، فأجر بين الناس، فناديت بالجوار، فقال محمد: "أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة!!" لم يزدني قالوا: رضيت بغير رضى، وجئت

ترددوا بعض الشيء ولكنهم في الأخير قبلوا أن يعينوهم بالسلاح، بل أن بعض القرشيين كصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وحويط بن عبد العزى وشيبة بن عثمان ومكرز بن حفص قرروا مساعدتهم بأنفسهم على أن يغيروا على خزاعة ليلاً مثلثمين حتى لا يعرفهم رجال خزاعة، ويقال أن أبا سفيان لم يكن يعلم بهذا الأمر، وقيل بل علم ولم يوافق عليه لما يرى من عواقبه الوخيمة.

فقامت بكر مع من ساعدتهم من قريش بالإغارة على قبيلة خزاعة ليلاً فقاتلوهم حتى ألجؤهم إلى الحرم، بل أنهم قاتلوه في الحرم، حتى قتلوا منهم ثلاثة وعشرين رجلاً⁴⁷.

ثم نمت قريش على ما صنعوا، وعرفوا أن هذا الذي صنعوه نقض للذمة والعهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، فجاء الحارث بن هشام، وعبد الله بن أبي ربيعة إلى صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل فلاموهم بما صنعوا من عونهم بني بكر على خزاعة وقالوا لهم: إن بينكم وبين محمد مدة وهذا نقض لها.

وخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكبا من خزاعة يستنصرون رسول الله ﷺ ويخبرونه بالذي أصابهم، وما ظهرت عليهم قريش ومعاونتهم لهم بالرجال، والسلاح والكراع، وحضور صفوان بن أمية وعكرمة، ومن حضر من قريش، وأخبروه بالخبر ورسول الله ﷺ جالس في المسجد بين أظهر الناس، فلما فرغوا من قصتهم، قام عمرو بن سالم فقال أبياتا، منها:

يا رب إني ناشد محمدا

حلف أبينا وأبيه الا تلدا

إن قريشا أخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المؤكدا

هم بيتونا بالوتير هجدا

وقتلونا ركعا وسجدا

فانصر رسول الله نصرا أبدا

وادع عباد الله ياتوا مددا

فيهم رسول الله قد تجردا

في فيلق كالبحر يجري مزبدا⁴⁸

فقال رسول الله ﷺ: "نصرت يا عمرو بن سالم، لا نصرت إن لم أنصر بني كعب مما أنصر منه نفسي"

ثم إن رسول الله ﷺ قال: "لكأنكم بأبي سفيان قد جاء يقول: جدد العهد وزد في الهدنة، وهو راجع بسخطه"⁴⁹

محاولة أبي سفيان للإبقاء على الصلح:

وقد حدث بما أخبر به الرسول ﷺ، وذلك أن أبا سفيان لما رأى ما رأى من الشر قال: هذا والله أمر لم أشهده، ولم أعب عنه، لا يحمل هذا إلا علي، ولا والله

يأخذ بالأنقاب وتكتب إلى قريش تحذره؟ دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق، فقال رسول الله ﷺ: "ما يدريك يا عمر أن الله عز وجل أطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال: "اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" ⁵¹.

خروج الرسول ﷺ من المدينة:

خرج رسول الله ﷺ من المدينة في العاشر من رمضان صائماً، روى مسلم عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه قال سافرنا مع رسول الله ﷺ ونحن صيام، فنزلنا منزلاً، فقال رسول الله ﷺ: "إنكم قد دنوتم من عدوكم، والفطر أقوى لكم" وكانت رخصة، فمننا من صام، ومننا من أفطر، ثم نزلنا منزلاً آخر، فقال: "إنكم مصبحو عدوكم، والفطر أقوى لكم، فأفطروا" فكانت عزيمة، فأفطرننا ⁵².

ووافي العباس بن عبد المطلب رسول الله ﷺ بالجحفة مسلماً وسار مع المسلمين، ولما نزل رسول الله ﷺ والمسلمون من الظهران عشاء أمر أصحابه أن يوقدوا عشرة آلاف نار.

وفي تلك الليلة خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام ولقيا في الطريق بديل بن ورقاء فأخذوا يتحسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبراً، أو يسمعون به، فلما بلغوا من الظهران، وذلك عشياً رأوا العسكر والقباب والنيران كأنها نيران عرفة، وسمعوا صهيل الخيل، ورغاء الأبل، فأفزعهم ذلك فزعاً شديداً، فقال بديل بن ورقاء: هؤلاء بنو عمرو يعني بها خزاعة حمشتها الحرب، فقال أبو سفيان: بنو عمرو أقل من ذلك.

وعثر بهم العباس فأخذهم إلى الرسول ﷺ ولما دخل عليه قال: يا رسول الله! أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء قد أجزتهم، وهم يدخلون عليك، فقال رسول الله ﷺ: "أدخلهم" فدخلوا عليه، فمكثوا عنده عامة الليل يستخبرهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الاسلام، فقالوا: نشهد أن لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: "شهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله"، فشهد بديل، وحكيم بن حزام، وقال: أبو سفيان: ما أعلم ذلك، والله إن في النفس من هذا لشيء بعد، فارجئها.

فقال رسول الله ﷺ: "أذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فاتني به"، فذهب به العباس وجاء به في الصباح فقال له رسول الله ﷺ: "يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟" قال: بآبي أنت وأمي!! ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك! إنه لو كان مع الله إله لقد أغنى عني شيئاً بعد، لقد استنصرت إلهي، واستنصرت إلهك، فوالله ما لقيتك من مرة، إلا نصرت علي، فلو كان إلهي محققاً وإلهك مبطلاً لقد غلبتك، فقال: "ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟" قال:

بما لا يغني عني ولا عنك شيئاً، ولعمر الله ما جوارك بجائز، وإن إخبارك عليهم لهين، ما زاد علي من أن لعب بك تلعباً.

قال: والله ما وجدت غير ذلك ⁵⁰.

عزم الرسول ﷺ على المسير إلى مكة:

كان رسول الله ﷺ حريصاً حرصاً شديداً على عدم معرفة قريش بمسيره إليهم حتى لا يستعدوا له وبذلك لن يقع قتال كبير بين الفريقين، فعدم استعداد قريش ومباغطة الرسول ﷺ لهم بجيشه الكبير كفيلاً باستسلامهم السريع بدون قتال، وقد دعا الله تعالى ليؤفقه لذلك قائلاً: "اللهم خذ علي أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة، ولا يسمعون بنا إلا فجأة"

ولأجل تحقيق هذه الغاية قام الرسول ﷺ بعدد من الأمور، فبعث أبا قتادة بن ربعي إلى بطن إضم، ليظن الظان أنه متوجه إلى تلك الناحية، كما أمر جماعة يكونوا على مخارج المدينة، وكان عمر بن الخطاب يطوف عليهم فيقول: لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه.

ثم أرسل إلى أهل البادية، ومن حولهم من المسلمين، يقول لهم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة" وبعث رسلاً في كل ناحية حتى قدموا على رسول الله ﷺ.

غير أن الصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة كتب كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في المسير إليهم، ثم أعطاه امرأة وجعل لها جعلاً على أن تبلغه أهل مكة، وقال لها: أخفيه ما استطعت، ولا تمرري على الطريق، فإن عليه حرساً، فجعلته في رأسها، ثم قتلت عليه قرونها، ثم خرجت به دون أن يشعر بها أحد.

وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام وقال لهم: "انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخرجوا حتى أدركاها فالتمسا الكتاب في رحلها، فلم يجدا شيئاً، فقال لها علي بن أبي طالب - رضي الله عنه: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ وما كذبنا، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك، فلما رأت الجد، قالت: أعرضا، فحلت قرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليه فأتى به رسول الله ﷺ، فدعا حاطباً، فقال: يا حاطب، ما حملك على هذا؟ قال: يا رسول الله! لا تعجل علي، إني كنت امرء ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابة يحمون أموالهم بها وأهلهم بمكة، ولم يكن لي قرابة، فأحببت إذ فاتني ذلك من بنيتهم أن آخذ فيهم يداً أحمي بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً بعد إسلام، فقال رسول الله ﷺ: "إنه قد صدقكم".

فقال عمر لحاطب: قاتلك الله!! ترى رسول الله

ولم يحدث غير هذا القتال، فدخل رسول الله ﷺ مكة في السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة⁵⁷، وكان أهلها ينتظرون حكم الرسول ﷺ فيهم ولكنه أظهر من الحلم والكرم ما لا يوصف حين قال لهم وبكل هدوء: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"⁵⁸.

الخاتمة

لقد حاولنا في هذا البحث المختصر أن نستجلي الفوائد الكبيرة التي عادت على الدعوة الإسلامية من صلح الحديبية، وقد تبين لنا أن هذا الصلح يمثل أنموذجاً رائعاً لاستشراف الرسول ﷺ للمستقبل، وما يتميز به الرسول ﷺ - بتوفيق الله عز وجل - من سياسة وحكمة في السلم كما في الحرب، فقد تنازل الرسول ﷺ في هذا الصلح عن القليل للحصول على الكثير، وتنازل عن العاجل المهم للحصول على الآجل الأهم.

وما بدا للمسلمين ضعفاً كان في الحقيقة قوة لهم، وحين ظنوا أنهم يبتعدون عن مكة لفترة مؤقتة لم يدركوا أنهم يقتربون منها أكثر فأكثر ليفتحوها فتحاً دائماً فقد كان الرسول ﷺ يقرأ الأحداث قراءة الحصيف اللبيب الذي يعلم ما في تحييد قريش زعيمة العرب دينياً من فوائد جمة على الدولة الإسلامية دعواً وعسكرياً من حيث إنه يفتح لها باب الدعوة على مصراعيه دون تدخل من قريش، وبذلك يصل هذا الدين إلى القلوب والعقول التي ستسارع للدخول في هذا الدين أفواجا، وقد كان ذلك فعلاً.

كما أن هذا الصلح يعني أن تتنازل قريش عن حلفائها في غزوة الخندق (يهود خيبر وبعض القبائل العربية)، وبذلك يمكن للمسلمين أن يقوموا بكسر شوكة أولئك الذين حاولوا القضاء على الدولة الإسلامية.

وبذلك كان الرسول ﷺ يدرك أن فتح مكة ما هو إلا مسألة وقت، فإذا أصرت قريش على عنادها ولم تدخل الإسلام في فترة الهدنة، فهي إما أن تقوم بخرقها في فترة الهدنة (وهو أمر متوقع)، وإما أن يرفض المسلمون تمديد الهدنة بعد عشر سنوات، وحينها يكون المسلمون قد قويت شوكتهم وضعفت قريش أشد الضعف مما يسهل القضاء عليهم وفتح مكة المكرمة التي كان المسلمون أحق بها.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

أجمعين.

بأبي أنت وأمي! ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك! أما هذه فوالله إن في النفس منها شيئاً حتى الآن، فقال العباس: ويحك! أسلم قبل أن تضرب عنقك فشهد شهادة الحق، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

ثم قال أبو سفيان وحكيم بن حزام: يا رسول الله جئت بأوباش الناس من يعرف ومن لا يعرف إلى أهلك وعشيرتك! فقال رسول الله ﷺ: "أنتم أظلم وأفجر، قد غدرتم بعهد الحديبية، وظاهرتم على بني كعب بالإثم والعنوان في حرم الله تعالى وأمنه" فقالوا: صدقت يا رسول الله، ثم قالوا: يا رسول الله! ادع الناس بالأمان، أرأيت إن اعتزلت قريش وكفت أيديها أمنون هم؟ فقال رسول الله ﷺ: "نعم" قال العباس: يا رسول الله!! قد عرفت أبا سفيان وجه الشرف والفخر، فاجعل له شيئاً، فقال: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن" فقال: وما تسع داري؟ فقال: ومن دخل المسجد فهو آمن" فقال أبو سفيان: وما يسع المسجد؟ قال: "من أغلق بابه فهو آمن" فقال أبو سفيان: هذه واسعة⁵³.

ثم قال العباس لأبي سفيان: أتج ويحك فأدرك قومك قبل أن يدخل عليهم رسول الله ﷺ فخرج أبو سفيان، ففتحهم الناس كلهم حتى دخل مكة من كداء فصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، أسلموا تسلموا، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله! وما تغني دارك؟! قال: ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن⁵⁴.

دخول المسلمين مكة:

وزع رسول الله ﷺ الرايات على القادة وأمرهم أن يكفوا أيديهم، ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم، غير أن صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو دعوا إلى قتال رسول الله ﷺ فانضم إليهم أناس من قريش وبني بكر وهذيل، ولبسوا السلاح يقسمون بالله لا يدخلها محمد عنوة أبداً، فلما دخل خالد بن الوليد وكان أحد القادة الذين أمرهم الرسول ﷺ بدخول مكة من أسفلها، منعه الدخول وشهروا له السلاح، ورموه بالنبل، وقالوا: لا تدخلها عنوة، فصاح في أصحابه، فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرون رجلاً⁵⁵.

فلما رأى رسول الله ﷺ بارقة السيوف قال: "ما هذه البارقة؟! ألم أنه عن القتال؟" قالوا: يا رسول الله، خالد بن الوليد قاتل ولو لم يقاتل ما قاتل، وما كان يا رسول الله ليعصيك، ولا يخالف أمرك، فقال رسول الله ﷺ: "قضاء الله خير"⁵⁶.

الهوامش:

- 1 صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي ص 351
- 2 مرويات غزوة الخندق، د. إبراهيم المدخلي ص 112-113
- 3 السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، د. الصلابي ص 687

- 4 للاطلاع على تفاصيل غزوة الأحزاب انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد 47/2-53، تاريخ الإسلام (المغازي)، الذهبي 283-305، البداية والنهاية، ابن كثير 108/4-134، مرويات غزوة الخندق، د.إبراهيم المدخلي.
- 5 السيرة النبوية، ابن هشام 24/4
- 6 العوذ جمع عاذ وهي الناقة إذا وضعت وبعدمها تضع أياما حتى يقوى ولدها والمطافيل جمع مطفل وهي الناقة معها فصيلها، انظر: غريب الحديث، ابن الجوزي 143/2
- 7 السيرة النبوية، ابن هشام 25/4
- 8 انظر: السيرة النبوية، ابن هشام 25/4، البداية والنهاية، ابن كثير 191/4
- 9 السيرة النبوية، ابن هشام 26/4
- 10 البداية والنهاية، ابن كثير 192/4
- 11 السيرة النبوية، ابن هشام 26-27/4
- 12 المرجع السابق
- 13 السيرة النبوية، ابن هشام 29/4
- 14 السيرة النبوية لابن كثير 313/3
- 15 انظر: فقه السيرة النبوية، البوطي ص 235
- 16 السيرة النبوية، ابن هشام 28/4
- 17 الخصائص الكبرى، السيوطي 408/1
- 18 انظر: السيرة النبوية، ابن هشام 31/4
- 19 سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، الصالح 189/5-195، وانظر: تاريخ الإسلام (المغازي)، الذهبي 459-463
- 20 السيرة النبوية لابن كثير 313/3
- 21 الرحيق المختوم للمباركفوري 281
- 22 السفارات النبوية، د.محمد العقيلي ص 15
- 23 الطبقات الكبرى، ابن سعد 15/2
- 24 انظر: الرحيق المختوم للمباركفوري 308/1
- 25 للاطلاع على نص الكتاب، انظر: السيرة النبوية لابن كثير 508/3
- 26 للاطلاع على نص الكتاب، انظر: السيرة النبوية لابن كثير 501/3
- 27 انظر القصة كاملة في صحيح البخاري 1657/4
- 28 للاطلاع على نص الكتاب، انظر: السيرة النبوية لابن كثير 41/2
- 29 للاطلاع على نص كتاب النجاشي، انظر: الرحيق المختوم للمباركفوري 314/1
- 30 للاطلاع على نص الكتاب، انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم 600/3، وانظر: نصب الراية للزيلعي 501/4.
- 31 للاطلاع على نص كتاب المقوقس، انظر: الرحيق المختوم للمباركفوري 315/1
- 32 الرحيق المختوم للمباركفوري 320/1
- 33 ذكر الواقدي أن إرسال عمرو بن العاص إلى ملكي عمان كان في السنة الثامنة، ولكنه لم يحدد هل كان قبل فتح مكة أم بعده، والأظهر أنه قبله إذ لا يذكر لعمرو أي دور في فتح مكة، انظر: السيرة النبوية لابن كثير 710/3
- 34 الرحيق المختوم للمباركفوري 322/1
- 35 السيرة النبوية لابن هشام 321/2
- 36 انظر قصة إسلامهم في الخصائص الكبرى للسيوطي 417/1-419
- 37 الرحيق المختوم للمباركفوري 312/1
- 38 للاستزادة من تفاصيل هذه الغزوة انظر كتب السيرة.
- 39 مرويات غزوة الخندق، د.إبراهيم المدخلي ص 112-113
- 40 لمعرفة تفاصيل تلك السرايا انظر: تاريخ الإسلام (المغازي)، للذهبي 446-457، البداية والنهاية، لابن كثير 254/2-260
- 41 لباب النقول، السيوطي 193/1، وانظر: الجامع الصحيح، الربيع بن حبيب، حديث رقم: 10
- 42 المستدرك على الصحيحين، الحاكم 143/2
- 43 فقه السيرة النبوية، د.البوطي ص 233-234
- 44 الرحيق المختوم للمباركفوري 308/1
- 45 الجامع الصحيح، البخاري 1657/4
- 46 سير أعلام النبلاء، الذهبي 417/3
- 47 انظر: السيرة النبوية، ابن هشام 84/4-86
- 48 الروض الأنف، السهيلي 86/4
- 49 المغازي، الواقدي 880/2
- 50 السيرة النبوية، ابن هشام 86/4-87
- 51 المرجع السابق 87-87/4
- 52 الجامع الصحيح، مسلم بن الحجاج، حديث: 2680
- 53 البداية والنهاية، ابن كثير 333/4
- 54 السيرة النبوية، ابن هشام 90/4-91
- 55 المغازي، الواقدي 875/3
- 56 سبل الهدى والرشاد، الصالح 229/5
- 57 انظر: تاريخ الإسلام (المغازي)، الذهبي 535.
- 58 البداية والنهاية، ابن كثير 344/4، وانظر: السيرة النبوية، ابن هشام 93/4-94

البيع بالدين وشروطه في الفقه الإسلامي

عبد القادر جعفر

قسم العلوم الإسلامية جامعة غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000، الجزائر

مقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه ومن والاه واتبع هدايه.

وبعد، فإن التبائع بالدين قديم بين البشر؛ فقد لا يجد الإنسان ثمن ما يشتري حاضرا مع قيام حاجته إلى ما يريد عاجلا، خصوصا في ظل النظام الشهري للحصول على الرواتب، وعدم كفاية هذه الرواتب لتغطية نفقات حاجات الناس المتكررة والمتنوعة، بل وتنافس الكثير منهم في اقتناء الكماليات من المتاع.

لهذه الأسباب وغيرها كثر التبائع بالدين، وهو في تزايد ما تزايدت أسبابه، حتى صار من سمات هذا العصر كثرة رهن نفع الناس بالديون المؤجلة عامة، والمقسطة خاصة.

ونظرا إلى صلة الربا بالدين؛ إذ هي من أكبر أوعيته قديما وحديثا، ونظرا إلى الجهل الواضح بأحكام المعاملات عامة، والمدائنات خاصة، كان من المناسب تناول البيع بالدين بالبحث في جوانبه المختلفة.

وعليه، فما هو البيع بالدين، وما هي شروطه، وما أبرز صوره وأحكامها؟

ولعل فيما يلي من الصفحات إجابة عن تلك التساؤلات، وفق المنهج الوصفي التحليلي. والله الموفق.

المطلب الأول: ماهية البيع بالدين:

الفرع الأول: تعريف البيع وشروطه:

البيع بمعناه العام: مبادلة المال بالمال تملكا وتملكا¹، أو عقد معاوضة على غير منافع².

وأما بمعناه الخاص فهو: بيع سلعة معينة بعوض نقدي حاضر. وهو جائز في شريعة الإسلام بالكتاب والسنة والإجماع، والمصلحة. وقد شرعه الله ﷻ لعباده تحقيقا لمصالحهم الدنيوية التي لا غنى لهم عنها، من غير تنازع ولا تصادم³.

والأصل في البيع الإباحة والجواز. وقد يكون واجبا، أو مندوبا، أو مكروها، أو حراما⁴، بحسب كونه

وسيلة إلى غيره مما يتصف بتلك الأحكام. ولا يجوز للمسلم مباشرة البيع أو الشراء إلا بعد أن يعلم أحكامه الشرعية، ولو إجمالا، فإذا كانت مهنته التجارة وجب عليه معرفتها بالتفصيل.

ويقوم البيع على أركان هي: العاقدان، من بائع ومشتري، والمعقود عليه، من ثمن وسلعة، والصيغة. ولكل ركن شروطه، تراجع في المطولات⁵.

والثمن: هو ما يبذله المشتري من عوض للحصول على المبيع⁶. ويكون عادة بتراضي المتعاقدين عليه، سواء أكان مثل قيمة السلعة الحقيقية، أم أقل منها، أم أكثر⁷.

وقد يكون الثمن معجلا، وهو الأصل⁸، وقد يكون مؤجلا بتراضي الطرفين.

والمؤجل قد يكون إلى موعد معين لجميع الثمن، ويسمى غالبا البيع إلى أجل، وقد يكون منجما (أي مقسطا) على مواعيد معلومة⁹، ويسمى البيع بالتقسيط، أو بيع التقسيط.

الفرع الثاني: تعريف الدين:

والدين لغة: ما ليس حاضرا مما في الذمة¹⁰، وقد يسمى غرما¹¹.

وأما اصطلاحا: فقد تعددت أقوال الفقهاء في بيان معناه، ولعل أوضحها: "الدين: الحق الثابت في الذمة"¹². وهذا بمعناه العام.

وأما بالمعنى الخاص: فهو كل مال حكمي يثبت في الذمة بعقد معاوضة، أو استقراض، أو استهلاك، أو غيرهما¹³.

ومعناه في موضوعنا ما يثبت في الذمة من مال بعقد البيع.

الفرع الثالث: وكل تعريف البيع بالدين:

وعليه فالبيع بالدين هو البيع إلى أجل، الذي يكون فيه الثمن، كله أو بعضه، دينيا في ذمة المشتري، مؤجلا إلى أجل معلوم، أو إلى أجل معلومة.

ومجرد تأجيل الثمن في البيع يربته دينيا في الذمة؛ ومنه ما يحدث في العقود المركبة الحديثة؛ كعقود الكهرباء

تسدد عادة في فترات معينة، وكل ما استهلك قبل أجل السداد المقرر بقي ثمنه ديناً²².

الفرع الثاني: حكم البيع بالدين والشراء به:

أولاً: حكم البيع بالدين:

البيع بالدين مستحب إذا قصد البائع الإرفاق بالمشتري، ولم يزد عليه في الثمن، وكان محتاجاً فقيراً، مؤتمناً على السداد، ولم يضيق عليه بطلب رهن أو كفالة مثلاً²³.

ودليل استحبابه والترغيب فيه عموم قوله ﷺ: «ثلاث فيهن البركة: البيع إلى أجل..»²⁴. كما أن النصوص الواردة في استحباب القرض وفضله تنطبق على الدين لأنه مثله في جانب المواساة وتنفيس الكرب.

وهو مباح إذا قصد البائع مجرد المعاوضة، ولم يقصد الإرفاق بالمشتري، أو زاد في الثمن نظير التأجيل، أو طلب كفالة أو رهناً، أو لم يآمن فيه إلا الملىء²⁵.

ولا إثم على من سئل الدين في بيع فلم يفعل؛ لأن هذا من المعروف أساساً، فأشبهه صدقة التطوع²⁶.

ثانياً: حكم الشراء بالدين:

الأصل في الشراء بالدين الإباحة، فيجوز للإنسان أن يستدين إذا علم من نفسه القدرة على الوفاء.

وقد تعتريه أحكام أخرى بحسب السبب الباعث²⁷: كالوجوب للمضطر دفعاً للضرر عن النفس. وكالتحريم في حق من يستدين قاصداً المماطلة، أو جحد الدين. وكالكراهة إذا كان غير قادر على الوفاء، وليس مضطراً ولا قاصداً المماطلة، أو لم تكن له به حاجة؛ لما فيه من المنّة.

على أن ما ورد من نصوص وأحكام في الترهيب من الدين وتعظيم أمره لا تعني منع الاستدانة شرعاً؛ فإن النبي ﷺ قد مات ودرعه مرهونة في دين عليه، وإنما تعني أن على المسلم ألا يستدين إلا عندما يكون محتاجاً إلى الدين، عازماً على رده، ومتوقفاً قدرته على الرد في الأجل²⁸.

الفرع الثالث: الحكمة فيه وبيان محاسنه ومساوئه

أولاً: الحكمة في شرعيته:

شرع الإسلام التداين لما فيه من سد حاجة المحتاج، وتنفيس كربة المكروب، والتعاون على مصاعب الحياة، ولما فيه من تشجيع النشاط التجاري والفلاحي والصناعي وسائر المهن للراغب فيها ولا مال يكفيه؛ فلو سد على الناس باب

والماء والغاز والهاتف، يحصل المستفيد على الخدمة والمنفعة شيئاً فشيئاً، وذلك يرتب في ذمته ديناً للشركات القائمة عليها يتزايد بتزايد حصوله على الخدمات.

ويقابل البيع بالدين بيع السلم وهو: بيع موصوف في الذمة ببذل عاجل¹⁴؛ إذ يعجل فيه الثمن ويؤجل المثمن، بخلاف البيع إلى أجل.

وبعد البيع بالدين يصبح البائع دائناً، والمشتري مدیناً، والثمن ديناً.

المطلب الثاني: شرعية البيع بالدين والحكمة فيها:

الفرع الأول: شرعية البيع بالدين:

الفرع الأول: شرعية البيع بالدين:

البيع بالدين مشروع بالكتاب والسنة والإجماع والمصلحة.

أولاً: الكتاب: ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾. [البقرة: من الآية 282]. قال الإمام الشافعي: "يحتمل كل دين، ويحتمل السلف". أي السلم. وقال: "كل دين ثابت مؤجل، سواء كان بآله عينا أو ديناً"¹⁵.

ثانياً: السنة: ومنها:

1- ما رواه الشيخان¹⁶ وغيرهما أن رسول الله ﷺ اشترى طعاماً من يهودي إلى أجل ورهقه درعاً من حديد.

2- وما ورد عن عائشة رضي الله عنها- قالت: "جاءت بربيرة فقالت: إني كاتبته أهلي على تسع أواق، في كل عام أوقية، فأعينيني..."¹⁷؛ فربيرة اشترت نفسها من سادتها بتسع أواق، على أن تدفع في كل عام أوقية، على نحو بيع التقسيط، ولم ينكر ذلك النبي ﷺ، بل أقره ولم ينه عنه.

3- وقوله ﷺ: « ثلاث فيهن البركة: البيع إلى أجل، والمقارضة، وإخلاق البر بالشعير للبيت لا للبيع»¹⁸.

4- وما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما- قال: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ وَهُمْ يُسْلِفُونَ بِالثَّمَرِ السَّنَتَيْنِ وَالثَّلَاثِ، فَقَالَ: «مَنْ أَسْلَفَ فِي شَيْءٍ؛ فَبِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ، وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ، إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ»¹⁹. وفي هذا دليل على شرعية تأجيل السلعة لتبقى ديناً في ذمة بائعها. وإذا جاز ذلك في السلعة جاز في الثمن.

ثالثاً: الإجماع: إذ أجمع الصحابة والتابعون ومن بعدهم على جواز تأجيل الثمن، وبذلك جرى العرف عبر الأزمان²⁰.

رابعاً: المصلحة: إذ تقتضي المصلحة مساعدة من لا يملك مالا حاضراً يشتري به ما يحتاج، ولو سد هذا الباب لضاعت كثير من مصالح العباد²¹.

كما يقتضيه أحياناً طبيعة السلع والخدمات التي تستوفي شيئاً فشيئاً؛ فأثمان الغاز والكهرباء والماء

المختلفة³⁶.

ويعود سبب هذه الظاهرة إلى الأمور الآتية:

1- الإسراف وسوء الإنفاق، بعدم ترتيب وجوه الإنفاق المشروع: الضروريات، ثم الحاجيات، ثم التحسينيات.

2- تكاليف المعيشة الباهظة، بسبب تجميد الأجور، أو تذبذبها أساساً، مع تزايد ارتفاع أسعار الخدمات والسلع.

3- كثرة دعايات المؤسسات لتسهيل عملية التقسيط والاستدانة، وتقديم المزايا والمغريات، خصوصاً مع وجود نظام التأمينات³⁷.

4- ما قد يطرأ على الإنسان من كوارث وحوادث تحوجه إلى الاستدانة.

5- قد يحتاج إلى الشراء بالدين ميسور الحال؛ إما لأن الترتيبات المحاسبية لنشاطه تقتضي ذلك كما لو كان بينه وبين غيره صفقات مختلفة يجري تصفيتها دورياً، وإما رغبة في توفير المال مدة لاستثماره وتحصيل أرباحه وإن على حساب بسطاء التجار!!

المطلب الثالث: صور البيع بالدين:

الصورة الأولى: أخذ السلعة كلها، وتسديد ثمنها جميعه مرة واحدة عند الأجل المتفق عليه. وهو البيع إلى أجل. وهذه الصورة مشروعة بلا خلاف وهي البيع إلى أجل.

الصورة الثانية: أخذ السلعة كلها، وتسديد ثمنها على أقساط في الأجل المتفق عليها.

وهو بيع التقسيط، وقد شاع في هذا العصر أكثر من غيره، وقد كان يسمى التَّجِيم³⁸.

وهو نوع من البيع إلى أجل، وحديث بريرة السابق دليل على جوازه.

الصورة الثالثة: البيع بالدين في ثوب إجارة مثلاً.

الصورة الرابعة: أخذ السلعة شيئاً فشيئاً حسب الحاجة، ودفع ثمنها جميعه مرة واحدة عند الأجل المتفق عليه. وهو المعروف ببيع الاستجرار³⁹.

وهو ما يفعله كثير من الموظفين من شراء أحدهم حوائجه من البقال أو الجزار ونحوهما، على حساب الشهر، أي إنه يشتري ما يحتاج، ولا يدفع الثمن إلا في آخر الشهر عند قبض راتبه.

ولقد جرى العمل ببيع الاستجرار عبر التاريخ، وتناول العلماء في كل عصر البحث في صورته، واختلفوا في بعضها.

والسبب في الاختلاف هو وجود إشكالات على هذا النوع من البيع في جوانب ثلاثة هي:

الدَّيْن لتضرروا بذلك غاية الضرر²⁹.

قال الشيخ الطاهر ابن عاشور: "الدَّيْن من أعظم أسباب رواج المعاملات، لأنَّ المقتدر على تنمية المال قد يعوزه المال فيضطر إلى الدَّيْن ليظهر مواهبه في التجارة أو الصناعة أو الزراعة، ولأنَّ المترقِّه قد ينضب المال من بين يديه وله قِبَلُّ له بعد حين، فإذا لم يتدَّيَّن اختل نظام ماله، فشرع الله تعالى للناس بقاء الدَّيْن المتعارف بينهم..."³⁰.

ثانياً: محاسنه ومساوئه:

1- محاسن البيع بالدين³¹: ومنها:

1- أن المشتري يستطيع الحصول على السلعة، والاستمتاع باستهلاكها أو استعمالها، قبل أن يمكَّنه دخله أو ثروته من ذلك. وقد يكون هذا أولى عنده من الأضرار ثم الشراء بالنقد.

وبذلك يحقق رغبته في الحصول على الشيء الذي يريده دون انتظار.

2- وأن البائع يزيد من مبيعاته، ويعدّد من أساليبه التسويقية، فيبيع نقداً، وإلى أجل، وتقسيطاً، ويستفيد في حالة التأجيل والتقسيط من زيادة الثمن لأجل ذلك.

ثانياً: مساوئ البيع بالدين³²: ومن أبرزها:

1- ما يقع من مشكلات بين البائع والمشتري في حالة عجز المشتري عن سداد الثمن أو التأخر فيه مما قد يؤدي إلى عجز الدائن هو الآخر عن السداد لدائنيه أو التأخر في ذلك مما يربك وضعه وقد يجعله يتوقف عن نشاطه، وإذا كثر أمثاله انعكس ذلك على الوضع الاقتصادي عامة.

2- أن المدين قد يُغريه تأجيل الثمن أو تقسيطه فيشتري ما لا قدرة له على سداذه؛ مما يثقل كاهله بالدين، ويشجع روح الاستهلاك في المجتمع، والمبالغة في الإنفاق لا سيما في الأمور التحسينية، وذلك غير محمود شرعاً.

3- أن الدَّيْن هم بالليل ومذلة بالنهار³³.

4- أن المداينات عامة كانت سبباً في انتشار الربا، إذ هي وعاؤه الكبير، خصوصاً في هذا العصر³⁴.

وحاصل الأمر أن إيجابيات البيع بالدين والشراء به، على مستوى الأفراد خاصة، أكثر من سلبياته، متى استدان الفرد لحاجة ماسة، واعتدل في تحصيل حاجاته وإنفاقه، واجتهد في تقادي مساوئ الديون³⁵.

الفرع الرابع: أسباب نزوع الناس إلى التعامل بالدين:

لا يكاد يسلم أحد من الدَّيْن في هذا العصر، حتى أصبح معظم دخله الشهري مخصصاً لسداد ديونه

سلعة من السوق، فأبيعها منك بكذا وكذا، ثم أبتاعها منك بكذا وكذا، أو اشتري من الرجل سلعة ثم تبيعها إياه بأكثر مما أبتاعها منه"⁴².

وهذا دليل انتشار هذه المعاملة في زمانهم من أناس معينين حتى عرفوا بها.

و ذكر ابن قدامة من صور العينة أن يكون عند الرجل المتاع فلا يبيعه إلا نسيئة. فإن باعه بنقد ونسيئة فلا بأس⁴³.

ثم روى عن الإمام أحمد قوله: "أكره للرجل أن لا يكون له تجارة غير العينة فلا يبيع بنقد"⁴⁴.

قال ابن عقيل معللاً قول الإمام أحمد: "إنما كره ذلك لمضارعه الربا، فإن البائع بنسيئة يقصد الزيادة غالباً"⁴⁵. وعلمه ابن تيمية رحمته الله بأنه يدخل في بيع المضطر؛ فإن غالب من يشتري بنسيئة إنما يكون لتعذر النقد عليه؛ فإذا كان الرجل لا يبيع إلا بنسيئة كان ربحه على أهل الضرورة والحاجة، وإذا باع بنقد ونسيئة كان تاجراً من التجار⁴⁶.

فأهل العينة إذن قوم لا تجارة لهم ولا سلع، وإنما دأبهم تصيد حاجات الناس واضطرارهم، فيشترون لهم السلع التي يحتاجون إليها، ثم يبيعها لهم؛ فكان عملهم تمويلياً لا تجارياً⁴⁷، وإقراضاً لا بيعاً.

الشرط الثاني: أن يكون مما يجوز فيه تأجيل الثمن: وأجل الشيء هو: مدته ووقته الذي يحل فيه⁴⁸.

ويجوز بتأجيل الثمن في الأصل إلا ما استثنى، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾. [البقرة: من الآية 282].

إلا هناك من البيوع ما يمنع فيه التأجيل؛ لئلا يؤدي إلى منهي عنه شرعاً، كالدين بالدين، أو ربا النساء.

أولاً: ما يمنع تأجيله لإفضائه إلى الدين بالدين المنهي عنه، ومنه:

1- تأجيل العوضين كليهما: وهو من بيع الكالئ بالكالئ المنهي عنه شرعاً.

2- وتأجيل رأس مال السلم: وإلا كان في معنى بيع الدين بالدين. وهذا قول عامة الفقهاء.

وأجاز المالكية تأخير قبضه بعد العقد؛ لأن ما قارب الشيء يعطى حكمه، لكن بشروط؛ فإذا اختلفت كان بيع دين بدين⁴⁹.

ثانياً: ما يمنع تأجيله لإفضائه إلى ربا النساء: وهو تأجيل بدل الصرف وبقية الأموال الربوية، لأن الأجل يمنع التقابض المشروط في صحة تبادلها⁵⁰.

ومن ذلك بيع الذهب أو الفضة بالأوراق النقدية المعاصرة، فإنه يشترط فيه تقابض البدلين في مجلس

1- جانب السلعة: في نوعها ومواصفاتها ومقدارها؛ فالسلعة قد تكون معروفة للمشتري، ومألوفة، وقد يعرفها بوصفها الدقيق أو التقريبي، كما أنه قد حاجته منها قد تختلف من وقت لآخر.

2- جانب الثمن: في مقداره ووسيلة تقديره؛ فهل يترك ثمنها للسوق (سعر السوق)، أو للسعر المكتوب عليها (مرقوم)، أو للسعر الذي يحدده البائع كما في بيع الاسترسال⁴⁰؟ ومعلومية الثمن مهمة في تحقيق التراض، لأن العلم مناط الرضا.

3- جانب الأجل: أي أجل السداد وتحديد؛ فإنه يختلف طولاً وقصراً، وباختلاف ذلك يختلف أثر الدين على البائع، وربما تبع ذلك أن يزيد في الثمن الأجل عن الحال.

وإضافة إلى هذه الجوانب الثلاث؛ هناك جانب طبيعة الاتفاق؛ فهل ما يتم من اتفاق على البيع بالدين هو عقد بين الطرفين، أم مجرد مواعدة؟

فإن كان مجرد مواعدة غير ملزمة، فالمفترض أن ينعقد البيع عند أخذ كل شيء من السلعة على حدة.

وإن كان عقداً، فيفترض إخضاعه لشروط العقد الآتي ذكرها.

ولبيع الاسترجار صور كثيرة يترتب في جميعها دين في ذمة أخذ السلعة، وسيأتي بيان أحكامها أثناء البيان شروط البيع بالدين بحول الله تعالى.

المطلب الرابع: شروط البيع بالدين:

لبيع بالدين شروط زائدة عن البيع المعتاد، وهي بإيجاز ما يلي:

الشرط الأول: عدم التخصص في البيع إلى أجل (البيع بالدين):

شأن التاجر أن يبيع نقداً، وقد يبيع بالدين لسبب ما؛ لكن أن يُنصّب فرد أو مؤسسة نفسه لطلب السلع منهم، مما يرغب فيه الناس، وليست عندهم، فيشترونها من غيرهم ويبيعونها لطلبها إليها إلى أجل، فإن هذا مما كرهه أهل العلم، وعده كثيرون من التحايل على الإقراض الربوي في صورة بيع أجل.

وتقوى القرينة في الدلالة على التحايل إذا كان الطالبون للسلع من العاجزين عن سداد أثمانها من بائعيها الأصليين مباشرة، وكان البائع لا يبيع إلا إلى أجل، لا بالحاضر، أو مارس العملية مؤسسة مختصة أساساً في العمل الائتماني (الإقراض).

وكان أمثال هؤلاء يُسمّون - فيما مضى - "أهل العينة"⁴¹؛ فقد جاء في المدونة: "قلت: صف لي أصحاب العينة في قول مالك. قال: أصحاب العينة عند الناس قد عرفوهم: يأتي الرجل إلى أحدهم فيقول له: أسلفني مالاً. فيقول: لا أفعل، ولكن أشتري لك

ونحوه، ففيه الأقوال التالية:

أ- أن ذلك لا يجوز والبيع باطل؛ لأن الجهالة اليسيرة مما يتقدم الأجل فيها ويتأخر؛ فيؤدي إلى المنازعة فيوجب فساد البيع، وهو رأي جمهور أهل العلم⁶¹.

وألتهم على ذلك ما سبق من أدلة وجب العلم بالأجل.

ب- أن الجهالة اليسيرة جائزة، والبيع صحيح؛ لأن الحصاد مثلاً لا يكون في كل وقت، بل في مدة من الزمن محدودة يتكرر وقوعه بين أولها وآخرها. ولأن الجهالة مانعة من لزوم العقد، وليست في صلبه، بل في أمر خارجه، وهو الأجل، فإذا زال المانع قبل وجود ما يقتضي الفساد، وهو المنازعة عند المطالبة الحاصلة عند مجيء الوقت، ظهر محل المقتضى. وبه قال بعض الحنفية⁶².

و يرى المالكية كذلك جواز التأجيل إلى الحصاد ونحوه، ويعتبر في الحصاد والدراس ونحوهما ميقات معظمه، أي الوقت الذي يحصل فيه غالب ما ذكر، وهو وسط الوقت المعد لذلك. وسواء وجدت الأفعال في بلد العقد، أو عدمت - أي لم توجد - فالمراد وجود الوقت الذي يغلب فيه الوقوع⁶³.

ونحوه ما ذكره ابن قدامة في رواية أخرى عن الإمام أحمد أنه قال: أرجو ألا يكون به بأس.

ومن مستندات الجواز:

- ما روي عن ابن عمر أنه كان يبتاع إلى العطاء⁶⁴.

- ولأنه أجل يتعلّق بوقت من الزمن يُعرف في العادة، لا يتفاوت فيه تفاوتاً كبيراً، فأشبه ما إذا قال رأس السنة⁶⁵.

ج- وذهب الإمام أحمد في رواية عنه، وهو في قول ابن شبرمة إلى أن العقد صحيح ويبطل التأجيل. لقوله ﷺ: "المسلمون على شروطهم"⁶⁶. ولأن الأجل مجرد وصف للعقد لا ركن فيه، فيلغى ويصح العقد، ولأن الفساد للمنازعة وقد ارتفع قبل تقررّه.

الترجيح: والظاهر أن الجهالة اليسيرة جائزة، خصوصاً إذا علم بالأجل عرفاً، وتقاربت المدة جداً، للأدلة المشار إليه عند المجوزين، أو انصرف إطلاقه إلى زمن محدّد عرفاً كنهاية الشهر مثلاً، كما أشارت إليه مجلة الأحكام العدلية في أن الإطلاق في الأجل يتحدّد تلقائياً بأقله عرفاً؛ جاء فيها: "إذا باع نسيئة بدون مدة تنصرف إلى شهر واحد فقط"⁶⁷.

فالعلم بالأجل مطلوب، وعلى المتبايعين عدم التقصير، فإذا تخلف المدين أمهله الدائن، على أن الدّين من البيع إذا تأخّر سداه عن الأجل المسمى تحوّل إلى قرض.

العقد دون تأخير شيء من الثمن أو المثل، فإذا أجل أحدهما فقد فسد العقد.

وإلى هذا ذهب جماهير أهل العلم من المعاصرين، بناء على أن الأوراق النقدية المعاصرة قد حلت محلّ الدنانير الذهبية والدرهم الفضية وأخذت أحكامها؛ فإنها في زماننا ثمن لكل مثنى، وقيمة لكل مقوم⁵¹.

ومن ذلك بيع العملات بعضها ببعض، اتّحد جنسها أو اختلف، فإنه يشترط فيها التقابض في المجلس.

قال ابن المنذر⁵²: أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم على أن المتصارفين إذا افترقا قبل أن يتقابضا أن الصرف فاسد لقول النبي ﷺ: «الذهب بالورق رباً إلا هاء وهاء»⁵³. وقوله عليه الصلاة والسلام: «بيعوا الذهب بلفضة كيف شئتم يداً بيد»⁵⁴.

وإذا وقع البيع مع تأجيل أحد العوضين فإنه فاسد لا يحصل به ملك ولا يترتب عليه أثر؛ وعليه فيجب على كل من الطرفين رد ما أخذه إن كان باقياً، وهذا باتفاق؛ قال ابن رشد: "اتفق العلماء على أن البيوع الفاسدة إذا وقعت ولم تقف، حكمها الرد، أي أن يرد البائع الثمن، ويرد المشتري المثلون"⁵⁵.

وإذا أُجل بعض الثمن وعُجل بعضه فسد العقد - على رأي الجمهور - في قدر المؤجل من الثمن فقط، أي ما لم يقبض فقط.

الشرط الثالث: العلم بالأجل:

والعلم به شرط في الدين، فيلزم العلم بأجل الدين، وأجال أقساطه إن كان مقسّطاً، وذلك لأدلة منها:

- قوله ﷺ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ» [البقرة: من الآية 282].

- وقوله ﷺ: «مَنْ أَسْلَفَ فِي شَيْءٍ، فَلْيَسْلِفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ، وَوَزَنٍ مَعْلُومٍ، إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ»⁵⁶.

- الإجماع؛ قال ابن قدامة: "ولا نعلم في اشتراط العلم (أي بالأجل) في الجملة اختلافاً"⁵⁷.

- أن جهالة الأجل تُفضي إلى المنازعة بين المتبايعين في أجل تسليم الثمن، وكل سبب يفضي إلى المنازعة يجب منعه⁵⁸.

- أن الجهالة به كذلك قد تؤدي بالمدين إلى التراخي في أداء ما عليه، وذلك مفض إلى عدم الوفاء بالعقود المأمور به شرعاً.

وأما على التفصيل فله أحوال، أهمها ما يلي:

1- إذا تحدّد أداء الدين بآخر الشهر مثلاً، أو كل قسط بآخره كذلك، صحّ البيع باتفاق⁵⁹.

2- إذا كان أجل الأداء مجهولاً جهالة الفاحشة؛ كما لو حدّده بنزول المطر مثلاً فالبيع باطل باتفاق⁶⁰.

3- إذا كانت الجهالة يسيرة كالتحديد بالحصاد

ولقد اختلف فيها العلماء بين المنع والجواز والتفصيل.

أولاً: القول بالمنع:

الأصل في هذا البيع المنع؛ لأن العلم بالثمن شرط في صحة عقد البيع لدى عامة الفقهاء.

فقد منعه الإمام مالك، قال في الموطأ: "... فإذا لم يكن في ذلك سعر معلوم وقال الرجل آخذ منك بسعر كل يوم فهذا لا يحل لأنه غرر يقل مرة ويكثر مرة ولم يفترقا على بيع معلوم"⁷¹.

قال ابن عبد البر: "هذا ما لا خلاف فيه للجهل بمبلغ ما يأخذ كل يوم بسعره لانخفاض الأسعار وارتفاعها"⁷².

ومنعه الإمام أحمد في رواية؛ قال خلال في البيع بغير ثمن مسمى، عن حرب: سألت الإمام أحمد قلت: الرجل يقول لرجل: ابعث لي جريباً من بر، واحسبه علي بسعر ما تبيع. قال: لا يجوز هذا حتى يبين له السعر⁷³.

وعن إسحاق بن منصور قلت للإمام أحمد: الرجل يأخذ من الرجل سلعة فيقول: أخذتها منك على ما تبيع الباقي. قال: لا يجوز. وعن حنبل قال عبي: أنا أكرهه، لأنه بيع مجهول، والسعر يختلف، يزيد وينقص⁷⁴.

ومنعه النووي في المجموع فقال: "فأما إذا أخذ منه شيئاً ولم يُعطه شيئاً، ولم ينفذ بيعاً، بل نوى أخذه بثمنه المعتاد كما يفعله كثير من الناس فهذا باطل بلا خلاف لأنه ليس ببيع لفظي ولا معاطاة، ولا يُعدُّ بيعاً؛ فهو باطل. ولنعلم هذا ولنحترز منه، ولا نغتر بكثرة من يفعله، فإن كثيراً من الناس يأخذ الحوائج من البائع مرة بعد مرة من غير مباحة ولا معاطاة، ثم بعد مدة يحاسبه ويعطيه العوض. وهذا باطل بلا خلاف لما ذكرناه"⁷⁵.

ولأن ثمن السوق قد لا يرضاه المشتري بعد أن يعلمه، وقد يتفاجأ به إذا كان مرتفعاً، ويقع النزاع⁷⁶.

ثانياً: القول بالجواز:

وأجازه متأخرو الحنفية، وذكر ابن عابدين لجوازه عدة تخريجات، من أهمها:

- التخريج على أساس البيع مع التسامح في كون المعقود عليه معدوماً استحساناً قائماً على العرف، والمبرر له هو رفع الحرج، وأنه من الأمور اليسيرة التي تغتفر في مثلها⁷⁷.

- التخريج على أساس البيع بالتعاطي⁷⁸، وأنه لا يحتاج في مثله إلى بيان الثمن، لأنه معلوم⁷⁹.

والجواز منسوب كذلك للغزالي⁸⁰ من الشافعية، بناء على جواز المعاطاة، وإن كان لا يظهر من كلام الغزالي تصريح بحل المعاملة دون سؤال عن الثمن.

- ولأن الناس يعدونه بيعاً، والغالب أن يكون قدر

الشرط الرابع: العلم بالمبيع:

من شروط المبيع أن يكون معلوماً، قدراً ونوعاً وصفة. وهو شرط لدى عامة الفقهاء⁶⁸، إلا ما استثنى من بيع الجراف بشروطه.

ويتم العلم بالمبيع بالرؤية المقارنة للعقد، أو السابقة بحيث لا يتغير بعدها، أو بالإشارة إليه، أو بفرزه وتمييزه من بقية السلع، أو بوزنه وتقديره بالوسيلة المناسبة لطبيعته.

وعليه فلا يجوز بيع المجهول لدى عامة الفقهاء، سواء جهلت ذاته؛ كثوب من الأثواب، أو صفته، أو مقداره، وأولى من ذلك جهل تحقق وجوده وعدمه.

وقد يأخذ المشتري السلعة مرة واحدة، وهو يعلم مقدارها، وقد يتم الاتفاق بينه وبين البائع على أن يأخذها شيئاً فشيئاً، بثمن معلوم مؤخر إلى أجل معلوم، لكن مقدارها في كل مرة غير معلوم.

فهذا جائز؛ جاء في المدونة: "... وسئل عن رجل اشترى ثلاث جنّيات من رجل من حائطه ما استجنى منها فهو له من حساب أربعة أصع بدينار؟ قال: لا بأس بذلك وهذا أمر معروف وهو مثل ما يقول: اشترى منك طعامك هذا كله أو حائطك هذا كله أربعة أصع بدينار؛ لأن السعر قد عرف".

فإن كان الذي بينهما مجرد مواعدة؛ فإن عقد البيع لكل مقدار إنما يتم عند الأخذ بطريق المعاطاة، وهي جائزة عند جمهور أهل العلم.

الشرط الخامس: العلم بالثمن: وهو شرط في عقد البيع لدى عامة الفقهاء⁶⁹.

وللثمن أحوال:

فقد يكون ثمننا متفقاً عليه، وقد يكون ثمن السوق، أو الذي يبيع به البائع لبعض الناس، أو لكلهم.

وقد يكون الثمن معلوماً للمشتري، وقد يكون الثمن مجهولاً لا يعلمه المشتري إلا عند الوفاء.

والغالب في زماننا أن السعر يكون مكتوباً على السلعة نفسها، مطبوعاً أو بخط اليد، كما في المعلّبات والأدوية، ويسمّيه الفقهاء البيع بالرقم، أي بالسعر المرقوم على السلعة⁷⁰.

وأما الثمن في البيع بالدين، فقد يكون مثل الثمن الحاضر، وقد يزيد عليه.

المسألة الأولى: قيام البيع مع عدم الاتفاق على ثمن معلوم:

وذلك بأن يأخذ المشتري ما يحتاج إليه من سلع من البائع، ويطلب منه قيدها عليه بثمن السوق، أو بما يبيع به عادة، فالمشتري لا يعلم الثمن، بل يأتين البائع عليه.

ثمن الحاجة معلوماً لهما عند الأخذ والعطاء وان لم يتعرضا له لفظاً⁸¹.

وأجازه الإمام أحمد في رواية؛ قال أبو داود في مسأله، باب في الشراء ولا يسمى الثمن، سمعت أحمد سئل عن الرجل يبعث إلى البقال، فيأخذ منه الشيء بعد الشيء ثم يحاسبه بعد ذلك؟ قال: أرجو أن لا يكون بذلك بأس. قال أبو داود: وقيل لأحمد: يكون البيع ساعته؟ قال: لا⁸².

قال ابن تيمية: "فقد نص على جواز ابتياعه بسعره يوم الأخذ، وإن لم يعلم المشتري قدر السعر"⁸³.

وعن مثني بن جامع عن أحمد في الرجل يبعث إلى محامل له ليعت إليه بثوب، فيمر به، فيسأله عن ثمن الثوب فيخبره، فيقول له اكتبه، والرجل يأخذ التمر فلا يقطع ثمنه. ثم يمر بصاحب التمر، فيقول له: اكتب ثمنه. فأجازه إذا ثمنه بسعر يوم أخذه.

قال ابن تيمية: وهذا صريح في جواز الشراء بثمن وقت القبض لا وقت المحاسبة سواء أذكر ذلك في العقد أم أطلق لفظ الأخذ زمن البيع⁸⁴.

- ولأن الأصل هو تصحيح عقود العاقل بقدر الإمكان.

- أنه لا يترتب عليه نزاع.

- أن هذا عمل الناس دائماً عبر التاريخ، إلا إذا حصل غبن فللمشتري الخيار⁸⁵.

- أنه لم يشترط في التبائع إلا التراضي، والتراضي يحصل من غالب الخلق بالسعر العام، وبما يبيع به عموم الناس، أكثر ممن يماكس عليه⁸⁶.

- أن مصالح الناس لا تقوم إلا به⁸⁷.

ثالثاً: القول بالتفصيل⁸⁸: وهو الذي ذهب إليه محمد تقي العثماني:

1- إن كان البائع يبين ثمن البضاعة المأخوذة كل ما يأخذ منه المشتري، فالبيع ينعقد صحيحاً عند كل أخذ، وهذا بإجماع من يقول بجواز التعاطي. وتقع تصفية الحساب بعد أخذ مجموعة من المبيعات.

2- إن كان البائع لا يبين ثمن البضاعة عند كل أخذ، ولكن المتبايعين تفاهما بأن الأخذ يكون على سعر السوق، وسعر السوق منضبط بمعيار معلوم لا يقع الاختلاف في تحديده، فالصحيح أن البيع ينعقد أيضاً عند كل أخذ.

وهذا القسم لا تتفاوت أحاده، ولا تتفاوت أسعاره، وإنها تنضبط بمعيار معلوم يعرفه كل أحد معلوم يعرفه كل أحد، ولا يحتمل أن يقع الخطأ أو النزاع في تطبيقه، والذين ذهبوا إلى الجواز إنما أرادوا هذا القسم، لأن ذكر مثل هذا المعيار المضبوط يقوم مقام ذكر الثمن،

فليس فيه جهالة تقضي إلى النزاع⁸⁹.

3- إن كان الثمن مجهولاً وقت الأخذ، أو اتفق الفريقان على أنه يقع على أساس سعر السوق ولكن سعر السوق متفاوت متفاوتاً فاحشاً، بحيث يقع الاختلاف في تحديده، فإن البيع لا يصح عند الأخذ، وإنما يقع عند تصفية الحساب، ولكنه يسند حينئذ إلى وقت الأخذ، فيثبت الملك للأخذ من وقت الأخذ، وتحل تصرفاته من ذلك الحين بعد أداء الثمن.

ففي هذا القسم تتفاوت أسعار المبيع بتفاوت الأحاد ولا يمكن تحديد سعرها بمعيار منضبط معلوم فمن التجار من يبيعه بعشرة مثلاً ومنهم من يبيعه بأكثر وأقل. فالذين ذهبوا إلى حرمة البيع بسعر السوق إنما أرادوا المنع في مثل هذا القسم من المبيعات لأن سعر السوق إذا لم يكن معلوماً للمتبايعين في مثل هذه الأشياء اصطلاح غير مستقر فيبقى الثمن مجهولاً بجهالة تقضي إلى النزاع⁹⁰.

4- أن لا يكون الثمن معلوماً عند الأخذ، ولا يتفاوت المتبايعان في بداية تعاملهما على أساس منضبط لتحديد الثمن يؤمن معه النزاع، بل يتعاملان هملاً، ولا يتعارضان للثمن أصلاً. وحينئذ، لا شك في أن الثمن مجهول عند أخذ الأشياء جهالة فاحشة ربما تؤدي إلى النزاع، فلا ينعقد البيع عند الأخذ، فتبقى هذه المعاملة فاسدة إلى أن يقع بينهما تصفية الحساب. ولكن ذكر المتأخرون من الحنفية أن هذه المعاملة تنقلب جائزة عند التصفية إذا اتفقا على ثمن.

الراجح: والذي يظهر رجحانه هو التفصيل المذكور، ويؤيد ذلك:

- أن الثمن معلوم حسب العرف، فإن أثمان السلع معروفة حسب التسعيرة المقيدة على كل بضاعة، وبالتالي فلا يؤدي إلى النزاع، وحينئذ فلا تعتبر الجهالة فاحشة⁹¹.

- أنه كلما أخذ شيئاً انعقد بيعاً بثمنه المعلوم. والله أعلم.

المسألة الثانية: اختلاف الثمن الآجل عن الثمن

الحال: وهي أن يكون الثمن بالبيع الآجل أعلى من البيع بالحاضر: وهو الذي جرت به العادة قديماً وحديثاً في بعض أنواع البيوع الآجلة، بأن يزيد البائع بالدين في الثمن نظير التأجيل أو التقسيط⁹²؛ كأن تباع الآلة هذه بمائة حالة، وبمائة وعشرة مؤجلة، أو مقسطة.

وقد ذهب جمهور الفقهاء، بما فيهم فقهاء المذاهب الأربعة، وجماعة كبيرة من السلف⁹³، وكثير من الهيئات العلمية؛ كمجمع الفقه الإسلامي⁹⁴، وكثير من العلماء المعاصرين⁹⁵ إلى جواز زيادة الثمن الآجل عن الحال بشروط. ولهم أدلتهم من الكتاب والسنة

والإجماع والعرف والمعقول.

ومن شروط الجواز الجزم بأحد الثمنين قبل افتراق المتبايعين⁹⁶.

فلو أنَّ البائع قال للمشتري: لك هذه السلعة نقدا بعشرة، ونسيئة باثني عشر، فلا بأس أن يذكر الأثمان المختلفة عند المساومة، غير أنه يلزمهما تحديد أحد الثمنين قبل الافتراق.

ومن أدلة هذا الشرط:

- حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "نهى رسول الله ﷺ عن بيعتين في بيعة"⁹⁷.

قال الترمذي: "وقد فسّر بعض أهل العلم، قالوا: بيعتين في بيعة أن يقول: أبيعك هذا الثوب بنقد بعشرة، وبنسيئة بعشرين، ولا يفارقه على أحد البيعتين، فإن فارقته على أحدهما فلا بأس، إذا كانت العدة على أحد منهما"⁹⁸.

فعلة النهي عن بيعتين في بيعة هو تردّد الثمن بين حاليتين، دون أن تتغيّر إحداها عند العقد، وهذا يوجب جهل المتعاقدين بالثمن، إذ إن الصيغة الصادرة مشتملة على صيغتين في أن واحد، فلم يجز للبائع بيع واحد، وأن الثمن مجهول: فهل هو المُعَجَّل أم المُؤَجَّل؟ وإذا كان الإيجاب غير جازم فلا يصلح، ويكون عرضاً، فإذا قبل الموجّه إليه العرض الخاص بإحدى الصفتين كان إيجاباً موجّهاً إلى الطرف الأول. فإن قيل تمّ العقد، وإلا فلا.

فالمحذور في مثل هذه الصيغ أن يفترقا قبل الجزم بأحد الثمنين فيقعان في صورة "بيعتين في بيعة" المنهي عنه، فلم يذنب الجزم بالثمن.

ولو أنَّ العقد تمّ دون الجزم بأحد الثمنين لكان باطلاً على رأي جمهور الفقهاء من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين؛ للعلة المذكورة، ولزم عقده من جديد بتعيين أحد الثمنين بوضوح.

ويرى المالكية أنَّ السلعة لو قبضت أو استهلك وجبت قيمتها⁹⁹.

الشرط السادس: عدم الزيادة بعد ذلك على الثمن المتفق عليه: فإذا ثبت الثمن في الذمة لم تجز الزيادة عليه؛ فلو أنَّ مؤسسة عقارية تباع المساكن - مثلاً - وقالت للمشتري: إذا سدّدت الثمن قبل خمس سنوات، فثمنها كذا، وإذا تأخرت زاد الثمن بنسبة ثابتة تُذكر منفصلة عن الثمن الأصلي لكان هذا ربا صريحاً؛ لأنَّ ثمن المسكن - بعد البت فيه - قد ثبت ديناً في ذمة المشتري، لا يزيد ولا ينقص باختلاف أحوال المشتري في الأداء¹⁰⁰.

كما أنه لا تجوز الزيادة على الدين عند التأخر في السداد على وجه التعرّيم، وهو ما ذهب إليه جمهور علماء العصر؛ لأن الأصل المقرر شرعاً هو منع الزيادة على أصل الدين المقرر في الذمة إلا بدليل، ولا دليل يسوغها؛ بل لم يؤثر في الأحكام الشرعية والفتاوى ولا في الجانب العملي إلزام مماطل بدفع تعويض جبراً للضرر اللاحق بالدائن، ثم إن التدابير الشرعية في علاج مشكلة التأخر في السداد كافية، فالحل في الرجوع إلى الشرع.

ولا يجوز كذلك تحميل المدين انخفاض قيمة النقود، لأدلة منها:

1- أن نصوص الشرع تقرر أن الديون تقضى بأمثالها، وإلى هذا ذهب جماهير أهل العلم، وأن هذه المثلية قائمة في النقود ولو انخفضت قيمتها، باعتبارها أثماناً قامت مقام الذهب والفضة؛ رغم اختلافهما في طبيعة الثمنية، كما قرّرت الهيئات العلمية المختلفة في هذا العصر، إلا إذا انقطعت أو كسدت، وهو حكم خاص.

2- ولأنّ تحميله الفارق يفتح الذريعة إلى الربا على مصراعيه، إلا رخصة ضيقة أقتى بها بعض أهل العلم في حال طول المدة كثيراً وكان الانخفاض كبيراً جداً بحيث لو استرد الدائن دينه كان كلاً شيء، فإنه يلجأ إلى الصلح، من طريق القضاء ونظر أهل الخبرة.

لكن كلما بادر المدين إلى إرضاء الدائن بما يستطيع كان ذلك مخففاً للضرر الواقع على الدائن، وكلما احتسب هذا الأخير ما وقع لعلة يكون له مزيد الأجر تكملة لما قصد من القرض أو البيع إلى أجل، وكان في ذلك ابتعاد عن الربا وشروره.

الشرط السابع: أن لا تكون الزيادة في الثمن الأجل عن الحال فاحشة: أي ألا يكون مقدار الفرق بين الثمن الحالّ والثمن الأجل فاحشاً، وإلا كان غبناً، ولا يُقبل على مثل هذا البيع إلا مضطراً، وقد نهى ﷺ عن بيع المضطر¹⁰¹.

الشرط الثامن: سلامة عملية البيع بالدين من الطريقة التقليدية في تقدير الثمن الأجل: فلا يجوز تسجيل بعض الربح المندمج في الثمن على أنه فائدة، كأن يحتسب بعض الثمن المؤجل في البيع فائدة، وبعضه استرداداً لرأس المال، وقسم ثالث على أنه ربح على صفقة البيع¹⁰².

وهذا يقتضي ألا يجزأ الثمن على أن جزءاً منه هو الثمن الأصلي العاجل، وجزءاً منه هو مقابل التأجيل.

الشرط التاسع: أن يكون البيع بالدين حقيقياً لا سائراً للعقد ولا مستوراً بأخر
وههنا حالتان:

خاتمة:

- مما سبق إيراد في البحث نصل إلى النتائج التالية:
- 1- أن كثرة التبايع بالدين تحتّم على المسلم معرفة أحكامه خشية الوقوع في البيوع المحرمة، أو الربا.
 - 2- أن البيع بالدين هو كل بيع تأجل فيه الثمن، كلّهُ أو بعضهُ. وهو مشروع بالكتاب والسنة والإجماع والمصلحة.
 - 3- أن البيع بالدين مُستحبّ إذا قصد البائع الإرفاق بالمشتري، ولم يزد عليه في الثمن، وكان محتاجاً فقيراً، مؤتمناً على السداد، ولم يضيق عليه بطلب رهن أو كفالة مثلاً. ويكون مباحاً إلا خلا من ذلك.
 - 4- شرع الإسلام التبايع بالدين لما فيه من التعاون على سدّ حاجة المحتاج، ومحاسنه أكثر من مساوئه.
 - 5- تتنوع صور البيع بالدين بحسب جمع الثمن أو السلعة أو تفريقهما.
 - 6- بيع الاسترجار من البيع بالدين، وغالب الموظفين يفعلونه، وهو أخذ السلعة شيئاً فشيئاً حسب الحاجة، ودفع ثمنها جميعه مرة واحدة عند الأجل المتفق عليه.
 - 7- يتعلق ببيع الاسترجار إشكالات في جانب الجهالة بالثمن، وأجل سداذه، والسلعة وموصفاتها، ولذلك اختلف فيه العلماء.
 - 8- للبيع بالدين شرط هي:
- أول: عدم التخصص في البيع إلى أجل (البيع بالدين).
 - الثاني: أن يكون مما يجوز فيه تأجيل الثمن.
 - الثالث: العلم بالأجل.
 - الرابع: العلم بالمبيع.
 - الخامس: العلم بالثمن.
 - السادس: عدم الزيادة بعد ذلك على الثمن المتفق عليه.
 - السابع: أن لا تكون الزيادة في الثمن الآجل عن الحال فاحشة.
 - الثامن: سلامة عملية البيع بالدين من الطريقة التقليدية في تقدير الثمن الآجل.
 - التاسع: أن يكون البيع بالدين حقيقياً لا ساتراً لعقد ولا مستوراً بآخر.
- والله تعالى أعلى وأعلم.

أ- الحالة الأولى: أن يكون البيع بالدين ساتراً لقرض ربوي أو حيلة إليه: وذلك كأن يعمد المتعاقدان إلى بيع أجل صوري، من طريق بيع العينة المعروف؛ فيبيع الشخص سلعته لمستقرض بثمن أجل، ثم يشتريها منه نقداً بثمن أقل؛ فيكون كأنه أقرضه القليل ليردّ إليه أكثر¹⁰³.

أو أن يراوض المشتري البائع على ربح مسمّى في سلعة لا يملكها؛ بأن يطلب راغب في سلعة لا يملك ثمنها من غيره أن يشتريها له، على أن يدفع له ثمنها مع ربح مسمى أجلاً، دفعة واحدة أو على دفعات¹⁰⁴. مثالها أن يقول: اشتريها بعشرة نقداً، وأعطيك فيها خمسة عشر إلى أجل.

وهي من صور التحايل المحظورة عند المالكية¹⁰⁵.

أ- الحالة الثانية: أن يكون البيع مستوراً بعقد آخر: ويعني ذلك أن تكون عملية البيع واضحة وصريحة، وألا يغلفها بعقد آخر لهذا السبب أو ذاك، لأنّ لعقد البيع صيغته المعروفة، وله طبيعة محددة، وتترتب عليه آثار معينة.

ومن أمثلة ذلك: معاملة الإيجار المنتهي بالتمليك، التي توصف بأنها إيجار ساتر للبيع. ومعلومة أن للإيجار طبيعته وصيغته وأثاره الخاصة به، وهي تختلف عن البيع في ذلك.

فالبائع يحتفظ بملكية العين، والمشتري لا يستطيع التصرف فيها بالبيع ونحوه، فالعقد بهذا إيجار.

والمستأجر قصد التملك، ويدفع الأقساط لأجل ذلك، وهي مرتقعة عن المعتاد في الإيجار، وإذا وفى بها استحق نقل ملكية العين إليه بأثر رجعي، وهذا من أثار البيع، إذ ليس من أثار الإجارة نقل ملكية الذات.

فالمعاملة قائمة على عقدين مختلفين، وأثارهما متنافية فيما بينها، بل في المعاملة غرر ومجازفة؛ فإن دافع الأقساط إذا عجز عن سداد بقيتها خسر الثمن والمثمن!!

وصيغة الإيجار المنتهي بالتمليك هي من الصيغ الوافدة التي تمارسها البنوك ومؤسسات عقارية أخرى. وتوصف هذه الصيغة بكونها إيجاراً ساتراً للبيع متى مارسته مؤسسات غير مصرفية.

وقد أفتت كثير من الهيئات العلمية بمنعها لتنافر العقدين¹⁰⁶.

وأما عمل المصارف بها فهو ذو صلة بالإقراض، بالنظر إلى حقيقة هذه الصيغة وإجراءات تنفيذها والقوانين المنظمة لها¹⁰⁷.

الهوامش:

- 1 - ابن قدامة، المغني، 480/3.
- 2 - الدريبر، الشرح الصغير، 4/3.
- 3 - راجع: ابن قدامة، المغني، 480/3، الخطاب، مواهب الجليل، 12-11/6.
- 4 - الخطاب، مواهب الجليل، 11/6.
- 5 - راجع: المرجع نفسه، 12/6 فما بعدها.
- 6 - راجع: نزيه حماد، معجم المصطلحات المالية والاقتصادية في لغة الفقهاء، ص156.
- 7 - راجع: ابن عابدين، رد المحتار، 272 / 5، و مجلة الأحكام العدلية، المادة 153، ص33، و القرافي، الفروق، 255/3، و النووي، المجموع شرح المذهب، 269 / 9، و اليهودي، شرح منتهي الإرادات، 205 / 2.
- 8 - ابن عبد البر، الكافي في فقه أهل المدينة، 726 / 2، التَّسُولِي، البهجة في شرح التحفة، 88 / 2.
- 9 - راجع: علي حيدر أفندي، درر الحكام في شرح مجلة الأحكام، شرح المادة (245)، 227/1.
- 10 - راجع: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 320 / 2.
- 11 - ابن منظور، لسان العرب، 436/12.
- 12 - الكاساني، بدائع الصنائع، 42/6. ابن عابدين، رد المحتار، 157/5. قلنجي - قنبي، معجم لغة الفقهاء، ص 212، نزيه حماد، معجم المصطلحات المالية، ص 208.
- 13- المراجع السابقة.
- 14 - راجع: الرصاع، شرح حدود ابن عرفة، ص291، ابن قدامة، المغني، 207/4، نهاية المحتاج، الرملي، 182/4.
- 15 - راجع: الجصاص، أحكام القرآن، 585/1.
- 16 - روه البخاري في مواضع كثيرة، منها: كتاب البيوع، باب شراء النبي ﷺ بالنسيئة (1960). ورواه مسلم في كتاب المساقاة، باب الرهن وجوازه في الحضر والسفر، (4199)، والنسائي في كتاب البيوع، باب مبايعة أهل الكتاب، (6246).
- 17 - روه البخاري في كتاب المكاتب، باب استعانة المكاتب وسؤاله الناس (2424). ورواه مسلم في كتاب العتق، باب الولاء لمن أعتق، (3851)، ورواه غيرهما.
- 18 - روه ابن ماجة في كتاب التجارات، باب الشركة والمضاربة (2289)، 726/2. وضعفه ابن حجر في بلوغ المرام، 296/1، والالْباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، 119/5.
- 19 - روه البخاري في كتاب السلم، باب السلم في كيل معلوم، (2124-2126)، ومسلم (واللفظ له)، في كتاب المساقاة، باب السلم، (4202)، والترمذي في كتاب البيوع، باب السلف في الطعام والتمر (1311)، وقال: حسن صحيح. وأبو داود في كتاب الإجارة، باب السلف، (3465)، والنسائي في كتاب البيوع، باب السلف في الثمار (6209).
- 20 - راجع: ابن حزم، المحلى بالآثار، الجصاص، أحكام القرآن، 585/1. ابن المنذر، الإجماع، ص134.
- 21 - راجع: ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، 108 / 2. وراجع: اللحياني، "الائتمان في الاقتصاد الإسلامي، مع التركيز على الائتمان التجاري"، ص 17 فما بعدها.
- 22 - راجع : اللحياني، سعد، الائتمان في الاقتصاد الإسلامي، ص 17 فما بعدها.
- 23 - المصري، رفيق يونس، بيع التقسيط، ص 17.
- 24 - سبق تخريجه.
- 25 - المصري، بيع التقسيط، ص 17.
- 26 - راجع: ابن قدامة، المغني، 430 / 6.
- 27 - الخطاب، مواهب الجليل، 11/6. الشربيني، محمد بن أحمد الخطيب، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، 29/3.
- 28 - راجع: المصري، بيع التقسيط، ص 90. (بتصرف)
- 29 - راجع: ابن القيم، إعلام الموقعين، 108 / 2.
- 30 - ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي، التحرير والتنوير، 98/3.
- 31 - راجع: القري، محمد علي، "بيع الدين وسندات القرض وبدائلها الشرعية في مجال القطاع العام والخاص"، (مجلة مجمع الفقه الإسلامي الدولي)، ع11 ج 11، ص 116. يونس المصري، بيع التقسيط، مرجع سابق، 16/15، القره داغي، علي محيي الدين: بحوث في فقه المعاملات المالية المعاصرة، ص 202 فما بعدها. الإبراهيم، محمد عقله، "حكم بيع التقسيط في الشريعة والقانون"، (http://www.islamselect.net/mat/22870، 2011/12/25م).
- 32 راجع للاستزادة: القره داغي، بحوث في فقه المعاملات، مرجع سابق، ص 202. المصري، بيع التقسيط، مرجع سابق، ص 16. والإبراهيم، حكم بيع التقسيط، مرجع سابق.
- 33 - راجع : القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، 417/3.
- 34 - بنشهو، عبد الحميد بن أبي زيان، ما تشاهده العيون من مسائل الديون، المقدمة.
- 35 - راجع: الإبراهيم، حكم بيع التقسيط. مرجع سابق، و المصري، بيع التقسيط، مرجع سابق، صص 16/15.
- 36 - راجع: القري، محمد علي بن عيد، بيع الدين وسندات القرض، مجلة مجمع الفقه الإسلامي، مجلة مجمع الفقه الإسلامي، ع11 ج1 ص106-107.
- 37 - المرجع نفسه، ص108.

- 38 - راجع الفيروز آبادي، ص1161، ابن منظور، لسان، 570/12. الفيومي، المصباح المنير، 594/2-595، الدسوقي، محمد بن أحمد بن عرفة المالكي، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، 4 / 389، و البهوتي، منصور بن يونس بن صلاح الدين، كشف القناع عن متن الإقناع، 187/6، والموسوعة الفقهية، مصطلح "أجل"، مادة التجيم. 7/2.
- 39 - ابن عابدين، رد المحتار، 4 / 516.
- 40 - المصري، بيع الاسترجار تعريفه وإشكالاته، جامعة الملك عبدالعزيز كلية الاقتصاد والإدارة مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي ندوة حوار الأربعاء.
- 41 - الدسوقي، محمد بن أحمد بن عرفة، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، 3 / 88.
- 42 - سحنون، عبد السلام بن سعيد التتوخي، المدونة، 134/3-135.
- 43 - المغني، ابن قدامة، مرجع سابق، 4 / 277.
- 44 - المغني، ابن قدامة، مرجع سابق، 4 / 277، حاشية ابن القيم على سنن أبي داود، ابن القيم، 9 / 250.
- 45 - المرجعان السابقان.
- 46 - حاشية ابن القيم، 9 / 250.
- 47 - راجع: أبوزيد، عبد العظيم جلال، فقه الربا، ص524 (بتصرف).
- 48 - راجع: ابن فارس، 64/1، الفيروز آبادي، ص960، الفيومي، المصباح المنير، ص6.
- 49 - الدسوقي، حاشية الدسوقي، 3 / 195.
- 50 - رد المحتار، ابن عابدين، 4 / 244. الدسوقي، 3 / 29.
- 51 - جاء في قرار هيئة كبار العلماء بالسعودية (رقم 10) حول النقود الورقية: "جريان الربا بنوعيه فيها كما يجري الربا بنوعيه في النقدين الذهب والفضة، وفي غيرهما من الأثمان، كالفلوس..". راجع: ع31، ص379.
- 52 - ابن المنذر، أبو بكر محمد بن إبراهيم النيسابوري، الإجماع، ص133.
- 53 - جزء من حديث رواه البخاري، كتاب البيوع، باب ما يذكر في بيع الطعام والحكرة، (ح2027). مسلم في المساقاة باب الصرف وبيع الذهب بالورق نقدا رقم 4143.
- 54 - جزء من حديث رواه البخاري، كتاب البيوع، باب بيع الذهب بالذهب، (ح2066)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب الصرف وبيع الذهب بالورق نقدا، (ح41479).
- 55 - ابن رشد (الحفيد)، محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد، بداية المجتهد، 3 / 208.
- 56 - سبق تخريجه.
- 57 - ابن قدامة، المغني، مرجع سابق، 4 / 219.
- 58 - وراجع (المادة 246) من مجلة الأحكام العدلية، مرجع سابق.
- 59 - الدسوقي، مرجع سابق، 3 / 205، والكاساني، بدائع الصنائع، مرجع سابق، 4 / 181، والشربيني، مغني المحتاج، 2 / 105، 106، 349، البهوتي، كشف القناع، مرجع سابق، 3 / 189.
- 60 - المراجع السابقة، وراجع: مجلة الأحكام العدلية (المادة 248).
- 61 - المراجع السابقة.
- 62 - ابن الهمام، محمد بن عبد الواحد السيواسي، كمال الدين، 6 / 455.
- 63 - الدسوقي، مرجع سابق، 3 / 205.
- 64 - العطاء هو: الذي يعطيه الإمام من بيت المال لمستحقه. راجع: حماد، معجم مصطلحات المال، ص318.
- 65 - ابن قدامة، المغني، مرجع سابق، 4 / 356.
- 66 - جزء من حديث رواه الترمذي في كتاب الأحكام، باب ما ذكر في الصلح بين الناس، (1352)، وقال: حسن صحيح، ورواه أبو داود في كتاب الأقضية، باب في الصلح، (3596)، ورواه الحاكم في المستدرک في كتاب البيوع (2309)، وسكت عنه، لكن الذهبي ضعفه، وأشار ابن حجر في التلخيص الحبير إلى ضعفه، 3 / 398، وقال الألباني: صحيح، 5 / 142.
- 67 - مجلة الأحكام العدلية، (المادة 249).
- 68 - الدردير، الشرح الكبير، 3 / 15، وغيره من المراجع الفقهية.
- 69 - المرجع نفسه.
- 70 - المصري، بيع الاسترجار، مرجع سابق.
- 71 - مالك بن أنس، الموطأ برواية يحيى الليثي، 2 / 650.
- 72 - ابن عبد البر، الاستنكار، 6 / 407-408.
- 73 - راجع: ابن تيمية، المحرر في الفقه، 1 / 298 و المرداوي، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، 4 / 310.
- 74 - ابن تيمية، المحرر، المرجع السابق، الموضع نفسه.
- 75 - النووي، المجموع، 9 / 163-164.
- 76 - المصري، بيع الاسترجار.
- 77 - ابن عابدين، رد المحتار، 4 / 516.
- 78 - التعاطي على قسمين: الأول: أن يلتقط أحدهما بالإيجاب ويقبله الثاني بالفعل لا بالقول. مثل أن يقول: أعطني بهذا الدينار خبزا، فيعطيه الآخر الخبز. ولا يتكلم بشيء فوق الإيجاب هنا بالفعل والقول بالفعل.

- والثاني: أن لا يلتفت أحدهما بشيء مثل أن يدخل الرجل الدكان وفيه أشياء كثيرة مكتوب عليها ثمنها فيأخذ شيئاً ويدفع إلى البائع ثمنه المكتوب عليه دون أن يجري بينهما مكالمة أصلاً.
- وكل واحد من النوعين يعتبر تعاطياً أو معاطاة في اصطلاح الفقهاء. راجع: النووي، المجموع، 163/9.
- 79 - ابن عابدين، رد المحتار، 516/4.
- 80 - راجع: الغزالي، إحياء علوم الدين، 61/2.
- 81 - حاشية الشرواني مع تحفة المحتاج، 217/4.
- 82 - راجع ابن تيمية، المحرر، 298/1.
- 83 - ابن تيمية، نظرية العقد (العقود)، ص 221.
- 84 - ابن تيمية، المحرر، 298-299/1.
- 85 - ابن تيمية، نظرية العقد، ص 165.
- 86 - ابن تيمية، المرجع نفسه، ص 165. راجع: ابن القيم، إعلام الموقعين، 5/4 - 6.
- 87 - ابن القيم، المرجع نفسه.
- 88 - العثماني، محمد تقي، بحث في قضايا فقهية معاصرة، ص 62.
- 89 - المرجع نفسه، ورد المحتار، 529/4.
- 90 - العثماني، مرجع سابق، ص 62 فما بعدها.
- 91 - القره داغي، علي محيي الدين، التعريف بالاستجزار وصوره عند العلماء، موقع علي القره داغي.
- 92 - راجع: المصري، البيع بالتقسيط، ص 54.
- 93 - ابن قدامة، المغني، 177/4.
- 94 - راجع قراره في ذلك رقم 6/2/53 في دورة مؤتمره السادس بجده في المملكة العربية السعودية من 17 إلى 23 شعبان 1410 الموافق 20-14 آذار (مارس) 1990م. مجلة مجمع الفقه الإسلامي عدد 6 ج 1 ص 447-448.
- 95 - راجع: مجلة مجمع الفقه الإسلامي، عدد 6 ج 1 ص 195، فما بعدها. المصري، بيع التقسيط، مرجع سابق، ص 43. الدويش، أحمد بن عبد الرزاق، فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، السعودية، 154/13 - 156.
- 96 - راجع قرار مجمع الفقه الإسلامي رقم 6/2/53 في دورة مؤتمره السادس بجده في المملكة العربية السعودية من 17 إلى 23 شعبان 1410 الموافق 20-14 آذار (مارس) 1990م. مجلة مجمع الفقه الإسلامي عدد 6 ج 1 ص 447-448. راجع: العثماني، مرجع سابق.
- 97 - رواه بهذا اللفظ الترمذي في كتاب البيوع، باب ما جاء في النهي عن بيعتين في بيعة، ح 1152. ورواه النسائي، في كتاب البيوع، ح 4553.
- 98 - سنن الترمذي، كتاب البيوع، باب ما جاء في النهي عن بيعتين في بيعة، 1152.
- 99 - ابن عبد البر، الكافي، 365.
- 100 - راجع قرار مجمع الفقه الإسلامي رقم 6/2/53.
- 101 - سنن أبي داود، كتاب البيوع، باب بيع المضطر، (ح 3384)، وضعفه الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، 94/5.
- 102 - الزرقا، محمد أنس بن مصطفى، نحو معيار اقتصادي لتمييز التمويل بالمداينات الشرعية عن التمويل الربوي، ص 9.
- 103 - راجع: الدسوقي، حاشية الدسوقي، مرجع سابق، 77/3-78. الزيلعي، تبين الحقائق، 16/4. ابن قدامة، المغني، مرجع سابق، 277/4.
- 104 - القوانين الفقهية، ابن جزي، 171/1. مواهب الجليل، الحطاب: 405/4.
- 105 - الدسوقي، الحاشية، 89/3. ابن جزي، مرجع سابق، 407.
- 106 - راجع بيان هيئة كبار العلماء، <http://www.saaaid.net/fatwa/f29.htm>
- 107 - راجع مثلاً: قانون النقد والقرض الصادر في 14 أبريل 1990م. المعدل في 2003م. الجريدة الرسمية الجزائرية، العدد 52. عام 2003م. المادة 68 منه. و الرائد الرسمي للجمهورية التونسية عدد 55 بتاريخ 10 جويليه 2001م، ص 2159.

السياسة الخارجية الروسية تجاه ثورات الربيع العربي بين ازدواجية المعايير و البراءة المزدوجة للسياسة

بهـاز حسين

جامعة ورقلة

والمجلس الانتقالي الى ان سقط القذافي... لكن الأمر اختلف مع الموقف من الحراك السوري الى درجة الوقوف بوجه صدور قرارات عن مجلس الأمن بفرض عقوبات على دمشق، واستعمال حق النقض الفيتو إلى جانب الصين، مما شكل ازدواجية في السلوك تجاه القضايا الواحدة فما هي مرتكزات الموقف و السلوك الروسي من الثورات العربية ؟ و هل يستند ذلك لحسابات جيوسياسية ؟ اقتصادية ؟ أو براغماتية ؟ تملئها ترتيبات الاوضاع الداخلية الروسية ام أن المفارقة في السلوك تستند الى السياسة البوتينية الجديدة ؟ و عليه ستحاول هذه الدراسة الوقوف على هذه التساؤلات و محاولة الاجابة عليها من خلال المحاور التالية :

- تاريخ العلاقات العربية الروسية و الفراغ الاستراتيجي في المنطقة العربية

- السياسة الخارجية الروسية تجاه المنطقة العربية في عهد فلاديمير بوتين
-المواقف الروسية من الحراك العربي : حالة تونس و مصر و ليبيا
-روسيا و الحالة السورية
-التغطية الاعلامية للثورات العربية
-السيناريوهات المحتملة لطبيعة العلاقات العربية الروسية

قبل الخوض في هذه الاشكالية علينا الوقوف على تاريخ العلاقات العربية الروسية للاتسلاخ الثابت والمتغير فيها من خلال المحور التالي : تاريخ العلاقات العربية الروسية و الفراغ الاستراتيجي في المنطقة العربية

1. نبذة عن الاتحاد الفيدرالي الروسي: سنتناول بشكل وجيز اهم المعطيات الطبيعية والتاريخية و السياسية و الاقتصادية الروسية للوقوف على اهمية هذه الدولة على المجال الدولي من خلال أن:

● روسيا هي دولة تقع في شمال أوراسيا،¹ ذات حكم جمهوري بنظام شبه رئاسي تضم 83 كيانا اتحاديا

ان المتتبع لتداعيات الحراك الثوري في الوطن العربي على المستوى الخارجي في ظل ردود الأفعال و المواقف الخارجية المختلفة للعديد من الدول و القوى الإقليمية و الدولية التي حاولت إعادة التوقيع و الاستثمار في كل من الحالة التونسية والليبية والمصرية... برز الموقف الروسي في قراءات وصور مشوشة من الحراك العربي وتداعياته موقف غير واضح المعالم، ولا محدد التوجهات والأهداف، ولا غير قادر على اتخاذ مواقف فاعلة .

و بصرف النظر عن السياسة الخارجية الروسية و مواقفها سواء تعلق ذلك بميراث الحقبة السوفيتية والروسية الحالية تجاه العديد من القضايا العربية المزمنة والحديثة، ثمة صور رمزية غير مفهومة ظهرت في السلوك السياسي الروسي تجاه الحراك العربي و مرد ذلك الى عدم وجود موقف واضح ومحدد تجاه ما يجري، موقف لا مبالي بداية ثم موقف انتظاري وصولا إلى مواقف اتسمت بطابع المواجهة... فمع الوضع في تونس لم يسمع فيه موقفا روسيا ثابتا ، ربما سرعة الوقائع وتداعياتها غير المتوقعة لم يفسح المجال لروسيا بنكوتين موقف محدد مما يجري في ظل تنافس العديد من القوى الإقليمية والدولية الطامحة لإعادة التوقيع و اغتنام فرصة التدخل والاستثمار الأمر الذي افتقدته السياسة الخارجية الروسية، التي كانت الأكثر حيرة تجاه الحراك الثوري المصري ، فقد ظلت العلاقة مع نظام حسني مبارك شبه عادية، وظلت اللقاءات بين المسؤولين الروس والنظام تجري بشكل طبيعي في عز الحراك إلى ان سقط النظام أيضا بشكل فجائي، و المواقف نفسها انسحبت على الحراك البحريني والأردني رغم محاولة روسيا استدراك الأمر مع الحراك الليبي، لكن بأدوات ووسائل لم تمكنها من ترجمة أهدافها وغاياتها و رضخت لتدخل "الناتو" عبر عدم عرقلة صدور القرار 1973 بالامتناع عن التصويت في مجلس الأمن. واكتفت بالمراقبة ومحاولة تقديم المقترحات للوساطة بين نظام القذافي

على السلطة من قبل البلاشفة الشيوعيين يوم 25 أكتوبر 1917... في أعقاب الثورة البلشفية أصبحت روسيا أحد أكبر مؤسسي الاتحاد السوفيتي، وبانت أول دولة دستورية اشتراكية وقوة عظمى معترف بها في العالم، كما لعبت دوراً حاسماً في انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، حيث تكبد الاتحاد السوفيتي خسائر بشرية أكثر من أي طرف آخر أثناء الحرب. شهدت الحقبة السوفيتية بعض أبرز النجاحات التكنولوجية في القرن العشرين بأكمله، ومن ضمنها إطلاق أول راند فضاء بشري في تاريخ العالم. لكن هذه الحال لم تدم طويلاً، فقد تفكك الاتحاد السوفيتي في عام 1991، وتأسست عدة جمهوريات مستقلة بدلاً منه، كان من أبرزها روسيا الاتحادية.

• و عليه فان الحديث عن روسيا في المقام الأول نابع من الوقوف على بعض المعطيات المركزية أهمها ان روسيا التي تعتبر من أكبر الدول مساحة في العالم، و تمتلك سابع أقوى اقتصاد في العالم بعد دخوله اقتصاد السوق، كما وتحتزن روسيا كميات هائلة من الخامات التي تعتبر الأعلى في العالم والمطلوبة للصناعات الحديثة، بالإضافة لصناعة الأسلحة كأكثر دولة منتجة ومصدرة للصناعات العسكرية الأكثر تطوراً في الصناعات العسكرية العالمية، وصلت مبيعاتها للعام 2011 بحوالي 11 مليار دولار و تمتلك روسيا الأسلحة النووية كوريث للاتحاد السوفيتي وأقمار التجسس الاصطناعية ويعتبر جيشها أحد أقوى الجيوش في العالم.⁶ كما تُعد العاصمة الروسية موسكو أكبر مدن روسيا اليوم وإحدى كبريات مدن العالم من حيث السكان، ولا توجد مدن تماثلها في عدد السكان سوى مكسيكو سيتي عاصمة المكسيك وسيؤول عاصمة كوريا الجنوبية، وميناء موسكو الرئيسي هو سانت بطرسبرغ الواقعة على بحر البلطيق و تُعتبر روسيا حادي عشر أكبر اقتصاد في العالم حسب الناتج المحلي الإجمالي، والسادسة من حيث القدرة الشرائية، والخامسة من حيث الميزانية العسكرية . كما أن إن روسيا واحدة من الدول الخمس الوحيدة المعترف بامتلاكها أسلحة نووية في العالم، إضافة إلى أنها تملك أكبر مخزون من أسلحة الدمار الشامل في العالم. يضاف الى انها عضو دائم في مجلس الأمن الدولي التابع للأمم المتحدة، كما أنها عضو في مجموعة الثماني ومجموعة العشرين ومجلس أوروبا ومنتدى التعاون الاقتصادي لدول آسيا

²، لها حدود مشتركة مع 14 دولة³، من حيث المساحة تعد روسيا أكبر بلد في العالم، حيث تغطي نسبة 1/8 من مساحة الأرض المأهولة بالسكان في العالم بمساحة تبلغ 17,075,200 كيلومتر مربع، تمتد روسيا عبر كامل شمال آسيا و40% من أوروبا، كما تغطي تسع مناطق زمنية وتضم طائفة واسعة من البيئات والتضاريس حيث يبلغ طول البلاد من الشمال الى الجنوب أكثر من 4000 كم و من الغرب الى الشرق 10.000 كم، وتمتلك أكبر احتياطي في العالم من الموارد المعدنية والطاقة حيث لديها أكبر احتياطيات العالم من الغابات والبحيرات، التي تحتوي ما يقرب من ربع المياه العذبة في العالم من حيث السكان هي تاسع أكبر دولة من حيث عدد السكان في العالم بأكثر من 143 مليون نسمة .

• بدأ تاريخ روسيا بظهور السلاف الشرقيين كمجموعة معترف بها في أوروبا بين القرنين 3 و 8 ميلادي و في القرن 9 ميلادي تأسست إمارة كييف روس ، واعتنقت المسيحية الأرثوذكسية ديناً لها في عام 988 بسبب تأثير الإمبراطورية البيزنطية، وكانت تلك هي بداية تمارج الثقافتين السلافية والبيزنطية اللتين شكلتا معاً ملامح الثقافة الروسية للألفية التالية. تفتت كييف روس في آخر الأمر إلى عدد من الدويلات الصغيرة، وسقطت معظم الأراضي الروسية في أيدي الغزو المغولي عام 1223، وأصبحت تابعة للقبيلة الذهبية. لاحقاً بدأت دوقية موسكو تُوحّد تدريجياً الإمارات المجاورة لها ونجحت في الاستقلال عن حكم القبيلة الذهبية، وتمكنت من وراثة إرث كييف روس السياسي والثقافي، وبحلول 18 توسعت البلاد كثيراً عبر شن الغزوات والحروب والاستكشاف لتولد بذلك الإمبراطورية الروسية انطلاقاً من موسكو كدوقية و ثالث أضخم إمبراطورية في التاريخ بنفوذها الممتد من بولندا في أوروبا إلى ألاسكا في أمريكا الشمالية...⁴ بين إلغاء القنانة وبداية الحرب العالمية الأولى في عام 1914، ثم أدخل دستور سنة 1906 ومجلس دوما الدولة تغييرات ملحوظة في الاقتصاد والسياسة في روسيا، ولكن القيصر لم يكن مستعداً للتخلي عن الحكم الاستبدادي، أو تقاسم السلطة مما أدى الى قيام الثورة البلشفية⁵ عام 1917 و كان سببها : مزيج من الانهيار الاقتصادي، السأم من الحرب، وعدم الرضا عن النظام الاستبدادي للحكومة، وأنه جلب أول ائتلاف من الليبراليين والاشتراكيين المعتدلين إلى السلطة، ولكن سياساتها الفاشلة أدت إلى الاستيلاء

والمحيط الهادي ومنظمة شانغهاي للتعاون ومنظمة الأمن والتعاون في أوروبا.

2. تاريخ العلاقات العربية الروسية: إذا اردنا استطلاع العلاقات الروسية العربية سنجدنا قد ازدادت باطراد , ففي العهد القيصري لم تستطع روسيا عبر ما أطلق عليه تسمية " المسألة الشرقية" ⁷ النفاذ الى المنطقة العربية بسبب العراقيل التي وضعتها القوى الاستعمارية بالمنطقة العربية ظلت تحت النفوذ العثماني لتنتقل الى الاحتلال العربي و بقيت المنطقة ضمن الأطماع الروسية في إطار استراتيجية رورسيا للوصول الى المياه الدافئة ملتقى الطرق العالمية.... انتقلت العلاقات الروسية فيما بع الى مرحلة التحريض و المساندة في إطار قضايا التحرر العربي في عهد المد الثوري حيث أقيمت علاقات تحالف ضد الاستعمار الغربي العدو المشترك للعرب و الروس على السواء استمرت هذه الفترة فترة الاستقطاب الدولي للعالم الثالث في ظل الحرب الباردة و كانت هذه الفترة الذهبية في العلاقات الروسية العربية لتتأثر بتفكك الاتحاد السوفييتي لاحقا و على مدى السنوات العشر الماضية،

سياسيا: استطاعت روسيا إعادة بناء علاقاتها مع عدد كبير من الدول العربية، تتضمن حلفاءها التقليديين، وفي مقدمتهم سوريا وليبيا والجزائر، والشركاء الجدد، مثل دول الخليج⁸ والأردن. وأصبح لروسيا مصالح حقيقية تسعى للحفاظ عليها وتنميتها، حتي مع تغيير النظم الحاكمة في بعض الدول العربية في عقب الثورات. فروسيا لا تسعى إلى تحقيق مكاسب سياسية أو ممارسة دور أمني أو عسكري ينافس الوجود الأمريكي المكثف في المنطقة العربية، وإنما تسعى إلى شراكة استراتيجية بالمعنى الاقتصادي والتقني، ذات عائد اقتصادي مباشر لروسيا، وعائد تنموي حقيقي لدول المنطقة. و في هذا الإطار، ترتبط المصالح الروسية بثلاثة قطاعات رئيسية، هي: الطاقة (النفط والغاز)، والتعاون التقني في المجالات الصناعية والتنموية، والتعاون العسكري

و يحتل التعاون والتنسيق في مجال الطاقة قمة أولويات السياسة الروسية في المنطقة العربية، وحوله تتمحور الدبلوماسية الروسية والتقارب الروسي مع الدول العربية، لاسيما دول الخليج العربي، وبلي ذلك أوجه التعاون الأخرى، سواء في المجال التقني أو الاقتصادي أو الاستراتيجي العسكري. فقطاع الطاقة يمثل أحد المجالات الأساسية التي تتلاقى فيها المصالح العربية والروسية، وهو جوهر الشراكة العربية-الروسية في

المستقبل والدعامة الأساسية لها، فروسيا تمتلك التكنولوجيا والخبرة اللازمة في مجال الكشف والتنقيب عن البترول واستخراجه، وكذلك في مجال الصناعات البتروكيمياوية، حيث تعد روسيا من أكبر منتجي البتروكيمياويات في العالم من خلال 15 شركة كبرى بفروعها المنتشرة في مختلف أنحاء العالم. وتعد الشركات الروسية، خاصة "لوك أويل" و"غاز بروم"، من كبرى الشركات العالمية العاملة في مجال الطاقة. وهناك العديد من المشروعات التي بدأت بالفعل بين روسيا وعدد من الدول العربية، والتي تعد نواة لتطوير التعاون في هذا المجال، وفي مقدمتها السعودية، ومصر، والجزائر، والسودان، وسوريا، وليبيا.

اقتصاديا: وعلى الصعيد الاقتصادي، تمثل المنطقة العربية سوقا مهمة ذات قوة استيعابية كبيرة للصادرات الروسية من السلع الاستراتيجية والمعمرة، مثل الآلات والمعدات والأجهزة والشاحنات والحبوب. وفي عام 2006، بلغ التبادل التجاري بين روسيا والدول العربية 5.5 مليار دولار⁹. وتأتي مصر والجزائر والمغرب في مقدمة الشركاء التجاريين لروسيا في المنطقة، وعادة ما يميل الميزان التجاري لصالح روسيا بفارق كبير جدا. كذلك، تسعى روسيا إلى تنشيط صادراتها من الأسلحة للمنطقة، ليس انطلاقا من اعتبارات سياسية أو أيديولوجية، ولكن نظرا لما تمثله عوائدها من مورد مهم للدخل القومي، وذلك ليس فقط لحلفائها التقليديين في المنطقة، لاسيما سوريا والجزائر وليبيا واليمن، ولكن من خلال فتح أسواق جديدة في الأردن ودول الخليج العربي، والتي تعد سوقا تقليدية للولايات المتحدة والدول الغربية. وتتعاظم المصالح الاستراتيجية الروسية في الحالة السورية¹⁰، بالنظر إلى الأهمية الاستراتيجية لقاعدة طرطوس البحرية السورية التي تستخدمها القوات البحرية الروسية، والتي تعد قاعدة التموين الوحيدة للأسطول الروسي في منطقة البحر المتوسط. ويضاف إلى ذلك عشرات المشروعات المشتركة التي تم الاتفاق والتعاقد بشأنها، وتقدر قيمة عقودها بمليارات الدولارات، وستتأثر حتما إما بالإلغاء أو التأجيل، نتيجة موجة عدم الاستقرار التي تجتاح الدول العربية. وعلى ضوء التداعيات السلبية المتوقعة لهذه الثورات على المصالح الروسية، أكدت موسكو أنها تريد استقرار الأوضاع في بلدان الشرق الأوسط، لأن أية قلاقل في المنطقة تضر إضرارا مباشرا بمصالح روسيا.

3- العلاقات الروسية العربية في عهد الرئيس بوتين : واقع العلاقات الروسية العربية يدلل انها

هذه القوى على الاستمرار في ذلك، بل على العكس قامت الدول العربية بالتحالف مع الغرب على حساب علاقاتها مع القوى الأخرى ومن بينها روسيا و السياسات الروسية الأخيرة لا تخرج عن محاولة روسيا البقاء على الساحة الدولية، بما يضمن عودتها مستقبلاً إلى ما كانت عليه.

و رغم محاولة روسيا النهوض إلا أنها تصدم بعوائق تحول دون قيامها بدوار مهمة في العلاقات الدولية منها:¹²

● الإنفاق العسكري لا يزال محدوداً حوالي 9/1 الإنفاق الأمريكي

● اعتماد الاقتصاد الروسي على عوائد تصدير المعادن و النفط و الغاز وليس تصدير السلع و الخدمات حيث ل يشكل الاقتصاد الروسي سوى 1.50 % من الناتج الاجمالي العالمي مقارنة مع 25 % بالنسبة للاقتصاد الأمريكي

● تعاني روسيا ثلاث مشاكل من الناحية السكانية وهي انخفاض عدد السكان من 150 مليون نسمة سنة 1991 الى 144 مليون نسمة عام 2002 و يتوقع ان يصل الى 126 مليون عام 2025 و انخفاض في اعداد السكان الشباب اذ يتوقع ان تبلغ الفئة العمرية (25/15 سنة) حوالي 10% من سكان روسيا عام 2025 و الفئة العمرية (40/25 سنة) حوالي 13.8% عام 2025 , و الاله هو توقع حدوث تغيير في نسب التكوينات القومية و الدينية داخل روسيا اذ يتوقع ان يرتفع عدد المسلمين من 30-35 % من اجمالي سكان روسيا عام 2007 الى نحو 45% عام 2030.¹³

غير هذه العلاقات ما فتأت تتحسن على خلفية تناوب الرئاسة الجاري في روسيا حالياً و عودة فلاديمير بوتين الى سدة الحكم و عودة الزيارات المكثفة التي شهدتها موسكو من قبل القيادات العربية خلال السنوات الاخيرة¹⁴, سبقها حصول روسيا الاتحادية على عضوية مراقب في منظمة المؤتمر الإسلامي خلال الدورة 32 لمجلس وزراء خارجية

الدول الإسلامية الذي عقد في جوان 2005 في العاصمة اليمنية صنعاء، والتي شكّلت آنذاك حالة استثنائية غير مسبوقة في المنظمة. وكذلك اعتبار الجامعة العربية سفير روسيا الاتحادية في القاهرة سفيراً لدى الجامعة العربية، ثم تشكيل "مجلس الأعمال الروسي العربي"¹⁵ برعاية السياسي والمستشرق المعروف بفغيني بريماكوف، وتشكيل لجان فرعية بينية للعمل على تحقيق خطوات إيجابية. كما تردد أن التعاون الروسي العربي دخل

شهدت تفعيلاً ملحوظاً على مدى السنوات العشر الماضية بعد إنحصار وتراجع واضح خلال عقد التسعينات من القرن العشرين. فمن ناحية، استطاعت موسكو إعادة إطلاق علاقاتها مع حلفائها التقليديين في المنطقة على أسس جديدة. إلا أن اللافت للانتباه هو التطور غير المسبوق في علاقات روسيا بدول الخليج العربي وخاصة المملكة العربية السعودية بعد عقود طويلة من توقف العلاقات بينهما منذ ثلاثينات القرن الماضي¹¹. ولقد كان وصول الرئيس الروسي ورئيس الحكومة السابق "فلاديمير بوتين" وزيارته المتكررة للمنطقة العربية نقطة تحول في العلاقات الروسية العربية وإذناً ببدء حقبة جديدة في السياسة الروسية تجاه المنطقة تستعيد فيها روسيا مكانتها كفاعل أساسي في شؤون المنطقة وقضاياها التي تتزايد حدة وتعقيداً. و عموماً هناك محددات تربط العلاقات الروسية العربية، والعوامل المختلفة التي تحكم تطورها المستقبلية في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، والتي يمكن إيجازها في ستة عوامل أساسية وهي:

- ١- استعادة روسيا لمكانتها كأحد القوى الكبرى الفاعلة
- ٢- الشراكة الاقتصادية والتقنية
- ٣- الدعم السياسي الروسي للقضايا العربية
- ٤- أفاق التعاون في المجال العسكري
- ٥- الخبرة التاريخية الإيجابية للتعاون العربي الروسي
- ٦- التقارب الديني والثقافي والحضاري بين روسيا والعالم العربي.

4- الفراغ الاستراتيجي في المنطقة العربية : لقد سياسة روسيا الخارجية اتسمت عموماً بعدم الثبات تجاه المنطقة العربية و منطقة الشرق الأوسط، بما فيها القضية الفلسطينية. لكن تدذب السياسة الروسية كان في الاستمرارية، وليس في المواقف. ذلك أن المصالح الخاصة كانت المحدد الأبرز لهذه السياسة. يضاف اليه جملة من المحددات يمكن إجمالها في الآتي:

- المشاكل الداخلية الروسية.
- التحديات الإقليمية
- العلاقات الأمريكية الروسية.
- العلاقات الروسية الإسرائيلية
- بعض التطورات الإقليمية والمحلية منها الثورات العربية .

بالرغم من عدم الثبات في السياسة الروسية من حيث درجة تركيزها أو حداثتها إلا أنها اتسمت بطابع مشترك وهو المحافظة على حد أدنى من العلاقات مع جميع الأطراف. فالعرب لم يقدموا لأي طرف مناكف للسياسات الأمريكية والإسرائيلية أي مقابل حتى يشجعوا

مرحلة جديدة¹⁶، وأن هذه المرحلة ستشمل مجالات جديدة، منها الفضاء الكوني وتكنولوجيات النانو والمجال العسكري الفني والعلمي التقني، بالإضافة إلى الطاقة النووية.

المواقف الروسية من الثورات العربية: حالة تونس

و مصر و ليبيا

في قراءة للموقف الروسي من القضايا العربية المزمنة والحديثة و من الحراك العربي و ما تبعه من ثورات في المنطقة ، ثمة صور رمزية غير مفهومة ظهرت في السلوك السياسي الروسي مرده عدم وجود موقف واضح ومحدد تجاه ما يجري، تجلى بمواقف ذات طابع لا مبالى بداية، مروراً بسياسات انتظارية و وصولاً إلى مواقف اتسمت بطابع المواجهة.

1. روسيا و الحراك الثوري في تونس :

الحديث عن الموقف الروسي تجاه الحراك التونسي يتميز بعدم سماع موقف روسي ذو شأن ، حال دون تبلوره تسارع الوقائع وتداعياتها غير المتوقعة الشيء الذي لم يفسح المجال لموسكو بتكوين موقف محدد مما يجري، رغم ان النظام السابق مثل مادة دسمة لكل القوى الإقليمية والدولية الطامحة لإعادة التوضع و فرصة للتدخل والاستثمار ولو على المستوى الشعبي القابل للاستثمار السياسي اللاحق، الأمر الذي افتقدته السياسة الخارجية الروسية و عن واقع العلاقات الروسية التونسية قبل الثورة يمكن الوقوف على النقاط التالية:

• سياسياً: قيام العلاقات بين الاتحاد السوفيتي

وتونس في 11 جوان 1956 بعد نهاية نظام الحماية الفرنسي، ثم إعلان تونس اعترافها بروسيا في 25 ديسمبر 1991 بعد تفكك الاتحاد السوفيتي غير أن بدء اللقاءات الرسمية في تاريخ العلاقات الروسية التونسية بين رئيسي روسيا وتونس لم يتحقق الى غاية سنة 2000 . ثم تعاقبت زيارات وزراء الخارجية بعد ذلك

• اقتصادياً: شكل مجال إنشاء المجمعات

الكهرمائية في تونس طيلة سنوات أهم أوجه التعاون الاقتصادي التقني الروسي التونسي من خلال انجاز مجموعة من السدود على العديد من الأنهر ، تلا ذلك انتقال التعاون الاقتصادي الى المجال العلمي و التقني، حيث عقدت ابتداء من سنة 1999 و 2003 و 2008 اجتماعات اللجنة الحكومية الثنائية أسفرت عن توقيع اتفاقية حكومية والبرنامج الحكومي في مجال التعاون الثقافي والعلمي، واتفاقية وزارية حول التعاون في مجال التأهيل المهني و يقدر حجم التداول السلعي بين الدولتين في عام 2008 1.71

مليار دولار (805 مليون دولار في عام 2007) وبحسب المعلومات الواردة من الجانب التونسي فان روسيا أصبحت في عام 2008 شريكا ثالثا¹⁷ على الصعيد التجاري الخارجي بالنسبة لتونس، علما ان التصدير الروسي الى تونس يشكل نسبة 95% من التداول السلعي التونسي الإجمالي. فيما بلغ التصدير التونسي الى روسيا 25 مليون دولار فقط... كما أعلن التونسيون رغبتهم في البدء بإنشاء محطة كهروحرارية بقدرة 900 ميغاواط في عام 2010. كما يرتبط التعاون خاصة التعاون في مجال الصحة والسياحة والتعليم

2. روسيا و الحراك الثوري في مصر :

الموقف الروسي الأكثر حيرة كان تجاه الحراك المصري، فقد ظلت العلاقة مع نظام حسني مبارك شبه عادية، وظلت اللقاءات بين المسؤولين الروس والنظام تجري بشكل طبيعي حتى في عز الحراك، إلى ان سقط أيضا بشكل فجائي، وكان روسيا غير معنية و المواقف نفسها كانت مع الحراك البحريني والأردني والجزائري والمغربي. و عن واقع العلاقات الروسية المصرية قبل الثورة المصرية يمكن تسجيل ما يلي : سياسياً: أقيمت العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتي ومصر في 26 اوت 1943 . و بدأ التعاون المصري الروسي في 1948 في مجال القطن المصري و الخشب السوفيتي . وشهدت العلاقة تطورات متلاحقة كان أبرزها بعد ثورة يوليو 1952 حين قدم الاتحاد السوفيتي لمصر المساعدة في تحديث قواتها المسلحة وتشييد السد العالي. كما بلغت العلاقات الثنائية ذروتها في فترة الخمسينات – الستينات من القرن العشرين حين ساعد آلاف الخبراء السوفيت مصر في إنشاء المؤسسات الانتاجية ، وبينها السد العالي في اسوان ومعمل الحديد والصلب وتم في مصر إنجاز 97 مشروعا صناعيا بمساهمة الاتحاد السوفيتي. وزودت القوات المسلحة المصرية منذ الخمسينات بأسلحة سوفيتية. وتلقت العلم أجيال من أولئك الذين يشكلون حالياً النخبة السياسية والعلمية والثقافية في مصر ومن بينهم الرئيس المصري المخلوع حسني مبارك الذي تخرج من احد المعاهد العسكرية السوفيتية.

وعلى الرغم من التوتر الذي شهدته العلاقات في عهد الرئيس المصري الراحل أنور السادات وإنقطاعها تماما بعد اتفاقية كامب دافيد 1978 حتى سبتمبر 1981 فانها بدأت في التحسن التدريجي في عهد الرئيس

نظام القذافي²⁰ والمجلس الانتقالي دون فعالية ملحوظة و بسقوط النظام ظلت خارج خارطة الاستثمار ذات القاعدة الغربية، بانتظار ما يمكن ان تحصل عليه في عمليات مقايضة أخرى.... و حرصت في ذات الوقت على إبقاء قنوات اتصال مفتوحة مع الثوار، في محاولة لتحقيق أكبر قدر ممكن من التوازن، والتأكيد الدائم على نزاهة مواقفها، وحرصها على الاستقرار الداخلي والإقليمي للدول العربية. وذلك بهدف الإبقاء على علاقاتها بالدول محل الثورات بغض النظر عن الطرف الذي سيطر على السلطة ويكون له الغلبة في النهاية²¹...

لكن روسيا اتهمت تصرف التحالف الدولي الذي دخل ليبيا من خلال القرار الدولي بأنها تجاوزت تفويض الأمم المتحدة من تنفيذ مآرب سياسية خاصة لها من أجل أحداث تغييرات جيو – سياسة، رفعت روسيا صوتها بوجه هذه التصرفات الدولية، مرارا من خلال تصريح رئيس الوزراء الروسي فلاديمير بوتين ، والذي ترجم بتصريح ناري: "بان هذه الحرب التي تشن على ليبيا ما هي إلا حرب صليبية فعلية"²² معربة عن خشيتها من تدخل بري في ليبيا، و أن قرار كهذا سوف يدخل ليبيا في دوامة الحرب الأهلية.و كانت روسيا تهدف إلى لعب دور وسيط وتلفت نظر المجلس الانتقالي من أجل استقدامه إليها، ومن أجل لعب إلى دور روسي مستقبلي، فيما بعد رحيل نظام القذافي لان روسيا كانت المصدر الأساسي لترسانة سلاح العقيد من العهود السابقة، إضافة إلى حصولها على امتيازات نفطية، وأشياء أخرى تحاول من خلال العودة للمسرح الليبي بمبادرة و لعب دور مميز في المنطقة العربية من خلال البوابة الليبية والفلسطينية والسورية روسيا و المعضلة السورية

لكن المحير في مواقف روسيا، هي ازدواجية الرؤية والموقف تجاه القضايا الواحدة، وقد تجلى ذلك عبر الموقف من الحراك السوري اذ وقفت موسكو بوجه صدور قرارات عن مجلس الأمن بفرض عقوبات على سوريا، استعملت حق النقض "الفيتو" إلى جانب الصين، وهو موقف ذات دلالات واضحة. فما هي خلفياته ؟ أهى اقتصادية أم مبدئية؟ أم ذات طابع تبادل؟ وما موقع البراغمية من ذلك ؟

تعد المصالح الروسية في سوريا ذات طبيعة سياسية إستراتيجية وعسكرية واقتصادية في جوهرها. ورغم أن من المؤكد أن لدى روسيا مصالح تجارية مع سوريا، إلا أن قيمة هذه المصالح تفوق ذلك

المصالح الروسية في سوريا، كما يذهب العديد من المراقبين، هي الاحتفاظ بقاعدتها العسكرية في ميناء

مبارك.¹⁸ واتخذت دورة مجلس جامعة الدول العربية في سبتمبر 2005 للمرة الاولى في تاريخها قرارا باعتماد سفير روسيا في جمهورية مصر العربية بصفته مفوضا مخولا لدى جامعة الدول العربية... انتقل التعاون بعد ذلك ليشمل العديد من القطاعات مثل صنع قطع الغيار للسيارات والطائرات ومشاريع الطاقة الروسية و في ميدان الطاقة الذرية الموضوع الرئيسي للمباحثات التي جرت في موسكو يوم 25 مارس 2008 بين الرئيسين دميتري ميدفيديف وحسني مبارك وأسفرت عن توقيع اتفاقية حول التعاون في ميدان الاستخدام السلمي للطاقة الذرية... كما تمت في 23 جوان 2009 في القاهرة المباحثات بين الرئيس الروسي دميتري مدفيديف ونظيره المصري حسني مبارك. تم توقيع معاهدة الشراكة الاستراتيجية بين روسيا الاتحادية ومصر ترسم بموجبها اتجاهات التعاون بين البلدين خلال السنوات العشر القادمة.

اقتصاديا: أما بالنسبة للميدان الاقتصادي فقد تقلص نطاق التعاون العملي في التسعينات. ولكن من الملاحظ أنه ينمو باطراد في السنوات الأخيرة. وقد بلغ حجم تبادل السلع والخدمات بين البلدين في عام 2006 حوالي مليار و950 مليون دولار. وبشكل التبادل التجاري منه قرابة المليار و200 مليون دولار. وقد ازداد حجم التبادل التجاري في السنوات الأربع بحوالي 5 امثال . وهو يشكل الآن أكثر من ملياري دولار . وبلغ التبادل السلعي بين البلدين في عام 2008 حوالي 2.065 مليار دولار¹⁹. وتشغل الخامات والمواد الغذائية وزناً نوعياً عالياً في الصادرات الروسية بينما تشكل المنتجات الزراعية والسلع الاستهلاكية البنود الأساسية في الصادرات المصرية.

3. روسيا و الحراك الثوري في ليبيا: مع الحراك الثوري الليبي، حاولت روسيا لكن بأدوات ووسائل لم تمكنها من ترجمة أهدافها وغاياتها الرجوع الى الواجهة و لكن روسيا رضخت لتدخل منظمة شمال الحلف الاطلسي "الناتو" عبر عدم عرقلة صدور القرار 1973 بالامتناع عن التصويت في مجلس الأمن. والذي يقضي بحماية المدنيين الليبيين من بطش قوات القذافي، طبعا كان موقف روسيا موقفا محايدا، من طرفي النزاع، لأنها لم تمتنع من التصويت والتعاون مع الأكثرية الدولية، بشأن ليبيا في مارس 2011 والذي أتاح باستخدام القوة ضد نظام معمر القذافي، واكتفت بالمراقبة ومحاولة تقديم المقترحات للتقريب بين

فداخل سوريا تمثل هذا التحول في نظرة السوريين لروسيا في إندلاع مظاهرات يوم 13 سبتمبر 2011 في بعض المدن السورية تحت شعار "ثلاثاء الغضب من روسيا"، تنديداً بالموقف الروسي الداعم للقيادة السورية والمعرقل للعقوبات الدولية، ورفع المتظاهرون شعارات ضد روسيا منها "لا تدعموا القتل... لا تقتلوا السوريين بمواقفكم"، "النظام يذهب ويبقى الشعب". وفي مشهد لم تألفه الساحة العربية، حتى أثناء الغزو السوفيتي لأفغانستان، أحرق المتظاهرون العلم الروسي في مدينتي حمص ودرعا.

أما خارج سوريا فقد تباينت ردود الفعل الشعبية تجاه الموقف الروسي، ففي الوقت الذي تتعالى فيه أصوات الثوار مطالبة موسكو بدعم نظرائهم في سوريا والكف عن دعم الأسد ونظامه، فإن شرائح لا بأس بها من المواطنين والنخب ترى أن موقف روسيا كان "محترماً"، وأن روسيا لم تسع كالدول الغربية إلى التدخل في الشؤون الداخلية للدول العربية لتحقيق مصالح تخص الغرب وحده على حساب أمن واستقرار الشعوب، وأرواح الملايين منهم.

المواقف العربية تجاه الموقف الروسي: حتى ردود الفعل العربية الرسمية والشعبية إزاء الموقف الروسي فقد تباينت بفعل الانقسام العربي ذاته والكيل بمكيالين الذي اتسمت به المواقف العربية وخاصة الخليجية. ففي الوقت الذي تدخلت فيه دول الخليج لقمع الثورة في البحرين، ودعمت بقوة على عبد الله صالح في مواجهة ثوار اليمن، وكانت مع بقاء مبارك في السلطة في مصر، واستقبلت بن على بعد هروبه من تونس، فإن هذه الدول وقفت موقفاً مغايراً بالكامل في الحالة السورية ومن قبلها الليبية. وفي كل الحالات لم يكن هناك هجوم أو شجب رسمي عربي للموقف الروسي من طرف من الأطراف العربية، بل يمكن القول بأن التزام روسيا الحياد بصفة عامة وتأكيدها رفض التدخل الخارجي في الشأن الداخلي للدول العربية كان محل قبول وتقدير من الدول العربية. فقد رحبت دول الخليج وعدد من الدول العربية الأخرى بالموقف الروسي الذي جاء متنسقاً مع توجهاتها في كل حالة بعينها، ولم يبرز الشقاق إلا في الحالة السورية حيث تباين موقف العرب والروس في ضوء الدعم الروسي لنظام الأسد في مواجهة الضغوط الخليجية والغربية.

أما على الصعيد الشعبي²⁴، فلم يكن الموقف الروسي من الثورات العربية محط اهتمام شعبي واسع النطاق أو مثيراً للجدل إلا في الحالة السورية. فقد انطلقت روسيا من رؤية تميز بين أهمية قيام

طرطوس. حيث تعد قاعدة طرطوس البحرية العسكرية آخر موقع بحري لأسطول روسيا بمنطقة البحر الأبيض المتوسط.

وتعتبر قاعدة طرطوس مرفقا روسيا إستراتيجيا طويل الأمد. فبموجب اتفاقية بين البلدين عام 1971، يستضيف ميناء طرطوس قاعدة روسية للإمداد والصيانة من الفترة السوفياتية تم تشييدها أثناء فترة الحرب الباردة لدعم الأسطول السوفياتي بالبحر الأبيض المتوسط و يتجلى الموقف الروسي في الحالة السورية في كلمات الرئيس الروسي " فلاديمير بوتين" كما جاء في 27 فبراير 2012 عبر صحيفة "موسكو فسكييه نوفوستي" عن سياسة روسيا الخارجية حول ما سمي بـ"الربيع العربي"، المتعاطفة مع ظاهرة الاحتجاجات المتزامنة التي شهدتها العديد من الدول العربية قبل عام فيما سمي بالحراك العربي على أمل "إحداث تغيير إيجابي". وانتقد التدخل الخارجي في النزاعات الداخلية للدول العربية مشيراً إلى أن التدخل في ليبيا وتحت ستار الشعارات الإنسانية وباستخدام القوة أدى إلى الإجهاز على النظام الليبي، ومقتل القذافي. وشدد على أن روسيا لن تسمح بتطبيق السيناريو الليبي في سوريا، قائلاً: "نحن ضد اتخاذ قرارات مثل التي اتخذها مجلس الأمن والتي من الممكن تأويلها كإذن بالتدخل العسكري في العملية السورية الداخلية"، مشيراً إلى أن الالتفاف على أخذ موافقة مجلس الأمن للتدخل من شأنه أن يقوض مصداقية ودور الأمم المتحدة قائلاً إن "حق الفيتو ليس مجرد نزوة، بل هو جزء لا يتجزأ من النظام العالمي"، محذراً الدول الغربية من اللجوء إلى التدخل في سوريا بدون موافقة مجلس الأمن مؤكداً في الحالة السورية على التحلي بالصبر وعقلنة أطراف المواجهة العسكرية لتحقيق المصالحة السورية الداخلية، ووقف العنف من أي جهة كانت، وإطلاق الحوار الوطني من دون شروط مسبقة أو تدخل أجنبي.

ردود الأفعال السورية على الموقف الروسي: في الحالة السورية أبدت روسيا دعماً سياسياً ودبلوماسياً وعسكرياً واضحاً لنظام الأسد في سوريا،²³ ورفضت الدعوة الأوروبية والأمريكية لتتحي الأسد، وأحبطت المساعي الغربية المتكررة لإصدار قرار من مجلس الأمن الدولي يدين سوريا لاستخدام العنف في قمع المتظاهرين، الشيء الذي أفقد روسيا كثيراً من الشعبية التي كانت تحظى بها في الشارع السوري نتيجة مواقفها الداعمة للحق العربي والشرعية الدولية خاصة في القضية الفلسطينية والأزمة العراقية، والأزمة السودانية.

الروسي حتى اليوم يكمن في انقراض النظام السوري، كما ان روسيا حددت شروطها المسبقة لمهمة عنان بأن: على الدول العربية والغربية التي تدعم المعارضة السورية سياسياً وعسكرياً عليها أن تعمل على إقناعها والضغط عليها بقبول مهمة عنان وإلا سوف يستمر الأسد بممارسة عمله في ظل :

- 1- عدم تحديد مهمة زمنية لمهمة كوفي عنان ،حسب تعبير وزير الخارجية الروسي .
- 2- عدم اخذ البنود إلى مجلس الأمن كي لا تجبر المجلس على اقرارها .

بالرغم من تصريح نائب وزير الخارجية الروسية بان وقف إطلاق النار امرًا صعب إذا لم يتم وقف دعم الدول العربية للمعارضة، بالرغم من ان موسكو ترى في مهمة عنان نصراً سياسياً ودبلوماسياً لسياستها التي خاضته ضد المجتمع الدولي وقد استخدمت مرتين حق الفيتو، والسعي الدائم لعرقلة كل القرارات الدولية التي تدين النظام؟ كما ان روسيا التي ترى بان عنان لا يختلف مع موسكو في طرحه وتشخيصه للارزمة السورية وفي البنود الست التي قدمها للدولة السورية وخاصة بان عنان لم يشكل حرجا في عمله اثناء رئاسة مجلس الأمن طوال الفترتين الماضيتين وكذلك عندما كان مندوب دولياً في حل ازمة يوغسلافيا .

روسيا ووساطة الاخضر الابراهيمي : بالرغم من صعوبة الحديث عن مؤشرات هذا التحرك الدبلوماسي الا ان فشل هدنة عيد الاضحى المعلنة لوقف اطلاق النار تضل احدى المسلمات لبداية التحرك باتجاه ايجاد حل يضع حد لتزايد الهوة بين الأطراف المتصارعة ولعل الحكم على نجاح هذه المهمة الصعبة في ظل تعقد خيوطها يضل قائما هذا الوسيط الاممي الذي نجح قبل ذلك من سنة 1988 إلى 1991، في مهمة الوساطة في لبنان من أجل إبرام اتفاقيات الطائف باسم الجامعة العربية التي كان نائب أمينها العام.²⁷

التغطية الاعلامية على الثورات العربية يرى عدد من المحللين السياسيين ان التقنيات المهنية للحروب الاعلامية الحديثة تستخدم من قبل بعض الفضائيات الغربية والعربية ومواقع التواصل الاجتماعي على الإنترنت في تغطية الأحداث في ليبيا وعملية التحالف العسكري للدول الغربية ضد نظام معمر القذافي .والأكثر من ذلك يرى البعض ان التقنيات المصنفة على هذا النوع استخدمت وتستخدم لتأجيج حركات الاحتجاج في تونس ومصر

النظام السوري بإصلاحات حقيقية، وبين الحيلولة دون التدخل الغربي في سوريا والتي سيكون لها تداعيات كارثية ليس فقط على وحدة الكيان السوري وإنما على استقرار وأمن المنطقة كلها.

روسيا و خطة البنود الخمسة لتسوية الأزمة السورية: رغم الاختلاف بين روسيا والغرب فيما يخص الملف السوري وسبل تسوية النزاع على الساحة السياسية الداخلية حظيت الخطة التي طرحت في القاهرة على لسان وزير الخارجية الروسي سرغي لافروف²⁵ باستحسان شركاء موسكو الغربيين، بل وكذلك العرب الذين يقفون في مقدمة الساعين الى تغيير النظام السوري، لاسيما قطر. وتتلخص خطة البنود الخمسة لتسوية الأزمة السورية التي نسقتها روسيا مع جامعة الدول العربية كما رأت الولايات المتحدة ان الخطة تشير الى تغيير ايجابي في موقف موسكو²⁶، فيما تضيق الشقة بين وجهتي النظر الروسية والأميركية بهذا الشأن... الا ان السؤال يطرح نفسه من جهة اخرى: لماذا حظي الموقف الذي دأبت موسكو على إعلانه طوال الأشهر الأخيرة بتفهم لدى الزملاء الغربيين الآن فقط؟ لقد نشأ انطباع وكأن نجاح القوات الحكومية في اقتحام مواقع الجيش السوري الحر في حمص وادلب ، وكذلك عمليات مقاتلي القاعدة في سورية هي التي قادت الى تصحيح مخططات الغرب تجاه التدخل العسكري في النزاع ، وسبل التسوية السياسية لهذا النزاع. لقد اضطرت الدول الغربية وحلفاؤها العرب الى الاعتراف بأن النظام السوري اقوى مما كان يعتبر سابقا. الا ان من المهم ايضا ان تنتقل دمشق من إستحسان خطة السلام الروسية العربية بالأقوال الى تنفيذها بالأفعال. فالعنف يجب ان يتوقف ، ويجب ان لا تستخدم المفاوضات ، ولا مهمة كوفي أنان، لغرض كسب الوقت. وإلا فان دمشق تجازف بشطب جهود الوساطة وتحط من شأن موقف الدول الساعية الى إيجاد حل سياسي مقبول للنزاع في سورية .

روسيا و مهمة كوفي عنان: بالرغم من ان الإيجابية الدبلوماسية التي حاولت روسيا تركها حين استقبلت المبعوث الدولي "كوفي أنان" في موسكو بتاريخ 25 مارس 2012، فقد صرح الرئيس الروسي السابق " ديمتري ميدفيدف" الذي استقبل الموفد الاممي بصراحة : "ان مهمة عنان هي الفرصة الأخيرة لسورية في عدم الذهاب "و الانزلاق " في حرب أهليه، ولم يشدد ميدفيدف على أنها الفرصة الأخيرة أمام النظام السوري للحل، وهذا يعني بأن روسيا لا تزال تراهن على النظام نفسه. لكن الحل

العالم يمرّ الخبر العربيّ دون تركيز عليه وإذا تمّ تناوله يكون من الوجهة الروسية التي تخدم وجهة نظر موسكو أو تعكس وجهة نظر النظام العربيّ الرسميّ وبالتالي لم يحتلّ الإعلام الروسيّ في العالم العربيّ أيّ موقع تنافسيّ مع الإعلام الفضائيّ العالميّ.²⁹ فغياب الاهتمام بالشباب، بوصفهم صانعي الحدث والمعارضين الحقيقيين للتاريخ الجديد لهذه الدول، غيّب المعارضة العربية الجديدة عن القوات الروسية، وغاب معها الهدف الحقيقي الذي تحتجّ هذه الشرائح من أجله، فجاء بثّ الإعلام الروسيّ للأخبار العربية من خلال الوكالات الدولية وبعض المواضيع المسموح بها من قبل الأنظمة الدكتاتورية، فروسيا التي لم تهتمّ بالثورات والأحداث العربية والتغيّرات الكبيرة التي حدثت، لا إعلامياً ولا سياسياً، كانت وإعلامها بعيدة جداً عن قلوب الشباب المحتجين، وغير مرحّب بإعلامها وسياستها التي انتهجتها. وهنا المفارقة بين روسيا الحليف الفعليّ والتاريخيّ لشعوب المنطقة العربية، وروسيا الحالية، التي كانت بعيدة عن هذا الشباب الثائر وبالتالي ضحّت فعلياً بربيع الثورات العربية والتغيير التي تسود المنطقة، مساندة لدكتاتورياتها المتمثلة بدعم هذه الأنظمة القمعية والانتهاكات التي ترتكبها ضدّ شعوبها.

● من جهة أخرى عبرت التغطية الإعلامية للموقف الروسيّ عن التوجه السياسي العام للسياسة الرسمية للدولة بأنّ الذي يحدث في الدول العربية شأن داخليّ، وروسيا لا تتدخل في شؤون الدول المستقلة... لكنّ الواقع كان غير ذلك، فروسيا تعاني من مرض مزمن مع ثورات الربيع الشعبي التي دفعتها عدة مرّات لسحق هذه الثورات بالقوة العسكرية خوفاً على مصالحها الأمنية والعسكرية والإيديولوجية من نجاح هذه الثورات، ابتداءً من ربيع بودبست 1956، مروراً بربيع براغ 1968، وثورات المعسكر الاشتراكي 1990 وانهيّار جدار برلين، واستقلال دول الاتحاد السوفياتي ومشكلة الشيشان والثورات "الملونة البرتقالية"³⁰ في أوكرانيا والوردية في جورجيا ..

● **فرضية الانتقام:** هناك رؤية مغايرة ارتكزت على الطريقة التي غطى بها الاعلام الروسيّ الحدث بطريقة جد عابرة وكأنّ حدث التغيير خبر من القرون الماضية، بالرغم من زيارات المعارضات السورية والليبية واليمنية لروسيا، ومحاولة إعطاء دبلوماسيتها دوراً مميزاً في مسار التغيير العربيّ، لكنّ روسيا لم تجنح لأيّ مبادرة تعمل على تسويقها بين الأنظمة والشعوب، وليس لها سيطرة فعلية على الأنظمة التي تدعم بقاءها ضدّ شعوبها وكأنّ روسيا لا تريد تشفع بل تنتقم أو تتأثر من الشعوب العربية

واليمن وسورية. ومعروف ان وسائل وإمكانيات شن الحروب الإعلامية والدعائية كثيرة، تبدأ بتركيز الأنظار على مواقف احد طرفي المواجهة وطمس مواقف الطرف المقابل، وتنتهي بالتضليل الإعلامي السافر والنداءات التحريضية والتخويف وما إلى ذلك. وتجدر الإشارة إلى ان طرائق الحرب الإعلامية تستخدم عادة من قبل الطرفين المتنازعين كليهما، في محاولة لخلق رأي عام مؤيد لهما وممارسة التأثير الإعلامي النفساني و الحرب النفسية على مختلف شرائح المجتمع والمنظمات الدولية والحكومات، بل وحتى لدفع قوى خارجية معينة للتدخل في السياسة الداخلية للبلد باستخدام القوة. ومن خصائص الأحداث والحركات الاحتجاجية في العالم العربي اليوم استخدام الأساليب العصرية للدعاية والتحريض عبر الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي والرسائل النصية القصيرة، الى جانب الوسائل الإعلامية التي سبق واستخدمت في حروب يوغسلافيا وأفغانستان والعراق. إلا ان السؤال المفصلي الذي يطرح نفسه يدور حول مدى استطاعة التقنيات والوسائل العصرية للحرب الإعلامية على التأثير في تطور الأحداث الثورية الناجمة، في العالم العربي تحديداً.

و عن تعاطي الإعلام الروسي مع الثورات العربية فهناك العديد من وجهات النظر في هذا الشأن بغض النظر عن دعائمها منها:

تأخر روسيا في الإعلان عن مواقفها السياسية والإعلامية تجاه الحدث العربي المتمثل بثورات الضخمة التي من خلال التعاطي السلمي أسقطت عدة رؤساء عرب ولا يزال العديد منهم على المحك، من خلال التحرك والنهوض الاجتماعي والشعبي، فالثورات العربية مثلت حرجاً كبيراً لروسيا وقياداتها التي تضايقت جداً من حدوث هذا الحدث الضخم غير المنتظر في العالم العربي، الشيء الذي قد ينقل العدوى الثورية الى جنوب روسيا ذات الأغلبية الإسلامية رغم رغم انها استطاعت التعامل مع النهج الثوري الشعبي على تخومها في آسيا الوسطى و القوقاز و شرق اوربا، فبعد ثورة الورود في جورجيا عام 2003 والثورة البرتقالية في اوكرانيا عام 2004 و الثورة السلمية الفاشلة في اوزباكستان 2005 ثم تعاقب ثورتين في قرغيزيا 2005 و 2010 هذه الثورات و تأكدت ان وراء هذه الثورات دعما و تمويلا امريكي و غربيا مباشرا²⁸ لذلك لم يقدّم الإعلام الروسي بتغطية إعلامية لهذا الحراك مع العلم بأنّ الحدث الثوري يحتلّ مساحة كبيرة في الإعلام الروسي. الا أن الاستعراض لأحداث

1. **اشكالية النظام الدولي** النابعة من اعتقاد روسيا ان العالم و النظام الدولي منذ تفكك الاتحاد السوفييتي يعيش مرحلة انتقالية مع تسليمها باحادية النظام خلال هذه الفترة لكنها تؤمن بإمكانية العودة من جديد و تجاوز المرحلة³², و لعل أكثر معضلات أزمة النظام العالمي هي ان حالة الانحسار الجيوستراتيجي الروسي خلال العقدين الماضيين جعلها محاصرة بازمت عالمية سواء بسبب الحرب في افغانستان او النزاع الحدودي بين باكستان و افغانستان و او الطلعات الجوية لحلف الناتو المنطلقة من دول البلطيق و بعد القواعد في آسيا الوسطى و تركيا و شرق اوربا فضلا عن استهداف صربيا و مساندة انفصال اقليم كوسوفو³³, و السيطرة العسكرية الأمريكية على حوض البحر على البحر المتوسط والخليج العربي ...و يأتي موقف روسيا في اكتوبر 2011 من خلال استخدام الفيتو في وجه المشروع الأمريكي الاوربي لادانة النظام السوري في مجلس الأمن كان الغرض منه رفض تحويل مجلس الأمن الى ميدان لممارسة الهيمنة الدولية و تحاول روسيا من خلال تنسيق تحالف دولي جديد تمثله مجموعة البريكس BRICS³⁴, خاصة و ان هذه الدول وقفت الى جانب النظام السوري في مجلس الأمن في اكتوبر 2011 حين استخدمت كل من روسيا و الصين الفيتو و ساندتها كل من الهند والبرازيل و جنوب افريقيا بالامتناع عن التصويت. و في هذا الاطار تضع روسيا العالم العربي ضمن دوائر الأمن الاستراتيجي في الدائرة الرابعة بعد القوقاز و مناطق الاقليات الساعية للانفصال داخل البيت الروسي هي الدائرة الاولى بينما تمثل الدول المستقلة عن الاتحاد السوفييتي الدائرة الثانية و تأتي الصين والهند و ايران و تركيا واليونان و البلقان و سوط اوربا في قوس كبير يمثل الدائرة الثالثة. و امام صعوبات الانطلاق جنوبا نحو العالم العربي و الشرق الأوسط اعادت روسيا خلال عام 2010 توجيه سياستها الخارجية نحو محور آسيا المحيط الهادي قصد تنمية الاقاليم المتأخرة من الشطر الآسيوي من روسيا الى الشرق من الأورال و عبر سيبيريا وصولا الى الحدود الصينية و جزر الكوريل و حدود آلاسكا, و كذا الاستفادة من الصعود الاقتصادي الصيني انتقلت الصين عام 2010 لتحل محل ألمانيا كأكبر شريك تجاري مع الاتحاد الروسي فضلا عن فرصة روسيا للحاق التقني بكوريا الجنوبية واليابان .

والإسلامية التي بدعم حركة الاحتجاج التي حدثت في إقليم الشيشان الروسي في العام 1994، والصراخ في المآذن بصوت عال بمناصرات الشعب الشيشاني المسلم، وإمدادهم بالمقاتلين والأموال، لم تنس روسيا أيضا وقوف الشعوب العربية إلى جانب مسلمي البوسنة والهرسك في العام 1993 ضد الصرب، والوقوف مع انفصاليي إقليم كوسوفو الألبان عام 1999. لكن السؤال الذي يطرح نفسه على كافة الشعوب العربية، لماذا تعرض روسيا مصالحها وعلاقاتها في المنطقة العربية للخطر من خلال الوقوف بوجه الشعوب التي هي باقية، والرؤساء يأتون ويذهبون، كما قال مندوب الرئيس الروسي مخايل مرغيلوف أثناء استقباله للوفد السوري المعارض في موسكو بطريقة تكنيكية «لا يوجد لروسيا في العالم العربي صديق سوى الشعوب العربية نفسها».

• **فرضية المؤامرة:** القائلة استنادا إلى تحليل الخبير الاستراتيجي د. فلاديمير بوليفانوف³¹، إن أمريكا وحلفاءها لم يعودوا يكتفون بالسيطرة على منابع النفط، فقط بل يسعون إلى السيطرة على الأراضي الزراعية، وهو سلاحهم في المستقبل، من أجل الاستحواذ على سلاح الغذاء ولاستخراج الطاقة النظيفة البديلة للنفط، خصوصا بعدما حققت البرازيل خطوة عملاقة في هذا المجال، سمحت لها بأن يكون لها نفوذ قوي ودولة محورية في الساحة الدولية. كما لا يستبعد أن تكون خطوة واشنطن ترمي إلى محاصرة المد الصيني الذي يتوسع بشكل كبير في منطقة شمال إفريقيا وحتى الصحراء الكبرى، وهو ما تحسب له أمريكا وحلف الناتو ألف حساب. وتكشف وجهة النظر هذه، بغض النظر عن المعطيات التي استند عليها السيد بوليفانوف، أن روسيا وجدت نفسها الخاسر الأكبر من تغير بعض الأنظمة السياسية العربية والاضطرابات التي تعيشها دول أخرى، بالنظر لكونها كانت تربطها بها علاقات سياسية واقتصادية قوية على غرار سوريا وليبيا، وبالتالي فإن أي تغيير في أنظمتها لا يخدم مصالح موسكو، بل يسمح للولايات المتحدة الأمريكية بوضع موطن قدم ومحاصرة النفوذ الروسي في منطقة شمال إفريقيا بعدما سيطرت على الخليج العربي مستقبل العلاقات الروسية العربية في ظل التحولات الدولية الراهنة

تتطلب الحسابات الجيوسياسية في علاقة روسيا بالعالم العربي خلال العقدين الماضيين من ثلاثة متغيرات و هي إشكالية النظام الدولي , المتغير العسكري , المتغير الديني

و يقر بعض الخبراء الروس في إطار هذا المخطط الاستراتيجي الجديد بأنه ليس لروسيا في العالم العربي سوى قليل من المصالح الاقتصادية و القائمة على سياسة ردود الأفعال على السلوك العسكري الأمريكي دون المبادرة باتخاذ خطوات فعليه.³⁵ من جهة أخرى تتمتع روسيا في هذه السنوات الأخيرة بتحسين في العلاقات مع الولايات المتحدة و يرجع بعض المراقبين ان جزءا من هذا التحسن يعود الى ان اوباما قد استمع لنصائح مستشاريه بشأن كسب الطرف الروسي من خلال غض الطرف و عدم اتهام روسيا بانتهاك حقوق الإنسان في الشيشان مثلا. يضاف الى هذا البعد العالمي في موقف روسيا من الثورات العربية علاقة روسيا بإسرائيل التي تضم حوالي مليون إسرائيلي من أصول روسية و سوفيتية فضلا عن وجود ما بين خمسة الى ستة ملايين أسرة روسية لها أقارب و أصدقاء في روسيا، و يؤكد بعض المحللين الروس عدم الرغبة في عزل إسرائيل خاصة في ظل التعاون الوثيق بين روسيا و إسرائيل في قضايا الارهاب و التهديدات التي تخص الجنوب الروسي و مجالها الحيوي في اسيا الوسطى .

2- المتغير العسكري: تحتل روسيا المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة في تصدير الأسلحة للعالم³⁶ و اذا كان زبائن الولايات المتحدة من خلال صادراتها الموجهة مناصفة بالدول المتقدمة والنامية ، فان زبائن روسيا هم من الدول النامية و بنسبة تبلغ نحو 90%³⁷ و من المفارقات في تجارة روسيا للسلاح في العالم العربي ان نجاح تسويق السلاح متوقف في جزء كبير منه على حملات التخويف و نشر الخوف بين الاطراف المتنازعة في العالم العربي عبر و كالات الاستخبارات بالتقاطع مع جهود الولايات المتحدة في هذا الشأن

و يحتل العالم العربي المرتبة الثانية في محطات استقبال السلاح الروسي بنسبة 15% بعد الدول النامية الاسيوية التي تتلقى نحو 62% من اجمالي الصادرات الروسية من السلاح... كما ان روسيا هي اكبر مورد للسلاح في افريقيا و تحتل المرتبة الثانية في كل من آسيا و امريكا اللاتينية بعد الولايات المتحدة غير ان مكانة روسيا في توريد السلاح للعالم العربي تراجعت بعد انهيار الشيوعية الى المرتبة الرابعة بعد كل من الولايات المتحدة وبريطانيا و فرنسا.³⁸ يضاف الى ذلك عدم وجود مجال للمقارنة بين القدرات البحرية الروسية³⁹ و نظيرتها الغربية و الأمريكية خاصة الأسطول السادس المتواجد في البحر المتوسط منذ اربعينات القرن و الذي يمتد من السويس شرقا الى

خليج غينيا في غرب افريقيا. و بقي طموح روسيا في العالم العربي لا يتعدى الحصول على تسهيلات عسكرية و مستودعات للوقود في مصر في بعض الموانئ مثل بورسعيد و الاسكندرية و البرلس و مطروح⁴⁰، اما في سوريا فكانت اللاذنية الميناء المفضل للسوفييت و كانت عدن الميناء الأكثر إستراتيجية الى جانب ميناء بربرة في الصومال⁴¹.

و لعل القلق الروسي من الخسائر التي سببتها الثورات العربية و البالغة 10 ملايين دولار في مجال التسليح مع كل من مصر و الجزائر و ليبيا⁴²

ففي ليبيا وحدها عقدت روسيا صفقات بنحو 04 ملايين دولار لشراء اسلحة جديدة و تحديث المنظومة التسليحية القديمة و استحوذت شركة غاز بروم على نسبة 33% من حصة شركة الغاز الايطالية

eni في حقول النفط والغاز الليبية و لكن مع اشتعال الأحداث في ليبيا سحب روسيا موظفيها العاملين في مجال النفط ومجال شبكة البنية الأساسية خاصة مشروع إقامة أول شبكة سكك حديدية في ليبيا... لكن بعد نجاح الثوار في دخول طرابلس اكد المجلس الانتقالي رغم شكره لروسيا على عدم استخدامها الفيتو في فرض منطقة حظر طيران فوق ليبيا انه سوف يراجع العلاقات مع روسيا خاصة في مجال لتسليح في اشارة الى التوجه المحتمل الى الدول التي ساعدته على الاطاحة بنظام القذافي فرنسا و بريطانيا ثم ايطاليا و الولايات المتحدة.⁴³

2. المتغير الديني : يبلغ عدد سكان روسيا 145 مليون نسمة يمثل المسلمون منه نسبة 16 الى 17 % اي ما بين 23 الى 25 مليون نسمة الشيء الذي اكسبها مقعد دائم بصفة مراقب في منظمة المؤتمر الاسلامي في الاجتماع 32 لوزراء خارجية المنظمة في صنعاء جوان 2005⁴⁴. و لعل المعادلة الروسية العربية ازدادت تأثرا بالعامل الديني منذ انهيار الاتحاد السوفييتي بداية

• بالحرب الشيشان الأولى 1992-1994 و الثانية 1999-2003 من خلال اتهامات روسيا لدول شبه الجزيرة العربية بتمويل حركة التمرد في الشيشان سواء بالمال او الرجال، و قد تراجع هذا الدعم العربي بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 بعد التهم الموجهة لهذه الدول بتمويل الإرهاب الدولي.

• الحرب في البوسنة الهرسك في 1992 الى 1995 ثم اشكالية استقلال البان كوسوفو 1999 و

العالم العربي الى ان اختفى او كاد عام 1991... و في السنوات الاخيرة تقوم السياسة الخارجية الروسية على مبدأ رد الفعل و تجنب المبادرات الراديكالية هناك من يعتقد أن الموقف الروسي تجاه الحراك الثوري العربي لا يزال يركز على بعد تشكيكي قائم على نظرة روسيا للشعوب العربية على انها لا تزال تحت وطأة القوى الاستعمارية و تتحرك وفق مخططات اجنبية بريطانية وفرنسية وامريكية⁴⁸.

ومن خلال ما سبق يتضح لنا ان موقف روسيا من الحراك الثوري العربي يركز على الدوافع و الكواحب التالية :

1. طبيعة البيئة الداخلية خاصة الهيكل السلطوي في الداخل الروسي الذي يسعى الى فرض قبضة مركزية على الاقاليم التي تسعى للانفصال أو التمرد من خلال سيطرة الحزب بممارسته الشمولية و بالتالي فان قبول روسيا بالديمقراطية سيضعها عرضة الانفصال و التفكك و احتمال نشوب صراعات عرقية و قومية و دينية و حتى مناطقية الشيء الذي قد يؤدي الى تفكك الاتحاد الروسي نفسه

2. خشية روسيا من انتقال عدوى الثورة الى ارضها خاصة ان هذا الحراك الثوري يؤثر مباشرة في الواقع الداخلي الروسي خاصة جمهوريتي تترستان و بشكورتستان في العمق الروسي من جملة المطالب التي ترفعها الجمهوريتين و لكن بصفة سلمية بعيدة عن النهج الصدامي كما كان الحال في الشيشان والقوقاز⁴⁹. بسبب تشابه الدوافع في الداخل الروسي مع واقع التجربة العربية و هذا ما يعكس محاولة روسيا اتباع اساليب عديدة للحيلولة دون انتشار تلك العدوى من خلال اللعب على تشويه الربيع العربي اعلاميا و اعتباره عملا انقلابيا و صراعا بين مؤيدين و معارضين للرؤساء العرب

3. تعتقد روسيا ان السياق الذي اندلعت فيه الثورات العربية يعبر بوضوح عن أزمة المخطط الأمريكي في عملية نشر الديمقراطية عن طريق فرضها⁵⁰ مع الجهل بالمعطيات الاجتماعية و الاقتصادية للشعوب العربية و عليه تتحرك روسيا تجاه الثورات العربية بحذر لاعتبارات عديدة تسعى لتحقيق التوازن بين كل من الانظمة العربية الحاكمة و اسرائيل و الولايات المتحدة الامريكية

4. عدم رغبة روسيا في ان ينتهي الربيع العربي بوصول قوى اسلامية اصولية قد تنشأ بيئة اقتصادية و اسلامية تهدد تخومها في القوقاز و آسيا الوسطى، اضافة الى أن تعاطي روسيا مع الثورات العربية يأخذ بعين الاعتبار الوزن الديمغرافي و

الضربة الاطلسية لصربيا الحليف التقليدي لروسيا و المحاور التقليدية في البلقان

• الغزو الامريكي الانجليزي للعراق في 2003⁴⁵ و التعاطف الاسلامي الكبير في الداخل الروسي مع الشعب العراقي المتوافق مع الموقف الرسمي الروسي الذي تحكم في عدم الانخراط في جر روسيا الى الازمة رغم ما توارته وسائل الاعلام بالقضاء القبض على متطوعين شيشانيين وداغستانيين في البصرة وبغداد

• تعاطي روسيا مع ازمة الرسوم الدانماركية المسيئة للرسول (صلى الله عليه وسلم) في اكتوبر 2005 من خلال انتقادها للدول الغربية التي نشرت الرسوم وطالبتها بالاعتذار و فرضت روسيا حضرا اعلاميا على اعادة نشرها في الصحف الروسية احتراما لمشاعر مواطنيها المسلمين⁴⁶

• لكن هذا الحرص الروسي على ضبط العلاقة بين العالمين العربي و الاسلامي لم يكن موفقا في موقف روسيا من حرب الابداء على سكان غزة المحاصرين في ديسمبر /جانفي 2009 و رغم تطلع العالم العربي الى موقف يخفف من حجم الكارثة الا ان موقف روسيا لم يكتفي باغماض العين فقط بل بالتصريح بانها تشعر بالقلق تجاه الصور المفزعة التي تشاهدها في غزة ولكنها تتفهم في نفس الوقت حق اسرائيل في الدفاع عن النفس⁴⁷. السيناريوهات المحتملة لطبيعة العلاقات العربية الروسية: الى غاية نهاية سنة 2011، حافظت روسيا على موقف بدأ سلبي و متحفظا تجاه الحراك الثوري العربي، ثم تحول على نحو براغماتي مع تحقيق القوى الثورية نجاحات، الى طريق اقل تشددا في الوقوف مع الانظمة العربية الحاكمة، و ان تباين هذا الموقف من خلال :

- عدم الاكثارات في الحالة اليمنية
- المتابعة المتروكة في الحالة التونسية
- المراقبة بقلق و حذر في الحالة المصرية
- المراوغة و الشجب في الحالة الليبية
- الرفض القاطع لاي تدخل دولي مع المطالبة بإصلاحات داخلية عاجلة في الحالة السورية

و لعل المراجعة التاريخية للعلاقات العربية الروسية التي تمتد اكثر من الف عام سيجدها انها اتسمت بفترات مد و جزر و كان اكثرها وضوحا في خمسينات و ستينات القرن العشرين من خلال مساهمة روسيا في تطوير البنى الأساسية في العالم العربي في العديد من المجالات فضلا عن دورها الثقافي البارز...و يعتبر عقد السبعينات بداية خط متصل لتراجع الدرو الروسي في

إلى جانب إنشاء صناعات جديدة مشتركة بين روسيا وعدد من الدول العربية، من أهمها إنشاء مجمع سيدي البراق الكهرومائي الضخم في تونس بمساعدة روسيا عام 1999، وعدد آخر من المنشآت المائية. أيضا هناك مشروع خط سكة حديد بين مدينتي سرت وبنغازي الليبيين بطول 500 كيلو متر وتكلفة تقديرية 2.2 مليار دولار، والعديد من مشروعات الاستثمار المصري-الروسي المشترك في صناعات الدواء والسيارات والطائرات وغيرها

2- السيناريو الثاني : هناك من يهين من مستقبل المصالح الروسية في المنطقة العربية نظرا للعديد من العوامل منها مثلا:

- فيما يخص النفط و الغاز مصالح روسيا تتعارض مع مصالح المنطقة العربية كمصدر للنفط، وبالتالي هذا يطرح العلاقة التنافسية كون ان الدول العربية لها مصلحة أن ترتفع أسعار النفط والغاز كي تستطيع أن تصدر بشكل أكبر مثلا .

- هناك من يرى أن تصدير السلاح أصبح من الأدوار القديمة ومن المصالح القديمة حيث كان الاتحاد السوفيتي السلاح الى يصدر إلى سوريا إلى العراق و إلى مصر إلى الجزائر... اليوم حتى مع بعض التصدير للأسلحة الخفيفة والصواريخ تغير التوجه الروسي لتصدير السلاح إلى دول في آسيا، إلى الصين، إلى تايلاند، إلى مناطق أخرى

- من الناحية السياسية لم نعد أيضا أمام معادلة الثنائية القطبية من ناحية الصراع بين المعسكر السوفيتي أو المعسكر الروسي والمعسكر الأمريكي، فعليا هناك دولة مهيمنة هي الولايات المتحدة قامت بتقويض روسيا و أزلت عنها دورها حتى في محيطها بعد أن تموقع الولايات المتحدة في قواعد في المحيط الروسي

و تبقى الصين أوفر حظا من روسيا للعب دور القوة العظمى القادمة و هذا نسبيا في ظل علاقاتها المعقدة بالولايات المتحدة وعلى ضوء هذا السيناريو كيف يمكن الدول العربية أن تساعد روسيا في أخذ دور على الساحة العالمية لكن الأكيد أن روسيا عائدة إلى النظام الدولي بقوة ولو كانت تلك العودة فيها نوع من التدرج كما يجمع العديد من المختصين في الشؤون الدولية في ظل مسلمة واضحة هي أن المنطقة العربية ومهما بلغت حالتها العامة من عدم التنسيق المشترك فإنها تبقى مجالا إستراتيجيا لا يمكن لدولة عظمى مثل روسيا إلا أن تنسق معه , و بالتالي تبقى تصورات مستقبل العلاقات الروسية العربية قائمة الارتباط المصلي و الشراكة و الطرح الواقعي و المصالح الاستراتيجية و ليس من

الاقتصادي لمسلمي روسيا الذين يمثلون نحو 17 % من اجمالي السكان

5. لا تملك روسيا القدرات العسكرية البحرية التي تمكنها من ادارة متوازنة للصراع في المياه الإقليمية للعالم العربي في ظل سيطرة الأساطيل الأمريكية على كل من شرقي البحر المتوسط و الخليج العربي.

6. يبدو ان المعلم الاساس للسياسة الخارجية الروسية البراغمية السياسية بعد تخليها منذ سقوط الاتحاد السوفيتي عن الرسائل الايديولوجية و مبادئ الماركسية المنادية بثورة الشعوب⁵¹ و عليه تطرح جملة من السيناريوهات حول آفاق العلاقات الروسية العربية في ظل هذه التحولات الدولية:

1- السيناريو الأول: يعتقد أن هناك آفاق رحبة للتعاون و الشراكة الروسي-العربي في مجالات الطاقة النووية وتكنولوجيا الفضاء وتطوير البنية الصناعية العربية، وهو التعاون الذي بدأ بالفعل علي نطاق محدود لا يتفق مع احتياجات الدول العربية، ولا مع ما يمكن أن تقدمه روسيا من دعم تقني في هذا المجال. ومثال ذلك الاتفاق بين روسيا وليبيا في عام 1997 علي تطوير مركز الأبحاث النووية في تاجورا غرب طرابلس، وتوقيع اتفاقية خاصة بالاستخدام السلمي للطاقة النووية في مارس 2008 بين مصر وروسيا، وبين روسيا والأردن في مايو 2009 لإنشاء المفاعلين النوويين الصناعي والتجريبي في الأردن.⁵² يضاف إلى هذا التعاون القائم بين روسيا وعدد من الدول العربية في مجال تكنولوجيا الفضاء، أهمها الجزائر والسعودية والمغرب، ويتضمن ذلك إطلاق أقمار صناعية للاتصالات والملاحة والاستشعار عن بعد بواسطة صواريخ روسية. وقد تم في هذا الإطار إطلاق القمر الصناعي الجزائري "ألسات-1" في نوفمبر 2002، وكذلك إطلاق سبعة أقمار صناعية سعودية بواسطة الصواريخ الروسية إلى مدار حول الأرض، وهناك اتفاق بين البلدين على مواصلة التعاون في هذا المجال.

كما اتفقت وكالة الفضاء الفيدرالية الروسية ومؤسسة الإمارات للعلوم والتقنية المتقدمة عام 2007 علي بدء العمل المشترك في مجال استثمار الفضاء لأغراض سلمية، وإطلاق جهاز فضائي إماراتي للاستشعار عن بعد من مطار بايكونور عام 2008. ولروسيا أيضا دور متزايد وملحوظ في تنمية البنية الصناعية في العديد من الدول العربية، وتحديث البنية الصناعية التي شيدت في فترة الاتحاد السوفيتي،⁵³ هذا

خاتمة هذه الورقة تنطلق من مقولة الرئيس الجزائري الراحل هواري بومدين الذي يقول "إن صداقة أمريكا تحرق وعداوتها تقتل"، والحقيقة أن هذا القول إذا كان يصدق بشكل لافت على الولايات المتحدة، من منطلق أن الصداقات بين الدول لا يمكن أن تتحقق إلا على أساس راسخ من الندية، وهو ما لم يتوافر حتى الآن لأي طرف عربي في علاقته بالولايات المتحدة . فإنه يصح أيضاً وبالقدر نفسه على علاقات الدول العربية بمختلف القوى الدولية الأخرى، ومن بينها روسيا والصين، لأن معاداة دولة مثل روسيا التي تمتلك حدوداً قريبة جداً مع قوى إقليمية في المنطقة مثل إيران وتركيا، يسهم في إضعاف المنطقة العربية أمنياً خاصة أن أغلبية الأطراف العربية باتت مقتنعة أن دول أوروبا الشرقية التي انتقلت إلى دائرة النفوذ الأمريكي، أصبحت تشكل القاعدة الخلفية للنشاط الصهيوني في المنطقة العربية، فقد أثبتت التحقيقات الأخيرة التي أجرتها السلطات المصرية أن التمويل الأجنبي الذي تقدمه الولايات المتحدة لمنظمات المجتمع المدني المصرية، يتم عن طريق تنظيمات غير حكومية متمركزة في دول من أوروبا الشرقية، وليس من مصلحة العرب أن تتحول روسيا بكل ثقلها الاقتصادي والبشرية إلى جزء من المنظومة السياسية الغربية.... و خلاصة القول إن روسيا لديها رؤية إيجابية لإمكانيات التعاون مع الدول العربية، ولديها رغبة في تقديم مساعدة للدول العربية في حالة وجود صيغة واقعية تستند على المصالح المشتركة، ويمكن لروسيا أن تمثل شريكاً أساسياً في تحقيق بعض الأهداف العربية ذات الأهمية سواء بالنسبة لكل دولة على حدة أو لمجمل الدول العربية، لكن على الدول العربية أولاً فهم معطيات هذا التعاون، من خلال عملية إعادة إدراك وجود إمكانيات حقيقية لدى روسيا يمكن استناداً عليها إرساء علاقات قوية، تدعم قطاعات حيوية داخل الدول العربية، وليس المقصود بذلك القطاعات العسكرية فقط، كما يجب تحديد ما الذي تريده الدول العربية بالضبط، وكيف يمكن إقامة علاقات التعاون على النحو الذي يحقق مصالح الطرفين العربي والروسي.

باب المجاملة و هنا يمكن التمييز بين اوجه هذه العلاقة من خلال المسلمات التالية:

أولاً : المسلمة السياسية و الاقتصادية

- تفعيل التعاون التجاري و المالي بين الطرفين.
- ضرورة توجيه الاستثمار العربي نحو روسيا.
- تنظيم مؤتمرات على مستوى صانعي القرار بشأن العلاقات العربية الروسية لبحث هذه المسألة مباشرة.⁵⁴

- تأسيس قاعدة مشتركة عبر التمثيل البرلماني لوضع التشريعات الملائمة والأسس القانونية التي تخدم تطوير العلاقات بين الطرفين.

- تنشيط عمل مجلس الأعمال الروسي العربي⁵⁵

ثانياً : المسلمة الثقافية و الاعلامية

- تعزيز "الدبلوماسية الشعبية" هروبا من البيروقراطيات الرسمية التي قد تعرقل الرغبة في التواصل بين الطرفين.

- تنشيط دور الجمعيات الأهلية و المنظمات غير الحكومية و البرلمانات من اجل مد الجسور بين الطرفين.

- الاعتماد على فكرة العلاقات العامة للوصول إلى صانع القرار الروسي و التركيز على الهيئات الشعبية لا سيما البرلمانية منها مسؤولية هذه المهمة

- السعي إلى تقارب إعلامي حيث تقوم وسائل الإعلام لدى الطرفين بدور في التقريب و التفاعل.

- بلورة منتديات للحوار و التقارب الإعلامي و مد جسور التعاون مع العالم العربي في المجالات الثقافية و الأكاديمية و البحثية.

- تنشيط الترجمة من الروسية إلى العربية والعكس.

- الاستفادة من التجربة الروسية الناجحة في التعايش المشترك بين القوميات و الإثنيات التي تضمها روسيا على مساحة جغرافية واسعة⁵⁶.

- الاستفادة من وجود ما يناهز 25 مليون مسلم بروسيا يمثلون عمقا إستراتيجيا للعالم العربي.

- إقامة مراكز بحث مشتركة و تكوين مرجعية لخريجي الجامعات الروسية في العالم العربي.

خاتمة:

الهوامش :

1 - لمى , مضر جريء الامارة , " المتغيرات الداخلية والخارجية في روسيا الاتحادية و تأثيرها على سياستها تجاه منطقة الخليج " . ابو ظبي : مركز الامارات للدراسات و البحوث الاستراتيجية , الطبعة الاولى , 2005, ص16.

- 2 - يتألف الإتحاد الروسي من 83 كياناً فدرالي: 21 جمهورية معظمهم يتمتعن باستقلال ذاتي في شؤونهم الداخلية. وغالباً ما تمثل كل جمهورية مجموعة عرقية واحدة أو أكثر. 46 أوبلاست (أقاليم)، 9 كرايات (مقاطعات)، 4 أوكروجات (منطقة ذات استقلال ذاتي)، ومدينتين فدراليتين.
- 3 - تحدها كل من النرويج وفنلندا وإستونيا ولاتفيا وليتوانيا وبولندا عن طريق كالمينغرادسكايا أوبلاست (روسيا البيضاء وأوكرانيا وجورجيا وأذربيجان وكازاخستان وجمهورية الصين الشعبية ومنغوليا وكوريا الشمالية. كما أن لديها حدوداً بحرية مع اليابان في بحر أوخوتسك والولايات المتحدة عن طريق مضيق بيرينغ والاسكا وجزر اليوشين.
- 4 - ألغيت القتالة الروسية في عام 1861، إلا أن إلغائها تم تحقيقه بشروط غير مواتية للفلاحين وأدت إلى زيادة الضغوط الثورية.
- 5 - جورج شكري كتن، "العلاقات الروسية العربية في القرن العشرين و آفاقها". دراسات استراتيجية، العدد 53، أبو ظبي: مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، الطبعة الاولى 2001، ص 19.
- 6 - تم تقدير عدد سكان روسيا لأكثر من 142 مليون نسمة ... إحصائيات أواخر العام 2011
- 7 - جورج شكري كتن، نفس المرجع، ص 11.
- 8 - إن روسيا تنظر إلى دول الخليج، لا سيما السعودية، كحليف لها في سوق الطاقة العالمية، وليس منافساً حيث يتم التنسيق والتعاون بين روسيا والدول العربية في مجال الطاقة في إطار محورين أساسيين، أولهما: الحفاظ على استقرار السوق النفطية وضمان حد أدنى لأسعار النفط، وذلك من خلال التحكم في حجم الإنتاج، خاصة أن روسيا تشارك في اجتماعات أوبك كمرقب. ثانيهما: الاستثمارات الروسية في قطاع النفط العربي والإقبال الشديد من جانب شركات النفط الروسية على الاستثمار في قطاع النفط في الدول العربية، من خلال المشاركة في عمليات البحث والتنقيب وتطوير الإنتاج.
- 9 - نورهان، الشيخ، "السياسة الروسية تجاه المنطقة بعد الثورات العربية: مصالح ثابتة ومعطيات جديدة". السياسة الدولية، العدد: فيفري 2012، ص. القاهرة: مركز الاهرام للدراسات الاستراتيجية، ص 12
- 10 - أشار وزير الخارجية الروسية لافروف إلى أن سوريا من أهم الدول في الشرق الأوسط، وأن زعزعة الاستقرار هناك ستكون له عواقب وخيمة في مناطق بعيدة جداً عن سوريا نفسها. فروسيا ترى أن سوريا بمثابة "حجر زاوية" في أمن منطقة الشرق الأوسط، وعدم استقرار الوضع فيها أو نشوب حرب أهلية سيؤدي بدوره حتماً إلى زعزعة الوضع في بلدان مجاورة، خاصة في لبنان، ويؤدي إلى صعوبات في المنطقة كلها، وتهديد حقيقي للأمن الإقليمي.
- 11 - نورهان، الشيخ، "محددات وآفاق العلاقات الروسية - العربية في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين"، دراسات شرق اوسطية، مركز دراسات الشرق الأوسط بالتعاون مع المؤسسة الأردنية للبحوث والمعلومات، العدد 53، خريف 2010، ص 54
- 12 - عباس خضر، عطوان، "سياسة روسيا العربية والاستقرار في النظام الدولي"، المجلة العربية للعلوم السياسية، العدد 20، خريف 2008، القاهرة: مركز الاهرام للدراسات الاستراتيجية، ص:
- 13 - ممدوح، طه، "تحت ظلال الحرية الدينية الجديدة في روسيا.. المسلمون قادمون"، آراء حول الخليج، العدد 38، نوفمبر 2007، ص 73-74
- 14 - من هذه الزيارات لكبار المسؤولين من الأقطار العربية لموسكو. زيارة العاهل الأردني الملك عبد الله الثاني والرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة ووزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل ووزير الخارجية العراقي هوشيار زبياري والسياسي اللبناني المعروف وليد جنبلاط
- 15 - يلعب مجلس الأعمال العربي الروسي، والمجالس الثنائية العاملة في إطاره، دوراً كبيراً في تفعيل الاتصالات الاقتصادية بين روسيا والعالم العربي ويساعد نشاط هذه المجالس رجال الأعمال الروس والعرب على تقليص كبير في الجهود والنفقات المرتبطة بدراسة الأسواق والتأكد من الميادين الأكثر جاذبية بالنسبة للاستثمارات وإقامة الاتصالات مع الزبائن والشركاء.
- 16 - هذه المرحلة يحاول فيها الطرفين تأمين الإستقرار وتطوير التعاون المتبادل النفع. الأمر الذي يتجلى في العلاقات الثنائية وفي نشاط روسيا ضمن اللجنة الرباعية للوساطة الدولية في الشرق الأوسط، وكذلك في التعاون المتزايد بين روسيا وجامعة الدول العربية.
- 17 - نبذة عن العلاقات الروسية - التونسية، سلسلة تقارير بشأن العلاقات الروسية العربية، قناة روسيا اليوم www.rt.today-arabic.com
- 18 - حيث تم تطبيع العلاقات الروسية المصرية في كافة المجالات. وكانت مصر في طليعة الدول التي أقامت العلاقات الدبلوماسية مع روسيا الاتحادية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي عام 1991. وتتطور العلاقات السياسية على مستوى رئيسي الدولتين والمستويين الحكومي والبرلماني. وجاءت الزيارة الرسمية الأولى للرئيس مبارك إلى روسيا الاتحادية في سبتمبر

- 1997، تلتها زيارتين عام 2001 و 2006 أعدت خلالهما البرامج طويلة الأمد للتعاون في كافة المجالات كما قام الرئيس فلاديمير بوتين بزيارة عمل الى القاهرة في 2005
- 19 - نبذة عن العلاقات الروسية - المصرية، سلسلة تقارير بشأن العلاقات الروسية العربية، قناة روسيا اليوم www.rt.today-arabic.com
- 20 - دعم روسيا لنظام القذافي كان بشكل خجول و قائم على قاعدة المصالح الاقتصادية وعقود السلاح و عقود استثمار النفط وغيره البالغة 04 مليارات دولار.
- 21 - نوهان، الشيخ، "وجهة نظر روسيا في عيون العرب"، دراسة بتاريخ الأربعاء، 8 فبراير 2012، شبكة الاخبار bbc، تقارير خاصة على الموقع : www.bbc.com
- 22 - نفس المرجع، ص 2.
- 23 - رغم تكرار دعوتها للقيادة السورية لوقف العنف ومواصلة إجراء إصلاحات سياسية واجتماعية عميقة، بل والتحذير الذي أعلنه الرئيس مديفيد من أن روسيا قد تغير موقفها تجاه دمشق في حال فشل الرئيس الأسد في إقامة حوار مع المعارضة، وأن "مصير محزن ينتظر الأسد اذا لم يبدأ حوارا مع المعارضة ويباشر الإصلاحات".
- 24 - نورهان الشيخ، نفس المرجع
- 25 - حذر وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف من ان تسليح المعارضة السورية سيؤدي الى قتال دموي يستمر لسنوات طويلة. واعتبر ان المعارضة السورية لن تهزم الجيش السوري النظامي حتى لو دجبت بالاسلحة...انظر وكالة اتار تاس افروف: المعارضة السورية لن تهزم الجيش السوري حتى لو دُجبت بالأسلحة، قناة روسيا اليوم، www.rttoday-arabic.com
- 26 - في هذا الصدد قالت فكتوريا نولاند، " المتحدثة باسم الخارجية الأميركية، إن من المهم بخاصة أن تسعى موسكو وبكين الى النأي بنفسيهما عن بشار الأسد، وتتاديان بوقف العنف".
- 27 - في عام 1993 تم تعيين الابراهيمي مبعوثا خاصا لمنظمة الامم المتحدة بالزائير حيث قام بعدد من الزيارات للإسهام في مساعدة بلد مشلول تماما. بعد هذه المهمة، عين لخضر ابراهيمي مبعوثا خاصا لمنظمة الأمم المتحدة على رأس بعثة لمراقبة الانتخابات التي وضعت حدا لنظام الميز العنصري هناك. وفي نفس السنة، عين مبعوثا خاصا للأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة باليمن بغرض المساعدة في وضع حد للحرب الأهلية التي كانت قائمة هناك. في 1996، عين لخضر ابراهيمي ممثلا خاصا لمنظمة الأمم المتحدة بهابتي حيث كانت الأمم المتحدة تسعى لمساعدة هذا البلد على النهوض من العواقب التي خلفتها دكتاتورية دوفاليي والعسكريون الذين أطاحوا بالرئيس أريستيد. من 1997 إلى 1999، عين مبعوثا خاصا لمنظمة الأمم المتحدة بأفغانستان إلا أنه استقال في شهر سبتمبر 1999 بسبب قلة الاهتمام الذي كان مجلس الأمن يبدية بشأن الأزمة في أفغانستان. ودائما في إطار الأمم المتحدة، مارس لخضر ابراهيمي، من 1999 إلى 2001، مهام نائب أمين عام مكلف بالبعثات الخاصة لدعم مساعي حفظ السلام. وقد قادته شهرته الدولية، سنة 2000، إلى رئاسة لجنة من الشخصيات كُلفت بالتفكير حول عمليات حفظ السلام وإعداد تقرير عرف بـ "تقرير ابراهيمي". وبعد سقوط نظام طالبان، عين لخضر ابراهيمي، من جديد، ممثلا خاصا للأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة بأفغانستان حيث أشرف على عمل المنظمة الأممية في إعادة بناء الدولة الأفغانية. وفي فيفري 2004، قيل، على مضض، مهمة مؤقتة لحساب منظمة الأمم المتحدة بالعراق التي سرعان ما انسحب منها، في شهر ماي من نفس السنة. ومن 2004 إلى 2005، صار لخضر ابراهيمي مستشارا خاصا للأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة إلى غاية استقالته منها في 31 ديسمبر 2005
- 28 - عاطف معتمد عبد الحميد، " روسيا و العرب اوان البراغماتية ونهاية الايديولوجيا". سلسلة تقييم حالة (روسيا و الربيع العربي)، نوفمبر 2011، الدوحة: المركز العربي للابحاث و دراسة السياسات، ص: 16.
- 29 - هنا لابد من التذكير بكلام الرئيس الروسي «ديميتري ميدفيديف» أثناء مؤتمره الصحافي الذي عقد في منتصف تموز 2011 في هنوفر، أثناء اللقاء السنوي بالمستشارة الألمانية: «لقد أن الأوان لروسيا لبناء تلفزيون اجتماعي عام بعيد عن سيطرة الدولة وتأثير الرأسمال الخاص، فالتلفزيون الجديد يجب أن يتم تمويله من قبل المواطنين دافعي الضريبة. فالإعلام الروسي إذاً، خرج عن دوره الإعلامي، وممارسة الإعلام السياسي، لذلك لم تستطع "قناة روسيا اليوم" من المنافسة في العالم العربي الذي يعج بالمشاكل والتطورات السريعة، فكانت روسيا وقتاتها تبتعد عن العقول والقلوب العربية يوماً بعد يوم من خلال تغطياتها
- 30 - نومكن، فيتالي، "العلاقات الروسية مع اوربا و الولايات المتحدة الامريكية". سلسلة محاضرات الامارات، العدد: 99، ابو ظبي: مركز الامارات للدراسات و البحوث الاستراتيجية، الطبعة الاولى، 2006، ص 14.
- 31 - وقد كشف ذلك الدكتور فلاديمير بوليفانوف، هو نائب رئيس الحكومة الروسية سابقا و خبير استراتيجي كبير، في حوار مع صحيفة "كومسومولسكايا برافدا" مشيرا الى أن الولايات المتحدة هي من افتعلت الثورات العربية لاحتلال أراض خصبة في

الصحراء الكبرى، في إشارة إلى الثورات التي شهدتها عدة دول عربية. و حسب تحليل فلاديمير بوليفانوف، فإن الصحراء سوف تتحول من كونها أرضاً قاحلة حالياً إلى واحة زراعية مزدهرة، يحصد سكانها عدة محاصيل في السنة و أن معظم الدول التي شهدت و ستشهد قلاقل واضطرابات كما مان الحال في تونس ومصر والسودان وليبيا أو التي سيأتي عليها الدور حسب توقعاته المستقبلية،كالجزائر والمغرب وموريتانيا واليمن وسوريا والبحرين ستعرف هي الأخرى "تغيرات مناخية"

32- يفغيني بريماكوف، ترجمة عبد الله حسن، "العالم بدون روسيا.. قصر النظر السياسي و عواقبه"، دمشق: دار الفكر، 2010، ص 17-35

33 - Jean-Arnault Dérens, «Kosovo : L'indépendance, Et Après», Monde Diplomatique, février 2008, p 25.

34- البريكس BRICS هو تحالف دولي جديد اشتق المصطلح من الحروف الأولى من اسماء دول البرازيل و روسيا و الهند و الصين و جنوب افريقيا .

35- رغم التحسن في علاقاتها بالدول الخليجية و خاصة السعودية انظر : لمى , مضر جريء الامارة بنفس المرجع , ص 59.

36 - Grimmer, R., «CRS Report For Congress; Conventional Arms Transfers To Developing Nations; 2000-2007». October 23, 2008. www.fas.org/sgp/crs/weapons/lr34723.pdf

37 - NUP.S ; « The Arms Trade Is Big Business », Globalissues, November, 09, 2009 in www.globalissues.org /article /74 / the arms trade is big business.

38-NUP, S, ibid.

39- المعلوم تاريخياً ان الأسطول الروسي يتألف من اربع اذرع : الأسطول الشمالي و أسطول المحيط الهادي و أسطول بحر البلطيق و أسطول البحر الأسود و الأساطيل الثلاثة بعيدة للغاية عن مسرح التنافس في المنطقة فيما يعيش الأسطول الرابع في البحر الأسود أزمة انحباسه داخل مياه ذلك البحر شبه المغلق بمضائق الدردنيل و البوسفور رغم ان روسيا أساساً من الناحية الجغرافية دولة قارية .

40- ألكسي فاسيليف , "روسيا في الشرقين الأدنى و الأوسط", ترجمة المركز العربي للصحافة و مراجعة حمدي عبد الحافظ , موسكو, 2001, ص 189, 194.

41- يمكننا الاستشهاد بالحضور البحري السوفييتي في حرب أكتوبر 1973 من خلال إحدى وسائل الحسم العسكري التي استخدمها المصريون في عبور القناة و تمثل ذلك في الجسور العائمة التي شكلت دعماً سوفيتياً بحرياً .

42 Jacob W.Kipp , "Moscow Responds To The Arab Revolutions: Focus On Libya", Eurasia Daily Monitor, Volume:8, Issue:80;25, April 2011. In Wwww.Jamestown.Org.

43- هذا لا يعني ان روسيا لم تستفيد من الثورات العربية اذ ارتفعت اسعار النفط الروسي الى 30% وقد تزداد ارتفاعاً

44 -Kreutz, A. , «Russia In The Middle East: Friend Or Foe», London: Preager Security international, 2007, P8 .

45 - ايمجد جهاد عبد الله, "التحولات الاستراتيجية في العلاقات الامريكية الروسية". بيروت: دار المنهل اللبناني. الطبعة الاولى, 2001, ص 170.

46- في هذا السياق، قامت روسيا بالمسارعة الى مصادرة صحيفة "غورودسكيا ازيستيا" في مدينة فولغوغراد حين تجرأت على إعادة نشر الصور.

47- عاطف, معتمد عبد الحميد, نفس المرجع. ص: 16

48- هذه النظرة لم تتغير الى يومنا هذا يمكن استشفافها في خروج العديد ممن تصريحات الخبراء الروس الاعلامية بان هذه الثورات العربية في عام 2011 ماهي الا مؤامرة يهودية أو امريكية للسيطرة على الشرق الاوسط من خلال ايقاعه في الفوضى و التخلص من حكامه المنتهية أدوارهم و من بينهم الدبلوماسي فاتسلاف ماتوزوف الذي يرى ان العديد من المنظمات الامريكية قامت بتدريب بعض الشباب و تم ارسالهم الى بلدانهم لاشعال فتيل الثورات .

49 - عاطف معتمد عبد الحميد , المرجع السابق , ص 08

50- يفغيني بريماكوف, نفس المرجع , ص 39

- 51- عاطف معتمد عبد الحميد , "العلاقات العربية الروسية في ظل التحولات الدولية " , ورقة عمل في : ملتقى العلاقات العربية الروسية , مركز الجزيرة للدراسات , الدوحة , فبراير , 2009 .
- 52 - نورهان الشيخ, " السياسة الروسية تجاه المنطقة بعد الثورات العربية: مصالح ثابتة ومعطيات جديدة " , السياسة الدولية , العدد : 23 , فيفري 2012, ص : 23
- 53 - أهمها تحديث مجمع الحجار للحديد والصلب في الجزائر، وتحديث مولدات كهرباء السد العالي، وترسانة الإسكندرية، والفرن العالي، لشركة حلوان للحديد والصلب وغيرها من المشروعات في مصر.
- 54 - جورج شكري كتن, نفس المرجع , ص 93.
- 55- خاصة أن العلاقات الاقتصادية العربية الروسية التي حكمتها في الحقبة السوفيتية طبيعة الأنظمة السياسية و التي كانت ترى في الاتحاد السوفيتي السابق منظومة تقليدية تعتمد مقايضة السلاح والتكنولوجيا بالمواد الخام أو الإنتاج الزراعي قد تراجعت في عهد روسيا الاتحادية نظرا لتغير النظام الاقتصادي في روسيا إلى اقتصاد السوق المفتوح مما حيد العامل الأيديولوجي من المعادلة الجديدة وفرض قوانين السوق بكافة تفاصيلها.
- 56- لمى مضر وجريء الامارة , نفس المرجع , ص 43.

العلاقات بين طرابلس الغرب وإسبانيا خلال القرن 16م / 10هـ

الشافعي درويش

قسم التاريخ جامعة غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000، الجزائر

مقدمة:

إن العلاقات بين طرابلس الغرب، وإسبانيا خلال القرن 10هـ/16م، تميزت بالعداء المستمر، لأن طرابلس كانت من أول المدن الساحلية المغربية، التي وقعت تحت الاحتلال الإسباني. بسبب حالة الضعف التي كانت الدولة الحفصية تعاني منها، باعتبار طرابلس أحد تابعيها. إضافة إلى أن طرابلس كانت ضمن المشروع الاستعماري الإسباني في منطقة المغرب الإسلامي، نظرا لموقعها الاستراتيجي على البحر المتوسط.

أخذت العلاقات بين طرابلس الغرب، وإسبانيا وضعا مختلفا، نظرا لمحدودية المنطقة من جهة، وطبيعتها من جهة أخرى. لأن المقاومة الطرابلسية كانت ضعيفة، كما أن اهتمام الإسبان بطرابلس لم يكن كبيرا لذلك منحوا المدينة لفرسان القديس يوحنا، الذين كانوا تابعين لإسبانيا في نشاطهم البحري ضد المواقع الإسلامية في منطقة حوض المتوسط.

ورغم حالة الضعف التي ميزت المقاومة الطرابلسية، إلا أن الأهالي الطرابلسيين واصلوا المقاومة ضد الاحتلال الإسباني مدة طويلة، وظلوا يتحينون الفرص لاسترجاع مدينتهم، خاصة بعد ظهور العثمانيين في الحوض الغربي من المتوسط، وارتباط الجزائر بالدولة العثمانية، فجدوا فيهم السند.

أما بعد مرحلة التحرير؛ أي بعد سنة 1551م، فإن العلاقات بين طرابلس الغرب وإسبانيا أخذت منحى آخر، حيث تحولت طرابلس إلى قاعدة عثمانية هامة، شاركت في المشروع الإسلامي العثماني ضد الدول المسيحية، التي تقودها إسبانيا من أجل السيطرة على حوض البحر المتوسط عموما، والجزء الغربي منه خاصة.

لقد ارتبطت العلاقات بين طرابلس الغرب، وإسبانيا خلال النصف الثاني من القرن 10هـ/16م بشخصية بارزة هو درغوث رايس، الذي ساهم في تحرير طرابلس من الاحتلال الإسباني، ثم في

الصراع الإسلامي المسيحي. فنتساءل عن طبيعة العلاقات بين الطرفين، وعن أهم المراحل التي مرت بها، وعن انعكاساتها على منطقة حوض البحر المتوسط؟.

العلاقات بين طرابلس وإسبانيا قبل سنة 1551م

:

يمكن القول أنه خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1510م و1551م فإن العلاقات بين طرابلس الغرب، وإسبانيا تميزت بالعداء المستمر، وذلك بسبب الاحتلال الإسباني لطرابلس منذ 1510م، ومحاولات الطرابلسيين المتواصلة لتحرير مدينتهم. ثم تسليم الإسبان المدينة لفرسان مالطة. ويمكن أن نوجز هذه المرحلة في العناصر التالية :

1- الاحتلال الإسباني لطرابلس في سنة 916هـ/1510م :

عرف القرن 15م بعصر البروز الإسباني، المتوج بزواج فرديناند ملك أراغون، وإيزابيلا ملكة قشتالة والوحدة الإسبانية، التي فرضت على إسبانيا الالتفات إلى الخارج؛ يدفعها إلى ذلك سببان: أولهما ملاحقة مسلمي الأندلس والانتقام منهم، وثانيهما التطلع للسيطرة على مناطق المغرب الإسلامي لجعلها مناطق نفوذ لها، وبما أن تلك المناطق كانت تعاني اضطرابات في أوضاعها الداخلية، فقد استغلوا تلك الأوضاع، وبدأوا تحركهم القرصاني بقيادة بيدرو نافارو، الذي احتل المدن الساحلية المغربية منذ سنة 1505م، مثل وهران سنة 1509م، و بجاية في سنة 1510م، ثم توجه أسطوله إلى السواحل الإفريقية الشرقية⁽¹⁾. حيث عمل داعية المسيحية الأول الكاردينال اخيمينيس أسقف طليطلة، ورئيس وزراء الملك الإسباني فرديناند على توجيه أنظار الإسبان إلى المكاسب، التي سيحصلون عليها لقاء سيطرتهم على

من سكان البلد إلى تسليم أنفسهم، وهرب منهم أكثر من 6000 إلى تاجوراء، زنزور، وغريان⁽⁹⁾.

ب- نتائج الحملة الإسبانية على طرابلس :

ترتب عن الحملة الإسبانية المسيحية على مدينة طرابلس الغرب نتائج مختلفة؛ على منطقة المغرب الإسلامي خاصة الساحل المغربي، أو على إسبانيا وأوروبا المسيحية، أو على السكان الطرابلسيون أنفسهم، ومن هذه النتائج :

- سيطرة الإسبان على طرابلس، واتخذوها قاعدة لعملياتهم الحربية في البحر المتوسط، وأحاطوها بسور ضخم لحمايتهم من هجوم الليبيين، وظلوا يحكمون المدينة قرابة العشرين سنة⁽¹⁰⁾.

- كانت الخسائر البشرية كبيرة في صفوف الطرابلسيين؛ بلغت 6000 شهيد، وأزيد من 5000 أسير، إضافة إلى آلاف الذين فروا إلى المناطق الداخلية، أما خسائر الإسبان فبلغت 300 رجل⁽¹¹⁾.

- استقبل نبأ احتلال مدينة طرابلس الغرب بفرحة عظيمة، وبهجة غامرة في أوروبا المسيحية؛ وأثار هذا الاحتلال بهجة خاصة في إيطاليا، وقد دعا مندوب البلاط البابوي في بولونيا فرانسيسكو أليدوسي Francesco Alidosi، إلى تنظيم مظاهرة كبيرة تعبيرا عن فرحتهم، وبهجته باحتلال مدينة تسمى طرابلس البربرية، وهي أرض عامرة بالسكان⁽¹²⁾.

وتم تنظيم موكب ديني، وتم تبادل التهاني بين دوق البندقية، وملك إسبانيا، ونائب الملك بصقلية، والمرشد الأكبر لفرسان القديس يوحنا بهذا النصر⁽¹³⁾.

كما أن الكونت بيدرو نافارو أقام الأفراح مهنتا نفسه بالانتصار، الذي حققه على الطرابلسيين؛ وعن إعجابه بالمهمة التي أنجزها، ويظهر ذلك من خلال الرسالة التي وجهها إلى نائب الملك في

صقلية يهنئه، ويبين له أهمية المدينة، وجمالها، وحتى عن البعد التاريخي الروماني فيها⁽¹⁴⁾.

- عمد الإسبان إلى تحصين المدينة، وإحاطتها بالأسوار بهابعد أن هجروا سكانها، كما قاموا بتحويل القصر الموجود داخلها إلى كنيسة سميت كنيسة القديس ليونارد، و خربوا المدينة، ففقدت أهميتها التجارية، وتحولت إلى قاعدة عسكرية رئيسية للتحركات البحرية الإسبانية في المتوسط⁽¹⁵⁾.

- بدأت التحركات الإسبانية لاحتلال الموانئ المغربية انطلاقا من مدينة طرابلس الغرب؛ فكانت أول حملة بحرية عام 1511م لاحتلال جزيرة جربة لكنها فشلت⁽¹⁶⁾.

- لم تعد حملة الإسبان على مدينة طرابلس بالفائدة، التي كانوا ينتظرونها لأن البلد كان بعيدا عن

إفريقية عامة، وطرابلس خاصة⁽²⁾.

سار بيدرو نافارو مع الخطة التي سهلت له احتلال الساحل الإفريقي الشمالي؛ والتمثلة في عملية الإحراق بالمنطقة من طرفها، ثم تضيق الدائرة شيئا فشيئا حول الوسط، فقد رأى أن يفاجئ طرابلس،⁽³⁾ وأن يتمكن منها. وكانت يومئذ آخر حدود الدولة الحفصية جنوبا⁽⁴⁾.

أ - سير الحملة الإسبانية على طرابلس :

غادر الكونت بيدرو نافارو مدينة بجاية على رأس ثمانية آلاف رجل في 07 جوان من سنة 1510 م، واتجه إلى فافينانا Favignana؛ حيث ينتظر السفن القادمة من نابولي، وصقلية للمشاركة في الهجوم على مدينة طرابلس، وقد نسقت الحملة تحت إشراف وتوجيه نائب ملك صقلية، وتم تنفيذها بمشاركة جنود إيطاليين، وخاصة من صقلية. غادر الأسطول فافينانا في 15 جويلية سنة 1510م، حيث توقف في غوزو Gozo بمالطة⁽⁵⁾، وانضم إليه بعض المالطيين، وأدلاء لمعرفتهم بطرابلس، وخبرتهم بكافة سواحل الشمال الإفريقي، وتقيد بعض المصادر أن مهمة الإرشاد البحري؛ تولاهما الدليل الصقلي يوليانو (جوليانو) أبيلا Guiliano Abella⁽⁶⁾.

كانت الحملة الإسبانية مكونة من ستين سفينة، ومن غليونتين، ومن عدد من المراكب الشراعية، ومن خمسين مركبا ذات الأشرعة الثلاثية، وانضمت إليها من مالطة خمسة سفن مالطية مسلحة تسليحا جيدا، وحين غادرت الحملة من مالطة في 20 جويلية باتجاه مدينة طرابلس؛ كانت مكونة من مائة وعشرين سفينة بحرية بين صغيرة وكبيرة وعلى ظهرها جميعا خمسة عشر ألف جندي إسباني، وثلاثة آلاف جندي إيطالي وعدد من المغامرين⁽⁷⁾.

وصل الأسطول الإسباني إلى المدينة في يوم 25 أوت سنة 1510م، وعلى الفور باشر بضرب سواحلها، وأنزل مدفعيته على الشاطئ جنوب شرقي المدينة في منطقة سيدي الشعاب، ونتيجة للقصف الشديد تمكن الإسبان من اختراق السور، وفتحت إحدى الأبواب خلال الساعات الأولى من النهار، وقبل انقضاء ذلك اليوم كان الإسبان قد أتموا احتلال المدينة⁽⁸⁾.

ورغم قلة ما كان لدى المدينة من الجنود وآلة الحرب، فقد قاومت مقاومة عنيفة، واستخدم أهل طرابلس النار، والحجارة. واستشهد منهم 5000، ووقع في الأسر 6000 آخرين، ولكنهم أصابوا الكثير من الإسبان، وقتلوا عددا من قادتهم. واضطر من بقي

ذكر أن المدينة أي طرابلس الغرب تم تحصينها من طرف الإسبان، وأنه سمع في وقت قريب أن أميرها قد أعيد إليها؛ بعد أن أمر الإمبراطور شارلكان بذلك، وأن السكان قد بدأوا يعمرونها، بعد عودة أميرها السابق إليها (22).

وفي هذه الأثناء برزت أحداث، ومتغيرات جديدة على الساحة الدولية؛ فالقوة العثمانية بوصفها قوة جديدة وناشئة، حطمت ما حولها من قوى سياسية، وأعلنت عن نيتها في حماية البقاع الإسلامية، والدفاع عنها؛ وتمثل وجودها في الشمال الأفريقي من خلال خير الدين باربروس، الذي أسس دولة قوية في الجزائر، أصبح لها أسطولا له مكانته في حوض المتوسط، والذي أعلن رسميا تبعيته للدولة العثمانية، والالتزام بمنهجها (23).

أدرك الإسبان منذ اللحظة، التي تركز فيها خير الدين باربروس بالجزائر خطورة موقفهم، وبغية ضمان التواجد المسيحي في الساحل الإفريقي الشمالي، وطرد الأتراك العثمانيين وممثلهم من المنطقة. رحب الإمبراطور الإسباني شارلكان بالعرض؛ المقدم من طرف فرسان القديس يوحنا الأورشليمي؛ بمنحهم مدينة طرابلس الغرب، لكي تصبح مقرا لنشاطهم البحري إلى جانب جزيرة مالطة، بعدما طردهم السلطان سليمان القانوني من جزيرة رودس في سنة 1523م، وقد تعهد الفرسان بقتال المسلمين، والوقوف إلى جانب شارلكان (24).

إن الاحتلال الإسباني لطرابلس الغرب، الذي استمر خلال عشرين سنة من 1510م إلى 1530م؛ ظل مرتبطا بإعادة تحصين المدينة، وبناء القلعة، أما دواخل المدينة فلم تطأها أقدام الإسبان؛ إلا في شكل حملات قصيرة وسريعة، ومواجهة للساحل المغربي (25).

3- تسليم شارلكان مدينة طرابلس لفرسان

القديس يوحنا: أرسل المرشد الأكبر لفرسان القديس يوحنا، في أكتوبر سنة 1523م وفدا إلى الإمبراطور شارلكان؛ يطلب منه منحهم جزيرة مالطة بعد أن طردهم العثمانيون من جزيرة قبرص، وقد أبدى الإمبراطور ترحيبا بهذا الطلب، واشترط شارلكان أن تتولى المنظمة مهمة الدفاع عن قلعة، ومدينة طرابلس. وقد أرسل المرشد الأكبر ثمانية من الفرسان لزيارة جزيرة مالطة، وغوزو، ومدينة طرابلس، وقدموا تقريرا عن أحوال قلعة ومدينة طرابلس الغرب (26).

الصراع، ثم أن الطرابلسيين لم يكفوا قط عن المناوشة والمناجزة، ففي ذي الحجة 916هـ/فبراير 1511م حاول سكان طرابلس استعادة مدينتهم، وأمدتهم سلطان تونس محمد بن الحسن الحفصي بقوة كبيرة، ولكن المحاولة فشلت؛ بسبب قوة تحصينات المدينة، لكن ذلك زاد الشعور لدى الإسبان بقلّة جدوى الاستمرار في احتلال مدينة طرابلس الغرب (17).

– ومن جهة أخرى منحت هزيمة الإسبان في جزيرة جربة أهالي طرابلس متنفسا قويا؛ دفعهم إلى تجديد مقاومتهم للإسبان، وصمموا على طردهم من مدينتهم، حيث أوقعوا بالقوات الإسبانية خسائر كبيرة في 11 شباط 1511م، وغدا القائد الإسباني ديبغو دي فيرا؛ حاكم مدينة طرابلس في موقف حرج لا يحسد عليه (18).

2- أوضاع طرابلس في ظل الاحتلال الإسباني :

وخلال السنوات الأربع الأولى لوجود الإسبان في مدينة طرابلس الغرب، وخوفا من زيادة الخسائر البشرية والمادية، ولضمان بقاء المدينة في حوزة المسيحيين؛ عمد الملك الإسباني إلى إلحاقها مباشرة بمملكة صقلية بحجة قربها. فغدت المدينة مرتبطة مباشرة بحكومة نائب الملك في صقلية، واستدعي القائد ديبغو دي فيرا إلى إسبانيا، وعين مكانه دون جيم دي ريجوسن Don Jim de Régocen حاكما للمدينة (19). وفي عهد نائب الملك في صقلية دون هوجو دي مونكادا Don Hugo de Moncade، بدأ بتشجيع السكان المسيحيين للسفر إلى مدينة طرابلس، من يرغب تمنح لهم المساكن الملائمة، وتخصص له الأراضي الزراعية، ويعفى من الضرائب لمدة عشرة أعوام، كما يبرأ من كل تهمة مدنية أو جنائية، لكن المسيحيين رفضوا ذلك؛ خاصة مع بداية التواجد التركي في السواحل الإفريقية (20).

وفي سنة 1520م قام نائب الملك في صقلية هوجو دي مونكادا بحملة ناجحة ضد جزيرة جربة، انتهت بإجبار شيخها على الاستسلام، وتوقيع معاهدة تبعية للملك الكاثوليكي شارلكان. كما وجه شارلكان رسالة إلى نائب الملك في صقلية؛ تضمنت الموافقة على إعادة شيخ طرابلس، الذي كان قد أخذ أسيرا عند احتلال الإسبان لمدينة طرابلس إلى ميسين، وبقي في الأسر عشر سنوات، لاستخدامه لتوطيد العلاقات بين المحتلين الإسبان والأهالي، وتهئية الحالة في المدينة (21).

و عند زيارة الحسن الوزان للمدينة في سنة 1518م،

فيها. وكان أهم مظاهر الحملة التي قادها العثمانيون، وانتهت بفتح طرابلس، وضمها للخلافة العثمانية، وتتحول إلة إحدى القواعد العثمانية في مواجهة المشروع الإسباني الاستعماري في حوض المتوسط. ويمكن ان نلخص العلاقات بين الطرفين في هذه المرحلة، في العناصر التالية :

1- التواجد العثماني في تاجوراء وأثره على طرابلس :

أغار خير الدين بربروس على مدينة طرابلس في سنة 1531م، وكان قائد الفرسان إذ ذاك هو جاسبارو دي سانجيسا Casparo de Sanguisa حاكما عليها، الذي تمكن من الثبات في وجه خير الدين، فتوجه خير الدين إلى مهاجمة قرية تاجوراء؛ حيث كان نفر من العرب يتعاونون مع الإسبان، ومع فرسان القديس يوحنا، فطردهم منها وولى عليها قائدا من رجاله يسمى خير الدين كرماني، وترك معه بعض الأسلحة، والجنود، والقطع الحربية (33).

قاد حاكم طرابلس أوراليو بوتيجلا في محرم من سنة 943هـ / 1536م حملة ضد مدينة تاجوراء، بعد أن تلقى نجدة من مالطة؛ قدرت بأربعة مراكب، وخمسمائة وخمسين مقاتلا. هاجموا المدينة، ونهبوا وسلبوا، وقتل خير الدين كرماني في الصراع، فعين خير الدين بربروس قائدا آخر؛ وهو مراد أغا (34). وتذهب المصادر الإسلامية أن سكان تاجوراء أرسلوا جماعة من الأعيان على متن سفينة إلى السلطان العثماني سليمان القانوني، يطلبون منه الإعانة من أجل مساعدتهم في تحرير مدينة طرابلس من احتلال فرسان القديس يوحنا (35).

فولى السلطان العثماني في سنة 1537م على سكان تاجوراء مراد أغا، الذي كان مقاتلا باسلا؛ أصله من صقلية أسر من طرف المسلمين، فدخل في الإسلام، وقد استطاع الثبات في وجه فرسان القديس يوحنا، ومضايقتهم، رغم أنه عجز عن فتح مدينة طرابلس الغرب، فتمركز بمدينة تاجوراء وقام بتحصينها (36).

استطاع مراد أغا أن يجعل من تاجوراء مدينة صغيرة، ومحصنة، وقد عمل على تقريب المواطنين المحليين بفضل مرونة سياسته (37). وقد بنى مراد أغا مدرسة وجامعا كبيرا، وأعطى طابعا عثمانيا لكل تحركاته؛ خاصة عندما أخبر الباب العالي بخطط سياسته مطلعاً إياه على مرامي السياسة المالطية في مدينة طرابلس، وملتصا بالمساعدة لإنقاذ أهالي مدينة طرابلس الغرب (38).

2- ظهور شخصية درغوث رايس :

ظهرت هذه الشخصية على ساحة الأحداث في

وبعد مفاوضات طويلة بين المرشد الأكبر للفرسان، والإمبراطور شارلكان انتهت بتوقيع الإمبراطور في 24 مارس 1530م؛ المرسوم في كاستل فرانكو مينيتو Kastel Franco Minito، الذي سلّم بموجبه شارلكان مدينة طرابلس الغرب لفرسان القديس يوحنا (27).

استقرت منظمة فرسان مالطة في طرابلس الغرب منذ سنة 1530م، وبدأت العمل بتحصين المدينة، وزيادة استحکاماتها الداخلية والخارجية، ورممت الأسوار والقلاع الدفاعية، وتحمل أبناء المدينة مسؤولية البناء، والترميم تحت سيطر فرسان القديس يوحنا. فقد كان تصرف فرسان مالطة يوحى بأن التغييرات، التي يحدثونها في معالم المدينة، تدل دلالة واضحة على أنهم يسعون للاستقرار في مدينة طرابلس الغرب بصورة دائمة، وجعلها مقرا دفاعيا لهم (28). وقد حكم مدينة طرابلس أحد عشر حاكما من فرسان القديس يوحنا؛ كان من أشهرهم : أورليو بوتيجلا Aurelio Bottigella، الذي حكمها مرتين، وجيوفالي لافالنتي Giovanni La Vallette (29).

إن سلطة حاكم طرابلس في عهد فرسان مالطة، كما هي في عهد الحكم الإسباني؛ لم تتعد نطاق المدينة، وكانت بعض القرى الواقعة على الساحل الغربي مثل: جنزور، والماية، وزواغة تدفع الضريبة بطريقة غير منتظمة (30). أما مدينة تاجوراء، التي تقع شرقي مدينة طرابلس الغرب، فقد فر إليها المسلمون بعد احتلال طرابلس من طرف الإسبان، وقادوا المقاومة لاسترجاع المدينة (31).

لم يطمئن بال فرسان القديس يوحنا في مدينة طرابلس، خاصة بعد وصول العثمانيين إلى الساحل الغربي للمتوسط، ووجود خير الدين حاكم الجزائر، الذي تزايدت قوته البحرية. كما لم يكن لهم من تمويل مالي؛ لذلك لجأوا إلى غزو القرى المجاورة، وفرضوا الضرائب عليها. لكن الطرابلسيين لم يكفوا عن مهاجمتهم ومناوشتهم للحامية المالطية، وظلوا يضايقونها، من أجل تحرير المدينة من الاحتلال، وكانت بداية عمليات التحرير مدينة تاجوراء (32).

العلاقات بين طرابلس وإسبانيا ما بعد سنة 1551م/ 958هـ :

أما في الفترة التي ما بعد سنة 1551م فإن العلاقات بين طرابلس الغرب، وإسبانيا ميزتها العداء المستمر، وذلك بسبب ظهور العثمانيين على مسرح الأحداث في السواحل الطرابلسية، حيث هددوا الوجود الإسباني

وضرب الموانئ الإسبانية، والإيطالية وقام بمظاهرات بحرية عديدة أمام ميناء المهديّة⁽⁴³⁾.

تمكن درغوث رايس في سنة 1549م بمساعدة مراد أغا، الذي أرسل له مائة من الرماة من احتلال مدينة المهديّة، ومنها كانت سفنه تقوم بالحملة ضد المركب والسواحل المسيحية؛ خاصة سواحل إيطاليا. لذلك قرر شارلكان استرجاع مدينة المهديّة، والقضاء على درغوث رايس، فقام أندري دوريا بحملة بحرية تحت قيادة نائب الملك بصقلية جيوفاني دي فيجا Giovanni de Véga، ومساندة منظمة فرسان مالطة، التي بعثت بأربعة مراكب ومجموعة من الفرسان، واحتلت المدينة في 10 سبتمبر من سنة 1550م⁽⁴⁴⁾.

أما درغوث فقد ترك أحد نوابه في المهديّة لقيادة حامية بها، والتي صمدت في وجه الهجمات الإسبانية لمدة شهر، وبعد أن احتل الإسبان المدينة ألحقوا بها مختلف عمليات النهب والسلب، والتدمير انتقاماً من أهلها⁽⁴⁵⁾. فتوجه درغوث إلى جزيرة جربة حيث سمح له شيخها بتجنيد الجنود، وفي شهر أفريل سنة 1551م فوجئ درغوث بحصار أسطول أندري دوريا له في ميناء جزيرة جربة، لكنه تمكن من شق قناة أرضية، وسحب سفنه وخرج إلى البحر المتوسط، واستولى على المراكب الرئيسية القادمة من صقلية لدعم أسطول دوريا، وباغت جزيرة مالطة وسلب قرية سيجيوي Siggeui، ثم تابع رحلته إلى مقر الخلافة العثمانية، وقابل السلطان، والتحق بالأسطول العثماني، حيث ساهم في وضع تقرير للحملة العثمانية على مدينة طرابلس⁽⁴⁶⁾.

4- الفتح العثماني لطرابلس وتحريرها من الاحتلال في سنة 1551م:

كان رد الخلافة العثمانية سريعاً وحاسماً، على تهديم الإسبان المهديّة، واسترقاق أهلها⁽⁴⁷⁾، خاصة بعدما أحاط درغوث رايس السلطان سليمان القانوني بالخطر الإسباني، وخطر فرسان القديس يوحنا على الوجود العثماني في المغرب الإسلامي، خاصة وأن الدولة العثمانية كانت تدرك حقيقة الوضع الداخلي للإيالات المغربية، ولمرامي السياسة الإسبانية. لذلك قرر السلطان سليمان القانوني إرسال حملة لاسترجاع طرابلس الغرب⁽⁴⁸⁾.

ظهرت قوة بحرية ضخمة أمام السواحل الإيطالية في شهر أوت سنة 1551م، فهاجمت جزيرة مالطة، وتمكنت من نهب جزيرة جوزو وأسر المسلمون خمسة آلاف مسيحي⁽⁴⁹⁾. وقد كان الأسطول العثماني

حوض البحر المتوسط، بعد وفاة خير الدين بربروس في سنة 1547م، وسيلعب درغوث دوراً رئيسياً في بلورة أحداث الساحة المغربية، وسيطر عليها تماماً بفضل قوة شخصيته، وذكائه، وروحه المغامرة⁽³⁹⁾.

ولد درغوث حوالي سنة 1485م في مقاطعة منتشييه Mentesh على السواحل الغربية للأناضول، وانصرف منذ شبابه إلى القرصنة في بحار الشرق، عمل مع البحارة العثمانيين، الذين كانوا يهاجمون سفن البندقية في بحر إيجة، وفي سنة 1533م انتقل إلى العمل تحت قيادة خير الدين بربروس، واشتهر بسلب السفن المسيحية في مياه شمال إفريقيا⁽⁴⁰⁾. وفي سنة 1540م فاجأه جياننتينو دوريا Giannettino Doria عند سواحل كورسيكا، فأسره وباعه إلى أسرة لومليني Lomellini من جنوة، الذين استخدموه في التجديف فوق مراكبهم، واقتدي في سنة 1544م ببناء على طلب من خير الدين، فاستأنف نشاطه القرصاني تحت علم سلطان القسطنطينية. وسرعان ما رفض درغوث رايس الاعتراف بالهدنة التي وقعت بين السلطان العثماني سليمان القانوني، والملك الإسباني وأصبح زعيماً للبحارة الأتراك، الذين استمروا في نهب التجارة الإسبانية، والسواحل الإسبانية، والإيطالية⁽⁴¹⁾.

3- نشاط درغوث رايس ضد الإسبان في السواحل المغربية:

سطع نجم درغوث رايس في حوض البحر المتوسط؛ حيث صار له أسطولاً مكوناً من أربعة وعشرون سفينة، وشرع في الإغارة على السواحل الإسبانية والإيطالية، متخذاً من جزيرة جربة قاعدة لأسطوله، بعد أن رحب به شيخ من أهلها ومنحه مرسى بها مقابل سهم من الغنائم. ورغم احتجاج الإسبان لدى السلطان العثماني؛ بسبب الهدنة الموقعة بين الدولة العثمانية وإسبانيا في سنة 1545م، لكن نشاط درغوث تواصل، واتسع، لذلك راح يبحث عن ميناء أوسع؛ فوقع اختياره على مدينة المهديّة، التي تلبى حاجته نظراً لموقعها الاستراتيجي⁽⁴²⁾.

وكانت مدينة المهديّة تابعة لإسبانيا منذ سنة 1535م؛ فقد تنازل عنها السلطان الحفصي مولاي الحسن لشارلكان، وكانت ذات موقع استراتيجي حصين، وميناء تجاري هام، شكل درغوث إمارة بالسواحل التونسية؛ بعد أن ضم كل مدن الساحل التونسية، وثبت نشاطه البحري حتى سنة 1549م، فضلاً عن نجاحه في عرقلة حركة المرور الأوربي،

لأنهم لم يلتزموا سابقا بالاتفاق، الذي عقده معهم سليمان القانوني، ومنحهم حق الشرف الحربي. وأخيرا قبل سنان باشا وسمح للفرسان، الذين قدر عددهم بمائتين بالجلاء، أما الجنود فأخذوا أرقاء (56).

فتحت القلعة ومدينة طرابلس أبوابها للعثمانيين في 11 شعبان 958هـ الموافق ل 14 أوت من سنة 1551م،

ومما ذكر في المصادر الإسلامية : ((وحاصروها برا وبحرا، فأخذوها قيل عنوة، وقيل طلب أهلها الأمان لأنفسهم، فأجابوهم لذلك، وخرجوا عنها)) (57).

لقد كانت الظروف ملائمة للعثمانيين لتحرير طرابلس من الاحتلال المسيحي لفرسان مالطة المتحالفين مع إسبانيا، فقد كان التفوق العسكري لصالح العثمانيين، كما أن إستراتيجية الحصار البري، والبحري، التي طبقها الأسطول العثماني كانت مجدية يضاف إلى ذلك استخدام أسلوب المدفعية لتحطيم قلعة المدينة المحاصرة، بالإضافة إلى ذلك أن الماء كان قليل؛ لأن الآبار كانت خارج أسوار المدينة، علما أن الحملة كانت في فصل الصيف؛ في أوت من سنة 1551م (58).

- نتائج الحملة :

كان للحملة العثمانية على مدينة طرابلس الغرب نتائج مختلفة، على منطقة الحوض الغربي للمتوسط، وعلى العلاقات بين القوى الكبرى المتصارعة؛ ومن هذه النتائج :

- تدخل الدبلوماسية الفرنسية نظرا لعلاقتها المتميزة مع الدولة العثمانية، في الوساطة لإنقاذ حامية فرسان القديس يوحنا، والسماح لهم بالخروج، مقابل تسليم المدينة في 14 أوت 1551م (59).

- قام سنان باشا بتعيين مراد أغا حاكما على مدينة طرابلس الغرب (1551م-1556م)، وقد عادت إلى المدينة مكانتها الإستراتيجية، والتجارية في عهده، رغم أن المصادر الأوروبية تعطي الأهمية لدرغوث ريس في حكم المدينة، وتراه أولى بذلك من مراد أغا (60).

- إنهاء الاحتلال الإسباني، والتواجد المسيحي من مدينة طرابلس، رغم المحاولات المتكررة لفرسان مالطة، وإسبانيا لاسترجاع المدينة؛ فقد وجه فرسان مالطة حملة عسكرية إلى مدينة زوارة القريبة من مدينة طرابلس في سنة 1552م، لكنها فشلت كما تدخلت سفن منظمة فرسان مالطة في

مكونا من مائة وعشرين سفينة شراعية (50)، بينما تذهب مصادر أخرى إلى مائة وخمسين سفينة عثمانية (51)، وقد أسندت قيادة الأسطول العثماني إلى سنان باشا؛ القائد العام للأسطول العثماني، يساعده درغوث ريس، وصالح بك حاكم رودس، توجهت القوة البحرية العثمانية إلى السواحل الإيطالية، ثم مضت إلى مالطة، ثم توجهت إلى مدينة طرابلس، فوصلتها في 04 أوت سنة 1551م، وحاصرها العثمانيون لمدة عشرة أيام، حيث أصبح سقوطها أكيدا (52).

وحسب المصادر الأوروبية كانت حامية فرسان مالطة المتواجدة داخل مدينة طرابلس؛ تتكون من مائة من الفرسان وخمسمائة من الجنود من كلابريا، صقلية، مالطة، ورودس، إضافة إلى بعض المئات من العرب المواليين، وقد طلب قائد الأسطول العثماني سنان باشا من الحامية المالطية تسليم القلعة، لكن قائد الحامية جاسباري فاليس Gaspari Vallis رفض الاستسلام (53).

وحسب المصادر الإسلامية فإن خطة قائد الأسطول العثماني سنان باشا؛ كانت تقضي التريث، والتشاور، والاستعداد، وتنسيق الجهود مع مراد أغا حاكم تاجوراء (54)، والعمل على مناوشة العدو برا، وعدم الاقتراب من ميناء طرابلس الغرب، لأن مدفعية حصن كاستيلو Castellajo كانت تمنع السفن العثمانية من الاقتراب، أو الدخول إلى الميناء. لذلك وجب حصار القلعة برا وبحرا، فقد حصن العثمانيون مدينة زوارة؛ الواقعة في غرب مدينة طرابلس، وأقاموا المتاريس، والخنادق، وفقا لحركة هجومية شاملة، معززة بقصف مدفعي متواصل عن طريق البر، فقد كان هناك ستمائة جندي مزودين بأربعمئة مدفع. وقد دافعت الحامية المالطية بشجاعة عن مواقعها لكن ظروف النصر كانت لصالح العثمانيين؛ فالحصار أثر على معنويات الجنود المسيحيين، خاصة وأن المنطق الاستراتيجي، الذي كان يتمتع به العثمانيون في التموين، والاستعدادات، وكسب الأنصار، وتجديد المواطنين خلق جبهة إسلامية قوية متحالفة (55).

وصادف أن كان السفير الفرنسي دارا مونت Daramant في طريقه إلى وظيفته لدى الدولة العثمانية، فتوقف في مدينة طرابلس الغرب حيث لاحظ حصار الأسطول العثماني للحامية المالطية، وعندما أصبح واضحا وجوب استسلام فرسان القديس يوحنا، أقنع السفير الفرنسي الأميرال العثماني سنان باشا بأن يسمح لفرسان القديس يوحنا بالجلاء في سفينة فرنسية مقابل استسلامهم. لقد كان الأتراك مترددين في عقد أي إتفاق مع (الكلاب)؛

نتيجة للدور الهام الذي لعبه درغوث رايس في حوض البحر المتوسط، وتهديده للسواحل المسيحية، جعل إسبانيا والدول الأوروبية تتوحد، وتسوي خلافاتها؛ فعقد صلح كاتو كامبرسيس بين إسبانيا وفرنسا في سنة 1559م. حيث تحالفت كل من إسبانيا، فرنسا، البندقية، والحكومات الإيطالية، والبابا، وفرسان مالطة، وقرروا القيام بحملة عسكرية ضد طرابلس الغرب، وضد الخطر الرئيسي؛ المتمثل في شخصية درغوث رايس⁽⁶⁶⁾.

كان الأسطول المسيحي ضخماً، والقوات من جنسيات مختلفة، فقد جهز الملك الإسباني فيليب الثاني Philippe2 حملة ضخمة في ديسمبر من سنة 1559م، لاحتلال مدينة طرابلس؛ وقد تكونت من ثلاثين سفينة كبيرة إسبانية على رأسها دون ألفار ودي ساندرو Don Alvaro de Sandro، ومن خمسة وثلاثين سفينة إيطالية بقيادة أندري دي فونزاقوي André de Gonzague، وأربعة عشر سفينة ألمانية، إلى جانب قوات فرنسية، وأربعمئة فارس من مالطة، بالإضافة إلى سفن الحموله، المؤونة، والذخيرة، وأعطيت القيادة العامة لجون أندري دوريا Jean André Doria. ولم تتوجه القوات المتحالفة إلى مدينة طرابلس، بل توجهت إلى جزيرة جربة⁽⁶⁷⁾.

اجتمعت الأرمادة الأوروبية التي تقودها إسبانيا في جزيرة مالطة، ولم تستطع مغادرة مراسيها إلا في فصل الشتاء من سنة 1560م، بسبب العواصف البحرية. فقرر الإسبان عدم التوجه إلى مدينة طرابلس للقضاء على درغوث رايس، الذي كان يستعد للحملة، بل التوجه إلى جزيرة جربة للاستيلاء على عش القراصنة؛ حسب تعبير المصادر الأوروبية⁽⁶⁸⁾.

اختار الإسبان هذا الوقت بالذات للحملة ظناً منهم أنه يمكنهم مباغته العثمانيين، الذين تعودوا الخروج للبحر في فصل الربيع، لكنهم أخطأوا في تقديراتهم، كما أخطأوا في عدم التوجه مباشرة إلى مدينة طرابلس، التي كانت بها حامية عثمانية؛ تتكون من قوة قليلة من الإنكشارية، كما أن درغوث رايس قام بتمويه الإسبان؛ عندما كان يتحرك بين طرابلس، وجزيرة جربة في محاولة منه للتخطيط، والتنسيق، ونقل الأسلحة في انتظار وصول الأسطول العثماني، الذي خرج من ميناء استانبول، ووصل إلى السواحل الطرابلسية في مدة قياسية خلال عشرين يوماً فقط؛ بقيادة بياله باشا، ويعزز قيادته درغوث، وتلميذه عالج علي⁽⁶⁹⁾.

باغت الأسطول العثماني الأسطول المسيحي في جزيرة جربة، التي كان الإسبان قد احتلوها من قبل، فدارت معارك بحرية بين الأسطولين انتهت بنكسة أوربية في جزيرة جربة⁽⁷⁰⁾. حزن لها المسيحيون في

شؤون طرابلس سنة 1589م، كما هوجمت المدينة سنوات 1639م و1642م. يضاف إلى ذلك التحالف الأوربي ضد مدينة طرابلس، ثم توجهه إلى جزيرة جربة في سنة 1560م لكنه فشل⁽⁶¹⁾.

– نبهت الحملات المسيحية المتكررة لاسترجاع مدينة طرابلس، العثمانيين إلى ضرورة تحرير كل الموانئ المغربية من التواجد الإسباني، وسيكون الاعتماد على مدينة طرابلس؛ باعتبارها قاعدة إستراتيجية هامة، وعلى شخصية درغوث رايس، فستوجه الدولة العثمانية اهتمامها إلى تونس⁽⁶²⁾.

5- دور طرابلس في المشاريع العثمانية ضد إسبانيا في المتوسط:

أ- دور درغوث رايس في مهاجمة المواقع الإسبانية:

بعد وفاة خير الدين بربروس، استتجد الملك الفرنسي فرانسوا الأول بالسلطان سليمان القانوني مرة ثانية؛ ضد عدوه شارلكان، فأجده السلطان العثماني بأسطول قاده درغوث (طرغود) باشا؛ المعروف لدى الأوربيين Dragut، في سنة 960هـ/ 1553م، فاتجه مع رئيس الأساطيل الفرنسية القبودان بولان Boulain، وخلص درغوث باشا نحو سبعة آلاف أسير من المسلمين؛ كانوا لدى الإسبان في قلعة بشتيا Bestia من أعمال كورسيكا، ثم عاد إلى استانبول بعد اختلافه مع قائد الأسطول الفرنسي. وفي سنة 961هـ/ 1554م استتجد الفرنسيون مرة أخرى بالعثمانيين، فأرسل السلطان سليمان القانوني أسطولاً بقيادة بياله باشا، ودرغوث باشا، فحقق انتصارات هامة ضد الإسبان، ثم عاد إلى عاصمة الخلافة العثمانية⁽⁶³⁾.

وستلعب مدينة طرابلس دوراً سياسياً وعسكرياً هاماً في حوض المتوسط في عهد درغوث رايس، بعد أن تم تعيينه حاكماً لها في سنة 964 هـ/ 1556م، وسع درغوث سيطرة العثمانيين لتشمل السواحل الطرابلسية بكاملها (الليبية اليوم)، كما استولى على مدن تونس الشرقية، والجنوبية مثل: صفاقس، والقيروان، وقد اقتصر نفوذ العثمانيين على المدن الساحلية⁽⁶⁴⁾.

وتتفق المصادر التاريخية على أن درغوث رايس ساهم في تكوين قادة لامعين مثل عالج علي، الذي لعب دوراً كبيراً في الصراع الإسلامي المسيحي في حوض المتوسط، وفي إيالة الجزائر⁽⁶⁵⁾.

ب- نكسة الإسبان في جزيرة جربة سنة 1560م

:

وصل في يوم 02 من جوان 1565م⁽⁷⁶⁾ كما التحق به تلامذته حسن باشا حاكم الجزائر، وعلج علي باشا من الإسكندرية، وكان كل منهما محمل بما قدر عليه من السلاح، والجنود، والبارود، والبواخر⁽⁷⁷⁾.

لقد فشلت الحملة العثمانية على جزيرة مالطة، ولم يستطع العثمانيون الاستيلاء على الجزيرة، رغم القوة العسكرية الضخمة التي ميزت الحملة، والاستعدادات الطويلة لها، فقد خسر الأسطول العثماني قائدا هاما، كان موته نسفا خطيرا يعادل آلاف الجنود الأتراك، وهذا باعتراف المصادر الأوروبية⁽⁷⁸⁾. قتل درغوث في 23 جوان من سنة 1565م بسبب شظية أصابت رأسه⁽⁷⁹⁾، ونقل درغوث رايس إلى مدينة طرابلس الغرب ودفن بها.

د- دور البحرية الطرابلسية في معركة ليبانت :

رغم استشهاد درغوث رايس، وخسارة طرابلس، والبحرية الإسلامية لقائد متميز، اعترفت الدول المسيحية بقوته، إلا أن دور طرابلس سيتواصل، وذلك من خلال مشاركة البحرية الطرابلسية في معركة ليبانت سنة 1571م، بقيادة جعفر باشا، الذي خلف علج علي في ولاية طرابلس، وقد قدم الليبيون الكثير من أبنائهم في المعركة، كما قدموا مساهمات مادية كبيرة⁽⁸⁰⁾.

هـ- دور البحرية الطرابلسية في تحرير تونس :

كان للبحرية الطرابلسية دور كبير في إنهاء الاحتلال الإسباني لتونس، فقد شاركت في الحملة العثمانية بقيادة مصطفى باشا، التي حررت تونس نهائيا من الإسبان في سنة 1574م⁽⁸¹⁾. فبعد أن تلقى مصطفى باشا خطابا من السلطان العثماني يدعوه للمشاركة في تحرير تونس من الاحتلال الإسباني⁽⁸²⁾. توجه إليها على رأس أربعة آلاف رجل⁽⁸³⁾، حيث التقى بالقوات الإسلامية هناك، فتولى مع حيدر باشا حاكم القيروان الهجوم على تونس، بعدما أن أمدهم سنان باشا بقوات إضافية، وعدد من المدافع. فتمكنوا من دحر القوات الإسبانية، ودخلوا مدينة تونس⁽⁸⁴⁾.

و- محاولات الإسبان وفرسان مالطة لاسترجاع طرابلس :

قام الإسبان وفرسان مالطة بمحاولات متكررة لاسترجاع المدينة؛ فقد وجه فرسان مالطة حملة عسكرية إلى مدينة زوارة القريبة من مدينة طرابلس في سنة 1552م، لكنها فشلت. كما تدخلت سفن المنظمة في شؤون طرابلس سنة 1589م، بالإضافة إلى تعرض المدينة إلى حملتين

كل أوروب، لأنهم خسروا فيها أكثر من إثنين وثلاثين سفينة، كما تم القضاء على الحامية الإسبانية التي كانت متواجدة في الجزيرة⁽⁷¹⁾.

كانت هزيمة جربة نسفا مريعا للسمعة الإسبانية، بل هددت أمنها أيضا، لأن ذلك الانتصار قوى عزائم الأتراك في غرب المتوسط، وشجع المورسكيين على الثورة. ولم تنته مشاكل إسبانيا البحرية في حوض المتوسط بهزيمة جربة، فقد فاجأ درغوث رايس الأسطول الإسباني، وأغرق عددا من سفن الملك الإسباني فيليب الثاني، التي كانت متواجدة خارج الساحل الجنوبي لصقلية. لذلك فإن البحرية الإسبانية لم تستطع أن تقوم مرة ثانية باستعراض قوتها، بشكل جدي في حوض البحر المتوسط إلا في سنة 1564م⁽⁷²⁾.

ج- دور البحرية الطرابلسية في حرب مالطة :

كانت جزيرة مالطة تشكل قاعدة بحرية هامة؛ تؤثر على حرية التنقل في المتوسط، وتهدد المصالح الإسلامية التجارية، كما كان فرسان مالطة يعيقون حركة الحجاج المسلمين باتجاه الأماكن المقدسة؛ خاصة المتوجهون من الإيالات المغربية. وقد أدرك درغوث جيدا حساسية موقع مالطة، وخطورتها على العثمانيين، وقد طلب من السلطان مرارا على الاستيلاء عليها⁽⁷³⁾.

وعندما فشل حسن باشا حاكم الجزائر في سنة 1563م في تحرير مدينة وهران من الإسبان، الذين كانوا قد احتلوا أيضا مدينة باديس المغربية، كما عززوا مواقعهم في مدينة حلق الوادي. ونظرا لتلك الخلفية قرر السلطان العثماني سليمان القانوني توجيه حملة بحرية إلى جزيرة مالطة، وكان قراره بالتنسيق مع القيادات العثمانية؛ باستثناء معارضة درغوث رايس وتلميذه علج علي باشا، اللذين ألحا على توجيه الحملة لتحرير الموانئ المغربية؛ باديس، وحلق الوادي، ووهران؛ باعتبارها امتداد للدولة العثمانية، وخطرها أشد تأثيرا، خلافا لمالطة البعيدة عن الأراضي العثمانية. وقد كان درغوث رايس على علم بأمر الحملة منذ أواخر سنة 1564م⁽⁷⁴⁾.

وصلت الحملة العثمانية بقيادة كل من بياله باشا، ومصطفى باشا إلى جزيرة مالطة بتاريخ 18 ماي 1565م، وقد اختلفت المصادر حول تعداد قواتها⁽⁷⁵⁾. بينما التحق درغوث رايس بالأسطول العثماني في مالطة على متن ثلاثة وعشرين سفينة؛ منها ثلاثة عشر سفينة كبيرة على متنها ألف وثلاثمائة جندي، وعشر غليونيات على متنها ثمانمائة جندي، حيث

عسكريتين سنوات 1639م و1642م⁽⁸⁵⁾.

خاتمة:

إن العلاقات بين إسبانيا وطرابلس الغرب تميزت على طول الخط بالعداء المتواصل سواء في مرحلة الاحتلال، أو بعد الفتح العثماني لطرابلس. إن مدة الاحتلال الإسباني لمدينة طرابلس الغرب نظريا تقدر بعشرين سنة؛ أي ما بين سنتي 1510 و1530م، لكنها واقعا تمتد ما بين 1510 و1551م؛ أي لمدة واحد أربعين سنة. لقد كان احتلال الإسبان لمدينة طرابلس سهلا، رغم المقاومة الضعيفة للسكان، و ذلك بسبب غياب سلطة فعلية قوية فيها، رغم التبعية الاسمية للدولة الحفصية، التي كانت ضعيفة.

وقد ارتبط تحرير طرابلس بدرغوث راس؛ وهو أحد تلامذة خير الدين. فمنذ وصوله إلى الحوض الغربي للمتوسط؛ بدأ يتحرك في المناطق القريبة من طرابلس، ويجمع التقارير الهامة، إلى

الهوامش:

- 1- محمود علي عامر ومحمد خير فارس : تاريخ المغرب العربي الحديث 2ج، منشورات جامعة دمشق، دمشق 2000/1999، ج2، ص 149.
- 2- Henri D.DE Grammont : Histoire D'Alger sous la domination turque (1515-1830), Ernest Leroux Editeur , Paris ,1887 , p 15.
- 3- توجد رسالة من الملك فردناند إلى بيدرو نافارو يأمره فيها باحتلال مدينة طرابلس الغرب، مؤرخة في ماي سنة 1510، أنظر إلى : Charles Feraud.L : Annales Tripolitaines , publiés avec une introduction et des notes : par Augustin Bernard , Librairie Tournier, Tunis , Librairie Vurbert , Paris 1927 , p 22.
- 4- أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792)، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1984، ص 143.
- 5- اتوري روسي : طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا، ترجمة وتقديم : خليفة محمد التليسي، ط1، مؤسسة الثقافة الليبية للتأليف والترجمة والنشر، طرابلس ليبيا 1969، ص 18.
- 6- أحمد بن حسين النائب الأنصاري : نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، تقديم وتعليق : محمد زينهم محمد عرب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، مصر 1994، ص 38.
- 7- اتوري روسي : المرجع السابق، ص 18.
- 8- محمود علي عامر ومحمد خير فارس : المرجع السابق، ص 149.
- 9- أحمد بن الحسين النائب الأنصاري : المرجع السابق، ص 38.
- 10- شوقي عطا الله الجمل : المغرب العربي الكبير، ط1، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة 1977، ص 129.
- 11- أحمد توفيق المدني : المرجع السابق، ص 144.
- 12- اتوري روسي : المرجع السابق، ص 27.
- 13- عبد الجليل التميمي: الخلفية الدينية للصراع الإسباني- العثماني على الإيالات المغربية في القرن السادس عشر، في م ت م، جانفي 1978، تونس 1978، العدد 10-11، ص 9.

- 14-ايتوري روسي : المرجع السابق، ص 19.
- 15-محمود علي عامر ومحمد خير فارس : المرجع السابق، ص 151 .
- 16-محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث، ط1، مكتبة دار الشرق، بيروت، 1969، ص 20 .
- 17-أحمد بن الحسين النائب الأنصاري : المرجع السابق، ص 39 .
- 18-محمود علي عامر ومحمد خير فارس: المرجع السابق، ص 152 .
- 19-محمود علي عامر ومحمد خير فارس: المرجع السابق، ص 152 .
- 20-ايتوري روسي : المرجع السابق، ص 37 .
- 21-نفسه، ص 38 .
- 22-الحسن الوزان : وصف أفريقيا، ترجمة : محمد حجي وآخرون، ج2، ط2، دار المغرب الإسلامي، بيروت 1983، ج2، ص 101 .
- 23-محمود علي عامر ومحمد خير فارس : المرجع السابق، ص 152 .
- 24-نفسه .
- 25-عبد الجليل التميمي : الولايات العربية ومصادر وثائقها، ط 1، مركز البحوث والدراسات عن الولايات العربية في العهد العثماني، تونس 1984، ص 74 .
- 26-ايتوري روسي : المرجع السابق، ص 50 .
- 27-نفسه، ص 52 .
- 28-محمود علي عامر ومحمد خير فارس : المرجع السابق، ص 155 .
- 29-ايتوري روسي : المرجع السابق، ص 83 .
- 30-نفسه، ص 61 .
- 31-محمد بن خليل غلبون الطرابلسي : تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، نشر وتصحيح وتعليق : الطاهر احمد الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة 1349هـ، ص 93 .
- 32-أحمد بن الحسين النائب الأنصاري : المرجع السابق، ص 41 .
- 33- Charles Feraud.L : op.cit , p 36 , 37.
- 34-ايتوري روسي : المرجع السابق، ص 63 .
- 35-محمد بن خليل غلبون الطرابلسي : المرجع السابق، ص 93 .
- 36-شوقي عطا الله الجمل : المرجع السابق، ص 130 .
- 37-أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي : المرجع السابق، ص 189 .
- 38-عبد الجليل التميمي : المرجع السابق، ص 75 .
- 39-عبد الجليل التميمي : المرجع السابق، ص 75 .
- 40-ايتوري روسي : المرجع السابق، ص 69 .
- 41-نفسه .
- 42-جون . وولف : الجزائر وأوربا (1500-1830)، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص 66 .
- 43-عبد الجليل التميمي : المرجع السابق، ص 76 .
- 44-ايتوري روسي : المرجع السابق، ص 71 .
- 45-أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي : المرجع السابق، ص 189 .
- 46-عبد الجليل التميمي : المرجع السابق، ص 77 .
- 47-أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي : المرجع السابق، ص 189 .
- 48-عبد الجليل التميمي : المرجع السابق، ص 77 .
- 49-ايتوري روسي : المرجع السابق، ص 75 .

- 50- أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي : المرجع السابق، ص 189.
- 51- Ernest Mercier : Ernest Mercier : Histoire de l'Afrique septentrionale , 3T, Ernest lerroux éditeur, Paris 1891, T3 , p 73.
- 52- جون . وولف : المرجع السابق، ص 68 .
- 53- ايتوري روسي : المرجع السابق، ص 76 .
- 54- محمد بن خليل غلبون الطرابلسي : المرجع السابق، ص 94 .
- 55- عبد الجليل التميمي : المرجع السابق، ص 77 .
- 56- جون . وولف : المرجع السابق، ص 68 .
- 57- محمد بن خليل غلبون الطرابلسي : المرجع السابق، ص 94 .
- 58- عبد الجليل التميمي : المرجع السابق، ص 77 .
- 59- جون . وولف : المرجع السابق، ص 68 .
- 60- Charles Feraud.L : op.cit , p 53.
- 61- ايتوري روسي : المرجع السابق، ص 81 .
- 62- عبد الجليل التميمي : المرجع السابق، ص 78 .
- 63- محمود السيد الدغيم : أضواء على تاريخ البحرية العثمانية حتى نهاية عهد الخليفة سليم الثاني، مقال في مجلة الحضارة الإسلامية وعالم البحار (بحوث ودراسات)، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة 1994، ص 398 .
- 64- جميل بيضون وشهادة الناطور : تاريخ العرب الحديث، ط1، دار الأمل للنشر والتوزيع، أربد 1991، ص 50 .
- 65- عبد الجليل التميمي : المرجع السابق، ص 79 .
- 66- جون . وولف : المرجع السابق، ص 73، 74 .
- 67- Charles Feraud.L : op.cit , pp 65-74.
- 68- جون . وولف : المرجع السابق، ص 74 .
- 69- عبد الجليل التميمي : المرجع السابق، ص 84، 85 .
- 70- Ernest Mercier : op.cit , p 98 .
- 71- عبد الجليل التميمي : المرجع السابق، ص 85 .
- 72- جون . وولف : المرجع السابق، ص 75 .
- 73- عبد الجليل التميمي : المرجع السابق، ص 87 .
- 74- نفسه .
- 75- Ernest Mercier : op.cit , p 103.
- 76- Charles Feraud.L : op.cit , p 75 .
- 77- عبد الجليل التميمي : المرجع السابق، ص 87 .
- 78- جون . وولف : المرجع السابق، ص 81 .
- 79- De Grammont : op.cit , p 100.
- 80- محمود علي عامر ومحمد خير فارس : المرجع السابق، ص 178 .
- 81- عبد الجليل التميمي : المرجع السابق، ص 105 .
- 82- نفسه .
- 83- Ernest Mercier : op.cit , p 116.
- 84- ابن أبي الضياف : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الزمان، ج3، ط2، الدار التونسية للنشر، تونس 1977، ج2، ص 24
- 85- ايتوري روسي : المرجع السابق، ص 81 .

القصة القصيرة عند جمال ناجي: دراسة نقدية

محمود فليح القضاء

جامعة آل البيت

مدخل:

ولد جمال ناجي في مدينة أريحا عام 1954، ودرس المرحلة الابتدائية فيها، ثم انتقل عام 1967 بسبب نكبة فلسطين إلى عمان، حيث أكمل المرحلتين الإعدادية والثانوية، ثم درس التربية الفنية في كلية تدريب عمان. عمل في السعودية - في منطقة تهامة تحديدا - سنتين مدرسا للتربية الفنية، ثم انتقل للعمل المصرفي حتى عام 1995، ويعمل في الوقت الحالي مديرا لأحد مراكز الأبحاث في عمان⁽¹⁾.

وقد أصدر بعدها عددا من الروايات والمجموعات القصصية على النحو التالي:

- الروايات: الطريق إلى بلحارث عام 1982، ووقت عام 1984، ومخلفات الزواجر الأخيرة عام 1988، والحياة على ذمة الموت عام 1993، وليلة الریش عام 2004، وعندما تشيخ الذئب عام 2008.

- القصص القصيرة: رجل خالي الذهن عام 1989، ورجل بلا تفاصيل عام 1994، وما جرى يوم الخميس عام 2006، والمستهدف عام 2011.

ويهمنا هنا أن نتوقف عند فئة القصص التي جاء في أربع مجموعات قصصية، ففي الوقت الذي حظي فيه الروائي بدراسات فنية⁽²⁾، فإن فئة القصص لم يحظ حتى اليوم بدراسة شاملة، حيث أنه لا توجد دراسة سابقة بالعنوان والإطار الفني والموضوعي نفسه، الأمر الذي دفعني إلى دراسة ما كتب جمال ناجي من قصص تجاوزت الأربعين عبر التحليل الفني والنظرة الموضوعية. ومن هنا فإنه يمكن القول إن طبيعة هذه الدراسة قد فرضت تقسيم البحث بعد اتباع منهجية قراءة النتاج القصصي لجمال ناجي والتعمق فيه، واستخلاص القضايا في هذا النتاج وبيان البناء الفني إلى قسمين أساسيين، هما:

1- المضمون في قصص جمال ناجي.

2- الشكل (البناء الفني) في قصص جمال ناجي.

1- المضمون في قصص جمال ناجي:

شهدت نهاية الثمانينات باكورة إنتاج جمال ناجي من القصص القصيرة، حين ظهرت مجموعته الأولى (رجل خالي الذهن) عام 1989، ثم توالى مجموعاته الأخرى بالظهور والتي كان آخرها (المستهدف) عام 2011، ومن يتتبع مضامين قصص جمال ناجي فإنه يجد أن القضايا الاجتماعية كانت محط اهتمامه، وأنها تغطي على القضايا الأخرى، فكان البعد الاجتماعي هو المسيطر على جل ما كتب من قصص، وهذه القضايا الاجتماعية يمكن القول إنها قد تنوعت فمنها ما يعبر عن مشكلات يعاني منها المجتمع الأردني، ومنها ما يعبر عن تفاصيل الحياة الاجتماعية في ذلك المجتمع، فمن يقرأ قصة العلبة يجد أنها تكشف عن الفقر والظروف الاقتصادية الصعبة التي يعاني منها كثير من الناس، فالعلبة بطلة القصة تروي كيف كانت تنتقل من رف إلى رف ومن يد إلى يد ومن خزانة إلى خزانة كهدية رخيصة الثمن، تقول هذه العلبة: " هنا فقط فهمت بأنني تحولت إلى هدية!، لكن الحق أن تلك الزوجة استخفت بي واسترخصتني حينما قالت لزوجها: لكن هذه العلبة رخيصة!، وعززت رأيها مستشهدة بالهدية التي قدمها المريض إليها قبل مدة... " (3) ومن ثم فإن هذه القصة تكشف أيضا عن التقاليد والطقوس الاجتماعية لكثير من الناس، فهذه العلبة ما إن تصل إلى بيت ما في مناسبة ما حتى تحمل إلى بيت آخر في مناسبة أخرى لتشكل هذه العلبة حركة دائرية تصل في نهايتها إلى صاحبها الأول (زاهر) الذي اشتراها من البقالة، تقول العلبة: " لكن هذه المرأة أعادتني بعد فترة إلى بيت (زاهر) يوم قامت بزيارته مصطحبة معها زوجها!، عرفني (زاهر) فقال لزوجته: تخيلي، ها قد رجعت إلينا العلبة التي اشتريناها من البقالة قبل أشهر " (4).

وفي قصة السترة السوداء يكشف القاص عن

المتوترة بين الأزواج والصراع القائم بينهم بما في ذلك من مفارقة، الأمر الذي بدت فيه المرأة- الزوجة متسلطة بعد أن كانت ضحية التسلط وضحية العادات والتقاليد البالية.

وحين يظهر البعد الاجتماعي في قصص جمال ناجي فإنه غالبا ما يرافق هذا البعد ذلك البوح الإنساني الذي يكشف من خلاله القاص عادات وتقاليد المجتمع الذي يعيش فيه، والمعاناة التي يعيشها كثير من الأبناء، ففي قصة العيد الذي لا يحبه أبي يصف القاص جولة العيد في القرية بدءا من بزوغ شمس، يقول الكاتب: " لكن العيد، قبل أن يطرق باب دارنا يتوقف عند أطراف قريتنا: يلقي أحماله، يتفحص البيوت الوادعة في ظلمة ما قبل الفجر، يبتسم لها، يتوعدا بصباح مزركش، ثم يحمل أكياسه ويجوب دروبها المقفرة،... يتفقد البئر، وإذا نسي نفسه وتأخر، فإنه يلتقي نساء القرية، يغازلهن ويرافقهن إلى بيوتهن... " (9). ولم ينس الكاتب أن يصف أجواء العيد في بيت أسرته: " ما إن تبرز الشمس حتى يوقظنا من نومنا، فتثور زوبعة الفجر: فرقة الأواني، صخب إخوتي، قحّات والدي، تشهداته، وصيحاته،... " (10). ثم يرتدي البطل وإخوته الملابس النظيفة، يقتلون أيدي أبيهم وأمه، ثم يأخذون القروش منهم، ليتسّم لهم العيد ويلوح لهم بيده، ويمضي إلى البيوت الأخرى.

وفي يوم العيد يصف القاص زيارة أبي عاهد الذي تربطه بأمه صلة قرابة، فتكشف هذه الزيارة عن السعادة المرسومة على وجوه الصغار في وقت تختفي هذه السعادة على وجوه الكبار من شدة الفقر، فالفقر آفة اجتماعية يعاني منها كثير من الناس ومنهم البطل والد الراوي، حيث عبء الأسرة والأطفال وضيق المكان، وبدلا من أن يكون العيد مصدر فرح وسعادة للأب فإنه يصبح مصدر همّ وشقاء، ومن هنا كانت المفارقة (الهمّ والشقاء يوم العيد بدل السعادة والفرح)، ولذلك كان الأب يثور بسرعة كلما جاء العيد وليكون عنوان القصة العيد الذي لا يحبه أبي. ويمكن القول إن البعد الاجتماعي قد جاء واضحا في كثير من قصص جمال ناجي كقصص: الكحلاء، والحلاق، وتلك الأيام، ومجتمع مدني، وعوني ابن خالتي، وعادي،....

ولم يكن البعد الإنساني غائبا عن فكر جمال ناجي وإن جاء هذا البعد بشكل محدود، هذا البعد قد يكون جمليا يعبر عن الفرح الإنساني وقد يكون مؤلما يعبر عن المعاناة الإنسانية، ويمكن القول إن قصتي نسيان و الموت شخصيا هما أبرز ما مثل هذا البعد في قصص ناجي، ففي قصة نسيان تناول

آفة اجتماعية جديدة يعاني منها المجتمع وهي آفة النصب والاحتيال، ففي هذه القصة يتعرض بطل القصة إلى الاحتيال عندما أراد شراء سترة من بائع كان ينادي: (السترة بدينارين)، وعندما توقف البطل عند البائع أوهمه هذا البائع بأن في المحل القريب ما هو أفضل من هذه السترة، وحين وافق البطل وذهب مع ذلك البائع تفاجأ بأن المحل لم يكن سوى غرفة أشبه بقبو تحت درج عمارة وهذا القبو هو مكان النصب والاحتيال، يقول البطل: " خفصت رأسي، حنيت كتفي، نظرت عبر الفتحة إلى أسفل، فرأيت غرفة أشبه بقبو، يتوسطها ستة رجال يلعبون الورق ويدخنون ويشربون الشاي الأسود " (5)، وفي هذا المكان يفرض على البطل شراء السترة بسبعة دنانير، يقول المحتال لبطل القصة: "ها، ما رأيك؟ إنها مناسبة، أليس كذلك؟... سنعطيك إياها بسبعة دنانير فقط، وهذا سعر خاص " (6).

و في قصة مقاومة بيضاء كانت المرأة حاضرة في تصوير العلاقات الاجتماعية، وكانت صورة المرأة مقابلة لصورة الرجل من خلال الصراع القائم بين الزوجة وزوجها، ومن خلال السلطة التي كانت تمارسها تلك الزوجة مع ذلك الزوج، بشكل يرسم تلك التحولات التي يشهدها المجتمع والتغيرات الاجتماعية التي أصبحت فيها المرأة تقاسم الرجل معطيات المجتمع والحضارة، بل تجاوزت المرأة في هذا المجتمع دورها بشكل خرجت فيه عن المألوف وما في ذلك من مفارقة من خلال الحوار الذي يرسمه الكاتب بين الزوجة وزوجها:

" متى ستتعلم الصديق؟ فأجاب: لم يبق في العمر وقت للتعلم.

هزت رأسها باستخفاف: سأبدل ملابسي بسرعة، وأنت ابدأ بتجهيز نفسك، سأحضر لك بلة مناسبة. ثم خطت نحو خزانة الملابس قائلة... سأختار لك بلة مناسبة " (7). هنا ظهرت المرأة صاحبة السلطة التي تصدر الأوامر بدل الرجل الذي كان يتوق إلى الخلاص والتمرد على الواقع الذي يعيشه، فالأمر بحاجة إلى قوة تخلصه من ذلك الخوف الذي يعتل في نفسه، يقول الكاتب مصورا حالة الضعف التي كان يعيشها ذلك الزوج: " تحتاج المسألة إلى ثورة، تمرد، عصيان، لا فرق، فالمهم هو رفض الأمر قبل أن يصبح واقعا. سبق أن اتخذ قرارات مشابهة بالعصيان، لكنه لم يقو على تنفيذها " (8)، وبالتالي فإن القاص في هذه القصة قد طرح جانبها هاما من جوانب الحياة الاجتماعية، وهي العلاقة

كلها غدت مكسوة بوشاح أسود تتخلله مساحات بنفسجية داكنة⁽¹⁶⁾. وإذا ما كان الموت نهاية الإنسان فإن الظفر حليفه حين سكنت حركة البطل " ذاك كان آخر عهده بالحركة، فقد سكن جسمه بعد أن تملكته نوبة حادة من السعال الخانق، لم يعد قادرا على تحريك أطرافه، لم يعد ينطق،..."⁽¹⁷⁾

وكان للبعد القومي نصيب ضئيل في قصص جمال ناجي، فقد وقف عند القضية الفلسطينية في قصة وحيدة هي قصة صيف عام 1989، حين أشار إلى نكبة عام 1948 ومرور واحد وأربعين عاما على خروج البطل من فلسطين، فيقول: "تصوري، كيف تمر الأيام بسرعة؟ واحد وأربعون عاما مرت على تلك الرحلة من فلسطين، كنت يومها في الرابعة من عمري..."⁽¹⁸⁾

2- الشكل (البناء الفني) في قصص جمال

ناجي:

إن من يتناول القصة القصيرة يجد أن القصة لا تتحدد بمضمونها فقط، بل تتحدد أيضا بالشكل الذي يقدم من خلاله المضمون، وقد ينجح الكاتب في نقل فكرته، ولكنه قد يفشل في تقديم عمل متكامل فيه جانباً الموضوع والشكل، ويثير في نفس القارئ رغبة طبيعية ويرضيها⁽¹⁹⁾، وهذا ما يؤكد (أرنست فشر) إذ يقول: "إنه لمن الحماسة أن نركز كل اهتمامنا على المضمون، وأن نضع الشكل في المقام الثاني، فالفن هو تشكيل... هو إعطاء الأشياء شكلاً. والشكل وحده هو الذي يجعل من الإنتاج عملاً فنياً"⁽²⁰⁾. ومن هنا تظهر أهمية دراسة البناء الفني في قصص جمال ناجي، وهذا يتطلب قراءة قصص المجموعة والبحث في أهم عناصر العمل القصصي، كالأحداث، والشخصيات، والزمان والمكان، والأسلوب القصصي، وغيرها من العناصر الأخرى.

أ- الأحداث:

الأحداث عنصر مهم في القصة القصيرة، وهو لازم فيها لأنها لا تقوم إلا به، ويستطيع القاص إذا أراد أن يكتفي بعرض الحدث نفسه دون مقدماته أو نتائجه كما في القصة القصيرة، أو قد يعرض هذا الحدث متطوراً مفصلاً مثلاً في القصة الطويلة أو الرواية⁽²¹⁾.

والكتاب يستمدون أحداث قصصهم من مصادر مختلفة: الواقع، والخيال، والتاريخ، ومن دراسة قصص جمال ناجي يظهر أن الواقع كان مصدراً غنياً استمد منه القاص أحداث قصصه، وكما يقول محمود تيمور فإن القصة مرآة المجتمع "وليس الأدب على

الكاتب موضوع الحب حيث يروي تجربة حب عاشها البطل مع فتاة، هذه القصة قد تكون واقعا وقد تكون حلماً من نسج خيال الكاتب، وبما أن الحب موضوع إنساني فإن هذه القصة تعد ترجمة لحياة كثير من الذين يقعون في شرك الحب، فتصف حياة العاشقين والمراحل التي يمكن أن تمر بها رحلة الحب، حيث الفرح بداية الطريق، في وقت قد يتبدل الفرح والسعادة إلى حزن تلتاع به القلوب بسبب الفراق الذي يقع بين العاشقين، وهذا ما كان في هذه القصة، حيث بدأ الكاتب قصته بوصف لحظات الفرح الغامر التي جمعتها مع محبوبته "أحببتها، سرنا معاً، ابتعدنا عن ضوضاء العيون فتقاربنا: هي وأنا. تناديت، جمعت نفسي، تجرأت: أحبك. تدفق الهواء في صدري، تدافعت دقات قلبي بعنف: خشيت أن تقتلني تلك الكلمة الحارقة: أحبك"⁽¹¹⁾. هذه السعادة لم تدم طويلاً في حياة الكاتب، إذ تحول ذلك اللقاء الجميل وذلك الفرح إلى فراق مؤلم حزين "ذاكرتي لن تسعفني الآن إذا حاولت استرجاع الأسباب التي أدت إلى اختفائها من حياتي... وأني تفكرت في آخر هذه الحياة الفانية أن فراشي تحول من فرط أرقى إلى دبابيس"⁽¹²⁾، وقد حاول الآخرون إيجاد الحل للبطل بأن قدموا له وصفة النسيان التي لم ترق له "لاحقتني أصواتهم عليك بالنسيان... تألمت فعدوا: لا تتألم. صمت، فقالوا معاً: انس حتى الألم"⁽¹³⁾.

وعندما يكون الحب بعداً إنسانياً يمثل جانب السعادة في حياة الإنسان، فإن الموت يمثل الجانب الآخر في تلك الحياة حيث الحزن والمعاناة، وهذا ما جاء في قصة الموت شخصياً حيث رسم الكاتب في هذه القصة ذلك الصراع بين الموت والبطل، فالموت كما يراه البطل كائن يتنفس ويتحرك ويخترق إسمنت السقوف والجدران ويلطخ الغرفة ويطلق رائحة خاصة به، هذا الموت كان يحاول الانتصار والظفر بالمعركة، لكنه لم يستطع حسم المعركة في تلك اللحظة، يقول الكاتب: "اعتقد أنه بنهوضه عن سريره وسيره في الصالون أفسد على الموت خطته للظفر به"⁽¹⁴⁾، وبقي الموت يطارد بطل القصة حتى أصبح البطل يشعر بقربه منه وبدنو أجله، وقد نجح الكاتب في أن يصل إلى تلك الفكرة التي تقول بأن الإنسان يشعر بدنو أجله وأنه يحس بالموت من دون أن يراه⁽¹⁵⁾. لقد جاءت القصة لتكشف عن هاجس الموت الذي يخاف منه الإنسان ويخشاه، فالإنسان بشكل لا شعوري يشعر أن الموت يلاحقه وهكذا كانت المعطيات في هذه القصة "فرك عينيه، نظر من جديد، فعدت الظلمة تغمر في الغرفة وتلون ما فيها: الستارة، الخزانة الجدران، السجادة المعركة،

عالمي الواقع والغرائبية أيضا، فأحداث القصة في بدايتها كانت في عالم الواقع لكنها خرجت فيما بعد إلى عالم آخر، عالم تسوده الغرائبية، فبداية القصة تتحدث عن بطل القصة حين فقد أمه، وبعد ذلك تخرج الأحداث عن المألوف وتصبح غريبة عن الواقع، فقد رأى البطل بناية قريية تتأكل وتنتهار على ساكنيها بلا ضجيج، كما رأى زميله الذي مات في حادث سير يمر من جانبه، ورأى خاله الذي فارق الحياة قبل أسبوعين⁽²⁶⁾.

والقاص حر في اختيار وانتقاء حوادث قصته، أما عن طريق القراءة أو المشاهدة أو الاستماع أو التخيل⁽²⁷⁾. وفي قصة الكحلاء كان للتراث المحلي أثر واضح في بناء الأحداث، ففي هذه القصة يسلط القاص الضوء على تلك الأوهام والخرافات التي تعيش في عقول كثير من الناس أو ما يسمى بـ (فأل الشر)، فأحداث هذه القصة تعرض صورة للبطل وأمه حين يعيشان ذلك الوهم (فأل الشر)، فالمرأة ترى أن نبتة الكحلاء تجلب المصائب للبيت الذي تزرع فيه، في الوقت نفسه يرى البطل أن المصائب حلت عليه بسبب هذه الفتنة، فقد وقع عن السلم وفي اليوم التالي مات عمه، وفي إحدى المرات اصطدمت سيارته بسيارة أخرى⁽²⁸⁾. كما كان للمفهوم الديني أثر واضح في بناء أحداث هذه القصة، حين طلبت الأم من الابن قراءة آية الكرسي ثلاث مرات عند إلقاء أوراق وأغصان النبتة. وللتراث المحلي أثر واضح أيضا في قصتي البقايا⁽²⁹⁾ والمنذور⁽³⁰⁾.

ويرسم القاص بعض قصصه على شكل لوحات أو مقاطع، هذه اللوحات قد ترتبط فيما بينها بعلاقة كما في قصتي: الجهات الخمس، وعوني ابن خالتي، ففي قصة الجهات الخمس تظهر لوحات (أب، وأم، وفاعل خير، وأب)، وفي قصة عوني ابن خالتي تظهر لوحات (الأحوال، وشهادة سوء سلوك، ويوم الحمار، وحذاء ابن خالتي)، وقد لا ترتبط هذه اللوحات فيما بينها بعلاقة كما في قصة يوميات رجل مكتوف اليدين، فتظهر لوحات (ابتسامة، وصحو، وحافة، واستعانة، غراب)، وبهذه اللوحات التي رسمها جمال ناجي يمكن القول بأنها تظهر تطلعه الدائم إلى التعبير عن مضامين قصصه بأشكال تجريبية جديدة، تعكس فهمه للواقع من حوله والعالم بقضايا الإنسانية الواسعة، والبحث عن أشكال تعبيرية جديدة جعلت النهاية المفتوحة سمة بارزة في عدد من قصصه، كقصص: لهات ليلة العيد، والموت شخصيا، والحلاق، والمستهدف، وتلك الأيام، وغيرها من القصص، فلقارئ الحكم النهائي على تصرفات الشخصيات ومجريات الأحداث، وهو ليس

وجه عام، والقصة على وجه خاص ليست إلا مرآة للمجتمع وصورة تفصح عن جوانبه ونفسيات أهله...⁽²²⁾

وإذا قرأنا قصة العدوى فإننا نجد القاص قد استمد أحداث قصته من المجتمع الذي يعيش فيه ومن واقع الحياة اليومية، فهذه القصة تصور وقائع حياتية عاشها البطل كما عاشها الركاب والسائق في سيارة عامة. وقد جاءت هذه الأحداث لتكشف عن الهم الجماعي الذي أصبح قاسما مشتركا بين ركاب السيارة، حين أطلق أحد الركاب تنهيدة سرعان ما انتقلت إلى الركاب الآخرين بمن فيهم البطل. وقد لجأ القاص إلى المونولوج الطويل في عرض أحداث قصته وفي الكشف عن الموضوعات التي تشغل بال الركاب في سيارات الأجرة كما تشغل بال الناس بشكل عام، كموضوعات: الطقس، والأسعار، والطرق، وحوادث السير، وغيرها. ومن خلال متابعة الأحداث في هذه القصة نجد أنها تسير على نمط القص التقليدي البسيط وفق تسلسل زمني، حيث الترتيب الطبيعي للأحداث، فقد يبدأ القاص قصته من أول حوادثها، وقد يبدأ القصة بنهايتها، فعرض القصة له طرق يصعب تحديدها⁽²³⁾، ويمكن القول إن جمال ناجي قد سار في بناء معظم قصصه على نمط القص التقليدي البسيط. وحين استمد القاص أحداث قصصه من الواقع، فإن قصة طموح محلي قد تزاوجت فيها الأحداث بين عالمي الواقع والغرائبية، وقد بنى القاص معظم أحداث قصته في عالم الواقع، فهو يصف العلاقة القائمة بين الأم المطلقة وابنها الذي لم يكمل العاشرة بعد، ومن خلال الحوار الذي رسمه القاص بين الأم وابنها جاءت الأحداث في عالم الواقع، فالابن كان مولعا بألعاب الحاسوب: "أحست بالضجر، نهضت عن سريرها متجهة إلى غرفته بخطى سريعة: - ألم تمت؟. فأجاب بانهمك: دقيقة واحدة، انتظريني. وتابع معركته الضارية التي استخدم فيها أسلحة أوتوماتيكية ومتفجرات وكرات ملتهبة"⁽²⁴⁾.

إن موت الابن الذي تحدثت عنه الأم كان المقصود به الخسارة في لعبة الحاسوب، لتنتقل الأحداث فيما بعد إلى عالم الغرائبية ويصبح موت الابن حقيقة واقعة "ثم دوى صوت انفجار كبير عبر سماعة الجهاز، فصاح قهرا، سقط عن كرسيه... ركلته بحذائها فلم يستجب، تحول ترتيبها إلى جزع، ركعت إلى جانبه، هزت كتفه، تحسست وجهه، راعتها برودة جسده وجفاف جلده، فانفجر صراخها"⁽²⁵⁾.

وقد تزاوجت قصة أحياء سيق أن ماتوا بين

شخصيات قصصه تقوم على اختيار شخصية تكون مركز الدائرة، ويحيط هذه الشخصية بشخصيات ثانوية تدور في فلكها، ويمكن القول إن هذا هو الخط العام الذي سار عليه في بناء شخصيات الغالبية العظمى من قصصه، وهذا ما يظهر في مجموعات القصصية الأربع. وإذا تتبعنا المصادر التي استقى منها القاص شخصياته القصصية، فإننا نجد أنه اهتم بالواقع وعرض قضايا الحياة ومشكلات المجتمع، فالحياة التي نعيشها أصبحت من أهم المصادر التي أمدت القاصين بالشخصيات القصصية، فحين نقرأ قصة السترة السوداء من مجموعته القصصية الأولى (رجل خالي الذهن) تظهر لنا شخصية رئيسية هي شخصية الراوي، فهذه الشخصية محورية تدور حولها الأحداث وهي بسيطة تعكس واقع طبقة عادية ميسورة الحال في المجتمع، فقد استوقفها صاحب الصوت الذي يصيح (السترة بدينارين)، فالديناران سعر مناسب لسترة تلبس في فصل الشتاء القارس، والشخصية الرئيسية هذه أيضا ليس لها تفاصيل كبرى وفيها نلمح شخصية البطل المهزوم الذي يمارس تشريحا للذات من خلال السلبية في السكوت على الباطل، فقد استسلمت هذه الشخصية لعملية النصب والاحتيال وقبلت بها، ولم تكن شجاعة في رفض ما أملي عليها، بل تنازلت عن حقها:

" ها ما رأيك ؟ إنها مناسبة أليس كذلك ؟. ووجدتني أقول: بلى، إنها مناسبة !، حينئذ أقلت قبضته، فأحسست بأنني هبطت من عل، وبلعت ريقا وأنا أنفض رأسي مرددا: إنها مناسبة " (36).

أما الشخصيات الثانوية في القصة فهي شخصيات: الشاب والستة رجال وقد استمد القاص تفاصيل الشخصيات من الأرصفة أو الأحياء الفقيرة في المجتمع، وهذه الشخصيات تسجل واقعا حياتيا لفئة من فئات المجتمع تمارس النصب والاحتيال على الآخرين ولا عمل لها سوى لعب الورق والتخمين وشرب الشاي الأسود. وقد يأتي القاص بشخصيات قصصه من المحيط الذي يعيش فيه، وقد يكون القاص إحدى شخصيات القصة، فيقوم برواية الأحداث التي مرت به، وهذه الأحداث قد يكون القاص عاشها بنفسه أو شاهدها أو سمع عنها، يقول الدكتور محمد نجم: " ولا يفر من الكاتب الذي يتجه اتجاهها واقعا في قصته أن يعرض علينا من الحوادث ما سبق وقوعه فعلا، أو ما ثبتت صحته بالوثائق والمستندات، ولا من الشخصيات ما له ذكر في سجل المواليد والوفيات، ولكن عليه أن يقتنعنا بإمكان حدوث مثل هذه الحوادث ووجود مثل هذه

مطالب بالضرورة أن يضع نهاية لكل قصة، ذلك إن النهايات المفتوحة لكثير من القصص القصيرة تعطي القارئ فرصة اقتراح الحلول وإصدار الأحكام⁽³¹⁾، كما " أن القارئ لا يقف موقفا سلبيا محضا، بل يعيد من جديد بناء رؤيا أو مغامرة ابتداء من العلاقات المجمعمة على الصفحة. مستعينا هو أيضا بالمواد التي هي في متناول يده، أي ذاكرته " (32). وإذا ما تابعنا دراسة الأحداث في قصص جمال ناجي فإننا غالبا ما نجده يلجأ إلى استخدام المفارقة في بناء الأحداث وخاصة في نهاية القصة كما هو الحال في مثلا في قصة الجهات الخمس، فحين كان همّ الوالد الكبير كيف يخبر ابنه بموت العصفور دون أن يعاني من صدمة نفسية توقعها الأب لابنه، إلا أن المفارقة كانت حين لم يأبه الابن بموت العصفور ولم يحزن بل عاد إلى اللعب بجهاز الحاسوب، يقول الأب: من دون أن يكثرث بذهولي ودهشتي التي أنبتت سؤالا مفعجا: لماذا لم يحزن مثلي؟⁽³³⁾. وتظهر المفارقة في قصص أخرى كقصص: عوني ابن خالتي وعادي وقلب أخضر و....

ب- الشخصيات:

الشخصية عنصر من أهم عناصر القصة، وهي التي تقوم بالأحداث لأن " الأشخاص في القصة مدار المعاني الإنسانية ومحور الأفكار والآراء العامة، ولهذه المعاني والأفكار المكانة الأولى في القصة منذ انصرفت إلى دراسة الإنسان وقضاياها، إذ لا يسوق القاص أفكاره وقضاياها العامة منفصلة عن محيطها الحيوي، بل ممثلة في الأشخاص الذين يعيشون في مجتمع ما، وإلا كانت مجرد دعاية وفقدت بذلك أثرها الاجتماعي وقيمتها الفنية معا " (34).

ومعروف أن الشخصية هي التي تقوم بالأحداث، وقد تكون هذه الشخصية هي المحور الأساسي للقصة، ومنها وبها ينطلق القاص إلى بيان رؤية العمل القصصي، ومن خلالها تتكشف رؤية القاص والمنهج الذي يسير عليه في بناء عمله الأدبي، وهذه الشخصيات منها ما هو رئيسي يحتل مركز الصدارة في القصة، ومنها ما هو ثانوي وذلك حسب الدور الذي تقوم به هذه الشخصية⁽³⁵⁾. ومن يستعرض شخصيات القاص في مجموعاته القصصية يجد أن هذه الشخصيات تنقسم حسب الدور الذي تقوم به إلى قسمين:

1 - شخصيات رئيسية، أو شخصيات بطلية.

2 - شخصيات ثانوية.

وقد كانت خطة جمال ناجي في رسم

الناس" (42). ويمكن القول إن القاص قد كشف من خلال شخصياته القصصية عن الأوضاع الاقتصادية الصعبة للناس، يظهر هذا في حديث الزوج لزوجته حين طلب منها القيام بزيارة عاجلة إلى أقاربه لكي لا يخسران اللعبة، فلم يبق من صلاحيتها سوى يومين اثنين (43).

وفيما يتصل بالشخصية في قصص جمال ناجي من حيث نموها وتطورها، فيمكن القول إن الشخصية الجاهزة هي السمة التي ميزت شخصيات تلك القصص، فالشخصية الجاهزة كما يسميها عز الدين إسماعيل (44)، هي الشخصية المكتملة التي تظهر في القصة، حيث تظهر دون تغير في تكوينها وتأخذ صفة واحدة لا تبارحها، عكس الشخصية النامية التي لا يتم تكوينها إلا بتمام القصة (45)، وبالنظر إلى هذه الشخصيات الجاهزة فإنه يمكن القول إن أغلبها كان مأخوذاً من الواقع ومن البيئة المحيطة بالقاص، وهذا ما فعله (فرانسوا مورياك) - القاص الفرنسي، حين كان يستوحى شخصياته من البيئة المحيطة به (46)، والقاص شاء أم أبى فإنه يبنى أشخاصه انطلاقاً من عناصر مأخوذة من حياته الخاصة (47).

ج- الزمان والمكان:

وهما من العناصر الأساسية في بناء القصص، وحين نتحدث عن الزمان فإننا نتحدث عن الزمان الخارجي والزمان الداخلي، وإذا ما بحثنا في الزمان الخارجي فإنه الزمان الواقعي التاريخي الذي يفترض أن القصة قد وقعت فيه (إطار الحدث) فعليه تترتب عناصر التشويق والاستمرار وصيرورة الأحداث (48) وتكشف قراءة قصص جمال ناجي أنه لم يحفل بتحديد الزمن الخارجي وإن أشار في نهاية بعض قصصه في مجموعة رجل خالي الذهن إلى تاريخ كتابتها، وبالتالي فإن الزمن الخارجي اتسم بالتعميم والغموض، كما أن الأحداث التي أوردها القاص كان من الصعب أن يستنتج منها القارئ الزمان الذي وقعت فيه سوى قصة صيف عام 1989 حين أشار القاص إلى الذكرى الحادية والأربعين للنكبة " الآن وجدتها، نحن في منتصف أيار والإذاعات تبث الأناشيد بمناسبة الذكرى الحادية والأربعين للنكبة " (49).

أما الزمان الداخلي فهو المدة الزمنية التي وقعت فيها الأحداث وتحرك فيها الشخصيات، فيظهر أن القاص لم يحفل به كثيراً وإن كان الزمان " يساعد على تطوير الأحداث، ويقوم بتوضيح السببية التي تحرك الأحداث، وتدفع بها إلى الأمام،

الشخصيات في الحياة التي نحيها ونعرفها " (37). وفي قصة المنذور تظهر شخصية الابن كشخصية رئيسية في القصة، هذا الابن هو الكبير بين إخوته وعليه تقع المسؤولية إذا غاب والده " يوم قرر والدي زيارة عمتي العائدة من الحجاز، ذكرني بأني الكبير بين إخوتي ففهمت البقية قبل أن يكمل: علي أن أهتم بالدار أثناء غيابه " (38)، وقد وصفت الأم هذا الابن بالمنذور وما لهذا الوصف من دلالات كبيرة عند الأب " قالت أُمي بصوت ليليٍّ موحش: هذا الولد منذور !. تتأعب أبي، استعاذ بالله، قال بتوحش: اللهم استر " (39)، وقد ظهرت هذه الشخصية بسيطة صادقة بعيدة عن التكلف والافتعال حالها حال الشخصيات الثانوية تكشف عن نفسها من خلال أفعالها وأقوالها " تمشيت في الباحة الشاسعة المكشوفة، تلهيت بالاستماع إلى صوت الريح وهي تجر جر أوراق شجرة الكينا قرب البوابة، أحسست بالجوع، هرعت إلى المطبخ، عثرت على قطعة جبن وكسرة خبز، حملتها وقرصت أسفل الجدار الطيني للمخزن " (40).

أما الشخصيات الثانوية في القصة فهي: الأب، والأم، والخالة، والمرأة، والرجال، والنساء، فقد ساهمت في صنع الأحداث ومساعدة الشخصية الرئيسية في توظيف الحدث وبناء الفكرة، وقد ركز عليها القاص وظلت في مسرح الأحداث حتى نهاية القصة، وقد اتسمت بالبساطة والعفوية أيضاً، فهذا الأب وهذه الأم يواسيان الابن حين تعرض للاحتراق " قال بصوته العريض: أنت رجل والرجل لا يبكي !. ضمتني أُمي إلى صدرها، تمتمت بذعر، مسدت رأسي الحليق وجبهتي، وعيني المبلولتين. قال أبي بطريقته الخشنة: ولو ! أي والله لو وقع هذا الحجر في عيني ما بكيت " (41).

وفي الحديث عن الشخصيات يمكن الإشارة إلى اختلاف ظهر في قصة اللعبة، حيث الشخصية الرئيسية (البطل) في هذه القصة ليست من طينة البشر فهي لعبة حلوى، أما الشخصيات الثانوية فهي من جنس البشر وهي كثيرة، فنجد شخصية زاهر، وزوجته، و سارة، والبقال، والرجل المريض،...، وقد انتقلت اللعبة بين أيدي هذه الشخصيات لتصل في نهاية المطاف إلى صاحبها الذي اشتراها في البداية، ولم تكن هذه اللعبة في تنقلها بين الأيدي تشعر بالاستقرار والأمان " لو بقيت في المصنع لارتحت من هذه الحياة التي لا استقرار فيها ولا أمان، كل يوم في بيت، وفي كل بيت حكايات، لكنني الآن أشعر باحترام لنفسي، وبأنني لعبت دوراً مهماً في حياة

الآن فإن القصة القصيرة تستطيع استخدام الضمائر الثلاثة، وغالبا ما تكون الضمائر الثلاثة ملاصقة لوجهة نظر البطل⁽⁵⁷⁾.

وحين ننظر إلى هذه القصص التي اشتركت فيها الضمائر الثلاثة يظهر لنا قلة استعمال ضمير المخاطب في القصص التي يرد فيها، فلم يأت إلا في مواقف عابرة، وقد يعود هذا الأمر إلى أن ضمير المخاطب قياسا بضميري الغائب والمتكلم هو الأحدث نشأة في الكتابات السردية المعاصرة⁽⁵⁸⁾، أما ضميرا المتكلم والغائب فقد شكلا ركيزة أساسية اعتمد عليها القاص في معالجة أحداث قصصه، فضمير المتكلم حين يلجأ إليه القاص فإنه يجعل الحكاية المسرودة مندمجة في روح المؤلف، كما أنه يذيب الفروق الزمنية والسردية بين السارد والشخصية والزمن جميعا، فيستحيل السارد نفسه إلى شخصية كثيرا ما تكون مركزية⁽⁵⁹⁾، وهذا ما نلمحه في القصص التي اعتمدت بشكل كبير على ضمير المتكلم، ففي قصة النباح يظهر صوت القاص المحيط بكل صغيرة وكبيرة وهو يقدم نفسه للقارئ دونما واسطة، فقد لجأ إلى السرد بضمير المتكلم، فهو أكثر ملازمة لطبيعة المرحلة التي تعيشها الشخصية، من حيث الإحباط، والنفس المأزومة، والرغبة الجامحة في بث همومها للآخرين عسى أن يخفف ذلك عنها، يقول (لين أولتبيرد): "إن سرد القصة بلسان المتكلم - تقوم به الشخصية الرئيسية - ليمنحنا أكبر قدر ممكن من الإحساس بالمشاركة في القصة، فالتقصص العاطفي ممكن تماما فيكون لدينا إحساس موهوم بمعاونة مغامرات الشخصية الرئيسية كلها..."⁽⁶⁰⁾.

وفي قصة النباح، يقول القاص على لسان البطل: "كابوس النباح احتلني في يقظتي وأحلامي، وبدا لي العالم فما مفتوحا لكلب شرس، وفكرت بروية: فأنا لا أستطيع التغلب على هذا العدد من الكلاب، وطالما أنني عرفت سبب النباح، فقد بطل العجب في المسألة..."⁽⁶¹⁾. وكما لجأ القاص إلى ضمير المتكلم في معالجة أحداث قصصه، فقد لجأ أيضا إلى ضمير الغائب فهو سيد الضمائر السردية الثلاثة، وأكثرها تداولاً بين السارد وأيسرها استقبالا لدى المتلقين، وأدناها إلى الفهم لدى القراء، وقد كان ضمير الغائب حاضرا في قصص جمال ناجي، وكأن القاص يوافق غيره من القاصين في استعمال هذا الضمير لما له من فوائد عظيمة، فهو وسيلة صالحة لأن يتوارى وراءه السارد فيحرر ما يشاء من أفكار وأيديولوجيات، ويمنع من السقوط في فخ (الأنثا) الذي قد يجر إلى سوء فهم العمل السردية، كما أنه

ويسمح بتغيير الشخصيات من خلال حركته داخل القصة"⁽⁵⁰⁾، وقد ظهر هذا الزمن في مواضع قليلة كما جاء على لسان البطل "حضرت ولم أجدك في الساعة التاسعة والنصف... عدت إلي بيتي في الحادية عشرة مساء"⁽⁵¹⁾، وفي قصة أخرى على لسان الراوي يظهر الزمان الداخلي "في الصباح نبدأ الحفر، عند الضحى نتناول فطورنا ثم نتابع الحفر حتى تتوسط الشمس السماء"⁽⁵²⁾.

أما المكان فهو الأرضية التي تدور عليها الأحداث كما تتحرك عليها الشخصيات وهو لا ينفصل عن الزمان، وما ينطبق على الزمان في قصص جمال ناجي ينطبق على المكان، فلم يحفل القاص بالمكان كثيرا، وإن ظهر المكان في بعض قصصه، فهو لم يعن بتحديد أبعاده المميزة كإطار عام تدور فيه الأحداث، ومن القصص التي ظهر فيها المكان، قصص: السترة السوداء، وليل وأشياء كثيرة، وساعتان، والحزام الذهبي، ففي قصة السترة السوداء يظهر المكان بشكل عابر، يقول القاص: "البرد قارس حتى في قاع عمان، لكن..."⁽⁵³⁾، وفي قصة ليل وأشياء كثيرة يظهر المكان (المقبرة) "طافت عيوننا أرجاء المقبرة بحثا عن الأرواح والأشباح، حدثني عن جدته التي تخاف المشي بجانب المقبرة ليلا"⁽⁵⁴⁾، ويظهر المكان مبهما لا خصوصية له في قصة العيد الذي لا يحبه أبي "يتمشى قرب البئر كي يبدد الوقت المتبقي لزوج الشمس، ينفد البئر، وإذا نسي نفسه وتأخر، فإنه يلتقي نساء القرية"⁽⁵⁵⁾.

د- الأسلوب القصصي:

أما الأسلوب القصصي فهو "الطريقة التي يعالج بها القاص أحداث قصته، ويقدم بها شخصياته إلى المتلقين، ويصور بها بيئة القصة ومواقفها المختلفة، ويصف بها نظرته للأحداث والشخصيات"⁽⁵⁶⁾. وقد تعددت الطرق التي يكتب بها القاصون قصصهم، كالسرد، والحوار، وتيار الوعي، وغيرها.

ومن يقرأ قصص جمال ناجي يلحظ تنوعا في أساليب السرد، حيث السرد بضمير الغائب (هو)، وضمير المتكلم (أنا)، وضمير المخاطب (أنت)، وقد يشترك أكثر من ضمير في القصة الواحدة، وهذا يظهر في أكثر من نص في قصص ناجي، فيظهر اشتراك الضمائر الثلاثة (المتكلم، والغائب، والمخاطب) في قصص: السترة السوداء، والعلبة، وزيارة متأخرة، ولهات ليلة العيد، والعود وغيرها، وقد "كان من المألوف أن يستخدم ضمير واحد من أول القصة إلى آخرها..... أما

بلا هدى)، و(توجهت نحو الصبي، فوجدته واقفا)، و(تنهدت، ابتعدت عن حطامه)...

ويمكن القول إن البحث في الفن القصصي عند جمال ناجي قد أظهر مجموعة من النتائج، من أهمها:

1- كانت القضايا الاجتماعية أبرز القضايا التي عالجه القاص، تلتها القضايا الإنسانية، ولم يتناول القضايا القومية إلا في قصة واحدة (صيف عام 1989).

2- لجأ القاص إلى أسلوب القص التقليدي البسيط بدرجة كبيرة، وإن لجأ في بعض الأحيان إلى أسلوب التجريب كالتقطيع المشهدي والمونولوج الداخلي.

3- كان الواقع المصدر الأساسي الذي استمد منه القاص أحداث قصصه.

4- اهتم القاص بتصوير الشخصيات من الخارج، في حين بدا الاهتمام قليلا بتصوير تلك الشخصيات من الداخل.

5- تنوعت طريقة السرد بالضمائر الثلاثة (الغائب، والمتكلم، والمخاطب).

6- اعتمد القاص اللغة العربية الفصحى في السرد والحوار عدا مواضع محدودة استخدم فيها العامية.

7- لم يحفل القاص بالزمانين: الخارجي والداخلي كثيرا، وكذلك الحال بالنسبة للمكان.

8- كانت النهاية المفتوحة سمة بارزة في كثير من قصص المجموعة، كقصص: لهات ليلة العيد، والموت شخصيا، والحلاق، والمستهدف، وتلك الأيام، وغيرها.

يحمي السارد من إثم الكذب بجعله مجرد حاك يحكي⁽⁶²⁾.

ولم يقف جمال ناجي عند أسلوب السرد بضمائر الغائب، والمتكلم، والمخاطب، في نقل أحداث قصصه وتقديم شخصياتها، بل لجأ إلى تيار الوعي (المونولوج) الداخلي.

ويظهر تيار الوعي في قصص كثيرة مثل: السترة السوداء، والبقايا، ورجل لا يحسن الحب، ولهات ليلة العيد، وظهر تيار الوعي بشكل كبير في قصة العدوى، حين تتحدث الشخصية عن نفسها الداخلية وأفكارها المكونة، وفي هذه القصص يكشف هذا التيار عن معاناة نفسية يعيشها أبطال هذه القصص، فتيار الوعي كثيرا ما يصاحب بطل القصة، ولما يتعداه إلى غيره من الشخصيات، نحو ما جرى في قصة العدوى " في عزلة الصمت التي أعيشها في سيارة الأجرة، أفكر في كثير من الأمور إن لم أفل في جميعها ! أقلب الحياة على وجوهها، أشرق، أغرب، وأبحث عن حلول ومخارج لهماومي التي ما أكثرها. هكذا أنا، لذا فأنتي لا أشارك في تلك الأحاديث التي يلجأ الركاب أحيانا إلى نبشها دون مبرر " ⁽⁶³⁾، هذا الصراع يكشف عن معاناة نفسية تعاني منها شخصية البطل -

وفي لغة السرد والحوار يحمي للقاص استخدامه الفصحى، كما أنه أثر العبارة الواضحة الخالية من التعقيد والغموض ذات اللغة البسيطة، وكان للفعل الماضي حضوره الكبير في بناء جملة، حيث يمكن تمييز صيغتين من صيغ استخدامه:

1- جمل وصفية تعتمد السرد بضمير الغائب (كانت ملساء ناعمة)، و(أطفأ المصباح بسرعة)، و(تأمل السقف والجدران)، و(صاح مختلا بين الدجاجات)...

2- جمل تعتمد ضمير المتكلم ساردا (مات أبي قبل ثلاث سنوات تقريبا)، و(رأيت بقال الحي يسير

الهوامش :

- 1- ناصر يعقوب، التجربة الروائية عند جمال ناجي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، 1998، ص 1.
- 2- السياسة وأثرها في روايات تيسير السبول وجمال ناجي ومؤنس الرزاز / عوني الفاعوري - رسالة ماجستير 1995.
- التجربة الروائية عند جمال ناجي / ناصر يعقوب - رسالة ماجستير 1998.
- المكان في أعمال جمال ناجي/ كامل التميمي - رسالة ماجستير 2006.
- 3- جمال ناجي، رجل خالي الذهن، دار الكرمل للنشر والتوزيع، عمان، 1989، ص 21.
- 4- المصدر نفسه، ص 23.

- 5- جمال ناجي، رجل خالي الذهن، ص 9.
- 6 - جمال ناجي، رجل خالي الذهن، ص12.
- 7- جمال ناجي، ما جرى يوم الخميس، الدار العربية للنشر والتوزيع، بيروت، 2010، ص 75.
- 8 - جمال ناجي، ما جرى يوم الخميس، ص74.
- 9- جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، دار الكرمل للنشر والتوزيع، عمان، 1994، ص18.
- 10- جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، ص18.
- 11- جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، ص64.
- 12- جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، ص64.
- 13 - جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، ص66.
- 14 - جمال ناجي، المستهدف، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، 2011، ص20.
- 15 - انظر: المستهدف، ص22.
- 16 - جمال ناجي، المستهدف، ص23.
- 17-المصدر نفسه، ص24.
- 18 -جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، ص51.
- 19-رشاد رشدي ، النقد والنقد الأدبي ، دار العودة ، بيروت ، 1971 ، ص 23 _ 53.
- 20-آرنست فشر، ضرورة الفن، ترجمة أسعد حليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1978، ص201.
- 21-محمد زغلول سلام، دراسات في القصة العربية الحديثة، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1973، ص11.
- 22-محمود تيمور، القصة في الأدب العربي، مكتبة الآداب ومطبعتها، القاهرة، 1971، ص 59.
- 23-محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، 1997، ص514.
- 24 _ جمال ناجي، المستهدف، ص97.
- 25- المصدر نفسه، ص100.
- 26-جمال ناجي، ما جرى يوم الخميس، ص 98-99.
- 27-عبد اللطيف الحديدي، الفن القصصي في ضوء النقد الحديدي، د. م، 1996، ص 131.
- 28-جمال ناجي، المستهدف، ص12.
- 29- جمال ناجي، رجل خالي الذهن، ص 53.
- 30-جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، ص33.
- 31- إبراهيم الفيومي، دراسات في الرواية والقصة القصيرة، منشورات وزارة الثقافة، عمان، 1997، ص161.
- 32-ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت، 1971، ص64.
- 33- جمال ناجي، ما جرى يوم الخميس، مصدر سابق، ص48.
- 34-محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، 1997، ص562.
- 35-عبد اللطيف الحديدي، الفن القصصي في ضوء النقد الحديث، د. م، 1996، ص139.
- 36 _ جمال ناجي، رجل خالي الذهن، مصدر سابق، ص 11.
- 37-محمد نجم، فن القصة، دار الثقافة، بيروت، د.ت.
- 38- جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، ص34.
- 39 _ جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، ص34.
- 40-جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، ص35.
- 41-المصدر نفسه، ص39.
- 42- جمال ناجي، رجل خالي الذهن، ص23.

- 43-جمال ناجي، رجل خالي الذهن، ص23.
- 44-عز الدين إسماعيل , الأدب وفنونه،دار الفكر العربي، ط7، 1978، ص 192.
- 45-المرجع نفسه، ص 193.
- 46-نيرفانا مختار حراز،فرانسوا مورياك،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت،1981،ص46.
- 47-ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة،مصدر سابق،ص64.
- 48-مراد عبد الرحمن مبروك، بناء الزمن في الرواية المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1998، ص10.
- 49- جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، مصدر سابق، ص51.
- 50-عبد القادر أبو شريفة , مدخل إلى تحليل النص الأدبي ,دار الفكر، الأردن، ص 139.
- 51-جمال ناجي، رجل خالي الذهن، ص25.
- 52-المصدر نفسه، ص53.
- 53-جمال ناجي، رجل خالي الذهن، ص7.
- 54-المصدر نفسه، ص 17.
- 55-جمال ناجي، رجل بلا تفاصيل، مصدر سابق، ص 18.
- 56-عبد اللطيف الحديدي , الفن القصصي في ضوء النقد الحديث , 1996 , ص 189.
- 57-يوسف الشاروني , دراسات في القصة , دار طلاس، 1989، ص 53.
- 58-عبد الملك مرتاض , في نظرية الرواية , عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص189.
- 59-عبد الملك مرتاض , في نظرية الرواية، مرجع سابق، ص 177 – 178.
- 60-لين أولينيرد، الوجيز في دراسة القصص، ترجمة عبد الجبار المطلبي، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، بغداد، 1983، ص150.
- 61-جمال ناجي، رجل خالي الذهن، ص28.
- 62-عبد الملك مرتاض , في نظرية الرواية، مرجع سابق، ص 177 – 178.
- 63-جمال ناجي، رجل خالي الذهن، ص31.

حق المستهلك في الإعلام ومفهومه

ومسبب الإضرار كل من المانرف وجمعية حماية المستهلك به

حمو فخر

جامعة غرداية

المضرة بخلق الله وبمصلحهم المادية والمعنوية. وقد تولى الفاروق عمر بن الخطاب وظيفة "المحتسب" فكان يشرف على الأسواق ويتحرى المعاملات التجارية.

كما عرف المسلمون "المواصفات"، فكان لهم "قانون الحسبة" على منكرات الأسواق وفي معرفة الموازين والمكاييل وفي الحسبة على العلافين والطحانيين والخبازين والشوائين والتجار... الخ، وقد اشتمل قانون الحسبة على أكثر من 50 مهنة أو صناعة. وقد كان لكل مهنة مواصفاتها، يلتزم بها الصانع أو المهني ويتعرض لمراقبة جهاز الحسبة باستمرار.

وبهدف حماية المستهلك سعى المشرع الجزائري للبحث عن آليات فعالة تهدف لتوفير أكبر حماية له. ومنها إقرار حق المستهلك في الإعلام فالإشكالية التي تفرض نفسها في هذا الموضوع هي "ماذا نعني بحق المستهلك في الإعلام وما هي الأهمية التي منحها المشرع لهذا الحق وما هي الجهات الملزمة بأداء هذا الحق للمستهلك؟".

وسنبين من خلال هذه المباحث الثلاثة نحاول الإجابة على هذه الأسئلة وهذا بالرجوع إلى النصوص القانونية والتنظيمية التي استحدثها المشرع الجزائري في هذا الموضوع.

المبحث الأول: مفهوم حماية المستهلك:

يعتبر مصطلح المستهلك جديدا في التشريع الجزائري، حيث ظهر هذا المصطلح لأول مرة من خلال القانون رقم 89-02 الصادر في 07 فبراير 1989 والمتعلق بالقواعد العامة لحماية المستهلك، وهذا بعدما كان المصطلح التقليدي السائد في القانون المدني الذي يطلق عليه بالمشتري، فتغيير مدلول المصطلحات كان تبعا للظروف الاقتصادية التي مرت بها الجزائر بالدرجة الأولى وذلك قصد الوصول إلى إضفاء حماية واسعة لهذا الطرف في العلاقة الاقتصادية

إثر توقيع الجزائر على اتفاق الشراكة مع الاتحاد الأوروبي في 2002 والتي دخلت حيز التنفيذ سنة 2005 وانضمامها إلى المنظمة العالمية للتجارة ويقتضي عليها الاندماج في الاقتصاد العالمي والذي لا يمكن أن يتجسد إلا باتخاذ الإجراءات اللازمة والتي تهدف إلى تحرير المبادلات التجارية وإتباع المذهب الليبرالي الذي ينادي بأن تكون التجارة الدولية حرة لا تشوبها أي عقبات أو قيود التي تعيق تدفق المنتجات وتسويقها، وعليه فقد نجم عن هذا الانفتاح الاقتصادي وما يسوده من تحرير الأسواق ظهور منتجات متنوعة في الأسواق الوطنية الغرض منها إشباع حاجيات ورغبات المستهلك، إلا أن هذا الأخير أصبح محل خطر نتيجة لوجود سلع قد تفسد بصحته وسلامته ناهيك عن وجود مناورات وتلاعبات من قبل فئة من التجار الذين لا يهمهم إلا الربح السريع على حساب المستهلك نتيجة للجشع الذي يربناهم بعيدا عن كل روح تنافسية ونزاهة.

فقد عني الإسلام كشرعية تنشد العدل والإنصاف وإحقاق الحق وإبطال الباطل في مجال حماية حقوق المستهلك وصيانتها حيث جعل كل من تعدى على هذه الحقوق، يعرض صاحبه من الانتساب إلى دين الإسلام، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من غشنا فليس منا" كما أن القرآن الكريم أشار في العديد من آياته على هذه المعاني والأسس التي تحفظ حقوق المستهلك، قال تعالى: "وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان" وقال أيضا: "وإلى مدين أخاهم شعبيا قال يا قومي اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ذلكم خير لكم إن كنتم مومنين".

ولهذا فقد تولى رسول الله صلى الله عليه وسلم "الحسبة" بنفسه وقادها الخلفاء الراشدون من بعده، وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام على دراية تامة بما يجري في الأسواق من بيع وشراء وتداول للسلع والخدمات، فكان يعظ ويوجه ويحرم كل الممارسات

والاستهلاكية.

- أما الضيق وهو الراجح فيعرف المستهلك بأنه الشخصي الذي يسعى للحصول على حاجته من مختلف السلع والخدمات ونستخلص من هذا التعريف ما يلي:³

*-المستهلك قد يكون شخص طبيعي أو معنوي.

*-المستهلك هو الذي يسعى للحصول على السلع والخدمات لاستعماله الشخصي أي ينتفع بها دون أن تكون له نية مسبقة للمضاربة أو نية البيع أو غير ذلك.

*-المستهلك لا يتمتع بالقدرة الفنية للحكم على ما يسعى لاقتنائه والحصول عليه.

*فالمستهلك هو ذلك الشخص الذي يحصل على سلع أو خدمات بهدف غير مهني وهذه المنتجات تقدم له من طرف شخص آخر غالبا ما يكون محترفا والعقد المبرم بين المستهلك والمحترف يسمى عقد الاستهلاك.

فمن خلال هذه العناصر المستخرجة من تعريفنا للمستهلك من الناحية القانونية والفقهية ندرك مدى حاجة هذا الأخير إلى جملة من النصوص من شأنها أن تحقق له الحماية اللازمة فمن خلال هذا المطلب الموالي نحاول التطرق إلى المقصود بالحماية القانونية للمستهلك.

المطلب الثاني: المقصود بحماية المستهلك:

يقصد بحماية المستهلك: "رعاية المستهلك ومعاونته في الحصول على ما يلزمه من مواد وخدمات يطلبها الاستقرار المعيشي والحياة في المجتمع وذلك بأسعار معقولة في كل الأوقات وتحت كافة الظروف مع دفع أي أخطار وعوامل من شأنها الإضرار بمصالحه أو تؤدي إلى خداعه وتضليله".

ومن خلال ما تقدم نستخلص أن حماية المستهلك بوجه عام ترتبط بضمان حقوقه في مجال العملية الاستهلاكية من خلال وسائل مناسبة تكفل إيجاد التوازن التعاقدية بين المستهلك والطرف الآخر في عقد الاستهلاك.

المبحث الثاني : حق المستهلك في الإعلام:

المطلب الأول : إلزام المحترف بالإعلام:

الإعلام هو تحصيل حقيقي لشيء ومعرفته والتيقن منه. أما في الاصطلاح الصحفي يقصد به عملية توصيل الأحداث والأفكار لعلم الجمهور عن طريق وسائل عديدة سواء كانت مسموعة أو مرئية أو مكتوبة ويشترط في الإعلام المصادقية والوضوح. فالإعلام يتميز بالموضوعية من الناحية النظرية خلافا للإعلان الذي يعتمد على المبالغة والتهويل، فالإعلام لا يكون إلا محايدا، لأنه يهدف إلى ترويج سلع أو خدمات معينة.⁴

الفرع الأول: مضمون الالتزام بالإعلام:

إذ المستهلك وجد نفسه أمام سوق غارقة بمختلف المنتجات. حتى أحيانا يصعب عليه التفريق بين السلع ولا يعلم مصدرها ولا مكان صنعها ولا وسمها مما يجعل حياته مهددة بالخطر الأمني والصحي. وذلك بسبب وقوع ظاهرة الغش التجاري وتطور أساليبه مما يستدعي الأمر وجوب حماية قانونية فعالة وشاملة للمستهلك الجزائري.

إن حماية المستهلك أصبحت أكثر من ضرورة ولا يمكن التصدي للممارسات التي تصيبه إلا بوضع قواعد قانونية أكثر فعالية تحرّم كل الأفعال التي من شأنها المساس بصحة وسلامة المستهلك. فمن خلال هذا المطلب نحاول الوقوف عند المقصود بالمستهلك.

المطلب الأول: المقصود بالمستهلك:

الفرع الأول: المستهلك اصطلاحا: فالمستهلك يعرف اصطلاحا بأنه "الفرد الذي يستهلك السلع سواء كانت مؤقتة أو مستديمة أو ينتفع بالخدمات ويقابل المنتج الذي يقوم بإنتاج السلع

الفرع الثاني: المستهلك تشريعا: المشرع الجزائري لم يعرف المستهلك في القانون رقم 89-02 إلا أنه عرفه من خلال المرسوم التنفيذي رقم 90-39 المتعلق برقابة الجودة وقمع الغش الصادر في 30-01-1990 {المستهلك كل شخص يقتني بئمن أو مجانا منتوجا أو خدمة معدين للاستعمال الوسيط والنهائي لسد حاجاته الشخصية أو حاجات شخص آخر أو حيوان يتكفل به}¹ ونفس التعريف أورده المشرع الجزائري في القانون الجديد الأخير رقم 09-03 المتعلق بحماية المستهلك وقمع الغش الصادر بتاريخ 25 فبراير 2009 على أنه: {المستهلك كل شخص طبيعي أو معنوي يقتني بمقابل أو مجانا سلعة أو خدمة موجهة للاستعمال النهائي من أجل تلبية حاجاته الشخصية أو تلبية حاجات شخص آخر أو حيوان متكفل به}.²

وبإبرادنا لهذا التعريف، يكون المشرع الجزائري قد خالف غالبية التشريعات التي تركت أمر التعريف للفقه والقضاء.

الفرع الثالث: المستهلك فقهيا: يتنازع التعريف الفقهي للمستهلك مفهوم: مفهوم واسع ومفهوم ضيق.

- فأما الواسع : فيقصد به كل من يبرم تصرفا قانونيا من أجل استخدام المال أو الخدمة في أغراضه الشخصية أو في أغراضه المهنية.

المنتج أنه بذل العناية اللازمة في إيصال البيانات والمعلومات للمستهلك غير كافي لأن الأمر يتعلق ببيانات إجبارية منصوص عليها في نصوص تشريعية وتنظيمية ويجب أن يتم تنفيذه طبقا لما جاء في القانون فإذا لم يعلم المستهلك عنها يستنتج القاضي إخلال المحترف عن التزامه بالإعلام ويترتب عن هذا إذا حق المستهلك في التعويض. حيث نجد أن قانون حماية المستهلك لا يشترط إثبات سوء نية المنتج ولا إثبات الإخلال. بالتزام الإعلام وإنما يكفي عدم وجود بيانات إلزامية على المنتج ليستخلص منها القاضي مباشرة أن هناك إخلال بالتزام يفرضه القانون على المحترف"

نطاق الالتزام بالإعلام فهو يشمل كل من السلع والخدمات سواء كانت محل بيع أو محل تنازل مجاني للمستهلك، بحيث يتسع نطاق الالتزام بالإعلام بحسب نوع السلعة المقدمة للمستهلك وحسب طبيعة الخدمة، حيث لا يمكن حصر مجال معين لهذا الالتزام ولا يمكن وضع قالب معين يقدم لكل المستهلكين المهم أن يكون بلغة يفهمها المستهلك وبصورة تجعل هذا الأخير قادرا على التحكم في السلعة أو الخدمة الموجهة له. بما يعود عليه بالفائدة.

المثال: قد يكون المنتج خاليا من أي عيب ولكن استعماله ينطوي عليه عدة مخاطر، فيقع على المحترف التزام بإعلام المستهلك أو كل مستهلك آخر حول طريقة استعماله والاحتياط اللازمة لتفادي إخطاره⁸.

المطلب الثاني: إعلام المستهلك بعناصر وخصائص المنتجات

الفرع الأول: الالتزام بالوسم: نصت المادة 21 من قانون 02/89 على أنه "يجب أن تبرز العناصر المذكورة في الفقرتين الثانية والثالثة من المادة 3 في النوع الذي يحمله المنتج أو الخدمة حسب طبيعته وصفه تحت طائلة الحجز الفوري بقرار من السلطة الإدارية المختصة" وهذا ما نصت عليه المادة 17 من قانون 03/09 "يجب على كل متدخل أن يعلم المستهلك بكل المعلومات المتعلقة بالمنتج الذي يضعه للاستهلاك بواسطة الوسم ووضع العلامات أو بأية وسيلة أخرى مناسبة...".

كما أوجب المشرع أن يكون الوسم وبياناته المختلفة مكتوبا باللغة العربية فضلا عن كونها مرئية وسهلة القراءة ويتعذر محوها، ولم يستبعد إضافة لغة أجنبية أخرى في الوسم لم يحددها طبقا للمادة 18 من قانون 09/03.

وفرض المشرع الوسم لأغراض إعلام المستهلك بشأن بعض المنتجات، وأهمها في القانون

بإعلام المستهلك هو التزام يرمي إلى تنوير المستهلك وتمكينه من الإقدام على اقتناء المنتج أو الخدمة عن إرادة حرة وسليمة، فهو لا يستطيع تحديد أوصاف المنتج ومكوناته إلا بناء على البيانات التي تعطى له. وهو التزام يجد مصدره في القانون مثله مثل الالتزامات الأخرى.

- **الإعلام** هو عبارة عن بيان أو إشارة أو تعليمات يمكن أن تقدم توضيحا حول واقعة أو قضية.

- وعليه مضمون الالتزام بالإعلام تنوير المستهلك حول المنتج وذلك بتقديم مواصفاته من وزن ومكونات وتاريخ الصلاحية وكيفية الحفاظ عليه والسعر إلى غير ذلك. من المعلومات المرتبطة بالبيع وجزءا تخلف ذلك هو دليل على ممارسة أنشطة مخالفة لقواعد شفافية الممارسات التجارية. نجد مصدره في كل من القوانين المدنية وتلك المكرسة لحماية المستهلك وممارسة الأنشطة التجارية.

- يفهم من خلال التعرض لمضمون الالتزام بالإعلام أنه قد يكون هذا الالتزام سابق عن إبرام العقد وهو ما يطلق عليه "الالتزام قبل التعاقد بالإعلام" كما يمكن أن يكون هذا الالتزام أثناء إبرام العقد.

نص المشرع الجزائري بضرورة التزام المحترف بإعلام المستهلك بالمبيع طبقا للنص المادة 352 فقرة رقم 01 من التقنين المدني الجزائري⁵ ضمن أحكام عقد البيع حيث تنص على أنه "يجب أن يكون المشتري عالما بالمبيع علما كافيا، ويعتبر العلم كافيا إذا اشتمل العقد على بيان المبيع وأوصافه الأساسية بحيث يمكن التعرف عليه" فعلى البائع أن يصرح بحقيقة المبيع ويصفه وصفا نافيا للجهالة.

ونجده كذلك في المادة 86 من القانون المدني. التي اعتبرت السكوت العمدي تدليسا.

هذا بالنسبة للقانون المدني أما بالنسبة لقانون حماية المستهلك وقمع الغش فتتص المادة 17 من قانون حماية المستهلك وقمع الغش على أنه: "يجب على كل متدخل أن يعلم المستهلك بكل المعلومات المتعلقة بالمنتج الذي يضعه للاستهلاك بواسطة الوسم أو وضع العلامات أو بأية وسيلة أخرى مناسبة⁶، إذ شدد المشرع على المحترف بأن يقوم بإعلام المستهلك بكافة المعلومات المتعلقة بالمنتج سواء تعلق بكيفية الإستخدامات أو مواصفاتها القانونية أو طبيعتها أو منشأها أو مميزاتها.

الفرع الثاني: طبيعة ونطاق الالتزام بالإعلام: يعتبر العديد من الفقهاء أن الالتزام بالإعلام وفقا لقانون الاستهلاك هو الإلتزام بتحقيق نتيجة⁷، فعندما يثبت

الفرع الثاني: التزام المحترف بالامتناع عن إيقاع المستهلك في الغلط بشأن عناصر وخصائص المنتج: إضافة إلى التزام المحترف بالوسم بوصفه عملا إيجابيا فإن هناك التزاما سلبيا مضمونه الامتناع أن استعمال إي إشارة أو أي علامة أو تسمية خيالية أو أية وسيلة للتقويم أو الوسم، يكون من شأنها أن تخدع المستهلك وتوقعه في الغلط فيما يخص طبيعة المنتج وتركيبه ومقدار عناصره وطريقة استعماله وتاريخ صناعته والتاريخ الأقصى لاستهلاكه ومصدره وكميته. ويعتبر هذا الالتزام السلبى مكملًا للالتزام الإيجابي الأصلي وذلك في حالة وقوع المخالفة بالامتناع.

يلزم على البائع عملا بالأمر 95-06 المؤرخ في 25/01/1995 والمتعلق بالمنافسة بإعلام المستهلك عن سعر المنتجات والخدمات، وهذا الالتزام يهدف إلى وضع المستهلك في مأمن يجنبه كل مفاجأة فيما يخص المبلغ المدفوع لاقتناء المنتج أو الخدمة المقترحة، والإعلام بالأسعار يتم من خلال وضع البيانات والعلامات أو كل طريقة ملائمة أخرى بشأن تعريف المستهلك بالسعر وأن هذه الأسعار يجب أن تكون سهلة القراءة والطريقة المستعملة لا تؤدي إلى لبس في ذهن المستهلك... إلخ.

وأن هذا المبدأ يلزم كل تاجر بأن يشهر أسعار المنتجات المقدمة للزبائن، ويحدد القانون 89-02 الملغى المتضمن القواعد العامة، لحماية المستهلك والمفاهيم الأساسية والأطراف المعنية لحماية المستهلك ويضع قاعدة عامة على عاتق المنتج الذي يخضع للالتزام العام بالضمان وأمن المستهلك فضلا على أنه يؤكد حق الضمان القانوني للمقتني وحق الإعلام بالأسعار والمنتج الذي يكون مطابقا للتقييس والمواصفات.

المطلب الثالث: إعلام المستهلك بعناصر وخصائص الخدمات:

لما كان مركز الشخص مؤدي الخدمة محل اعتبار وثقة من قبل المستهلك . تدخل المشرع باتخاذ إجراءات صارمة لضمان جودة أداء الخدمات منها تنظيمه لشروط الالتحاق بالمهن التي تتولى تقديم الخدمات كتطلبه للاعتبار الأخلاقي والتأهيل المهني والضمان المالي، كما يحرص أيضا على تنظيم شروط ممارستها كاستلزامه توفير أهلية معينة ووجوب تسليم وثائق تجارية أو محاسبية وكيفيات خاصة في تلقي الأموال وكتطلبه حيازة بطاقة أو شهادة مهنية يجب عليه أن يشير إلى أرقامها في وثاقه التجارية عند الاقتضاء وأحيانا فإن صفة مؤدي الخدمة تثبت بعلامة مميزة كما هو الحال بالنسبة

الجزائري: وسم السلع الغذائية حيث نصت المادة 6 من المرسوم رقم 367/90 بأنه عبارة عن "البيانات أو الإرشادات أو علامات المصنع أو التجارة أو الصور أو الرموز المرتبطة بساعة غذائية معينة، والموضوعة على كل تعبئة أو لافتة أو بطاقة أو ختم أو طوق، تكون ملازمة لهذه السلعة الغذائية أو متعلقة بها"

ونص المرسوم التنفيذي السابق في المادة 6 منه على البيانات الإلزامية التي يجب أن يشمل عليها وسم السلع الغذائية، فضلا عن التسمية الخاصة بالبيع وهي: - قائمة التوابل عند الاقتضاء، الكمية الصافية وتاريخ الصنع بعبارة "ص صنع في..." والتاريخ الأقصى لصلاحية استهلاكه بعبارة "يستهلك قبل..." إضافة إلى الشروط الخاصة بالحفظ كحفظها بمكان بارد أو جاف أو حار.

اسم الشركة أو العلامة المسجلة وعنوان الشخص المسؤول عن المنتج من معرفة مصدر السلعة، كما تسهل عليه في حالة الإصابة بضرر مقاضاة الشخص المسؤول⁹.

يلاحظ أن المشرع الجزائري من خلال المادتين السالف ذكرهما أنه أدرج ضمن تعريف الوسم العلامة التجارية بالرغم من أنها تخضع لنظام قانوني خاص بها، لكنها تلعب دورا هاما وفعالا في إعلام المستهلك عن المنتج وهي غالبا ما تؤدي إلى تمييز المنتجات الصناعية أو الزراعية عن غيرها خاصة تلك المستوردة، وهكذا قد أدرجها المشرع إلى جانب البيانات والكتابات التي يمكن أن يشمل عليها الوسم.

للوسم دور فعال في إعلام المستهلك عن المنتج وذلك بمثابة دعاية تساعد على التفرقة بين هذه السلع المطروحة في السوق، التي تعددت وتنوعت في وقتنا الحاضر وكذا تشابهها إلى حد كبير في مكوناتها ومواصفاتها وأشكالها الخارجية بجعل المستهلك في مركز يصعب عليه التمييز بين سلعة وأخرى.

يساهم الوسم في إطار إعلام المستهلك في إظهار العلامة التجارية والتعريف بها حيث يعمل على إيصال صورة حقيقة للسلعة إلى ذهن المستهلك حتى يتسنى له معرفة السلعة المراد اقتنائها.

تعرف المادة 02 من الأمر رقم 03-06 المؤرخ في 19/07/2003 المتعلق بالعلامات على أنها "كل الرموز القابلة للتمثيل الخطي، لاسيما الكلمات بما فيها أسماء الأشخاص والأحرف والأرقام، والرسومات أو الصور والأشكال المميزة للسلع، أو توظيفها والألوان بمفردها أو مركبة، التي تستعمل كلها لتمييز سلع أو خدمات شخص طبيعي أو معنوي عن سلع وخدمات غير"¹⁰.

للحرفيين والصيادلة والمحامين.

المبحث الثالث: دور جمعية حماية المستهلك:

نصت المادة 21 من قانون 03/09: "جمعية حماية المستهلكين هي كل جمعية منشأة طبقاً للقانون، تهدف إلى ضمان حماية المستهلك من خلال إعلامه وتحسيسه وتوجيهه وتمثيله".

كما نصت المادة 23 من ذات القانون: عندما يتعرض مستهلك أو عدة مستهلكين لأضرار فردية تسبب فيها نفس المتدخل وذات أصل مشترك، يمكن جمعيات حماية المستهلكين أن تتأسس كطرف مدني.

كما لقد اعترف الدستور 1196 على غرار الدساتير السابقة بحق الدفاع الجماعي عن الحقوق الأساسية للإنسان، كما اعترف بحق إنشاء الجمعيات. وقد جعل من مهام الدولة تشجيع ازدهار الحركة الجمعوية، وكفل حرمة حرية الرأي وحرية التعبير، وكذا تمتعها بالشخصية والأهلية المدنية بمجرد تأسيسها عملاً بأحكام المادة 33 من القانون ذاته. وقد وفر المشرع بإصداره لقانون 31/90 المتعلق بالجمعيات الإطار القانوني لإنشاء جمعيات المستهلكين والتي لها الحق في إصدار وتوزيع نشرات ومجلات ووثائق إعلامية يكون لها علاقة بهدفها.

وصنف قانون الإعلام النشريات الدورية إلى صنفين منها: الصحف الإخبارية العامة والنشريات النورية المتخصصة، ويمكن إدارج النشريات المتخصصة التي قد تصدرها جمعيات المستهلكين ضمن هذه الأخيرة. وقد علق المشرع إصدار نشرته دورية بوجوب تسجيلها ورقابة صحتها، وذلك بتقديم تصريح مسبق في أجل 30 يوماً من صدور العدد الأول يوقعه مدير النشر، ويسجل التصريح لدى وكيل الجمهورية المختص إقليمياً بمكان صدور النشرة، تحت طائلة عقوبة الغرامة، والوقف النهائي أو المؤقت للمجلة أو النشرة. وتستفيد الجمعية من الإعانات أو المساعدات المادية إذا رأت السلطة العمومية في نشاطها فائدة أو منفعة عامة.

المطلب الأول: التدخل الوقائي لحماية المستهلك:

يقصد بالتدخل الوقائي لحماية المستهلك، ذلك الإجراء الذي تباشره جمعيات حماية المستهلك قبل المساس بصحة وأمن المستهلك وسلامته من الأضرار التي قد تلحق به من طرف المهنيين وغيره من المتدخلين الاقتصاديين الذين يسعون إلى تحقيق أكبر ربح ممكن ولو كان ذلك على حساب أمن وصحة المستهلك وخاصة مع غياب الوعي الاستهلاكي بنسبة كبيرة بين جمهور المستهلكين

ومن أجل ضرورة الارتقاء بالمستوى الاستهلاكي بما يتناسب مع مقتضيات الحياة، الأمر الذي يتطلب متابعة مستمرة من طرف هذه الجمعيات قصد تحسيس وإعلام ومراقبة الجودة والأسعار¹².

المطلب الثاني: إعلام وتكوين المستهلكين:

من بين الأدوار المنوطة على جمعية حماية المستهلك هو تعليم المستهلكين والاستهلاك الرشيد وتنبيههم إلى قواعد النظافة وتعريفهم بحقوقهم والدفاع عنهم والتصرف بأكثر يقظة، وكلما كانت قريبة من الميدان ومن السكان المحليين، كلما كانت فعالة وصوتها مسموع يمكن للجمعيات إقامة معارض وقوافل وإقامة جناح في السوق والإدلاء بحوارات صحفية والمشاركة في برامج إذاعية أو المقالات في الجرائد... الخ¹³.

تسعى جمعية حماية المستهلكين إلى تحسيس المواطنين عامة والمستهلكين خاصة، ومن أجل ذلك تلجأ إلى استعمال وسائل الإعلام المختلفة مثل التلفزيون، الإذاعة والإشهار وتنظيم المحاضرات وتعليق الملصقات والمطبوعات والوثائق حتى تقرب المعلومة للمستهلك أضف إلى هذا إيجاد قنوات للحوار من شأنها الإلمام بانشغالاته، كما أن أسلوب التحسيس لا يقتصر فقط على المستهلك فحسب وإنما يجب أن يصل لأصحاب القرار ومثال ذلك اختار مجلس المنافسة حيث نصت المادة 35 فقرة 02 من القانون رقم 12/08¹⁴ المتعلق بالمنافسة "أنه يمكن أن تستشير أيضاً في المواضيع نفسها الجماعات المحلية والهيئات الاقتصادية والمالية والمؤسسات والجمعيات المهنية والنقابية وكذا جمعيات المستهلكين".

المطلب الثالث: دور جمعية حماية المستهلك في مراقبة الأسعار والجودة:

تؤدي هذه الجمعيات دوراً هاماً في متابعة الأسواق وذلك من أجل مراقبة الأسعار وكذا مطابقة السلع بالجودة، ويشبه دور الجمعية هنا ذلك الدور الذي تقوم به مصالح مراقبة الجودة وقمع الغش والأسعار إذ اعترف لها المشرع بالمنفعة العامة أو العمومية وفقاً للشروط والكيفيات التنظيمية المعمول بها قانوناً¹⁵

وعليه فإن هذا الدور الذي تؤديه جمعيات حماية المستهلك أصبح أكثر ضرورة بسبب انفتاح أسواق السلع والخدمات على المستهلكين سواء من قبل منتجين وطينيين أو أجانب فتقوم هذه الجمعيات بمساعدة الأجهزة الرسمية التابعة للدولة وبتقاسم المسؤولية في مراقبة الأسواق وتطهيرها وضبطها كتسقيف الأسعار وسحب المنتوجات التي لا تتطابق والمواصفات والمقاييس المقررة قانوناً إنصافاً

23 منه وتطالب بحقوق لصالح المستهلكين ولكن بشروط في ذلك:

1- أن تكون هناك مخالفة للقانون الجنائي حتى يتسنى لهذه الجمعيات الادعاء مدنيا أمام القضاء الجزائي

2- لا بد للمدعي المدني أن يدفع مبلغا من المال يحدده عادة قاضي التحقيق لدى كتابة الضبط للمحكمة ما لم يحصل على مساعدة قضائية المادة 75 من الأمر 155-66 معدل ومتمم.

3- أن يختار مواطنا بدائرة اختصاص المحكمة التابع لها قاضي التحقيق طبقا لنص المادة 76 من قانون الإجراءات الجزائية، وهو ما أكدته المحكمة العليا في قرار صادر عنها تقضي فيه بوجوب أن يختار المدعي المدني مواطنا بدائرة اختصاص المحكمة التابع لها قاضي التحقيق المرفوع أمامه الادعاء.

4- لا بد أن يكون قاضي التحقيق المرفوع أمامه الادعاء مختصا إقليميا، وإلا أن يأمر بإحالة المدعي المدني إلى الجهة القضائية المختصة.

ب- الدفاع عن المصلحة الفردية لمجموعة من المستهلكين:¹⁷

استنادا لنص المادة 23 السالفة الذكر، فإنه يمكن لجمعية حماية المستهلك رفع دعاوى للدفاع عن المصلحة الفردية لمجموعة من المستهلكين، وذلك متى توفرت الشروط التالية:

- لا بد أن يكون المستهلكون المتضررون أشخاصا طبيعيا أو معنوية لحقها ضرر سببه نفس المحترف مما يفترض معرفة هذا المحترف مسبقا.

- أن يكون الضرر اللاحق بهم هو ضرر شخصي ويمكن أن نعطي مثلا في هذا الصدد ما يقوم به بعض المحترفين في مجال التأمين إذ تقوم بإضافة بنودا تعسفية في عقد التأمين، الأمر الذي يجعل المستهلك غير قادر على تنفيذه.

- إلى جانب هذه الشروط هناك من يشترط تقديم وكالة، أي أن يقدم اثنان على الأقل من المستهلكين المتضررين وكالة لجمعية حماية المستهلك لتمثيلهم أمام الجهات القضائية.

الفرع الثالث: الدعوى إلى المقاطعة أو إلى الإشهار المضاد:¹⁸ قصدا لتحقيق الرغبات المشروعة للمستهلك

وكذا حقوقه المنصوص عليها فإنه يمكن لجمعيات حماية المستهلك من اللجوء إلى استخدام وسائل أخرى غالبا ما تكون إلى جانب الدعوى القضائية التي تتقدم بها أو ترسلها، حيث نجد بعض الجمعيات في دول أخرى تلجأ إلى هذه الوسائل بعد فشل الدعوى التي ترفعها.

لحماية المستهلك ماديا وصحيا وأمنا.

المطلب الرابع: التدخل الدفاعي لحماية المستهلك:

وهو الإجراء الذي تباشره هذه الجمعيات أمام الجهات القضائية في حالة الإضرار بجماعة المستهلكين أو القيام بأعمال أكثر صرامة في مواجهة المحترفين وعليه:

الفرع الأول: التمثيل أمام الهيئات الاستشارية:

للجمعيات دورا أساسيا في تمثيل المستهلكين أمام السلطات العمومية هي (صوت) المستهلكين الذين لا يملكون الوسائل للتعبير بصفة مباشرة فهي تمثلهم أمام هذه الهيئة التي تملك فيها دورا فعّالا في الدفاع عن مصالح المستهلكين إلى جانب ممثلين المهنيين وممثلين السلطات العمومية.

وهذه الهيئة تدعى بالمجلس الوطني لحماية المستهلكين في الإعلام وهي تضم ممثلين عن جمعيات المحترفين وجمعيات المستهلكين معا وممثلين عن الوزارات، وعن المركز الجزائري لمراقبة النوعية والرزم والمعهد الجزائري لضبط المقاييس والملكية الصناعية، والغرفة الوطنية للتجارة وخبراء مؤهلين. غير أن مرسوم التنفيذ رقم 272/92 الذي أنشئ بموجبه هذا المجلس، لم يسعفه إلا بدور استشاري يقف عند حدود الإدلاء بالأراء. فأعطى له على وجه الخصوص الإدلاء برأيه فيما يخص الأعمال المتعلقة بإعلام المستهلكين وتوعيتهم وحمائهم كما نصت المادة 31 "يقوم الأعوان المذكورون في المادة 25 أعلاه في إطار مهامهم الرقابية وطبقا لأحكام هذا القانون بتحرير محاضر تدون فيها تواريخ وأماكن الرقابة المنجزة وتبين فيها الوقائع المعايينة والمخالفات المسجلة والعقوبات المتعلقة بها."

الفرع الثاني: التمثيل أمام المحاكم: يمكن لجمعية

حماية المستهلك أن تتأسس كطرف مدني باسم مستهلك أو عدة مستهلكين ألحقت بهم أضرار فردية تسبب فيها نفس المتدخل وذات أصل مشترك وعليه فإذا كان اعتراف قانون حماية المستهلك وقمع الغش بالصفة التمثيلية للدفاع عن المصالح الجماعية للمستهلكين قصد إصلاح الضرر الذي قد يصيبهم فإنه اعتراف صريح للقانون للتدخل في مختلف دعاوى من قبل هذه الجمعيات سواء التأسس كطرف مدني أمام القضاء الجزائي أو رفع دعوى مدنية أصلية أمام القضاء المدني وبالتالي فتختلف الدعاوى التي ترفعها هذه الجمعيات ونذكر منها:

أ- الدفاع عن المصالح المشتركة

للمستهلك¹⁶: يمكن أن تتأسس جمعيات حماية المستهلك كطرف مدني طبقا لقانون 03-09 المادة

البيئة، كما تسعى إلى الحد من التلوث الصناعي من خلال إلزام المنتج بتطبيق نظام الصيانة وتحديث المعدات والآلات واستخدام التكنولوجيا النظيفة في الصناعة لمنع التلوث داخل المنشآت الصناعية ويجب تكريس هذا كله في إطار قواعد قانونية وقائية وتنظيمية وجزائية رادعة في نفس الوقت²¹.

الخاتمة:

بناء على ما تقدم بيانه في مفهوم حق المستهلك في الإعلام ومدى إلزامية المحترف بالقيام به في هذا الموضوع وكذا دور جمعية حماية المستهلك يمكن القول أن المشرع الجزائري حرصا منه في المحافظة على حق المستهلك في الإعلام نجد أنه لم يكتفي بوضع النصوص التي تقرر حق المستهلك في الإعلام فقط وإنما ذهب إلى أبعد من ذلك إذ بالرجوع إلى الفصل الثاني المتعلق بالمخالفات والعقوبات من قانون 03/09 حيث نجد أنه جرم كل سلوك غير مشروع من شأنه أن يلحق ضرر على المستهلك في هذا الموضوع.

أما بالنسبة لجمعية حماية المستهلك ودورها في إعلام المستهلك يمكن أن نسجل ملاحظة في هذا الصدد فالرغم من تشجيع المشرع الجزائري لإنشاء أمثال هذه الهيئات ومنحه لها صلاحيات واسعة في الموضوع إلا أننا بالرجوع إلى الواقع نجد القليل منها من تقوم بدور ميداني وتساهم في توعية المستهلك والدفاع عن مصالحه المادية والمعنوية، والقليل منها كذلك من تعي دورها الحقيقي، كما أن العديد من هذه الجمعيات مازالت لم تستقطب ثلة كبيرة من المجتمع، وتحظى بثقته وتمثله. وعليه، فمزال ينتظرنا الكثير من العمل (سلطات عمومية وجمعيات) لتحقيق ما يصبوا إليه المستهلك، ولابد من عصف ذهني لتشخيص الواقع المعيش بدقة، والتخطيط المحكم للمستقبل ووضع الآليات والوسائل المناسبة في متناول الذين يحملون هذا العبء الثقيل لبلوغ الأهداف المسطرة.

يتمثل أسلوب المقاطعة في التعلية التي توجهها جمعية حماية المستهلك لكافة المستهلكين لأجل حثهم على الامتناع عن اقتناء منتجات أو خدمات تحمل علامة مقلدة. ويبقى نجاح الدعوى إلى المقاطعة مرهون بمدى استجابة المستهلك لها¹⁹.

كما يمكن لجمعيات حماية المستهلك أن تباشر بإجراءات أخرى إلى تلك المذكورة أعلاه، وذلك بأن تتخذ أسلوبا آخرًا للتنديد بالممارسات غير النزيهة التي يقوم بها المحترفون على حساب أمن وسلامة المستهلك، وبالتالي لمنع الإضرار بالمستهلك، فتقوم بمواجهة فئة المحترفين بإشهار مضاد ضد كل سلعة أو خدمة موجهة للمستهلك. إذا كان الهدف من الإشهار المضاد هو وقائي لأنه يعمل على كشف حقيقة السلعة أو الخدمة، فإنه من جهة أخرى يعمل على دعوة المستهلكين إلى عدم اقتناء أو استعمال كل ما كان محل هذه الدعاية المضادة، والإشهار المضاد الذي تمارسه أو تقوم به جمعيات حماية المستهلك لا ينصب على المحترف، إنما على السلع والخدمات التي هي موضوعة للتداول²⁰، كما يمكن التدخل بأسلوب إشهاري مضاد متى ثبت أن هناك تفریط في ارتفاع الأسعار بسبب المضاربة والاحتكار.

هذا فيما يخص مس صحة وسلامة المستهلك أثناء اقتنائه السلع والخدمات، إلا أنه وتمشيا مع النمو الاقتصادي الذي يشهده العالم حاليا، لم يمنع جمعيات حماية المستهلك في اتخاذ أسلوب الإشهار المضاد كوسيلة للتعبير عن رفضها كل ما هو من شأنه المساس بأمن وسلامة وبيئة المستهلك ومحيطه الذي يعيش فيه بالتنسيق مع باقي الجمعيات الأخرى والأجهزة العمومية الرسمية الأخرى المختصة في هذا الشأن.

فالتلوث البيئي المتزايد نتيجة الاستخدام الواسع لمصادر الطاقة وكذا المواد الكيماوية انعكس سلبا على البيئة والإنسان نتيجة زيادة كميات النفايات الصناعية.

وعليه تقوم جمعية حماية المستهلك بالتعاون والتنسيق مع جمعيات حماية البيئة برفع درجة الوعي لدى الفرد بكيفية الاستغلال الرشيد للبيئة.

والمساهمة بفعالية في مواجهة وحل مشكلات

الهوامش:

- 1- يوسف عشيرة خديجة (ضمان خدمة ما بعد البيع وقمع الغش في قانون المستهلك الجزائري) مذكرة تخرج 2010/2011 صفحة 09
- 2- قانون رقم 09-03 المتعلق بحماية المستهلك وقمع الغش (ج ر) المادة 03 الفقرة 02 منه
- 3- يوسف عشيرة خديجة -المرجع نفسه -صفحة 10-09.
- 4 -عمر محمد الباقي - الحماية الغذائية للمستهلك - دراسة مقارنة بين الشريعة والقانون - منشأة المعارف - القاهرة 2004 صفحة 95.
- 5- زوبير أرزقي : حماية المستهلك في ظل المنافسة الحرة مذكرة تخرج في القانون فرع المسؤولية المهنية سنة، 2011، ص 117
- 6 - ج. ر عدد 15، 08 مارس 2009 ص 15.
- 7- ماني عبد الحق - مذكرة نيل شهادة ماجستير في العلوم القانونية والإدارية تخصص قانون الأعمال - جامعة محمد خيضر بسكرة - 2008 - 2009 - صفحة 83.
- 8- زوبير أرزقي: حماية المستهلك في ظل المنافسة الحرة مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في القانون جامعة مولود معمري، سنة 2011، ص 122
- 9 - جامعة عبد الرحمن ميرة، ملتقى وطني حول المنافسة وحماية المستهلك، 18 نوفمبر 2009، صفحة 28.
- 10- موسى زهية، قانون الاستهلاك كلية الحقوق والعلوم الإدارية جامعة منتوري قسنطينة، الإرسال الثاني 2005/2006- صفحة 12
- 11- المعدل والمتمم بالأمر 2008 المؤرخ في 17 ذو القعدة 1429 الموافق لـ 15 نوفمبر 2008
- 12- وزارة التجارة - دليل المستهلك الجزائري سنة 2011-صفحة 24
- 13- زوبير أرزقي، المرجع نفسه، صفحة 206
- 14- زوبير أرزقي، المرجع نفسه، صفحة 207
- 15- المادة 21 فقرة 2 من القانون رقم 03/09 المتعلق بحماية المستهلك وقمع الغش
- 16- زوبير أرزقي -المرجع نفسه -صفحة 213، 214.
- 17- زوبير أرزقي -المرجع نفسه - صفحة 214، 215.
- 18- زوبير أرزقي -المرجع نفسه -صفحة 216.
- 19- زوبير أرزقي -المرجع نفسه -صفحة 217.
- 20- زوبير أرزقي -المرجع نفسه -صفحة 220.
- 21- زوبير أرزقي -المرجع نفسه -صفحة 223.

دور المصنفين الإنجليز في التوثيق لآثار المغرب القديم (ليبيا)

تكيالين محمد

قسم التاريخ جامعة غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 الجزائر

و الأفراد الذين انكبوا على العمل كانوا مدركين جدا لما تمثله عمليات التنقيب تلك التي لم يسبقهم إليها أحد من قبل، وما يمكنهم الوصول إليه من كنوز ثمينة قد تقع بين أيديهم وليس بالضرورة أن تكون تلك الكنوز مادية أي من النفائس التي ما تزال تحتفظ بها رمال المدن الليبية، ولكن هناك كنوز أثنى وأعلى، وقد لا تقدر بثمن، إنها الوثائق التاريخية الموجهة للكتابة والتوثيق والتي تعود لمراحل مختلف من تاريخ ليبيا القديم والحديث منه على السواء . ولأن تلك الجهود الكبيرة لتوثيق تلك الفترات التاريخية ، كانت تتطلب تقنيات وكفاءات عالية تتولاها مؤسسات أكاديمية متخصصة في علم الآثار، جاءت فكرة إنشاء مؤسسة علمية خاصة توكل إليها مهمة دراسة التاريخ الليبي، التي تبلورت إلى حقيقة في الستينيات من القرن الماضي، وتمخض عنها تأسيس أحد أهم الجمعيات العلمية للدراسات التاريخية، للقيام بمهمة التوثيق لتاريخ ليبيا، تحت رعاية السلطات البريطانية.

مكن الانتصار في معركة العلمين من التوقيع على اتفاقية للسلام بين المتناحرين ، وتم تنصيب إدارة عسكرية في ليبيا باشرت نشاطها بمثابة حكومة انتقالية، وكان من مسؤولياتها المفترضة العناية بالآثار التاريخية القديمة لليبيين، لذلك لم يتأخر الإنجليز في الشروع في تنفيذ مشاريعهم ، فكانت أولى خططهم ضرورة الإسراع إلى طرد الموظفين الإيطاليين في كل من كورينايا و تريبوليتانيا للتخلص من منافستهم القوية لهم، كما اقتصرت خططهم على تعيين رجال تتوفر لديهم القدرات على القيام بمهمة ترسيخ الوجود الإنجليزي في مجال التنقيب الأثري في ليبيا لخلافة خصومهم الإيطاليين. فتم في البداية إختيار الدكتور باركينز Perkins للقيام بتلك الوظيفة، و لم يكن أكثر من عنصر مجند ضمن قوات الجيش الإنجليزي الثامن، بصفته مستشار للإدارة البريطانية في ميدان الآثار، و كانت أول مبادرة يقوم بها باركينز في صيف سنة 1943 هي صياغته لتقرير تضمن عدة توصيات

"جمعية الدراسات الليبية نموذجاً " Society of Libyan Studies"

يفتقر الكثير من الباحثين بمعاهد الدراسات التاريخية في بلادنا لفكرة وافية حول دور المدرسة الأنجلوسكسونية في التوثيق لتاريخ المغرب، خاصة القديم منه، وذلك بحكم التبعية الثقافية واللغوية الموروثة عن الفترة الإستعمارية، الأمر الذي ترتب عنه عزوف كبير في محاولات الإستفادة من الكتابات الإنجليزية المتنوعة لكبار المؤلفين ونتائج البحوث التنقيبية وغيرها من الإصدارات العلمية، على الرغم من توفرها بشكل لا يستهان به في المكتبات العامة والإلكترونية، ومن دون شك أن السبب في ذلك يرجع إلى إنعدام القدرة في التمكن من استعمال اللغة الإنجليزية لأغراض بحثية الأمر الذي يفوت عليهم الكثير من الفوائد العلمية. ومهما يكن من امر باحثينا ، لابد لنا ان نعلم أن اهتمامات الإنجليز بتدوين تاريخ المغرب القديم، حديثة العهد إلى حد ما، ولكنها بالمقابل قطعت أشواطاً بعيدة جداً، واصبح سجلها غني جداً بإنجازاته الفكرية والعلمية المتنوعة.

الحرب العالمية الثانية تنافس عسكري وثقافي بين

المتصارعين:

مثلت الحرب العالمية الثانية فرصة سانحة للدول المنتصرة في الإستثمار بحق النشاط الثقافي بالمناطق التي وقعت تحت سيطرتها حيث سارعت إلى تمكين عناصر جيشها من ضباط وباحثين مختصين على الشروع في دراسة تراث الشعوب المحتلة، ومن جهتهم لم يفوت هؤلاء المختصون، الفرص السانحة التي توفرت لهم، ليلباشروا العمل والتنقيب عبر مناطق ليبيا الواسعة التي تناثرت بها البقايا الأثرية المختلفة، البونية واليونانية و الرومانية على السواء، وقد مكنتهم مثابرتهم القوية إلى تحقيق إنجازات علمية كبيرة سمحت بتدوين صفحات جديدة من تاريخ ليبيا القديم إضافة إلى إعادة معالم تاريخية كثيرة إلى الوجود كانت مطمورة تحت الرمال لقرون طويلة، فأغلب الجمعيات

بريطانية مع موظفين مدربين على السفر في الصحاري إضافة إلى التسهيلات في النقل، والتخزين وإقامة المراكز جعل من الممكن تنفيذ أعمال ميدانية للتنقيب في كل المناطق الشبه صحراوية.⁵

حتى تاريخ وصول قودشيلد إلى كورينا لم تتم أية حملات تنقيبية عملية في كورينا عدا حملتين لكل من ن. جون N Johns في بنغازي وألان روو Alain Rowe في مدافن كورينا. لكن بمجرد إستلامه زمام الأمور في مديرية الآثار بالمنطقة بدأت سلسلة من العمليات التنقيبية حققت مقاييس هامة في العمل بالمدن الخمسة ومراكز أخرى عديدة، في الوقت نفسه وجهت الدعوة للكثير من العلماء والمنقبين من مختلف مناطق العالم، من أمريكان وإيطاليين، وفرنسيين، للمجيء إلى ليبيا، للعمل سويا مع الإنجليز، في مناطق مختلفة بالتنسيق مع إدارة الآثار الليبية، كما أعطيت الفرصة لموظفي المصالح الأثرية الليبية للانضمام والعمل المشترك مع البعثات الأجنبية بغرض إكتساب الخبرات و الاستفادة من تقنياتهم بالإضافة إلى تلقي التدريب الأكاديمي في تلك العمليات.

أعطى قودشيلد دفعة قوية للباحثين وعليه تناوب على زيارة المنطقة علماء و أكاديميون كثيرون ذا مستوى علمي عال في مجال علم الآثار بغرض التنقيب، أمثال أولووين بروقان Olowen Brogan، أرنستو فيرقارا كافاريلي Ernesto Fergara Cavarelli، هذا الأخير الذي عين مراقبا لمصلحة الآثار في تريبوليتانيا، سنة 1952 م، ثم دافيد سميث David Smith الذي تولى رفقة العنصرين السابقين مهمة إحصاء وتسجيل المقابر والبقايا العمرانية مع الإهتمام بجمع البقايا الفخارية بالأخص من طرف أ. بروقان O. Brogan من مختلف مناطق البلاد كغيرزا Ghirza مثلا... كما زارها قافان سيميسون Gavin sympson في 1960م، وفي 1964 كان دور نورمان هاموند Norman Hammond و ب. بالوود P. Bellwood. ولم تكن الجهود مقتصرة على علماء الآثار والتاريخ بل أنه شمل مجموعة كبيرة من المتخصصين في مختلف العلوم التي لها علاقة بما قبل التاريخ وبالتاريخ والجغرافيا، هذا الميدان الأخير كان من إهتمام الإيطالي كلوديو فيتا فينزي Claudio vita Vinzi، صاحب أطروحة حول السدود المائية الرومانية.

لم يقتصر إهتمام الإنجليز منذ الحرب العالمية الأولى بمنطقة تريبوليتانيا فقط ولكنها وجهت جهودا أخرى نحو دراسة منطقة الشرقية المعروفة بتريبوليتانيا بالرغم من أن الإيطاليين كانوا قد أتوا على الكثير من الدراسات الهامة المرتبطة بتاريخ المنطقة. فكان أول عمل قامت به المصالح العسكرية في كورينا هو تمكين ك ب م ماك

ترمي في أغلبها إلى الدعوة الملحة للإسراع بضممان سلامة آثار المنطقة التي كلف بالنشاط فيها، وليس من شك في أنه كان من أهداف هذا الأخير إضفاء الشرعية على نشاط بلاده بها وتبرير إحتكار التنقيب بها لما لذلك العمل من فوائد عظيمة يتحصلون عليها جراء ما يمكن أن تجود بها نتائج الأبحاث الأثرية من كنوز الرومان المطمورة، التي لا قد لا يقدر بعضها بثمن من دون شك، إضافة إلى كونها ستثري بشكل كبير واجهات عرض متاحفهم ورغبات باحثيهم من ناحية أخرى.¹

لم تتم مهمة الدكتور بريكينز طويلا ففي شهر أوت من سنة 1944 تم تعيين الماجور C.G.C hyslop قائدا لكل من منطقتي كورينا وتريبوليتانيا، تحت الإشراف البريطاني، وقد كان هذا الأخير مهتما جدا بميدان البحث الأثري، غير أن طريقته في العمل في المناطق الغربية اختلفت عن نظيرتها في الناحية الشرقية.

ففي الوقت الذي رضي فيه القائد البريطاني في تريبوليتانيا على العمل في ترابط مع الإيطاليين²، كانت توجهاته في كورينا غير ذلك، إذ اعتمد كلية على مصادره الخاصة، مركزا أهدافه وبرامجه على عمليات الترميم والتصليح وإعادة التنظيم وكانت نتيجة عمله ذلك، أنه استطاع أن ينجح في وضع دليل بالانجليزية حول كورينا³.

مع نهاية الحرب العالمية الثانية عين الحكام الجدد لليبيا شخصيات علمية مختلفة لمواصلة السياسة البريطانية التي تم تسطيرها بغرض تحقيق أهداف إستراتيجية وسياسية وثقافية بعيدة المدى، وقد سمح ذلك بتوافد متخصصين ذات مكانة علمية عالية إلى البلاد. في أواخر سنة 1945 خلف الماجور L. Hayes نظيره CGC Hyslop ولم يكن أقل حماسا وإهتماما و أصدر بدوره كتابا عن تريبوليتانيا أصبح فيما بعد أهم دليل للآثار الكلاسيكية الليبية بعد إصدارين ومراجعات له من طرف دائرة الآثار الليبية.

قودشيلد Goodchild راند المدرسة البريطانية في ليبيا :

في سبتمبر 1946 خلف الأثري قودشيلد R G Goodchild الماجور هايز L. L. Hayes وفي 1948 جاء دور مورغان Morgane، ثم جونز Jones في 1950. غير أن تغير الشخصيات البريطانية لم يغير في التصور البريطاني الذي بقي قائما وتمسكا بمسؤوليته الكبيرة في تمكين إدارة الآثار الليبية في الاستمرار في الحفاظ على المواقع الأثرية الساحلية المهمة التي تم تنقيبها من طرف البعثات الإيطالية بين سنوات 1912-1948، بل ان الجهود الإيطالية السابقة إمتدت إلى أبعد من الساحل، وأهتمت بالإرث الحضاري الليبي لما قبل التاريخ المتمثل في الرسوم الصخرية المنتشرة في مناطق عديدة من الصحراء.⁴ لكن وجود قوات

بقيادة الدكتور باركينز و كانيون Kenyon و Perkins غير أن أهم إسهام في تاريخ تريبوليتانيا من طرف الانجليز تم في سنة 1952 بإصدارهم لدليل الكتابات الرومانية التريبوليتانية IRT الذي ساهم في انجازه علماء انجليز بالإشتراك مع مجموعة من ألمع الأسماء في علم الآثار الإيطالية وقد زودنا هذا العمل بمجموعة ثمينة من 942 كتابة رومانية، أضيف إليها عمل آخر مهم من حيث الحجم والمضمون تناول الكنائس التريبوليتانية القديمة من طرف كل من باركينز و قودشيلد Good child وبذلك استطاع هذا الدليل أن يوفر معلومات مفصلة حول الكتابات الأثرية لأغلب الكنائس في المدن الساحلية والمناطق الداخلية.

تأسيس جمعية الدراسات الليبية :

من المؤسسات الأكاديمية الرائدة في دراسة و توثيق تاريخ المغرب القديم بالخصوص ما يتعلق منه بفترة التواجد الروماني في ليبيا، المجلة الرائدة والهامة جدا للمتخصصين والباحثين في ميدان الدراسات الليبية والصحراوية والتي لا تضاهيها إصدارات أخرى في ذلك المجال ، الدورية الإنجليزية المعروفة اليوم باسم "الدراسات الليبية "" Libyan studies"، التابعة ل "جمعية الدراسات الليبية البريطانية" Society of Libyan Studies التي تنشط تحت رعاية "الأكاديمية البريطانية" منذ الستينات وحقت نجاحات باهرة في تعزيز الروابط بين البلدين منذ 1969 في المجالات مختلفة شملت كعلم الآثار واللغويات و التاريخ والجغرافيا و العلوم التجريبية ...، لقد سمح نجاح هذه الدورية الكبير من التحول إلى مجلة رائدة بمعنى الكلمة في دراسة تاريخ ليبيا الرومانية أو الصحراء ككل. تركز على الدراسات الحديثة، بخاصة الميدانية منها ، مع تقديمها لتقارير مفصلة عن المشاريع الميدانية التي كان أولها سنة 1969. يضاف إلى تلك الأعمال إصدارها لسلسلة من الكتب التاريخية والشعبية حول الاسفار إلى جانب إدارتها لمحاضرات عديدة في لندن تتعلق بتاريخ ليبيا الرومانية و ثقافتها.

تأسست جمعية الدراسات الليبية في 04 جوان 1969⁶، وكان لهذا الحدث انعكاسات إيجابية جدا، فمذ الحرب العالمية الثانية إزداد نشاط الطلاب الباحثين الانجليز الرغبين في القيام بتقنيات و أعمال ميدانية في كورينا و تريبوليتانيا و فزان وبغض النظر عن تلك التي كانت تتم تحت رعاية مصلحة الدراسات الأثرية الليبية ، أصبح من الممكن القيام بها تحت دعم عدد من الأفراد والجمعيات العلمية و الهبات الخيرية للمنظمات وقد أصبح من الضروري الحصول على أساس مالي ثابت للتمكن من تحقيق المزيد من التقدم في العمل، بالإشارة في انه في سنة 1969 أصبح من الاستعجالي الحاجة الى تكملة الأعمال الغير المنتهية للبروفيسور ريشارد قود شيلد Good child

بوناي C.B.M Mc Burney من فرصة دراسة العصور الحجرية للساحل الليبي، وقد نشرت نتاج ذلك العمل في سنوات 1947م و 1948 م .

البريطانيون يبحثون عن التميز في نشاطاتهم العلمية:

خلال فترة ما بين الحربين اضطلعت الفرق الإيطالية بأغلب التنقيبات الأثرية في ليبيا وكانت توجهات الأكاديمية مركزة حول تاريخ الفترة الكلاسيكية. لكن مع بداية الأربعينيات بدا الاثريون الانجليز يقتحمون هذا المجال بحماس كبير خاصة أولئك الذين كانوا ينشطون في احضان المدرسة البريطانية في روما امثال جون وارس بركينز John wards perkins الذي كان يتولى إدارة المدرسة و جويس رينولدس Joyce Reynolds إحدى طلبات المدرسة التي أفلحت في القيام بأسفار عديدة إلى ليبيا و كان القاسم المشترك بينهما هو البحث في الآثار الرومانية وقد تمكن الاثنان بعد جهود معتبرة من نشر دليلهم الشهير المعروف باسم IRT الكتابات الرومانية التريبوليتانية Inscriptions of Roman Tripolitania ورغم ما شهدته ليبيا من تطورات سياسية داخلية أدت إلى تغيير نظام الحكم بليبيا سنة 1969 م، وسقوط النظام الملكي، غير أن نشاط البعثات العلمية التنقيبية إستمر قويا وحلت بليبيا وفود كثيرة لمواصلة جهود البحث المكثفة، وتم بانتظام نشر اغلب الكتابات النقشية الأثرية للمراحل العتيقة حتى الفترة الهلنستية من قبل المنقبين الإيطاليين بين الحربين، أما العدد القليل من الكتابات التي تم العثور عليها فيما بعد فقد اخذت بدورها بعين الاعتبار .

بعد حلول العلماء الانجليز بليبيا لتنفيذ مشاريعهم العلمية وهم يدركون جيدا النجاحات الكبيرة الذي تحققت لعلماء الآثار الإيطاليين من نشر لدراسات متنوعة حول تاريخ ليبيا القديم ونتائج حفريات كثيرة تمت تحت إشراف فرقه المتخصصة ، والمتحمسة لإبراز عبقرية العنصر الروماني في تحقيق الهيمنة على العالم، أصر البريطانيون على ضرورة إيجاد جو من المنافسة المزوجة بالتميز والخصوصية فيما يجب إنجازه ، فعمدت المدرسة البريطانية في روما إلى الشروع في تنفيذ عمليات مسح لأغلب البنايات والمناطق شملت سوق ليسيس Forum of Iepcis القديمة ومعالمها الأثرية الكبرى المتنوعة كالمركبات السيفيرية و طرقها المزينة بالأعمدة، و بقايا الكنائس المسيحية، وقد مكنهم ذلك من نشر نتائج أعمالهم الرائعة تلك بالتنسيق مع نظرائهم الإيطاليين الذين كانوا يتوفرون على رصيد معرفي كبير حول آثار ليبيا الرومانية القديمة، ومنذ ذلك الوقت تمت تنقيبات في مدينة سبراتا Sebratha سنة 1948 ثم 1949 و 1950

تجاهلها، كما أن بعضها قد ورد في دليل Latinrum Corpus Inscriptionum، في حين شملت العديد من الكلمات أو العبارات اللاتينية إلى أقصى حد ممكن، نصوص كتبت وفق النمط النيبونيقي تم الاستغناء عنها إلا في الحالة التي كانت فيها الكتابات مزدوجة أو ثلاثية اللغات، و تعتبر الكتابات النيبونيقية من الدرجة الأولى بالنسبة لتاريخ تريبوليتانيا تحت العهد الإمبراطوري و تم نشر الكثير منها من طرف الإيطالي Levi Della Vida، وقد تضمن المحتوى العام لذلك العمل للمنطقة المحددة ما يلي:

- النطاق و الغرض.
- الدراسة أو الترتيب الجغرافي.
- تقديم الشكل والمضمون .
- إدارة الولايات.
- الكتابات النيبونيقية و المزدوجة اللغة.
- الكتابات المسيحية.
- بليوغرافيا المختصرات.
- مخطط شجرة نسب (جينولوجيكول) العائلة السيفيرية.

شملت الدراسة نصوصا تاريخية: خست إثنى عشر موقعا رئيسيا هي: سيراته، أوبا، ليسيس، و الحزام الساحلي، و منطقة سيرت، و الجيفارا، منطقة غرب الجبل و شرق الجبل، أعلى حوض سوفيقين، و وسط و اسفل حوض سوفيقين، وادي زمزم، و مواقع أخرى في غدامس و بونجم.

- وأنهى ذلك العمل المهم جدا بعرض لكتابات مجموعة كبيرة من النصب الميلية.

– الفهرسة.

احتوى الكتاب على حوالي 972 كتابة أثرية أغلبها قد كتب باللغة اللاتينية و هي مجموعة النصوص التي يمكننا ملاحظتها في الكتاب، متتالية حسب رقم ترتيبها والمنطقة التي ترتبط بها، وآخرها النصب الميلية الغير المعروفة المصدر (970-972م) و ارفقت النصوص ب 11 صفحة تتضمن صوراً Plats من مناطق مختلفة من ليبيا القيمة أو من ليبيا الرومانية.

طبع في روما لصالح المدرسة الإنجليزية في روما British School at Rome or via Gramsci 61, Rome and at towther Gardens Exhibition load London-S.W.7

اشترك في نشره و ترتيبه و وضعه عالمي الآثار ج. م رينولدس و ج. ب بركينز : J.M. Reynolds and J.B. Ward Perknis⁸ بمشاركة مجموعة من كبار الأثريين الإيطاليين ، نذكر منهم على الخصوص .

Salvator Auvgeimme- Renato Bortocun- Giacwo Caputoo- Richard Goodchild- Retro Romenelli.

الذي نشط في المنطقة بين 1954 و 1967 ، و تولى منصب نائب مراقب الآثار في كورينا وفي تلك الفترة أصبح الشخصية الأساسية الملهمة في الأعمال الأثرية بنفس المنطقة وعليه كانت وفاته في بداية 1968 ضربة قوية للدراسات الليبية و مع ذلك منحت السلطات الليبية كل الإمكانيات بغرض تنممة أعماله كما منحت تأكيدات لمختلف المتاحف والجامعات إلى جانب الرسميين في الأكاديمية البريطانية بغرض تشجيع أكبر و أفضل للبعثات البريطانية للعمل في ليبيا. واعترافا بجهود قودشيلد قامت مجموعة من أصدقاءه بتكوين مجلس غير رسمي تحت قيادة البروفيسور جونس بمساهمة السلطات الليبية، و تبنت الأكاديمية الإنجليزية هذا المجلس و اقترحت على علماءه تكوين جمعية جديدة تكون مهمتها تشجيع و تنسيق نشاطات العلماء البريطانيين في ليبيا .

مكنت نشاطات الجمعية من تحقيق نتائج معتبرة جدا كان اهمها اعتبار ليبيا من محاور و مواطن الحضارة الانسانية و تطورها وتم تصنيف خمس مواقع في البلاد على قائمة اليونسكو للتراث العالمي، و أصبحت المنطقة موطناً لأقدم النشاطات البشرية يمتد على مئات الالاف من السنين، كما استطاعت الجمعية تمويل عدة مشاريع في مجال التنقيبات الأثرية و التعليم و الجغرافيا ... وغيرها من التخصصات. مع التركيز باستمرار على دعم مشاريع طويلة الأجل ونشر نتائجها لاحقا حول مناطق مختلفة من المدن الليبية القديمة سواءا بتريبوليتانيا او كورينا .

دليل الكتابات الرومانية التريبوليتانية INSCRIPTION ROMAIN DE TRIPOLITAINE IRT

كان هدف رينولدس ورفقاءها من إنجاز ذلك الدليل السعي إلى تحقيق هدفين هامين: الأول تقديم الكتابات الأثرية بشكل موجز و مفيد، و لو أن أكثرها قد ظهر على صفحات Latinarum_Inscriptionum أو على صفحات L'Année Epigraphique، و عليه فإن الكثير من تلك النصوص كان في حاجة إلى المراجعة على ضوء الاكتشافات الجديدة التي تمت خلال 25 سنة مضت أو سبقت سنة 1952م، و لم تدرج في هذا الإطار النصوص ذات الزوال السريع مثل و الكتابات على الجدران و الفخار و الطوابع، رغم ما تضمنته من إشارات و معلومات كان بالإمكان الاستفادة منها⁷.

الهدف الثاني من تلك المجموعة تمثل في التسجيل بشكل دائم الحقائق المعروفة عن كل اكتشاف أو نقش و سياقها الأثري، و لو أنه يمكن الإشارة إلى أن الكثير من الشظايا التي توصلت إليها التنقيبات الأثرية في المناطق الداخلية موجودة في المتاحف المحلية أفلتت من تحديد مضمونها، و إذا كانت أغلبية النصوص قد كتبت وفق القواعد اللاتينية، فإن مجموعة لا بأس بها كتبت باللهجة الليبية أو البربرية و اتضح أنه من المستحيل أن يتم

المعنى الكامل لها غير ان المنية لم تعطي الوقت للدكتور Goodchild لانجاز ذلك فقد توفي في سنة 1968 حيث اضاف لها الدكتور رينولدس عدد من النصوص تم جمعها بمشاركة اصدقاءه الليبيين المهتمين باستغلال الاثار الوطنية⁹، غير انه لم يكن قادرا على الحصول على الدعم الجغرافي لذلك العمل. وصلت مجموعة الكتابات الرومانية الكورينية حوالي 2000 نص اغلبها بالاغريقية وفق اللهجة الكورينية القديمة وبعضها الاخر باللاتينية . رغم انه تم نشر الكثير منها لأهميتها التاريخية كان دائما بالإمكان إضافة معلومات حول طبيعتها وعلاقتها وسياقاتها المادية التي تضاف الى تفسيراتها وقراءتها وفي احيان اخرى كما كان بالمكان الدكتور رينولدس اعطاء نصوص اكثر دقة على العموم .

اعطت تلك النصوص معلومات هامة جدا حول الولاية الرومان و قاداتهم العسكريين في المنطقة و الوضعية الدفاعية لقوات الجيش الرومانية و حكام المدن و في حالات اخرى حول تنظيم المدن وتطور الوضعية العمرانية، والكوارث الطبيعية، الغارات الخارجية من طرف الاهالي الليبيين المناوئين للرومان وثورة اليهود، والهزات الارضية .

ولم تقتصر اهميتها التاريخية على ما سبق ذكره وإنما مساهمتها الثانية الكبرى كانت حول السياق البشري لكورينا أي ما تعلق منه بالتفاعل الاجتماعي بين الإغريق و والمترومين الليبيين و الرومان الوافدين على السواء لكن بدرجة أكبر حول الإغريق لغتهم، معتقداتهم الدينية، احتفالاتهم، المظاهر الفنية، و أشياء عن طرق التعليم و مؤسساتهم التجارية، وبخصوصية أكثر النصوص التي كانت لها علاقة بالمجموعات اليهودية المختلفة، والتي كانت توحى بدرجة هامة من التجانس و الاندماج مع الإغريق ثم الإشارات الممكنة للأعمال التي ادت إلى ثورة اليهود خلال القرن الثاني بعد الميلاد، حيث يخفي اليهود بعد ذلك من الكتابات الأثرية، بالإضافة إلى ذلك تلقي الضوء بدرجة أقل حول الطائفة المسيحية في العهد البيزنطي الروماني المتأخر.

رواد جمعية الدراسات التاريخية الليبية :

يعتبر العالم الأثري غونشيلد أول أنجليزي يتولى مهمة التنقيب بالمناطق الأثرية الداخلية لليبيا وصاحب الريادة في ترتيب ظروف الإقامة و العمل لمواطنيه، في محاولة منه للتوفيق في خلافة الايطاليين الذين أزيحوا من مواقع البحث بليبيا. ويبدو أن هذا الرجل كان لامعا حيث دشّن بداية نشاطاته بمساهمات بحثية مهمة، حول الطرقات و النصب الميالية سنة 1943، وكانت نتائج هذا الجهد موضوعين هامين الأول حول الطرقات الرومانية في تريبوليتانيا¹⁰ والثاني حول

عدد الصفحات 285 صفحة + 14 صفحة تضمنت ملحقا للصور ، وفي هذا الإطار يمكننا الإشارة إلى قسمين رئيسيين في ذلك الدليل الرائع ، القسم الأول من ص 1 إلى 236 أدرجت فيها جميع النصوص اللاتينية أو البونقية ذات العلاقة بتاريخ ليبيا الرومانية، من الصفحة 237-238 خصصت لفهرسة للصور التي تتوافق مع النقوش الأخرى. الصفحات من 239 إلى 275 خاصة بالفهرسة، 276-285 الخرائط.

طبع الكتاب في 1952، في إيطاليا . ويعتبر هذا العمل من احسن ما تم تقديمه من طرف الأكاديميين البريطانيين حول تاريخ تريبوليتانيا ، وبذلك ليس من الخطأ أن نعتبره مكملا لدليل الكتابات الرومانية بالجزائر C.I.L.A والكتابات الرومانية بتونس، وجميعها يمثل جزءا كبيرا من الدليل، الكبير والشهير، المعروف باسم C.I.L. (Catalogue des Inscriptions Latines)

دليل الكتابات الرومانية الكورينية Inscriptions Romaine de Cyrenaique

بعد النجاح الكبير الذي تحقق جراء إصدار دليل الكتابات الرومانية التريبوليتانية رأى أثريون إنجليز آخرون من الذين ينشطون في ليبيا ضرورة تدعيم الإنجاز الأول بإصدار جديد يتعلق بالمنطقة الشرقية المعروفة بكورينا أو المدن الخمسة، وبما أن الباحث الأثري الكبير البروفيسور قود شيلد Goodchild كان بحق أحد الرواد الأوائل في ميدان النشاطات التنقيبية الأثرية بكورينا خلال الفترة الممتدة بين 1953 - 1966م، لم يتأخر في الإسراع بطرح الفكرة على المهتمين، محاولا تقريب الكثير من الباحثين الإنجليز إليه ودعوتهم الى إشراكه في ميدان البحث والتنقيب، وفي مقدمتهم الدكتور " رينولدس " Reynolds " الذي تلقى أول دعوة منه للانضمام إليه للعمل على إنجاز دليل يتضمن الكتابات الرومانية الكورينية التي تم اهمال الكثير منها، ويكون ذلك العمل إنجازا توثيقيا ثمينا جدا ومكملا لنظيره حول منطقة تريبوليتانيا كما تم التطرق إليه سابقا .

ارتكز مخططهم في البداية على جمع النصوص في الفترة الرومانية للمدن الخمسة و لكل مدينة على حده ثم يتم إضافة قرى و مدن أخرى يمكن زيارتها. كان التصور الكامن في أذهانهم هو تجسيد صورة عن مجتمع ولاية رومانية في احدى المقاطعات من شرق الامبراطورية .

لقد توفر الدكتور رينولدس على جزء كبير من مجموعة نصوص رتبها في اواخر 1960 لكنها كانت تحتاج الى معلومات جغرافية اذا اريد لها ان تعطي

وإنجاح عملية الإصدارات العلمية وعلى رأسها
مجلة "الدراسات الليبية" "Libyan studies"
Joyce Rynolds ,Wards Perkins ,Dr John Alfred
Lloyd ,Pr G D Barri Jones ,Sheila Gibson , Dr
Olwen Hachett ,Pr Alessandro Stucchi , Dr D. E. L.
Haynes ,Dr Lidiano Bacchielli ; Dr Claudio Frigero
;Dr Charles Danieleles ,Pr André Laronde ,Dr Neil
Adams ,Pr John Anthony Allan .

الأفاق المستقبلية لشركة الدراسات الليبية :

انطلاقاً من أهداف الجمعية التي أقرها أول لقاء تأسيسي
سنة 1969 م، تسعى لبناء مؤسسة علمية تكون مركزاً رئيساً
للدراسات الانجلوليبيية في بريطانيا من خلال تنظيم و ترتيب
مخططات للبحث في كل الفروع ذات العلاقة بالدراسات
الليبية والتي تكون قادرة على تحقيق تطور إيجابي في
العلاقات بين الباحثين في كلا البلدين .

للجمعية سكرتير عام يهتم بإدراتها الكائنة بمعهد
الدراسات الأثرية ببريطانيا. أما اللقاءات العلمية و
المحاضرات فاتها تبرمج في لندن بمعهد الآثار، كان أولها
في فبراير سنة 1970م حيث ألقى البروفيسور و ارد بركينز
W.Perkins مدير المدرسة البريطانية في روما موضوعاً
"دور فيه الكنائس المسيحية في كورينا"¹⁴.

كورينا تناول فيه بالدراسة النصب الميلية¹¹ لكن
إهتمامه بدراسة نظام الليمس الدفاعي كان أفضل ما
أنجزه حول تاريخ ليبيا¹². بعد تلك المساهمات الرائعة
وجه كودشيلد إهتمامه الى دراسة المحطات الحدودية و
المستوطنات الأخرى بمنطقة الجبل والمناطق الشبه
صحراوية

ركز إهتمامه على دراسة مسالك طرق الليمس
التريبوليتاني التي ورد ذكرها في مسار الامبراطور
انطونين ، بمساعدة و ارد باركينز Wards Perkins تمكن
من التعرف على بقايا عين و يف و ثانداسا و قصر الديب
جنوب جبل نفوسة حيث تم العثور على كتابة مفهومة
الاشارة Praepositus Limitis (قيادة الحدود) جعلت
الكاتب درجة التنظيم التي كانت عليها طرق الليمس كخط
اساسي و منطقة دفاع في العمق ، كما اشار كودشيلد الى
عدد كبير من المزارع المحصنة في منطقة الليمس وقد
ادى ذلك الانجاز الى دعوته لانجاز وتحضير الاعمال
الاولى لما اطلق عليه "تابيلا امبيري روماني"¹³ Tabula
Imperii Romani وهو مشروع مهم لرسم خريطة
جغرافية ليبيا الرومانية مدعماً من طرف لجنة دولية
إحتضنت جمعية الدراسات الليبية مجموعة أخرى
من العلماء ذوي المهارات العالية جدا في علم الآثار¹⁴
ساهم جميعهم في بناء صرح تلك المؤسسة الع - 210-

الهوامش :

- 1- British archéolologie in libya 1943-70; annual report ;1969-70 libyan's studie's v1;p 6
- 2- Pierre Pinta; Libye; ; guide olizane ; 2007 ;italie ;164
- 3- Charles Geddes Clarkson Hyslop, S. APPLEBAUM – Cyrene and Ancient Cyrenaica. A Guide Book. 1945 Tripolitania, 84 pages
- 4- Jan Jelínek ;Sahara: histoire de l'art rupestre libyen : découvertes et analyses ;ed jerome million ; 2004 grenoble ; p 14
- 5 British Archaeology in Libya, 1943-70 ; Second annual report 1970-1971 ; libyan's studies n° 2
- 6- First annual report ;1969- 70 libyan's studie's n 1 ; p 3
- 7 -J. M. Reynolds and J. B. Ward-Perkins ; Inscriptions of Roman Tripolitania ; Published for the British School at Rome (1952). 285 pages
- 8 -Charlotte Rouéhé et Hafed Walda ;Tribute : joyce Maire Reynolds ; libyan studies . n 40 ; 2009 .p40
- 9 -هذا الدليل لم يتم طبعه بسبب وفاة كودشيلد، وتم كلف بركينز Perkins مع بعض أصدقائه بإتمامه غير أن هذا الأخير إعترضته الكثير من المشاكل وبقي كمشروع قارب إلى نهايته، ولمزيد من المعلومات ينصح بالعودة للموقع التالي <http://ircyrkclacuk/history/scholarship> :
- 10- R. G. Goodchild" Roman Roads and Milestones in Tripolitania. (Discoveries and Research in 1947). Reports and Monographs of the Department of Antiquities in Tripoli I (1948).
- 11 -"Roman Milestones in Cyrenaica." PBSR xviii (1950), 83-91. "The Limes Tripolitanus IL" JRS xl (1950), 30-8.

- 12 -Libyan studies : select papers of the late R. G . Goodchild ;
edited by Joyce Reynolds. - London : P. Elek, cop. 1976-
1vol. (XXII-345 p.-[17]
- 13- لإطلاع أكثر ولمزيد من المعلومات ينصح بالرجوع إلى:
two essays of R. G. Goodchild :first: Tabula Imperii Romani: Sheet H.I. 33 Lepcis Magna
(Society of Antiquaries, London, 1954). Second: Tabula Imperii Romani: Sheet H.I. 34
Cyrene (Society of Antiquaries, London, 1954).
- 14 -First annual report ;1969- 70 ;Ibid, opcit ; p4

دور المجتمع المدني في الإعلام البيئي في الجزائر المجالات البيئية المحلية عرصة = نهوض =

بكير قشار

قسم علم الاجتماع جامعة غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000، الجزائر

البيئة، حيث قام المجتمع المدني من خلال منظماته الحقوقية والمدنية، بنشر الوعي البيئي بين المواطنين، ورعاية شؤون البيئة والتنمية، كما قام بلعب دور كبير في تحديد المخاطر البيئية، وتقييم أثارها، واتخاذ الإجراءات اللازمة لمعالجتها.

فقد حثت لجنة "برونتلاند" في تقريرها "مستقبلنا المشترك"، الحكومات على الاعتراف بحقوق منظمات المجتمع المدني، وتوسيع نطاق الحقوق المتعلقة بها، ومن أهمها: حقها في الإعلام البيئي وإمكانية الحصول على المعلومات بشأن البيئة والموارد الطبيعية، حقها أن تستشار وأن تشارك في اتخاذ القرار بشأن الأنشطة التي من المحتمل أن تترك أثراً كبيراً على بيئتها، حقها في اللجوء إلى وسائل قانونية والحصول على تعويضات عندما تتعرض بيئتها إلى تأثيرات خطيرة.

وقد أجمع القانون الجزائري المتضمن حماية البيئة في إطار التنمية المستدامة - الصادر في جويلية 2003- هذه الحقوق في مبدأ الإعلام والمشاركة، الذي بمقتضاه لكل شخص الحق في أن يكون على علم بحالة البيئة، والمشاركة في الإجراءات المسبقة عند اتخاذ القرارات التي قد تضر بالبيئة.

تأتي أهمية الإعلام البيئي، من كونه عنصر أساسي في إيجاد الوعي البيئي في المجتمع، وهو أداة - إذا حسن استثمارها - كان لها المردود الإيجابي للوعي بالوعي البيئي، ونشر الإدراك السليم للقضايا البيئية. لقد ساعدت الثقة النوعية الكبيرة في سرعة تدفق وتناول المعلومات المتعلقة بالبيئة والتنمية، على زيادة الوعي البيئي بمشكلات البيئة، إذ لم تكن كلمة البيئة معروفة لدى وسائل الإعلام العربية في الأربعينيات والخمسينيات، ولكنها بدأت تحتل الأعمدة

البيئة (l'Environnement) هي المحيط الذي تتحقق فيه حياة الإنسان والحيوان والنبات. إلا أن العالم اليوم بأسره، بات يستشعر بمدى الخطورة المحدقة بالبيئة، نتيجة للثورة العلمية والتكنولوجية التي أحرزها الإنسان، واستغلاله للموارد الطبيعية دون الاعتدال بتوازن البيئة، ما أدى إلى حدوث تغيرات عميقة في بنية البيئة الطبيعية وعناصرها، وبروز بعض الظواهر الطبيعية التي تنذر بأخطار كبيرة، والتي أحوالت أجزاء واسعة من الكرة الأرضية إلى بيئة ملوثة تكاد لا تصلح لحياة شتى أنواع الكائنات الحية. مما نتج عنه تبعات ومشكلات خطيرة تبدو ملامحها واضحة وملموسة، حيث أصبح العالم يعرف ازدياد رقعة التصحر يوماً بعد يوم على حساب تقلص المساحات الخضراء، تلوث مصادر المياه والهواء، الاحتباس الحراري، زيادة الإشعاع والكوارث البيئية، انتشار المخلفات والنفايات. كل هذا بسبب تغيير في الظروف المناخية على سطح الأرض الناتج عن الاستخدام الخاطئ للمصانع والمعامل، ومحطات الطاقة، والتوسع المرعب في التسلح النووي، وسوء استعمال الأسمدة والمبيدات... وغيرها.

مع تنامي هذه المشاكل البيئية الخطيرة، أصبح من الضرورة تسخير جميع الطاقات، وإشراك جميع الفاعلين، من مؤسسات، ومنظمات حكومية وغير حكومية، ومنظمات المجتمع المدني، وجماعات محلية، في حماية البيئة، إذ أصبح الاعتناء بالبيئة ضرورة حتمية وشغل شاغل للمجتمع الإنساني المعاصر.

من بين الفاعلين الذين أخذوا قضية حماية البيئة على عاتقهم، واعتبروها ضرورة حتمية يجب الاهتمام بها، المجتمع المدني، حيث ظهر هذا الاهتمام بشكل ملموس منذ مؤتمر استوكهولم سنة 1972، الذي نصّ على ضرورة إشراك المجتمع المدني في القضايا

حكومية، من أجل إثراء معارف الجمهور والتأثير على آرائه وأفكاره وسلوكياته تجاه البيئة⁽²⁾

أو هو ذلك الإعلام الذي يسعى إلى تحقيق أغراض حماية البيئة من خلال خطة إعلامية موضوعية على أسس علمية سليمة تستخدم فيها كافة وسائل الإعلام، وتخطب مجموعة بعينها من الناس أو عدة مجموعات مستهدفة، ويتم أثناء هذه الخطة وبعدها تقييم أداء هذه الوسائل ومدى تحقيقها للأهداف البيئية لهذه الخطة الإعلامية⁽³⁾.

ومنه فإن الإعلام البيئي يسعى إلى إنشاء ونشر الحقائق العلمية المتعلقة بالبيئة من خلال مختلف وسائل الإعلام في شكل رسائل إعلامية، الهدف منها توجيه الجمهور والتأثير في آرائه وأفكاره وسلوكياته إيجابياً، من أجل حماية البيئة وصيانتها وتنميتها وإيجاد درجة من الوعي البيئي وصولاً إلى التنمية المستدامة⁽⁴⁾.

3. المجتمع المدني:

يعرفه الدكتور سعد الدين إبراهيم بأنه: "مجموعة التنظيمات التطوعية الحرة غير الحكومية وغير الإرثية، التي تملأ المجال العام بين الأسرة والدولة، لتحقيق مصالح أفرادها من أجل قضية، أو مصلحة، أو للتعبير عن مصالح جماعية، ملتزمة في ذلك بقيم ومعايير الاحترام والتراضي والتسامح والإدارة السلمية للتنوع والاختلاف"⁽⁴⁾

ومنه فإن المجتمع المدني يتمثل في تلك المنظمات غير حكومية والتنظيمات التطوعية، التي تشمل النقابات والاتحادات والأندية والجمعيات والأحزاب السياسية وجماعات المصالح، وغيرها من التنظيمات التي لا تهدف إلى الربح، وتنشأ لتحقيق مصالح أفرادها أو لتقديم خدمات للمواطنين أو لممارسة أنشطة إنسانية متنوعة، وتلتزم في وجودها ونشاطها بقيم ومعايير الاحترام والتراضي والتسامح والمشاركة والإدارة السلمية للتنوع والاختلاف.

4. البيئة:

لم يتوحد العلماء في تحديد مفهوم البيئة، بل تعددت معانيها، وتباينت مفاهيمها حسب تخصص الباحث في كل فرع من فروع العلوم الاجتماعية المختلفة، حيث يعرفها كل منهم في ضوء رؤيته وتخصصه.

وقد اتفقت معاجم اللغة العربية على أن البيئة مشتقة من (بؤأ) وهي المكان أو المحيط أو المنزل المستقر فيه، والذي يعيش فيه الكائن الحي⁽⁵⁾

ووردت هذه الكلمة في القرآن الكريم، في قوله تعالى: " وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَ لِقَوْمِكَمَّا

الرئيسة في الصحافة في الستينيات والسبعينيات، كما أبدت الأجهزة الإعلامية المختلفة اهتمامها البالغ بالبيئة، نتيجة لمشكلات التلوث والكوارث البيئية التي طرأت في فترة السبعينيات، مثل تحطم ناقلة النفط (أموكوكانديز Amoco Cadiz) في 16 مارس 1978، وحادثه المفاعل النووي في (ثري مايل أيلاند Three Mile Island) بالقرب من هاريسبرج (Harrisburg) في ولاية بنسلفانيا (Pennsylvania) في الولايات المتحدة الأمريكية في 28 مارس 1979، وانفجار بئر النفط في خليج مكسيكو (Mexico) في 03 جوان 1979، وكذلك الحوادث المتتالية مثل حادثه انفجار المفاعل النووي السوفييتي تشيرنوبل (Chernobyl) في 26 أبريل 1986.

على ضوء ما سبق من استعراض مظاهر الإخلال بالتوازن البيئي، وتنوع المخاطر البيئية، وتأكيد المنظمات الحكومية وغير الحكومية على أهمية دور المجتمع المدني في إعداد أفراد لديهم وعي بيئي، من أجل المحافظة على البيئة والحد من مخاطرها، سنحاول في هذه الدراسة إبراز الدور الذي تضطلع به الجمعيات البيئية بمدينة غرداية في مجال التحسيس والتوعية البيئية، وكذا معرفة الوسائل والآليات الإعلامية التي توظفها في ذلك، وعليه فإن دراستنا تقوم على سؤال محوري مفاده:

ما مدى مساهمة الجمعيات البيئية في تنمية الوعي البيئي لدى أفراد المجتمع في مدينة غرداية؟ وكيف توظف وسائل الإعلام في عملية التوعية والتحسيس البيئي؟

تحديد المفاهيم والمصطلحات:

1. الإعلام:

- يقصد بكلمة الإعلام لغة: " مصدر إعلام أي إبلاغ، أخبره إخباراً أي إيصال أمر معين من المتكلم إلى المستقبل المقصود بالرسالة كطرف آخر، وقد وردت هذه الأخيرة في لسان العرب بمعنى التبليغ والإبلاغ، أي الإيصال، ويقال بلغت القوم بلاغاً أي أوصلتهم الشيء المطلوب"⁽¹⁾.

- يقصد بكلمة الإعلام اصطلاحاً: "الأخبار عن حقائق الواقع والأحداث بشكل صادق ودقيق وموضوعي مجرد وحيادي بهدف إثارة اهتمام الجماهير نحو موضوع معين والتأثير فيهم".

2. الإعلام البيئي:

عرّفه البنك العالمي بأنه: " كل معلومات ذات طابع بيئي من وكالات أو منظمات حكومية أو غير

بِمَصْرَ بَيُوتاً" (سورة يونس، الآية 87)

توجه للناس عامة أو لشريحة معينة بهدف توضيح وتعريف مفهوم بيئي معين، أو مشكلة بيئية لإيجاد اهتمام وشعور بالمسؤولية وبالتالي تغيير اتجاههم ونظرتهم، وإشراكهم في إيجاد الحلول المناسبة لمشكلة البيئة".⁽¹⁰⁾

أهمية الدراسة:

إن مناقشة دور المجتمع المدني في إطار البيئة يكتسب أهمية كبيرة في ضوء تصاعد دور مؤسسات المجتمع المدني في غالبية دول العالم، فقد اتجهت مؤسسات المجتمع في الألفية الجديدة إلى التزايد والتكاثر، ومع هذا التطور في الحجم حدث تنوع في أنماطها وأنشطتها، فلم يقتصر دورها في المجال السياسي والاقتصادي والثقافي فحسب بل أصبحت تشكل معادلة مهمة في المجال الإنساني والبيئي، وأصبحت البيئة و سبل حمايتها يأخذ حيزا كبيرا في برامجها ومخططاتها.

أهداف الدراسة:

نسعى من خلال هذه الدراسة إلى الوصول إلى مجموعة من الأهداف، منها:

– الوقوف على الدور الذي يلعبه المجتمع المدني في عملية المحافظة على البيئة، ودوره في غرس القيم البيئية، وإرساء الثقافة البيئية لدى الفرد الجزائري، من خلال دراسة مدينة غرداية كنموذج.

– التعرف على أهم الجمعيات التي تنشط في المجال البيئي بمدينة غرداية، والوقوف على برامجها الخاصة بحماية البيئة، ومدى تنفيذها ميدانيا، وكذا التعرف على أهم الآليات الإعلامية التي تعتمد عليها في تنفيذ برامجها.

– دراسة أهم الأنشطة البيئية التي تقوم بها مؤسسات المجتمع المدني في مدينة غرداية، ومن ثم تحليلها وتقييمها.

– معرفة مدى تأثير مؤسسات المجتمع المدني على أفراد المجتمع، ومدى الاستجابة التي يتلقاها من الجمهور المستهدف (التغذية والتغذية الرجعية).

– تقديم نتائج وتوصيات تساعد القائمين على مؤسسات المجتمع المدني في وضع السياسات البيئية المناسبة، التي تعمل على الحد من بعض المشاكل البيئية.

حدود الدراسة:

– رغم تعدد العناصر المكونة للمجتمع المدني، إلا أن تركيزنا في هذه الدراسة سيصب

يستخدم لفظ البيئة (Environment) في اللغة الإنجليزية للدلالة على الظروف المحيطة التي تؤثر على النمو والتنمية، وتستخدم كذلك للتعبير عن الظروف الطبيعية مثل: الهواء والماء والأرض التي يعيش فيها الإنسان. أما من حيث الوجهة العلمية فهي المكان الذي يحيط بالشخص ويؤثر على مشاعره وأخلاقه وأفكاره.⁽⁶⁾

وفي اللغة الفرنسية تعرف كلمة البيئة (Environnement) بأنها مجموعة الظروف الطبيعية للمكان من هواء وماء وأرض والكائنات الحية المحيطة بالإنسان. والتي تشمل الكائنات الحية وما يحتويه من مواد كالهواء، والماء والتربة وما يقيمه الإنسان من منشآت.⁽⁷⁾

وعلى ذلك فالبيئة بمفهومها العام هي: "الوسط أو المجال المكاني أو الإطار الذي يعيش فيه الإنسان، ويحصل منه على مقومات حياته من غذاء وكساء ومأوى، ويتأثر به ويؤثر فيه، ويضمن هذا المجال المكاني عناصر ومعطيات سواء من خلق الله سبحانه وتعالى كالصخور وما تضمه من معادن ومصادر ووقود، التربة، والتضاريس، وموارد المياه وعناصر المناخ من حرارة وضغط ورياح وأمطار. يضاف إلى ذلك النبات الطبيعي والحيوانات البرية، وكذلك معطيات من صنع الإنسان من عمران وطرق ووسائل نقل واتصال ومزارع ومصانع وسدود وغيرها".⁽⁸⁾

5. الجمعية البيئية:

نعني بالجمعية البيئية، الجمعية التي تجعل من البيئة وقضاياها مبدأ لنشأتها وتأسيسها، وهي بذلك تعد برامج سنوية تهدف إلى حماية البيئة والمحافظة على المحيط، كما تسعى من خلال نشاطها إلى نشر الوعي والحس البيئي في أوساط المجتمع.

6. الوعي البيئي:

عرفه "وليام إلتسون William Illtson" بأنه إدراك الفرد لدوره في مواجهة البيئة".⁽⁹⁾

والوعي البيئي: هو عملية اكتساب الفرد لخبرات في فهم العلاقات والمشكلات البيئية من حيث أسبابها وآثارها وطرق حلها، وهذا من خلال الجمعيات البيئية وعبر وسائل الإعلام والاتصال، والهدف من ذلك أن يصبح الفرد ملما بالعلاقات بين عناصر الطبيعة البيئية ومكوناتها الأساسية، ومدى تأثير كل منها بالأخرى، ومدى تأثير الإنسان عليها وتأثره بها، وسعيه لمحاولة الحد منها والتغلب عليها، من خلا اقتراح أنسب الأساليب.

7. التوعية البيئية:

التوعية البيئية هي: "البرامج أو النشاطات التي

والإقليمية والقومية، وللحد من النتائج والآثار السلبية المتوقعة لهذه المشكلات، فقد اتفقت غالبية المؤتمرات على ضرورة توعية الشعوب بها، لذا أقيمت مسؤولية التوعية والتبصير بالقضايا البيئية على كاهل الإعلام باعتباره أداة الاتصال الجماهيري الفعال.

وتعني كلمة الدور: "التبغات والمسؤولية والمهام الملقاة على عاتق وسائل الإعلام في تحقيق وظيفة التوعية البيئية".⁽¹²⁾

أما كلمة التوعية فنعني بها: " نشر الحقائق والمعارف البيئية بين أفراد المجتمع لتحسين سلوكهم وأسلوب حياتهم اتجاه البيئة ".⁽¹³⁾

II. دور وسائل الإعلام في التوعية البيئية في الجزائر:

تقوم وسائل الإعلام الجزائرية بدور كبير وهام في عملية رفع الوعي البيئي لدى أفراد المجتمع الجزائري، وتوعية أصحاب القرار على أهمية الحفاظ على البيئة الطبيعية وإدارة مواردها بتوازن، كما تعمل على معالجة القضايا البيئية، وتبسيط الأضواء على شتى الأضرار الملحقة بها سواء كان ذلك على المستوى الوطني أو المحلي.

وإدراكا منها لأهمية الأدوار التي تلعبها هذه الوسائل، قامت الوزارة المكلفة بالبيئة عام 1999 بإجراء حوصلة حول ما تقدمه وسائل الإعلام المختلفة، وتوصلت إلى النتائج التالية:

1) الصحافة المكتوبة (الإعلام المقروء): هناك اهتمام واضح لدى الإعلام المكتوب (خاصة الصحافة الخاصة) بالمواضيع ذات الصلة بالبيئة، كالماء والهواء والبحر، ومشكلة النفايات والتصحّر وغيرها، بل إن بعضها تنطرق إلى المواضيع البيئية (على المستوى، الوطني أو المحلي) بشكل يومي، وبعضها تخصص صفحات أسبوعية لذلك.⁽¹⁴⁾

في سنة 1997 صدر حوالي 240 مقال حول البيئة، ليرتفع الرقم إلى أكثر من 700 مقال بيئي خلال سنتي 1998 و1999. ففي دراسة أحصيت فيها عدد المواضيع البيئية التي تطرقت إليها الصحف الوطنية⁽¹⁵⁾، في شهر جانفي، فيفري، مارس، من سنة 2006، تم رصد حوالي 1781 موضوع يتناول أهم القضايا البيئية في الجزائر.

وهذا ما يوضحه الجدول التالي:

جدول رقم (1): يبين حصيلة مواضيع البيئة التي عالجتها الصحف الوطنية الجزائرية خلال الثلاثي الأول من سنة 2006.

الموضوع	جانفي	فيفري	مارس	المجموع

على الجمعيات الايكولوجية أو البيئية، باعتبارها الأداة الفاعلة في عملية التوعية والتحسيس البيئي.

- في هذه الدراسة نحاول دراسة جمعيتين بيئيتين تعدان من أنشط الجمعيات في ولاية غرداية، وهما جمعية البيئة وترقية المجتمع (بلدية غرداية)، وجمعية حماية البيئة (بلدية بنورة).

أدوات تجميع البيانات:

استعنا في هذه الدراسة لجمع المعلومات الخاصة بأنشطة الجمعيتين البيئيتين، على:

➤ **الملاحظة:** تعتبر الملاحظة من العناصر المهمة في البحث العلمي، لما لها من دور في جمع المعلومات والبيانات. وتعرف الملاحظة بأنها عملية مراقبة أو مشاهدة لسلوك الظواهر والمشكلات والأحداث ومكوناتها المادية والبيئية، ومتابعة سيرها واتجاهاتها وعلاقاتها، بأسلوب علمي منظم ومخطط وهادف. وفي هذه الدراسة استعملنا فيها الملاحظة بالمشاركة، وفيها يكون للباحث دور إيجابي وفعال، " ويقوم بنفس الدور، ويشارك أفراد الدراسة في سلوكياتهم وممارساتهم المراد دراستها.

➤ **المقابلة:** تعرف المقابلة بأنها: " لقاء يتم بين الشخص المقابل (الباحث) الذي يقوم بطرح مجموعة من الأسئلة على الأشخاص المستجيبين وجهاً لوجه، ويقوم الباحث أو المقابل بتسجيل الإجابات على الاستمارات".⁽¹¹⁾

وظفنا المقابلة العلمية لجمع المعلومات والحقائق والبيانات. وكانت المقابلة مع رؤساء الجمعيتين المدروستين، وتمت عن طريق طرح شفوي للأسئلة المحضرة مسبقا وتسجيل الإجابات. وبذلك تمكنا من الاحتكاك المباشر بالمبحوثين والحصول على أكبر عدد من الإجابات، كما ساعدتنا هذه التقنية على الحصول على شرح جيد للأسئلة.

I. دور الإعلام في نشر الوعي البيئي:

يعتبر الإعلام بأنواعه المختلفة من أهم وأنجع الوسائل في نشر الوعي البيئي، لما له من تأثير عميق في فئات المجتمع على اختلاف بنيتهم الاجتماعية، وتركيباتهم الثقافية، وظروفهم الاقتصادية، وعلى اختلاف طبيعة النظام السياسي، فهو بذلك يسمى السلطة الرابعة (La Quatrième Autorité) لما له من قدرة كبيرة في تشكيل الرأي العام وتوجيهه، فدوره في عملية التحسيس والتوعية البيئية هو من الأهمية بمكان، حيث تساهم في تشكيل الوعي البيئي لدى الجمهور الواسع عن طريق تزويده بالمعطيات الصحيحة والمستجدة حول البيئة.

فالإعلام والتوعية هما أهم نقاط الارتكاز لانطلاق أي فكرة أو قضية بيئية، لأن القضايا والمشكلات البيئية تصدرت أجندة الاهتمامات الدولية

بعيد عن التحليل.⁽¹⁶⁾

(2) الإعلام المرئي والمسموع : لا شك أن تأثير وسائل الإعلام السمعية والبصرية أكثر أهمية من الإعلام المكتوب، سواء من كون أن ربع سكان الجزائر أميون (حوالي 07 ملايين أمي) وبالتالي يتعذر عليهم متابعة أوضاع البيئة من خلال الصحف، كذلك لكونها لا تشترط معرفة القراءة والكتابة مثل الصحف المكتوبة وبالتالي كان الإعلام المسموع (الإذاعة) أو الإعلام بالصوت والصورة (التلفزيون) أقدر على تبليغ المعلومة، والتأثير على الجمهور المتلقي.

1. الإذاعة (الإعلام المسموع): بعد انفصال الإذاعة عن التلفزيون كهيئة مستقلة، أصبحت تمارس مهامها الإعلامية والإخبارية والتنقيفية والتوجيهية في مختلف المجالات، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها، وقد احتلت قضايا البيئة مكانة مهمة في الشبكة البرمجية للإذاعة الوطنية، من خلال تغطية الأحداث والوقائع المرتبطة بموضوع البيئة، مثل مشكلات البيئة على الصعيد الوطني والمحلي والعالمي، ومختلف التظاهرات والفعاليات في هذا الشأن.

دور إذاعة غرداية في الإعلام البيئي:

تحتوي الشبكة البرمجية للإذاعة غرداية المحلية على برنامج إعلامي بيئي أسبوعي تحت اسم "مرصد بيئية" يبث كل يوم اثنين من الساعة 15:00 إلى 15:45 زوالاً، تقدمه الإعلامية "جميلة يعيش".

يمتاز البرامج بالتنوع وببساطة اللغة، واستعمال اللهجة المحلية في بعض الأحيان، وهو ما ساهم في نشر المعرفة والثقافة والوعي بالأحداث والقضايا البيئية في المنطقة، وأوجد جمهور عريض يهتم بالبيئة، ويشعر بمسؤوليته اتجاه المحافظة عليها.

وتتطرق الحصة في كل عدد إلى ما يلي:

- ✓ حوارات مع مختصين في البيئة.
- ✓ تحقيقات بيئية.
- ✓ نصائح وإرشادات بيئية للمستمعين.
- ✓ الإطلاع على أحوال البيئة في العالم.⁽¹⁷⁾

كما نشير إلى أن جل الإذاعات في الجزائر تبث برنامج إعلامي حول البيئة، سواء الإذاعات الوطنية أو المحلية.

2. التلفزيون (الإعلام المرئي): يعتبر التلفزيون من أكثر الوسائل الإعلامية تأثيراً في الرأي العام الوطني، فهو يخاطب كل الشرائح الاجتماعية على اختلاف أعمارهم ومستوياتهم

الشهر				
تلوث الهواء	47	19	37	103
التغيرات المناخية وطبقة الأوزون	02	17	19	38
قضايا المياه	33	77	105	215
التلوث البحري وتهيئة الساحل	06	12	25	43
النفايات الصناعية الخطيرة	58	16	09	83
النفايات الصلبة	76	115	56	247
التلوث الحضري	04	03	03	10
مكافحة التصحر وتطوير الغابات	38	57	86	181
الأخطار الكبرى	59	18	26	103
التنوع البيولوجي	37	19	40	96
موارد الطاقة المتجددة	16	07	13	36
تهيئة الإقليم	66	65	108	239
النظافة والمحيط	40	94	81	215
نشاط الحركة الجموعية	09	05	14	28
التربية البيئية	08	04	24	36
إعلانات وزارة تهيئة الإقليم والبيئة	14	35	40	89
عموميات	04	08	07	19
المجموع	517	571	693	1781

المصدر: رضوان سلامن، الإعلام والبيئة، دراسة استطلاعية لعينة من الثانويين والجامعيين، مدينة عنابة نموذجاً (رسالة ماجستير غير منشورة) معهد علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر، سنة 2005، ص183.

مما سبق نستنتج أن البيئة أصبحت تشغل مساحات أغلب الجرائد الوطنية ومادة أساسية في الإعلام المكتوب في الجزائر، وهذا ما يعد بأفاق رحبة للإعلام البيئي في الجزائر.

لكن بالرغم من كثرة المواضيع البيئية في الصحف الجزائرية، وزيادة اهتمامها بتغطية قضايا البيئة والتنمية المستدامة، إلا أن معالجتها للمواضيع البيئية تقتصر إلى المتابعة، وتنسم بمحتوى إخباري أني

الاجتماعية والثقافية، كما أن إمكانية التفاعل مع هذه الوسيلة نجدها كبيرة مقارنة بالوسائل الأخرى.

عرف التلفزيون الجزائري منذ الثمانينات برامج خاصة بالبيئة وكان أول هذه البرامج حصة "الأرض والفلاح" لأحمد وحيد والتي دام بثها لسنوات طويلة، ثم تغير اسمها إلى حصة "الإنسان والبيئة" والتي كانت تبث كل يوم أحد لمدة 26 دقيقة ليعاد تقديمها صباح كل يوم خميس. أما في السنوات الأخيرة فقد عرفت هذه الحصة تسمية جديدة وهي حصة "البيئة والمجتمع" والتي تبث مساء كل يوم أحد، تتعرض هذه الحصة إلى أهم قضايا البيئة في الجزائر، بالإضافة إلى تدخلات المختصين والمسؤولين.

بالرغم من ورود كلمة "البيئة" آلاف المرات في التلفزيون الجزائري خلال السنوات العشر الأخيرة إلا أن طريقة التصدي لهذا الموضوع بقيت في معظم الحالات مرتبطة بالخبر وردود الفعل الأنينة.⁽¹⁸⁾

مما سبق يمكن أن نقول أن التلوث بأنواعه هو العدو الأول للبيئة، وضعف الوعي البيئي هو آلة دمارها، لذلك فإن جزءاً كبيراً من مسؤولية التوعية البيئية يقع على عاتق وسائل الإعلام، من خلال تقديم النماذج السلوكية التي تساهم في حماية البيئة، وذلك بإدراج البيئة ضمن اهتماماتها وأولوياتها، وتوفير المعلومات العلمية عن حالة البيئة وتقديمها إلى الجمهور بشكل مبسّر ومثير للانتباه، والتطرق بالمعالجة العلمية الدقيقة إلى كل جوانب الظاهرة البيئية، وتمكين الجمهور من المشاركة الجادة في تداعيات قضايا البيئة.

III. الحق في الإعلام البيئي في الجزائر:

لا يمكن تفعيل مساهمة الأفراد والمؤسسات والمجتمع المدني إلى جانب الإدارة في حماية البيئة لتحقيق شراكة حقيقية، إلا من خلال إضفاء الشفافية على النشاط الإداري البيئي وضمان حق الإطلاع على كل البيانات والمعلومات المتعلقة بوضعية البيئة، لأنه لا يمكن توخي المشاركة في جو التعطيم والإقصاء.

وتشير الدراسات أن نقطة انطلاق الاهتمام الإعلامي الواضح بقضايا البيئة قد بدأ منذ انعقاد مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة الإنسانية "باستكهولم" عام 1972، وهذا تأكيداً على حق الإنسان في الإعلام البيئي الذي جاء ضمن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وقد لعب المجتمع الدولي دوراً بارزاً في تزايد الاهتمام الإعلامي، خاصة الأمم المتحدة، وقد كان لانعقاد مؤتمر قمة الأرض للبيئة والتنمية "ريو دي جانيرو" عام 1992 انعكاساته الإيجابية في تنامي وتوسع دائرة

الاهتمام بالإعلام البيئي.

1. الإطار القانوني للحق في الإعلام البيئي في الجزائر: إن ولادة الإعلام البيئي في الجزائر تعد ظاهرة حديثة في الإعلام الوطني، لذا كانت الكتابات حول البيئة بسيطة وغير مكثفة، هذا لأن الجزائر في السابق لم تظهر فيها مشاكل بيئية خطيرة تستدعي تكثيف الجهود الإعلامية لخدمة القضايا البيئية، لكن مع تطور الصناعة وازدياد السكان وانتشار النفايات بأنواعها وكذا ازدياد عدد السيارات، وظهور ظاهرة انجراف التربة و التصحر،... كل هذه المشاكل أوجدت التلوث البيئي في الجزائر، وهو ما استلزم ضرورة معالجتها معالجة حقيقية واقعية وموضوعية دقيقة، من قبل وسائل الإعلام باختلاف أنواعها، سواء المكتوبة أو المسموعة أو المرئية.

كون أن الجزائر عضو في الأمم المتحدة، وكونها حاضرة في كل مؤتمراتها الدولية حول البيئة، لا سيما مؤتمر استوكهولم 1972، الشيء الذي أوجد اهتمام كبير من قبل المشرع الجزائري حول قضايا البيئة، كما ظهر نوع من الاهتمام في الحق بالإعلام البيئي في الفترة الأخيرة، ونلمس ذلك من خلال قانون البيئة 03-10 المتعلق بحماية البيئة في إطار التنمية المستدامة. حيث في إطار المبادئ العامة التي يتأسس عليها قانون البيئة 03-10، أشار المشرع إلى مبدأ الإعلام والمشاركة والذي يكون بمقتضاه، لكل شخص الحق في أن يكون على علم بحالة البيئة، والمشاركة في الإجراءات المسبقة عند اتخاذ القرارات التي قد تضر بالبيئة.⁽¹⁹⁾

2. الحق في الإعلام البيئي في قانون البيئة 03-10: أشار قانون البيئة 03-10 المؤرخ في 19 جويلية 2003 المتعلق بحماية البيئة في إطار التنمية المستدامة، إشارة واضحة إلى مبدأ الحق في الإعلام البيئي، حيث خصص له فاصل كامل.

وقد جاء في بابه الثاني المتعلق بأدوات التسيير البيئية، في الفرع الأول المتعلق بالحق العام في الإعلام البيئي، في المادة رقم 07 مايلى: "أنه لكل شخص طبيعي أو معنوي يطلب من الهيئات المعنية معلومات متعلقة بحالة البيئة، الحق في الحصول عليها. ويمكن أن تتعلق هذه المعلومات بكل المعطيات المتوفرة في أي شكل مرتبط بحالة البيئة، والتنظيمات والتدابير والإجراءات الموجهة لضمان حماية البيئة وتنظيمها. تحدد كفايات إبلاغ هذه المعلومات عن طريق التنظيم".⁽²⁰⁾

وجاء في الفرع الثاني المتعلق بالحق الخاص في الإعلام البيئي، في المادة رقم 08 مايلى: "يتعين على كل شخص طبيعي أو معنوي، بحوزته معلومات

عن نظام قديم يدعى نظام "التوزيع"⁽²⁴⁾

أصبح المجتمع المدني من خلال جهوده الذاتية والتطوعية، عنصر مهم وعليه تتضاعف أهمية ما يقوم به اتجاه القضايا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية، إضافة إلى دوره الرئيس في مجال حماية البيئة ونشر الوعي البيئي.

وتتجسد مشاركة مؤسسات المجتمع المدني في حماية البيئة من خلال مايلي:

1. **التربية البيئية:** ونعني بالتربية البيئية محاولة تجنب الكثير من المشكلات البيئية التي تهدد نوعية حياة الإنسان وغيره من الأحياء على الأرض، عن طريق توضيح المفاهيم والخلافات المعقدة التي تربط الإنسان بالبيئة،⁽²⁵⁾ ويتمثل دور الجمعيات في نشر التربية البيئية من خلال، تدريب الأفراد لتحمل مسؤولياتهم، وتنمية وتطوير الشعور بالمواطنة، وتنشئة السلوك المدني على الوفاة، واثقاء الضرر البيئي مع ضرورة تحديد الجمهور المخاطب، والأماكن التي يمكن من خلالها الوصول إلى الجمهور والزمن المفضل للاتصال به.

2. **الدور التحسيسي:** قد يكون أنجح أنواع العمل البيئي هو " التوعية بالقوة " حيث لا ينحصر دور مؤسسات المجتمع المدني في الصلاحيات والإمكانات التي تتاح لها للمشاركة في حماية البيئة، وإنما يتعداه إلى تحسيس المواطنين ونشر الوعي البيئي، وتعريف الأشخاص بحقوقهم في العيش في بيئة نظيفة وسليمة.

3. مشاركة تنظيمات المجتمع المدني في بلورة القرارات البيئية: وذلك من خلال مايلي:

(1) **المشاركة في عقد المؤتمرات الخاصة بالبيئة والتنمية المستدامة:** مثل: مؤتمر ستوكهولم 1972، حيث شارك في هذا المؤتمر حوالي 1400 منظمة غير حكومية من بينها منظمات المجتمع المدني المختلفة. برنامج الأمم المتحدة للبيئة (PNU). مؤتمر ري ودي جانيرو 1992، وشارك فيه 2400 ممثل لمنظمات غير حكومية. مؤتمر جوهانسبورغ 2002. ومؤتمر كوبنهاجن 2009.

(2) **ممارسة الضغوطات على الحكومة:** وتقوم هذه الضغوطات على إرغام المسؤولين على المحافظة على البيئة، من خلال إراج البيئة في المخططات الوطنية للدولة، وسن قوانين تشريعية في مجال البيئة، ودرست الحق في بيئة نظيفة وسليمة، والعمل على وقاية البيئة من جميع أنواع الملوثات.

متعلقة بالعناصر البيئية التي يمكنها التأثير بصفة مباشرة أو غير مباشرة على الصحة العمومية، تبليغ هذه المعلومات إلى السلطات المحلية و، أو السلطات المكلفة بالبيئة.⁽²¹⁾ كما تنص المادة رقم 09 على حق المواطنين في الحصول على المعلومات عن الأخطار التي يتعرض لها في بعض مناطق الإقليم، وكذا تدابير الحماية التي تخصهم. ويطبق هذا الحق على الإخطار التكنولوجية والأخطار المتوقعة.⁽²²⁾

مما سبق يلاحظ أنه ورد تضيق للحق في الإعلام حول المخاطر الكبرى الطبيعية أو التكنولوجية على مستويين، يتمثل المستوى الأول في حصر هذا الحق على المواطنين فقط، أي للأشخاص الذين يحملون الجنسية الجزائرية، ويتمثل المستوى الثاني في تضيق هذا الحق وقصره على المواطنين الذين يقطنون المناطق التي تتواجد فيها مصادر المخاطر الكبرى، سواء الطبيعية أو التكنولوجية، وبذلك لا يجوز مثلاً لمواطن لا يقيم بمنطقة معرضة لمخاطر كبرى لمنشأة ما أن يطالب بحقه في الإعلام عن هذه المخاطر.⁽²³⁾

IV. دور المجتمع المدني في الإعلام والتوعية البيئية في الجزائر:

شهد مفهوم أو (مصطلح) المجتمع المدني ذيوعا وانتشارا كبيرين في السنوات الأخيرة، عالمياً ومحلياً، سواء على المستوى الأكاديمي أو السياسي أو الاجتماعي. وأصبح من المفاهيم الشائعة والمألوفة ومن ثم المقبولة، حيث نجده في الكتابات الصحفية، وفي أحاديث وسائل الإعلام، كما نجده في خطب وأحاديث الأحزاب السياسية والعديد من الجمعيات الثقافية والاجتماعية، وفي الخطاب الرسمي الحكومي، وفيما تورد مراكز البحث من تقارير ودراسات.

يمكننا القول بأن المواطنين الجزائريين قد تعارفوا عبر الزمن على ممارسات متنوعة من العمل التطوعي الجماعي الذي يعتبر كمفهوم محوري في الأدبيات التي ينادي بها منظرو مفهوم المجتمع المدني الحديث في عصرنا هذا، غير أنها وجدت بأشكال وأنماط تقليدية نابعة من تأثير العقيدة الإسلامية التي رسخت بين أتباعها مبادئ التطوع والتعاون والتكافل بين أفراد المجتمع الواحد، والحث على المسارعة في إنجاز الأعمال الخيرية من أجل نيل الثواب الدنيوي والأخروي وكأمانة على ذلك نجد نظام الحبوس والوقف الذي حافظ على تواجده منذ الفتح الإسلامي للجزائر إلى يومنا هذا، بالإضافة إلى المؤسسات الخيرية الأهلية، المرتبطة بالزوايا والطرق الصوفية المنتشرة عبر البلاد، هذا فضلا

أما السبب الخارجي فيرتبط بنمو مكانة المنظمات غير الحكومية، ومساهمتها المتعاضمة في إنجاح المبادرات الدولية لحماية المحيط، وكذا بسبب توصيات الملتقيات الدولية خاصة مؤتمر ستوكهولم 1972-التي تحت على إسناد دور أعظم للجمعيات البيئية، وخاصة تلك التي تعمل على المستوى المحلي.⁽²⁸⁾

وهكذا شرع في إقامة تعاون بين السلطات العمومية (ممثلة في وزارة البيئة) والجمعيات العامة في مجال حماية البيئة، على أسس تمويل المشاريع التي تنظم بها الجمعيات البيئية بواسطة الصندوق الوطني للبيئة.

وفي هذا الصدد أصدرت كتابة الدولة المكلفة بالبيئة التعليمية رقم 130 بتاريخ 21 أبريل 1998 موجهة إلى مفتشي البيئة بلولايات تطلب الاتصال بالجمعيات الإيكولوجية التي تنشط على مستوى كل ولاية، وإعلامها بإمكانية تمويل مشاريعها، وقد نتج عن هذه العملية استفادة 49 مشروع بيئي من التمويل تقمته به 34 جمعية على مستوى 21 ولاية.

لقد شكلت الجمعيات الإيكولوجية (البيئية) بمختلف نشاطاتها دعامة متينة للدولة في مجال حماية البيئة، كما لعبت دورا كبيرا في نشر الوعي البيئي لدى أفراد المجتمع المدني، إذ نجد اهتماما كبيرا للحركة الجمعوية بالشؤون البيئية، ونلمس ذلك من خلال العدد الهائل من الجمعيات التي تنشط في إطار البيئة، حيث بلغ عدد الجمعيات الإيكولوجية في سنة 2011، 32 جمعية معتمدة على المستوى الوطني، و917 جمعية بيئية معتمدة على المستوى المحلي - بعد أن كان العدد سنة 2000، حوالي 200 جمعية بيئية ما بين وطنية ومحلية.

يبين الجدولين التاليين تصنيف الجمعيات المعتمدة على المستوى الوطني، والمحلي لسنة 2011.

جدول رقم (2): يبين تصنيف الجمعيات الوطنية المعتمدة.

العدد	طبيعة الجمعية
25	الصدافة-المبادلات-التعاون
29	قدماء التلاميذ والطلبة
114	الثقافة-الفن-التعليم-التكوين
54	جمعيات ذات طابع متنوع

نحاول في هذه الدراسة تسليط الضوء على ثلاثة مؤسسات من مؤسسات المجتمع المدني في الجزائر، تعتبر مهمة في نشر الوعي البيئي وتحسيس الأفراد على حماية البيئة.

1. الجمعيات الإيكولوجية: Associations Ecologique: تشير كثير من القوانين الجزائرية والمواثيق الرسمية، إلى أنّ محاربة التلوث وحماية البيئة مصلحة وطنية تخص الجميع، ومهمة صعبة تعجز عن حملها المؤسسات الرسمية فقط.

فحماية البيئة قضية تهم كل فرد من أفراد المجتمع، لذلك فإن كل فرد يقع على عاتقه الالتزام بالحفاظ على البيئة التي يعيش فيها، وقد اختار المدافعون عنها صورة الجمعية للتنسيق بين الجهود، حيث تعتبر واجهة معبرة في الأنظمة الديمقراطية التي تنشط فيها هذه الجمعيات ولعبت كل منها في مجالها دورا هاما في حماية المواطن والبيئة التي يعيش فيها.⁽²⁶⁾

إلى غاية نهاية النصف الأول من التسعينات، لم يظهر نشاط بارز للجمعيات الإيكولوجية، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب منها، غياب الاعتماد، انعدام المقر، مشكل التمويل وتجاهل السلطات العمومية المحلية والوطنية لمعانات هذه الجمعيات.

ابتداء من النصف الثاني من التسعينات ظهرت إرادة السلطة في إشراك الجمعيات الإيكولوجية في تطبيق برامج هذا القطاع (قطاع البيئة)، نظرا للدور الذي يمكن أن تلعبه الحركة الجمعوية في مجال التحسيس والتوعية البيئية، إذ تعتبر همزة وصل بين الهيئات الرسمية والجمهور وقناة لإيصال الاهتمامات البيئية المدرجة في برامج الحكومة إلى كل شرائح المجتمع.⁽²⁷⁾

ويرجع تحول الموقف الرسمي من تجاهل الجمعيات الإيكولوجية في أشراكها في القضايا البيئية إلى طلبها بضرورة مساندة الدولة في هذه المهمة، إلى أسباب داخلية وأخرى خارجية، فالإدراك الصحيح لحجم المشاكل البيئية وتجربة التكفل الرسمي فقط بها، أثبت بما لا يدع مجال للشك بأن رفع التحدي يتطلب تضافر جهود الجميع، بما فيهم الأطراف غير الرسمية، وعلى رأسها الجمعيات البيئية، نظرا لاهتمامها بالمشاكل القاعدية والمباشرة المتولدة عن تردي البيئة، ولقدرتها على التجنيد فضلا عن خلفيات سياسية لدى المواطنين مرتبطة بعدم الثقة في كل ماهو رسمي، مما يدفع إلى عزوفهم عن المشاركة في إنجاح المبادرات الحكومية.

133	المستهلكون
2387	الشباب و الأطفال
654	السياحة و الترفيه
162	المتقاعدون و المسنون
696	النسوية
2214	التضامنية والخيرية
139	الإسعاف
539	الصحة والطب
86	التلاميذ والطلبة القدماء
77361	المجموع

المصدر: وزارة الداخلية والجماعات المحلية، سنة 2011.

قراءة في الجدولين:

من خلال الجدولين نلاحظ أن عدد الجمعيات البيئية على المستوى الوطني والمحلي، يعتبر عدد مقبول مقارنة بالجمعيات الأخرى، خاصة على المستوى المحلي إذ نسجل 917 جمعية بيئية أي بمعدل 20 جمعية بيئية على مستوى كل ولاية. لدى فالمشكلة لم تعد قائمة في عدد الجمعيات بل في مدى نشاط هذه الجمعيات وفعاليتها في الميدان.

2. النوادي البيئية: Clubs D' Environnemental:

تعتبر شريحة الشباب الشريحة الغالبة في بنية المجتمع الجزائري، فهي تشكل حوالي 75% من المجتمع، وعلى هذه الشريحة يتوقف نجاح أية سياسة بيئية ذات أبعاد مستقبلية، واعتبارا من ذلك تم الاتفاق بين وزارة الشبيبة والرياضة ووزارة البيئة وتهيئة الإقليم، بإنشاء نوادي لحماية البيئة (شباب بيئية) عبر مؤسسات وزارة الشباب والرياضة (دور ومراكز الشباب)، وهي فضاءات ينشط فيها الشباب في مجال حماية البيئة، كما تهئ هذه الفضاءات لنشر الوعي والثقافة البيئية لدى الشباب.

كما تم الاتفاق بين الوزارتين على إحداث جائزة سنوية لأحسن ناد لحماية البيئة، وتنظيم أسابيع إعلامية سنوية لهذه النوادي بمناسبة اليوم العالمي للبيئة، لعرض نشاطاتها خلال السنة بالإضافة إلى إحداث مجلة بيئية شهرية كهمة وصل بين هذه النوادي. وقصد تطوير هذه النوادي ونشاطاتها، تم إنشاء لجنة مشتركة دائمة بين الوزارتين، ولجان محلية على المستوى الولائي⁽²⁹⁾.

وفي هذا الصدد تشير الإحصائيات إلى وجود- أكثر من 916 ناد أخضر على مستوى 24 ولاية، منها 106 على

07	حقوق الإنسان
12	الطفولة والمراهقة
32	البيئة ومحيط العيش
18	الجمعيات الأجنبية
09	الأسرة الثورية
23	النسوية
17	المعاقون وغير المكيفين
19	التراث التاريخي
46	الشباب
34	التعاضديات
192	المهن المختلفة
10	الدينية
08	المتقاعدون والمسنون
131	الصحة
40	العلوم و التكنولوجيا
25	التضامن-الإسعاف-الجمعيات الخيرية
91	الرياضة و التربية البدنية
26	السياحة والترفيه
962	المجموع

المصدر: وزارة الداخلية والجماعات المحلية، سنة 2011.

جدول رقم(3): تصنيف الجمعيات المحلية المعتمدة.

العدد	طبيعة الجمعية
3013	المهنية
12805	الدينية
12219	الرياضة و التربية البدنية
8305	الفنون والثقافة
14100	أولياء التلاميذ
873	العلوم والتكنولوجيا
17059	لجان الأحياء
917	البيئة
1060	المعاقون وغير المكيفين

وأما في تنشئة أجيال ذي حس بيئي. وكل هذا تحت إشراف أساتذة جامعيين⁽³²⁾ وهذه النقلة النوعية استهدفت ما يربو عن ثمانية ملايين تلميذ.

ومن ناحية أخرى، تستقبل دار دنيا " بباب الوادي" ظهيرة كل يوم ثلاثاء، 24 تلميذا منخرطاً في النوادي الخضراء لمتابعتهم وتوجيههم، فضلاً عن تنظيم خرجات شهرية مع الأطفال لتحسيسهم حول مختلف المواضيع المتعلقة بالبيئة.

وتشير الإحصائيات إلى وجود 916 ناد أخضر على مستوى 24 ولاية، و766 منها توجد على مستوى المؤسسات التربوية و44 على مستوى مراكز التكوين.⁽³³⁾

وتتمثل نشاطات النوادي الخضراء في عدة أنشطة متنوعة منها، القيام بتنظيف المدرسة ومحيطها الخارجي، القيام بعملية غرس نباتات داخل وخارج المدرسة، إحياء المناسبات البيئية الوطنية الدولية، تنظيم المسرح الأخضر، إعداد المجلة البيئية، تنظيم زيارات ميدانية (الغابات، المحميات الطبيعية، المزارع الخاصة...)، تنظيم ورشات: المسرح، الأعمال التطبيقية، القصص والإعلام والاتصال. كل هذا تحت إشراف منشط يعمل على تطبيق البرنامج.

3. الأحزاب السياسية: **Les Partis Politiques**

بعد إقرار التعددية السياسية في الجزائر في دستور 23 فيفري 1989، والسماح بتأسيس جمعيات ذات طابع سياسي (أحزاب) ظهرت على الساحة الوطنية أحزاب تصل إلى 60 حزباً، تدور برامجها حول مواضيع متنوعة، ومن بين هؤلاء الأحزاب وجد حزبان أخذوا الشؤون البيئية أساساً لتأسيسهما، وهما "حزب البيئة والحريات" الذي تأسس في 29 أفريل 1991، وحزب "الحركة الوطنية من أجل الطبيعة والنمو" الذي تأسس 22 أوت 1992. وتزامن ظهور هذين الحزبين في فترة انعقاد مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية "ري ودي جانيرو" عام 1992، إذ كان دور الأحزاب السياسية في حماية البيئة، موضوعاً في جدول أعمال هذه القمة.

وإذا كان الحزب الأول تم حله سنوات قليلة بعد تأسيسه لأسباب عديدة، منها ضعف استجابة المحيط للشعارات التي كان يرفعها، فإن الحزب الثاني فهو في نشاط مستمر إلى الوقت الحالي فمن بين أهدافه: تحقيق التوازن بين التنمية الاقتصادية والحفاظ على البيئة، من أجل ضمان نصيباً من الثروات الوطنية لأجيال القادمة، تجميع الجمعيات الايكولوجية والمواطنين

مستوى دور الشباب،⁽³⁰⁾ وتتمحور أنشطتها حول إحياء الأيام البيئية الوطنية والدولية، تنظيم حملات تطوعية لتنظيف الأحياء وتهئية المساحات الخضراء، تنظيم مسابقات وخرجات استطلاعية وتحسيسية في الوسط الطبيعي، تنظيم أيام إعلامية للتوعية البيئية. وكل هذه النشاطات هي تطوعية غير مأجورة.

بالرغم من أهمية هذه النوادي البيئية-بيئة شباب- إلا أنها تعاني الركود بسبب نقص الإمكانيات-خاصة المادية-وضعف التأطير ونقص التجربة، وهو ما تحاول الوزارة المكلفة بالبيئة معالجته من خلال تنظيم دورات تكوينية لمؤطري النوادي البيئية.

بالإضافة إلى عنصر الشباب ودوره الكبير في حماية البيئة، فإنه لا يقل أهمية من ذلك شريحة الأطفال، إذ يعتبر الطفل أحسن استثمار لحماية البيئة، وبالأحرى فإن عملية التوعية والتحسيس البيئي الذي تعكف عليها الدولة، يجب أن تبدأ من المرحلة الطفولة، وذلك لغرس فيهم ثقافة حب البيئة والحفاظ عليها.

وتعتبر التربية البيئية وسيلة أساسية لترقية الحس البيئي لدى الصغار، وهو الأمر الذي يفسر الدور الريادي للنوادي الخضراء الموزعة عبر التراب الوطني والتي تعتبر فضاءاً للتسليّة والتربية خاصة أنها تجلب فضول الطفل في ما يخص البيئة، وكان هذا ثمرة الاتفاق الذي أبرمته وزارة البيئة وتهينة الإقليم ووزارة التربية الوطنية، لتحسين مستواهم بغرض تنمية التربية البيئية وتطويرها في المناهج المدرسية وتدعيم الحس البيئي من خلال البرامج التربوية في المؤسسات التربوية، وتشجيع الطفل ليصبح فاعلاً أساسياً في محيطه البيئي، وكذا السماح له بإدراك معرفة بيئته، وبذلك يصبح سفيراً للطبيعة.⁽³¹⁾

ومن منطلق أن الطفل أحسن استثمار لحماية البيئة، تم توجيه أهمية خاصة للتربية البيئية حيث أدمجتها وزارة التربية الوطنية في الوسط المدرسي- بأطوارها الثلاثة -كأداة بيداغوجية لغرس ثقافة الحفاظ على البيئة، عن طريق استحداث "المزارع البيداغوجية للأطفال، وإحياء المسرح الأخضر، وحقيبة النادي الأخضر والميثاق البيئي المدرسي، ودفتر المنخرط في النادي الأخضر وإصدار جوازات النظافة، وإثراء مكتبات المدارس بمراجع علمية ووسائط معلوماتية متخصصة في البيئة، كخطوة نحو تكريس السلوك البيئي الحضاري في أوساط التلاميذ، كما تم إنشاء ما يعرف بـ"النوادي الخضراء"، التي تعتبر أداة فعالة في غرس القيم البيئية، والحس البيئي لدى الأطفال وتغيير سلوكياتهم الخاطئة اتجاه البيئة،

والمؤسسات الاجتماعية العرفية كالعشيرة عن الإبداع فيها وتقديم بدائل طوعية نوعية للجمهور العام⁽³⁸⁾.

وقد عرف العمل الجماعي في ولاية غرداية انتشارا ملحوظا منذ صدور قانون الجمعيات 31/90 وهو في تزايد مستمر

2. الجمعيات البيئية في ولاية غرداية: شكلت الجمعيات البيئية في ولاية غرداية دعامة متينة للدولة في مجال حماية البيئة، كما لعبت دورا كبيرا في نشر الوعي البيئي لدى أفراد المجتمع، ونلمس هذا من العدد الكبير للجمعيات البيئية التي تنشط في الولاية، حيث بلغ عددها سنة 2010، 28 جمعية بعد أن كان عددها سنة 2009، 25 جمعية بيئية. فقد سجلت سنة 2010 إنشاء 218 نادي "شباب البيئة"⁽³⁹⁾

جدول رقم(4): يبين عدد الجمعيات البيئية حسب بلديات ولاية غرداية لسنة 2010.

الرقم	اسم الجمعية	البلدية
01	غرداية	8
02	المنيع	4
03	الضاية	0
04	بريان	2
05	متليلي	1
06	العطف	4
07	زلفانة	1
08	سبسب	1
09	بنورة	3
10	حاسي لفحل	00
11	حاسي القارة	00
12	المنصورة	1
13	القرارة	3
	المجموع	28

المصدر: مديرية التخطيط والتهيئة العمرانية

لولاية غرداية، سنة 2011.

جدول رقم(5): يبين بعض الجمعيات البيئية المعتمدة في ولاية غرداية.

الرقم	اسم الجمعية	البلدية
01	جمعية حماية البيئة	بنورة
02	جمعية حماية البيئة وترقية المجتمع	غرداية
03	جمعية حماية البيئة والوسط المدرسي	متليلي

حول برنامج يهدف إلى حماية البيئة وتحسين إطار المعيشة.⁽³⁴⁾

وبالرغم من هذه الأهداف المهمة، إلا أنه لم يكن للحزب أثر ميداني يذكر، لأسباب عديدة ولعل أبرزها ضعف تمثيله في البرلمان، وبالتالي صعوبة ترجمة أهدافه إلى مشاريع ميدانية.

وقد أعطت وزارة الداخلية والجماعات المحلية في سنة 2012 تراخيص لتأسيس 21 حزب جديد، حيث من 21 حزب ولا حزب سياسي كان ذو طبيعة بيئية. كما اختفى حزب الحركة الوطنية من أجل الطبيعة والنمو من المجلس الشعبي الوطني لانتخابات 20 ماي 2012، بعد أن كان قد تحصل على 07 مقاعد في المجلس الشعبي الوطني في الانتخابات التشريعية لـ 17 ماي 2007

وفي الأخير يمكن أن نقول أن هناك غياب شبه تام للأحزاب السياسية في الجزائر، في مجال الإعلام والتوعية البيئية.

V. دور الجمعيات البيئية بولاية غرداية في الإعلام البيئي:

تعد الحركة الجمعوية بمختلف أنواعها من التنظيمات المهمة المكملة لدور الأسرة والمدارس في تنشئة الأجيال، فهي عن طريق برامجها الثقافية والعلمية والبيئية والاجتماعية والرياضية المعدة على أسس علمية واضحة وضمن معايير اجتماعية هادفة، تستهدف الكشف عن المواهب الخلاقة والطاقات المتعددة التي يمتلكها الشباب خاصة، تشجع روح الابتكار والإبداع فيهم، واستغلال قدراتهم العقلية والجسمية لما ينفعهم ويعود بالخير عليهم وعلى مجتمعهم⁽³⁵⁾

1. المجتمع المدني في ولاية غرداية: إن الحركة الجمعوية في ولاية غرداية عرفت تواجدا منذ تواجد السكان⁽³⁶⁾ بهذه المنطقة، وتمثلت في التنظيمات العرفية التي تتكفل بتنظيم المجتمع وتوجيهه، ومنها على الخصوص العشيرة، كما عرفت الحركة الجمعوية في ولاية غرداية تواجدا بلصفاً رسمية في الفترة الاستعمارية، إلا أنها كانت بصفة محتشمة⁽³⁷⁾ وكانت تتميز بلعروشية والعصية، ومقتصرة أكثر على الجانب الفني، وتواصل هذا التواجد بعد الاستقلال وتنوع في مجالات مختلفة، "وقد تحسن أداء المجتمع المدني في ولاية غرداية وتبلور باتجاه نوع جديد يتميز بالتسامي عن الروابط العروشية، وتكريس التخصصية والوظيفية، تماثيا مع التغيرات الاجتماعية والفكرية التي تعرفها المنطقة وتلبية للحاجات المتجددة للغات الاجتماعية المختلفة، ساعية لتوفير خدمة علمة بالارتكاز على الكفاءات بغض النظر عن عصبيتها، حيث قام بألوار حضارية هلمة سد بها ثغرات عديدة يتسلل منها الفقر والجهل والآفات الاجتماعية، وهي مجالات عجزت كل من المؤسسات الاجتماعية للدولة

تسعى الجمعية لتحقيق ونقل أهدافها إلى أرض الواقع ضمن الإمكانيات والدعم المتوفر والمتاح لها، وقد قامت بالعديد من المشاريع والأعمال في مجال البيئة والمحافظة عليها وفي مجال التوعية البيئية، وذلك بالتعاون مع جهات ومنظمات وهيئات أخرى. ومن أهم نشاطات جمعية حماية البيئة نذكر: (41)

- نشاط تحسيس حول الطفولة والماء:

قامت جمعية حماية البيئة سنة 2002، بالشراكة مع برنامج الطفولة والماء، وجمعية التفكير والتبادل والنشاط (AREA-ED) للجزائر العاصمة، بنشاط تحسيسي لمدة 06 أشهر، متمثل في محاضرات وندوات وخرجات ميدانية تحسيسية حول المحافظة على المياه وكيفية التعامل مع الثروة المائية، موجه إلى تلميذات السنة السادسة لمدرسة نوح عائشة بني يزقن. ويهدف هذا النشاط إلى تحسيس وتوعية التلميذات على ضرورة حماية الثروة المائية كأساس لحياة البشرية.

- مشروع وادي انتيسة:

مشروع واد انتيسة" بني يزقن" يعتبر أول مشروع بيئي تقوم به الجمعية، أقيم المشروع بالتنسيق مع بلدية بنورة وبالشراكة مع المجموعة الأوربية. تمثل هذا المشروع في إزاحة الرمال من وسط سد بني يزقن (حوالي 100م²)، وقلع الأعشاب الضارة وأعشاش النخيل من وسط الوادي، وتنظيف المحيط المجاور للوادي، وكذا توسيع مساحة الوادي. مدة المشروع ثلاثة سنوات ابتداء من سنة 2002، وقام هذا المشروع كحل لإشكالية الفيضانات وما تلحقه من أضرار مادية وبشرية أثناء حدوثها. وعلى هامش المشروع أقيمت عدة دورات تكوينية للفلاحين، حول كيفية خدمة الأرض دون استعمال المبيدات والمواد الكيميائية (الفلاحة البيئية). وتم الإعلان لهذا المشروع عن طريق أنير إذاعة غرداية والهيئات العرفية في البلدة، إضافة إلى اللقنات والملصقات الجدارية، وكذا عبر لقاءات دورية قبل وأثناء وبعد المشروع مع الأطراف المعنية بالمشروع، المواطنين، المنظمات الرسمية (بلدية بنورة)، والهيئات العرفية (الأعيان)، الجمعيات، والفلاحون.

- مشروع سئل النفايات:

قامت جمعية حماية البيئة سنة 2004 بالتنسيق مع بلدية بنورة، وبعض الجمعيات البيئية في بلدية بنورة (جمعية البيئة لمدينة بنورة، وجمعية البيئة

04	جمعية حماية البيئة والمجتمع	القرارة
05	جمعية أو جريت للمحافظة على البيئة والتراث الثقافي	بريان
06	جمعية تلمزييت لحماية البيئة وترقية المحيط	العطف
07	جمعية المحافظة على البيئة وترقية المحيط	المنصورة
08	جمعية حماية البيئة والمحيط	زلفانة
09	جمعية أصدقاء البيئة	المنية
10	جمعية حماية البيئة وتنمية النخيل	حاسي القارة

المصدر: مديرية البيئة لولاية غرداية، سنة

2011.

في هذه الدراسة نحاول دراسة جمعيتين الجمعيات النشطة في مجال البيئة في مدينة غرداية، وهما جمعية حماية البيئة لمدينة بني يزقن (بلدية بنورة)، وجمعية حماية البيئة وترقية المجتمع لحي ثنية المخزن (بلدية غرداية) وهذا للوقوف على الدور الميداني الذي تقوم به هذه الجمعيتين اتجاه حماية البيئة ونشر الوعي البيئي، وكذلك دورها في تنمية الحس البيئي ونشر الثقافة البيئية لدى أوساط المجتمع، وكذا التعرف على أهم النشاطات البيئية التي قامت بها اتجاه البيئة، والوقوف على النتائج التي حققتها، ومعرفة الصعوبات التي تعيق مسارها.

1) دور جمعية حماية البيئة في الإعلام البيئي والتوعية البيئية: جمعية حماية البيئة، هي جمعية محلية ذات طابع بيئي، يقع مقرها في الباب الشرقي لمدينة بني يزقن (بلدية بنورة)، تم اعتمادها في 12 أكتوبر 1989، تحت رقم اعتماد 47/608، يبلغ عدد المنخرطين فيها حوالي 120 منخرط، تستهدف في نشاطها كل المواطنين من 07 سنوات إلى 77 سنة (40).

أنشأت جمعية حماية البيئة على يد مجموعة من الأساتذة والخبراء والمختصين بأمور البيئة والتنمية البيئية، وهي تعنى بحماية البيئة والحفاظ على الثروات الطبيعية في بلدية بنورة، وتعتبر من الجمعيات البيئية الرائدة في بلدية بنورة.

أهداف جمعية حماية البيئة:

- العمل من أجل تنمية مستدامة في الواحات.
- تحسيس المواطن بضرورة حماية البيئة.
- التعاون، التلاحم والتكاتف بين أفراد المجتمع وتبادل الخبرات مع الشركاء.
- إعادة الاعتبار للإرث المعرفي في ميدان تسيير الموارد الطبيعية وعصرنتها.

- تنظيم أيام تحسيسية حول إشكالية الماء:

هذا النشاط مكمل للنشاط الذي قامت به الجمعية مع تلميذات ابتدائية نوح عائشة، وبالتنسيق مع نفس الشركاء. مدة النشاط سنة كاملة 2008، 2009، استفاد منه كل تلاميذ بلدية بنورة المتمدرسين في قسم السنة السادسة الابتدائية، حيث تلقوا تكويناً نظرياً وتطبيقياً في مجال المياه، تمثل التكوين النظري في تعرف التلاميذ على المياه، مكوناته، ودوره في الحياة. أما الجانب التطبيقي فتتمثل في حضور التلاميذ لتجارب علمية حول الماء، خرجات ميدانية لخزانات المياه (Réservoirs)، زيارة أماكن تقسيم المياه في الواحات... إلخ، مع الإشارة أن النشاط سبقه تكوين لأساتذة السنة السادسة الابتدائية، وهذا ليشاركوا عملية تكوين وتحسيس التلاميذ في القسم. وكان الهدف من هذا النشاط تحسيس التلاميذ حول أهمية الماء وضرورة المحافظة عليه كعنصر أساسي للحياة، كذلك لجعل التلميذ عنصر فعال يتولى مهمة التحسيس والتوعية حول المياه في محيطه السكني.⁽⁴³⁾

- الحملات التطوعية:

تنظم جمعية حماية البيئة بمناسبة المولد النبوي الشريف من كل سنة، حملة تطوعية لنظافة مدينة بني يزقن، بالتنسيق مع بلدية بنورة، ولجنة إنقاذ الواحة المكونة من الهيئات العرفية ومنظمات المجتمع المدني. تعرف هذه الحملات مشاركة جمع غير من المواطنين يصل إلى حوالي 300 مشارك ومن كل الفئات، أطفال شباب رجال وكهول، حيث يقوموا بتنظيف المدينة (الواحات والمدينة) بإزالة الأوساخ والأعشاب وجمع النفايات وكومات الردم، وتصفية مجرى واد اننيسة، رش مادة الجير على المياه الراكدة في وسط الوادي... إلخ، تدوم مدة الحملة حوالي 08 ساعات، وتحتم بوجبة غذاء على شرف المشاركين. ويتم الإعلان والتحسيس للمشاركة في هذه الحملات، عبر تأثير إذاعة غرداية وعبر مساجد بني يزقن، وعن طريق اللافتات والملصقات الإعلانية.

- تنظيم ملتقى ميلاد الشبكة المغربية للجمعيات المهتمة بالتنمية المستدامة في الواحات:

احتضنت جمعية حماية البيئة سنة 2001، بمدينة بني يزقن، ملتقى ميلاد الشبكة المغربية للجمعيات المهتمة بالتنمية المستدامة في الواحات (LE RADD)، بعد ملتقى تونس سنة 2000 الذي يعتبر بداية فكرة إيجاد شبكة LE RADD، وكان ملتقى بني يزقن (بلدية بنورة) ميلاد لهذه الشبكة، حيث نوقش في الملتقى تأسيس الشبكة، والتي تضم 07 جمعيات: جمعيتا (CARI، CCFD) من فرنسا، جمعية

لحي سيدي اعجاز) في وضع 120 سلة نفايات، في مختلف أحياء بلدية بنورة، وفي المدارس الابتدائية والساحات العمومية لبلدية بنورة.

- ترميم الآبار وقنوات مياه الأمطار:

قامت جمعية حماية البيئة في الفترة الممتدة بين سنة 2004 إلى سنة 2009، بالتنسيق مع بلدية بنورة، وبالشراكة مع CCFD (جمعية بيئية فرنسية)، والوكالة الكتالانية للشراكة والتنمية (إسبانيا)، ومجلس النواب لولاية ألمريا (إسبانيا)، في ترميم 27 بئر تقليدي في واحة بني يزقن. كما قامت الجمعية بالتنسيق مع بلدية بنورة وبالشراكة مع المجموعة الأوروبية، وفي إطار المنظمات غير حكومية 02 (ONG) بترميم قناة مياه الأمطار "تغريبت" (الغربية) بواحة بني يزقن بطول 1000م، وتمثل الترميم في إعادة بناء المناطق المهدمة، إعادة التوصيل بين الأجزاء المنفصلة في القناة، إزالة الرمال من داخل القناة... إلخ.⁽⁴²⁾

- القيام بدورات تكوينية في الفلاحة البيئية:

تقوم جمعية حماية البيئة منذ سنة 2006 إلى الوقت الحالي، بالتنسيق مع بلدية بنورة وبالشراكة مع الاتحاد الأوروبي، وCCFD، CARI (جمعيتان بيئيتان من فرنسا) وACCD (جمعية بيئية إسبانية) وفي إطار شبكة RADD (شبكة جمعيات التنمية المستدامة بالواحات)، بتنظيم دورات تكوينية في الفلاحة البيئية. الدورات التكوينية مقسمة إلى قسمين، جانب تكويني مخصص للمكونين، يتكفل به شبكة LE RADD، ويتمثل في تقنيين ومتخصصين في الفلاحة وعددهم 12 مشارك، أما الجانب الثاني مخصص للفلاحين المحليين والوطنيين، ويبلغ عدد المشاركين في كل دورة حوالي 60 مشارك، يتكفل التقنيين والمتخصصين في الفلاحة، المكونين من قبل LE RADD بتكوينهم في مجال الفلاحة البيئية، والمتمثل في كيفية التجرد الكلي من استعمال المبيدات الكيميائية معالجة الأعشاب الضارة بطريقة طبيعية دون الأسمدة الكيميائية، كيفية تحضير السماد الطبيعي كيفية تطبيق طريقة الدورات الزراعية في الفلاحة، كيفية اقتصاد الماء في الزراعة... إلخ، هذه الدورات تقام مرة في كل سنة، وهدفها توعية الفلاحين اتجاه تطبيق الفلاحة البيئية في نشاطهم الزراعي.

رسائل بيئية، ملف العدد، سؤال الشهر.

- مشاركة جمعية حماية البيئة في الحصة البيئية التي تبثها إذاعة غرداية الجهوية، وآخر مشاركة لها كانت يوم الخميس 16 فيفري 2012، في حصة بيئية بعنوان " البيئة والحياة " فهي حصة مسجلة (غير مباشرة) لمدة 45د. حيث نوقشت في الحصة مجموعة من النقاط منها: المشاكل البيئية الكبرى، تطور العمران وتأثيره على البيئة، تأثير الأنماط الفلاحية الحديثة على البيئة،...⁽⁴⁴⁾

- للجمعية موقع على النت وهو نفسه موقع LE RADDو، www.raddo.org، فهو فضاء لتبادل الخبرات والمشاريع بين أعضاء شبكة LE RADDو، فضاء لطرح المواضيع البيئية المتعلقة بنظام الواحات، الإشكاليات البيئية التي يعاني منها نظام الواحات...

بالرغم من النشاطات البيئية الكبيرة التي تقوم بها جمعية حماية البيئة، إلا أنها تعاني من بعض الصعوبات والمشاكل في إطار أنشطتها البيئية، فهي تعاني من بيروقراطية البنوك عند ضخ الأموال، إذ مشاريع الجمعية أغلبيتها ذات تمويل خارجي، والحصول على هذا التمويل يكون عن طريق البنوك، لهذا فهي تعاني كثيرا من الإجراءات البنكية البطيئة والطويلة. إضافة إلى هاجس قانون الجمعيات الذي قيد الإصدار، فهو يمنع التمويل الخارجي للجمعيات، فإذا حدث هذا سيعني وضع حد لنشاطات الجمعية. إضافة إلى أن هناك بعض الإشكاليات البيئية تفوق صلاحيات الجمعية، منها على سبيل المثال مصانع الأجور (carrelage) أو البلاستيك أو المصانع الأخرى الموجودة في المنطقة الصناعية بنورة، والتي تساهم في تلوث البيئة، الدولة والمواطنون يعلمون أنها تلوث البيئة، فالجمعية تقوم بدورها التوعوي والتحسيني مع مسؤول المصنع، وإذا لم يوقف نشاطه فالجمعية لا تملك سلطة ردعية لوقف نشاطه، وهذا ليس من صلاحياتها، وبالتالي فالدولة إذا لم تتدخل فإن هذا التلوث سيستمر⁽⁴⁵⁾.

(2) دور جمعية حماية البيئة وترقية المجتمع في الإعلام البيئي والتوعية البيئية: جمعية حماية البيئة وترقية المجتمع، جمعية ذات طابع إنساني بيئي، يقع مقرها مقابل مكتب بريد الثانية المخزن ببلدية غرداية، تم اعتمادها في 18 نوفمبر 2000، تحت رقم 072، تنشط على مستوى سهل واد مزاب، يبلغ عدد منخرطيها حوالي 300 منخرط،

(Cives Mundi) من إسبانيا، جمعية (Alcesdam) من المغرب، جمعية (Asoc) من تونس، جمعية (Tenmiya) من مريطانيا، إضافة إلى جمعية حماية البيئة (APEB)، الأسس التي تتبني عليها هذه الشبكة، طبيعة العلاقة بين الأعضاء، اسم الشبكة... إلخ، وعرف الملتقى حضور 30 شخصية ممثلة لجمعيات الشبكة.

- ورشة التكوين في الأمن البيولوجي:

نظمت جمعية حماية البيئة سنة 2009، بمركز الإعلام والشباب بمدينة غرداية، وبالتنسيق مع جمعية التفكير والتبادل والنشاط (AREA-ED) للجزائر العاصمة، وجمعية (INFOGM) الفرنسية، وبحضور أخصائيين من فرنسا وألمانيا وإسبانيا، ورشة عن تأثير الأجسام المعدلة جينيا على الفلاحة الريفية والأمن البيولوجي والغذائي، وكان الهدف من هذه الورشة محاولة تبسيط مفهوم " الأجسام المعدلة جينيا" للمواطنين، وتحسيسهم بخطورته على صحة المواطنين وعلى الأمن الغذائي.

وفي سنة 2010 -أي بعد سنة من تنظيم ورشة التكوين في الأمن البيولوجي- نظمت جمعية حماية البيئة معرض بيداغوجي حول الأجسام المعدلة جينيا موضوع تساؤل، بعشيرة " أت خالد" (بني يزقن) لفائدة طلبة المستوى النهائي للمؤسسات التعليمية بسهل واد مزاب، وتم تسجيل حضور حوالي 500 طالب، وكان المعرض عبارة عن لوحات وملصقات جدارية وصور تعريفية لمفهوم " الأجسام المعدلة جينيا" وبيان خطورته وتأثيره على صحة الإنسان، وكذا خطورة انعكاسه على الأمن البيولوجي والغذائي، كما نظمت الجمعية مسرحية تعريفية لمفهوم " الأجسام المعدلة جينيا" بقاعة سينما مزاب ببلدية غرداية.

- المجلات والنشريات والحصص الإذاعية:

لجمعية حماية البيئة مجلة سنوية بعنوان: مجلة الواحات (من واحة إلى أخرى)، العدد الأول صدر في أكتوبر 2010، هذه المجلة تصدر في إطار شبكة RADDو (شبكة جمعيات التنمية المستدامة بالواحات)، تهتم هذه المجلة بنظام الواحات والمحافظة عليه كموروث بيئي، وصيانتها باعتبارها مصدر غذاء للأجيال المقبلة. تحتوي المجلة على 06 أبواب: أصداء الميدان، ملف العدد، تحت المجهر، لمعرفة المزيد، مستجدات الرادو. والمجلة تصدر بالعتين العربية والفرنسية.

للجمعية كذلك نشرية إعلامية شهرية بعنوان (تَدْلِيَت) أي الخضراء، العدد الأول صدر في جانفي 2001، تضم النشريات مجموعة من المحاور وهي: الافتتاحية، إشكالية البيئة، أخبار جمعية حماية البيئة

وتغطي عملية التشجير عديد من مناطق مدينة غرداية منها، منطقة واد نشو، منطقة بوهرارة، منطقة النومرات، محاذة مجرى واد مزاب، حي ثنية المخزن، بعض المدارس الابتدائية في منطقة ثنية المخزن، وفي بعض مقابر المنطقة. وتسعى الجمعية من خلال هذه الحملات إلى تربية النشء على حب الطبيعة وحمايتها، وأهمية المحافظة على الشجرة والاعتناء بها كرمز للحياة.

- حملات تنظيف جوارية:

في كل سنة تقوم جمعية حماية البيئة وترقية المجتمع، بتنظيم حملات تنظيف جوارية بالتنسيق مع بلدية غرداية، تمس حي ثنية المخزن وبعض الأحياء المجاورة، حيث سكان الأحياء يقومون بعملية التنظيف وتتولى الجمعية مهمة توفير عتاد العمل من خباشات وجرافات وشاحنات، وحمل الأوساخ والنفايات والردم. ويتم الإعلان لهذه الحملات عبر منابر مساجد المنطقة. وتسجل الجمعية في كل حملة مشاركة حوالي 50 متطوع، وتهدف هذه الحملات إلى تحسيس المواطنين بضرورة حماية المحيط، والعمل على ترقية الذوق الجمالي للمواطن.

- ندوات ومحاضرات بيئية تحسيسية عبر البيوت، وعبر المدارس.

تقوم جمعية حماية البيئة وترقية المجتمع بمناسبة العطلة الشتوية والربيعية ببرمجة عدة لقاءات بيئية تحسيسية موجهة للمرأة المقيمة في البيت، وإلى تلاميذ المدارس الابتدائية. إذ قامت الجمعية بتكوين 05 مرشدين في مجال التحسيس البيئي، وظيفتهن القيام بزيارات بيئية إلى بعض البيوت المتواجدة في حي ثنية المخزن وملكية والحاج مسعود، حيث يلتقين بربات البيوت ويقمن لهن بعض النصائح والإرشادات البيئية، مثل، أهمية النظافة وحماية المحيط، إخراج النفايات المنزلية في وقته المناسب أي في أوقات مرور شاحنات جمع القمامات، أهمية المحافظة على الماء كمورد طبيعي قابل للنفاذ إذا لم نحسن استغلاله... إلخ. إضافة إلى توزيع نشرات تحمل نصائح وإرشادات بيئية ومن مهام هؤلاء النبات كذلك تنظيم ندوات ومحاضرات بيئية تحسيسية في مراكز الثقافة موجهة للنساء، يتطرقن فيها إلى عدة مواضيع بيئية منها، الإسلام والنظافة، التربية البيئية في الإسلام، أهمية المحافظة على الأشجار، الأمراض المنتقلة عبر المياه، أسباب التلوث البيئي وكيفية القضاء عليه تحسيس حول ترشيد استعمال الطاقة... إلخ. وفي الأخير يقمن بإعداد

وتستهدف نشاطاتها كل المواطنين "الأطفال والشباب والرجال والنساء".⁽⁴⁶⁾

رسالة الجمعية أن تساهم في الحفاظ على البيئة بكل عناصرها من أرض وهواء وماء وتنوع حيوي، عن طريق العمل على رفع مستوى الوعي البيئي وتعزيز المهارات الفنية والبيئية لدى الأفراد مع التركيز على المرأة والأطفال والشباب وذلك بالتعاون مع المؤسسات الحكومية وغير الحكومية ذات العلاقة.

أهداف جمعية حماية البيئة وترقية المجتمع:

- ترقية الذوق الجمالي للمواطن وترقية أفكار المجتمع في شتى المجالات.

- القيام بتوجيه وإرشاد المواطنين تربوياً وبيئياً عبر المدارس والبيوت، من خلال مرشدين ومرشحات بيئياً لدى الجمعية.

- العمل على المحافظة على ممتلكات الحي وتوفير الإنارة بها.

- إجراء ندوات تحسيسية خاصة لربات البيوت حول المحافظة على نظافة المدينة وجمالها وتنشيط العمل الثقافي.

- تربية النشء على حب الطبيعة وحمايتها وذلك بإقامة رحلات بيئية ثقافية ترفيهية.

لتحقيق هذه الأهداف، تقوم جمعية حماية البيئة وترقية المجتمع بعدة أنشطة بيئية سنوية، تتدرج في إطار نشر الوعي البيئي وحماية البيئة في أوساط المجتمع، منها:⁽⁴⁷⁾

- حملتا تنظيف وحملتا تشجير في كل سنة.

تقوم جمعية حماية البيئة وترقية المجتمع في كل سنة بحملتي نظافة وحملتي تشجير، بالنسبة لحملتي النظافة تتزامن بمناسبة عيدي المبارك والأضحى، حيث يقوم عدد من مواطني حي ثنية المخزن من أطفال وشباب ورجال ونساء بتنظيف المنطقة وإزالة الأوساخ وجمع النفايات وطلاء الجدران، ويتم الإعلان لهاتين الحملتين عبر تأثير إذاعة غرداية الجهوية وعبر منابر مساجد المنطقة كمسجد عمر بن الخطاب(ض) ومسجد بدر. أما بالنسبة لحملتي التشجير فتتزامن في 21 مارس و25 أكتوبر من كل سنة، بالتنسيق مع بلدية غرداية ومحافظة الغابات لولاية غرداية، ومشكلة بريان وزلفانة، مع مشاركة النادي البيئي التابع للجمعية، وبمشاركة حوالي 30 عضو من أعضاء الجمعية أغلبيتهم من فئة الأطفال، إضافة إلى بعض المتطوعين، وتقوم الجمعية في كل حملة بغرس حوالي 150 شجيرة، وقد اعتمد في عملية التشجير مبدأ شجرة لكل طفل.

ومجلات ودوريات ونشريات، وهذه المكتبة مخصصة لفئة الأطفال، للمطالعة وإنجاز بحوثهم ووجباتهم المدرسية، وتهدف هذه المكتبة إلى تنمية الثقافة البيئية، ونشر الحس البيئي لدى الأطفال.⁽⁴⁹⁾

- معاينة الأماكن المهمة عبر منطقة غرداية:

تقوم جمعية حماية البيئة وترقية المجتمع بالتنسيق مع النادي البيئي للجمعية، مرة في كل شهرين بمعاينة الأماكن المهمة والملوثة عبر مدينة غرداية، والقيام بتنظيفها رفقة الأطفال. يصل عدد المشاركين في هذا النشاط إلى حوالي 50 طفل من مختلف الفئات العمرية ومن كلا الجنسين، حيث يقوموا بجمعية أعضاء الجمعية بتنظيف وتزيين بعض المناطق الملوثة في مدينة غرداية، كحي ثنية المخزن، حي واد نشو، حي مرماد، وبوهرارة..، وجمع القمامات والنفايات، وغرس الأشجار في جوانب الطريق، ووضع سلال النفايات في المناطق السكنية. ويهدف هذا النشاط إلى إيجاد الإحساس البيئي لدى الأطفال وتنمية الذوق السليم في نفوسهم.

- رصد أهم المشاكل البيئية في المجتمع:

تقوم جمعية حماية البيئة وترقية المجتمع في فترات متقطعة، بجولة عبر مناطق بلدية غرداية (بوهرارة، ثنية المخزن، واد نشو، مرماد، حاج مسعود) ومعاينتها ورصد أهم المشاكل البيئية التي تعاني منها المنطقة، وإرسالها إلى السلطات المحلية في ولاية غرداية، كرئيس المجلس الشعبي البلدي لبلدية غرداية، رئيس المجلس الشعبي الولائي لولاية غرداية، مديرة البيئة لولاية غرداية، مديرة الصحة للولاية، مديرية السكن وال عمران للولاية. وهذا لطلب التدخل والقضاء على هذه المشاكل، وكذا العمل على إيجاد محيط نظيف وسليم.

- مسابقة أنظف حي وأنظف مدرسة:

تقام هذه المسابقة بالتنسيق مع بلدية غرداية ومديرية البيئة، حيث تقوم الجمعية في كل السنة بجولة سرية إلى بعض أحياء مدينة غرداية، كحي ثنية المخزن، حي مرماد، حي حاج مسعود، وتقوم بمعاينتها، وتختار أنظف وأجمل حي، وتقوم الجمعية باستدعاء أطفال المنطقة وتكرمهم في حفلة بالمناسبة، وتتمثل الهدايا المقدمة للأطفال في أدوات النظافة مثل، الصابون، المكينة، دلاء مناشيف... وتهدف هذه المسابقات إلى تشجيع الأطفال على حماية البيئة وتنظيف المحيط.⁽⁵⁰⁾

- تنظيم دورات رياضية تحمل شعارات بيئية:

تقرير عن مشاكل كل حي يرسل إلى بلدية غرداية. كما قامت الجمعية بالتنسيق مع 05 متخصصين في المجال البيئي وبالتنسيق مع مديرية التربية لولاية غرداية، ببرمجة زيارات بيئية إلى بعض المدارس الابتدائية في مدينة غرداية، والاجتماع بالتلاميذ وتقديم لهم نصائح وإرشادات بيئية متعلقة بأهمية النظافة، تجنب رمي القمامات، غسل اليدين قبل وبعد الأكل، استعمال المنديل عند العطس أو السعال، تجنب إهدار المياه، الابتعاد عن اللعب في المياه الراكدة، المحافظة على الأشجار وعدم قطعها... الخ.⁽⁴⁸⁾

- المعارض البيئية:

تنظم جمعية حماية البيئة وترقية المجتمع في كل سنة معرضين إعلاميين، الأول في 05 جوان بمناسبة اليوم العالمي للبيئة، والثاني عند اختتام الموسم الاجتماعي (في نهاية السنة الدراسية) ويعرض في هذين المعرضين أهم الأنشطة البيئية التي قامت بها الجمعية منذ تأسيسها (حملات تنظيف، حملات تشجير، المشاركة في الملقنيات...)، وتقام هذه المعارض في عدة مناطق من مدينة غرداية منها، قاعة المحاضرات لديوان مؤسسة الشباب (FAJ)، قاعة سينما مزاب، منطقة بوهرارة. كما أن هذه المعارض تقام في بعض الأحيان بالاشتراك مع بعض الجمعيات المحلية والوطنية، كجمعية حماية البيئة والمجتمع لمدينة القنطرة، جمعية حماية البيئة والمحيط لولاية بومرداس، وجمعية حماية البيئة لولاية الطارف. ويعتبر المعارضين فرصة لنشر الوعي البيئي والمحافظة على المحيط، كما تعتبر وسيلة إعلامية مهمة من خلالها يتم تنمية الثقافة البيئية لدى المواطنين.

- حصص بيئية ثقافية موجهة للأطفال المتمدرسين والشباب:

تقام هذه الحصص بالتنسيق مع إذاعة غرداية الجهوية، إذ للجمعية حصص بيئية غير مباشرة بعنوان "نصائح بيئية" من تنشيط مهندسة بيئية، تسجل كل ثلاثة أيام لمدة 15 دقيقة، وتداع يوميا من 11:45 إلى 12:00. يتم من خلال هذه الحصص تقديم نصائح وإرشادات بيئية منها، مكافحة التلوث البيئي، مكافحة التصحر، حماية الغطاء النباتي، الاعتناء بالغابات، المحافظة على المياه، الاستغلال العقلاني للطاقة، التوازن البيئي، التنمية المستدامة... الخ،

- المكتبة الخضراء للأطفال:

تحتوي جمعية حماية البيئة وترقية المجتمع على مكتبة خضراء، تضم حوالي 90 مرجع بيئي بين كتب

الحية، مما أدى إلى ظهور الكثير من العواقب السيئة على صحة الإنسان والكائنات الأخرى، ويعتبر الوعي البيئي من خلال الإعلام البيئي، الوسيلة الأكثر فعالية للحد من هذه العواقب، وهذا بوضع المجتمع أمام مسؤوليته في التعامل مع قضايا البيئة، وتأتي ضرورة تنمية الوعي البيئي عند الأفراد من خلال التربية والثقافة البيئية عن طريق الأسرة والمدرسة ودور العبادة، والتأكيد على دور الإعلام والجمعيات البيئية، ويأتي هذا بنشر المعلومات الخاصة بالمشكلات البيئية والدعوة إلى استخدام مواردها استخداماً سليماً.

وتعتبر الجمعيات البيئية من أهم مؤسسات المجتمع المدني في إيقاظ الوعي الناقد للعوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتكنولوجية والأخلاقية، الكامنة في جذور المشكلات البيئية، كما تتعاطى أهميتها في غرس مبادئ الثقافة البيئية في أوساط المجتمع من خلال تهيئة الأفراد للحفاظ على البيئة وحمايتها، باعتبارها مؤسسات اجتماعية وتربوية وتكوينية.

وبينت الدراسة التي قمنا بها حول دور الجمعيات البيئية في الإعلام البيئي بمدينة غرداية، إلى استخلاص عدد من النتائج، هي كالآتي:

- هناك تواجد عدد كبير من الجمعيات البيئية في ولاية غرداية، حوالي 26 جمعية، لكن تواجدها وفعاليتها في الميدان مازال ضعيفاً.

- لازالت هذه الجمعيات غير مؤهلة بشكل جيد نظراً لأنها تجمعات تطوعية، والقائمون عليها غير متخصصين في البيئة.

- هناك تفاوت كبير في الإمكانيات المادية والمالية والعلاقة مع السلطات المحلية، بين الجمعيات البيئية التي تنشط في تراب بلدية غرداية، وبين التي تنشط في حدود بلدية بنورة.

- بينت الدراسة أن كلا الجمعيتين يوظفن تقنيات الإعلام والاتصال في عملية التوعية البيئية، مثل الندوات والمحاضرات، المعارض والدورات التكوينية، الخرجات الميدانية والحملات التطوعية، المجلة والنشريات والإذاعة، مع تسجيل غياب شبه كلي للجرائد والتلفزيون.

- وجدنا في هذه الدراسة نقص الاتصال والتواصل بين هذه الجمعيات، بالرغم من أننا نعيش في عصر تكنولوجية الإعلام والاتصال.

في الأخير لا بد أن نشير إلى أنه بالرغم من النقائص العديدة التي تشوب عمل الجمعيات البيئية، إلا أنه لا يمكن أن نجهل الدور الذي قامت

بمناسبة العطلة الصيفية من كل سنة، تنظم جمعية حماية البيئة وترقية المجتمع بالتنسيق مع بلدية غرداية ومديرية الأمن لولاية غرداية، دورة رياضية في كرة القدم، تحمل شعاراً بيئياً، مثل، دورة المنظر الجميل، دورة من أجل بيئة نظيفة وسليمة، دورة سنة بلا تلوث، دورة كلنا ضد التلوث،... ويتم الإعلان لهذه الدورات عن طريق تأثير إذاعة غرداية، وعبر ملصقات في مختلف مناطق وأحياء بلدية غرداية، حيث تتقدم الفرق لتأكيد حضورها، ويطلق على كل فريق اسماً من مكونات البيئة مثل، فريق الأرض، فريق الأكسجين، فريق الهواء، فريق الصحراء، فريق النخلة، فريق الشجرة، فريق الماء، فريق الأوزون،... ويصل عدد الفرق المشاركة إلى 10 فرق، وتدوم فترة الدورة 20 يوماً. وتهدف هذه الدورات إلى تشجيع الرياضة البيئية.

- تنظيم خرجات بيئية:

تنظم جمعية حماية البيئة وترقية المجتمع بمناسبة عطلة الشتاء والربيع، خرجات ميدانية ترفيهية تحسيسية في إطار التوعية البيئية لفائدة أطفال الجمعية، منها خرجات إلى بلدية بريان، بلدية زلفانة، وبلدية القرارة. وتدوم مدة الرحلة يوم ونصف، حيث يتعرف الطفل على أهم معالم المنطقة الزائرة، ويكتشف الأماكن السياحية والبيئية للمنطقة.

بالرغم من الدور التحسيسي التي تقوم به الجمعية اتجاه البيئة، وبالرغم من تسخيرها لمرشدين ومرشدات يقوموا بنشر الثقافة البيئية في أوساط المجتمع، إلا أن الجمعية تتصادم في كثير من الأحيان بمعوقات تحد من نشاطها، منها إهمال السلطات المحلية وخاصة البلدية لدورها اتجاه حماية البيئة، ومن صور هذا الإهمال أن شاحنات جمع القمامات ليس لها موعد محدد لجمع النفايات، وعدم مرورها إطلاقاً في أوقات أخرى، حيث الجمعية توعي السكان بتنظيف محيطهم والدولة تتخلى عن دورها في جمع النفايات والأوساخ، إضافة إلى نقص التمويل المالي، وقلة الإمكانيات.⁽⁵¹⁾

الخاتمة:

حاولنا في هذه الدراسة إلقاء الضوء على دور منظمات المجتمع المدني وبالأخص دور الجمعيات البيئية. في التوعية البيئية، باعتبار أن مؤسسات المجتمع المدني بمختلف أشكالها وأنواعها، لها دور كبير وفعال في عملية التوعية البيئية، لما تتمتع بها من خصائص ولما تقوم به من وظائف.

إن التقدم العلمي والتكنولوجي الذي شهده العالم أحدث خلافاً في النظام البيئي ومكوناته الحية وغير

به-ولا تزال-في توعية المواطنين نحو حماية البيئة والمحافضة على المحيط، كما لا يمكن أن ننكر الجهود التي قامت بها في سبيل تحقيق بيئة

الهوامش:

- 1 - أحمد اللهيب، المتطلبات الأساسية للإعلام الإسلامي ومميزاته، (المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، الرياض، 1996)، ص 19.
- 2- Gillian Martin Mehers, Manuel de Planification de la Communication Environnemental Pour la Région Méditerranéenne(Editeur Suisse, Suisse,1992) , p.01
- 3 -أحمد ملحة، الرهانات البيئية في الجزائر، (مطبعة النجاح، الجزائر، 2000)، ص 135.
- 4 -سعد الدين إبراهيم، وآخرون، دور الجامعات ومراكز البحث في دعم ثقافة المجتمع المدني، (دار الأمين بالاشتراك مع مركز ابن خلدون للدراسات، مصر، 1997)، ص 16.
- 5 -انظر: ابن النظير، لسان العرب، القاهرة: دار المعارف، ص، 382.
- 6 حسين عبد الحميد أحمد رشوان، البيئة والمجتمع: دراسة في علم اجتماع البيئة، (المكتب الجامعي الحديث، مصر، 2006)، ص 03.
- 7 -المرجع نفسه، ص 04.
- 8- حسين عبد الحميد أحمد رشوان، مرجع سبق ذكره، ص 04.
- 9- William Illtson and Harald M.proshonsky, An introduction to Environmental Psychology, (New York, 1974), p.24.
- 10-يونس إبراهيم أحمد مزيد، البيئة والتشريعات البيئية (دار الحامد للنشر والتوزيع، الأردن، 2008)، ص 21.
- 11- ربحي مصطفى عليان، عثمان محمد غنيم، مناهج وأساليب البحث العلمي، النظرية والتطبيق، ط1، (دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2000)، ص 102.
- 12- عبد العزيز عبد الله أحمد الشايع، الإعلام ودوره في تحقيق الأمن البيئي (مذكرة ماجستير غير منشورة) أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، سنة 2003، ص 10.
- 13-المرجع نفسه، ص 79.
- 14-تتميز صحيفة الوطن "El-Watan" التي تصدر بالفرنسية بتغطية معمقة لقضايا البيئة، خاصة تلك المرتبطة بالمعاهدات والمؤتمرات البيئية الدولية. في حين تتميز صحيفة "الخبر" الصادرة بالعربية، بتغطيتها المتواصلة لمواضيع البيئة، من خلال الأخبار والتحقيقات التي يتولاها محرر متخصص. وإلى جانب تغطيتها بشكل مكثف لنشاطات وزارة تهيئة الإقليم والبيئة.
- 15-الصحف الوطنية اليومية: الناطقة بالعربية: الخبر، الشروق اليومي، الأحداث، الفجر، الأحرار، الشعب، البلاد، اليوم، الوسط، الجزائر نيوز، الأيام الجزائرية. الناطقة بالفرنسية: La nouvelle république, le maghreb, la tribune, el watan, l'expression, le quotidien d'oran, liberté, el moudjahid, le jour, la dépêche de kabylie, le jeune indépendant, et le courrier.
- 16- نجيب صعب، "البيئة في وسائل الإعلام العربية"، الملتقى الإعلامي العربي الأول للبيئة والتنمية المستدامة، القاهرة، 27 - 2006/11/29.
- 17-مقابلة مع الإعلامية جميلة إيعيش، مقدمة الحصة البيئية " راصد بيئية"، يوم الأربعاء 08 ديسمبر 2010، على الساعة 12:00 (منتصف النهار)، بمقر إذاعة غرداية الجهوية، المتواجد بمقر ولاية غرداية.
- 18-رضوان سلامن، مرجع سبق ذكره، ص 110.
- 19-أنظر: قانون البيئة 03-10، الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية، العدد 43، (20 جويلية 2003)، ص 09.
- 20-المرجع نفسه ، ص 10.
- 21-المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 22-المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 23-وناس يحي، الآليات القانونية لحماية البيئة في الجزائر (رسالة دكتوراه غير منشورة) جامعة تلمسان، سنة 2007، ص 162.
- 24-أحمد حويطي، "العمل التطوعي والأمن: التجربة الجزائرية"، ورقة مقدمة إلى مؤتمر العمل التطوعي والأمن في الوطن العربي، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية بالملكة العربية السعودية، في الفترة ما بين 25، 27 سبتمبر 2000.

- 25- محمد خليل الرفاعي، "أثر وسائل الإعلام في تكوين الوعي البيئي" مجلة المستقبل العربي، العدد 215، 1997، ص 75.
- 26- منظمة اليونسكو، "التربية في مواجهة مشكلات البيئة" المؤتمر الدولي الحكومي للتربية البيئية، مجلة اليونسكو، باريس، أكتوبر 1976، ص 32.
- 27- المديرية العامة للبيئة (الجزائر)، 07 سبتمبر 1998.
- 28- المرجع نفسه، ص 236، 237.
- 29- وزارة الشبيبة والرياضة، وكتابة الدولة لدى وزير الداخلية والجماعات المحلية والبيئة، المكلفة بالبيئة، " اتفاقية تتعلق بشروط وكيفية تنفيذ برنامج التحسيس والتوعية البيئية في أوساط الشباب" الموقعة بتاريخ 1998/06/04، " الديباجة" ص 01.
- 30- ن أ، " تعميم التربية البيئية على المستوى الوطني " جريدة المساء (الجزائر)، 23 جانفي 2009.
- 31- ن أ، " تعميم التربية البيئية على المستوى الوطني، مبادرة تستثمر في الطفل لإنقاذ البيئة" جريدة المساء، الجزائر، 23 جانفي 2009.
- 32- كامل الشيرازي، جوازات النظافة: تأثيرات بيئية للأطفال في الجزائر <http://www.elaph.com> الخميس 21 أبريل 2011.
- 33- ن أ، " تعميم التربية البيئية على المستوى الوطني، مبادرة تستثمر في الطفل لإنقاذ البيئة" جريدة المساء، الجزائر، 23 جانفي 2009.
- 34- محمد عشاشي، مرجع سبق ذكره، ص 244.
- 35- خان عبد القادر، دور الجمعيات الثقافية في التنشئة الاجتماعية، دراسة حالة ولاية غرداية (مذكورة غير منشورة)، جامعة التكوين المتواصل فرع ولاية غرداية، سنة 1998، ص 41.
- 36- أول جمعية تأسست في غرداية هي جمعية الإصلاح في سنة 1928م، أنظر: جريدة الواحة، عدد 199، 10 أكتوبر 2002، ص 04.
- 37- خان عبد القادر، مرجع سبق ذكره، ص 41.
- 38- قاسم حجاج، ميزاب رؤية مستقبلية، (دار الفكر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2004)، ص 401.
- 39- مديرية التخطيط والتهيئة العمرانية لولاية غرداية، سنة 2011.
- 40- مقابلة مع السيد: باعلي صالح، رئيس جمعية حماية البيئة لبني يزقن (بلدية بنورة)، يوم السبت 03 ديسمبر 2011، على الساعة 11:24، بمقر الجمعية الكائن بالباب الشرقي لمدينة بني يزقن.
- 41- مقابلة مع السيد: باعلي صالح، مرجع سبق ذكره.
- 42- مقابلة مع السيد: باعلي صالح، مرجع سبق ذكره.
- 43- مقابلة مع السيد: باعلي صالح، مرجع سبق ذكره.
- 44- مقابلة مع السيد: باعلي صالح، رئيس جمعية حماية البيئة لبني يزقن (بلدية بنورة)، يوم السبت 28 أبريل 2011، على الساعة 18:15، بمقر الجمعية الكائن بالباب الشرقي لمدينة بني يزقن.
- 45- مقابلة مع السيد: باعلي صالح، رئيس جمعية حماية البيئة لبني يزقن (بلدية بنورة)، يوم السبت 03 ديسمبر 2011، على الساعة 11:24، بمقر الجمعية الكائن بالباب الشرقي لمدينة بني يزقن.
- 46- مقابلة مع السيد: الحاج قويدر الطاهر، الأمين العام لجمعية حماية البيئة وترقية المجتمع لمدينة غرداية، يوم الثلاثاء 22 نوفمبر 2011، على الساعة 12:15، بمقر الجمعية الكائن بحي ثنية المخزن أمام مركز بريد الجزائر غرداية.
- 47- مقابلة مع السيد: الحاج قويدر الطاهر، مرجع سبق ذكره.
- 48- مقابلة مع السيد: الحاج قويدر الطاهر، مرجع سبق ذكره.
- 49- مقابلة مع السيد: الحاج قويدر الطاهر، مرجع سبق ذكره.
- 50- مقابلة مع السيد: الحاج قويدر الطاهر، مرجع سبق ذكره.
- 51- مقابلة مع السيد: الحاج قويدر الطاهر، مرجع سبق ذكره.

رؤى جديدة في نقد المصطلح النحوي وتطوره

(الملق بالمتنق نونجا)

بلقاسم غزيل

جامعة غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000، الجزائر

مدخل :

على أهمية المصطلح أمام طلبته، وقد كان لنا شرف التلمذ عليه، وأعماله في ذلك مبنوثة في تضاعيف مجلة اللسانيات. كما نذكر مجهودات الدكتور الحمزاوي محمد رشاد والذي أبلى بلاء حسنا في سبيل تيسير المصطلح في علوم اللغة بصفة عامة.⁽¹⁾ كما نذكر كذلك رسالة في الماجستير للأستاذ عوض محمد القوزي المعنونة بـ: "المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري" والتي نوقشت في جامعة الرياض سنة 1390هـ/1979م.

لكننا نحسب أن التجديد اتجه في أكثر مساراته حديثا إلى علم النحو ونظرياته، لا إلى علم المصطلح النحوي.

وسنقدم هذا العمل من خلال خطة نوجزها فيمايلي:

- التعريف بالمتنق لغة واصطلاحا.
- التعريف بالملحق بالمتنق وذكر لألفاظه.
- قراءة نقدية لمصطلح الملحق بالمتنق.
- تقسيم جديد للمتنق بحسب أنواعه صرفا لانحوا.
- خاتمة بأهم نتائج البحث.

تعريف المتنق لغة :

جاء في "لسان العرب" ما نصه: "ثنى الشيء رد بعضه على بعض، وثنيت الشيء ثنيا عطفته، وثنيته جعلته اثنين. الثني ضم واحد إلى واحد"⁽²⁾

فالثنى في اللغة إعادة الشيء على بعضه ليشكل منه شيان اثنين، أو هو ضم شيء إلى شيء ليصير

هذه نظرات جديدة، نحاول من خلالها التأسيس لحركة نقدية جادة في مجال الاصطلاح النحوي، تحفظ لنحاتنا الأئمة سبقهم وتميزهم، وتسمح للمجدين التصرف في المصطلح النحوي نقدا وتطورا. لأنه ليس من الموضوعية العلمية أن يبقى الأمر رهين مدرستين عريقتين شامختين هما المدرسة البصرية والمدرسة الكوفية،

اللذان ألبينا البلاء الحسن في مجال النحو والصرف ومصطلحاتهما.

غير أن الدراسات الحديثة في عمومها اطرحت الخوض في تجديد المصطلح النحوي، واتجهت في مجملها إلى علم النحو، لذلك فهذا المقال يتجه برمته إلى مناقشة مصطلح (الملحق بالمتنق) لنفض الغبار عنه بعد أن ران عنه نفع السنين وتطاول الأزمان، ولنعرف مدى شمولية هذا الاصطلاح ودقته ليكون جامعا مانعا ينضوي فيه هذا النوع من المتنق، ويخرج منه ما لا علاقة له به.

ونحن لانعني بما أسلفنا ذكره أن النحاة المجدين لم يخوضوا في موضوع المصطلح النحوي،

إذ نذكر على سبيل المثال مجهودات الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح في تطوير المصطلح اللغوي بصفة عامة والنحوي بصفة خاصة، والذي كان يركز كثيرا

شيبين. هذا في الجانب اللغوي. وثنيا الحبل طرفاه، يقول طرفه بن العبد: (الطويل)⁽³⁾

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى

لكالطول المرخي وثنياه

باليد

وأما المثنى اصطلاحاً، فقد حده ابن الأنباري في "أسرار العربية" بقوله: "إن قال قائل ما التثنية؟ قيل التثنية صيغة مبنية للدلالة على الإثنيين، وأصل التثنية العطف، تقول قام الزيدان، وذهب العمران. والأصل قام زيد و زيد، و ذهب عمرو و عمرو، إلا أنهم حذفوا أحدهما و زادوا على الآخر زيادة دالة على التثنية والاختصار."⁽⁴⁾

فالتثنية اصطلاحاً صيغة خاصة تدل على لفظين متعاطفين حذف أحدهما وزيدت عليه علامة التثنية بغية الاختصار.

وسنؤجل تحديد الملحق بالمثنى إلى مرحلة العرض لأنه صلب موضوع هذا المقال.

نحاول في هذا المبحث تسليط الضوء على ما اصطلح عليه الصرفيون: "الملحق بالمثنى"، لأن هناك ألفاظاً تدل على معنى التثنية، وتحمل علامتها بالألف رفعا وبالياء نصبا وجرا. ولاختلال بعض الضوابط والتي سماها النحاة شروطاً اشتراطوها في صوغ المثنى وهي:

- 1- الإعراب.
- 2- الأفراد.
- 3- التثنية.
- 4- عدم التركيب.
- 5- اتفاق في اللفظ.
- 6- اتفاق في المعنى.
- 7- وجود المماثل.
- 8- عدم وجود لفظ تغني عن التثنية.⁽⁵⁾

فلاختلال أحد هذه الشروط أو بعضها نزعوا عن هذه

الألفاظ اصطلاح المثنى، ونعتوها بـ: "الملحقة بالمثنى"، أحياناً و"بالمثنى غير الحقيقي" أحياناً أخرى.

ونستهلّ هذا المبحث بمجموعة من الإشكالات الجزئية نلج من خلالها إلى آراء النحاة والصرفيين، نشرحها ثم نناقشها محاولين في أثناء ذلك الردّ على تلك الآراء.

- ما هي الألفاظ التي ألحقت بالمثنى؟ ولم ألحقت به؟
- ما هو الفرق بين هذه الألفاظ والمثنى؟
- ما المقصود بمصطلح الإلحاق؟ وبم يتعلق؟
- هل يصلح أن يقتصر في تحديد هذا النوع على أنه ملحق بالمثنى؟
- هل هناك اتفاق بين النحاة والصرفيين على عدّة الألفاظ الموسومة بـ: الملحقة بالمثنى؟
- هل استعمل هذا الاصطلاح في التراث النحوي؟

في سبيل الاعتداد بالشروط التي اشترطها النحاة في صياغة المثنى فإنهم قسّموا المثنى إلى قسمين هما:

1- المثنى الحقيقي أو الأصلي، هو الذي كان اختصاراً لمتعاطفين مفردين، وكان له مفرد من لفظه مثل: زيدان.... تثنية حقيقية لأنها اختصار لمتعاطفين هما: زيد و زيد.

2- الملحق بالمثنى، وهو الذي لم يكن اختصاراً لمتعاطفين مفردين، أو بعبارة أخرى هو ما لم يكن له مفرد من لفظه. وهو خمسة ألفاظ هي: اثنتان واثنتان وثنان وكلا وكلتا. يقول ابن هشام الأنصاري:

« ألحق بالمثنى خمسة ألفاظ وهي اثنتان للمذكرين واثنتان للمؤنثتين في لغة الحجاز وثنان في لغة تميم وهذه الألفاظ تجري مجرى المثنى في إعرابه دائماً، من غير شرط، وإنما لم نسمّها مثناة لأنها ليست اختصاراً للمتعاطفين إذ لا مفرد لها لا يقال أثن، ولا اثنة ولا ثنت، والكلمتان الرابعة والخامسة كلا وكلتا»⁽⁶⁾

وهناك من عد الملحق بالمثنى أربعة ألفاظ بحذف

نفهم من قول ابن مالك أن الملحق بالمتنى هو ما أعرب إعرابه.

ويقول ابن هشام الأنصاري: «أما المتنى فإنه يرفع بالالف نيابة عن الضمة ويجر وينصب بلياء نيابة عن الكسرة والفتحة وحملوا على ذلك أربعة ألفاظ كلا وكلتا واثنان واثنان...»⁽¹¹⁾

فلقد علمنا بعد هذا أن المقصود بالإلحاق لا يتعلق سوى بالعلامة الإعرابية وذلك وصف للنوع وليس تعريفاً له .

وفي خضم مناقشتنا لآراء النحاة في مصطلح الإلحاق لم نر اتفاقاً بينهم حول إطلاق هذا المصطلح على هذا النوع من التنثية فمنهم من سماه "الملحق بالمتنى" ومنهم من أطلق عليه الشبيه بالمتنى وآخر اقترح تسميته اسم المتنى على غرار وجود اسم الجمع جاء في متن الشافية الكافية لابن مالك :

متنى أو شبيهه إرفع بالالف

وغير رفع فيهما بالياء ألف

كا بنيك سل كليهما وإن تضيف كلا

لظاهر فالزمها الألف

وجاء في شرح هذين البيتين :

« وشبيه المتنى ما أعرب إعرابه غير صالح لذلك

[أي للتجريد من الألف والنون والياء والنون]

واثنان شبه متنى لأنه لا يصلح لما قلنا ».⁽¹²⁾

ولقد وجدنا هنا اصطلاحاً ثانياً لهذه الألفاظ فسميت "الشبيهة بالمتنى"، وهناك مصطلح ثالث هو "اسم التنثية". جاء في التسهيل: «قال ابن مالك هذه الكلمات يعني الملحقة بالمتنى لا تسمى مثناة فإن أطلق عليها ذلك فبمقتضى اللغة لا الاصطلاح، كما يقال لاسم الجمع جمع .. فأفاد أن يقال لها أسماء تنثية كما يقال أسماء الجمع».⁽¹³⁾

فالاقترح هنا أن تسمى الملحقات بالمتنى أسماء تنثية كأسماء الجمع والسبب في ذلك أن الملحق بالمتنى

لفظة (ثنتان) التميمية اكتفاء باللهجة الحجازية. «... والمتنى الحقيقي حملوا عليه في الإعراب أربعة ألفاظ... اثنتين واثنتين وكلا وكلتا».⁽⁷⁾

إذا فالملحق بالمتنى خمسة ألفاظ وسبب إلحاقها به أنه لا مفرد لها من لفظها :

- اثنان ليست متنى لفظة (إثن) .

- اثنتان ليست متنى لفظة (إثنة) .

- اثنتان ليست متنى لفظة (ثنت) .

- كلا ليست متنى لفظة (كل) .

- كلتا ليست متنى لفظة (كلت) .

لأن هذه الألفاظ المفردة لا وجود لها في اللغة العربية على وجه الإطلاق، وإن كنا نشير إلى خلاف في ذلك إذ وردت لفظة (كلت) في شاهد نحوي عده الكوفيون مفرداً لكلتا واستشهدوا بهذا الرجز⁽⁸⁾

في كلت رجليها سلامى واحده

كلتاها مقرونة بزائده

ورد على الكوفيين بأن لفظة (كلت) الواردة في البيت ليست مفرد كلتا إنما هي كلتا حذف منها الألف للضرورة الشعرية .

يقول الأشموني : « كلا وكلتا واثنان واثنان وثنتان إذ لم يسمع بـ(كل) و (كلت) ولا (اثن) ولا (إثنة) ولا (ثنت) وأما قوله في كلت رجليها سلامى واحدة فإنما أراد كلتا فحذف الألف للضرورة».⁽⁹⁾

وإذا انتقلنا إلى معرفة المقصود بمصطلح الإلحاق فإننا لانجده يتعلق سوى بعلامتي الإعراب فهو إذا وصف للعلامة الإعرابية وليس تحديداً لهذا النوع من التنثية . يقول ابن مالك في شرح التسهيل :

«وما أعرب إعراب المتنى مخالفاً لمعناه أو غير صالح للتجريد وعطف ما قبله فملحق به وكلا وكلتا مضافين إلى ضمير على لغة كنانة».⁽¹⁰⁾

المثنى. يقول ابن جني: «هذان وهاتان واللذان واللتان إنما هي أسماء موضوعة للتثنية مخترعة لها وليست تثنية الواحد على حد زيد وزيدان إلا أنها صيغت على صورة ما هو مثنى على الحقيقة»⁽¹⁷⁾.

وبعد مناقشتنا لهذه الآراء نقترح تقسيم المثنى الى خمسة أنواع نذكرها أولاً ونفصل القول فيها لاحقاً وهي:

- 1- التثنية الصناعية .
- 2- التثنية شبه الصناعية .
- 3- التثنية المرتجلة .
- 4- التثنية الوضعية وتنقسم الى قسمين:
أ - وضعية مطلقة.
ب - وضعية نسبية.
- 5- إسم المثنى.

ويحتاج هذا التقسيم الذي اقترحناه إلى شرح وتوضيح نفصلهما فيما يلي:

1- التثنية الصناعية: وهي التثنية الأصلية أو الحقيقية لأن الأصل في التثنية أن تكون صناعية بضم مفرد الى مثله من قبيل زيد وزيد—زيدان باختصار العطف وإضافة علامتي التثنية. يقول ابن الدهان النحوي في كتابه الفصول في العربية: «التثنية لبعض الأسماء دون الأفعال والحروف والصناعية منها ضم مفرد الى مثيله معنى»⁽¹⁸⁾.

فلقد سمى ابن الدهان النحوي تثنية ما كان ضمًا لمفردين متماثلين تثنية صناعية.

كما استعمل ابو البقاء العكبري مصطلح الصناعية لما نفاه عن المثنيات التي وضعت من أول أمرها على صيغة المثنى. يقول: «وأما اللذان فليس بتثنية صناعية وإنما هي صيغة للدلالة على التثنية»⁽¹⁹⁾.

2- التثنية شبه الصناعية: وهي التي كان أصلها لفظين ليسا متماثلين وإنما ثنياً على سبيل التغليب. مثل: (الوالدان) أصلهما والد و والدّة غلب

واسم الجمع ليس لهما مفرد من لفظيهما⁽¹⁴⁾.

ومن هنا نتوصل إلى أن العلماء لم يتفقوا على اصطلاح واحد في تسمية ما يعرف بالملحق بالمثنى فهذا مصطلح والثاني ذكرناه وهو الشبيه بالمثنى والثالث كان أن يسمى الملحق بالمثنى إسم المثنى .

كما نسجل شيئاً من الخلط والتداخل عند بعض النحاة حينما زادوا على هذه الألفاظ الملحقة بالمثنى ألفاظاً أخرى لم تكن محل إجماع فيما بينهم من ذلك لفظة (القمرين) والتي تستعمل عادة لتثنية الشمس والقمر والسبب الذي منع اعتبارهما تثنية حقيقية هو أن اللفظتين (الشمس والقمر) مختلفتان في الشكل وتثنيتهما بالقمرين على سبيل التغليب، ونحن لا نرى ترابطاً بين المثنى على سبيل تغليب أحد اللفظين وهذه الألفاظ الأربعة التي عدت ملحقة بالمثنى.

فهاهو ابن مالك الأندلسي يقترح أن يكون لفظ القمرين ملحقا بالمثنى يقول: «ومما ينبغي أن يكون ملحقا بالمثنى القمرين في الشمس والقمر فإنه غير صالح للتجريد وعطف مثله عليه»⁽¹⁵⁾.

ولما بحثنا في كتب الأئمة في تراثنا النحوي لم نعثر على مصطلح الإلحاق هذا لكننا وجدنا إشارات الى أن هذه الألفاظ ليست من التثنية الحقيقية أو الأصلية. فسيبويه في الكتاب حينما تحدث عن (كلا) لم يستعمل مصطلح الإلحاق مع تأكيده على أنها مثنى «وسألت الخليل عن قال كلا أخويك ومررت بكلا أخويك قال مررت بكليهما فقال جعلوه بمنزلة عليك ولديك ...

ولا تقرد كلا إنما تكون للمثنى أبداً»⁽¹⁶⁾.

وكذلك لم نجد أثراً لمصطلح الملحق بالمثنى في كتاب (علل التثنية) لابن جني وإن كان فرق فيه بين التثنية الحقيقية والتثنية الموضوعية فالحقيقية ماكانت تثنية للواحد مثل: زيد وزيد—زيدان وأما الموضوعية أو المخترعة كما سماها هي ما صيغت على صورة

لأنها وضعت مثنيات كانت مفرداتها مبنية والبناء كما أشرنا مانع للتثنية، فهذه الأسماء تواضعت العرب على استعمالها في المثني.

يقول ابن جني: «... فإذا صح ذلك أن تعلم أن (هذان) و (هاتان) و (الذان) و (اللتان) إنما هي أسماء موضوعة للتثنية مخترعة لها... وأنهم يصوغون له في التثنية أسماء مخترعة ليس على حد زيد وزيدان: قولهم أنت وأنتما، و هي هما، و ضربتك وضربتكما»⁽²¹⁾.

ولقد قسمنا التثنية الوضعية إلى قسمين:

أ- وضعية مطلقة: نقصد بها الأسماء التي حافظت على بنائها بعد وضعها للتثنية، وتدخل فيها الضمائر المثناة بكل أنواعها المنفصلة والمتصلة هكذا:

- المنفصلة المبنية في محل رفع وهي: (نحن) مثني المتكلم المذكر والمؤنث، (أنتما) مثني المخاطب والمخاطبة، (هما) مثني الغائب والغائبة.

- المنفصلة المبنية في محل نصب وهي: (إيانا) للمتكلمين المذكر والمؤنث، (إياكما) للمخاطبين والمخاطبتين، (إياهما) للغائبين والغائبتين.

- المتصلة المبنية في محل رفع وهي: نحن ضربنا (نا) مثني المتكلم المذكر والمؤنث، أنتما ضربتما (تما) مثني المخاطب والمخاطبة، هما ضربا (ا) مثني الغائب والغائبة.

- المتصلة المبنية في محل نصب وهي: هو ضربنا (نا) لمثني المتكلم، هو ضربكما (كما) لمثني المخاطب، هو ضربهما (هما) لمثني الغائب.

- المتصلة المبنية في محل جرو هي: بنا (نا) لمثني المتكلم، بكما (كما) لمثني المخاطب، بهما (هما) لمثني الغائب.

فيهما التذكير على التأنيث. وتثنية (العمرين) مثني لعمر بن الخطاب رضي الله عنه. وعمر بن هشام تغليب الأخف على الأثقل على رأي أو الشريف على الوضع على رأي آخر.

فهذه تشبه التثنية الصناعية في كونها اختصارا عن متعاطفين ولكن على سبيل التغليب، وتخالفها في كون مفرديهما مختلفين وليسا متماثلين أو متوافقين كما ورد في شروط التثنية التي ذكرناها.

ومصطلح (الشبه) ليس غريبا في علم النحو والصرف، فهناك الجملة وشبه الجملة، وهناك المضاف والشبيه بالمضاف في باب النداء، وباب الانافية للجنس لا العاملة عمل ليس، وهناك الأحرف المشبهة بالفعل وهي إن وأخواتها... لهذا اقترحنا مصطلح (التثنية الشبيهة بالصناعية) لما كانت تثنيته بتغليب أحد المفردين.

3- التثنية المرتجلة: وهي التي وضعت من أول أمرها مثناة وليس لها مفرد من لفظها وهي تلك المثنيات التي سميت بالملحقة بالمثني إثنان وإثنتان وكلا وكلتا.

ومصطلح الارتجال موجود في علم الصرف فأسماء الأفعال مثلا منها المرتجلة ومنها المعدولة فالمرتجلة ما وضعت من أول أمرها أسماء أفعال. يقول الشيخ مصطفى الغلايني: «أسماء الأفعال إما مرتجلة وهي ما وضعت من أول أمرها أسماء أفعال مثل هيهات، أف، أمين»⁽²⁰⁾.

وأما إعرابها فهي حقا ملحقة بالمثني إعرابا إذ ترفع بالألف وتجر وتنصب بالياء لا اعتراض على هذا، إنما الاعتراض على الاكتفاء بوصفها ملحقة بالمثني. ومعلوم أن عمل الصرفيين يختلف عن عمل النحويين، فحينما نقول عن هذا النوع "تثنية مرتجلة" فهذا اصطلاح صرفي نقترحه. وأما مصطلح "الملحق بالمثني" فهذا اصطلاح نحوي.

4- التثنية الوضعية: وهي التثنية الموضوعة للمبهمات كأسماء الإشارة، والأسماء الموصولة، والضمائر المنفصلة، والضمائر المتصلة. وقلنا وضعية

الزيدان.. الزيدان: مثنى صناعي فاعل. لا يشار إلى ذلك في الإعراب. بل نقول: الزيدان: فاعل مرفوع بالآلف لأنه مثنى.

هذا من جهة و من جهة ثانية لأن تحفظنا على مصطلح الإلحاق ليس في مجال الإعراب وإنما على الاكتفاء به في تحديد النوع.

فالإعراب إذا يبقى هو هو .

حضر اثنان.. اثنان: فاعل مرفوع بالآلف لأنه ملحق بمثنى

و خلاصة ما يقال هنا إن الإعراب لا يتغير بما اقترحناه بهذه التقسيمات لأنها تتعلق بالصرف، والإلحاق يتعلق بالنحو والإعراب. وإذا لاحظنا إعراب اسم الجمع (قوم) فإنه لا ينبه على أنه اسم جمع.

قال الله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم﴾ (الحجرات. 11).

قوم: فاعل مرفوع.

(دون إشارة إلى الجمع و نوعه).

فهذا التقسيم المقترح أساسه تحديد نوع التنثية من خلال معناها و بنيتها لا من خلال ذكر العلامة الإعرابية التي تتميز بها.

وفي آخر البحث نذكر تقسيما لم يُكْتَفَ فيه بأن المثنى ينقسم إلى مثنى حقيقي و ملحق بالمثنى، وهو تقسيم اقترحه "الهرمي" في كتابه: "المحرر في النحو"، وفيه المثنى ثلاثة أنواع:

1- تنثية في اللفظ و المعنى: مثل: الزيدان لأنها تنثية زيد و زيد.

2- تنثية في المعنى دون اللفظ: في قول الله تعالى: ﴿فقد صغت قلوبكما﴾

ب- وضعية نسبية: وينضوي فيها المثنى الذي كان مفردة مبنيًا وبعد استعماله في المثنى لم يبق على بنائه وأعرب إعراب المثنى، ويدخل فيه:

- مثنى اسم الإشارة: هذان للمذكر المرفوع، و هذين للمنصوب والمجرور. وهاتان للمؤنث المرفوع، وهاتين للمنصوب والمجرور.

- مثنى اسم الموصول: اللذان للمذكر المرفوع، و اللذين للمنصوب والمجرور. و اللتان للمؤنث المرفوع، و اللتين للمنصوب والمجرور.

5- اسم المثنى: ونقصد به الألفاظ التي تحمل معنى المثنى ولم تلحقها علامة التنثية وهي: شفع، زوج، مثنى، ثنائي... وأطلقنا عليها (اسم المثنى) حملا على وجود أسماء الجمع التي لا تحمل علامته، مثل: قوم، رهط، شعب...

«ما يدل على اثنين، ولكن عن طريق الوضع العربي، لا عن طريق تلك الزيادة، مثل شفع

(ضد فرد ووتر)، ومثل زوج، وزكأ، وهما بمعنى شفع»⁽²²⁾

وربما يطرح علينا هذا الإشكال فيقال وماذا عن إعراب هذه الأنواع؟ وهل ينسحب هذا التقسيم على الجانب الإعرابي؟.

نقول: لا إن هذا التقسيم المقترح لا يتعلق سوى بالجانب الصرفي لأنه يخص بنية المثنى، فكما أنه لا تقم أوزان الكلم وبنائها في الإعراب فكذلك لا يدخل هذا التقسيم فيه. وللتوضيح، حينما نعرب: جاء خالد. نقول: جاء: فعل ماض مبني على الفتح. خالد: فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة. ولا ندخل في ذلك الأحكام الصرفية المتعلقة ب: (جاء خالد)، فلا نقول جاء: فعل سالم صحيح ثلاثي... ولا نقول: خالد: اسم مذكر علم رباعي...

فكذلك لا نقم في هذه الأنواع الجانب الإعرابي. فلا يقال مثلا في إعراب (الزيدان) من: جاء

3- (التحريم. 09) كما يمكننا أخيرا الإجابة على الإشكالات التي

وطأنا بها هذه الدراسة فنقول

- الألفاظ التي ألحقت بالمتنى أربعة

وهي: كلا و كلتا و اثنان و اثنتان.

- مع وجود اختلاف بين النحاة حول هذه

العدة؛ فلقد وجدنا من سمى المتنى بالتغليب ملحقا

بالمثنى وقد بينا اضطراب فكرته.

- إن معيار التفريق الذي اعتمده النحاة

بين المتنى والملحق به هو كون الأول

اختصارا لمفردين متعاطفين حذف أحدهما ثم

زيدت عليه علامة التنثية، وكون الثاني

موضوعا للتنثية من أول أمره وأنه ليس

اختصارا لمتعاطفين، ولقد ناقشنا هذه الآراء،

وبينا عدم دقة مصطلح (اللاحق) لأنه يخص

النحو والإعراب وآخر الكلم، ولا يتعلق

بالصرف الذي موضوعه صيغ الكلم وبنائها.

- إن مصطلح (الملحق بالمتنى) لم يذكره

نحاتنا الأئمة إنما هو مصطلح استعمل في

العصور المتأخرة.

قلوبكما لفظها جمع ومعناها مثنى. (23)

4- تنثية في اللفظون المعنى: القمران للشمس والقمر.

فأنواع المثنى عند الهرمي ليس بينها الملحق

بالمثنى. لكننا لا نرتضي هذا التقسيم لأنه أهمل

كثيرا من المثنيات ولم تصنف، كالمثنى من الضمائر

والأسماء الموصولة وأسماء الإشارة، وما كان خاليا

من علامة التنثية.

نتوصل ختما إلى أن تقسيم المثنى إلى حقيقي أو أصلي

وملحق بالمثنى لا يشمل إلا جزءا يسيرا من المثنيات التي

يحتويها متن لغتنا العربية. وذلك أن التنثية الحقيقية لا تتعلق

سوى بما كان مفرداه متوافقين لفظا ومعنى وأما ما كان

تغليبا لأحد المفردين فإنه خارج التصنيف أصلا، وأما

مصطلح الملحق بالمثنى فإنه ليس حدا لهذا النوع، إنما هو

وصف للعلامة الإعرابية فيه والتي ألحقت بإعراب

المثنى، فهذا الاصطلاح إذا أكثر تعلقا بالجانب

النحوي، والمطلوب هنا المصطلح الصرفي الذي نرى

التقسيم الذي اقترعناه يستجيب لهذا الاصطلاح.

الهوامش :

1. ينظر، البحث اللغوي في المغرب العربي، محمد يحياتن، دار المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، د/ط، ص 36 وما بعدها.

2. لسان العرب، ابن منظور، إعداد: يوسف خطاب، دار لسان العرب، د/ط، مادة (ث، ن، ي)، ج1، ص 378.

3. ديوان طرفة، شرح: عبد الرحمن مصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1424هـ/2003م، ط1، حرف الدال، ص 35.

4. أسرار العربية، ابن الأنباري، تح/ بركات يوسف هبود، شركة دار الأرقم، بيروت، لبنان، 1420هـ/1999م، ط1، ص 61.

5. ينظر، القواعد الأساسية، أحمد الهاشمي، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1428هـ/2007م، ط1، ص 44 و النحو الوافي، عباس

حسن، دار الفكر، لبنان، د/ط، ج1، ص133، وهداية السالك إلى ألفية ابن مالك، صبيح التميمي، دار الهدى،

الجزائر، 1992، ط2، ج1، ص 87.

6. شرح شذور الذهب، ابن هشام، تح/ محمد ثامر، دار العلوم، بيروت، لبنان، 2004، د/ط، ص49.

7. شرح التصريح على التوضيح، خالد الأزهرى، دار إحياء الكتب العربية، فيصل الحلبي، القاهرة، دت، ج1، ص223.

8. في أسرار العربية، ابن الأنباري، تح/ بركات يوسف هبود، شركة دار الأرقم، بيروت، لبنان،

1420هـ/1999م، ط1، بلا عزو، ص210 ونسب لأبي الدهماء في الهمع، السيوطي، تح/ عبد العال سالم

مكرم، وعبد السلام هارون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1413هـ/1992م، د/ط، ج1، ص98. وفي

لسان العرب، ابن منظور، بلانسية، ج15، ص229

9. - شرح الأشموني، تح/ إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1419هـ/1998م، ط1، ج1، ص55.

10. شرح التسهيل، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، ابن مالك الأندلسي، تح/أحمد سيد أحمد علي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، د/ت، د/ط، ج1، ص75.
11. شرح قطر الندى وبل الصدى، ابن هشام، تح/محمد محي الدين عبد الحميد، دار رحاب، الجزائر، د/ت، د/ط، ص55.
12. شرح الكافية الشافية، ابن مالك، تح/أحمد بن يوسف القادري، دار صادر، بيروت، لبنان، 2010، ط2، ج1، ص16.
13. همع الهوامع، السيوطي، ج1، ص18.
14. ينظر، المعجم الميسر، محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1420هـ/1999م، ط2، حرف الجيم، ص35.
15. شرح التسهيل، ابن مالك، ج1، ص79.
16. الكتاب، سيبويه، تح/عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، د/ت، ط1، ج3، ص413.
17. علل التنبيه، ابن جني، تح/صبيح التميمي، دار الهدى، الجزائر، 1992، ط2، ص76.
18. كتاب الفصول في العربية، ابن الدهان، تح/فايز فارس، دار الأمل، الأردن، 1988، ط1، ص07.
19. اللباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء العكبري، تح/محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة مصر، 1430هـ-2009م، ط1، ص79.
20. جامع الدروس العربية، مصطفى الغلاييني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2005، د/ط، ج1، ص119.
21. علل التنبيه، ابن جني، ص76.
22. النحو الوافي، عباس حسن، ج1، ص119.
23. ينظر، المحرر في النحو، عمر الهرمي، تح/منصور علي محمد عبد السميع، دار السلام، القاهرة، مصر، 1429هـ/2008م، ط2.

شروط الإمامة عند الرستميين

إبراهيم بحاز

قسم التاريخ جامعة غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000 الجزائر

المذهبية على أشدها، وكانت فيه هذه المذاهب بمثابة الأحزاب السياسية الدينية في وقتنا الحاضر، ولكن هؤلاء الخصوم انتهوا في الأخير إلى الاعتراف بإباضية الإمامة². فالإمامة الرستمية نشأت إباضية قبل أن تكون رستمية، لذلك حرص الشراة³ وأصحاب الحل والعقد في الدولة على المحافظة على مذهب الإمامة وترشيح من يذهب هذا المذهب سواء أكان مغرباً من القبائل البربرية كزناطة مثلاً أو كتامة أو من إقليم الأندلس⁴ أو من الغرباء لا عشيرة له ولا قبيلة تحميه⁵، فالأهم من كل ذلك أن يكون - كما يقول ابن الصغير على لسان غير الإباضية - "ممن ينتحل مذاهب الإباضية"⁶ لا غير، وإلا اختلطت الأمور واضطربت الأوضاع.

ثالثاً: العلم:

من الشروط البارزة في إمامة الرستميين، أن يكون الإمام ذا علم يؤهله لهذا المنصب، فبعد الرحمن بن رستم من حملة العلم إلى المغرب من البصرة⁷ وعبد الوهاب ابنه، تتلمذ على أبيه وعلى حملة العلم الآخرين، وكان شغوفاً بالعلم يريد الاستزادة منه حتى بعد توليته الإمامة⁸ أما أفصح بن عبد الوهاب فيكفي أن نعرف أنه قد بين يديه ثلاث حلق يتعلمون منه فنون العلم قبل توليه الإمامة، مما يدل على رسوخ قدمه في العلوم، فقد أخذه عن أبيه وجده.

وإذا وجدنا أبا بكر بن أفصح، كما يقول ابن الصغير: "يحب الآداب والأشعار وأخبار الماضين"⁹، فهذا يدل على علمه، فلم يكن جاهلاً لا يعرف شيئاً، وإنما له علم ولكنه لم تكن فيه شدة أسلافه في البروز بالعلم الديني، على ما يبدو، أقول: إذا وجدنا مثل هذا الإمام في سلسلة الأئمة، فسرعان ما يعود العلم أبرز صفات الأئمة وشروط الإمامة في شخص أبي اليقظان بن أفصح الذي اتخذ مجلسه كالمسجد طائفة يصلون وطائفة يقرؤون القرآن وطائفة يتذكرون في فنون العلم، ويُنسب إليه تأليف في الاستطاعة قيل إنه في أربعين جزءاً¹⁰ فضلاً عن تأليف أخرى وُصِفَتْ بأنها بليغة شافية¹¹.

وهكذا كان أبو حاتم ابن الإمام أبي اليقظان، وعمه يعقوب بن أفصح الذي كان جوابه على سائل سألته عن

يسعى هذا البحث للإجابة عن إشكالية واضحة طالما سأل عنها الباحثون المهتمون بالتاريخ الرستمي خصوصاً وتاريخ المغرب الإسلامي عموماً وبخاصة في قرونه الثلاثة الأولى؛ هي إشكالية وراثته الحكم في الإمامة الرستمية أو عم وراثته، فهل كان الإباضية ملترمين بمبدئهم النظري الرافض لوراثته الحكم أم أنهم انجروا إليه عند وصولهم للسلطة وإقامتهم للدولة؟

عندما نستعرض شروط تولي منصب الإمامة عند الرستميين من خلال الواقع التاريخي وليس التنظيري، سنكتشف لنا عناصر جديدة في النظرية السياسية عند الإباضية، اضطر علمؤها للأخذ بها من باب الضرورات التي تبيح المحظورات، أو من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وهذه الشروط، كما أسلفت، هي من صميم الواقع الرستمي، وهي جزء معتبر ولا شك في النظرية السياسية عند الإباضية، ولكنها لا تمثل كل تلك النظرية، الإباضية في عُمان أسسوا إمامات عريقة انتهجت نهج الخلافة الراشدة، ولها من الظروف خصوصياتها واستثناءاتها، ولعلنا نعود إلى هذا الموضوع ثانية بعد ولوجه من بوابة الرستميين، فما هي شروط الإمامة عند الرستميين كما مورست في واقعها التاريخي؟

أولاً: الإسلام:

أول الشروط في الإمامة عند المسلمين عموماً بمختلف مذاهبهم هو شرط الإسلام، فكل الأئمة الرستميين مسلمون، موفون بدينهم، وهذه بديهية لا نتوقف عندها كثيراً ولا قليلاً.

ثانياً: الإباضية:

كل الأئمة الرستميين إباضية، تعلق بهذا المذهب في المغرب الإسلامي، أولهم عبد الرحمن بن رستم منذ أن سمع سلمة بن سعيد يدعو إليه في القيروان¹، ثم سافر إلى البصرة يريد التخصص فيه، وجاء حاملاً لعلم هذا المذهب الذي نشره بين أولاده وأتباعه ثم بين رعيته، وهو المذهب الذي ظل عليه الأئمة الرستميون إلى آخر عهدهم، وحول خصومهم ومنافسهم في تيهرت إقصاءهم عن السلطة لا لشيء إلا لأنهم إباضية، يريدون تحويل الإمامة من مذهبها الإباضي إلى مذاهب أخرى، في وقت كانت فيه المناقشات

ولكن أبا حاتم كانت له مروءته وشخصيته وأخلاقه التي يقول عنها ابن الصغير بعد ملاحظته السالفة "كان سمحاً جواداً لين العريكة يسامح أهل المروءات ويشايهم على مروءاتهم..."¹⁹.

لقد كان الأئمة يتحلون بصفات أخلاقية عالية متدينين متقشفين زاهدين في الدنيا²⁰ عدولا كلهم²¹، يقول ابن الصغير، عن أحد أو آخرهم وهو أبو اليقظان، "كان زاهداً وربما ناسكا سكيناً"²² فلم يصدر من أحدهم ما تعودنا سماعه عن بعض خلفاء بني أمية وبني العباس أو أمراء بني الأغلب من إساءة السيرة بمعاقرة الخمر أو الاعتداء على أعراض الناس أو النساء²³، وهو مشهور في كتب التاريخ.

ومن المروءة كذلك أن يظهر المرشح للإمامة بالهبة التي تضفي عليه الوقار، وهو ما توفر في الإمام عبد الرحمن وعبد الوهاب وأفلح وأبي اليقظان²⁴، ويبدو أن الإمامين أبا بكر وأبا حاتم لم يكن فيهما من الشدة ما كان فيمن قبلهما، وقد ظهر هذا جليا في الإمام أبي بكر بشهادة ابن الصغير²⁵ في حين بدا أبو حاتم بشعبيته واقترب عامة الناس إليه من أهل الحرف وغيرهم وكأنه ناقص الهبة، لذلك توجه إليه بنو رستم "فأحبوا أن يجعلوا له حجاباً وهيباً"²⁶ وهذا من تمام المروءات والعدالة في الإمامة حتى لا يطمع في لينة طامع ولا يبأس من صرامته وهيبته صاحب حق، ولكنها العدالة بكل مقاييسها في الاعتدال مروءة وورعاً وزهداً وهيبه، وشخصية قوية متزنة.

خامساً: البلوغ:

من الشروط الأساسية في إمامة الإباضية بتيهت، أن يكون المرشح بالغاً عاقلاً مكلفاً، فالأئمة الرستميون كلهم رشحوا للإمامة وبويعوا عليها وهم كهول أو شباب مكتهلون في شبابههم، فعبد الرحمن بن رستم لما بويع بالإمامة كان متقدماً في السن يظهر ذلك من خلال تعبئه أثناء الطريق بين القيروان وتيهت، الأمر الذي أدى إلى حمله من قبل عبده تارة وابنه تارة أخرى²⁷، ولا نتصور أن يكون شيخاً كبيراً وإنما هو كهل، ربما أعياه الطريق من طرابلس حيث كان يقود جيشه لمساعدة إمامه أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري في معركة تاورغا عام 144هـ/761م، ولما علم بهزيمة الإمام أسرع راجعاً إلى القيروان ومنها نحو المغرب الأوسط، فعمل هذه السرعة هروبا من العدو، هي التي أعيته وإلا فهو قائد جيش لا يُعقل أن يكون كبير السن.

أما الإمام عبد الوهاب، فقد وصل المغرب الأوسط مع أبيه شاباً، وأقام في موضع تيهت من عام 144هـ وحتى 160هـ/777 تاريخ إعلان الإمامة الإباضية ثم رافق أباه في إمامته حتى عام 171هـ/787م حيث يتولى هذه الإمامة، ومعنى ذلك أنه ربما تولاه في عمر الخمسين على أكبر

مبلغ علمه فقال: "معاذ الله أن ينزل على موسى وعيسى ما لم أحفظه وأعرف معناه، فكيف بكتاب أنزله الله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم"¹² ويشبه هذا ما قاله أحد الرستميين عن الأسرة كلها "معاذ الله أن تكون عندنا أمة لا تعرف منزلة يبيت فيها القمر"¹³، فلقد كانت الأسرة أسرة علم لا ريب في ذلك.

كان الأئمة الرستميون لما رُشحوا للإمامة يتمتعون كلهم بالعلم الغزير، ربما ظهرت هذه الغزارة العلمية في الأئمة الأوائل، وخفتت ولم تبرز في الأواخر، لأن أحداث الإمامة واضطرابات حالت دون ذلك، اهتم بها المؤرخون وجاءت على حساب جوانب أخرى أهم في حياة الأئمة والإمامة.

إن لم يكن كان العلم أحد أبرز الشروط التي روعيت في ترشيح الرستميين للإمامة بتيهت، ومع هذا يبقى الإمام بحاجة إلى من يساعده في تدبير الحكم فقهاً، وهذا دور الشراة والفقهاء الذين هم بمثابة المستشارين¹⁴ المقربين من الإمام.

ومن العلم كذلك أن يكون المرشح للإمامة ذا خبرة سابقة بالحكم، فعبد الرحمن لما جاء مجتمع تيهت لمبايعته قالوا من بين ما قالوه في صفاته أنه "قد كان الإمام أبو الخطاب رضي لكم عبد الرحمن قاضياً وناظراً..."¹⁵، وهذا يعني أن أبا الخطاب رشحه للمنصبين السابقين لتوفر شروط القيادة فيه، ثم لأنه ذو خبرة سابقة وتجربة في الحكم¹⁶.

ونجد هذه الخبرة والتجربة كذلك عند أبناء أفلح الذين يقول عنهم مؤرخ الرستميين ومعاصريهم ابن الصغير "وكان لأفلح أولاد قد بلغوا من السن والتجارب والممارسة ما يستحق به كل واحد منهم الإمامة"¹⁷.

فالعلم النظري الذي يراد به التفقه في الدين بالدرجة الأولى، ينبغي أن يرافقه علم بصروف الحكم وآليات القيادة وهو ما توفر في أئمة تيهت، ويبدو أن أهل الحل والعقد راعوا هذا الجانب أيما رعاية واعتبروه عند كل اختيار وترشيح للمنصب.

رابعاً: العدالة:

كل الأئمة الذين تولوا هذا المنصب في تيهت كانوا عدولاً، إذ يستحيل أن يرشح أو يرضى الفقهاء والشراة أصحاب الحل والعقد في الدولة، برجل لا يتوفر فيه شرط العدالة الذي يعني الكمال الأخلاقي وسلامة الاعتقاد والنزاهة في التصرفات الشخصية، وتختصر في كلمة "المروءة"، فلم نجد في الرستميين مخدوشاً في أخلاقه، ولم يذكر المؤرخون ما يعيب الأئمة في سلوكهم وعدالتهم. ومما يدل على صرامة الرقابة في توفر هذا الشرط تلك الملاحظة التي سجلها ابن الصغير على الإمام أبي بكر بن أفلح الذي "لم تكن فيه من الشدة ما كان فيمن كان قبله من آبائه"¹⁸ وهذا ما يريده شراة الإباضية في العدالة،

الإسلامي كله، لذلك مالت إليه النفوس، وورثه أهل الحل والعقد. فعبد الرحمن بن رستم، مؤسس الإمامة الإباضية وباني تيهرت الجديدة، لم يفرض نفسه إماماً على الناس لما فكروا في إعلان الإمامة، وإنما تعرض لما يتعرض له كل مرشح لمثل هذه المناصب المسؤولة العليا في المجتمع، لقد كان إبان إعلان الإمامة في تيهرت لكل " قبيل منهم فيه رأس أو رأسان أو أكثر يدبر أمر القبيل ويستحق أمر الإمامة "34 إلا أن أهل الحل والعقد مالوا إلى عبد الرحمن بن رستم لأسباب عديدة وشروط متنوعة سبق ذكرها، ومنها كونه غريباً لا عشيرة له تحميه ولا قبيلة له يشرف بها³⁵.

إن كون عبد الرحمن بهذه الصفة، هي ميزة تعلق بها رؤساء القبائل ووجوه القوم من أهل الحل والعقد في ابتداء أمر الإمامة، فراحوا يبايعون عبد الرحمن بن رستم، وهم مطمئنون أنه سيعدل فيهم وسيسير بسيرة السلف الصالح من الصحابة والراشدين ومن سبقه من أئمة الإباضية في المشرق والمغرب، طوعاً من عند نفسه أو رغماً عنه إن فكر في الانحراف، لأنه سوف لن يجد له قبيلة تحميه ولا عشيرة يأوي إليها، تدافع عن جوره إن جار، أو تبرر انحرافه إن انحرف، وعبد الرحمن بن رستم، كان فعلاً غريباً عن ديار المغرب، فهو ليس ببربري، ولا بعربي، وإنما هو من الأشبان من سلالة اللذارقة ملوك إسبانيا قبيل الإسلام، وهؤلاء يعودون في جذورهم إلى أصبهان أو من الفرس كما تؤكد المصادر الإباضية وغيرها³⁶.

إن زعماء القبائل البربرية، فضلوا أن يحكمهم غيرهم، وهو عبد الرحمن الغريب، ليضمنوا الاستقامة ويتعدوا عن المنافسة على السلطة فيما بينهم، وهذا الشرط الذي ظل قائماً طيلة عهد الإمامة، يمثل في اعتقادي، الأسر الذي أبقي الإمامة في سلالة عبد الرحمن، فكلهم غرباء وظلوا غرباء بعيدين عن وطنهم الأصلي، ولا ينتمون بصلة إلى قبائل البربر.

ولعل قائلاً يقول، إن عبد الوهاب أمه بربرية زنتية والذين جاؤوا من بعده كلهم يكونون أبناء وأحفاد امرأة من زنته، وهذا صحيح، ولكن يجب أن نقول أيضاً، إن عبد الرحمن لما يبيع بالإمامة كان أصهاره من زنته، ولم يلتفت أهل الحل والعقد إلى هذا، لأن العصبية تكون في أصل الرجل من أبيه وليس من أمه، وهو ما ظهر فعلاً في الرستميين، لم يميلوا إلى قبيلة زنتة ولا إلى غيرها، وظلوا مطلوبين للإمامة بسبب هذا الشرط الذي يشكل في اعتقادي أهم سبب جعل الإمامة لا تخرج من هذا البيت، ليس لأن الرستميين احتكروا السلطة أو لأن فقهاء الإباضية والشراسة من

تقدير إن لم يكن في عمر الأربعينات، وأقام في إمامته إلى عام 208هـ/823م، أي أكثر من ثلاثين عاماً، وخلالها أو قبلها كان ميلاد أفلح ابنه، وهذا يعني أنه تولى هو الآخر الإمامة في شبابه أو كهولته وعمر في إمامته على حد تعبير ابن الصغير²⁸ حتى نشأ له البنون وبنو البنين، ومنهم ابنه: أبو بكر وأبو اليقظان، وكلاهما كبير السن لما تولى الإمامة بسبب شموخ أفلح في إمامته وملكه حيث أقام خمسين عاماً أميراً²⁹، أي حتى عام 258هـ/871م، فابن الصغير يذكر أن أبا اليقظان عاش من السنين مائه ونحوها³⁰.

أما أبو حاتم، فلا يختلف عن أسلافه، ربما كان شاباً عند وفاة والده، إذ لم يكن هو أكبر إخوته فاليقظان الذي يُكنى به (أبو اليقظان) هو الأكبر، ولعل هذا هو السبب الذي جعل العامة، ولا يكونون إلا من الشباب، يميلون إليه ويغمرونه بهذه المحبة التي ارتقت إلى فرضه إماماً بعد وفاة والده³¹، ثم ربما بسبب هذا العمر الشاب لأبي حاتم، تجرأ عمه يعقوب بن أفلح على منافسته في الإمامة³².

المهم أن أئمة الرستميين كلهم بلغوا سن الرشد لما رُشحو للإمامة وبويعوا عليها، كلهم كهول أو شباب مكتهلون، ولم يذكر أحد من المؤرخين الإباضية أو غيرهم أن إماماً منهم كان صغير السن دون البلوغ، مثلما نقرأ عن الأدارسة مثلاً، بايعوا إدريس الثاني جنيماً ثم فصيلاً ثم بالغاً³³ وكذلك وقع كثيراً عند العباسيين والفاطميين، واستهتروا بذلك بمشاعر المسلمين ولم يرعوا ديناً ولا شروطاً هي من فرائض الإمامة في الإسلام.

سادساً: سلامة الحواس والبدن:

كل الأئمة الرستميين، تمتعوا بسلامة حواسهم وهذا يدل على أن من شروط الإمامة أن يكون المرشح سالماً معافى في بدنه، فالإمامة تحتاج إلى الرجل القوي، لأنه هو الأمير وهو القائد وهو الإمام في الصلاة وهو المعلم، فلا بد للإمام أن يكون ببصره وسمعه ونطقه وأن يكون سالماً يمشي ويتحرك لكي يؤدي مهامه كاملة، فسلامة الحواس والأعضاء من الهيبة المطلوبة في الإمام حتى لا يرى بعين النقص.

سابعاً: الذكورة:

من أؤكد الشروط في الإمامة عند المسلمين بعامية أن يكون الإمام ذكراً، لأنه لا تجوز الإمامة الكبرى إلا للذكر مطلقاً، وهذا الشرط التزم به الرستميون وليس لهم إلا ذلك، بل إن المسلمين عموماً بكل مذاهبهم التزموا هذا الشرط في الخلافة.

ثامناً: الغربة (لا قبيلة ولا عشيرة للإمام)

هذا الشرط الثامن غريب، إذ يجعل من المرشح للإمامة غريباً في موقع تيهرت، بل ربما في المغرب

إدارة مدينة القيروان نائباً وقاضياً عن الإمام أبي الخطاب، وهذا ما فهمه الدكتور حسن علي حسن وجعله من بين الشروط التي أهلت عبد الرحمن، وهو الغريب، أن يكون أول إمام في المغرب الأوسط⁴²، وليس له أن يرفض تلك الإمامة "لأنه مهتد بالقتل إن فعل"⁴³، حسماً للخلاف.

إن التعيين كان بسيطاً تلقائياً عفويّاً، هكذا بدأ في عبد الرحمن، وهكذا استمر في سلالاته برغبة من المجتمع وليس لبني رستم أن يرفضوا رغبة المجتمع ورجالاته من فقهاء وشراة وأهل الحل والعقد، ثم ما ذنب الرستميين،

على حد تعبير الدكتور محمد ناصر "إن كانت الكفاءة والنزاهة والتقوى ترشحهم كل مرة للفوز برضى الأمة التي ارتضتهم"⁴⁴، وما ذنب الإباضية إن فعلوا ذلك؟

محمل القول، لقد توفرت في الرستميين شروط الإمامة كلها من الإسلام والعلم والعدالة والبلوغ أو الكفاية كما جاءت عند ابن خلدون⁴⁵ وقد تعني أيضاً الخبرة بالإضافة إلى الذكورة وسلامة الأعضاء.

ولم يتجه المجتمع في بدايته أو نهايته إلى تفضيل قرشي وإنما جاءت النظرية الإباضية في الإمامة هنا مطابقة للواقع أو العكس، إذ تطابق الواقع مع النظرية ولم يشعر الإباضيون بانحراف في هذا بل بالعكس وجدوا في هؤلاء الغريباء من الرستميين مدعمين بالاستقامة والعدالة والعلم، الإمام الأنسب والمرشح الأجد⁴⁶، وتطلّعا مع كل واحد منهم إلى الإمامة الراشدة والعدل المطلق، وهو ما حاول الرستميون توقيفه والالتزام به بكل ما أوتوا من قوة وخبرة.

وكما أن القرشية التي تدعمها النظرية السياسية السنية، لم تكن في الحسبان إطلاقاً عندما رُشح هؤلاء الرستميون للإمامة، كذلك لم تكن العصمة ولا الوصية اللتان تقدمهما النظرية السياسية الشيعية لإمامها واردين البتة إطلاقاً، لقد كان الأئمة الرستميون تحت الرقابة من قبل المجتمع ومن قبل الشرارة والفقهاء، فالإمام يمكن أن يخطئ أو يجور، والشرارة له بالمرصاد لتقويم خطئه أو رده عن جوره، وهذه هي الطبيعة البشرية بلا ريب، وهكذا وعلى هذه الأسس قامت دولة الرستميين واستمرت لأكثر من قرن وثلاث القرن 160-296هـ/777-909م.

أهل الحل والعقد خالفوا نظريتهم السياسية، وإنما وجدوا في بني رستم العلم والخبرة والكفاءة ووجدوا فيهم ما افتقدوه في غيرهم من الحياد والحزم والحرص على العدل المطلق الذي طالما تطلّع إليه البربر وطالبوا به حكمهم قبل الإسلام وبعد انتشار الإسلام في ربوع بلادهم.

إن شرط الغرابة شرط سياسي، كما يقول الدكتور زغلول وتبعه تلميذه الحريري "يتنافى مع نظرية العصبيّة التي تقوم عليها الدولة، كما لاحظ ابن خلدون في انهيار وقيام الدول الإسلامية. ومبدأ عدم استناد الإمام إلى قبيلة أو عصبية يهدف إلى دفع ما يمكن أن تتعرض له الجماعة الإباضية من الاستبداد، كما يطمح إلى تحقيق الإمامة أو الحكومة المثالية التي يكون العدل عصبيتها..."³⁷.

من هنا يمكن أن ندحض كل التفسيرات التي تُسرّع، في الإدلاء بها، مؤرخون عديدون اعتبروا إمامة الرستميين وراثية³⁸، وما كانت وراثية بشهادة نصوص ابن الصغير معاصريهم ومعارضهم.

لقد التزم الإباضية نظريتهم في الممارسة التطبيقية للإمامة زمن الرستميين، وإن ظهرت وراثية فإنها بعيدة كل البعد عن ولاية العهد وتوريث الابن في حياة أبيه سلطته ومبايعة الخلف في حياة السلف³⁹. ولا أحد نكر من المؤرخين القدامى أو حاول أن يذكر أن الرستميين كان لهم ما يُسمى بولاية العهد إطلاقاً، وهذا أكبر دليل على أن الإمامة الرستمية التزمت التنظير الإباضي ولم تتحرف عنه، رغم شبهة وراثية الحكم.

ولست أفهم من أين رأى الدكتور سعد زغلول وتبعه في ذلك الدكتور محمد عيسى الحريري، أن اعتبار كون عبد الرحمن عامل الإمام أبي الخطاب على إفريقية هو شرط يمثل فكرة التعيين أو الوصية التي تحولت كما يقولان "إلى مبدأ الوراثة بعد ذلك في تسلسل منصب الإمامة من أبناء عبد الرحمن بن رستم إلى نهاية الدولة"⁴⁰؟ وقد سبق أن رأينا أن هذا الشرط إنما يؤكد على جانب الخبرة والكفاءة في قيادة المجتمع، فلم يقل أبو الخطاب هذا عبد الرحمن بإيعوه من بعدي، وليس في نص ابن الصغير⁴¹، ما يُستشف منه ما ذهب إليه الباحثان سلفي النكر، فلم نحمل النصوص ما لم تحمّل أو نحملها ما لا تحمّل؟! فالنص واضح جلي لا يعني سوى تمرّس عبد الرحمن بشؤون الإدارة والحكم حين تولى

الهوامش:

- 1- عن سلمة بن سعد أو سعيد انظر: أبو زكرياء: سير، 42/1، الدرجيني: 11، الشماخي: سير، 91، معجم أعلام الإباضية، 391/3، العلم رقم 418، طبقات، 1/1.
- 2- ابن الصغير: أخبار، 95-96.
- 3- الشرارة يمثلون هيئة إستشارية ورقابية في آن واحد، عنهم انظر معجم مصطلحات الإباضية، مصطلح "الشرارة".
- 4- أبو زكرياء: سير، 54-55، الدرجيني: طبقات، 1/46.
- 5- ابن الصغير: أخبار، 26.
- 6- ابن الصغير: أخبار، 96.

- 7- أبو زكرياء: سير 37، الدرجيني: طبقات 19 / 1 - 23. حسن علي حسن: أخبار 186.
- 8- أبو زكرياء: 65، الدرجيني: 56 / 1 - 57.
- 9- ابن الصغير: أخبار 31 - 32.
- 10- الدرجيني: طبقات 83 / 1، 319 / 2، الوسياني: سير. ورقة 39.
- 11- أبو زكرياء: سير 98، الدرجيني 84 / 1.
- 12- أبو زكرياء: 124. الدرجيني: 105 / 1.
- 13- الشماخي: سير 193.
- 14- Chikh Bekri : Kharijisme : P60-14
- 15- ابن الصغير 26 وانظر ابن سلام : تاريخ الاسلام . 150، ابن عداري : البيان 197 / 1 .
- 16- حسن علي حسن : أخبار 187 .
- 17- ابن الصغير 54.
- 18- ابن الصغير: أخبار 61.
- 19- نفسه: 61 - 62
- 20- Chikh Bekri . Opcit . 60-20
- 21- ابن سلام: شرائع الدين 115، الشماخي: سير 140 وانظر الحريري: الدولة الرستمية 224.
- 22- ابن الصغير: 81.
- 23- إبراهيم حر كات: المغرب عبر العصور 115. ابن عداري: البيان 131-132، سعد زغلول: تاريخ 156/2.
- 24- سعد زغلول: تاريخ 366.
- 25- ابن الصغير: 61.
- 26- نفسه 92.
- 27- الدرجيني: طبقات 35 / 1.
- 28- ابن الصغير 53.
- 29- ابن الصغير 53.
- 30- نفسه 80، وانظر هامش 123.
- 31- نفسه 91.
- 32- نفسه 97.
- 33- ابن عداري: البيان 210 / 1 - 211، النويري: نهاية الأرب (المغرب) 273، الناصري: الاستقصا 161/1، 174، الحلبي: الدر النفيس 265، ابن أبي زرع: الأنيس 53.
- 34- ابن الصغير 26 .
- 35- نفسه 26 .
- 36- عن نسب عبد الرحمن من ملوك اللذارقة هذا الذي نرجحه، أو نسبه الفارسي انظر كتابنا : عبد الرحمن بن رستم مؤسس أول دولة إسلامية مستقلة بالجزائر، 7، الدولة الرستمية، 92 وما بعدها .
- 37- سعد زغلول : تاريخ 301، محمد عيسى الحريري : الدولة الرستمية . 224 .
- 38- كنت في كتابي "الدولة الرستمية" نكرت بل أكدت أن الرستميين اتبعوا منهج التوريث في الحكم، ولكن تبين لي فيما بعد أن فكرة التوريث لم تكن واردة البتة، وولاية العهد لم ينكرها أحد من القدامى وبالتالي فإن وراثة الحكم عند الرستميين بالصورة التي كان عليها عند الإدارة مثلا أو الأمويين ما كانت موجودة إطلاقاً، وإنما هو منهج جديد مرن ابتكره ومال إليه فقهاء الإباضية، وأهل الحل والعقد في تيهرت، تجاوزوا به خلافات البربر والمنافسات الشديدة بين قبائلهم . انظر : الدولة الرستمية . ص 114-117 وانظر الطبعة الثالثة من كتاب الدولة الرستمية طبعة منشورات الفا عام 2010 ص 121-126.
- 39- يقول الشيخ عبد الرحمن بكلي (البكري) : " أما تعاقب الأسرة على سدة الحكم الإمامة، فلم يكن بعهد من السلف إلى الخلف كما هو شأن الحكم بالوراثة، وإنما كان بالانتخاب العام الحر وإن انتهى إلى نتيجة مماثلة " فتاوى البكري 348/2 .
- 40- سعد زغلول : تاريخ، 300، محمد عيسى الحريري : الدولة 224 - 225 .
- 41- ابن الصغير 26 .
- 42- حسن علي حسن : أخبار . 186 - 187 .
- 43- Brahim Zerouki : Notes P.20-43
- 44- محمد ناصر : منهج الدعوة عند الإباضية . ص 215 .
- 45- ابن خلدون : المقدمة 342.
- 46- عن شروط الإمامة عند الإباضية انظر الكندي : المصنف . 255/10

ضوابط سد الذرائع

محمد هندو

جامعة الجزائر

مقدمة:

لا يخفى أنّ موارد الأحكام قسمان: وسائل، ومقاصد، ومن المتقرر المعلوم أنّ الوسائل لها أحكام المقاصد، والقواعديون من أهل الشريعة غنوا بضبط العلاقة بين الوسائل والمقاصد من خلال سياج من القواعد التي يتحدّد على وفقها منطق الأولوية، وترتسم على منهاجها كيفية التعامل مع الوسائل من حيث إفضاؤها إلى المصلحة والمفسدة، ومن هذه القواعد:

(الوسائل لها أحكام المقاصد)، (سقوط اعتبار المقصد بوجوب سقوط اعتبار الوسيلة)، (يُغتفر في الوسائل ما لا يُغتفر في المقاصد)، (حصول المقصود بإحدى الوسائل مُسقط لا اعتبار التعيين فيها)، (المعاملة بنقيض المقصود)، قاعدة (منع الحيل).

ومن هذه القواعد وأجلّها من حيث شغلها حيّراً كبيراً من مدارك الأحكام: - قاعدة سدّ الذرائع).

والقاعدة معروفة بمحوثة من حيث معناها، وأدلتها، وتطبيقاتها، وأثرها في الخلاف الفقهي، فالبحت لا يهدف إلى تكرار هذا العمل، واجترار الجهود التي بُذلت في ذلك، لكنّه يحاول التركيز – بليجاز - على ضوابط العمل بهذه القاعدة المهمة الجليلة.

والذي دفعني إلى الاعتناء بهذه الفكرة هو إشكالٌ تقدّح في ذهني منذ زمن، وهو أنّ (سدّ الذرائع) خطة من الخطط الاجتهادية التي تخضع لإعمال الرأي، والموازنة العقلية بين المصالح والمفاسد، فهي اجتهاد خارج دائرة النصوص، أي: في دائرة المسكوت عنه من الأحكام، طبعاً أقصد غير ما نصّ عليه ممّا يجب سده، وما لا يجب سده، وهذا هو الأعمّ الأغلب، لأنّ النصوص محدودة متناهية،

والوقائع متجدّدة وغير متناهية، والنصوص الجزئية الخاصة لا تفي بعشر معشار الشريعة كما قال الجويني⁽¹⁾، فكان لا بدّ من إعمال التعليل العقلي بمختلف مسالكه التي من جملة سدّ الذرائع؛ لأجل درك حكم الله في الواقعة التي لا يجوز أن تخلو عنه.

ومن ثمّ فإنّ عملية سدّ تشوبها النسبية والاعتبارية التي يتسم بها العقل البشري، وهذه النسبية هي وليدة المخزونات النفسية، والمكونات الطبيعية والغريزية للمجتهد، إضافة إلى تفاوت مدركات العقول والقرائح، وهي تختلف من شخص إلى آخر، ومن بيئة إلى أخرى، ومن عصر إلى عصر، ولا شك أنّ ذلك ممّا يؤثر على عملية الاستنباط، ويتعسّر أن ينفك الأمران عن بعضهما، لهذا وُجد في المفتين الميسر والمعسر، والمشدّد والمرخص، حتّى في العدول الموثقين من قبل ربّ العالمين، أعني: الصّحابة رضوان الله عليهم، فقد وُجد فيهم أبو بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه، وقد قال فيهما النبي صلى الله عليه وآله: (إنّ الله ليُليّن قلوب رجال فيه؛ حتّى تكون ألين من اللين، وإنّ الله ليشدّ قلوب رجال فيه؛ حتّى تكون أشدّ من الحجارة، وإنّ مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام)؛ قال: (فمن تبعني فإنّه مني ومن عصاني فإنّك غفورٌ رحيم) (سورة إبراهيم: 38)، وإنّ مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام؛ قال: (إن تعذبهم فإنّهم عبادك وإن تغفر لهم فإنّك أنت العزيز الحكيم) (سورة المائدة: 120)، وإنّ مثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام؛ قال: (ربّنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتّى يروا العذاب الأليم) (سورة يونس: 88)، وإنّ مثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام؛ قال: (ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً) (سورة نوح: 28))⁽²⁾.

وكذلك فيهم ابن عبّاس رضي الله عنهما، وابن عمر رضي الله عنهما، ومنهج الفتوى عندهما مختلف، فمثلاً: كان ابن عمر رضي الله عنهما يبعد الأطفال عنه حتّى لا يسيل شيء من لعابهم؛ تحرّراً ممّا يشتهه في نجاسته، أمّا ابن عبّاس رضي الله عنه فكان يضمّهم إليه ويقول: هم رياحين نشمّها، وكان ابن عمر رضي الله عنه يرى وجوب غسل باطن العينين في الوضوء؛ لأنّهما من الوجه، ويرى أنّ مجرد لمس المرأة ينقض الوضوء، أمّا ابن عبّاس رضي الله عنه فكان يرى خلافه، وكان ابن عمر رضي الله عنه يزاحم على

الحجر الأسود حتى يُجرح، وكان ابن عباس رضي الله عنه يكره ذلك؛ فلا يؤذي ولا يؤذى⁽³⁾.

وانسحبت هذه العقلية المتباينة على المذاهب الفقهية فيما بعد، فوجدنا المذهب الشافعي مضيقاً جداً في الأخذ بقاعدة سد الذرائع، ووجدنا المذهب المالكي متوسعاً إلى درجة كبيرة في بعض التطبيقات.

هذا في الأئمة الأجلاء الذين لا يُرتُّون بخبرة في الدين، أو قلة في العلم، أما في العصر الحاضر؛ فقد أخذت الظاهرة بُدأً آخر، من خلال مجانبية بعض الممارسين للشرعية المنهج الوسط في التعامل مع هذه القاعدة، إما:

إفراطاً باتخاذها منهجاً عاماً يلجؤون إليه كلما خفيت عليهم دقائق الموازنة بين المصالح والمفاسد، مهما أدى ذلك إلى الغلو والتنعُّع، ومهما اختلفت مراتب الناس في الطاعة والاستسلام لسلطان التكليف؛ (إذ النفوس ليست في قبول الأعمال الخاصة على وزان واحد)⁽⁴⁾، بينما يقول ابن تيمية بعدما رجَّح مذهب الإمام مالك في جواز قراءة الحائض للقرآن إذا احتاجت إلى ذلك: (لا ينبغي أن يُنظر إلى غلط المفسدة المقترضة للحظر؛ إلا ويُنظر مع ذلك إلى الحاجة الموجبة للإذن، بل الموجبة للاستحباب أو الإيجاب)⁽⁵⁾.

أو تفريطاً باتباع التراخيص مطلقاً، والأخذ بالأوفق للأغراض التي ليست بالضرورة مصالح شرعية معتبرة.

فإن الفقه الحقيقي ليس بهذا ولا ذاك، ولكنه أعمال الموازنة الدقيقة بين المصالح والمفاسد، قال ابن تيمية: (تمام الورع أن يعلم الإنسان خيرَ الخيرين، وشرَّ الشرِّين، ويعلم أن الشريعة مبناهما على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية، والمفسدة الشرعية؛ فقد يدع واجبات، ويفعل محرِّمات، ويرى ذلك من الورع)⁽⁶⁾.

وهكذا يتبين أن العوامل المؤدية إلى تباين الأخذ بمدارك الرأي، (وسد الذرائع من جملة ذلك)؛ قد تكون موضوعية باعتبارها وليدة ظنية النصوص الشرعية، وقد لا تكون موضوعية، بل صادرة عن العوامل الذاتية، كالطبائع والأمزجة، وربما الأهوية وخفايا الأغراض، خصوصاً إذا صاحب ذلك جهلٌ بِدقائق الشريعة، وخبايا أوضاعها، فإنه يولد فساداً عريضاً، ولا شك أن مثل هذا يجب ضبطه وتكيله، وهذا معنى قول النبي ﷺ: (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين)⁽⁷⁾.

هذا ما يدعو لبحث قاعدة سد الذرائع، كيف ننأى بها عن العوامل الذاتية أو المزاجية، وكيف نضبطها بالقيود

الموضوعية والمنهجية الشرعية؟ والله المستعان.

المطلب الأول: حقيقة سد الذرائع.

الفرع الأول: الحقيقة اللغوية.

الذرائع جمع ذريعة، والذريعة لغة: هي كل ما يتخذ وسيلة، ويكون طريقاً إلى شيء غيره، وسدّها معناه: رفعها، وحسم مادتها⁽⁸⁾.

الفرع الثاني: الحقيقة الشرعية.

استعملت الذريعة في إطلاق الشرعيين في معنيين⁽⁹⁾:

أولاً: المعنى العام.

وهو يتطابق مع المعنى اللغوي، أي: هي كل ما يتوصل به إلى شيء آخر بصرف النظر عن كون الوسيلة أو المتوصل إليه مقيداً بوصف الجواز أو المنع. وهي بهذا المعنى تشمل المتفق عليه، والمختلف فيه، ويتصور فيها الفتح؛ كما يتصور فيها السد، لأن موارد الأحكام قسمان⁽¹⁰⁾:

1- مقاصد: وهي الأمور المكونة للمصالح والمفاسد في أنفسها.

2- وسائل: وهي الطرق المفضية إلى المقاصد.

وحكم الوسائل كحكم ما أفضت إليه من المقاصد، فوسيلة الواجب؛ واجبة، ووسيلة المحرم؛ محرمة.

ثانياً: المعنى الخاص.

عرّفها الشاطبي بقوله: (حقيقة الذرائع: التوسل بما هو مصلحة إلى مفسدة)⁽¹¹⁾.

وقال ابن تيمية: (والذريعة ما كان وسيلة وطريقاً إلى الشيء، لكن صارت في عرف الفقهاء عبارة عما أفضت إلى فعل محرم ... ولهذا قيل: الذريعة: الفعل الذي ظاهره أنه مباح، وهو وسيلة إلى فعل المحرم)⁽¹²⁾.

وقال الدكتور البرهاني: (إن العلماء متفقون على أن الوسيلة لا تكون ذريعة بالمعنى الخاص؛ إلا إذا كانت مباحة جائزة متضمنة لمصلحة؛ فالوسيلة المحظورة الممنوعة ليست ذريعة في هذا المعنى)⁽¹³⁾.

المطلب الثاني: ضوابط سد الذرائع.

الضابط الأول: ألا يصادم سد الذريعة نصاً شرعياً سواء في النفي أم في الإثبات.

يتأسس هذا الضابط على القاعدة المعروفة بأنّه: (لا اجتهد في مورد النص)، ومعلوم أن سد الذريعة - كما أشرنا في المقدمة - خطوة من خطط الاجتهاد بالرأي، والاجتهاد بالرأي إنما يلجأ إليه عند عدم النص، فإذا ورد النص بأن هذه الذريعة يجب أن تُسد، أو لا يجب أن تُسد، وكان قطعي الثبوت والدلالة، أو قريباً من القطع فيهما، وسلم من المعارض الأقوى؛ فلا

سأل النبي ﷺ رجلٌ عن المباشرة (أي: المداعبة والتقبيل) حال الصيام؛ فرخص له، وأتاه آخر فسأله فنهاه، فإذا الذي رخص له شيخ، والذي نهاه شاب⁽¹⁷⁾.

ووجه ذلك أن الشيخ أملك لأربه؛ إذ لا يخشى عليه أن يستدرجه التقبيل والمداعبة إلى الواقعة، بخلاف الشاب؛ فإنه يخشى عليه ذلك.

فهذا نص صريح بيب في الترخيص في القبلة وما شابها لمن كان يملك أربه، ولا يستدرجه الأمر على هتك حرمة الشهر، نعم يقال: تكره في حق من يخشى على نفسه الجماع، كالشاب؛ سدا للذريعة، ولا يقال: إن القبلة للصائم محرمة بإطلاق، سدا للذريعة، لأن النبي ﷺ هو المشرع، وقد فصل في الأمر، ولم يطلق حكم الحرمة سدا للذريعة، فلو كان الأمر يستوجب ذلك؛ ما سكت عنه.

الضابط الثاني: ألا يخالف سد الذريعة إجماع العلماء سواء في النفي أم في الإثبات.

الإجماع واحد من أدلة الشريعة القطعية (إذا ثبت، ونُقِل بالتواتر)، ومترك ذلك أن الله خص هذه الأمة بالعصمة من الاجتماع على ضلالة، أي: على خطأ، فإذا تواطأ العلماء على أن هذه الذريعة تُسد، وأن تلك لا تُسد؛ لم يجز لأي مجتهد مخالفتهم في ذلك، وإليك بعض الأمثلة.

الفرع الأول: مثال الذريعة التي أجمعوا على أنها تُسد.

خروج المرأة متزينة، متعطرة:

أجمع العلماء أن المرأة لا يجوز لها أن تخرج متزينة متعطرة، ولو محتجبة، لأن ذلك ذريعة إلى الفتنة، والفتنة ذريعة إلى الزنا، وقد قال الله ﷻ: (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً) (سورة الإسراء: 32).

الفرع الثاني: مثال الذريعة التي أجمعوا على أنها لا تُسد:
زراعة العنب، وبيعه لمن لا يظن أنه يتخذ خمرًا، إذ لم يقل أحد من العلماء بحرمة زراعة العنب خشية أن يتخذ خمرًا.

وكذلك المجاورة في البيوت، فلا يقال: إنها لا تجوز لأنها وسيلة إلى الزنا، لأنه خلاف الإجماع⁽¹⁸⁾.

الضابط الثالث: النظر في نسبة إفضاء الذريعة إلى المفسدة.

وهذا من أبرز الضوابط التي يمكن أن تستخلص من بحث العلماء لقاعدة سد الذريعة، ومظنة ذلك على وجه التحديد عندما تكلموا عن تقسيم الذريعة من حيث إفضاؤها إلى المفسدة قطعاً، أو نادراً، أو غالباً، والذي اعتنى بذكر هذا التقسيم هو الإمام الشاطبي في كتابه الموافقات، وذلك في سياق كلامه عن العمل الذي يلحق ضرراً بغير العامل، وإن كان مأثراً فيه، وهذه الأقسام هي⁽¹⁹⁾:

يجوز الاجتهاد بعكس ما ورد به النص.
وإليك أمثلة على ذلك.

الفرع الأول: أمثلة في الذرائع المنصوص على سدها.

1- سب آلهة المشركين، لأنه ذريعة لسب الله تعالى، وذلك في قوله تعالى: (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) (سورة الأنعام: 108).

2- ضرب النساء بأرجلهن، لأنه ذريعة لإظهار الرينة، وإحداث الفتنة، كما في قوله تعالى: (ولا يضرين بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) (سورة النور: 31).

3- سب الرجل أبا الرجل، لأنه ذريعة لسب أبيه وأمه، قال رسول الله ﷺ: (إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه)، قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: (يسب الرجل أبا الرجل؛ فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه)⁽¹⁴⁾.

فهذه ذرائع نص الشارع على وجوب سدها؛ فلا يجوز الاجتهاد بخلاف ذلك، وهو أمر بيب لا عناء فيه.

الفرع الثاني: أمثلة في الذرائع المنصوص على عدم سدها.

1- سنّة صيام الأيام الست من شوال.
قال رسول الله ﷺ: (من صام رمضان، ثم أتبعه سناً من شوال؛ كان كصيام الدهر)⁽¹⁵⁾.

فلا يقال: إن صيام الست من شوال مكروه؛ لأنه ذريعة لأن يعتقد الناس وجوبها، وأنها من رمضان، وهذا وإن قاله الإمام مالك ﷺ؛ فلربما كان تمت ما يبرره في زمانه، أما في زماننا هذا فقد صار معلوماً من الدين بالضرورة عند العامة والخاصة أن صيام الست من شوال هو سنّة، وليس فرضاً، وأنها ليست من رمضان، فليس هذا من الذرائع التي يطلب سدها.

2- جواز القبلة للصائم الذي لا يخشى الوقوع في الجماع.

وقد ثبت في السنّة ما يدل على ترخيص القبلة للصائم؛ إن لم يخش على نفسه انتهاك حرمة الشهر بالجماع، ومن ذلك ما رواه عمر بن الخطاب ﷺ قال: هششت يوماً، فقبلت وأنا صائم، فأتيت النبي ﷺ فقلت: صنعت اليوم أمراً عظيماً، فقبلت وأنا صائم، فقال رسول الله ﷺ: (أرأيت لو ت مضمت بماء، وأنت صائم؟)، قلت: لا بأس بذلك، فقال رسول الله ﷺ: (ففيهم؟)⁽¹⁶⁾.

1- إفشاء الذريعة إلى المفسدة قطعاً:

ومثال ذلك: حفر بئر خلف باب الدار في الظلام، بحيث يقع الداخل فيه بلا شك، وهذا النوع يجب سده بلا خلاف.

2- إفشاء الذريعة إلى المفسدة نادراً:

مثال ذلك: حفر بئر بموضع لا يؤدي غالباً إلى وقوع أحد فيه، وأكل الأغذية التي لا تضر غالباً، وهذا مباح باق على أصله من الإذن فيه؛ لأن الشارع أنطأ الأحكام بغلبة المصلحة، ولم يعتبر ندور المفسدة، إذ ليس في الأشياء خير محض، ولا شر محض، ولا توجد في العادة مصلحة خالية في الجملة عن المفسدة.

قال الشاطبي: (لا توجد في العادة مصلحة عريضة عن المفسدة جملة، إلا أن الشارع إنما اعتبر في مجاري الشرع غلبة المصلحة، ولم يعتبر ندور المفسدة؛ إجراءً للشرعيات مجرى العاديات في الوجود، ولا يُعد هنا قصد القاصد إلى جلب المصلحة، أو دفع المفسدة مع معرفته بندور المضرة عن ذلك؛ تقصيراً في النظر، ولا قصداً إلى وقوع الضرر، فالعمل إذن باق على أصل المشروعية)⁽²⁰⁾.

3- إفشاء الذريعة إلى المفسدة غالباً:

ومثال ذلك: بيع السلاح إلى أهل الحرب زمن الفتنة، وبيع العنب إلى الخمار، ونحوهما.

وحكم هذا النوع أنه يلحق بالقسم الأول، أي: المفضي إلى المفسدة قطعاً، والوجه في ذلك ما يلي⁽²¹⁾:

أ- أن الظن الغالب في الأحكام العملية يجري مجرى العلم، والأحكام الفقهية لا يُشترط فيها القطع، بل غالب ما تعبّدنا الله به من التكاليف مبناه على أدلة ظنية، وليست قطعية.

قال العزّ بن عبد السلام: (لا يجب الأخذ باليقين في الإيجاب والتحريم، ولا الكراهة والندب، ولا الإباحة والتحليل؛ بل يكفي في ذلك الظن المستند إلى الأسباب الشرعية ... ولو شرط ذلك لفات معظم الأحكام في حق العلماء والعوام)⁽²²⁾، وقال الشاطبي: (الحكم بغلبة الظن أصل في الأحكام)⁽²³⁾.

وبناءً على هذا؛ وجب سدّ الذريعة فيما كان مفضياً إلى المفسدة غالباً، ولو لم نقل بذلك لتعطل العمل بهذا الأصل، ولم تُرج له فائدة.

ب- لأنّ سدّ الذرائع مسلك من مسالك الاحتياط، والاحتياط معناه أخذ الحيطة والحذر، وفائدة الحذر إنما تكون فيما يُظن ويَتوقع فيه الخطر أو الضرر، أما إذا لم يتخذ الإنسان تدابير الحذر إلا فيما يقطع بخطرته؛ فهذا لا يتحقق فيه المعنى الدقيق للحذر، فمن هذا الوجه العلة من سدّ الذرائع متحققة فيما كان مفضياً إلى المفسدة غالباً.

4- إفشاء الذريعة إلى المفسدة كثيراً، لا غالباً، ولا نادراً:

كبيع الآجال، فإنها تؤدي إلى الربا كثيراً لا غالباً، وهذا القسم قال فيه الشاطبي: «هو موضع نظر والنباس»⁽²⁴⁾، لأنه إما أن يُنظر إلى أصل الإذن بالبيع؛ فيجوز، وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة، لأن العلم أو الظن بوقوع المفسدة منتفیان، إذ ليس هنا إلا احتمال مجرد بين الوقوع وعدمه، ولا قرينة تُرجح أحد الجانبين على الآخر، ولا يُبنى المنع إلا على العلم أو الظن، وأيضاً لا يصح أن نعتبر عمل العامل وزراً لمفسدة لم يقصدها، ولم يكن مقصراً في الاحتياط لتجنبها، لأنها ليست غالبية، وإن كانت كثيرة، وإما أن يُنظر إلى كثرة المفسد، وإن لم تكن غالبية؛ فيحرم، وهذا هو مذهب مالك وأحمد، وهذا القسم هو الذي اختص المالكية بالتوسع فيه مقارنة بغيرهم، والشاطبي رجح أن هذا القسم مما ينبغي إعمال سدّ الذرائع فيه، لما ورد في كثير من النصوص من النهي عن أشياء لا تقضي إلى المفسدة غالباً بل كثيراً، مثل⁽²⁵⁾:

نهى النبي ﷺ عن الخليطين، وعن شرب النبيذ بعد ثلاث، وعن الانتباز في الأوعية التي لا يعلم بتخمير النبيذ فيها، وعن الخلوة بالمرأة الأجنبية، وأن تُسافر مع غير ذي محرم، وعن بناء المساجد على القبور، وعن الصلاة إليها، وعن الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، وعن خطبة المعتدة تصريحاً، ونكاحها، وعن البيع والسلف، وعن هدية المديان، وعن ميراث القاتل، وعن تقدّم شهر رمضان بصوم يوم أو يومين، وحرّم صوم يوم عيد الفطر، وندب إلى تعجيل الفطر، وتأخير السحور ... إلى غير ذلك.

والذي يراه الباحث في هذا القسم الذي يتجانبه أصلاً: أصل الإباحة والإذن، بالنظر إلى كون الذريعة مشروعة في الأصل.

أصل سدّ الذريعة، بالنظر إلى احتمال إفضاؤها إلى المفسدة احتمالاً ليس نادراً وليس غالباً.

أنه لا يُطلق فيه قولٌ بإذن، ولا بمنع، بل ينبغي أن يُنظر في كلّ حالة على حدتها إلى المصلحة المتوخاة من العمل بالموازاة مع المفسدة المحتملة، ثم تُعمل الموازنة الدقيقة بينهما؛ فإذا ترجّح جانب المصلحة غلب أصل الإباحة والإذن، وإذا ترجّح جانب المفسدة غلب أصل سدّ الذريعة؛ جمعا وتوفيقاً بين القولين، وهذا ما سيُتضح أكثر في الضابط الآتي بحول الله.

الضابط الرابع: الموازنة بين مصلحة الذريعة ومفسدتها.

لعلّ هذا الضابط هو أدقّ الضوابط التي ينبغي مراعاتها في سدّ الذرائع، وهو يتطلب حذقاً، ونباهة،

على وزان واحد، كالطلب المتعلق بأصل الدين ليس في التأكيد كالنفس، ولا النفس كالعقل، إلى سائر أصناف الضروريات، والحاجيات كذلك، فليس الطلب بالنسبة إلى الممتع المباحة التي لا معارض لها؛ كالطلب بالنسبة إلى ما له معارض، كالتمتع بالذات المباحة؛ مع استعمال القرض والسلم والمساقاة وأشياء ذلك، ولا أيضاً طلب هذه كطلب الرخص التي يلزم في تركها حرج على الجملة، ولا طلب هذه كطلب ما يلزم في تركه تكليف ما لا يُطاق، وكذلك التحسينيات حرفاً بحرف⁽²⁹⁾.

كما تنقسم المصالح والمفاسد من حيث العموم والخصوص إلى: عامة وخاصة، أي: عامة لجميع الأمة، وخاصة ببعض أفرادها.

وتقرر أن المصلحة العامة أولى بالاعتبار من المصلحة الخاصة، ومن القواعد المعروفة في هذا قاعدة (المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة)⁽³⁰⁾، وقاعدة (يُحمّل الضرر الخاص لدفع الضرر العام)⁽³¹⁾.

قال العزّ بن عبد السلام: (اعلم أن الله شرع لعباده السعي في تحصيل مصالح عاجلة وأجلة؛ تجمع كل قاعدة منها علة واحدة، ثم استثنى منها ما في ملابسته مشقة شديدة، أو مفسدة تربو على تلك المصالح، وكذلك شرع لهم السعي في درء مفسد في الدارين أو في أحدهما؛ تجمع كل قاعدة منها علة واحدة، ثم استثنى منها ما في اجتنبه مشقة شديدة، أو مصلحة تربو على تلك المفاسد، وكل ذلك رحمة بعباده ونظر لهم ورفق ... وذلك جار في العبادات والمعاوضات وسائر التصرفات)⁽³²⁾.

ويدعو ابن تيمية إلى التفطن إلى هذه الحقيقة، فيقول: (فتفطن لحقيقة الدين، وانظر ما اشتملت عليه الأفعال من المصالح الشرعية، والمفاسد، بحيث تعرف ما ينبغي من مراتب المعروف، ومراتب المنكر، حتى تقدم أهمها عند المزاخمة، فإن هذا حقيقة العمل بما جاءت به الرسل، فإن التمييز بين جنس المعروف، وجنس المنكر، وجنس الدليل، وغير الدليل، يتيسر كثيراً، فأمّا مراتب المعروف والمنكر، ومراتب الدليل؛ بحيث تقدم عند التزام أعرف المعروفين؛ فتدعو إليه، وتترك أنكر المنكرين، وترجح أقوى الدليلين، فإنه هو خاصة العلماء بهذا الدين)⁽³³⁾.

أمثلة في الموازنة بين مصلحة الذريعة، ومفسدتها.
أ- أمثلة في ترجيح مصلحة الذريعة على مفسدتها.

- الدراسة في الجامعات المختلطة.

الدراسة في الجامعة المختلطة بين الذكور والإناث؛ حالة يختلط فيها المنكر بالمعروف، والأمر بالنهاي،

وتمرساً في قواعد الشريعة، وغوصاً في خبايا أوضاعها، وفهماً لمراتب المصالح، ومراتب المفاسد، وعلماً بتقسيماتها، وذكاء وفطنة في الموازنة بين المراتب، إضافة إلى دراية واسعة بالواقع، ولهذا يشدد البحث على أن العمل بسدّ الذرائع؛ خاصة في القسم الأخير الذي اعتبره الإمام الشاطبي (ملتبساً)؛ لا يضطلع به إلا أهل العلم المتخصصون، وأصحاب الخبرة والمعرفة بالواقع، ولا يجوز أبداً أن يسند للمبتدئين وغير المتأهلين ممن يحسبون أن الإفتاء هو مجرد نقل أقوال العلماء من كتبهم بغض النظر عن واقع المستفتي، وعن المناط العام، والمناط الخاص للفتوى، وعن الموازنة بين المصلحة والمفسدة.

قال ابن تيمية: (إن التمييز بين جنس المعروف، وجنس المنكر، وجنس الدليل، وغير الدليل، يتيسر كثيراً، فأمّا مراتب المعروف والمنكر، ومراتب الدليل؛ بحيث تقدم عند التزام أعرف المعروفين؛ فتدعو إليه، وتترك أنكر المنكرين، وترجح أقوى الدليلين، فإنه هو خاصة العلماء بهذا الدين)⁽²⁶⁾.

ولهذا أنكر القرافي وابن القيم وغيرهما أشدّ التكرير على من أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب، قال القرافي: (ولا تجمد على المسطور في الكتب طول عمرك ... والجمود على المنقولات أبداً ضلال في الدين، وجهل بمقاصد علماء المسلمين والسلف الماضين)⁽²⁷⁾.

وقال ابن القيم: (ومن أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب على اختلاف عرْفهم وعوائدهم وأزمنتهم وأمكنّتهم وأحوالهم وقرائن أحوالهم فقد ضلّ وأصل)⁽²⁸⁾.

وقد تقرر في علم المقاصد أن كليات المصالح المعبرة شرعاً متدرجة حسب الأهمية في خمس مراتب: حفظ الدين، ثم النفس، ثم العقل، ثم النسل، ثم المال، فما يكون به حفظ الدين مقدّم على ما يكون به حفظ النفس، وما يكون به حفظ النفس مقدّم على ما يكون به حفظ العقل، وهكذا.

وتقرر أيضاً أن كل كلية من هذه الكليات الخمس تنقسم بحسب الأهمية أيضاً إلى: ضروريات، وحاجيات، وتحسينيات، ومن ثم فإن الضروري مقدّم على الحاجي، والحاجي مقدّم على التحسيني.

يقول الشاطبي: (إن الأوامر في الشريعة لا تجري في التأكيد مجرى واحداً، وأنها لا تدخل تحت قصد واحد، فإن الأوامر المتعلقة بالأمور الضرورية ليست كالأوامر المتعلقة بالأمور الحاجية، ولا التحسينية، ولا الأمور المكملّة للضروريات كالضروريات أنفسها، بل بينهما تفاوت معلوم، بل الأمور الضرورية ليست في الطلب

ومن الأمثلة أيضاً:

- دخول الحمام بغرض التداوي أو التطهر؛ مع ما فيه من كشف على أن يدفع المنكر عن سمعه وبصره ما أمكن⁽³⁹⁾.

- الإقدام على الزواج الذي يلزمه طلب القوت للعيال، وقد لا تخلص في ذلك سبل الحلال المحض، وكثيراً ما يلجئ إلى الدخول في الاكتساب لهم بما لا يجوز، مع ذلك يجوز الإقدام على هذا النكاح مع التحرز من الحرام قدر المستطاع، قال الشاطبي: (ولو اعتبر مثل هذا في النكاح في مثل زماننا لأدى إلى إبطال أصله، وذلك غير صحيح)⁽⁴⁰⁾.

ومن الأمثلة أيضاً: كشف الطبيب عن بعض جسد المرأة بغرض العلاج الضروري.

إذ لا شك أن مصلحة حفظ النفس، أو حفظ عضو من الأعضاء، في هذه الحالة أولى من مفسدة انكشاف بعض الجسد، إذا تعذر وجود طبيبات في ذلك التخصص أو ذلك البلد.

ب- أمثلة في ترجيح مفسدة الذريعة على مصلحتها:

- النهي عن المنكر إذا ترتب عليه منكر أعظم.

الذريعة هنا هي النهي عن المنكر، وهي وسيلة إلى اجتناب المنكر، وهو مصلحة، لكن إذا كان ذلك يفضي إلى منكر مثله، أو أكبر منه، فإن ذريعة النهي تترك بالنظر إلى رجحان المفسدة على المصلحة في هذه الحالة.

- الجهاد مع قلة العدو والعدد، إذا كان لا يرجى منه نصر ولا إنكاء في العدو.

الذريعة هنا هي الجهاد، وهي وسيلة إلى تبليغ الدين، ونصرة الله ورسوله، وكف العدو المتربص بديار المسلمين، لكن إذا لم يرجح من ذلك شيء، بأن كان عدد المسلمين قليلاً، وعدتهم ضعيفة، ولا يتمكنون من النكاية فيهم؛ فلا يجوز الجهاد، لأنه محض تغرير بالأرواح.

قال ابن عبد السلام: (فإذا لم تحصل النكاية؛ وجب الانهزام، لما في الثبوت من فوات النفوس مع شفاء صدور الكفار، وإرغام أهل الإسلام، وقد صار الثبوت ههنا مفسدة محضة، ليس في طيها مصلحة)⁽⁴¹⁾.

الضابط الخامس: اجتناب الغلو والتنعط.

والفرق بين سد الذريعة والغلو في الدين⁽⁴²⁾:

أن سد الذريعة موقعه وجود المفسدة، ووجوب سدها، والغلو في الدين موقعه المبالغة في إلحاق مباح بمأمور به، أو بمنهي عنه شرعاً، أو في إتيان عمل شرعي بأشد مما أراه الشارع، بدعوى خشية

والحلال بالحرام؛ إذ لا يخفى على كل أحد أن طلب العلم فرض من فروض الكفايات على الأمة، وأنها تأثم إذا لم يكن عندها من المفتين الشرعيين، أو من القضاة، أو من الأطباء، أو من المهندسين، أو من المزارعين، أو من المحاربين، وغير ذلك؛ ما تستغني به عن أعدائها، وما يتحصل به قوام الدين والدنيا.

وقديماً أنكر الغزالي ألا يكون في الأمة أطباء إلا من أهل النمة، في حين كان الجميع ينشغلون بالفقه والخلافات، فقال: (فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل النمة، ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه، ثم لا نرى أحداً يشتغل به، ويتهاثرون على علم الفقه؛ لاسيما الخلافات، والجدليات، والبلد مشحون من الفقهاء، بمن يشتغل بالفتوى، والجواب عن الواقع، فليت شعري! كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة، وإهمال ما لا قائم به؟)⁽³⁴⁾.

لكن القيام بهذا الفرض الكفائي إذا اعتراه بعض المنكر مثل تكشف بعض النساء وتبرجهن بما يتوقع منه حدوث الفتنة، لكن ليس على وجه القطع أو الغلبة، فهل نمنع من أداء الفرض سداً للذريعة المحتملة؟

هنا ينبغي إعمال الموازنة، ويرى البحث أن مصلحة الفرض الكفائي أربى من مفسدة توقع الفتنة، ويستثنى من ذلك من كان يخشى على نفسه الوقوع في المحذور على وجه القطع، أو غلبة الظن، فهذا يستفتي قلبه وإن أفتاه المفتون، أما في حق عامة الطلبة والمدرسين والقائمين على هذه الجامعات؛ فلا يعطل هذا الفرض الكفائي.

وهذا ما قرره الشاطبي عندما قال: (إن الأمور الضرورية، أو غيرها من الحاجة، أو التكميلية؛ إذا اكتفتها من خارج أمور لا ترضى شرعاً؛ فإن الإقدام على جلب المصالح صحيح، على شرط التحفظ بحسب الاستطاعة ... وكذلك طلب العلم؛ إذا كان في طريقه منكر يسمعها ويراه، وشهود الجنائز، وإقامة وظائف شرعية؛ إذا لم يقدر على إقامتها إلا بمشاهدة ما لا يرتضي؛ فلا يخرج هذا العارض تلك الأمور عن أصولها؛ لأنها أصول الدين وقواعد المصالح، وهو المفهوم من مقاصد الشارع؛ فيجب فهمها حق الفهم)⁽³⁵⁾.

وقال الزركشي: (قول الأصوليين: "إذا اختلط الحلال بالحرام؛ وجب اجتناب الحلال" موضعه في الحلال المباح، أما إذا اختلط الواجب بالمحرم روعي مصلحة الواجب)⁽³⁶⁾، وضرب على ذلك أمثلة منها:

- ترجيح وجوب هجرة المرأة من بلاد الكفر ولو من دون محرم؛ على حرمة سفرها بغير محرم⁽³⁷⁾.

- ولو اختلط موتى المسلمين بموتى الكفار؛ غسل الجميع وصلي عليهم⁽³⁸⁾.

ب- إذا كانت الذريعة تقضي إلى المفسدة غالباً؛
فالحالة محلّ قابل للسدّ اتفاقاً.

ج- إذا كانت الذريعة تقضي إلى المفسدة نادراً؛
فالحالة ليست محللاً قابلاً للسدّ اتفاقاً.

د- إذا كانت الذريعة تقضي إلى المفسدة كثيراً لكن ليس غالباً؛ اختلف الفقهاء، فقال الحنفية والشافعية بعدم السدّ، وقال المالكية والحنابلة بالسدّ، والباحث يرجّح أنّه لا يُطلق في هذا القسم قول بالسدّ أو عدمه، بل يُنظر في كلّ حالة على حدّتها إلى المصلحة المرجوّ تحقيقها قبالة المفسدة المتوقعة، ثم يوازن بينهما على النحو المذكور في الضابط الآتي.

4- الموازنة بين المفسدة المتوقعة من الذريعة وبين المصلحة المرجوّ تحقيقها من خلال تلك الذريعة، فإذا كانت المصلحة أربى من المفسدة، كأن تكون مصلحة مترتبة على واجب من الواجبات الشرعية العينية أو الكفائية وتكون المفسدة طارئة أو عارضة أو وصفاً منفكاً، أو تكون المصلحة من قبيل الضروري والمفسدة من قبيل الحاجي، أو غير ذلك من صور التفاوت بين مراتب المصالح والمفاسد؛ فيجب تقديم رعاية المصلحة على درء المفسدة في هذه الحالة.

5- التفريق بين سدّ الذريعة وبين الورع الشخصي، وكذلك بين سدّ الذريعة وبين الغلو والتنتع.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين، والحمد لله رب العالمين.

التقصير، وهو المسمّى بالتعمّق والتنتع، وفيه مراتب.

1- منها ما يدخل في الورع في خاصّة النفس الذي بعضه إخراج لها، والورع يرجع إلى طلب حصول اليقين مما نحن مكلفون فيه بالظنّ، مثل التحريّ في رسم القبلة بالقواعد الفلكية التي لم نكلّف بها، واستمرار الإمساك في رمضان حصّة بعد الغروب لتحقيق الغروب، وابتداء الإمساك فيه زمناً قبل الفجر.

2- ومنها الورع في حمل الناس على الحرج، ومنها ما يدخل في معنى الوسوسة المذمومة.

يقول ابن عاشور: (ويجب على المستنبطين والمفتين أن يتجنّبوا مواقع الغلو، والتعمّق في حمل الأمة على الشريعة، وما ييسر لها من ذلك)⁽⁴³⁾.

وقد أُنذر النبي ﷺ بهلاك المتنتعين فقال: (هلك المتنتعون، هلك المتنتعون، هلك المتنتعون)⁽⁴⁴⁾.

الخاتمة:

من خلال ما سبق بيانه؛ نخلص إلى أنّ أهمّ ضوابط سدّ الذرائع هي:

1- ألا يصادم سدّ الذريعة أو عدم سدّها نصّاً شرعياً دالاً على وجوب السدّ أو عدمه.

2- ألا يخالف سدّ الذريعة أو عدم سدّها إجماع العلماء على السدّ أو عدمه.

3- النظر في نسبة إفشاء الذريعة إلى المفسدة، وذلك على النحو الآتي:

أ- إذا كانت الذريعة تقضي إلى المفسدة قطعاً؛ فالحالة محلّ قابل للسدّ اتفاقاً.

الهوامش:

(1) الجويني، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله (ت478هـ/1085م)، البرهان في أصول الفقه، ط1، م2، (تحقيق صلاح بن محمد بن عويضة)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418 هـ - 1997م، ج2، ص37.

(2) أحمد، أبو عبد الله بن محمد بن حنبل (ت241هـ/855م)، المسند، ط1، م45، (تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2001م، حديث رقم: 3632، قال أبو بكر الهيثمي: (وفيه أبو عبيدة، ولم يسمع من أبيه، ولكن رجاله ثقات)، الهيثمي، أبو الحسن نور الدين عليّ بن أبي بكر (ت807هـ/1404م)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دط، م10، (تحقيق حسام الدين القدسي)، مكتبة القدسي، القاهرة، 1994م، حديث رقم: 10010.

(3) انظر: القرضاوي، يوسف، الصحوّة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، دار الشروق، القاهرة، 2001م، ص46.

(4) الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى (ت790هـ/1388م)، الموافقات، دط، م4، (تحقيق عبد الله دراز)، دار المعرفة، بيروت، ج4، ص98.

(5) ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحلّيم (ت728هـ/1327م)، مجموع الفتاوى، دط، م37، (تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم)، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، 1995م، ج26، ص179-181.

(6) المرجع السابق، ج10، ص512.

(7) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911هـ/1505م)، جامع الأحاديث: الجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير، دط، م20، (جمع وترتيب عباس أحمد صقر وأحمد عبد الجواد)، دار الفكر، بيروت، 1994م، حديث رقم:

- 28383، ج9، ص266، قال السيوطي: (قال الخطيب: سئل أحمد بن حنبل عن هذا الحديث وقيل له: كأنه كلام موضوع، قال: لا، هو صحيح سمعته من غير واحد)، نفس المرجع.
- (8) انظر: ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم الإفريقي (ت1311هـ/711م)، لسان العرب، ط3، 15م، دار صائر، بيروت، 1414هـ، مادة (نزع)، ج8، ص93.
- (9) انظر: البغا، مصطفى ديب، أثر الأدلة المختلف فيها في الفقه الإسلامي، ط4، 1م، دار القلم، دمشق، ودار العلوم الإنسانية، دمشق، 2007م، ص566.
- (10) انظر: القرافي، أبو العباس أحمد بن إدريس (ت684هـ/1285م)، أنوار البروق في أنواء الفروق، ومعه حاشية ابن الشاط، وتهذيب الفروق لمحمد علي، دط، 4م، عالم الكتب، دبت، ج2، ص41.
- (11) الشاطبي، الموافقات، ج4، ص198.
- (12) ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم (ت728هـ/1327م)، الفتاوى الكبرى، ط1، 6م، دار الكتب العلمية، 1987م، ج6، ص172.
- (13) البرهاني، محمد هشام، سد الذرائع في الشريعة الإسلامية، ط1، 1م، دار الفكر، دمشق، 1985م، ص78.
- (14) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت256هـ/869م)، صحيح البخاري، ط1، 9م، (تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، دار طوق النجاة، 1422هـ، كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، حديث رقم: 5973.
- (15) مسلم، أبو الحسين ابن الحجاج (ت261هـ/874م)، صحيح مسلم، دط، 5م، (تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دبت، كتاب الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتباعاً لرمضان، حديث رقم: 1164.
- (16) أحمد، المسند، حديث رقم: 138، قال شعيب الأرناؤوط: (إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الملك بن سعيد الأنصاري فمن رجال مسلم)، نفس المرجع.
- (17) أبو داود، سليمان بن الأشعث (ت275هـ/888م)، سنن أبي داود، دط، 4م، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد)، المكتبة العصرية، بيروت، دبت، باب كراهيته [أي التقييل] للشاب، حديث رقم: 2387، قال الألباني: (إسناده حسن صحيح)، الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح (ت1420هـ/1999م)، صحيح أبي داود، ط1، 7م، مؤسسة غراس، الكويت، 2002م، حديث رقم: 2065.
- (18) انظر: القرافي، الفروق، ج2، ص32.
- (19) انظر: الشاطبي، الموافقات، ج2، ص357-361.
- (20) الشاطبي، الموافقات، ج2، ص359.
- (21) نفس المرجع، ج2، ص360.
- (22) ابن عبد السلام، عز الدين أبو محمد عبد العزيز (ت660هـ/1261م)، شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال، ط2، 1م، (تحقيق إياد خالد الطباع)، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، 2000م، ص423.
- (23) الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى (ت790هـ/1388م)، الاعتصام، دط، 2م، دار المعرفة، بيروت، 1982م، ج1، ص390.
- (24) الشاطبي، الموافقات، ج2، ص361.
- (25) نفس المرجع، ج2، ص363-364.
- (26) ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم (ت728هـ/1327م)، اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، ط7، 2م، (تحقيق ناصر عبد الكريم العقل)، دار عالم الكتب، بيروت، 1419هـ - 1999م، ج2، ص127.
- (27) القرافي، الفروق، ج1، ص176-177.
- (28) ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت751هـ/1350م)، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ط1، 4م، (تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ - 1991م، ج3، ص66.
- (29) الشاطبي، الموافقات، ج3، ص156.
- (30) انظر: نفس المرجع، ج2، ص367.

- (31) انظر: الزرقا، أحمد بن محمد (ت1357هـ/1938م)، شرح القواعد الفقهية، د.ط، 1م، (صححه وعلق عليه مصطفى أحمد الزرقا)، دار القلم، دمشق، 1409هـ - 1989م، ص197.
- (32) ابن عبد السلام، قواعد الأحكام، ج2، ص161-162.
- (33) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ج2، ص127.
- (34) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت505هـ/1111م)، إحياء علوم الدين، د.ط، 4م، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج1، ص21.
- (35) الشاطبي، الموافقات، ج4، ص210.
- (36) انظر: الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (ت794هـ/1391م)، المنثور، ط2، 3م، وزارة الأوقاف الكويتية، 1985م، ج1، ص132.
- (37) نفس المرجع.
- (38) نفس المرجع.
- (39) انظر: الشاطبي، الموافقات، ج3، ص233.
- (40) نفس المرجع، ج4، ص210.
- (41) ابن عبد السلام، قواعد الأحكام، ج1، ص112.
- (42) انظر: ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد (ت1393هـ/1973م)، مقاصد الشريعة الإسلامية، ط2، 1م، (تحقيق ودراسة محمد الطاهر الميساوي)، دار النفائس، عمان، 2001م، ص370.
- (43) المرجع السابق.
- (44) مسلم، صحيح مسلم، كتاب العلم، باب هلك المنتطعون، حديث رقم: 2670.

فلسفة النظام المالي المحاسبي للمؤسسات الاقتصادية - المواقف والمأمول -

عجيلة محمد

قسم العلوم الاقتصادية جامعة غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 الجزائر

مقدمة:

باعتبار المحاسبة علم كبقية العلوم الاجتماعية والإنسانية، تتزايد مع مر الزمان حاجة المؤسسات الاقتصادية في مختلف الاقتصاديات الدولية إلى المحاسبة لما لها من فائدة في توفير المعلومات الضرورية لتأدية الوظائف الأساسية سواء كان ذلك في المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية، وسواء تعلق الأمر أيضا بالدول المتطورة أو الدول النامية على حدي سواء. وبالرغم من أن المحاسبة كان يقتصر دورها في البداية على عرض المعلومات للملاك والمساهمين بهدف إعطائهم الفرصة لمراقبة وتقييم أداء الإدارة في استخدام الإمكانيات والموارد الاقتصادية التي وضعت تحت تصرفهم. فإنه اتسع مجال الدور الذي تلعبه في مجال الأعمال بسبب تزايد حاجة المؤسسات الاقتصادية إلى جلب رؤوس الأموال من جهات خارجية في شكل قروض أو ائتمانات تجارية. وحتى تتم هذه العمليات باستمرار كان لزاما على تلك الوحدات أن تقدم المعلومات بالبنوعى اللازمة التي تعزز العلاقة والارتباط بينها وبين مختلف المتعاملين الاقتصاديين. غير أن ذلك لا يكفي إذا لم تتوفر الأطر القانونية التي تنظم وتضبط الممارسة المحاسبية. لذلك عمدت الدول إلى إنشاء هيئات مهنية في المحاسبة خولت لها الصلاحية في وضع وإصدار المعايير المحاسبية التي يكون من شأنها خلق مناخ ملائم يضمن تدفق حركة السلع والخدمات، وكذلك حركة الأموال، ويتمشى مع معطيات ورهانات العولمة.

أولا: تعريف المحاسبة

تتميز العلوم الاجتماعية بالتكيف والتطور السريع نسبيا لدائمة التغيرات والمستجدات البيئية المحيطة بخلايا المجتمع، وبطبيعة الحال تتفق هذه المقولة مع المحاسبة كفرع شجرة العلوم الاجتماعية والإنسانية وبالرغم من قدم المحاسبة فإنه لا يوجد تعريف للمحاسبة متفق عليه،

وتعددت واختلفت التعاريف نذكر منها:

• المحاسبة هي علم يبحث عن طرق تسجيل المعاملات المادية المختلفة واقتراح النظم والدفاتر الملائمة لها.¹

• ويمكن تعريف المحاسبة بأنها اصطلاح مالي أطلق على حقل المعرفة موجه لتقديم العديد من المعلومات الرقمية طبقا لاعتبارات قانونية واقتصادية، من خلال الحسابات التي تتم على شكل تسجيل وتبويب وتلخيص العمليات والأحداث ذات الطابع المالي وتتلخص فيما يلي:²

1. **التسجيل:** وهو تسجيل جميع العمليات المالية في دفتر أو مجموعة من الدفاتر، لأننا لا يمكن الاعتماد على الذاكرة في هذا المجال.

2. **التبويب:** هو ترتيب جميع البيانات وتصنيفها مع فرز العمليات والمعلومات ذات طبيعة واحدة.

3. **التلخيص:** هو تركيز البيانات التي تم تسجيلها وتبويبها في صورة معلومات مفيدة على شكل تقارير أو قوائم توضح النتائج والحقائق المالية.

أما إذا تطرقنا لتعريف نظرية المحاسبة، فإننا سنجد أيضا صعوبة أيضا في تحديد تعريف متفق عليه، نظرا لأن مجال البحث في إطار نظرية المحاسبة مازال قابلا للتجديد والابتكار والإبداع، فيرى البعض فيرى البعض أن نظرية المحاسبة تركز على مجموعة من المبادئ والأسس والفروض التي تتناول الحقائق وتتمثل في عمليات ومراكز ذات القيمة المالية المتعلقة بالوحدة المحاسبية، كما تستخدم في شرح وتفسير النواحي التطبيقية للمحاسبة، في شتى مجالات النشاط الاقتصادي.³

كما يمكن أن نعرف المحاسبة بأنها خلاصة في شكل مجموعة المبادئ الرئيسية التي تنصف بمائلي:⁴

1. أنها تقدم إطارا يمكن الرجوع إليه في تقييم الممارسة المحاسبية.

أن الحسابات تمثل المشروع والعمليات المالية تمثل أحداث فعلية متحققة وليست مستقبلية وأن قيمة القيد متساوية الجانبين مع إثبات الشروحات المختصرة التي توضح طبيعة القيد.

❖ ترحيل القيود المحاسبية:

و يعني نقل البيانات من واقع القيود المسجلة بدفتر اليومية إلى دفتر الأستاذ وهو أيضا تبويب وتصنيف لأثر العمليات الواردة في دفتر اليومية للحسابات المعنية في دفتر الأستاذ وفق الخطوات التالية⁷:

* الاطلاع على القيود المسجلة في دفتر اليومية قيدا بقيد منذ بداية الفترة ولغاية نهايتها؛

* معرفة الحساب المعني بالقيد المسجل في دفتر اليومية ورقم الصفحة الخاصة به في دفتر الأستاذ وإن لم تخصص له صفحة فتفتح له صفحة جديدة؛

* تحديد موقع الحساب من القيد أي هل تأثر الجانب المدين أو الدائن منه ومن ثم إدخال المبلغ في الجانب المعني من الحساب وفي خانة المبلغ؛

* إدخال اسم الحساب المقابل الذي ترحل إليه البيانات وكما جاء بقيد اليومية في خانة البيانات.

❖ ترصيد الحسابات :

الترصيد هو حساب الفرق أو الرصيد بين الجانبين المدين والدائن لكل حساب من الحسابات الظاهرة في سجل الأستاذ في نهاية فترة زمنية معينة. وعليه فإن الرصيد يكون وفق للنتائج التالية⁸:

* رصيد مدين عندما يكون مجموع الجانب المدين اكبر من مجموع الجانب الدائن للحساب وعموما يظهر مثل هذا الرصيد للأصول والمصروفات والحسابات الشخصية المدينة والخسائر؛

* رصيد دائن عندما يكون مجموع الرصيد الدائن أكبر من مجموع الرصيد المدين للحساب وعموما يظهر مثل هذا الرصيد للخصوم والحسابات الشخصية الدائنة والأرباح والإيرادات؛

* الرصيد صفرا عندما يتساوى مجموع الجانب المدين مع مجموع الجانب الدائن للحساب.

وعملية الترسيد تبدأ بالمساواة بين الجانبين المدين والدائن ويوضع المبلغ الأكبر في كلا الجانبين ثم يوضع في الجانب الآخر الفرق (المتبقي الحسابي) الذي سيكون هو الرصيد.

❖ إعداد ميزان المراجعة:

لا يحتاج الأمر في ظل استخدام نموذج حسابات الأستاذ ذو الرصيد المتحرك إلى ترصيد الحسابات حيث أرصدها متاحة مقابل آخر قيد في كل منها، وبذلك يستطيع المحاسب

2. أنها مرشد لتطوير استخدامات وإجراءات جديدة في مجال المحاسبة.

ثانيا: العمليات المحاسبية والمالية

1- الدورة المحاسبية: هي الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها النظام المحاسبي ويمكن تبويب هذه الإجراءات إلى خطوات متتابعة تشمل على مايلي⁵:

* تحليل العمليات المالية؛

* إثبات القيود المحاسبية؛

* ترحيل القيود المحاسبية؛

* ترصيد الحسابات؛

* إعداد ميزان المراجعة؛

* إقفال الحسابات؛

* إعداد الحسابات الختامية.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الخطوات التي تتضمنها الدورة المحاسبية تكون متسلسلة يكمل بعضها الآخر لكي يكون بالإمكان تحديث معلومات النظام المحاسبي عن طريق معالجة البيانات المالية اليومية التي يستلمها النظام والتي ستؤثر على البنود التقارير والقوائم المحاسبية من مصروفات وإيرادات وأصول والتزامات ورأس المال، لذلك فإن الدورة المحاسبية تسعى أيضا إلى تحديث المعلومات التي يشملها النظام بحيث يكون جاهزا يعكس الأوضاع المالية للمؤسسة .

❖ تحليل العمليات المالية:

و يقصد بهذه الخطوة إعداد المستندات المحاسبية المناسبة لكل عملية قبل أن يتم إدخال العمليات المالية في النظام المحاسبي إذ يتم إعداد مستند منفصل لكل عملية كأن يكون مستند قبض أو مستند دفع أو مستند قيد. ولغرض إعداد مستندات القيد المحاسبي فإنه يتطلب تعريف العملية المالية لإعتبارها تمثل الحجر الأساس في النظام المحاسبي.

فالعملية المالية يقصد بها تحديد العمليات التي تخضع إلى الإثبات المحاسبي في الدفاتر والسجلات⁶.

ويتم تسجيل الأحداث الاقتصادية الخاصة في اليومية ومن ثم ترحيلها إلى دفتر الأستاذ لإعداد ميزان المراجعة والتوصل إلى القوائم المالية، وهناك عدة أشكال من دفاتر اليومية التي يمكن استخدام أي منها في المؤسسة وتعتبر اليومية العامة واليومية المتخصصة من أكثر الأشكال المتعارف عليه في المنشآت.

❖ إثبات القيود المحاسبية

يتم إثبات القيود المحاسبية في دفتر اليومية العامة الذي يعتبر الأساس للعمليات المالية حيث ينظر له من حيث وجهة نظر المشروع، بحيث

المالية يتمثل في تمويل تلك الاحتياجات المالية الناتجة عن دورة الاستغلال ودورة الاستثمارات وهو ما يصطلح عليه بفائض الخزينة المتاح السالب والذي يستوجب تغطية العجز فيه الاعتماد على موارد خارجية، أما المصادر الرئيسية للتمويل تتمثل في مصدرين أساسيين¹³ :

أ- دورة رأس المال: حيث تدعم الأموال الجماعية من خلال الأموال المقدمة من طرف المساهمين مقابل أجزاء من الأرباح توزع في شكل مكافآت رأس المال.

ب- دورة الاستدانة: حيث تلجأ المؤسسة إلى جلب قروض وذلك مقابل تسديدها مستقبلا مع مكافآت مالية تتمثل في الفوائد والاقتطاعات المالية، تتعدد تصنيفات الاستدانة وأنواعها، باختلاف المصادر وطبيعة القروض وأجال الاستحقاق وأهمها¹⁴:

■ **الدعوة العامة للادخار:** تعد الاستدانة بواسطة الدعوى العامة للادخار وسيلة من وسائل التمويل خاصة بالنسبة للمؤسسات الكبرى والهيئات العامة حيث تلجأ المؤسسة إلى الجمهور من أجل الاكتتاب وإيداع أموالهم لديها، حيث يتم تجزئة القرض على عدة أجزاء في شكل سندات وأوراق مالية وهناك عدة تقنيات بواسطة الادخار أهمها:

■ **إصدار سندات قصيرة الأجل:** الإصدار هو عملية مالية بموجبها، تطرح المؤسسة سندات في شكل أوراق مالية يدفع بموجبها المقرض مبلغ مالي، يتعهد المصدر بتسديد مبالغ القروض والفوائد عند الاستحقاق.

■ **إصدار سندات طويلة الأجل:** وهي الشكل الممتاز للاستدانة بواسطة الادخار العام بموجبها يتم تجزئة القرض إلى عدة أقساط.

كل سند يمثل للمقرض ورقة حق، أما بالنسبة للمقرض فهي إقرار بدين يثبت حق المقرض في استعادة قيمة السند، أقساط الفوائد، حسب الشروط المتفق عليها.

■ **الاقتراض من البنوك والوسطاء الماليين :** تلجأ المؤسسة بمختلف أحجامها وأشكالها إلى الاستدانة من البنوك بشكل أساسي حيث تقسم القروض حسب الاستخدامات إلى:

■ **قروض الاستثمار:** تمثل جزء من حجم الديون، تقدم إلى المؤسسة من البنك أو الوسطاء الماليين بأجل متوسطة وطويلة الأجل (أكثر من السنة)، بهدف تمويل الاستثمارات المادية والمعنوية حيث تشكل أهم عناصر الموارد المالية المستقرة بعد التمويل الذاتي والرفع المالي.

■ **قروض الاستغلال :** تهدف هذه القروض إلى تمويل دورة الاستغلال، وهي قروض قصيرة الأجل

إعداد ميزان المراجعة من هذه الأرصدة في أي وقت، كما تستطيع الإدارة التعرف على الرصيد في أي وقت تشاء.

عند تلخيص خطوات الدورة المحاسبية فإن المحاسب إذا استعان بورقة العمل لغرض إجراء التسويات وإعداد قيود التسوية والإقفال وإعداد الحساب الختامي والميزانية العمومية يستطيع إعداد ميزان المراجعة على ورقة العمل مباشرة، حيث لا فرق بين ميزان المراجعة قبل التسويات الذي يتم إعداده في صورة مستقلة وميزان المراجعة كما يظهر في ورقة العمل قبل التسويات، وعلى هذا الأساس نقوم بإعداد ميزان المراجعة لأرصدة حسابات الأستاذ على ورقة العمل ويلاحظ أن الأرصدة التي تظهر في ميزان المراجعة هي التي تظهر في الحساب قبل قيود التسوية مباشرة⁹.

■ **إقفال الحسابات:**

ويقصد بها إغلاق الحسابات الاسمية المؤقتة في نهاية السنة المالية في حسابات النتيجة والتي تشمل حسابات البضاعة وحسابات المصروفات وحسابات الإيرادات بحيث يتم إقفال الحساب بجعل رصيد الحساب في آخر المدة بالجهة المعاكسة¹⁰. وهذا بعد أن يتم إجراء التسويات وإثباتها دفتريا وترحيلها إلى الحسابات الخاصة بها، تصبح أرصدة الحسابات كما هي ظاهرة في ميزان المراجعة بعد التسويات كما يتضح من ورقة العمل، ويمكن للمحاسب أن يعتمد على هذه الأرصدة في إجراء قيود الإقفال وإعداد الحساب الختامي، حيث تصبح حسابات الإيرادات والمصروفات بعد إجراءات التسويات معدة للإقفال في الحساب الختامي¹¹.

■ **إعداد الحساب الختامي:**

حيث يتم إقفال الحسابات الوهمية تحضيراً لحسابات النتيجة التي تتضمن حساب المتاجرة وحساب الأرباح والخسائر لغرض التوصل إلى صافي الربح أو الخسارة المتحققة في نهاية السنة، وبعد ذلك سيتبقى في ميزان المراجعة الحسابات الحقيقية فقط التي يجب أن تكون متوازنة في جانبيها المدين والدائن. وتظهر في كشف الميزانية العمومية في نهاية السنة المالية.

2- الدورة المالية: تعرف على أنها مجموعة العمليات المحاسبية اللازمة لتسجيل الأحداث الناجمة عن حياة رأس المال وبقيّة الأموال من الملاك المقرضين وتوظيف تلك الأموال في امتلاك الأصول والاستثمارات¹².

من خلال هذا التعريف المتضمن لمفهوم التمويل الذي سبق وأن تطرقنا له يتضح لنا أن دور الموارد

والمعايير المحاسبية:

يتضمن النظام المحاسبي المالي إطاراً تصورياً للمحاسبة المالية ومعايير محاسبية، و مدونة حسابات تسمح بإعداد كشوف مالية على أساس المبادئ المحاسبية المعترف بها مثل محاسبة الالتزامات، الاستمرارية في الاستغلال، القابلية للمقارنة، التكلفة التاريخية، المصادقية، القابلية للمقارنة، التكلفة التاريخية، وأسبقيات الواقع الاقتصادي على المظهر القانوني.

- يشكل الإطار المحاسبي للمحاسبة المالية دليلاً لإعداد المعايير المحاسبية وتوحيدها واختيار الطريقة المحاسبية الملائمة عند ما تكون هناك بعض المعاملات وغيرها من الأحداث الأخرى غير معالجة بموجب تأويل أو معيار.

- كما يتضمن الإطار المحاسبي للمحاسبة المالية مفاهيم لكل الأصول، الخصوم المنتجات والأعباء ومجال التطبيق والمبادئ والاتفاقيات المحاسبية، كما يجد طريقة تقييمها إضافة إلى أنواع الكشوف المحاسبية أو القوائم المالية وكيفية عرضها.

3- الغرض من الإطار التصوري للمحاسبة المالية:

يركز هذا الإطار على التقارير المالية لكونها المنتج النهائي للمحاسبة المالية الذي يعد لمصلحة المستفيدين من خارج المنشأة، ويمكن الغرض الرئيسي لهذا الإطار في ما يلي¹⁷:

(أ) مساعدة الجهات المسؤولة عن وضع معايير المحاسبة المالية بتوجيه جهودها في وضع المعايير، و لكي يكون هذا الإطار المنطلق الرئيسي لاشتباها تلك المعايير؛

(ب) مساعدة المحاسبين المعتمدين ومحافظي الحسابات وغيرهم (مثل إدارة المنشأة) في تحديد المعالجة المحاسبية السليمة للأمور التي لم تصدر لها معايير محاسبية مالية بعد؛

(ت) زيادة فهم مستخدمي التقارير المالية للمعلومات التي تشملها وفهم حدود واستخدام تلك المعلومات، ومن ثم زيادة مقدرتهم على استخدامها؛

- ليس الغرض من إيضاح أهداف التقارير المالية سرد جميع المعلومات التي يجب أن تتضمنها التقارير المالية لمنشأة ما حتى تكون مفيدة لمستخدميها، وإنما الغرض من إيضاح أهداف التقارير المالية هو تحديد الوظيفة الأساسية لتلك التقارير بشكل عام وطبيعة المعلومات التي يجب أن تحتويها، و نظراً لأن الوظيفة الرئيسية للتقارير المالية وطبيعة المعلومات التي يجب أن تحتويها تتوقف على المعلومات التي

تنتج أساساً عن التباين الزمني بين عمليات البيع وأجل التحصيل حيث يسعى المسؤول المالي إلى البحث عن أجل زمنية طويلة بين المورد والمؤسسة، حيث أنه لهذه القروض ارتباطاً مباشراً بالتوازن المالي على المدى القصير، إذ يؤثر حجم هذه القروض، بشكل مباشر على الخزينة.

■ **قروض الخزينة:** هي قروض قصيرة الأجل تخصص لدعم التوازن المالي، بتوفير السيولة النقدية للخزينة خاصة عند معدل نمو مرتفع، إذ يزداد معدل استهلاك السيولة بمستويات مرتفعة، تسمى كذلك بالاعتمادات البنكية الجارية فمصدرها البنك والذي يفرض على المؤسسة اقتطاعات مرتفعة مقابل سيولة آنية، وتوجه هذه القروض إلى¹⁵:

- تمويل عمليات الاستثمار في إطار توسيع النشاط وتعظيم إيراداتها وذلك من أجل ضمان تسديد القروض والفوائد المستحقة عليها؛

- تمويل عمليات الاستغلال في إطار قروض الاستغلال التي تسمح بتقديم واستقبال التسيقات.

ثالثاً: الإطار العملي والعملي للنظام المحاسبي المالي الجديد

1- الإطار التصوري: يمكن اعتبار الإطار التصوري حسب (FASB) أنه عبارة عن نظام متماسك يتكون من أهداف ومبادئ أساسية مرتبطة ببعضها، تؤدي معايير فنية، و تبين طبيعة، دور وحدود المحاسبة والقوائم المالية، حيث تمثل الأهداف النهائية التي تصبوا إليها المحاسبة التي لها الحظ الوافر في الاستفادة من امتيازات كثيرة عند وجود إطار تصوري للمحاسبة، مهيكلاً بطريقة جيدة بحيث¹⁶:

- يمثل الإطار التصوري دليلاً مهماً للمهنة المحاسبية في وظيفة التوحيد؛

- يمثل الإطار التصوري مرجعاً لحل المشاكل المحاسبية، التي لا توجد أية معايير لحلها؛

- يمكن من الرفع في إمكانية المقارنة، و ذلك بالتقليل من عدد الطرق المحاسبية البديلة؛

- يسمح بتحديد حدود الرأي المهني عند إعداد القوائم المالية؛

- يمثل الإطار التصوري وسيطاً في تحسين التدريب المحاسبي، حتى يصبح المحاسب الممارس قادراً على الجمع بين الجانب النظري والجانب التطبيقي للمحاسبة؛

- الإطار التصوري يحمي مهنة المحاسبة من كل أشكال الضغط السياسي والهجمات، لأنه يمدّها بتبريرات منطقية تمكنها من تباين عقلانية اختياراتها إذا تعلق الأمر بمعايير جديدة.

2- الإطار التصوري والمبادئ المحاسبية

- (د) تنظيم مهنة المحاسبة؛
 (هـ) إعداد نماذج للقوائم المالية الختامية، ووضع جداول وإيضاحات خاصة بالمفاهيم والجداول الملحق؛
 (و) تحديد الحسابات والمجموعات؛
 (ز) تحديد قواعد وميكانيزمات سير الحسابات؛
 6- **تنظيم مهنة المحاسبة :** من خلال النظام المحاسبي المالي يجب على المؤسسات والخاضعين لهذا النظام مراعاة واحترام المبادئ والقواعد التالية¹⁸ :
- ❖ المحاسبة ينبغي أن تحترم فيها مبادئ الحيطة والحذر، الدقة والمصادقية والشفافية والإفصاح؛
 - ❖ كل العمليات تقاس بالعملة الوطنية وتحول العمليات المدونة بالعملة الأجنبية إلى العملة الوطنية حسب المعايير المحاسبية؛
 - ❖ ينبغي أن يكون داخل كل مؤسسة دليل عمل للمراقبة والمراجعة الداخلية والخارجية؛
 - ❖ عناصر الخصوم والأصول ينبغي أن تخضع للجرد الدائم على الأقل مرة في السنة بالكمية والقيمة، على أساس فحص مادي وإحصاء للوثائق الثبوتية، ويجب أن يعكس الجرد الوضعية الحقيقية للأصول والخصوم؛
 - ❖ كل تسجيل محاسبي ينبغي أن يخضع لمبدأ القيد المزدوج بحيث يكون هناك حساب مدين والآخر دائن، يجب أن تكون المبالغ المدبنة مساوية للمبالغ الدائنة، مع مراعاة التسلسل الزمني في عملية التسجيل كما يجب تحديد مصدر كل تسجيل محاسبي؛
 - ❖ كل تسجيل محاسبي يجب أن يتم انطلاقاً من وثائق مؤرخة ومكتوبة في شكل يضمن المصادقية؛
 - ❖ دليل أعمال نهاية الدورة يجب أن يكون موثق بصفة واضحة في كل مؤسسة؛
 - ❖ كل مؤسسة يجب أن تقوم بإعداد دفتر اليومية، دفتر كبيراً -الأستاذ- دفتر الجرد، ويمكن إعداد دفاتر مساعدة لدفاتر اليومية بالفرق الذي يتوافق مع حجم كل كيان (مؤسسة)، مع مراعاة المؤسسات الصغيرة، في حالة مسك الدفاتر المساعدة فإن المجاميع الشهرية فقط هي التي تحول إلى الدفاتر العامة؛
 - ❖ يسجل في دفتر اليومية حركة الأصول، الخصوم، المنتجات، الأعباء، ومنتجات الكيان؛
 - ❖ يتضمن الدفتر الكبير أو دفتر الأستاذ مجاميع وأرصدة حركة الحسابات خلال فترة محاسبية معينة؛
 - ❖ تنتقل في دفتر الجرد الميزانية وحسابات النتائج للكيان خلال فترة محاسبية معينة؛

يحتاج إليها مستخدمو هذه التقارير بصفة أساسية، فإن هذا الإطار يحدد أيضاً تلك الاحتياجات بصورة عامة.
 - ليس الغرض من إيضاح حدود استخدامات التقارير المالية سرد جميع المعلومات التي لن تظهر في هذه التقارير، وذلك لأن الأطراف المختلفة تسعى وراء أنواع مختلفة من المعلومات التي تتلق بالمنشأة، وليست المحاسبة المالية أو التقارير التي تعد على أساسها تقديم كافة أنواع المعلومات التي تنشدها كل هذه الأطراف المختلفة، وإنما الغرض من بيان حدود استخدامات هذه التقارير هو تحديد الوظائف التي يتعذر على التقارير المالية بصورة عامة تأديتها لأسباب من بينها التناقض بين الوظيفة الرئيسة للتقارير المالية وبين غيرها من الوظائف التي يراد لهذه التقارير أن تؤديها، وقصور المحاسبة المالية في مرحلة تطورها الحالي عن إنتاج المعلومات التي يمكن أن تقي بتأدية تلك الوظائف.

- لا يعتبر هذا الإطار معياراً محاسبياً، وعليه فإنه لا يحدد كيفية القياس أو الإفصاح عن أي أمر.

من خلال النقاط السابقة يمكن القول بأن الإطار التصوري للمحاسبة المالية يهدف إلى تطوير المعايير، كما يساهم وبشكل كبير في تحضير الكشف المالية، كما يقدم تفسيراً لمستعملي المعلومة المتضمنة في الكشف المالية المعدة وفق المعايير المحاسبية.

4- النظام المحاسبي الجديد للمؤسسات :

يسمى بالنظام المحاسبي المالي، وهو نظام لتنظيم المعلومات المالية بحيث يسمح بتخزين معطيات قاعدية عديدة، ثم تصنيفها، تقييمها وتسجيلها، وعرض كشوف تعكس صورة صادقة على الوضعية المالية وممتلكات الكيان (شخص طبيعي أو معنوي) ونجاعته ووضعية خزينته في نهاية السنة المالية.

تضمن النظام المحاسبي للمؤسسات معطيات جديدة تحتوي على جملة من المبادئ المحاسبية والقوائم المالية، كما يتضمن:

- تصنيف الكتل المحاسبية والمجموعات؛
- تحديد الحسابات؛
- وضع القوائم المالية؛
- تحديد المبادئ المحاسبية التي تحكم الدورة المحاسبية؛

5- طبيعة النظام المحاسبي الجديد للمؤسسات :

تمحورت عملية الإصلاحات حول العناصر التالية:

- (أ) بناء الإطار التصوري للنظام المحاسبي الجديد؛
- (ب) إعطاء مفاهيم جديدة للأصول، الخصوم، رأس المال، الأعباء والنواتج؛
- (ج) تحديد طرائق التقييم المحاسبي؛

يعتبر التوافق مفهوماً ملازماً للمحاسبة الدولية، و يفيد الحد من الفروق أو التباين بين الأنظمة المحاسبية الوطنية، و يتميز عن التوحيد الذي يفترض أساساً توحيد كلي للقواعد المحاسبية بمعنى توحيدها بشكل عام على المستوى الدولي.

كما اعتبر التوافق المحاسبي أيضاً على أنه تلك المحاولة الرامية لبوتقة عدة أنظمة محاسبية في مسار قادر على المزاوجة والتوفيق بين تطبيقات محاسبية مختلفة في هيكل منتظم.

يعبر التوافق أو التقارب المحاسبي عن "عملية تقليل الفروقات في تطبيقات التقرير المالي فيما بين الدول مما يؤدي الى زيادة إمكانية مقارنة القوائم المالية وتتضمن عملية التوافق تطوير مجموعة من المعايير المحاسبية الدولية الواجب تطبيقها في مختلف دول العالم وهذا لزيادة عالمية أسواق رأس المال"¹⁹.

و هكذا فالتوافق المحاسبي الدولي يضيق مجال الاختيار بين السياسات المحاسبية ويؤدي إلى اعتماد نظم محاسبية متشابهة.

أ- أهداف التوافق المحاسبي:

من الأهداف الأساسية التي ارتبطت بموضوع التوافق المحاسبي مسألة تحقيق الكفاءة التي تقتضيها التبادلات الاقتصادية الدولية، إضافة إلى أهداف أخرى مرتبطة بطبيعة الأطراف المهتمة بعملية التوافق وأهمها:

❖ **المؤسسة المعدة للقوائم المالية:** يساعد التوافق المحاسبي على:

■ خفض تكاليف الاستغلال المتعلقة بإعداد القوائم المالية خاصة فيما يتعلق بإعداد الحسابات المجمعة للمؤسسات التي لديها فروع تنشط في مناطق تختلف أنظمتها المحاسبية؛

■ إنجاح عمليات التسيير والمراقبة التي تقوم بها المؤسسات على مختلف فروعها، وقياس أدائها بناء على التقارب الذي يحكم شروط التسيير وقابلية البيانات والتقارير للمقارنة؛

■ تمكين المؤسسات من استغلال المعلومات المتاحة عن محيطها بشكل فعال، خاصة إذا تعلق الأمر بالقيام بعمليات استثمارية أو إدماج مؤسسات أخرى أو أخذ مراقبتها؛

■ التوقع الجيد والتحكم في سياسة الاتصال التي تضمن الإقبال الكبير على استثمارات المؤسسة، و هذا لمساعدة عملية اتخاذ قرارات الاستثمار التي يقوم بها المستثمرون الدوليون.

❖ **الأطراف المستعملة للقوائم المالية:** إن الهدف الأساسي الذي يحققه التوافق المحاسبي

❖ كل الدفاتر المحاسبية التي يتم إعدادها والوثائق المتعلقة بها يجب أن يحتفظ بها لمدة (10) سنوات على الأقل؛

❖ يرقم ويؤشر على الدفاتر المحاسبية رئيس المحكمة أين يوجد المقر الاجتماعي للكيان، و تمسك هذه الدفاتر دون ترك بياض أو أي تغيير أو نقل في الهوامش؛

❖ تمسك الكيانات الصغيرة محاسبة مبسطة تتضمن الإيرادات والنفقات اليومية وتحتفظ لمدة (10) سنوات ابتداءً من تاريخ إقفال الدفاتر المحاسبية؛

❖ ينص النظام المحاسبي المالي على مسك المحاسبة يدوياً أو عن طريق أنظمة الإعلام الآلي؛

❖ تشمل الكشوفات المحاسبية الميزانية، حسابات النتائج، جدول سيولة الخزينة، جدول تغير الأموال الخاصة والملاحق؛

❖ يجب أن تعرض الكشوف المحاسبية الوضعية المالية للكيان ونجاعته وكل تغيير يحدث على الحالة المالي، كما يجب أن تعكس هذه الكشوف كل المعاملات والأحداث المتعلقة بنشاط الكيان (المؤسسة)؛

❖ تضبط الكشوف المحاسبية تحت إشراف المسؤولين خلال مدة لا تتجاوز الأربعة أشهر من تاريخ الإقفال؛

❖ كما يجب أن تتوفر الكشوف المحاسبية على معلومات تسمح بإجراء مقارنة مع الدورة المحاسبية السابقة؛

❖ يجب أن تتضمن الملاحق إيضاحات في شكل مقارنة وصفية عددية وتشمل كل التعديلات في الطرائق المحاسبية وغير ذلك من التوضيحات والتي من خلال يمكن قراءة القوائم المالية بشكل يسمح بمقارنة دورة محاسبية بأخرى؛

❖ كل مؤسسة لها مؤسسات فرعية يجب أن تنشر الكشوف المحاسبية المدمجة للمؤسسة الأم ككل سنوياً؛

❖ يمكن أن يلجأ الكيان الى إعادة التقدير بغرض تحسين مستوى ونوعية المعلومات المحاسبية التي يتضمنها الكشوف المالية؛

❖ تركز عملية إعادة التقدير على الظروف التي تمت على أساسها هذه العملية والتي تعتمد على معلومات جديدة بهدف الحصول على معطيات أكثر موثوقية؛

❖ لا يتم أي تغيير في الطرائق المحاسبية الا اذا فرض في اطار تنظيم جديد أو اذا كان يهدف الى تحسين نوعية الكشوف المالية.

رابعاً: عولمة المحاسبة

1- التوافق المحاسبي الدولي

الأمر الذي كان له الأثر البالغ في زيادة حركة رؤوس من سوق آخر، وفي زيادة الروابط بين مختلف الأسواق المالية إلى الحد الذي جعل بعض المحللين الماليين يصفونها كما أنها شبكة مياه في مدينة واحدة.²⁰

* تزايد الطلب على المعلومات المحاسبية والمالية الدولية:

كان لنمو الأسواق المالية وتطويرها وانفتاحها العلمي، الأثر الكبير في قيام العديد من الشركات المسعرة أو تلك التي ترغب في تسعير أسهمها ببنّي استراتيجيات اتصال مالية قوية، كقيلة بربطها مع المستثمرين الذين أصبحوا يبدون حساسية مفرطة تجاه المعلومات المحاسبية والمالية التي تنشرها هذه الشركات، سواء بمناسبة الإفصاح عن نتائج أعمالها السنوية وأرباح أسهمها، أو بمناسبة الإفصاح عن توقعاتها المالية بناء على عمليات الاستثمار التي قامت بها.

* التباين والاختلاف في الأنظمة:

لقد أثبت الواقع أن الممارسة المحاسبية في دول عديدة كانت محل توافق وتقارب، ارتبطت أهميته بطبيعة العلاقات التي كانت تربط هذه الدول ببعضها، خاصة ما يتعلق بالاستفادة المتبادلة من التجارب التي مكنت بعض الدول من إرساء حلول تنظيمية لبعض المشاكل المحاسبية نتيجة الارتباطات الثقافية والتاريخية الوثيقة بين هذه الدول، ومع ذلك يبقى الاختلاف بين الأنظمة المحاسبية قائماً بين الدول تبعاً لطبيعة الاحتياجات الوطنية المعبر عنها والمنتظر من المحاسبة الإجابة عليها باعتبارها أداة ضبط اقتصادي وكذلك طبيعة الأهداف الموكلة بها للمحاسبة في ظل الشروط التي تحكم الحياة الاقتصادية، الاجتماعية والسياسية في كل دولة والتي تعتبر المصدر الرئيسي للاختلافات المحاسبية بين الدول.²¹

2- التوحيد المحاسبي

أ- مفهوم التوحيد:

لقد تعددت التعاريف حول موضوع التوحيد المحاسبي، و تباينت في طريقتها بين من تناولت التوحيد المحاسبي بالمفهوم ومن تناولته بالأهداف.

حيث يعتبر البعض التوحيد المحاسبي عبارة عن نظام موحد للتنظيم موجه لمجموع محاسبات المؤسسات المنتجة في الأمة، أو مجموعة من الأمة أي كان نوع القطاع الذي ينتمي إليه²²، أما المخطط الفرنسي فلقد تناول تعريف التوحيد المحاسبي من خلال أهدافه إذ جاء فيه أن التوحيد يهدف إلى²³:

* تحسين المحاسبة؛

* فهم المحاسبات وإجراء الرقابة عليها؛

* مقارنة المعلومات المحاسبية (في الزمان والمكان)؛

الدولي لهذه الفئة المتمثلة أساساً في المستثمرين الدوليين، هو تمكينهم من مقارنة المعلومات المتاحة عن كل المؤسسات، بعد إلغاء أثر اختلاف الأنظمة التي كان يفترض أن تعد كل مؤسسة معلوماتها على أساسها وبالتالي استبعاد أي أثر من أجل اتخاذ قرارات استثمارية ملائمة.

❖ **الهيئات الأخرى:** تتحقق أهداف التوافق المحاسبي لهذه الفئة من خلال عملية الرقابة والمتابعة التي تقوم بها بعض الهيئات على المؤسسات مثل: الأمم المتحدة، هيئات مراقبة الأسواق المالية الوطنية أو الدولية والبنك الدولي، لما يتيح من خفض تكاليف هذه الرقابة التي تتطلب في حالة العكس (وجود اختلافات) أعباء إضافية تتعلق بتكوين المراجعين وأدوات المراجعة والبرامج التكوينية.

ب- دواعي ومتطلبات التوافق المحاسبي الدولي

* شمولية أسواق رأس المال (العولمة المالية):

إن مفهوم العولمة الذي أصبح متداولاً في السنوات الأخيرة هو مصطلح قياسي يشمل كل مجالات الحياة الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية والسياسية، وما يهمنا هنا هو العولمة الاقتصادية، التي من تجلياتها العولمة المالية، والتي يقصد بها حرية تحرك رؤوس الأموال مهما كان شكلها بين دول العالم دون قيد أو شرط.

فقد أفرزت هذه الأخيرة توسعاً في النشاط الاقتصادي للمؤسسات، ما أدى بدوره إلى تطور أسواق رأس المال الذي رافقه احتياج تبادل المعلومات نتيجة لما يلي:

* توسع الأنشطة العالمية للمؤسسات:

سمحت الأموال المتوفرة في البنوك العلمية، ومؤسسات وصناديق التأمين بزيادة رؤوس الأموال الدولية بمعدلات تفوق بكثير معدلات نمو التجارة والدخل العالميين، لذا فإن حركة رؤوس الأموال على المستوى الدولي تهدف إلى تحقيق أرباح باستثمارها في الدول التي هي في حاجة إلى موارد مالية أفضل من بقائها أو استثمارها بمعدلات منخفضة في الدول المصدرة لهذه الأموال، وهو ما مهد لظهور ما أصبح يعرف بالشركات المتحدة الجنسيات التي أصبحت في ظل أهداف المنظمة العالمية للتجارة الرامية إلى إتاحة كل الحدود والحوافز الجمركية المعروفة لتطور التجارة العالمية.

* تطور الأسواق المالية الدولية:

كان للعولمة المالية الدور الكبير والهام في تحقيق التقارب بين مختلف الأسواق المالية، وقد ساهم التقدم التكنولوجي في مجال الاتصالات والمعلومات مساهمة فعالة في دمج وتكامل الأسواق المالية الدولية، حيث تم التغلب على الحواجز المكانية والزمنية بين الأسواق المختلفة وانخفضت تكاليف الاتصالات السلوكية واللاسلكية وعمليات المحاسبة إلى درجة كبيرة وهو

☑ زيادة القابلية للبيانات المحاسبية المستخرجة على أساس موحد للتعديل بما يتفق والاحتياجات والمفاهيم الاقتصادية؛

☑ إمكانية وسهولة تعديل البيانات المحاسبية القائمة على أسس موحدة ومفاهيم محددة لما قد يطرأ من تقلبات في المستوى العام للأسعار؛

☑ إذا تم الاتفاق على أسس ومبادئ محاسبية عالمياً، فإن ذلك سيكون له جليل الأثر في توجيه البحث الأكاديمي المحاسبي على تحسين أداء المحاسبة لوظائفها عن طريق البحث في الوسائل البديلة بدلاً من تركيز حول الجدل في مزايا وعيوب البدائل المحاسبية الموحدة؛

☑ توفير إمكانية التجميع المرحلي للبيانات المحاسبية بما يخدم احتياجات المستويات الاقتصادية إلى بيانات.

د- الانتقادات الموجهة للتوحيد:

يوجه للتوحيد المحاسبي انتقادين رئيسيين هما²⁷:

* إن ومقومات التوحيد الأساسية من تشابه النشاط وإمكان تنميط المعاملات الاقتصادية لا يمكن توفيرها في الوحدات الاقتصادية المختلفة؛

* إن المبادئ والقواعد المحاسبية لابد وأن يتم تصنيفها في ظل ظروف معينة وقد تختلف من مؤسسة لأخرى، وأن تعدد البدائل المحاسبية ما هو في الواقع إلا محاولة للوفاء باحتياجات كل مؤسسة.

* إن مرحلة المفهوم منطقية تامة، حيث أنه لا يمكن الانتقال مباشرة من التنوع المحاسبي (الاختلاف المحاسبي) إلى التوحيد المحاسبي، إذ أن ذلك يتطلب انتقالاً ثورياً (فجائياً) والثورية في صقل معرفة تطبيقي- كالمحاسبة- غير محبذة.

لذلك فإن مفهوم التوافق المحاسبي يجسد مرحلة تمثل جسراً ذو طبعي السياسة مبلّغها التوحيد المحاسبي وإن كان صعب التحقق، فالتوجه الحالي إذن اتجاه نحو تحقيق التوافق المحاسبي.

الخاتمة:

على اعتبار المحاسبة علماً من علوم الاجتماعية والإنسانية كما أشرنا سابقاً، فإن إمكانية الاعتماد على نظام محاسبي فعال من شأنه إيجاد حلول ناجحة للمشاكل التي تعاني منها المؤسسة سواء من الناحية التنظيمية أو المالية. ومن هنا تبرز ضرورة وجود نظام محاسبي داخل المؤسسة للتأكد من فعالية وتدارك الانحرافات باتخاذ الإجراءات التصحيحية المناسبة في الوقت المناسب.

وتجولاً مع التوسع والتطور والتبادل التجاري بين مختلف دول العالم، انطلقت بعض الجهود والمحاولات

* توحيد المحاسبات في الإطار الموسع للمجموعات، قطاع أنشطة والأمة؛

* إصدار الإحصائيات.

من خلال التعريفين السابقين يمكن القول بأنهما اكتسبا صيغة قومية على المستوى القومي أما على المستوى الدولي فيمكن تعريف التوحيد المحاسبي بأنه "العمل على تضيق نطاق الاختلاف فيما يخص الأسس والمعايير المحاسبية الدولية المقبولة قبولاً عاماً والتي يمكن الاهتمام بها عند تطبيق الأسس والمبادئ التي تم توحيدها"²⁴.

من هذا التعريف يمكن القول أن التوحيد المحاسبي العالمي تكمن مهامه الأساسية في إعداد المعايير المحاسبية وإزالة الاختلاف الموجود والتقليل من الفجوة الموجودة بين الأنظمة المحاسبية.

ب- مستويات التوحيد:

❖ على مستوى المبادئ: يقتصر التوحيد في هذا المستوى على الأسس والمبادئ والمعايير الأساسية التي يتم اعتمادها والذي يشمل على ما يلي²⁵:

• توحيد أسس ومبادئ التقييم؛
• توحيد أسس ومبادئ قواعد حساب التدفقات النقدية؛

• توحيد أسس ومبادئ عرض البيانات المالية.

❖ على مستوى القواعد: ويشمل توحيد القواعد والإجراءات والوسائل المحاسبية وتتطلب هذه العملية ما يلي:

• حصر واختيار القواعد والإجراءات والأساليب المحاسبية المستخدمة فعلاً، أو التي يمكن استخدامها لتحقيق أهداف المحاسبة؛

• الحذر عند استخدام القواعد والإجراءات البديلة.

❖ على مستوى التنظيم: ويشمل التوحيد على هذا المستوى، توحيد النظام المحاسبي بأسره، و ما يقوم عليه من أسس ومبادئ وقواعد ووسائل وإجراءات، و يمتد هذا تنميط النتائج المحاسبية والقوائم المالية بالإضافة إلى نظم التكاليف والأسس والمبادئ التي يقوم عليها.

ج- فوائد التوحيد: يترتب على التوحيد فوائد نذكر منها ما يلي²⁶:

☑ زيادة دلالة البيانات المحاسبية، وذلك لقيامها على أسس موحدة ومفاهيم مشتركة بما يزيد من إمكانية الاعتماد عليها لتحقيق أهداف المحاسبة؛

☑ زيادة إمكانية وسهولة المقارنة بين الوحدات الاقتصادية المختلفة بهدف قياس كفاءتها النسبية أو لغرض اتخاذ القرار؛

لوضع أسس دولية لمهنة المحاسبة الدولية أدت تدريجياً إلى نشوء ما يعرف بالمعايير المحاسبية الدولية التي تهدف إلى توحيد المبادئ المحاسبية على مستوى العالم من أجل توفير قاعدة واحدة لقراءة القوائم المالية لمختلف الشركات. لإعطاء صورة واضحة عن المحاسبة والنظام المحاسبي والمعايير الدولية المحاسبية ومعايير الإبلاغ المالي.

الهوامش :

- 1 -صالح رزق، عبد الكريم زواتي، أصول المحاسبة، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان الأردن 1992 ص7.
- 2 -بوعقوب عبد الكريم، أصول المحاسبة العامة وفق المخطط الوطني المحاسبي الوطني، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون، 1994، الجزائر، ص 11.
- 3 -يحي محمد أبو طالب، معايير التقارير المالية الدولية ونظرية المحاسبة وفقاً لأحداث التعديلات التي تمت على معايير المحاسبة الدولية، شركة ناس للطباعة، مصر 2006، ص:16.
- 4 -نفس المرجع.
- 5-هادي رضا الصفار، مبادئ المحاسبة المالية الأسس العلمية والعملية في القياس المحاسبي، ج1، دار الثقافة، 2006، ص107
- 6 -نفس المرجع، ص109
- 7 -عبد الستار الكبيسي، الشامل في مبادئ المحاسبة، ط1، دار وائل للنشر، 2003، ص37
- 8 -نفس المرجع، ص40
- 9 -عبد الحي مرعي، أصول المحاسبة المالية، ، الدار الجامعية، 1989، ص224
- 10 -هادي رضا الصفار، مرجع سبق ذكره، ص126
- 11 -عبد الحي مرعي، مرجع سبق ذكره، ص234
- 12-محمد الفيومي محمد وآخرون، نظم معلومات المحاسبة، دار الجامعة الجديدة للنشر، الإسكندرية، مصر، 2002، ص 102
- 13 -الياس بن ساسي، يوسف قريشي، التسيير المالي، ط1، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن، 2006، ص 125
- 14 -نفس المرجع، ص 249
- 15-نفس المرجع، ص 125
- 16 -مدني بلغيث، أهمية إصلاح النظام المحاسبي للمؤسسات في ظل أعمال التوحيد الدولية، أطروحة دكتوراه في العلوم الاقتصادية غير منشورة، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر، 2004، ص72.
- 17 -مفيد عبداللوي، النظام المحاسبي المالي الجديد، ط1، مزار للطباعة والنشر، الجزائر، 2008، صص29-30.
- 18-شعيب شنوف، محاسبة المؤسسة طبقاً لمعايير المحاسبة الدولية، ج1، مكتبة الشركة الجزائرية بودواو، الجزائر، صص23-26
- 19 -مداني بلغيث، التوافق المجاسبي، مجلة الباحث، نصف شهرية، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة ورقلة، العدد الرابع، 2006، ص ص 117-118
- 20 -بعلوج بو العيد، العولمة والمتطلبات المحاسبية والمالية، ملتقى وطني حول المؤسسة على ضوء التحولات المحاسبية الدولية، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة باجي مختار، عنابة، 2007.
- 21-مداني بلغيث، أهمية إصلاح النظام المحاسبي للمؤسسات في ظل أعمال التوحيد الدولية، مرجع سبق ذكره، ص ص 111-113
- 22-نفس المرجع، ص 65
- 23 -نفس المرجع، ص 66
- 24 -براق تيجاني، التطورات الاقتصادية، الحديثة المؤثرة على الاطار العلمي للنظرية المحاسبية، ملتقى وطني حول المؤسسة على ضوء التحولات المحاسبية الدولية، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة باجي مختار، عنابة، 2007.
- 25-مداني بلغيث، أهمية إصلاح النظام المحاسبي للمؤسسات في ظل أعمال التوحيد الدولية، مرجع سبق ذكره، ص ص 66-67

- 26 - براقى تيجانى، مرجع سبق ذكره، ص ص 5-6
- 27 - عادل عاشور، أثار تطبيق معايير المحاسبة الدولية على المحتوى المعلوماتي للقوائم المالية، مذكرة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الإقتصادية وعلوم التسيير، جامعة عمار ثلجي، الأغواط، 2005-2006، ص

مساهمة المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في توفير فرص العمل البلد في الجزائر - الفترة 2005-2010 -

شعباني لطفي

جامعة أحمد بوقرة - بومرداس -

المقدمة:

تعتبر المؤسسات الاقتصادية بصفة عامة المحرك الأساسي للتنمية والتطور الاقتصادي في جميع البلدان، ومن بين هذه المؤسسات برز بشكل جلي الدور الحيوي والأساسي للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة. فلهذه المؤسسات قدرة على التطور والنمو والاستمرارية، بالرغم من تعرضها الدائم للاختفاء والظهور. فإلى جانب مساهمتها بنصيب كبير في إنشاء القيمة المضافة، وقيامها بتوفير السلع والخدمات بأسعار في متناول ذوي الدخل المحدود، وأنها قادرة على تدعيم التجديد والابتكار، تقوم المؤسسات الصغيرة والمتوسطة بدور رئيسي في توفير فرص العمل والمساهمة في التشغيل في معظم الدول.

فالتشغيل يمثل أهم التحديات التنموية بالجزائر، كونها تعاني من معدلات بطالة تعتبر من بين الأعلى على المستوى العالمي. فمشكلة التشغيل والبطالة في الجزائر بلغت حدا يجعل منها محور التنمية، ليصبح دعما لتشغيل وتخفيض نسبة البطالة هدفا رئيسيا. ومن بين الحلول التي اعتمدت عليها الجزائر لبلوغ هذا الهدف إعطاء أهمية خاصة للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة، من خلال دعمها وتحفيزها، لإنشاء مناصب عمل والمساهمة في التشغيل.

وعليه سنحاول من خلال هذه الدراسة الإجابة عن السؤال الرئيس الآتي:

فيما تكمن مساهمة المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الحد من البطالة والرفع من مستوى التشغيل بالجزائر؟

وللإجابة عن هذا السؤال الرئيس تم تقسيم هذه الورقة إلى العنصرين الآتيين:

- تعريف المؤسسات الصغيرة والمتوسطة والبطالة؛

- مساهمة المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في التشغيل بالجزائر من سنة 2005 إلى سنة 2010.

أولا: مفهوم المؤسسات الصغيرة والمتوسطة والبطالة

حاول كثير من المختصين تقديم تعريف دقيق للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة، لكن ولحد الآن لم يطرح تعريف واضح وموحد لهذا النوع من المؤسسات في كل دول العالم. ويرجع ذلك أساسا إلى وضع الحدود الفاصلة بين المؤسسات الصغيرة والمتوسطة والمؤسسات الكبيرة، وكذا المعايير التي تتم بواسطتها تحديد هذا التعريف.

1 - معايير تصنيف المؤسسات الصغيرة والمتوسطة

ارتكز المختصون على نوعين من المعايير في تعريف هذه المؤسسات، وهما المعايير الكمية والمعايير النوعية، وأكثرها استخداما هي المعايير الكمية؛ وذلك لوضوحها وسهولة استعمالها.¹ تتمثل هذه المعايير فيما يلي:

1-1- المعايير الكمية لتصنيف المؤسسات الصغيرة والمتوسطة

بالاستناد إلى هذا النوع من المعايير في تحديد المؤسسات الصغيرة والمتوسطة لابد أولا من الوقوف على أهمها، إذ يمكن تقسيمها إلى المعايير الآتية:²

- معايير أو مؤشرات اقتصادية وتقنية، وتشمل عدد العمال، حجم الإنتاج، القيمة المضافة، حجم الطاقة المستعملة، التركيب العضوي لرأس المال... الخ.

- معايير ومؤشرات نقدية، وتشمل رقم الأعمال ورأس المال المستثمر.

يتمثل معيار عدد العمال في استعمال عدد العمال المستخدمين في المؤسسة كأساس لتقدير حجمها، وبالتالي تصنيفها³، كما يعتبر هذا المعيار من أكثر المعايير انتشارا لتوفر البيانات المتعلقة بعدد العمال في أغلب الدول، وسهولة استخدام هذا المعيار خاصة عند إجراء المقارنات الدولية أو القطاعية. رغم أهمية هذا المعيار كمعيار للتفرقة، إلا أنه لا يعكس بالضرورة

3-2 تعريف اليابان للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة

صدر القانون الأساسي للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة سنة 1963 ويوصف هذا القانون بمثابة دستور السياسات نحو المؤسسات الصغيرة والمتوسطة، ويشدد هذا القانون على ضرورة القضاء على الحواجز المرتبة بصغر تلك المؤسسات وتحديد قطاع المؤسسات الصغيرة والمتوسطة بوجه خاص.⁸

تم تعديل القانون الأساسي للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة في 3 ديسمبر 1999، والذي من خلاله تم تنقيح تعريف المؤسسات الصغيرة والمتوسطة، والجدول الموالي يلخص أهم خصائص هذا التعريف:

الجدول رقم (1): تصنيف المؤسسات الصغيرة والمتوسطة باليابان حسب رأس المال وعدد العمال

القطاع	رأس المال (مليون ين)	عدد العمال
الصناعة والقطاعات الأخرى	300 أو أقل	300 عامل أو أقل
مبيعات الجملة	100 أو أقل	100 عامل أو أقل
مبيعات التجزئة	50 أو أقل	50 عامل أو أقل
الخدمات	50 أو أقل	100 عامل أو أقل

المصدر: لخلف عثمان، "واقع المؤسسات الصغيرة والمتوسطة وسبل دعمها وتنميتها في الجزائر"، رسالة دكتوراه في العلوم الاقتصادية غير منشورة، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر، الجزائر، 2004، ص: 16

يلاحظ مما سبق أن التعريف يعتمد على معيار نوعي وهو طبيعة النشاط، ومعياريين كميين وهما عدد العمال ورأس المال المستثمر.

4-2 - التعريف الجزائري للمؤسسة الصغيرة والمتوسطة

صدر تعريف رسمي وقانوني للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة في القانون رقم 18-01 المؤرخ في 12 ديسمبر 2001، والمتضمن القانون التوجيهي لترقية المؤسسات الصغيرة والمتوسطة.

وتنص المادة (04) من القانون على أنه "تعرف المؤسسة الصغيرة والمتوسطة مهما كان وضعها القانوني بأنها مؤسسة إنتاج السلع أو الخدمات وتشغل من 1 إلى 250 شخص، ولا يتجاوز رقم أعمالها مليار دينار جزائري، أو لا تتجاوز حصيلتها السنوية 500 مليون دج، بالإضافة إلى أنها تستوفي معيار

حجم المؤسسة الحقيقي، لذا فإنه إلى جانب معيار عدد العمال، توجد معايير أخرى. منها رقم الأعمال والقيمة المضافة.

2-1 - المعايير النوعية لتصنيف المؤسسات الصغيرة والمتوسطة

من خلال نتائج الدراسة التي قام بها البروفيسور "بولتون" "BOLTON" في بريطانيا في الستينيات، تسيير المؤسسات الصغيرة والمتوسطة من طرف مالكيها بطريقة مباشرة، كما يؤدي المدير أو المالك أحيانا عدة وظائف في نفس الوقت، من إنتاج، وتسيير وتمويل مؤسسته.⁵ كما أن حصة السوق لهذه المؤسسات محدودة وضعيفة، فلا يمكن لها أن تؤثر في أسعار البيع عن طريق تغيير الكميات المنتجة. أما فيما يتعلق بالاستقلالية، ففروع المؤسسات الكبيرة لا تعتبر مؤسسات صغيرة أو متوسطة.

2 - تعريف المؤسسات الصغيرة والمتوسطة

من خلال ما تم التعرض له سابقاً، يلاحظ غياب يكاد يكون مطلقاً لتعريف موحد يمكن اعتماده، فكل دولة تتفرد بتعريف خاص بها. لذلك سنقوم بعرض مجموعة من التعاريف للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة الخاصة ببعض بلدان العالم ومن تم عرض التعريف الجزائري لهذه المؤسسات.

تعريف الاتحاد الأوروبي للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة :

حدّد الاتحاد الأوروبي تعريف للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة في توصيته رقم 96/280/CE المؤرخة في 03/04/1996 ويرتكز هذا التعريف على ثلاثة معايير، عدد العمال، رقم الأعمال، والحصيلة السنوية (مجموع الميزانية) إضافة إلى استقلالية المؤسسة. وتم تعديل التعريف في التوصية رقم 2003/361/CE المؤرخة في 06 مايو 2003، والتي أصبحت سارية المفعول ابتداء من 01 جانفي 2005.⁶ وتصنف المؤسسات كصغيرة والمتوسطة في الاتحاد الأوروبي عند تشغيل أقل من 250 عامل مع تحديد رقم أعمال لا يزيد عن 50 مليون أورو ومجموع في الميزانية أقل من 43 مليون أورو.

2-2 تعريف الولايات المتحدة الأمريكية

تم اعتماد تعريف المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الولايات المتحدة الأمريكية من طرف البنك الفدرالي سنة 1953 والذي يعتبر المؤسسة الصغيرة والمتوسطة مؤسسة مستقلة في الملكية والإدارة وتستحوذ على نصيب معين في السوق⁷، ولا يتعدى عدد العمال في هذه المؤسسات 500 عامل.

مليون دج". وأخيراً تعرضت المادة (07) إلى تعريف "المؤسسة الصغيرة بأنها مؤسسة تشغل من 1 إلى 9 أشخاص ولا يتجاوز رقم أعمالها السنوي 20 مليون دج أو لا يتجاوز مجموع حصيلتها السنوية عشر ملايين دج".⁹

ويمكن تلخيص كل ما ذكر سابقاً في الجدول الآتي:

الاستقلالية". أما المادة (05) من القانون نفسه فتتص على أن "المؤسسة المتوسطة تشغل ما بين 50 إلى 250 شخصاً ويكون رقم أعمالها ما بين 200 مليون وملياري دج أو يكون مجموع حصيلتها السنوي ما بين 100 و500 مئة مليون دج". وجاءت المادة (06) لتعرف "المؤسسة الصغيرة بأنها مؤسسة تشغل ما بين 10 إلى 49 شخصاً ولا يتجاوز رقم أعمالها السنوي 200 مليون دج أو لا تتجاوز حصيلتها السنوية 100

الجدول رقم (2): تصنيف المؤسسات الصغيرة والمتوسطة

المؤسسة	عدد العمال	رقم الأعمال (دج)	مجموع الميزانية (دج)
المؤسسة المصغرة	من 01 إلى 09 عمال	أقل من 20 مليون	أقل من 10 مليون
المؤسسة الصغيرة	من 10 إلى 49 عامل	أقل من 200 مليون	أقل من 100 مليون
المؤسسة المتوسطة	من 50 إلى 250 عامل	من 200 مليون إلى مليارين	من 100 مليون إلى 500 مليون

العاطلين عن العمل الأفراد الذين تتوفر فيهم الخصائص التالية:¹²
- أن يكون بلا عمل. هذه الخاصية تقييدية للغاية بالنسبة للمكتب الدولي للعمل لأنه يستبعد كل فرد يمارس نشاطاً ولو لفترة قصيرة من الزمن من البطالة؛
- أن يكون الفرد متاح للعمل؛
- البحث الفعلي على وظيفة.

2-2-3 أنواع البطالة

تأخذ البطالة أشكالاً وأنواعاً متعددة، وفيما يلي تفصيل موجز لها:

1-2-3 البطالة الإجبارية والاختيارية

تتمثل البطالة الإجبارية في البطالة الصريحة أي الأفراد القادرون على العمل، والراغبون فيه، ويبحثون عنه، ولكنهم لا يجدون فرص عمل متاحة لهم في ظل الأجور السائدة، أي أنه يمثل فائض العرض في سوق العمل من الأفراد الراغبين في العمل والقادرين عليه.¹⁴ بينما البطالة الاختيارية تنشأ حين يختار العامل الفراغ ويرفض بإرادته ومعرفة تلك الوسائل أو السبل التي لو اتبعها لاستطاع أن يحصل على العمل.¹⁵

2-2-3 البطالة المقنعة

توجد البطالة المقنعة حيث يعمل الأفراد بأقل من الطاقة الإنتاجية المفترضة لهم، أو في حالة وجود أعداد من العاملين في بعض القطاعات دون أن يترتب على وجودهم ناتج صاف أو إضافي، وفي بعض الحالات تترتب عن نقص في الناتج الكلي، فعملهم لا يسفر عن إنشاء سلع أو خدمات.

3-2-3 البطالة الاحتكاكية

تكون في ظل وجود أفراد قادرين على العمل ويبحثون عن وظيفة مناسبة، أو يبحثون عن وظيفة

المصدر: تم إعداد الجدول بناء على ما ذكر سابقاً.
مما سبق نلاحظ أن التعريف الجزائري وفق القانون التوجيهي لترقية المؤسسات الصغيرة والمتوسطة ركز على أربعة معايير لتصنيف المؤسسات الصغيرة والمتوسطة هي عدد العمال، رقم الأعمال، الحصيلة السنوية (مجموع الميزانية)، والتي هي بمثابة معايير كمية، ومعياري نوعي متمثل في الاستقلالية.

3- تعريف البطالة وأنواعها

تمثل قضية البطالة في الوقت الراهن إحدى المشكلات الأساسية التي تواجه معظم دول العالم، فلم تعد البطالة مشكلة الدول المتخلفة فحسب، بل أصبحت واحدة من أخطر مشاكل الدول المتقدمة. ولعل أسوأ وأبرز سمات الأزمة الاقتصادية العالمية التي توجد في الدول الغنية المتقدمة والنامية على حد سواء هي تفاقم البطالة.

1-3 تعريف البطالة

يمكن تعريف البطالة على أنها حالة "التزايد المستمر والمطرود في عدد الأفراد القادرين على العمل، والراغبين فيه، والباحثين عنه، دون أن يعثروا عليه".¹⁰

وتعرف البطالة أيضاً على أنها "الحالة التي يكون فيها الفرد راغب وباحث عن عمل وله القدرة على القيام به (بما في ذلك السن)، وهو عاطل عن العمل على الرغم من بحثه. قد ينتج عدم العثور عن فرص العمل من الدخول في الحياة العملية، أو الرغبة في العثور على وظيفة بعد فترة من الطرد، أو الاستقالة الطوعية أو الرغبة في تغيير النشاط".¹¹
يعتبر في حالة بطالة حسب المكتب الدولي للعمل "le Bureau international du travail" (BIT)

يقوم أصحاب الأعمال بتسريح جزء من العمال* . ويهتم الاقتصاديون وواضعو السياسات الاقتصادية بهذا النوع من البطالة لخطورته، محاولين دائما عدم حصول تدني في مستويات الإنتاج مع تحقيق مستويات ملائمة للنشاط الاقتصادي، مما يؤدي إلى عدم ظهور هذا النوع من البطالة أو التقليل من حدته.¹⁸

ثانيا: مساهمة المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في التشغيل بالجزائر من سنة 2005 إلى سنة 2010

تسعى الجزائر كمعظم دول العالم إلى تخفيض نسب البطالة باعتبارها آفة اقتصادية تنتشعب منها مشاكل عدة، لاسيما وأن هذه الأخيرة تمس فئة الشباب بمستويات عالية، وذلك ما تبينه إحصائيات سنة 2010، حيث بلغت نسبة البطالين للفئة التي تقل أعمارها عن 35 سنة 87,5 بالمائة من العدد الإجمالي للعاطلين عن العمل.¹⁹

1- تطور نسبة البطالة بالجزائر من سنة 2005 إلى غاية سنة 2010

يبين الجدول الموالي تطور القوى العاطلة عن العمل، والقوى القادرة على العمل، ونسب البطالة من سنة 2005 إلى غاية سنة 2010.

الجدول رقم (2): تطور تعداد القوى العاطلة عن العمل، القادرة على العمل ونسب البطالة مابين 2005 و2010 بالتعداد: بالآلاف

البيان	2005	2006	2007	2008	2009	2010
القوى العاطلة عن العمل	1 448	1 240	1 374	1 169	1 072	1 076
القوى القادرة على العمل	9 492	10 109	9 968	10 315	10 544	10 812
نسب البطالة %	15,25	12,27	13,78	11,33	10,17	9,95

المصدر:

Rapport O.N.S, Emploi et Chômage au quatrième trimestre 2005, 2006, 2007, 2008, 2009 et 2010.

الملاحظ من الجدول أن نسب البطالة في انخفاض منذ سنة 2005 إلى غاية سنة 2010، حيث بلغت في سنة 2005 نسبة 15,25 بالمائة، ما يقابل بلوغ القوى العاطلة عن العمل 1.448.000 ، والقوى القادرة على العمل 9.492.000. وبلغت نسبة 9,95 بالمائة في سنة 2010، ما يقابل بلوغ القوى العاطلة عن العمل

1.076.000، والقوى القادرة على العمل 10.821.000. أما بالنسبة لسنة 2007 فقد شهدت ارتفاعا في معدل البطالة بلغ 13,78 بالمائة، بعدما كان 12,27 بالمائة سنة 2006

2- مساهمة المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في القوى الشاغلة لمناصب العمل

فيما يلي جدول يبين تعداد المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في القوى الشاغلة لمناصب العمل بالجزائر ومساهمتها في التشغيل:

**الجدول رقم (3): مساهمة المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في القوى الشاغلة لمناصب العمل
التعداد: بالآلاف**

2010	2009	2008	2007	2006	2005	البيان
1 625	1 756	1 540	1 355	1 252	1 175	تعداد القوى الشاغلة لمناصب عمل على مستوى المؤسسات الصغيرة والمتوسطة
9 736	9 472	9 146	8 594	8 864	8 044	تعداد القوى الشاغلة لمناصب عمل (الإجمالية)
16,69	18,54	16,84	15,77	14,12	14,61	النسبة %

المصدر: تم إعداد الجدول بناء على:

- إحصائيات المؤسسات الصغيرة والمتوسطة
والصناعة التقليدية، النشريات الإحصائية لسنة
2005، 2006، 2007، 2008 و2009.

- إحصائيات وزارة الصناعة والمؤسسات
الصغيرة والمتوسطة وترقية الاستثمار، النشريات
الإحصائية لسنة 2010.

Rapport O.N.S, Emploi et Chômage au -
quatrième trimestre 2005, 2006, 2007, 2008,
2009 et 2010 Op-cit.

الملاحظ من الجدول أن نسبة مشاركة
المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في تعداد
القوى الشاغلة لمنصب عمل تشهد ارتفاعا في
معظم الفترة الممتدة من 2005 إلى 2010،
حيث بلغت أعلى مستوى لها في سنة 2009

تسجيلها 18,54 بالمائة وأدنى مستوى لها في سنة
2006 بتسجيلها 14,12 بالمائة.

**3- مناصب الشغل المصرّح بها حسب الفئات
من 2005 إلى 2009**

فيما يلي جدول يبين مناصب الشغل المصرّح بها
حسب الفئات من 2005 إلى سنة 2009:

الجدول رقم (3): مناصب الشغل المصرح بها حسب الفئات من 2005 إلى 2009

المجموع		الصناعة التقليدية		المؤسسات العامة		المؤسسات الخاصة				نوع المؤسسات الصغيرة والمتوسطة
						أرباب المؤسسات		الأجراء		السنة
النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	
100	1.157,856	16,65	192,744	6,59	76,283	21,23	245,842	55,53	642,987	2005
100	1.252,647	17,00	213,044	4,92	61,661	21,54	269,806	56,54	708,136	2006
	94,791	21,41	20,300	-15,42	-14,622	25,28	23,964	68,73	65,145	زيادة 2006 عن 2005
8,190	-	10,530	-	-19,170	-	9,750	-	10,130	-	نسبة الزيادة 2006 عن 2005
100	1 355,399	17,22	233,270	4,22	57,146	21,69	294,946	56,87	771,037	2007
100	102,752	19,72	20,266	-4,40	-4,515	23,49	24,140	61,21	62,901	زيادة 2007 عن 2006
8,200	-	9,490	-	-7,320	-	8,950	-	8,880	-	نسبة الزيادة 2007 عن 2006
100	1 540,209	16,51	254,350	3,43	52,786	25,45	392,013	54,61	841,060	2008
100	184,810	11,41	21,080	-2,36	-4,360	53,06	98,067	37,89	70,023	زيادة 2008 عن 2007
13,630	-	9,030	-	-7,630	-	33,700	-	9,080	-	نسبة الزيادة 2008 عن 2007
100	1 756,964	19,46	341,885	2,94	51,635	25,92	455,398	51,68	908,046	2009
100	216,755	63,71	87,535	-1,50	-1,151	14,74	63,385	23,04	66,986	زيادة 2009 عن 2008
14,073	-	34,415	-	-2,180	-	16,169	-	7,964	-	نسبة زيادة 2009 عن 2008
-	599.108	-	149.141	-	-24,648	-	209.556	-	265.059	زيادة 2009 عن 2005
51.74	-	77.37	-	-32,310	-	85.42	-	41.22	-	نسبة الزيادة 2009 عن 2005

المصدر: تم إعداد الجدول بناء على إحصائيات وزارة المؤسسات الصغيرة والمتوسطة والصناعة التقليدية المشتريات الإحصائية لسنة 2005، 2006، 2007، 2008، و 2009

الخاتمة :

يظهر مشكل البطالة في العديد من البلدان النامية التي تتصف بالنمو السريع للسكان والقوى العاملة، وقد أشارت إحدى دراسات البنك العالمي إلى قدرة المؤسسات الصغيرة والمتوسطة على استيعاب العمالة، إذ يمكنها توفير الوظائف لنصف العاملين في الصناعات التحويلية في الدول النامية والمتقدمة، كونها تتميز بكثافة عنصر العمل، وأكثر من 75 بالمائة من عدد العاملين في باقي الدول النامية.

ولا يمكن القضاء على مشكل البطالة نهائياً، نظراً لوجود أنواع متعددة من البطالة منها الإجبارية والاختيارية، والفنية والموسمية، وهذه الأنواع هي نتيجة تفاعل الاقتصاد وحركيته؛ ولذلك هناك نسبة من البطالة تكون دائماً موجودة في الاقتصاد، وتسمى عادة "معدل البطالة العادي" أو "الطبيعي".

ومن الحلول المقترحة للتقليل من البطالة باستخدام المؤسسات الصغيرة والمتوسطة:

- وضع برامج تكوينية وتدريبية لعنصر العمل، لاسيما إذا كانت مشكلة البطالة تكمن في البطالة الفنية، وذلك بالاعتماد على مراكز التكوين و التمهين المنتشرة في أغلب ولايات الوطن الجزائري، والعمل على التكوين في التخصصات التي تحتاجها المؤسسات الصغيرة والمتوسطة، نظراً لمحدودية إمكانياتها المادية والبشرية للقيام بهذا النوع من التكوين.

- تمويل المشاريع الصغيرة والمتوسطة من قبل الدولة كتخصيص صناديق استثمارية للمؤسسات الصغيرة لتحفيز العاطلين على إنشاء مشاريع فردية، وعليه يتم إنشاء مناصب عمل إضافية.

- تفعيل عمل الوكالة الوطنية للتشغيل " l'Agence nationale de l'emploi (ANEM) حتى تتماز بوفرة المعلومات الوظيفية، بحيث ترصد الفرص المتاحة في أي قطاع اقتصادي لإعلام طالبي التوظيف، وهذا يكون خصوصاً عند عموم البطالة الاحتكاكية؛

- إعطاء تحفيزات وتخفيضات جبائية دائمة ومؤقتة للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة، للتشجيع على إنشائها من جهة، ومن جهة أخرى مساعدتها مالياً، باستعمالها لتلك الوفورات المالية الناتجة في الاستثمار وعليه يتم إنشاء مناصب شغل إضافية؛

لقد تم جمع عدد الأجراء مع عدد أرباب المؤسسات بالنسبة للمؤسسات الخاصة، وذلك في كل السنوات، أي من سنة 2005 إلى غاية سنة 2009.

من الجدول أعلاه، يتضح أن المؤسسات الصغيرة والمتوسطة الخاصة تشغل أكثر من 76 بالمائة من عمالة المؤسسات الصغيرة والمتوسطة؛ ففي سنة 2005، كانت تشغل 77,76% من مجموع العمالة، وفي سنة 2006 كانت تشغل 77,08 بالمائة من العمالة، أما في سنة 2007 فكانت تشغل 77,56 بالمائة من المجموع لتلك السنة، وفي سنة 2008 وصلت إلى 80,06 بالمائة من مجموع عمالة السنة والتي تمثل أعلى نسبة في الخمس سنوات الأخيرة، حيث انخفضت قليلاً في سنة 2009 ببلوغها 77,6 بالمائة من مجموع العمالة لتلك السنة طبعاً، إضافة إلى أن المؤسسات الصغيرة والمتوسطة الخاصة هي التي كانت تسجل أعلى نسبة في الزيادة من سنة إلى أخرى، مقارنة مع المؤسسات الصغيرة والمتوسطة العامة والتقليدية.

أما بالنسبة للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة العامة فالملاحظ أنها في انخفاض من سنة إلى أخرى، أين وصلت إلى حد (19,17 بالمائة) من سنة 2005 إلى 2006، وسجلت انخفاضاً إجمالياً من سنة 2005 إلى غاية سنة 2009 بلغ (32,31 بالمائة)، وهذا راجع إلى السياسة المتبعة من السلطات الجزائرية والمتمثلة في الانسحاب من الساحة الاقتصادية، وترك المجال للخواص للاستثمار، وهذا ما يظهر من خلال الزيادة المعتبرة لكل من المؤسسات الصغيرة والمتوسطة الخاصة، وكذلك الصناعة التقليدية. التي سجلت زيادة معتبرة من سنة 2005 إلى غاية سنة 2009.

وبصفة عامة فإن المؤسسات الصغيرة والمتوسطة تسجل زيادة صريحة في عدد مناصب الشغل المنشأة ما بين 2005 و2006، حيث تم إنشاء 94.791 منصب شغل جديد؛ وما بين 2006 و2007، تم إنشاء 102.752، و184.810 ما بين 2007 و2008، و216.755 منصبا جديداً ما بين 2008 وسنة 2009، وتم إنشاء 599.108 منصب شغل جديد ما بين 2005 و2009، ما يقابل نسبة 42,48 بالمائة زيادة.

تجدر الإشارة إلى أنه لم يتم الاعتماد على معطيات سنة 2010، نظراً لتغير نظام جمع المعطيات حول قطاع الصناعة التقليدية، وذلك بالاعتماد على معطيات الصندوق الوطني للضمان الاجتماعي، عوض غرفة الصناعة التقليدية والحرف؛ وهذا ناتج عن التغيير الحكومي في 28 ماي 2010 والذي أدى إلى إنشاء وزارة الصناعة والمؤسسات الصغيرة والمتوسطة وترقية الاستثمار محل وزارة المؤسسات الصغيرة والمتوسطة والصناعة التقليدية.

- البحث عن سوق محلية أو عالمية لتسويق وخدمات.
مخرجات المؤسسات الصغيرة والمتوسطة من سلع

الهوامش :

- 1 — إسماعيل شعباني ، "ماهية المؤسسات الصغيرة والمتوسطة وتطورها في العالم"، مداخلة في الدورة التدريبية الدولية حول "تمويل المشروعات الصغيرة والمتوسطة ودورها في الاقتصاديات المغربية"، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة سطيف، الجزائر 28/25 ماي، 2003، ص: 59- 60 .
- 2 — شهرزاد زغيب و ليلى عيساوي ، "المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر واقع وآفاق"، مداخلة في الملتقى الوطني الأول حول "المؤسسات الصغيرة والمتوسطة ودورها في التنمية"، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة الأغواط، الجزائر، 9/8 أفريل 2002، ص: 171.
- 3— Fabrice Bittner, François Radacal : **L'essentiel de L'économie d'entreprise**, Ellipses édition, Paris, 2005, p 23.
- 4 — يوسف قريشي، "سياسات تمويل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر"، رسالة دكتوراه في العلوم الاقتصادية غير منشورة، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر، 2005، ص: 18.
- 5— Pierre Celier , " **définition des PME en Maroc et en Europe**",
www.enset-media.ac.ma/cpa/definition_pme_mroc_et_europe.htm, document mise en ligne le 05/04/2004, consulté le 20/05/2012, P 01.
- 6 — توفيق عبد الرحيم و يوسف حسن، "إدارة المشروعات التجارية الصغيرة"، دار الصفاء، عمان، الطبعة الأولى، 2002، ص: 16.
- 7 — منظمة العمل العربية (مكتب العمل العربي)، "الصناعات الصغرى والحرف التقليدية في الوطن العربي أدلة للتنمية"، مؤتمر الوطن العربي، الدورة 21، القاهرة، 11/4 أفريل 1994، ص: 73.
- 8 — " **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية** "، العدد 77، القانون رقم 01-18 المتضمن القانون التوجيهي لترقية المؤسسات الصغيرة والمتوسطة، المؤرخة يوم السبت 30 رمضان 1422 هـ الموافق لـ 15 ديسمبر 2001.
- 9 — محمد طاقة وحسن عجلان حسن، " **اقتصاديات العمل** "، إثراء للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، 2008، ص: 140.
- 10— <http://www.toupie.org/Dictionnaire/Chomage.htm> consulté le 20/03/2012
- 11— Jean-Yves Capul et Olivier Garnier , " **dictionnaire d'économie et de sciences sociales**",
Hatier, Paris, 1996, P:58.
- * تتمثل البطالة الصريحة في وجود أفراد قادرين على العمل ولا يشغلون أية وظيفة، وهي أكثر أشكال البطالة انتشارا، وتعرف كذلك بالبطالة السافرة.
- 12 — علي عبد الوهاب نجا: " **مشكلة البطالة واثار برنامج الإصلاح الاقتصادي عليها** "، دراسة تحليلية تطبيقية، الدار الجامعية، الإسكندرية، 2005، ص: 17.
- 13 — محمد طاقة وحسن عجلان حسن، " **مرجع سبق ذكره** "، 2008، ص: 142.
- 14 — علي عبد الوهاب نجا، " **مرجع سبق ذكره** "، 2005، ص: 17.
- 15 — محمد طاقة وحسن عجلان حسن، " **مرجع سبق ذكره** "، 2008، ص: 145.
- * حدث في بداية الثمانينيات من القرن العشرين وبداية صيف 2008 وما ترتب عنه من أزمة مالية عالمية.
- 16 — علي عبد الوهاب نجا، " **مرجع سبق ذكره** "، 2005، ص: 25- 26.
- 17—Emploi et chômage au quatrième trimestre 2010, "**rapport O.N.S**", p:06.

مقولة العبدول بين الطرق اللغوية والنحوية الأسلوبية في الدراسات اللغوية التطبيقية

عبد الخالق رشيد

جامعة وهران

توطئة:

تنتزل ظاهرة العبدول من الحدث اللغوي، نظاما وممارسة، منزلة المركز من الذات. ويتأكد حضورها ويزداد إلحاحا على مستوى الممارسة، لما يتخذ المتكلم حريته مع اللغة، فيخرق نظامها، وينتهك قواعدها، ضمن أطر متعارف عليها داخل الجماعة اللغوية. ويتعمق هذا الخرق، ويتوضح هذا الانتهاك، كلما سعى المتكلم إلى الارتقاء بكلامه درجات الإبداع؛ فحين يلامس الكلام قمم الإبداع يتوضح العبدول ويسفر عن مكوناته وطاقاته في تقجير اللغة، وإعادة تشكيلها وفق قواعد تخرق المعيار دون أن تلغيه، ثم تعود فتشكل لنفسها معيارا يتعالى على اللغة دون أن يحدث القطيعة معها.

هذه المكانة المتميزة التي تحتلها ظاهرة العبدول ضمن الحدث اللغوي عموما والممارسة الإبداعية خصوصا، لفتت انتباه المشتغلين بالدرس اللغوي والبلاغي على مرّ العصور وتنوّع الثقافات، فكان من نتائج تنبّعهم لهذه الظاهرة على مستوى الإبداع الأدبي أن نزلوا العبدول، بتجلياته المختلفة، منزلة الأداة المشكلة لظاهرة الأسلوب؛ فسواء اعتبر الأسلوب ثمرة من ثمرات الصياغة الفنية للأدوات التي توفّر لها اللغة للمبدع، أو اختيار يسلّطه المبدع على ما تتركز به اللغة من إمكانيات، فالأمر سياتي من حيث أنه يعود في آخر المطاف ليتصل بالعبدول.

1- مفهوم العبدول في التراث والمصطلحات المتداولة عليه: يُستشف من الاستعمالات اللغوية لكلمة "عدل"، كما تعرضها المعاجم العربية، أنها تشترك معظمها في معنى الميل والانحراف وما يشكلها في الدلالة على الخروج عما هو بمثابة الأصل. ومن هذه الاستعمالات نذكر¹:

- عدل عنه يعدل عدلا وعدولا بمعنى حاد.
- عدل إليه عدولا بمعنى رجع، وهو رجوع بعد انحراف.

- عدل عن الطريق بمعنى مال عنه.
 - انعدل عنه وعادل بمعنى اعوجّ.
 - ماله مَعْدِل ولا معدول أي مَصْرَف.
 - العدول الميل والانحراف.
- ليس بين المفهوم اللغوي المستنبط من المعاجم العربية والمفهوم الاصطلاحي الذي أُنبط بكلمة "العبدول" فرق دلالي كبير؛ فقد استعمل في الدرس اللغوي والبلاغي القديم بالمفهوم نفسه تقريبا، حيث وُظف للدلالة على انحراف المتكلم، وهو يمارس الفعل الكلامي، عن رسوم اللغة، وميله عن المعيار النحوي، وخروجه عما استقر أصلا في المنظومة اللغوية. وهو خروج مشروع لجأ إليه الإنسان منذ أن شعر بأن اللغة تضيق على استيعاب ما يزر به فكره وتجيّش به عواطفه.
- وتزداد هذه الحاجة إلحاحا كلما تعدى الإنسان بخطابه عتبة الإيصال ليغوص في عوالم الإبداع. وللعرب مصطلحات أخرى تقيد ما يفيد مصطلح العبدول من خروج وميل وانحراف عن الأصول، لعل أهمها مصطلح "التوسّع"²؛ يقول العلوي معرفا به: "اعلم أن التوسع اسم يقع على جميع أنواع المجازات كلها، واشتقاقه من السعة، وهو نقيض الضيق، فالضيق قصر الكلام على حقيقته من غير خروج عنها، والتوسع شامل لما ذكرناه من أنواع المجازات، فإطلاق التوسع على ما يندرج تحته من أنواع المجاز بمنزلة إطلاق الكلمة على ما يندرج تحتها من أنواع خاصة: الاسم والفعل والحرف"³.
- ومن كلام العلوي يتبين أن التوسع الذي استعمله القدامى للدلالة على الحرية التي يتخذها الإنسان مع اللغة لتفادي معياريّتها الضيقة، لا يختلف عن "العبدول" من حيث شموليته، وتعدد دلالاته، واستقطابه لجملة من طرق القول تشترك كلها في ميزة الخروج عن الأصول النظرية التي تؤسس

عملية تأليف الكلام مطلقاً⁴

ويشارك "التوسع" في الدلالة على الظاهرة نفسها صيغ مشتقة من المادة نفسها، أشهرها: "الاتساع" و"السعة"؛ يقول سيبويه: "ومثله في الاتساع قوله عز وجل: (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً) (البقرة-171)، فلم يُشَبَّهوا بما ينطق وإنما شَبَّهوا بالمنعوق به. وإنما المعنى: مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناقع والمنعوق به الذي لا يسمع. ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى".⁵ ويفهم من الكلام السابق أن الحذف الذي تُنبئ عنه البنية السطحية للآية الكريمة في مقارنتها بالبنية العميقة، كما أشار إلى ذلك سيبويه، جاء طلباً للإيجاز، وهو أحد المسوغات للتوسع في الكلام بالعدول عن تركيب إلى آخر يلائم المطلب الفني دون أن يجور على جوهر اللغة الذي يشكل القاسم الأدنى، حتى لا يخرج الكلام عن حيز المفهوم؛ أي إن هذا التوسع وذاك العدول محكومان بعرف يشترك فيه أهل اللغة، وهو ما أشار إليه سيبويه بعبارة "علم المخاطب بالمعنى".

وقد كان عبد القاهر الجرجاني أوضح في الجمع بين مصطلحي "التوسع" و"العدول"، لدلالاتهما على مفهوم واحد، حينما قال: "اعلم أن الكلام الفصيح ينقسم قسمين: قسم تعزى المزية والحسن فيه إلى اللفظ، وقسم يعزى ذلك فيه إلى النظم؛ فالقسم الأول الكناية والاستعارة والتمثيل الكائن على حد الاستعارة، وكل ما كان فيه على الجملة مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر".⁶

إذا كان كلام عبد القاهر يُنزل العدول منزلة الاتساع ويساوي بينهما حتى لكانت شيئا واحداً، فإنه يلحق بهما مصطلحا آخر هو "المجاز"، وكأنه مرادف لهما؛ فتصبح المصطلحات الثلاثة دالة على مفهوم واحد هو الخروج بالكلام عن رسومه، والانحراف به عن مظاهره. والواضح أن المجاز المقصود هنا هو المجاز كما فهمه الرعيل الأول من علماء اللغة، كسيبويه وأبي عبيدة وابن قتيبة وغيرهم ممن حملوا هذا المصطلح كل خروج بالكلام عن الأصل، فأدرجوا ضمنه الذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والتضمنين، والتغليب، وما إلى ذلك مما يلمس فيه عدول باللفظ والتركيب عما أقر في أصل الوضع. وما المجاز بهذا المعنى إلا العدول والاتساع؛ يقول أحد الباحثين مؤكداً هذا الاستنتاج: وإذا كانت السعة هي المجاز عند سيبويه فالمجاز نفسه قد أصبح مرادفاً للفظ "العدول"

من حيث هو خروج عن الأصل".⁷

ويتأكد هذا الاستنتاج عند ابن جني في معرض حديثه عن المجاز؛ فهو يذكر صراحة - في باب "الفرق بين الحقيقة والمجاز" - أن "من المجاز كثير من باب الشجاعة في العربية من الحذوف والزيادات، والتقديم والتأخير والحمل على المعنى، والتحريف".⁸ فالمجاز - عنده - لا زال يستعمل بمعناه العام المرادف للعدول، كما يتضح من ضروب القول التي أناطها به. وفي نص آخر يقول ابن جني: "وكيف تصرف الحال فالإتساع فاش في جميع أجناس شجاعة العربية".⁹ فمن خلال مقارنة هذا النص بسابقة يتضح أن ابن جني كان يحمل المجاز والاتساع على المفهوم نفسه، وكذا العدول ولو ضمنا.

وإلى جانب مصطلح "الاتساع" وصيغته المختلفة ومصطلح "المجاز"، لجأ بعض العلماء إلى توظيف مصطلحات أخرى للدلالة على العدول؛ غير أن مجالها المفهومي والدائرة المعرفية التي تستعمل فيها، يوحيان بأنها تلامس دلالة العدول دون أن تنطبق عليه انطباق الردف. ومن هذه المصطلحات "التحويل"؛ وهو من استعمالات النحاة بخاصة، يوظفونه للدلالة على النقل الذي يعترى بعض الكلمات داخل التراكيب، فيتغير بذلك إعرابها ووظيفتها ومركز ثقلها داخل الجملة، وغالبا ما يكون هذا التحويل لنكتة بلاغية. وقد يكون في النص الموالي ما يوضح استعمال هذا المصطلح؛ يقول ابن هشام في معرض حديثه عن أقسام التمييز المبين لجهة النسبة، وهي - عنده - أربعة: "أحدها أن يكون محوًلاً عن الفاعل كقول الله عز وجل: (وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) (مريم-4)، أصله: واشتغل شيب الرأس، وقوله تعالى: (فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا) (النساء-4)، أصله: فإن طابت أنفسهن لكم عن شيء منه، فحوّل الإسناد فيهما عن المضاف، ثم جيء بذلك المضاف الذي حوّل عن الإسناد فضلة تمييزاً... الثاني أن يكون محوًلاً عن المفعول... الثالث أن يكون محوًلاً عن غيرهما... الرابع أن يكون غير محوّل".¹⁰

ومن هذه المصطلحات أيضاً "الرخصة"؛ فهي تقارب العدول في أنها خرق للقاعدة الأصولية، وتقارقه في جوانب، لعل أهمها أن العدول "على رغم كونه تحدياً صارخاً للقاعدة النحوية يجد من الحفاوة وسعة الاستعمال ما تجده القاعدة نفسها، فلناس في كل عصر أن يقيسوا عليه في كلامهم كما يقيسون

ثم لأن العدول يمتاز بشيوعه وتداوله تنظيراً وتطبيقاً، فهو صالح لأن يقاس عليه ويُحْتَدَى به، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق، في حين أن خرقات هؤلاء الشعراء فردية الطابع متطرفة، لا يمنع من نسبتها إلى الخطأ إلا كونها صادرة عن فحول مشهود لهم بالبراعة والفصاحة، ضاقت بهم سبل القول، فارتادوا الصُّعاب من أجل ابتداع طرق جديدة للتعبير. فهم في صنيعهم هذا يضعون الكلام على عتبة ما بين المسموح به والممنوع، أو كما يسميه سيبويه "المستقيم القبيح"¹⁶ ومن ثم جاز أن يُعَبَّر عن هذا العدول المتطرف بالخرق لما فيه من انتهاك صارخ لقواعد اللغة.

2- الأصل المعدول عنه:

لقد سبق الذكر أن العدول مشتق من عدل، وهو فعل لازم لا يتعدى بنفسه؛ أي أن عدل يعدل عدولا لا يكون إلا عن شيء هو المعدول عنه، ولا خلاف في ذلك. غير أن هذا الشيء المعدول عنه لا يزال محل خلاف لا سيما في الدرس الأسلوبي الحديث. أما القدامى من علماء العرب فقد أطلقوا عليه مجموعة من المصطلحات، لعل أكثرها دورانا بينهم وتوظيفا في مؤلفاتهم هو "الأصل".

والنحاة هم أكثر القوم استعمالاً له. ولا جدوى من محاولة إقامة الشاهد النصي على ذلك، فإن كتبهم تعج بهذا المصطلح؛ فقد وظّفوه بطاقة قصوى، وولّوا منه مصطلحات فرعية كـ "أصل الوضع" و"أصل القاعدة"، واستنبطوا من تعاملهم مع هذا المصطلح طائفة من القوانين نظموا بها الدرس النحوي، كقولهم:

- ما جاء على أصله لا يسأل عن علته.

- من عدل عن الأصل افتقر إلى إقامة الدليل على عدوله.

- الأصل في العمل الأفعال.

- الأصل هو المظهر وإنما المضمّر فرع... وغيرها

كثير.¹⁷

وإلى جانب "الأصل" وظّف علماء اللغة مصطلحات أخرى للدلالة على الشيء المعدول عنه، منها "الحد"؛ يقول سيبويه في حديثه عن صيغة اسم فعل الأمر كـ حذار ومناع ونزال: "فالحد في جميع هذا "افعل"، ولكنه معدول عن حده. وحرك آخره لأنه لا يكون بعد الألف ساكن، وحرك بالكسر، لأن الكسر مما يؤنث به". ولا شك أننا نلمح في مصطلح "الحد" الوارد في هذا النص دلالة "الأصل"، حتى إذا قمنا بتعويض أحد المصطلحين بالآخر لا نشعر بتغيير في الدلالة العامة للنص.

على القواعد"¹¹ في حين أن الرخصة ظرفية مؤقتة، لا يُحْتَدَى بها ولا يقاس عليها، لأنه لا يسمح بها إلا في حدود ضيقة؛ عندما تتضافر القرائن النحوية على بيان المعنى النحوي، فعندئذ فقط يمكن "الترخّص في إحدى القرائن إذا لم يتوقف عليها المعنى، أما إذا توقف المعنى على واحدة أو أكثر من القرائن فلا ترخّص عندئذ، لأن الترخص يذهب بالإفادة أو يؤدي إلى اللبس"¹². وقد استخلص تمام حسان هذه الفوارق وحصرها في أربعة جوانب هي:

- الرخصة نحوية والعدول أدبي.

- الرخصة لا تكون إلا من الفصحاء، أما الاستعمال العدولي فقد كان منهم ويكون من غيرهم.

- لا يجوز للمعاصر أن يترخص، وإن فعل نسب كلامه إلى الخطأ، أما إن استعمل أسلوباً عدولياً نسب ذلك منه إلى الطموح الأدبي.

- الرخصة مرهونة بموضعها، والأسلوب العدولي غير مرهون بشيء.¹³

وضمن المصطلحات المشاركة للعدول في دلالاته، يمكن أن ندرج مصطلحا انفرد به ابن جني، وإن كان من المصطلحات الشائعة في الدرس الأسلوبي الحديث، هو الخرق؛ فقد أورده ابن الجني، وهو بصدد الدفاع عن الشعراء فيما يلجأون إليه من الضرورات التي تتجاوز المسموح به من الرخص، حتى لتكاد تحيد بالكلام عن الفصاحة والبيان؛ يقول ابن الجني: "فمتى رأيت الشاعر قد ارتكب مثل هذه الضرورات على قبحها، وانخرق الأصول بها؛ فاعلم أن ذلك على ما جَسَمَهُ منه، وإن دل من وجه على جورّه وتعسّفه، فإنه من وجه آخر مؤذن بصياله وتخمّطه، وليس بقاطع دليل على ضعف لغته، ولا قصوره عن اختيار الوجه الناطق بفصاحته"¹⁴.

يُظهر استنتاج النص السابق أن ابن جني لم يوظف مصطلح العدول للدلالة على خروج هؤلاء الشعراء بكلامهم عن الأصول، رغم استعماله له في مواطن أخرى من "الخصائص"، ولجأ بدل ذلك إلى مصطلح الخرق ليشير إلى أن ما ارتكبه هؤلاء الشعراء من انتهاكات، تدفع بالضرورة إلى أقصى مداها، لا يُعد من العدول؛ لأن الضرورة هي في جانب منها، رجوع من العدول إلى الأصل إذا أخذنا برأي سيبويه الذي "جعل الضرورة أن يجوز للشاعر ما لا يجوز له في الكلام، بشرط أن يضطر لذلك، ولا يجد منه بدا، وأن يكون في ذلك رد فرع إلى أصل وتشبيه غير جائز بجائز"¹⁵.

المتكلم على مطابقة كلامه مع مقتضيات الحال ومقامات الكلام، وهو مجال الدرس البلاغي قديماً، والأسلوبي حديثاً.

أ – العدول عند اللغويين: لقد لاحظ اللغويون، من استنتاجهم لكلام العرب الفصحاء، أن المعنى الواحد يتخذ عند التعبير عنه أشكالاً متنوعة، وأن الكلمة الواحدة تعبرها صيغ مختلفة ويطرأ التغير على حروفها الأصلية بحسب تصاريفها، وكذا بالنسبة للأصوات أيضاً، فأيقنوا-عندئذ-أنهم أمام تصاريف لكلام واحد، وأن لهذه التصاريف أصولاً تحكمها تشكل معياراً تنزاح عنه الاستعمالات المختلفة، وذلك من منطق وعيهم المسبق بأن اللغة نظام يحتكم إلى قواعد صارمة.

تسلمنا هذه المقدمة إلى القول مع أحد الباحثين أن "اعتراف النحويين واللغويين بالعدول كمستوى إبداعي في اللغة مرحلة تالية لتأكيدهم مفهوم المثالية فيها وطرائق الأداء المعيارية للمستوى العادي، والمثالية التي حددها مثالية افتراضية أكثر منها تطبيقية واقعية".²² فالمثالية المتحدث عنها في هذا النص، هي مجموع الأصول التي جردها النحاة واللغويون من الاستعمالات، التي ثبتت عند العرب الفصحاء، لبناء صرح لغوي تخضع فيه مكونات اللغة لنظام صارم مؤسس على اطراد القاعدة وسلامة القياس. ومعنى هذا أن الأصول التي احتكم إليها النحاة واللغويون أصول افتراضية ليس في الواقع ما يثبتها؛ فقواعد الإعلال والإبدال والقلب-على سبيل المثال-هي من صنع النحاة، وليس في الواقع ما ينهض دليلاً على أن الأوائل كانوا على وعي بها، وإنما أبدلوا وقلبوا، إن ثبت ذلك، عن سليفة مدفوعين بالرغبة في "طلب الخفة". والأمر نفسه يمكن سحبه على الأصول الأخرى التي يحتكم إليها النحاة؛

يقول تمام حسان موضحاً هذا الاستنتاج: "الأصل المستصحب إنما جرده النحاة، فأصبح من عملهم ولم يكن من عمل العربي صاحب السليقة الفصيحة".²³ إن افتراضية هذه الأصول، التي كان لابد منها لإدخال النظام في عالم اللغة، تظهر من تسميتها المنظومة الأساسية من هذه الأصول بـ "أصل الوضع"؛ والمعروف عن مقولة "الوضع" أنها من المسلمات التي لا ينهض عليها دليل قطعي، فهي ضرورية لتفسير اعتبارية العلاقات داخل اللغة وتهئية الأرضية للدراسة العلمية الوصفية لمستويات اللغة.

وبالتوازي مع الأصل والحد وظف القدامى مصطلحاً مركباً هو "وجه الكلام"؛ يقول سيبويه في معرض حديثه عن إجراء الصفة مجرى الاسم: "ومما يبين لك أن الصفة لا يقوى فيها إلا هذا، أن سائلاً لو سألك فقال: هل سير عليه؟ لقلت: نعم، سير عليه شديداً، وسير عليه حسناً، فالنصب في هذا على أنه حال، وهو وجه الكلام لأنه وصف السير".¹⁸ ولا شك أننا نلمح في مصطلح "الحد" الوارد في هذا النص دلالة "الأصل"، فوجه الكلام هو جهته وأصله.

ولعلماء البلاغة مصطلح آخر يشيرون به إلى الأصل المعدول عنه هو "أصل المعنى"، وهو أقرب إلى ما يعرف في الدرس الأسلوبي الحديث بـ "الاستعمال الشائع" وما يقاربه،¹⁹ والذي اتخذ بعض الأسلوبيين معياراً لقياس الانزياحات. وقد عرفه السكاكي بدقة متناهية أثناء حديثه عن مقتضى الحال إذ قال: "مقتضى الحال عند المتكلم يتفاوت... فتارة تقتضي الحال ما لا يفتقر في تأديته إلى مزيد من دلالات وضعية وألفاظ كيف كانت ونظم لها لمجرد التأليف بينها يخرجها عن حكم النعيق، وهذا الذي سميناه في علم النحو أصل المعنى، ونزلناه - هاهنا- منزلة أصوات الحيوانات، وأخرى تقتضي ما يفتقر في تأديته إلى مزيد".²⁰ وقد وضّح في الجزء الذي خصصه للنحو مفهوم "أصل المعنى"، فقال: "أعلم أن النحو هو أن تتحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية "أصل المعنى" مطلقاً بمقاييس مستتبطة من استقراء كلام العرب".²¹ فالواضح أن كلام السكاكي يبيح لنا أن نستنبط منه أن المراد بـ "أصل المعنى" تأدية المعنى بكلام خال من كل بُعد فني غرضه التوصيل لا أكثر، فهو أشبه ما يكون بـ "الدرجة الصفر" التي تحدث عنها بعض الغربيين المعاصرين.

3- العدول بين اللغويين والبلاغيين:

ومن استقراء تعامل القدامى مع ظاهرة العدول، يمكننا التمييز بين مستويين لهذه الظاهرة؛ أحدهما هو العدول المفترض الذي يكون قد لجأ إليه أهل اللغة طلباً للخفة والاقتصاد، ويطال هذا المستوى كل عدول عن أصل لغوي، كالإعلال والإبدال والقلب، وما يجري مجراها مما يُفترض أن المتكلم قد عدل فيه عن أصل لا يقوم عليه دليل قاطع داخل اللغة نفسها. وهو عدول لغوي محض يهتم باستقصائه اللغويون والنحاة منهم على وجه الخصوص. والآخر هو العدول الفني الذي يتولد عن حرص

الأصولية التي تقتضي أن "الإضمار قبل الذكر لا يجوز في كلامهم"،²⁷ فأوجبوا في مثل هذه الحال تقديم الخبر، وهو أسلوب عدولي، لأمن اللبس، رغم أن للمبتدأ صدارة الكلام في الأصل. فها هنا عدول عن الأصل إلى الفرع لكي لا يُنتهك أصل عتيق من أصول اللغة العربية، بل واللغات كلها، وهو "أمن اللبس"، والذي به علل النحاة لظاهرة الإعراب، إذ إن الإعراب "إنما دخل الكلام في الأصل لمعنى، وهو الفصل وإزالة اللبس والفرق بين المعاني المختلفة بعضها من بعض، من الفاعلية والمفعولية وغير ذلك".²⁸

يستخلص مما سبق بسطه أن العدول عند اللغويين لا يرتبط بالمستوى الفني الإبداعي بالضرورة، بل على العكس من ذلك، فهو مستوى من مستويات الأداء المعياري في الكلام العربي، أي أنه من باب الاستعمال الشائع الذي ثبتت عن الفصحاء، وقد ألحقت به صفة "العدول" لأن تركيبته لا تتسجم مع القواعد المثالية للغة، التي تحكمها الأصول الافتراضية المتبناة من قبل اللغويين، إلا بواسطة مجموعة من القواعد التوجيهية التي استتبطوها لتأويل التراكيب المعدولة حتى تتسجم مع الأصل المعدول عنه. ويتحدث النحاة في هذا الصدد عن "الرد" و"التخريج" كضربين من ضروب التأويل؛ ومرجع الخلاف بينهما إلى طبيعة العلاقة بين التركيب المعدول والأصل المعدول عنه من حيث الوضوح والخفاء؛ فيكون التأويل ردا إذا كان الأصل ظاهرا أو قريبا معينا، ويكون تخريجا إذا كانت العبارة المعدولة موهمة غير أصلها أو ممتنعة لا تتسجم مع أصل ظاهر أو قريب.²⁹ فالتأويل بالرد أو التخريج هو الإجراء المعتمد لإحلاق المعدول بحضيرة القاعدة الأم، فتضبط بذلك تصارييف الكلام المختلفة التي ثبت استعمالها من قبل الفصحاء، بقواعد فرعية تتخذ من التقدير والنيابة والتضمنين وغيرها أدوات يؤول بها المعدول في ضوء الأصول. وبذلك تحقق للغويين حرصهم على تفسير كل ما سُمع في ضوء الأصول إلا ما شذ.

لقد سبق الذكر أن الغالب في الاستعمال اللغوي هو العدول، وأن هذه الظاهرة تشمل مستويات اللغة المختلفة بدءا بالمستوى الصوتي. يحدث العدول على هذا المستوى حينما ينزاح الحرف عن مخرجه أو يفقد صفة من صفاته، إذ إن لكل حرف مخرج وصفات مضبوطة تعتبر أصلا له. ويرتبط هذا الضرب من العدول بمجموعة من العوامل؛ منها الشخصية الداخلية وتتعلق باختلاف أجهزة النطق، ومنها الخارجية المتعلقة بعوامل البيئة والمجتمع،

وهو الأمر الذي نستشفه من تعريفهم أصل الوضع بأنه "تجريد قام به النحاة ليصلوا بواسطته إلى الاقتصاد العلمي بتجنب الخوض في أوابد المفردات".²⁴ وبالالتكاء على هذه المنظومة القانونية المجردة المسماة بـ "أصل الوضع" راح النحاة، بكل اطمئنان، يجردون الأصول الفرعية التي تنظم مستويات اللغة المختلفة؛ فتحدثوا عن "الأصل المستصحب" و"أصل القياس" و"أصل القاعدة".

يُشع العدول في مجال الدرس اللغوي للحرف والكلمة والتركيب على حد سواء، ولا علاقة له إلا بنوعين من الأصول السالفة الذكر، وهما "أصل الوضع" و"أصل القاعدة"، لأن "الأصل المستصحب" يطلق على العنصر اللغوي الذي يأتي مطابقا لأصل الوضع، أما "أصل القياس" فلا فرق فيه بين المستصحب والمعدول شريطة أن يتوفر فيها الاطراد. و يأتي العدول عن هذين الأصلين (الوضع والقاعدة) بصورتين: مطرد وغير مطرد؛ فغير المطرد يحفظ إذا كان فصيحاً ولا يقاس عليه بسبب شذوذه، ولا يهتم النحاة لتعليقه في العادة، أما المطرد منه فيصبح، بسبب اطراده، أهلاً لأن يقاس عليه، ويحمل عليه غيره بعله كما يحمل على الأصل.²⁵

إن اهتمام اللغويين بالعدول، واعتماد المطرد منه أصلاً يقاس عليه، اعتراف منهم بأن أكثر اللغة معدول. وما كان لهم، والأمر كذلك، أن يهملوا هذا الجانب التداولي في اللغة ويستمسكوا بالأصول وحدها. ومن هذا المنطلق توجهت جهودهم نحو التقنين للعدول والتعليل له بمجموعة من المبادئ العامة كالإقتصاد وطلب الخفة ومراعاة الذوق وأمن اللبس، وأحاطوا استعماله بطائفة من الشروط أهمها: أن يخضع العدول لقاعدة توجهه ويترد في ضوئها تكون ذات علاقة بالأصل المعدول عنه، وأن يؤمن اللبس عند استعمال الوجه المعدول.

لم يلتفت اللغويون إلى العدول اعترافاً منهم بكثرته فحسب، وإنما لكونه ضروري لاجتناب تضارب الأصول أيضاً؛ ومعنى ذلك أن نظام اللغة نفسه قد يدفع المتكلم إلى العزوف عن الأصل وتفضيل العدول إلى الفرع، لأن استعمال اللغة على وجهها الأصلي قد يفضي إلى اللبس وذهاب الفائدة؛ ومن أمثله ذلك أنهم أوجبوا تقديم الخبر على المبتدأ إن اشتمل المبتدأ على ضمير يعود على شيء من الخبر حتى لا يعود الضمير على متأخر لفظاً ورتبه،²⁶ عملاً بالقاعدة

وفي هذه الحالة يتخذ العدول شكلا جماعيا، وهو ما نلمسه في اللهجات المختلفة.³⁰

يتصل العدول الصوتي من جهة أخرى – وهو المعول عليه في هذا البحث- بعوامل سياقية ذات علاقة بصيغة الكلمة، كتوالي المثليين والمتشابهين، وهو ما يستكره الذوق العربي لدرجة أنهم عدوا من شروط فصاحة الكلمة أن تتألف من حروف متباعدة المخارج.³¹ وقد سجل القدامى، في السياق نفسه، أنه "لا تكاد تجيء في كلام العرب ثلاثة حروف من جنس واحد في كلمة واحدة لحزونة ذلك على ألسنتهم وثقله".³² ولاحظوا أنه – وللعلة نفسها- لم تتجاوز في كلامهم حروف القاف والكاف والجيم ألبته، ولا تألفت في كلامهم ألفاظ تجاوزت فيها الصاد والسين والزاي.³³ وقد التفتوا في هذا المقام إلى فعل الحركات وتأثيرها في التشكيل الإيقاعي للفظ، فنكروا أن واضع اللغة كما تجنب الجمع بين الحروف المتقاربة المخارج بغية دفع المشقة على الناطق، فإنه اعتمد – للعلة نفسها- خفة الحركات، وأشار أحدهم إلى أن الطريقة المؤثرة إيجابا على إيقاع اللفظة هي حركتان فسكون، وإلا فتلاث حركات، فما خرج على ذلك كان في غاية الثقل.³⁴

ومن هذا المنطلق يمكن القول أن طلب الخفة وتيسير النطق هو المبدأ العام المتحكم في العدول الصوتي، وأنه خاضع في أساسه لذوق وعرف لغويين عند العرب "جعلهم يكرهون توالي الأمثال وتوالي الأضداد، ويألفون توالي الأشتان"،³⁵ وأن هذا العدول يتم بواسطة أدوات إجرائية كالإدغام والإخفاء والإقلاب، "فإذا توالى المثلان أو المتشابهان من هذه الأصول كره العرب تواليها، ومن ثم عدلوا عن أصل أحدهما ومالوا به إلى مخرج آخر أو بعض صفاته، فألوا بالنطق إلى الإدغام أو الإخفاء أو الإقلاب".³⁶ إذا كان أصل وضع الحرف ظاهر ملموس يمكن التعرف عليه بوسائل عملية، فإن أصل وضع الكلمة من الأصول التي جردها اللغويون تجريدا.

ويتشكل هذا الأصل من تقاطع أصليين: أحدهما أصل الاشتقاق، وهو أصل مشكل من ثلاثة حروف غير منطوقة اهتدى إليه المعجميون ووظفوه من خلال النقايب في إحصاء مفردات اللغة الواقعة والممكنة، والآخر هو أصل الصيغة، ويتشكل من التصاريح المختلفة التي تتناوب على الصيغة المجردة للكلمة وما يعترى هذه التصاريح من إدغام أو قلب أو إعلال وإبدال أو حذف أو زيادة... إلخ. وقد شبه أحد الباحثين

أصل وضع الكلمة ذي البعد المزدوج بأصل وضع الحرف الثنائي التكوين هو الآخر؛ فنزل أصل الاشتقاق في الكلمة منزلة المخرج في الحرف، وأصل الصيغة منزلة صفات الحروف. وكما يكون العدول عن أصل الحرف بتغيير في مخرجه أو في صفاته، كذلك يكون العدول عن أصل وضع الكلمة بالتغيير في أصل الاشتقاق أو أصل الصيغة أو كليهما.³⁷

وبالإضافة إلى أصل الوضع الذي يُحتكم إليه في كل استعمال عدولي، فقد أناط النحاة كل قسم من أقسام الكلم بمجموعة من الأصول الفرعية، استخلصوها من استقرار كلام العرب، ووظفوها في القواعد الأصولية لأبواب النحو؛ ففلاسم أصوله كالإفراد والتذكير والصرف والإعراب، وللعلل أصوله كالتجريد والبناء والتصرف والعمل والدلالة على الحدث مصحوبا بالزمن، وللحرف أيضا أصوله كالبناء والرتبة والافتقار.³⁸

يحدث العدول على مستوى الكلمة إما بانزياح اللفظ المستعمل عن أصل الوضع، كما هو الحال في الإعلال والإبدال والقلب والإدغام، وإما بانزياحه عن أصل فرعي مما سبق ذكره كإعراب الأفعال ومجيء الأسماء على وزن الفعل مما يستلزم منع صرفها، وتضمين الحروف، وهلم جرا. وإلى جانب هذه الأنماط العدولية التي يمكن نعتها بأنها انزياحات شكلية، يحدث أن يكون العدول دلاليا، ذلك أن من أصل الكلمة أن تكون دالة على ما وضعت له. ويندرج هذا الضرب من العدول ضمن المجاز بمعناه الفني بما في ذلك الاستعارة، ولا يلتبس إلا إذا أدرجت الكلمة في سياق تركيبي.

ينطبق على العدول عن أصل الكلمة ما يسري على ظاهرة العدول بعامة مما ذكرناه سابقا، من أنه قد يحدث بشكل مطرد كما قد يحدث بشكل غير مطرد، وأن هذا الأخير يعد من الشاذ الذي يحفظ ولا يقاس عليه إن كان فصيحاً، ولا يُحتذى إلا في باب الضرورة،³⁹ ككف الإدغام في الأسماء كما في قول الراجز:

الحمد لله العليّ الأجل⁴⁰

أما المطرد منه فهو خاضع لقاعدة تصريفية، كقواعد الإعلال والإبدال والنقل والقلب والحذف والزيادة... إلخ، ويصدق عليها القول بأنها قواعد قننت للذوق العربي الذي ينشد الخفة ويمج الثقل.⁴¹

ويلاحظ في هذا المقام، كما لوحظ فيما سبق، أن تناول اللغويين للعدول هو من باب التقعيد للمستعمل؛ بمعنى أنه يراعي الاستعمال الشائع فينظمه داخل نسيج

ب - العدول عند البلاغيين: يندرج اهتمام البلاغيين بظاهرة العدول ضمن المسار العام الذي انتهجه الدراسات اللغوية في مقاربة هذه الظاهرة، ومن ثم لم يكد يختلف تناول العدول من قبل الفريقين إلا من حيث نوعية المدونة المعتمدة لاستنتاج مستويات العدول ودرجاته؛ فاللغويون، كما سبقت الإشارة، اعتمدوا الاستعمال الشائع عند الفصحاء من العرب كركيزة لسبر أغوار هذه الظاهرة من خلال مستويات الكلام المختلفة: الصوتية والمعجمية والتركييبية. وكانت عنايتهم منصبة على ربط حبل الأسباب بين تجليات هذه الظاهرة في الكلام السائر والأصول التي تنتظمها، حريصين كل الحرص على رد الفروع إلى الأصول بتأويل المعدول في ضوء الأصل المعدول عنه. أما البلاغيون فقد اعتمدوا الكلام الفني، الذي تتجلى فيه قدرات المنشئ الإبداعية، كمنطلق لبحوثهم ودراساتهم، ولم يلتفتوا إلى مستويات الكلام المختلفة منعزلة عن بعضها البعض، إلا لدواعي نظرية بحتة، وإنما التمسوا هذه المستويات من خلال السياق الذي تنتزل فيه بشقيه، اللغوي والاجتماعي، لأنه الوحيد الكفيل بإبراز فنية الكلام. وفيما عدا ذلك، فإن البلاغيين لم يبتعدوا كثيرا عن المعالم التي رسمها اللغويون لظاهرة العدول، وظلوا حريصين على تأويل ما يظهر لهم أنه عدول بالرجوع إلى المبادئ التي ابتدعها اللغويون.

لم يكن هذا التقارب في الطرح، وفي اعتماد وسائل إجرائية متشابهة، من باب التقليد المنبني عن تهلون البلاغيين في مقاربة ظاهرة العدول، وإنما هو نتيجة منطقية مترتبة عن أسبقية الدراسات اللغوية في الثقافة العربية الإسلامية وجودا ونضجا واكتمالا، فكانت "هي الرحم الذي ولدت فيه كل الدراسات النصائية: البلاغية والأسلوبية والنقدية. ولذا، فقد ظهر الكلام من الأسلوب في الثقافة العربية الإسلامية، منذ البدء، معبرا عن مجال التصرف ضمن النظام، وعن الضرورة إزاء القاعدة، وعن الخروج إلى اللامألوف إزاء المألوف".⁴⁶

لقد كان لهذه الأسبقية أثرها الفعال على الدرس البلاغي، الذي اتجه، منذ خطواته الأولى، إلى دراسة الأسلوب، والاهتمام بالنص واستنطاقه، من خلال بنياته اللغوية، فيما يشبه صنيع البنيويين المعاصرين، دون التفات، إلا في ما نذر وشذ، إلى منشئ النص في علاقته بإنتاجه وما يحيط به من ظروف ودوافع، وغيرها مما انبنى عليه اتجاه أسلوب كبير في الغرب

من القوانين النحوية المحكومة بقواعد أصولية متكاملة، وأن المتكلم، إذ كان على علم بالصيغ المعدولة لممارسته إياها يوميا، فإنه عادة يجهل أصولها، لأنها من تجريدات اللغويين.

أصل وضع الجملة هو النمط القاعدي الذي تتشكل منه الجملة العربية. ويتحقق هذا النمط بتوفر ركنين اثنين هما: المسند والمسند إليه، في شكل مبتدأ وخبر أو فعل وفاعل، وكل ما عداهما يعد فضلا يمكن الاستغناء عنه. واشترط في الجملة توفر هذين الركنين لأن بهما تتحقق الفائدة؛ والإفادة هي أصل الأصول بالنسبة للجملة، فلا يمكن العدول عنه بأي حال من الأحوال.⁴² وأي عدول في الجملة النمط مشروط ببقاء الفائدة وأمن اللبس،

لأن الأصل في الكلام - كما اصطلاح عليه النحاة - أن يكون لفائدة؛⁴³ فالعدول ليس حرية مطلقة يتصرف بمقتضاها المتكلم في اللغة، إذ "لا بد من البقاء في حدود ما تسمح به مما لا ينقض علة وجودها ويعطل وظيفتها الأصلية: البيان والتبيين".⁴⁴

ولتأمين هذا الأصل العتيد اشترط النحاة في الجملة مجموعة من الأصول الفرعية؛ كالذكر والإظهار والوصل وحفظ الرتبة وما شابه ذلك مما يفترض تحققه في الجملة النمط. وكل خروج عن أصل من هذه الأصول يعتبر عدولا؛ فالحذف والإضمار والفصل والتقديم والتأخير كلها أساليب عدولية يلجأ إليها في الكلام العربي. ولا يُرخص لمثل هذا العدول إلا في حدود أمن اللبس وبقاء الفائدة، ومن هنا "لا يكون الحذف إلا بوجود الدليل، ولا يكون الإضمار إلا مع وجود المفسر، ولا يكون الفصل إلا بغير أجنبي، ولا التقديم ولا التأخير إلا مع وضوح المعنى وحيث لا تكون الرتبة واجبة الحفظ".⁴⁵

ولا يعتد بالعدول على هذا المستوى إلا إذا كان مطردا، شأنه في ذلك شأن الحرف والكلمة، وما سواه فهو شاذ لا يُسمح به إلا في باب الضرورة الشعرية. ويستدعي الاطراد أن يكون العدول على هذا المستوى خاضعا لقواعد ينحو نحوها ويتطرد في ضوئها، ذات علاقة بالقواعد التأصيلية بحيث يتسنى رد الفرع المعدول إلى الأصل المعدول عنه بالتأويل والتخريج. وعلى هذا المستوى يتدخل الدرس البلاغي لتعقب مظاهر العدول، واستنطاق أساليبه والوقوف على أبعاده الفنية، في حدود الكلام الذي تتجلى فيه معالم الأدبية.

يعرف باسم "أسلوبية الفرد".

لقد توصلت الدراسات الأسلوبية المعاصرة بعد إعلانها القطيعة مع البلاغة التقليدية إلى النتيجة نفسها التي انطلق منها درس البلاغي العربي، وهي ضرورة اعتماد الدراسات اللغوية كأساس لمقاربة الفعل الأسلوبية، وأن لا جدوى من محاولة فهم الأسلوب بإسقاطه على حياة منشئة، لأن ذلك لا يفضي، في نهاية المطاف، إلا لضروب من التحليل النفسي الخاضع لذاتية المحلل في أغلب الأحوال. ومن هذا المنطلق، نجد ناقدا كبيرا كـ"رينيه ويليك" يعلن بثقة أن "دارس الأسلوب لا يمكنه التقدّم في حقله ما لم يلم بالنحو بكل فروعه: بالصوتيات و علم الأصوات الدالة وبالصرف والتراكيب و علم المعاجم و علم المعاني".⁴⁷ ومما ينهض دليلا على علاقة البلاغة العربية في مولدها ونشأتها بالدراسات اللغوية والنحوية منها على الخصوص، أن الإرهاصات الأولى للتحليل البلاغي كانت من فعل لغويي القرنين الثاني والثالث الهجريين، كسيبويه وأبي عبيدة وابن قتيبة والمبرد، وعليها انبنى صرح البلاغة واكتمل نضجها في القرنين الرابع والخامس على يد بلاغيين كالأمدي والقاضي الجرجاني وأبي هلال العسكري، وأخيرا عبد القاهر الجرجاني، الذي زواج بين المنطلقات اللغوية والرؤى البلاغية فيما يعرف بنظرية النظم، التي اختزلها في تعريفه الشهير "وما النظم إلا توخي معاني النحو في معاني الكلم"،⁴⁸ قاصدا بمعاني النحو ما يمكن تسميته بالنحو البلاغي حيث يتم تجاوز دائرة الصحة في استعمال الكلام إلى دائرة الفضائل والمزايا المؤسسة على حسن التلاؤم والتناسب بين المعاني والألفاظ، والاهتداء إلى ما يناسب المقام...

ومن نتائج هذه القرابة كثرة حديث البلاغيين عن العدول تحت مصطلحات متعددة، لعل أهمها "المجاز"، بمفهومه العام الدال على التجوّز في الكلام؛ بمعنى الخروج به عن معالمة. وقد فسّر به أبو عبيدة معظم الآيات المعدول بها عن أصلها في القرآن الكريم، وقبلها بما ثبت في أشعار العرب من العدول. وقد اقتدى به في هذا الصنيع جمع من العلماء كالفرّاء في كتابه "معاني القرآن"، وابن قتيبة في "تأويل مشكل القرآن". والمجاز، في الأصل، مصطلح من مصطلحات اللغويين، استعمله البلاغيون بمفهومه اللغوي في بادئ الأمر، قبل أن يستخلصوه للدلالة على ما يقابل الحقيقة، ويُحصر في نوعين كبيرين هما: المجاز اللغوي والمجاز العقلي، ويبقوا على مصطلح "العدول"، اللغوي الأصل هو

الآخر، للدلالة على الخروج بالكلام عن مظهره لنكتة بلاغية. وقد توسعت وشائج هذه القرابة إلى تبني البلاغيين تصور اللغويين لمفهوم الأصل، واعتماد طريقتهم في توليد الفروع من الأصول في ضوء قواعد توجيهية تسوّغ العدول وتفسره وتؤوله بشتى ضروب الرد والتخريج؛ يقول تمام حسان ملخصا هذا التوجه لدى البلاغيين: "ولعل من صور التكامل بين العلمين أن نرى علماء المعاني يقولون قبول تسليم أهم أصل من أصول النحو، وهو "أصل الوضع"، سواء كان هذا الأصل مرتبطا بنمط الجملة (والمقصود بنية الجملة في صورتها التامة التي تتضمن الذكر والإظهار... إلخ)، أم كان مرتبطا بالعلاقات الداخلية والقرائن الدالة على المعاني المفردة فيها. وأول ما قبلوه من ذلك أن الأصل في كل جملة أن يكون لها ركنان أساسيان لا بد منهما في تكوينها: المسند إليه والمسند. ثم ارتضوا أن الأصل في هذين الركنين أن يكونا مذكورين ظاهرين، لا محذوفين ولا مضميرين".⁴⁹ هذا بالإضافة إلى طائفة أخرى من الأصول الفرعية المتعلقة بأصل الوضع، كالقول بأن الأصل في المسند إليه أن يتقدم، وفي المسند أن يتأخر، وفي العامل أن يتقدم على المعمول، وغيرها مما أسهب في تفصيله البلاغيون المتأخرون على وجه الخصوص.

ولعل الفارق في التعامل مع الأصل المعدول عنه، أن اللغويين نظروا إليه كعامل ذهني مجرد يفرضه نظام اللغة، له سلطة التوجيه دون أن يكون له وجود فعلي، غايته رد الكلام المعدول إلى حضيرة اللغة نفيًا للتسبب والفوضى، في حين نظر إليه البلاغيون من خلال السياق الذي يتنزل فيه؛ فالعدول لا يحكمه أصل الوضع فحسب، بل والسياق أيضا وعلى وجه الخصوص، فشأن البلاغي "هو أن ينظر إلى الأصل اللغوي داخل السياق لا خارجه، أي في حالة التركيب لا في حالة الأفراد".⁵⁰ فإذا كان العدول عن أصل الوضع من الظواهر اللغوية التي تتجلى في الاستعمال الشائع، فإن العدول عن أصل الوضع منظورا إليه من خلال السياق لا يتحقق إلا حيث يطغى البعد الفني على الكلام، لأن مثل هذا العدول تتطلبه النكتة البلاغية التي عدل من أجلها عن الأصل؛ يقول ابن الأثير مشيرا إلى ما سبق بسطه: "اعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو ما لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز البلاغة والفصاحة، الذي اطلع على أسرارهما، وفقّش عن دفائنها، ولا تجد ذلك في كل كلام".⁵¹



تشير الدائرة المغلقة إلى محدودية الأصول، فهي تتشكل من مجموعة من القواعد المضبوطة نهائياً من قبل اللغويين. ويرمز السهمان المختلفان الاتجاه إلى العلاقة المتبادلة بين هذه الأصول والاستعمال الشائع؛ فالأصول مستنبطة من استقراء كلام العرب المطبوع بالفصاحة، وهو بدوره يشكل طرقاً من القول معدولة عن هذه الأصول، وهي طرق لا متناهية رُمز لها بانفتاح المجال الذي يحوي الاستعمال الشائع. وترمز الدائرة المفتوحة التي تحتضن الإبداع الأدبي إلى انفتاحه النسبي، على اعتبار أن مجال الإبداع، لا سيما الشعر، محكوم بجملة من القيود التركيبية والشكلية تحتم على من يرتاد مجاهله اللجوء إلى التوسع في المعنى، والترخص في اللغة، وما ذلك بالأمر اليسير، لأن مجال التوسع والترخص "ليس حرية مطلقة يتصرف بمقتضاها المتكلم في اللغة، إذ لا بد من البقاء في حدود ما تسمح به، مما لا ينقض علة وجودها ويعطل وظيفتها الأصلية".⁵⁶

هذه الطبيعة المعقدة للغة الإبداع - حرية داخل قيود - تعكس الانفتاح النسبي لمجال الإبداع، الذي رمزنا له بدائرة مفتوحة. ويشير السهمان إلى علاقة التبادل القائمة بين الإبداع الأدبي والاستعمال الشائع؛ فالإبداع عدول عن الاستعمال الشائع تفرضه القيود الفنية، والرغبة في التجاوز باللغة وظيفية الاتصال إلى وظيفة التأثير. وهو (أي الإبداع) يثيري الاستعمال الشائع بما يستحدثه من طرق القول، بعد اتساع دائرة استعمالها.

والمستنتج، مما سبق عرضه، أن حديث البلاغين عن الأصل كان يتراوح بين تبني منظور النحاة؛ فيقصد بالأصل المعدول عنه أصل الوضع أو أصل القاعدة. ونظير ذلك ما نجده عند المتأخرين في حديثهم عن الإسناد، حيث يكثر الكلام عن الحذف والذكر والتقديم والتأخير والإظهار والإضمار، وسائر ما يعتري أركان الإسناد من حالات؛ يقول المغربي في معرض حديثه عن حذف المسند إليه وذكره: "وأما ذكره فلكونه، أي الذكر هو الأصل، ولا مقتضى للعدول عنه ما لم تحضر نكتة ترجح الحذف"،⁵⁷ ويقول القزويني في أثناء كلامه عن تقديم بعض معمولات الفعل: "وتقديم بعض معمولاته على بعض

فالعدول المتحدث عنه - هاهنا - لا يوجد في الكلام العادي، لأنه عدول عن أصل الوضع وعن الاستعمال الشائع في آن واحد، ذلك أن البلاغة "على عكس النحو، تنطلق من الاستعمال الخاص وتجعل منه موضوع درسها. وهذا الاستعمال، بحكم مقاصده والمستوى الذي ينتزل فيه، ليس فعلاً لغوياً عادياً، إنه يقوم على طريقة مخصوصة في استعمال الوسيلة اللغوية، نعم إنه ينطلق من اللغة المشتركة ولكنه يؤديها بطريقة تجعل عمله الأدبي عملاً فردياً".⁵² ففي قول المتنبي:

نحن ركبٌ ملجئٌ في زِيِّ ناسٍ فوق طَيْرٍ لها شُخُوصُ الجمالِ⁵³

لم يحدث العدول عن الأصل اللغوي من حيث ما يعتري هذا البيت من تقديم وتأخير وحذف وإدغام فحسب، بل ومن حيث التشويش الذي أدخله الشاعر على الصورة الفنية، بتعمده عكس أركان التشبيه، إذ شبه الجن بالناس، والطير بالجمال، فنزل المشبه منزلة المشبه به، وأوكل للمشبه به وظيفة المشبه؛ أو بتعبير ابن جني: "جعل كونهم جنا أصلاً، وجعل كونهم ناساً فرعاً، وجعل كون مطايا طيراً أصلاً، وكونها جمالاً فرعاً، فشبه الحقيقة بالمجاز في المعنى الذي منه أفاد المجاز من الحقيقة ما أفاد".⁵⁴ فالعدول في هذا البيت عدول سياقي أملاه الحال المستوجب للمبالغة في هذا المقام، وهو ما توصل إليه ابن سنان الخفاجي، رغم رفضه فكرة القلب التي حمل عليها ابن الجني قول المتنبي؛ يقول ابن سنان: "ومراد أبي الطيب المبالغة على حسب ما جرت به عادة الشعراء، فيقول: نحن قوم من الجن لجؤنا الفلاة والمهامه والفقر التي لا تسلك، وقلة فرقتنا فيها، إلا أننا في زِيِّ الإنس، وهم على الحقيقة كذلك، ونحن فوق طير من سرعة إبلنا إلا أن شخوصها شخوص الجمال، ولا شك أيضاً في ذلك".⁵⁵

ومن التحليل السابق يتسنى القول أن تعامل البلاغين مع العدول لم يكن من منطلق أصل الوضع مباشرة، وإنما بوساطة الاستعمال الشائع؛ فالعدول بهذا التصور ثنائي التشكيل، فهو عدول عن الاستعمال الشائع أو الكلام العادي، الذي هو بدوره عدول عن أصول مفترضة جرّدها اللغويون للحفاظ على كيان اللغة، وإدخال النظام على مكوناتها ووظائفها. ولا يتوفر العدول الذي اعتد به البلاغيون ونظروا له إلا على مستوى الإبداع الأدبي. ويمكن تقديم هذه الرؤية للعدول عند البلاغين في الشكل التالي:

السكاكي مصطلح "متعارف الأوساط"، وعرفه، في معرض حديثه عن المعيار الذي يستعمل لقياس الإيجاز والإطناب، قائلاً: "أما الإيجاز والإطناب فلكونهما نسبيين لا يتيسر الكلام فيهما إلا بترك التحقيق والبناء على شيء عرفي مثل جعل كلام الأوساط على مجرى متعارفهم في التأدية للمعاني فيما بينهم، ولابد من الاعتراف بذلك مقيساً عليه، ولنسميه "متعارف الأوساط"، وأنه في البلاغة لا يُحمد منهم ولا يُذم".⁶²

فكلام الأوساط الخاضع لاعتبارات التواصل، والذي لا يُحمد ولا يُذم من وجهة نظر البلاغة، لأنه لا يرتقي سلم الفنية ولا ينحط إلى مستوى النعيق، ما هو إلا نعت للكلام حينما يكون في "الدرجة الصفر" بالمفهوم الأسلوبي الحديث. وقد أشاد أحد الباحثين المعاصرين بهذا التحديد الدقيق لمفهوم المعيار عند البلاغيين القدامى، والذي ينم عن إدراك عميق للصعوبات القائمة في وجه تقنين الظواهر الأسلوبية، قائلاً: "ويمكن أن نقول في غير صلف ولا ادعاء أن مفهوم "الدرجة الصفر"، وهو أحد أركان الأسلوبية اليوم، و"موضة من موضة" النصف الثاني من هذا القرن في دراسة الأدب، قد حدده البلاغيون العرب بدقة تنير الإعجاب".⁶³

خاتمة:

لقد أتضح مما سبق بسطه في هذه الدراسة أن مقولة العدول قد احتلت وما تزال، من خلال مصطلحات أخرى حديثة كالانزياح، مكانة مرموقة في المتصور التراثي العربي لتشكل اللغة وانبثاق الأسلوب منها. فاللغة في حد ذاتها هي تشكيلة من الوحدات المعجمية ونظام من البنى والعلاقات، يغلب على تكوينها الطابع العدولي، بعد أن عجزت الأصول المفترضة (أصل الوضع)، التي تأسست عليها في بدء نشأتها، عن الوفاء بالوظيفة التي من أجلها وجدت اللغة: التوصيل والتواصل. والأسلوب بدوره هو إبداع في اللغة يتكئ على العدول كآلية تتجاوز بها اللغة وظيفتها الأساسية المشار إليها سلفاً، لتتطلق في رحاب الإبداع الفني، الذي يصبو إلى التأثير في المتلقي واستمالة انفعالاته. ولا يكاد شيء يتغير في هذا الطرح عما نألفه في التناول المعاصر لظاهرة الأسلوب؛ فأساس الأسلوب، في أكثر النظريات حضوراً في حقل الأسلوبية، هو الانزياح باللغة، معجماً وأنظمة، عن معالمها وكسر المألوف من تراكبها وصورها.

لأن أصله التقديم ولا مقتضى للعدول عنه".⁵⁸ فاستعمالهم لمفهوم الأصل - هاهنا- لا يختلف عما لمسناه عند النحاة إلا من حيث الإشارة إلى النكتة البلاغية المبيحة للعدول.

وكان حديثهم عن الأصل في أحيان أخرى يتخذ من الاستعمال الشائع معياراً؛ فالأصل من هذا المنظور يُبحث عنه في الكلام لا في اللغة، في الملموس لا في المجرد، لذلك تجدهم- في هذا المقام- يستعملون، للدلالة على الأصل المعدول عنه مصطلحات كـ "أصل الكلام" و "أصل المعنى"؛ يقول السكاكي في معرض تحليله لمراتب العدول في الآية الكريمة (رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي) (آل عمران- الآية 4) : " والكلام في تلك اللطائف مفقور إلى أخذ أصل معنى الكلام ومرتبة الأولى، ثم النظر في التفاوت بين ذلك وبين ما عليه نظم القرآن، وفي كم درجة يتصل أحد الطرفين بالآخر، فنقول لا شبهة أن أصل معنى الكلام ومرتبته الأولى "يا ربي قد شخت...".⁵⁹

فمن كلام السكاكي وغيره، نفهم أنهم قصدوا بأصل الكلام وأصل المعنى، الكلام العُفْل المُشكَل من ألفاظ لا تتعدى دلالتها الوضعية، وتراكيب تخلوا من أي صبغة فنية، والمراد به تأدية معان لمجرد الإيصال لا غير، أو بتعبير السكاكي نفسه، الكلام الذي "لا يُفقر في تأديته إلى أزيد من دلالات وضعية وألفاظ كيف كانت ونظم لها لمجرد التأليف بينها يخرجها عن حكم النعيق".⁶⁰

إن البحث عن الأصل المعدول عنه، من خلال الطرح السابق، أوقع البلاغيين القدامى في الإشكال ذاته الذي وقع فيه الدرس الأسلوبي الحديث، ألا وهو صعوبة تحديد المعيار الذي يقاس في ضوئه العدول، أو بتعبير آخر، ما هو نوع الكلام الذي يتخذ معياراً؟ و يبدو أن هذا الإشكال قد لازم البحث البلاغي وأصبح حسب قول أحد الباحثين "من المشاغل المنهجية القارة في التفكير البلاغي عند العرب".⁶¹

لقد أثمرت جهودهم في هذا المجال تصور مستوى من الكلام كمعيار يُقَابَل به العدول، يشبه إلى حد بعيد ما اصطلح عليه في الدرس الأسلوبي الحديث بـ "الدرجة الصفر"؛ أي ذلك الكلام الذي لا يتعدى في وظيفته مجرد الإيصال، ولا يتجاوز في شكله رصف الكلمات دون اعتبار للجانب الفني التأثيري. هذا المستوى من الكلام الخالي من الأدبية أطلق عليه

الهوامش :

- 1- ينظر على سبيل المثال= لسان العرب- لابن منظور- م 11- ص 434، والقاموس المحيط- للفيروز آبادي- م 4- ص 14، ومقاييس اللغة - لابن فارس- م 4- ص 247 و 246.
- 2- ينظر على سبيل المثال= الكتاب- لسيبويه - تحقيق= عبد السلام محمد هارون، ص 99/1 و 211/1 وما بعدها، والخصائص - لابن جني - تحقيق = محمد علي النجار- ص 329/1 و 308/2.
- 3- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة و علوم حقائق الإعجاز - للعلوي- ص 96.
- 4- ينظر= التفكير البلاغي عند العرب- أسسه و تطوره إلى القرن 6هـ - لحمادي صمود- ص 103.
- 5- الكتاب- لسيبويه - ص 212/1.
- 6- دلائل الإعجاز- للإمام عبد القاهر الجرجاني- تحقيق و تعليق = الشيخ رشيد رضا- ص 275.
- 7- العدول- أسلوب تراثي في نقد الشعر- د. مصطفى السعداني- ص 16.
- 8- الخصائص- لابن جني- ص 446/2.
- 9- المصدر نفسه- ص 447/2.
- 10- شرح شنور الذهب في معرفة كلام العرب- لابن هشام الأنصاري- تحقيق: حنا الفاخوري- ص 276 و 277.
- 11- المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة- د. تمام حسان- مجلة فصول- م 7، ع 3-4، أبريل، سبتمبر- 1987- ص 28.
- 12- المرجع نفسه- ص 28.
- 13- ينظر= البيان في روائع القرآن- د. تمام حسان- ص 224.
- 14- الخصائص- ص 392/2.
- 15- العدول- أسلوب تراثي في نقد الشعر- ص 39، عن شرح كتاب سيبويه للصفار الفقيه- مخطوط بدار الكتب- الورقة 21.
- 16- الكتاب- لسيبويه - ص 26/1.
- 17- ينظر = الإنصاف في مسائل الخلاف- للأنباري - تحقيق = محمد محي عبد الحميد- ص 162 و 300 و 449.
- 18- الكتاب- لسيبويه - ص 272/3.
- 19- ينظر= الأسلوبية و الأسلوب- د. عبد السلام المسدي - ص 95 و 96.
- 20- مفتاح العلوم- للإمام أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي- ص 70.
- 21- المصدر نفسه - ص 33.
- 22- العدول(أسلوب تراثي في نقد الشعر)- د. مصطفى السعداني - ص 38.
- 23- الأصول(دراسة استمولوجية للفكر اللغوي عند العرب)- د. تمام حسان- ص 202.
- 24- المرجع نفسه - ص 135.
- 25- ينظر = المرجع نفسه - ص 179.
- 26- ينظر= شرح ابن عقيل- تحقيق = محمد محي الدين عبد الحميد- ص 240/1.
- 27- الإنصاف في مسائل الخلاف- للأنباري - المسألة 13- ص 87.
- 28- المصدر نفسه- المسألة 02- ص 20.
- 29- ينظر = الأصول - (دراسة استمولوجية للفكر اللغوي عند العرب)- د. تمام حسان - ص 240.
- 30- ينظر = الأصوات اللغوية- د. إبراهيم أنيس- ص 234.
- 31- ينظر = سر الفصاحة- لابن سنان الخفاجي- تحقيق = عبد المتعال الصعيدي- ص 48 و 54.
- 32- المصدر نفسه- ص 48.
- 33- المصدر نفسه- ص 49.
- 34- ينظر= نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز - للرازي- تحقيق= د. إبراهيم السامرائي و آخر- ص 59.
- 35- الأصول- (دراسة استمولوجية للفكر اللغوي عند العرب)- د. تمام حسان- ص 135.
- 36- ينظر= المرجع نفسه- ص 135.
- 37- ينظر المرجع نفسه- ص 136.
- 38- ينظر على سبيل المثال = الكتاب- لسيبويه - ص 1/20 و 23 و ص 1/35 و ص 4/229، والإنصاف- للأنباري - ص 162 و 514 و 534 و 735.
- 39- ينظر = الخصائص- لابن جني - ص 347/2.
- 40- قائله الفضل بن قدامه بن عبيد الله العجلي المكني بأبي النجم- ينظر = شروح التلخيص- ص 88 و 89.
- 41- ينظر = الأصول- د. تمام حسان - ص 136 وما بعدها.
- 42- ينظر= المرجع نفسه- ص 154.
- 43- ينظر على سبيل المثال = شرح ابن عقيل- لابن عقيل - ص 14/1.
- 44- التفكير البلاغي عند العرب- لحمادي صمود - ص 104.
- 45- الأصول - د. تمام حسان - ص 130.
- 46- مقالات في الأسلوبية- د. منذر عياشي- ص 235.
- 47- النحو و الدلالة- د. محمد حماسة عبد اللطيف- ص 10، عن كتاب "مفاهيم نقدية" لرنيه ويليك"- ص 431.
- 48- ينظر = دلائل الإعجاز- للإمام عبد القاهر الجرجاني - ص 72 و 235 و 289 و 336، على سبيل المثال.
- 49- الأصول- لحمادي صمود - ص 349 و 350.
- 50- الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم- د. عبد الحميد أحمد يوسف هندوي- ص 156.
- 51- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - لضياء الدين بن الأثير- ص 14/2.
- 52- العدول (أسلوب تراثي في نقد الشعر) - ص 48 و 49.
- 53- ديوان المتنبي- ص 122.

- 54- الخصائص- لابن جني - ص302/1.
- 55- سر الفصاحة- لابن سنان الخفاجي - ص106 و 107.
- 56- التفكير البلاغي عند العرب- لحماي صمود - ص104.
- 57- مواهب الفتح في شرح تلخيص المفتاح (ضمن شروح التلخيص)- ص 282/1.
- 58- التلخيص في علوم البلاغة- للإمام جلال الدين القزويني- شرح: عبد الرحمن البرقوقي- ص 135.
- 59- المفتاح- للسكاكي - ص 124.
- 60- المصدر نفسه - ص 70.
- 61- التفكير البلاغي عند العرب- لحماي صمود - ص 402.
- 62- المفتاح- للسكاكي - ص 120.
- 63- التفكير البلاغي عند العرب- لحماي صمود - ص 402.

منهج نقده الكبير في فكر ابن حزم الظاهري (ت 456هـ/1064م)

طاهر بن علي

قسم التاريخ جامعة غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000، الجزائر

توطئة:

اشتهر ابن حزم الظاهري (ت 456هـ/1064م) بتنوّع المعرفة، وكثرة التدوين، فهو الفقيه، والأصولي، والأديب، والفيلسوف، والمؤرخ، والسياسي. وفي كلّ فنّ من هذه الفنون التي أتقنها، التزم منهجا دقيقا في تحرير نصّه، أو إيراد خبره، أو بناء معرفته.

وكان نقد الخبر من أدوات المنهجية الأساسية حيث المعرفة عنده مبنية على الخبر عن الله، وهو الوحي المنزل قرآنا، أو عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو المجموع سنّة، أو عن اجتماع الناس، وهو المروي تاريخا.

ولقد أفرزت الدراسات الإسلامية مناهج في النظر إلى الخبر المنقول عن النبي لتبرز الصحيح منه والسقيم. كما حاولت تداول المروي عن حركة الإنسان في الزمان، بمعية جمعت بين التوسّع في الرواية لتشمل مناحي الحياة، والتشكيك في محمولها لتسلم الحقيقة فيها. وكان لابن حزم منهج في قبول الخبر أو رده، بسطه فيما كتب من مدونات، ورسائل.

مقومات الدراسات التاريخية عند ابن حزم الظاهري:

كان لروافد الثقافة التاريخية في الأندلس زخم كبير تجلّى في تنوّع الدراسات، وكثرة المدونات، ممّا جعل ابن حزم يتمتع بثقافة موسوعية أهّله لأن يكون مؤرخا⁽¹⁾. وأحدثت في فكره نزعة تاريخية، رافقته في كلّ مدوناته ومصنّفاته، الكلامية والفلسفية⁽²⁾، ممّا أضفى عليه صفة المؤرخ⁽³⁾.

وبحسب المؤرخ إلى التزوّد من معارف كثيرة تعينه على فهم الحادثة التاريخية، ووضعها في إطارها المحدّد لها، وكلّما اتسعت معارف المؤرخ، وغزرت ثقافته كان أكثر نجاحا في تفهم الحياة الماضية، ووضع الناحية التي تهّمه منها في إطارها الصحيح⁽⁴⁾.

وابن حزم كما قال ابن حيان "حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب، وما يتعلّق بأذيال الأدب، مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة"⁽⁵⁾. وقال عنه أبو حامد الغزالي: "وجدت في أسماء الله تعالى كتابا ألفه أبو محمّد بن حزم الأندلسي يدلّ على عظم حفظه، وسيلان ذهنه"⁽⁶⁾. وقال الذهبي: "الإمام الأوحّد، البحر، ذو الفنون والمعارف"⁽⁷⁾. وقال أيضا: "وكان إليه المنتهى في الذكاء، وحدة الذهن، وسعة العلم بالكتاب والسنة، والمذهب، والملل والنحل، والعربية والآداب، والمنطق، والشعر"⁽⁸⁾.

كما شهد له المعاصرون بسعة العلم، وكثرة المعارف، والتبحّر في الفنون⁽⁹⁾. ولقد حملت كتبه كلّ تحصيله ونظيره في هذه الفنون، وكونت مكتبة كاملة ومتنوعة. قال صاعد: "ولقد أخبرني ابنه الفضل المكنى أبا رافع أنّ مبلغ تآليفه في الفقه، والحديث، والأصول، والنحل والملل، وغير ذلك من التاريخ، والنسب، وكتب الأدب، والردّ على المعارضين، نحو أربع مائة مجلد"⁽¹⁰⁾.

ولا يمكن للموسوعية سواء في الثقافة التاريخية، أو في مجمل المعارف والفنون أن تكون فعّالة في بناء ذهنية مؤرخة إلا إذا شغفت بصفة الاتزان، إذ المؤرخ "من أشدّ العلماء تعرّضا للأهواء والنزعات"⁽¹¹⁾. وقد لازمت صفة الاتزان ابن حزم في كلّ محاولاته، سواء الفقهية، أو الفلسفية، أو الكلامية، أو التاريخية⁽¹²⁾.

بكلّ هذه الأدوات باشر ابن حزم دراسته التاريخية ليعطينا نظرة تجديدية في هذه الدراسات، التي تمثّل جانباً أساسياً في نظريته للمجتمع، وإلى طرح بديله الذي تشفع له قرارات النصّ الشرعي من الكتاب والسنة، والنصّ التاريخي من حركة الإنسان في الزمان والمكان، فالنصّ التاريخي متمم للنصّ الشرعي، الذي جاء ليثبت فيه، ومن خلاله ليتحرّك الإنسان وفق منهج ربّاني.

نقد السند في منهج ابن حزم :

الحادثة، أو ردّها عند ابن حزم، الذي يشدد كثيرا في تقبل الخبر، ولا يستتفد إذا انس ضعفا سواء على الطريقة التي أثبتتها أهل الحديث، أو على طريقته هو، أن يردّ الخبر، فيتعقب في ذلك الرجال بالضعف، ويلبسهم رداء الجرح⁽²⁴⁾. وقد خالف في ذلك كثيرا من رجال الجرح والتعديل، حتى تعقبوه في ما أخطأ من نقد الرجال، وتجرّد له حفاظ ليستذكروا عليه التشدد في جرح من أثبتت عدالتهم عند غيره⁽²⁵⁾.

ومهما يكن من أمر فقد أمده علم الحديث بالمنهج الذي يتحقق به سند الخبر، وجعله من بنيات فكره، ومن أساسيات طريقته، وهو يتفحص الحادثة التاريخية⁽²⁶⁾، التي ينصبها للاستشهاد، أو يعرضها للدراسة والمثال، أو يثبتها للتاريخ.

إن علم التاريخ هو نقل في جوهره... ومهمة المؤرخ شبيهة بمهمة المحقق الذي يستتطق الشهود، ويجمع شهاداتهم وينقدها في سبيل استجلاء ما حدث. وهي شبيهة بمهمة القاضي من حيث أنه يأخذ الشهادات والروايات بالشك المتحفظ ليفصل فسادها عن صحيحها... وكلّ نصّ مشكوك فيه إلى أن تثبت صحته، وكلّ رواية متهمّة إلى أن يقوم الدليل على براءتها⁽²⁷⁾.

فالتعامل في الكتابة التاريخية لا يكون إلا مع النصّ التاريخي وحده، فلا إضافات قسرية، أو أحكام، أو تصوّرات مسبقة، ولا تزييف للواقعة التاريخية، أو قطعها، أو بترها لإرغامها على الانسجام مع هذا الرأي، أو تلك الوجهة... النصّ وحده، وليس غير النصّ حكما في البحث التاريخي، إذا ما أريد له أن يكون علميا جادا⁽²⁸⁾.

ولم يكن منهج التحقيق في السند، وتقييم الرجال من حيث قوّة الرواية أو ضعفها كافيا في نظرية ابن حزم إلى التاريخ، فالنصّ بعد إثباته يحتاج إلى نظر، وفحص، ونخل. والمحتوى في الرواية مهمّ مثل سندها، فليست كلّ رواية صحيحة السند صحيحة المحتوى والمتمن. وعلى هذا سار منهج بعض العلماء المحققين الذين يتناولون النصّ وثيقة مفتوحة على نقد ظاهري، وآخر باطني، ولا تستقيم الحادثة بمجرد ورود الخبر، بل حتى يصدق الخبر في طريقة وصوله، وفي محرّر منقلبه.

نقد المتن في منهج ابن حزم :

والنظر في النصّ من حيث محتواه لتأسيس النظرة إلى التاريخ، وبنائه على هيئته التي حدث بها، وإدراك الماضي ثم إحيائه⁽²⁹⁾، واستدعائه من أجل الشهادة على العصر بحضوره - فالتاريخ ذو حضور دائم، وبعبارة "بندتو كروتشي": "عبارة عن تاريخ معاصر"⁽³⁰⁾. كلّ ذلك يدخل ضمن دور المؤرّخ في التعامل مع الخبر، وتفعيله في الكتابة التاريخية.

وابن حزم الذي أسلمه البحث الطويل إلى يقين منهجي، هو منهج الظاهرية⁽¹³⁾، لم يكن ليرجع عنه، بل انتهجه، وجادل من خالفه، وناقح عن أصوله واجتهاداته، ووضع الكتب في بسطه، وثبت عليه، وجعل منه نزعة الاجتهادية، والتجديدية في تناول كل جوانب المعرفة.

والظاهرية تقوم أساسا على النقل⁽¹⁴⁾ الذي يستوجب الإكثار من السنن والنصوص⁽¹⁵⁾، إذ لا تقوم حجة، ولا تستقيم معرفة بدون نقل، فأصل كلّ ذلك "حدثنا"، و"أخبرنا".

والسنن والنصوص ليست على إطلاقها، بل لها منهج خاص في دراستها، هو منهج أهل الحديث، الذي يقوم على الجرح والتعديل في نقد سند الراوي للنص⁽¹⁶⁾. والخبر التاريخي يخضع لهذا المنهج عند ابن حزم، فالتحقيق في الخبر التاريخي، مثل التحقيق في النصّ الشرعي.

وهذا المنهج اعتمده كثير قبل ابن حزم، مثل ابن إسحاق (ت151هـ/768م)، والطبري (ت310هـ/922م)، وابن الفريسي (ت403هـ/1012م)، فكلّ هؤلاء اعتمدوا أسلوب التحقيق العلمي الدقيق عن طريق العنونة المتصلة، أو حدثني، وحدثنا فلان عن فلان⁽¹⁷⁾.

فالطبري في نقده على طريقة المحدثين⁽¹⁸⁾ يصبّ تمحيصه وتأنيده على الإسناد، أي سلسلة الرواة⁽¹⁹⁾. وقيمة الروايات في نظر الطبري تعتمد على قوّة أسانيدها، وكلّما كان السند أقرب إلى الحادثة كان أفضل.

"وقد تتأثر الروايات بعوامل مختلفة مثل الذاكرة، والميول، والرغبات وغير ذلك، ولا يمكن الجزم بسلامتها ودقتها بصورة قاطعة، حتى بعد نقدها وتمحيصها، وهذا ما يجعل الرأي أو الحكم الفردي غير مأمون، وقد يكون مربكا، ولذلك يكفي نقل الروايات ممّن يوثق بهم من الرواة والمؤرخين، والعهد في صحتها عليهم"⁽²⁰⁾. لذلك قال في مبتدأ تاريخه: "وليعلم الناظر في كتابنا هذا أنّ اعتمادي في كلّ ما أحضرت ذكره فيه، ممّا شرطت أنّي راسمه فيه، إنّما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أدرك بحجج العقول، واستنبط بفكر النفوس"⁽²¹⁾.

وعلى هذا النحو سار ابن حزم وصدر رسالته "حجة الوداع"، بقوله: "ولم نفتحم الحكم في ما لم نقف على بيانه، ولا جسرنا على القطع فيما لم يلح لنا وجهه، ولا قضينا فيما لم نشرف على حقيقته، وما حكمنا بالرأي، فمعاذ الله من هذه الخطة"⁽²²⁾.

إنّ الخبر هو الدعامة الثانية بعد القرآن في المذهب الظاهري، وذلك يستوجب نقلا دقيقا من أجل تقبله، ومعرفة عميقة بالرجال ومذاهبهم⁽²³⁾، حتى يستقيم سندهم، وتقوم الثقة بهم، ويستقرّ الخبر منهم في إثبات

نقد سند الرواية، ولا يختلف هذا عن ذاك قيمة وتطبيقاً. ولقد أعطانا ابن حزم دليلاً يقعد لهذه النظرة بتطبيقها على حديث نسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول: "إن علم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر" فقال ابن حزم فيه "وقد أقدم قوم فنسبوا هذا القول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم... وهذا باطل ببراهين، أحدهما أنه لا يصح من جهة النقل أصلاً⁽³⁶⁾، وما كان هذا فحرام على كل ذي دين أن ينسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، والثاني أن البرهان قد قام على أن علم النسب علم ينفع، وجهل يضّر في الدنيا والآخرة"⁽³⁷⁾.

ثم بدّل بالبراهين العقلية على صحة قوله، ويجرد الأدلة لذلك فيجعل من بينها معرفة النسب الهاشمي للرسول صلى الله عليه وسلم⁽³⁸⁾، ومعرفة نسب المتحضر للخلافة إذ لا تجوز إلا في ولد فهر⁽³⁹⁾، ومعرفة أسماء أمّهات المؤمنين المفترض حقهن على جميع المسلمين⁽⁴⁰⁾، ومعرفة أنساب الأنصار الذين أوصى بهم الرسول صلى الله عليه وسلم⁽⁴¹⁾، ثم التفرقة بين أخذ الجزية والاسترقاق، بين العرب وبين العجم⁽⁴²⁾.

وفي إعمال النظر في فحوى الخبر، يختلف ابن حزم عن الطبري، فالطبري يتجنب إعطاء حكم، ويندر أن يفضل رواية على أخرى، مادام قد أورد روايات مقبولة⁽⁴³⁾، وأراد أن يصنف كافة الروايات التاريخية العربية في كتابه⁽⁴⁴⁾، بينما ابن حزم يحكم على الخبر، ويدلي فيه بنظره، إلا ما كان متعلقاً بفتوى شرعية، أو سيرة نبوية، فإن ذلك يستدعي تقبل الخبر، كلما صح وروده⁽⁴⁵⁾.

ولقد أمكنه الاشتغال بالمنطق والفلسفة وهي علوم عقلية، من أن يتكوّن له ذلك الخيال الذي يسمونه صابون التاريخ⁽⁴⁶⁾، والذي يضيف على العمل التاريخي وزنه وأهميته، ويتيح للمؤرخ أن ينظر للحادثة التاريخية من زوايا متعددة ومختلفة⁽⁴⁷⁾، ويجعله أقر على القياس والمقاييس⁽⁴⁸⁾.

هذه الزوايا المختلفة لا تتيحها النظرة العقلية المجردة، بل تتيحها النظرة العقلية المتروّدة بالمعارف والعلوم المختلفة، خصوصاً التي لها علاقة بالتاريخ الإنساني، والتي نستطيع من خلالها أن نقبل حادثة أو نردّها، وأن نفسر الظاهرة تفسيراً لا يتنافى مع طبيعة الحركة الإنسانية.

فالحادثة وتفسيرها وربطها بما قبلها وما بعدها تستدعي أن يكون للمؤرخ استعداد لإدراك مقومات النفس البشرية جميعها: روحية، وفكرية، وجبوية، ومقومات الحياة البشرية جميعها: معنوية ومادية. وأن يفتح روحه، وفكره، وحسه للحادثة، ويستجيب لوقوعها في مداركه، ولا يرفض شيئاً من استجاباته لها

وهذا يستدعي أفقا واسعا من المعارف، وإماما بالعلوم التي تساعد المؤرخ على ندف الخبر، حتّى يهيئه لعملية تركيب الماضي تركيباً مناسباً للحقائق⁽³¹⁾، ومتناغماً مع حركة الإنسان وتطوّره، وتفاعله مع كلّ حيثيات الوجود.

وقد أتيج لابن حزم أن تتوازي عنده نظرة أهل الحديث في تقبل الخبر مع نظرة أهل الفلسفة والمنطق، التي تنظر إلى الخبر في مضمونه، وتحكم العقل فيه، وتقبله أو ترفضه على أساس عقلي⁽³²⁾.

فالخبر بعد التثبت من صحّة ورود، هو مادّة خام، فإنما تحمّل الحق، أو تحمّل الباطل⁽³³⁾، ولا بدّ من النظر في ذلك والتفريق بينهما، إمّا لدفع الباطل وتكذيبه، وإمّا لقبول الحق واعتناقه. ولا يمكن ذلك إلا بالنظر العقلي. قال ابن حزم: فلم يبق إلا أن من الخبر حقاً وباطلاً. فإذا كان ذلك بطل أن يعلم صحّة الخبر بنفسه، إذ لا فرق بين صورة الحقّ منه وصورة الباطل، فلا بدّ من دليل يفرّق بينهما، وليس ذلك إلا لحجّة العقل والمفرقة بين الحق والباطل⁽³⁴⁾.

وهكذا نتبيّن النظرة التجديدية في مشروع ابن حزم الذي يرسم للأمة منهجاً اجتهادياً يقوم على العقل وتفعيله في كلّ نواحي المعرفة، وما الظاهر الموجود في العلوم الشرعية خاصّة، إلا جزء من هذا المنحى، إذ هو نفي لكلّ القوالب المتحجرة التي فرضتها عصور التقليد، وتفاعل مع النصّ بالعقل المفرّق بين الحق والباطل على حدّ تعبيره.

وقد التبس على بعض العلماء هذا المنهج فلم يستطيعوا أن يضعوه موضعه من الاجتهاد والتجديد، ولم يدركوا المقصد في التعامل مع المعرفة في ازدواجية -الظاهر واستخدام العقل- وحسبوا من مثالب ابن حزم، في حين أننا نراها أساس التجديد.

ومن بين هؤلاء العلماء: ابن كثير الذي قال فيه "والعجب كلّ العجب منه أنّه كان ظاهرياً حائراً في الفروع، ولا يقول بشيء من القياس لا الجلي ولا غيره، وهذا الذي وضعه عند العلماء، وأدخل عليه خطأ كبيراً في نظره وتصرفه، وكان مع هذا من أشدّ الناس تأويلاً في باب الأصول، وآيات الصفات وأحاديث الصفات، لأنّه كان أولاً قد تزلّع في علم المنطق⁽³⁵⁾."

إن كلّ الذين درسوا ابن حزم بنظرة فقهية أصولية، أو رؤية فقهية مذهبية، أعشوا أعينهم عن رؤية هذا المنهج التجديدي في فكر ابن حزم، ومنعوا أنفسهم من أن ترقى لفهمه وإدراكه، ثمّ جعله في الثورات التجديدية، التي طبعت التاريخ الإسلامي منذ ظهور الرسالة المحمّدية.

إنّ تحكيم العقل في طبيعة الخبر من أدوات ابن حزم في قبول الخبر أو رده، تماماً كما هو الشأن في

ملاحح السراب التي تلقت بها الروايات من جرّاء سوء النقل، أو من جرّاء التدليس الإيديولوجي، والعقدي.

لذلك جرّد ابن حزم له كلّ معارفه، واستخدم بعض دراساته مثل الجغرافيا، التي حصلها بقراءته لكتب الرّحّالين، والجغرافيين⁽⁵⁶⁾. والاقتصاد الذي لم يدرسه دراسة معمقة إلا أنّه جعله قاعدة لفهم التاريخ، ومناقشة الروايات التاريخية⁽⁵⁷⁾. ثمّ أضاف إلى ذلك معرفته بدولة الحكم، والعلاقات السياسية⁽⁵⁸⁾. فكلّ رواية تحتاج إلى ما يناسبها من نقد، وتحليل.

نقد ابن حزم للروايات اليهودية :

وبهذا المنهج من النقد التاريخي انبري ابن حزم لنقد اليهود الذين أسسوا تاريخهم على الأكاذيب، ليبنوا ماضيا أسطوريا عجيبا، إيماناً منهم أنّ الأسطورة تمدّ التاريخ والخيال، وتصدّم الحاضر بلا واقعية التاريخ، الذي يهدف اليهود إلى احتواءه.

ومن هذه الروايات الكاذبة إحصاء اليهود المهول لبني إسرائيل الخارجين من مصر، وبني إسرائيل في عهد داود عليه السلام، قال ابن حزم: "وفي السفر الرابع ذكر أنّ عدد بني إسرائيل الخارجين من مصر القادرين على القتال خاصّة من كان ابن عشرين سنة فصاعدا كانوا ستمائة ألف مقاتل وثلاثة ألف مقاتل وخمسمائة مقاتل وخمسين مقاتلا، وأنّه لا يدخل في هذا العدد من كان له أقلّ من عشرين، ولا من يطبق القتال، ولا النساء جملة، وأنّ عددهم إذا دخلوا الأرض المقدسة ستمائة ألف رجل وألف رجل وسبعمئة رجل وثلاثون رجلا. لم يعدّ فيهم من له أقلّ من عشرين سنة، وأنّ على هؤلاء قسمت الأرض المفتوحة وعلى النساء، وعلى كلّ من دون العشرين أيضا"⁽⁵⁹⁾.

ثمّ أرفف "وفي كتبهم أنّ داود عليه السلام أحصى في أيامه بني إسرائيل فوجد بني يهوذا خاصّة خمسمائة ألف مقاتل، ووجد التسعة الأسباط الباقية. حاش بني لاوي، وبني بنيامين، فلم يحصهما، ألف ألف مقاتل غير ثلاثين ألف سوى النساء، وسوى من لا يقدر على القتال من صبيّ، أو شيخ، أو معذور، وكلّ هؤلاء إنّما كانوا في فلسطين، والأردن، وبعض عمل الغور فقط. والبلد المذكور بحالته لم يزد بالاتساع ولا نقص. وفي كتبهم أيضا أنّ إيبيا بن رجبعم بن سليمان بن داود عليه السلام قتل من العشرة الأسباط من بني إسرائيل خمسمائة ألف رجل، وأنّ ابنه انتيا بن إيبيا كان معه من بني يهوذا خاصّة ثلاثمائة ألف مقاتل، ومن بني بنيامين خاصّة اثنين وخمسين ألف مقاتل"⁽⁶⁰⁾.

وأدرك ابن حزم أنّ اليهود يريدون احتواء التاريخ والأرض بتضخيم عددهم، فراح يفنّد كلّ ذلك بالمعارف الجغرافية، ومبادئ الإحصاء، فقال: "البلد المذكور باق لم

إلا بعد تحرّ، وتمحيص، ونقد"⁽⁴⁹⁾.

وهذا لا يتأتّى إلا بالتزوّد الواسع من المعارف والعلوم، مثل الجغرافيا، وعلم السياسة، وعلم الاجتماع، وغيرها⁽⁵⁰⁾، والتي تمنح المؤرّخ ما يحتاج إليه من وسائل، وتؤسّس للتصوّر الصحيح، والنقد الدقيق⁽⁵¹⁾.

وابن حزم لم يعدم هذا، بل حصله واستخدمه، وجعل منه منهاجا في ردّ روايات تاريخية، ومزاعم لأهل الملل، اتخذوها من مسلمات التاريخ، وأسّسوا بها لمنهج عقدي. وكانت الجغرافيا، والاقتصاد، والإحصاء من أدواته التي أقضّ بها تلك المزاعم.

وبهذا انتظم لابن حزم منهج النقد التاريخي الذي هو معرفة الصحيح من الزائف، الذي طبّقه في كتاباته بكلّ أمانة، والتزمه بنية من بنيت فكره، تتفاعل مع الخبر، وتتمتّع بالحضور في كلّ إشارة، حضورا آليا، وهذا ما لم يستطعه ابن خلدون فيما بعد، حينما وضع لنا نظرية النقد، ولكن لم يستحضرها في تاريخه⁽⁵²⁾.

وظلّت هذه النزعة ترافقه حتّى في مصنّفاته الكلامية والفلسفية. ولم تخل معظم رسائله ومؤلفاته من الإشارات التاريخية ذات المغزى، فالمنهج التاريخي سمة من سمات التأليف العلمي. و"حتّى في الميادين التي تبدو بعيدة عن اهتمام المؤرّخ، كالعلوم الطبيعية مثلا، نجد الباحث فيها بسبب تقصّيه حقائق ما فعله الآخرون في الماضي قادرا أحيانا أن يلقي ضوءا على تجارب يمكن أن تعاد من جديد، وإمّا أن تعدّل إذا كانت عميقة. كما تبرز هذه القيمة لهذا المنهج التاريخي، في ميادين أخرى، كالقانون، وعلم اللاهوت، والفلسفة، والأدب، والفن، والعلوم الاجتماعية، والبيئة التاريخية، والمقاييسات الماضية... فالتاريخ بلا شكّ هو التجربة المدوّنة للجنس البشري، والإنسان يستطيع أن يستفيد من التجربة في أيّ ميدان من ميادين المعرفة... فالمنهج التاريخي هو بالفعل ذو أهميّة خاصّة بالنسبة للمؤرّخ"⁽⁵³⁾.

وبهذه النزعة، وبهذا المنحى الذي تنبّاه ليكون منهاجا للتفكير، ومنهاجا للكتابة، استطاع ابن حزم أن يسبق عصر الاستنارة، الذي استخدم هذه النزعة لتحقيق أهدافه التنويرية، والتجديدية⁽⁵⁴⁾.

وسبق القرن التاسع عشر، الذي اعتبر قرن الاتجاه التاريخي، الذي قدّم علم التاريخ في صورة جديدة⁽⁵⁵⁾. ففلسفة التاريخ إنّما قامت على المنهج التاريخي المرافق للمعرفة، والمتراكم في مناحي التفكير العديدة، الطبيعية، والإنسانية.

ولا تقوم فلسفة التاريخ إلا إذا قام النقد التاريخي الذي ينفي عن التاريخ هيمنة الأسطورة، ويمنحها حجمها الضروري للتلاحم معه، ويطرّد عن صورته

في كل المؤثرات الداخلية والخارجية التي تتحكم في مسيرته.

ومن هذه المؤثرات التي تتحكم في الإنسان، مؤثرات البيولوجيا، حيث أن لها قوانينها التي تتحكم فيها، والتي لا تسمح في زمن يقارب القرنين أن يتوالد بضع وخمسون رجلا حتى يصير عددهم بالآلاف التي ذكرها اليهود. فلملح ابن حزم في نقده هذا مقارنة بعلم البيولوجيا، واستخدام للعقل في حيثيات الرواية التاريخية.

ثم يؤكد هذه المقاربة بتأكيد قوانين البيولوجيا من خلال النظر في الإنسان وأحواله فيقول: "وقد شاهدنا الناس، وبلغتنا أخبار أهل البلد البعيدة، وكثر بحثنا عما غاب عنا منها، ووصلت إلينا التواريخ الكثيرة المجموعة في أخبار من سلف من عرب وعجم في كثير من الأمم، فما وجدنا في ذلك المعهود من عدد أولاد الذكور في المكثرين الذين يتحدث بهم عند كثرة الولد إلا من أربعة عشر ذكرا فأقل، وأما ما زاد في العشرين فنادر جدا. هذه الحال في جميع بلاد أهل الإسلام، والذي بلغنا عن ممالك النصرى إلى أرض الروم، وممالك الصقالية، والترك، والهند، والسودان قديما وحديثا. وأما الثلاثون فأكثر مما بلغنا ذلك إلا عن نفر يسير عمن سلف" (71).

ومن خلال نصّه هذا نلاحظ جيّدا كيف يؤكد مقاربته في نقده بالمعرفة البيولوجية، ومقدار معارفه حول الشعوب والأجناس، وكلّ شعب وكلّ جنس له خصائصه التي يميّز بها عن الآخر، كما أن له أوجه التشابه بينه وبين الآخر كذلك. ومن إدراك كلّ ذلك تأتي النظرة الصائبة في التاريخ، والتأسيس عليه.

ولا يتعدّ ابن حزم هذه المسألة حتى يتفحصها بالنقد من كلّ الجوانب، وربما اجتمعت معارف عديدة في عبارة واحدة، مثل اجتماع النظرة الاجتماعية إلى النظرة البيولوجية في مثل قوله: "وقد علم كلّ من يميز بين الرجال والنساء، أن الكثرة الخارجة من الأولاد لم توجد في العالم لصعوبة الأمر في تربية أطفال الناس، ولكون الإسقاط في الحوامل، وإبطاء حمل المرأة بين بطن وبطن، ولكثرة الموت في الأطفال. فهذه أربع عوارض قواطع دون الكثرة الخارجة في الأولاد للناس، ثم كون الإناث في الولادات أيضا" (72).

وبمضي ابن حزم في نقده بتفحص الرواية فحصا دقيقا فينظر في معاشهم ومهنهم، ويربط كلّ ذلك بالأرض على نهج الجغرافيا الاقتصادية اليوم (73)، وينفي كلّ ذلك العدد من خلال ذكر مواشيهم، ومن خلال مهنهم، أي من خلال منظور اقتصادي بحت، فيقول: "وثانية فهي أن في توراتهم أنهم كانوا ساكنين في أرض قوس فقط، وأن معاشهم كان من المواشي فقط. وذكر في توراتهم أنهم خرجوا من

ينقص، ولا صغرت أرضه، وحده بإقرارهم في الجنوب غزة، وعسقلان، ورجح، وطرف من جبال الشراة بلد عيسو، ولا خلاف بينهم في أنهم لم يملكو قط قرية فما فوقها من هذه البلاد... وحدّ ذلك البلد في الغرب البحر الشامي، وحده في الشمال صور، وصيدا، وأعمال دمشق التي لا يختلفون في أنهم لم يملكو منها مضرب وتد... وحدّ البلد المذكور في الشرق بلاد مواب، وعمون، وقطعة من صحراء العرب التي هي الفلوات والرمال" (61).

وأحصى البلاد مسافة الطول والعرض بالأُميال (62)، ليدلّل أن هذه البلاد تضيق على أهلها المذكورين عند اليهود. إن مبدأ الثقافة السكانية التي هي من جغرافية السكان لا تحتل هذا، بل تكذب (63). وبها تقوم القرينة على فساد الرواية التي لا سبيل للجرح في نقدها الظاهري، حيث أنها ليست من مرويات الأمة التي يعرف رجالها.

ثم ذكر بعض الخصائص الطبيعية للبلاد فقال: "وكان هذا العمل بشرقي الأردن يزعمهم وقع لبني رعوبيين، وبني جاد، ونصف بني منسى بن يوسف عليه السلام، لأنه كان يصلح لرعي المواشي، وكانوا هؤلاء أصحاب بقر وغنم" (64).

وهكذا يتبين له أن المنطقة تضيق جغرافيا بهذا العدد المهور. فيقول "وهذا المحال الممتنع أن تكون المسافة المذكورة تقسم أرضها على عدد يكون أبناء العشرين منهم فصاعدا خاصة أزيد من ستمائة ألف" (65). ويتساءل: "فأين من دون العشرين، وأين النساء، والكلّ يزعمهم أخذ سهمه من الأرض المذكورة ليعيش من زرعها، وثمرها" (66).

ثم يبين استحالة المعاش لكلّ تلك الأعداد في تلك المساحة بقراها ومزارعها، ويبين كذب اليهود في كتاب يوشع من ذكر المدن التي وقعت في سهم كلّ طائفة، ثم يقول بعد ذلك: "فأعجبوا لهذه الشهرة أن تكون البقعة التي ذكرنا مساحتها على قلّتها وتفاقتها تكون فيها هذه المدن... ما رأيت أقلّ حياء من الذي كتب لهم تلك الكتب المردولة" (67).

وبمضي ابن حزم في تفنيد أكاذيب اليهود في تضخيم عددهم الذي جاءت به توراتهم، واستعرضوها في تاريخهم، ويردّف كلّ ذلك بقوله: "فيا للناس كيف يمكن أن ينتاسل من ولادة واحد وخمسين رجلا فقط، في مدة مائتي عام وسبعة عشر عاما فقط، أزيد من ألفي ألف إنسان، هذا غاية المحال الممتنع" (68).

دور المؤثرات في مقارنة ابن حزم النقدية للخبر:

إن هذا النقد مؤسس على نظرة ابن حزم في الإنسان عامّة، إذ التاريخ كما أسلفنا نظرة في الإنسان (69)، ووضعه في حيّزه الاجتماعي (70)، والنظرة

مسقط النيل إلى بيت المقدس نحو عشرة أيام صحاري ومفاوز، وألف ألف مقاتل لا تحملهم إلا البلاد المعمورة الواسعة، وأمّا الصحاري الجرد فلا. ثم في مصر جميع أعمال مصر، فكيف يخطوها إلى بيت المقدس، هذا ممتنع في رتبة الجيوش وسيرة الممالك. ومن البعيد أن يكون عند ملك السودان حيث يتسع بلادهم، ويكثر عددهم اسم بيت المقدس، فكيف أن يتكلفوا غزوها، لبعد تلك البلاد عن النوبة. وأمّا بلد النوبة والحبشة والبجاة فصغير الخلطة، قليل العدد. وإنما هي خرافات مكذوبة باردة⁽⁸⁴⁾.

ويظهر من ردود ابن حزم كيف أنه يستخدم كلّ معارفه حول الجغرافيا، وحول طبيعة السكان، وما يعتري الإنسان في معاشه. بل إنه يستخدم العلاقات السياسية⁽⁸⁵⁾ دليلاً على بطلان هذه الروايات، ويبيّن زيفها ووضعها، بل يستخفّ بمن كتبها. وغير هذه الروايات كثيرة مبنوثة في كتابه "الفصل"⁽⁸⁶⁾.

واقضت الدقة من ابن حزم أن يقدم لنا لفظة ممتازة من لفتات المنهج العلمي الرصين، كما يقول عبد الحليم عويس⁽⁸⁷⁾، حينما وصف لنا نسخة التوراة التي اعتمد عليها، وذلك مثلما نفعه اليوم في البحوث الأكاديمية، وقال أنها تتكون من سبعة وخمسين فصلاً⁽⁸⁸⁾، وأنها تقع في مائة ورقة وعشرة أوراق، وفي كل صفحة منها ثلاثة وعشرون سطراً إلى نحو ذلك، بخط هو إلى الانفساح أقرب، يكون في السطر بضع عشرة كلمة⁽⁸⁹⁾.

خاتمة:

وبهذا المنهج في النقد التاريخي، سبق ابن حزم ابن خلدون، ومده بالفكرة والمادة التي تقوم عليها نظريته في النقد التاريخي. ونذهب كما ذهب الدكتور عبد الحليم عويس من أن ابن خلدون قد "تتلمذ على ابن حزم في نقده للرواية التاريخية، وبيان ما بها من جانب أسطوري "ميثولوجي"، وبيان تناقضها مع قواعد العقل، ومع الحقائق المشاهدة، ومع الحقائق الجغرافية"⁽⁹⁰⁾.

بل إن "المقدمة" التي بينت ما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام، اقتبس فيها ابن خلدون من كتاب الفصل لابن حزم هذه المغالط، واقتبس معها منهج النقد الذي بسطه ابن حزم هناك⁽⁹¹⁾. والناظر في الفصل وفي المقدمة، يتبين له ذلك بجلاء⁽⁹²⁾، ويرى كيف أسس ابن حزم لنظرية ابن خلدون في النقد التاريخي، التي زخرت بها مقدمته.

ومجمل القول في النقد التاريخي عند ابن حزم، إنّما يتأتى التحريف والتصحيف من نقص العدالة في نقل الأخبار، وانعدام المنهج في قبول الخبر وردّه. فأما العدالة فقد وضع المسلمون منهاجاً دقيقاً في قبول الخبر التاريخي، وطبقوا عليه ما أبدعه

مصر، خرجوا بجميع مواشيهم، فاعجبوا أيّها السامعون وتفكروا ما الذي يكفي ستمائة ألف وثلاثة آلاف، لم يعدّ فيهم ابن أقلّ من عشرين سنة، سوى النساء، للقت والكسوة من المواشي، ثمّ اعلّموا يقينا أنّ أرض مصر كلّها تضيق عن مسرح هذا المقدار من المواشي، فكيف أرض قوس وحدها... لقد كان الذي عمل لهم هذه الكتب الملعونة المكذوبة، ضعيف العقل، قليل الفكرة فيما يطلق به قلمه⁽⁷⁴⁾. ويقول: "وثالثة أنه ذكر في توراتهم أنّهم كانوا كلّهم يسخرون في عمل الطوب، وتالله إنّ ستمائة ألف طوآب لكثير جداً، لاسيما قوس وحدها"⁽⁷⁵⁾.

وبالمنهج نفسه، وبحقائق الجغرافيا يبطل ابن حزم مزاعم أخرى لليهود في توراتهم، مثل القول بأنّ هناك نهراً "يخرج من عدن فيسقي الجنان، ومن ثمّ يفرق فيصير أربعة رؤوس. اسم أحدهما النيل، وهو محيط بجميع بلاد زويله الذي به الذهب، وذهب ذلك البلد جيّد، وبه اللؤلؤ، وحجارة البلور. واسم الثاني جيحان، وهو محيط بجميع بلاد الحبشة. واسم الثالث دجلة، وهو السائر شرق الموصل. واسم الرابع الفرات، وأخذ الله آدم وجعله في جنات عدن"⁽⁷⁶⁾.

فيردّ عليه ابن حزم بقوله: "وكلّ من له معرفة بالهيئة، وينصبه الربع المعمور في الأرض الذي هو في شمال الأرض، أو من مشى إلى مصر، والشام، والموصل، يدري أنّ كلّ هذا هو كذب فاضح"⁽⁷⁷⁾. ثمّ يذكر مخارج هذه الأنهار "ويبين بدقّة منبع كلّ نهر"⁽⁷⁸⁾. وينكر أن يكون اللؤلؤ جيّد ببلاد زويله، "إنّما اللؤلؤ في مغاصاته في بحر فارس، وبحر الهند والصين"⁽⁷⁹⁾.

وكثيرة هي الروايات في التوراة التي يردّ عليها ابن حزم بما تكوّن لديه من سعة الاطلاع، وخبرة بالإنسان، وأحوال العمران الإنساني، وصحة في التصور، ودقّة في النقد⁽⁸⁰⁾. مثل الرواية التي تزعم أن جبابة سليمان عليه السلام كانت ستمائة ألف قطار، وستة وثلاثين ألف قطار من ذهب⁽⁸¹⁾. فيردّ عليها: "وهم مقرّون أنّه لم يملك قطّ إلا فلسطين والأردن، والغور فقط. وأنّه لم يملك قطّ رفح، ولا غزة، ولا عسقلان، ولا صور، ولا صيدا، ولا دمشق، ولا عمان، ولا البلقاء، ولا مواب، ولا جبال الشراه. فهذه الجبابة التي لو جمع كلّ الذهب الذي بأيدي الناس لم يبلغها. من أين خرجت؟"⁽⁸²⁾.

ومثلها الرواية التي تزعم أن زارح ملك السودان غزا بيت المقدس في ألف ألف مقاتل⁽⁸³⁾. والتي يردّ عليها بقوله: "وهذا كذب فاحش ممتنع، لأن من أقرب موضع من بلد السودان، وهو النوبة إلى مسقط النيل في البحر، نحو مسيرة ثلاثين يوماً، ومن

علماء الحديث من ضبط في تحرّي الخبر، ورده⁽⁹³⁾. وبه كان النقل سمة من سمات الأمة الإسلامية التي تحرّرت كيف تنقل، وماذا تنقل⁽⁹⁴⁾. وأما المنهج فقد رسم معالمه بما ردّ به على اليهود،

الهوامش:

- (1) عبد الحليم عويس: ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، د ط، دار الاعتصام، القاهرة 1979، ص 161.
- (2) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ص: 81.
- (3) نفسه: ص: 80.
- (4) قسطنطين زريق: نحن والتاريخ، ط 04، دار العلم للملايين، بيروت 1979، ص: 77.
- (5) ابن بسلام الشنتريني (ت 542هـ/1147م): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، د ط، دار الثقافة، بيروت 1979، القسم الأول، المجلد الأول، ص: 167.
- (6) شمس الدين الذهبي (ت 748هـ/1374م): سير أعلام النبلاء، ط 01، مؤسسة الرسالة، بيروت 1984، م 18، ص 187.
- (7) نفسه.
- (8) شمس الدين الذهبي (ت 748هـ/1374م)، العبر في خبر من غبر، تحقيق فؤاد السيّد، د ط، سلسلة التراث العربي، الكويت 1961، ج 3، ص: 239.
- (9) عبد المتعال الصعيدي، المجدّدون في الإسلام، ط 2، مصر، 1962، ص 190، وأبو زهرة: ابن حزم حياته وعصره-آراؤه وفقهه، د ط، دار الفكر العربي، القاهرة، د ت، ص: 07.
- (10) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، تحقيق حياة بوعلان، ط 01، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت 1985، ص 183.
- (11) قسطنطين زريق: المرجع السابق، ص 95.
- (12) فيما يخص أسلوب التجريح الذي تبنّاه ابن حزم فقد بيّنا أنّه من أدوات تجديده. انظر الفصل الثاني من رسالتنا الموسومة: ابن حزم وظاهرة التجديد، قسم التاريخ، جامعة الجزائر.
- (13) فيما يخصّ منهج الظاهرية في فكر ابن حزم، أنظر: أنور خالد الزعبي: ظاهرية ابن حزم، د ط، منشورات المعهد العالي للفكر الإسلامي، عمّان 1996.
- (14) علي بن أحمد بن حزم (ت 456هـ/1064م): جوامع السيرة، تحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد، د ط، دار المعارف، القاهرة، د ت، ص 05.
- (15) عبد الحليم عويس، ابن حزم، ص 164.
- (16) إحسان عباس: رسائل ابن حزم الأندلسي، ط 02، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1978، ج 2، ص 13.
- (17) عبد الحليم عويس، ابن حزم، ص 165.
- (18) كما يزعم بعض الباحثين، لأنّ الباحث يرى غير ذلك في مقارنة ابستمولوجية للنصّ عند الطبري، وسينشر رأيه قريباً.
- (19) عماد الدين خليل: في التاريخ الإسلامي، فصول في المنهج والتحليل، ط 1، المكتب الإسلامي، بيروت، 1981، ص 136.
- وبشار قويدر: مناهج التاريخ الإسلامي ومدارسه، ط 1، دار الوعي، الجزائر 1993، ص 49.
- (20) عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، بيروت، ص ص 55، 56.
- (21) محمد جرير الطبري (ت 310هـ/922م): تاريخ الأمم والملوك، تحقيق نوّاف جرّاح، ط 1، دار صادر، بيروت 2003، ج 1، ص 07.
- (22) علي بن أحمد بن حزم: حجة الوداع، تحقيق محمود حقّي، ط 2، بيروت 1966، ص 45.
- (23) إحسان عباس، رسائل ابن حزم، ج 2، ص 13.
- (24) أنظر المحلّي لابن حزم في كثير من استدلالاته.
- (25) ابن حجر العسقلاني (ت 852هـ/1448م): لسان الميزان، تحقيق عبد الفتّاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، ج 05، ص 494.
- (26) إحسان عباس، رسائل ابن حزم، ج 2، ص 15.
- (27) قسطنطين زريق: المرجع السابق، ص ص 93، 94، 95، بتصرف.
- (28) عماد الدين خليل: نور الدين محمود وتجربته الإسلامية، ط 02، الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 1987، ص 07 بتصرف.
- (29) قسطنطين زريق، المرجع السابق، ص 49.

- (30) هرنشو: علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادي، ط2، دار الحداثة، بيروت، 1982، ص 10.
- (31) قسطنطين زريق، المرجع السابق، ص 74.
- (32) إحسان عباس، رسائل ابن حزم، ج2، ص 15
- (33) ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام، ط 01، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1980، ج1، ص 18.
- (34) نفسه.
- (35) الحافظ ابن كثير (774هـ/1372م): البداية والنهاية، تحقيق جماعة من لأساتذة، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت 1987، ج 12، ص 98.
- (36) نكر ابن حجر أن الحافظ بن عبد البر رده من هذا المتن، أنظر لسان الميزان، ج3، ص 104، ونقله عنه أحسان عباس في رسائل ابن حزم، ج2، ص 16.
- (37) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط 04، دار المعارف، القاهرة 1977، ص 04.
- (38) نفسه، ص 02.
- (39) نفسه
- (40) نفسه، ص 03.
- (41) نفسه
- (42) نفسه، ص 04.
- (43) عبد العزيز الدوري، المرجع السابق، ص 56.
- (44) نفسه.
- (45) كما فعل في رسالة حجة الوداع.
- (46) طريف الخالدي: بحث في مفهوم التاريخ ومنهجه، ط1، بدار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1982، ص 73.
- (47) نفسه.
- (48) لويس جوتشلك: كيف نفهم التاريخ، ترجمة عابدة سليمان عارف واحمد مصطفى، د ط، دار الكتب العربي، بيروت 1966، ص 65.
- (49) سيد قطب: في التاريخ فكرة ومنهاج، ط5، بيروت، 1982، ص 37.
- (50) قسطنطين زريق: المرجع السابق، ص 77.
- (51) إحسان عباس، رسائل ابن حزم، ج2، ص 12.
- (52) عبد الحليم عويس: ابن حزم، ص ص 169، 170.
- (53) لويس جوتشلك، المرجع السابق، ص ص 43، 44، بتصرف.
- (54) ارنست كاسيرر: في المعرفة التاريخية، ترجمة أحمد حمدي محمود، د ط، دار النهضة العربية، مصر، د.ت، ص 3.
- (55) نفسه.
- (56) إحسان عباس، ابن حزم، مجلة العربي، ع28، مارس 1961، ص 62.
- (57) إحسان عباس، رسائل ابن حزم، ج2، ص 12
- (58) نفسه، ص 13.
- (59) علي بن أحمد بن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، د ط، دار الجيل، بيروت 1985، ج1، ص 261.
- (60) نفسه، ص ص 261-262.
- (61) نفسه، 262.
- (62) نفسه، ص ص 262-263. وعبد الحليم عويس، ابن حزم، ص 171.
- (63) إحسان عباس، رسائل ابن حزم، ج2، ص 12
- (64) الفصل، ج1، ص 263.
- (65) نفسه.
- (66) نفسه.
- (67) نفسه، ص 264.
- (68) نفسه، ص 271.
- (69) قسطنطين زريق: المرجع السابق، ص 113.
- (70) نفسه، ص 115.
- (71) الفصل، ج1، ص 272.

- (72) نفسه.
- (73) إحسان عباس، رسائل ابن حزم، ص 12
- (74) الفصل، ج1، ص 274.
- (75) نفسه.
- (76) نفسه، ج1، ص 203.
- (77) نفسه.
- (78) نفسه، ص 204، وإحسان عباس، رسائل ابن حزم، ص 16
- (79) الفصل، ج1، ص 205.
- (80) إحسان عباس، رسائل ابن حزم، ج2، ص 16
- (81) الفصل، ج1، ص 323.
- (82) نفسه.
- (83) نفسه، ص 324.
- (84) نفسه.
- (85) إحسان عباس، رسائل ابن حزم، ج2، ص 13.
- (86) في بيان مناقضات التوراة وتحريفها في كتابه الفصل، ج1، ص 201 وما بعدها.
- (87) عبد الحليم عويس: ابن حزم، ص 175.
- (88) الفصل، ج1، ص 285.
- (89) نفسه.
- (90) عبد الحليم عويس: ابن حزم، ص 170.
- (91) نفسه
- (92) أنظر ابن خلدون في مقدمته، مقارنة بالفصل، الجزء الأول، ص 201 وما بعدها.
- (93) أنظر عثمان موافي، منهج النقد التاريخي عند المسلمين والمنهج الأوروبي، مصر، دت، فقد بسط فيه خطوات هذا المنهج ودقته.
- (94) عبد الحليم عويس: ابن حزم، ص 160، ومقدمة جوامع السيرة، ص 05.

موقف الأعيان والزعامات المحلية بالجنوب من مشروع فصل الصحراء عن الشمال

رضوان شافو

جامعة الوادي

مقدمة:

بعد سقوط مدينة الجزائر في يد القوات الفرنسية سنة 1830م سعت فرنسا الاستعمارية بكل ما تملك من وسائل وإمكانات بشرية ومادية لتمديد عملية التوسع والتغلغل نحو المناطق الصحراوية، وتعتبر سنة 1844م البداية الفعلية لتمديد العمليات العسكرية نحو الصحراء الجزائرية، وذلك بناء على القرار الذي أصدره البرلمان الفرنسي يقضي بتقديم قواته نحو الجنوب، وإنشاء مراكز عسكرية خاصة في المناطق الإستراتيجية الرئيسية، تتحكم في مرور القوافل التجارية من جهة، وتضمن لهم الأمن للمعمرين وتسمح لهم بالتصدي لمقاومة سكان الصحراء من جهة ثانية، ومنه بسط نفوذه على الشريط الواقع ما وراء الأطلس الصحراوي. وعليه فقد تم احتلال ما بين 1844 و 1908م بسكرة و الجلفة و الاغواط وعين الصفراء، وجبال القصور وعمور، وورقلة وتقرت ووادي سوف، وعين صالح وقورارة وتوات، وغيرها من المناطق الصحراوية.

وفي ذات السياق ازداد الاهتمام الفرنسي بالصحراء الجزائرية، وهذا بعد مشاورات حثيثة بين أفراد الحكومة الفرنسية، حيث أصدرت السلطة الاستعمارية يوم 24 ديسمبر 1902م قانون تضمن تنظيم أقاليم الجنوب الجزائري، وإنشاء ميزانية خاصة ومستقلة بها، وقد أخذ تقسيم هذه الأقاليم شكلين حسب مرسوم 12 ديسمبر 1905م: فالشكل الأول قسم إلى دوائر وملحقات ومراكز، والشكل الثاني قسم إلى بلديات مختلطة وأخرى أهلية، وقد شملت هذه الأقاليم العمالات التالية:

(عمالة تقرت وعاصمتها تقرت، عمالة الواحات وعاصمتها ورقلة، عمالة عين الصفراء وعاصمتها كولومب (بشار)، عمالة غرداية وعاصمتها الاغواط).¹

وفي منتصف الخمسينات بدأ يتبلور في الفكر السياسي الاستعماري مصطلحات تنادي بتثمين واستغلال ثروات الصحراء الجزائرية، خاصة بعد

اكتشاف البترول والغاز ومناجم الذهب والنحاس، ولذلك سعت الإدارة الاستعمارية لتحقيق هذا الحلم الاقتصادي إلى اختراع فكرة فصل الصحراء عن الشمال، وانطلاقا من هذا الطرح وضعنا أسئلة محورية لدراستنا أبرزها: ما هي دوافع اهتمام فرنسا الاستعمارية بالصحراء الجزائرية، خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية؟ وما هي أهم الخطوات العملية لتحقيق مشروع الانفصال؟ وكيف كان موقف الأعيان والزعامات المحلية من مؤامرة الانفصال؟ وإلى أي مدى تعاملت السلطة الاستعمارية مع المواقف الراضية لمشروع الانفصال؟ وكيف كانت ردود الفعل الشعبية ضد مؤامرة الانفصال؟

أولا/ أهمية الصحراء بالنسبة لفرنسا:

1- سياسيا: تعتقد السلطة الاستعمارية أن الصحراء الجزائرية أداة وصل بين شمال إفريقيا وجنوبها، وعليه فهذه الخاصية ستلعب دورا كبيرا في مستقبل علاقات التضامن بالقارة الإفريقية، ويعطيها هذا الدور وضعها الجغرافي وإمكاناتها الاقتصادية، ومن هنا فهي تشكل في نظرها خطرا يجب إبطال مفعوله، وذلك بفصل الجنوب عن الشمال حتى تفقد الجزائر حدودها المشتركة مع الدول المجاورة، مع إقامة قواعد عسكرية في إفريقيا تكون مصدر تهديد دائم لكل محاولات التحرر والانعقاد الحقيقي.²

2- اقتصاديا: الاستحواذ على الثروات الطبيعية والمعدنية والطاقوية وتحقيق استثمار صناعي إلى أبعد الحدود في الصحراء الجزائرية، خاصة وأن فرنسا كانت تدرك أنها متخلفة صناعيا عن منافستها بريطانيا في تلك الفترة، زيادة على ما سبق استغلال الطرق التجارية الصحراوية للسيطرة على خبرات إفريقيا من جهة و استغلال الصحراء كسوق استهلاكية لمنتجات أوروبا من جهة أخرى.

زيادة على ذلك ظهور عقب الحرب العالمية الثانية دعا ينادون باستغلال المناطق الصحراوية، منهم على الخصوص اريك لابون³ Erik Labonne الذي اقترح مشروعا اقتصاديا وعسكريا للاستفادة من الثروات

عمالتين فقد تم تقسيمها وفقا للمرسوم رقم 57-903 المؤرخ في 7 أوت 1957م⁸، فالعمالة الأولى هي الواحات وعاصمتها الاغواط ثم ورقلة (الجنوب الشرقي) بمساحة تقدر بـ 1302000 كلم²، و 348000 نسمة، والعمالة الثانية هي الساورة وعاصمتها بشار (الجنوب الغربي) بمساحة تقدر بـ 780000 كلم²، و 152000 نسمة، خلفا لما كان يعرف سابقا بأقاليم الجنوب الجزائرية.

3- السعي لإنشاء جمهورية صحراوية مستقلة:

بدأت المحاولات الأولى لتحقيق هذا المشروع مند بداية 1957م، وذلك من خلال الزيارات المتعددة التي قام بها مسؤولون كبار في الحكومة الفرنسية مثل: ماكس لوجان *Max lejeune*، واليافي قيشار *O. Guichar*، وميشال دوبري *Michel Debré*..

وغيرهم، بهدف جس النبض والبحث عن شخصيات وزعامات محلية توكل إليهم مهمة تنفيذ مشروع الانفصال، ومنهم حمزة بوبكر، والشيخ ابراهيم بيوض، والشيخ احمد التيجاني، والشيخ أخموخ باي، وهذا الصدد يذكر الشيخ بيوض « أن الجنرال ديغول أوفد مسؤولا كبيرا إلى غرداية فجمع بعض الأعيان الميزابيين وقال لهم: إن فرنسا ترغب منكم أن توافقوا على تأسيس جمهورية صحراوية مستقلة على غرار جمهورية موريطانيا، وإنها تدعم بالتأييد والحماية...»⁹، وحسب التقارير الفرنسية فإن كل هذه الزعامات المحلية رفضت العروض التي قدمت لها باستثناء حمزة بوبكر، وباسعيد عدون الذين ساعدوا الحكومة الفرنسية على تنفيذ مساعيها الرامية إلى إنشاء ما يسمى بالجمهورية الصحراوية المستقلة، وهذا ما سنتطرق إليه لاحقا.

4- تدويل الصحراء الجزائرية: في إطار المساعي

الفرنسية لإنجاح مشروع الانفصال سعت فرنسا إلى تدويل الصحراء الجزائرية عن طريق طرح مناورة جديدة مفادها أن الصحراء بحر داخلي تشترك فيه جميع الدول المجاورة، زيادة على ذلك خلق شبكة من المصالح الاقتصادية والإستراتيجية لأطراف أجنبية عديدة تكون لها المرجعية بينهم، مستعملة في ذلك البترول كورقة رابحة، ورافعة في ذلك شعار " ثروات الصحراء لفائدة جميع الصحراويين"، كشعار زائف ومائع أريد من ورائه طمس حقائق سياسية وتاريخية ناصعة، يكون من نتائج تجريد المناطق الصحراوية من كل انتماء سياسي لها.¹⁰

وما يؤكد هذا الطرح وثيقة سرية مؤرخة في أول جانفي 1957م ترسم الخطوط العريضة لهذه السياسة ومنها نذكر: «...لذلك سيكون من الأنسب

الطبيعية والطاقوية الصحراوية الجزائرية، كما كانت فرنسا تسعى إلى محاولة التخلص من التبعية الطاقوية التي كانت تعاني منها فرنسا، مما أصبحت لديها قناعة راسخة أنه لا يمكن تحقيق أي استقلالية طاقوية إلا باستغلال الموارد الطبيعية المخزونة بالصحراء الجزائرية.

3- عسكريا واستراتيجيا : احتواء الثورات المسلحة

والحركات التحررية في مستعمرات فرنسا الإفريقية قصد جعل الصحراء الجزائرية القاعدة العسكرية التي تؤمن أوروبا في حالة أي اعتداء أجنبي، والقاعدة السياسية التي تمارس منها فرنسا الضغوطات على مختلف الثورات في إفريقيا⁴، هذا بالإضافة إلى العمليات العسكرية التي وقعت بصحراء شمال إفريقيا خلال الحرب العالمية الثانية كشفت مدى الأهمية الإستراتيجية والحيوية التي تمثلها هذه الصحراء خاصة على الصعيدين الأمني والسلمي بالنسبة لأوروبا، وهذه الأهمية الإستراتيجية جعلت القيادة العسكرية الاستعمارية أصبحت لديها قناعة في أن اتساع الرقعة الجغرافية للصحراء الجزائرية يصلح كميدان عسكري لاختبار التجارب النووية والجرثومية، لكون أن مثل هذه الأسلحة تحتاج إلى ميادين خالية وشاسعة، ويمكن في نفس الوقت استحداث قاعدة عسكرية لفرنسا لتكون منطلقا لعمليات عسكرية في إفريقيا وأوروبا.

ثانيا / خطوات تجسيد مشروع الفصل :

1- إنشاء المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية:

وذلك بإصدار قانون رقم 27-57 المؤرخ في 10 جانفي 1957م، الذي ينص على إنشاء المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية، وهو مشروع يسعى إلى تحقيق تنظيم اقتصادي للصحراء، ويحتوي القانون على ثلاثة عشرة مادة. وتجدر الإشارة إلى أن مشروع المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية كان قد اقترح من طرف السيد هوفوي بوانيي *Hauphouet*⁵

الذي قدمه بدوره إلى مجلس الوزراء بعدما تم عرضه على المجلس الوطني ومجلس الجمهورية، حيث تمت المصادقة عليه في 10 جانفي 1957م.⁶

2- إنشاء وزارة خاصة بالصحراء وتقسيم

الصحراء إلى عمالتين: نظرا لعدم وجود إطار ادري يُسِير المناطق الصحراوية نتيجة لقرار إلغاء نظام الأقاليم في الجنوب الجزائري، أصدرت السلطة الاستعمارية قرار في 10 جوان 1957م يتعلق بإنشاء وزارة خاصة بالصحراء، بهدف استمرارية الحفاظ على الصحراء الفرنسية، وقد تم تعيين السيد ماكس لوجان *Max lejeune* وزيرا على رأس هذه الوزارة الصحراوية⁷. أما فيما يخص تقسيم الصحراء إلى

1960م، وبعد متابعة الوفد للعروض العسكرية استقبل من طرف الوزير الأول ميشال دوبري Michel Debré الذي عرض عليه بلهجة تجمع بين المساومة والتهديد مقترحاً فصل الصحراء عن الجزائر، وتنصيب الحاج باي أخموخ سلطاناً على الهقار، فما كان من هذا الأخير إلا الإجابة التالية: «قد لا أطلب باستقلال الجزائر، ولكن ما أطلب به هو عدم الاستقلال عن الجزائر»، وفي نفس السنة زار الوزير الأول ميشال دوبري Michel Debré تمراست وأحضر معه توارق التشارد ومالي والنيجر، حيث جمعهم بالحاج باي أخموخ لمدة 7 أيام بفندق تنهينان، وعرض على أخموخ أن يكون سلطاناً على الصحراء فرفض هذا الأخير.

2- موقف حمزة بوبكر (والي عمالة الواحات):

استطاعت السلطة الاستعمارية أن تستميل السيد حمزة بوبكر إلى صفها، وكلفته للقيام بعملية التعبئة والحشد لإنجاح مشروع الفصل، حيث تمكن حمزة بوبكر من جمع عدد من الزعامات الصحراوية في لقاءات بالآغواط وورقلة سنة 1960م، من أجل إدخال مشروع الفصل حيز التنفيذ، والواقع إن نشاط حمزة بوبكر في خدمة هذا المشروع يرجع إلى سنة 1959م عندما وضعت بعض الأوساط الفرنسية مشروعها لبتز الجنوب تحت - الجمهورية الصحراوية المستقلة - وهو مشروع أقيم على نفس الأساس الذي أقام عليه الاستعمار البلجيكي مشروعه الذي أدى إلى انفصال كاطنغا.¹²

بل وصل الأمر بحمزة بوبكر إلى تعيين نفسه ممثلاً لسكان الصحراء في زيارة إلى النيجر يوم 4 ديسمبر 1961م رفقة وزير الصحراء ماكس لوجان Max Lejeune، ووالي البوليس بايلو، والمحامي بياجي، بهدف تأسيس الجمهورية الصحراوية المستقلة، وحاول التحدث مع رئيس النيجر السيد حماني ديوري واستمالته لتأييد المشروع، لكن الرئيس النيجري واجهه برفض صارم، وقال فيما قال له: «لن أعين أبداً على خلق كاطنغا صحراوية».¹³

غير أن حمزة بوبكر لم تخيفه إنذارات ولا تعليمات جبهة التحرير الوطني، حيث تحرك مرة أخرى من أجل جمع 24 شخصية ذات أصول صحراوية بمقر والي عمالة الواحات على هامش أشغال المجلس العام لعمالة الواحات في أفريل 1961م، مع فارق واحد هذه المرة، وهو أن حمزة بوبكر اضطر لجمع هذه الشخصيات مستعيناً بالبوليس الفرنسي لإلزامها على الحضور، فلقد كان

تجاوز الخلافات الحدودية للبلدان والأقاليم المحيطة بها - أي الصحراء الجزائرية - من خلال إنشاء مجموعة اقتصادية تسمح للبلدان المجاورة بأن يكونوا شركاء فاعلين في عملية استغلال الثروات الصحراوية وفي تقاسم الأرباح التي ستندرها هذه العملية. مثل هذه الشراكة لن يكون من نتائجها فقط تحقيق استغلال آمن ومضمون لهذه الثروات، ولكن سيكون من نتائجها أيضاً الإعداد والتمهيد لأفق سياسي أرحب ألا وهو بناء مجموعة أو كتلة فرنسية-أفريقية، لذلك وضمن هذا المنظور سوف يكون من الأنسب إنشاء هيئة لتتبع واستغلال هذه الثروات يشترك في عضويتها كل من: المجموعة الفرنسية-الجزائرية، والمغرب، وتونس، والأقاليم المجاورة بإفريقيا السوداء...».¹¹

ثالثاً / مواقف الأعيان والزعامات المحلية بين التأييد والرفض لمؤامرة الانفصال:

عندما شرعت فرنسا في تطبيق سياستها لفصل الصحراء ولإنجاح هذه السياسة سعت هذه الأخيرة وبشتى الوسائل الإقناع والضغط إلى جرهم للسير في هذا المشروع، واعية في كل ذلك بضرورة وأهمية انخراطهم في سياستها كشرط لا بد منه لنجاح مشروعاتها المعروفة بالجمهورية الصحراوية المستقلة، ونظراً لأهمية المشروع لدى الحكومة الفرنسية، قام رئيس الحكومة الفرنسية ميشال دوبري Michel Debré، وألفي فيشار O. Guichard المندوب العام للمنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية بزيارات متعددة إلى المناطق الصحراوية من أجل إعطاء المشروع دفعا جديداً، حيث اتصل بمجموعة من الزعامات المحلية التي تتمتع بمكانة سلطوية واجتماعية في الواحات الصحراوية ومن بينهم السيد حمزة بوبكر، والشيخ إبراهيم بيوض، والحاج باي أخموخ سلطان الهقار وغيرهم، وفي هذا الصدد سنستعرض موقف كل واحد على حدة.

1- موقف الحاج باي أخموخ (سلطان الهقار):

حاولت السلطة الاستعمارية مساومة الحاج باي أخموخ لقبول مشروع الانفصال، حيث تلقى أول عرض من الجنرال ديغول سنة 1958م، وقد تضمن هذا العرض منح الاستقلال لمنطقة التوارق التي كانت ستشمل على ما يبدوا منطقة الهقار حتى الحدود الليبية شرقاً بالإضافة إلى المناطق الشمالية الأهلة بالسكان التوارق لكل من مالي والنيجر.

وتلقى الحاج باي أخموخ ثاني عرض له في الموضوع خلال زيارته لباريس على رأس وفد من التوارق بدعوة من الجنرال ديغول لحضور احتفالات العيد الوطني الفرنسي في 14 جويلية

يعلم أنها لن تعود إلى تلبية ندائه بعدما عرفت نواياه، لكن هذا اللقاء انتهى بالفشل مثل سابقه.¹⁴

3- موقف الشيخ ابراهيم بيوض (من أعيان

وادي ميزاب): حاولت السلطة الاستعماري مسالمة الشيخ ابراهيم بيوض عضو مجلس عمالة الواحات العديد من المرات من خلال اللقاءات والاتصالات التي جرت بينه وبين بعض الشخصيات المحسوبة على الإدارة الاستعمارية بهدف جس النبض حول رأيه في قضية الصحراء، ومن أهم اللقاءات التي جرت معه، اللقاء الذي جمعه مع وألفي قيشار

O.Guichar المنسوب العام للمنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية، ومما جاء فيه مخاطبا الشيخ بيوض : « إنني مبعوث إليك من طرف رئيس الجمهورية الجنرال ديغول للمفاوضة معك في شأن مستقبل الصحراء واستقلالها، فهي تملك الموارد الضخمة من الغز والبتروول وهي متاخمة لموريطانيا الجمهورية الإسلامية المستقلة، وبذلك تكون جارة وصديقة لها ونحن في عونكم جميعا، وأخبرك بأن الجنرال ديغول خط هاتفه مفتوح في الأليزي ينتظر الجواب...».¹⁵

غير أن الشيخ ابراهيم بيوض حاول إجهاض العملية، واتصل بالحكومة المؤقتة الجزائرية يحيطها علما بتفاصيل المشروع، ويستصدر الأوامر اللازمة لإفشال مساعي التقسيم، وبالفعل فإن جبهة التحرير الوطني قد وجهت إنذارا لجميع الشخصيات المعنية وجعلتها تبدي رفضها ومعارضتها لمحاولة التجزئة وذلك عندما انعقد الاجتماع الثاني في حي سانتوجان بالجزائر العاصمة سنة 1960م¹⁶. وهو ما يؤكد المجاهد محمد شنوفي في قوله: «.. منذ مجئ ديغول إلى الحكم كثفت الثورة وقيادة الولاية الثالثة من جهود خاصة ومعتبرة لتعبئة الشعب وتوعيته، خاصة توعية الشباب المغرر بهم في الإدارات المحلية، حيث استغلّتهم فرنسا في إطار المخطط الذي يعرفه الإخوان (المجاهدين)، وهذا حتى يحتاطوا من التوجيه الجهنمي الاستعماري الذي قامت به فرنسا من أجل فصل الصحراء عن الجزائر»¹⁷، زيادة على ذلك عملت قيادة الولاية السادسة على توزيع مجموعة من المنشائر دعائية لإفشال مؤامرة الفصل، بل تعدى الأمر إلى القيام بعمليات سياسية تمثلت في الاتصال بال جماهير وتوعيتهم بضرورة مقاطعة ونبد أولئك الذين أرادت فرنسا أن تجعلهم إما قوة ثالثة، أو هيئة تتكفل بالصحراء.¹⁸

ومن جملة ما قام به أيضا الشيخ بيوض لإحباط مؤامرة الفصل هو القيام بجولة بين ورقلة وتقرت انطلاقا من وادي ميزاب، وفي ذلك يقول: " في ربيع وصيف 1960 كثرت الاجتماعات والحديث والتناجي

عن فصل الصحراء بين الحكام الإداريين عسكريين ومدنيين وبين النواب والأعيان لكنها سرية متكتمة، فاشتد خوفي من جعلنا أمام أمر الواقع، فاكترت سيارة من القرارة... وذهبت إلى ورقلة ثم إلى دار القائد العيد الذي أثق بوطنيته فوصلت الدار الثانية بعد الزوال، فقيل لي انه نائم، فقلت أيقضوه فالأمر مستعجل، فقام إلي فحدثته عن خطورة الوضع في قضية فصل الصحراء فعاهدني على انه معي وبجانبني ضد الفصل وقال: قل ما شئت واكتب ما شئت فاني أمضيه بدون تردد... فلويت عنان السيارة من ورقلة إلى زاوية تماسين فكلمت الشيخ (حفظه الله) فأجاب بما أجاهبه القائد العيد وتعاهدنا ثلاثتنا على التصلب في موقفنا ولو كلفنا حياتنا وعلى إفساد مناورات الانفصاليين...".¹⁹

وعليه وقف الأعيان الثلاثة موقف موحد في الاجتماع الذي عقده حمزة بوبكر بخصوص "قضية فصل الصحراء" في خريف 1960م ضمن أعمال دورة مجلس عمالة الواحات في ورقلة وهم: الشيخ أحمد التجاني كممثل عن وادي ريغ، والشيخ ابراهيم بيوض ممثلا عن وادي ميزاب والقائد العيد بوسعيد ممثلا عن ورقلة، حيث تم الرد على حمزة بوبكر وبكل جرأة على لسان الشيخ ابراهيم بيوض قائلا: «... سيدي الرئيس إن مجلسنا مجلس اقتصادي بحث ينظر في ميزانية العمالة فاختصاصنا لا يخرج عن دائرة المكاتب والمياه والطرق والمواصلات وما أشبهها، ولا حق لنا مطلقا في التكلم باسم الأمة في أمر سياسي هام خطير، الحق فيه للأمة بأسرها، ثم من جهة أخرى سيدي الرئيس: إن فرنسا لم تستشرنا في سياستها في هذه البلاد، فلم تستشرنا يوم قطعت الصحراء وجعلت لها نظام التراب الجنوبي، ولم تستشرنا يوم فصلت أجزاء من الشمال سميتها أحوازا ممتزجة، فهي تصل وتفصل وتتحكم كما تريد بل أكثر من هذا كنا نطلب أشياء من حقنا ونرفع أصواتنا بها، فلا تسمعنا حتى في تطبيق قوانين سنتها هي، ولا يخفاكم مواقفنا في المجلس الجزائري في المطالبة بتطبيق دستوره... الخ، فإذا أرادت فرنسا اليوم أن تستشير فلنستشر صاحب الحق وهو الشعب الجزائري كله...»²⁰، وعليه كانت هذه الضربة قاضية للفصل والانفصاليين.²¹

4- موقف الشيخ احمد التجاني (شيخ الزاوية

التجانية بتماسين):

على الرغم من تضارب الآراء حول موقف الزاوية التجانية من الاستعمار الفرنسي بين التأيد وموالاة من جهة، والمعارضة والمقاومة من جهة أخرى، إلا أنه خلال الثورة الجزائرية اثبت الشهادات الحية لبعض المجاهدين، وبعض الوثائق الأرشيفية على أن شيخ الزاوية التجانية السيد احمد التجاني كانت له مواقف ايجابية ومشرفة له وللزاوية التجانية

وثالثهما: الموقف الذي سبق الإشارة إليه وذلك من خلال تأييد الشيخ احمد التيجاني لإخوانه في مجلس عمالة الواحات وهما الشيخ ابراهيم بيوض والقايد بوسعيد على إفشال مؤامرة الانفصال في الاجتماع الذي دعى إليه حمزة بوبكر.

5- موقف باسعيد عدون (من منطقة بني

ميزاب):

تجدر الإشارة هنا أنه من بين المحاولات السرية والغير رسمية حسب ما أورده السيد حمو محمد عيسى النوري في كتابه "دور الميزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا" تكليف الفرنسيين لشخصية تسمى "باسعيد عدون" وصفها هو بالشخصية المنبوذة في مجتمعها

((أقول كلفت من قبل الفرنسيين بمهمة القيام بمساعي لدى بعض الشخصيات المحلية والأعيان لإقناعها والحصول على انخراطها في المشروع الفرنسي لفصل الصحراء، وقد قامت هذه الشخصية بإجراء اتصالات مباشرة مع كل من ابن قانة بمنطقة الزيبان، ومع الشيخ بيوض بالقرارة، ولكنها لم تظهر بشيء)).²⁵

هذا بالإضافة إلى أن أعضاء المجلس العام لعمالة الواحات وفي إطار المفاوضات الجزائرية الفرنسية كانوا يتابعون مجريات التفاوض بين الوفد الجزائري والوفد الفرنسي، وكانوا في حالة من الترقب والانتظار القلق لما ستسفر عنه هذه مفاوضات لوسارن التي جرت بسويسرا ما بين 20 فيفري إلى غاية مارس 1961م، والتي انتهت بالفشل نظرا لتشبث الوفد الجزائري بمبدأ السيادة الجزائرية على كامل التراب الوطني، حيث مباشرة بعد انتهاء هذه المفاوضات عقد أعضاء المجلس العام لعمالة الواحات جلسة استثنائية خلال يومي 16 و17 جوان 1961م، وقد خلص المجتمعون فيها إلى الالتزام بعدم إبداء أي موقف طالما بقيت الحكومة الفرنسية متمسكة بموقفها في الموضوع.²⁶

رابعا رد فعل السلطة الاستعمارية على المواقف

الرافضة لمشروع الانفصال:

أمام هذه المواقف الوطنية الراضية للسياسة الفرنسية الداعية إلى تمزيق التراب الوطني وتشتيت وحدة الصف الوطني، وبرهنة سكان الصحراء على ولائهم وتأييدهم لجهة التحرير الوطني، عمدت السلطة الفرنسية إلى بث روح الفتنة والفرقة وإحياء النعرات الطائفية بين أبناء الشعب لتكريس وجودها الاستعماري، فمثلا في سبتمبر 1960م حرصت السلطة الاستعمارية بعض الأشخاص بورقلة بالسطو على دكاكين الميزابيين ووممتلكاتهم وبساتينهم، فاثأروا

بتماسين خلال هذه الفترة، منها مساهمته في تشكيل لجان شعبية سنة 1955م لدعم وتموين الثورة، واستغلال علاقته بالسلطة الاستعمارية لخدمة أهالي المنطقة والثورة الجزائرية.

أما فيما يخص مشروع فصل الصحراء عن الشمال فقد كان له ثلاثة مواقف مشرفة أولهما: كان خلال زيارة جاك سوستال Jacques Soustelle نائب وزير مجلس الوزراء (الوزير الأول) إلى ورقلة وتقرت في أول فيفري 1959م، حيث وصل إلي ورقلة على الساعة الحادية عشرة صباحا قادما من تمنراست، حيث زار برج فلاترس أين التقى بمجموعة من الأهالي، ثم انتقل إلى إحدى الثكنات العسكرية وقام فيها بتكريم بعض الضباط العسكريين بتسليمهم أوسمة شرف، مع إلقاء كلمة مقتضبة أكد من خلالها على استمرارية تواجد الفرنسيين بالصحراء، وبعد وجبة الغداء اجتمع في فندق المدينة بمختلف رؤساء المصالح الإدارية لمناقشة موضوع الجمهورية الصحراوية²²، لينتقل بعدها في المساء إلى مدينة تقرت التي وصلها على الساعة الثالثة ونصف، حيث كان في استقباله القائد العسكري لإقليم تقرت، ومندوبين عن مختلف القطاعات الإدارية بالمنطقة، ورؤساء الملاحق التابعة لإقليم تقرت، أين قدم له استعراض عسكري من قبل عناصر الجيش الجوي، وبعدها ألقى الشيخ احمد التيجاني خطابا مطولا حول بعض المشاكل التي يعاني منها سكان الصحراء، وخصوصا وادي ريغ ووادي سوف، وفي مقدمتها نقص المياه، ومشكلة تسويق التمور، وارتفاع تكاليف حفر الآبار الارتوازية، وكذا الضرائب المتزايدة التي أثقلت كاهل الفلاحين، وانتشار بعض الأمراض التي تصيب منتوج التمور، كما طالب الشيخ احمد التيجاني في هذا الخطاب بتوقيف القتال، وحقق الدماء بين الفرنسيين والجزائريين، حتى يتحقق السلام بين الأفراد، وبعد سماع جاك سوستال Jacques Soustelle إلى خطاب الشيخ احمد التيجاني عقد جلسة عمل من جل دراسة المطالب التي جاءت في خطاب احمد التيجاني.²³

وثانيهما: كان خلال دورة المجلس العمالي بورقلة التي انعقدت في خريف 1960م، حينما طلب والي العمالة حمزة بوبكر رأي الشيخ احمد التيجاني حول قضية الصحراء، حيث تكلم هذا الأخير بكلام حسن شرح فيه باختصار خطورة الموقف وأنه لاضمان لنا ولا امان من تطورات الأحوال، وضرب المثل بقصة المغرب والسلطان محمد الخامس، وقضية ابن عرفة وما آل إليه أمر المغرب.²⁴ وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على رفض الشيخ احمد التيجاني مشروع الانفصال.

إعطاهم التسهيلات الإدارية، وتطالبهم بتسديد الديون في الحال، كما قامت منظمة الجيش السري بنسف 90 متجرا بالعاصمة كان أصحابها من الجنوب.³¹

خاتمة:

من خلال هذه الدراسة التاريخية التي تمحورت حول موقف الأعيان والزعامات المحلية بالجنوب من مشروع فصل الصحراء عن الشمال، مع استعراض أهم الدوافع الحقيقية للاهتمام الفرنسي بالصحراء الجزائرية، واستعراض أيضا رد فعل السلطة الاستعمارية على المواقف الرفضية لمشروع الانفصال، خلصنا إلى أن السياسة الديغولية قد فشلت في تحقيق مشروعها الاستعماري بالصحراء الجزائرية، وذلك من خلال المواقف الوطنية والمشرفة لبعض الأعيان والزعامات المحلية الرفضية لمؤامرة الانفصال، وبرهنوا من خلال مواقفهم الوطنية على أنهم واعون بما كان يحاك من مؤامرات دسيسة ضد الجزائر، كما أكدوا أنهم لن تغريهم المغريات، ولن تنطلي عليهم حيل الإدارة الاستعمارية، ولن ينساقوا وراء أي مشروع استعماري يسعى إلى سلخهم عن هويتهم الوطنية وحضارتهم الإسلامية، ويقضي على خصوصيتهم الاجتماعية والثقافية، وأنهم مع الثورة التحريرية التي شرقتهم ورفعت رؤوسهم أمام الأمم.

غوغاء العامة ممن لا خلاق لهم، فقتلوا وجرحوا ونهبوا وأشعلوا النار، وافسدوا محاصيل النخيل، مما دفع بالسلطة الاستعمارية للظهور بمظهر النصح والتعاطف مع الميزابيين وذلك بتذكيرهم أن هذا ما سيفعله بهم العرب بعد حصولهم على استقلالهم في حالة إذا تخلوا عنهم.²⁷

وفي 5 سبتمبر 1961م وجهت نفرا من جنود الحركة إلى مسجد من مساجد ورقلة، فداسوا حرمة ومزقوا المصاحف القرآنية والكتب الموجودة في مكتبته، ثم روجوا لكون العملية من تدبير جمع من الميزابيين الاباضين، غير أن بعض العقلاء تفتنوا للمكيدة وأطفأوا الفتنة في مهدها بعد أن كادت تأخذ حجما خطيرا، خصوصا وأن الأمر يمس مقدسات الشعب الجزائري وحرمة دينه.²⁸ كما لجأت السلطة الاستعمارية إلى القمع المباشر والتهديد عندما قامت بمحاولة للقبض على أحد رؤساء الزاوية التجانية.²⁹ بالإضافة إلى نقل ما لا يقل عن 1500 عامل من العمال في قطاع البترول في منطقة ورقلة للمحتشدات بالشمال الجزائري، هذا بالإضافة إلى أن رئيس بلدية ورقلة عمل على سجن كل الشخصيات الصحراوية وانتزع منها أملكها.³⁰ زيادة على أن فرنسا لجأت إلى الضغط المالي على التجار الصحراويين المستقرين بالشمال، إذ تولى الإشراف على العملية مدير بنك الجزائر، وهددهم بالإفلاس إن رفضوا مشروع الفصل، كما ضيق مدير البنك الخناق على تعاملاتهم المالية، ثم أشهر إفلاسهم بذلك، وصدرت الأوامر إلى المحاكم أن تحكم بإفلاس التجار الصحراويين وعلى الأخص أبناء وادي ميزاب، وفي نفس الوقت كانت البنوك ترفض

الهوامش:

- 1-R.Estoublon et A.Lefebure, Code de L'Algérie annoté, Alger, imp.Adolphe Jordan,1907,1902,p82
- 2- المجاهد، «أهداف الاستعمار في الصحراء»، ع98، 19 جوان 1961، (ج4، طبعة خاصة 2007)، ص4
- 3 - سفير فرنسا والمقيم العام الفرنسي السابق بكل من المغرب وتونس، والرئيس بالنيابة للجنة الدراسات لمناطق التنظيم الصناعي بإفريقيا
- 4- المجاهد، «أهداف الاستعمار في الصحراء»، المصدر السابق، ص 46 .
- 5- هوفوي بوانيي Hauphouet Boigny : الوزير المنتدب لدى رئاسة مجلس الوزراء في حكومة قي موليه، ورئيس جمهورية ساحل العاج فيما بعد.
- 6- J.O.R.F, du 11 Janvier 1957,p578
- 7-J.O.R.F. du 14 Juin 1957, p 5923
- 8- Décret n° 57-903. du 31 décembre 1959, J.O.R.F, du 12 Janvier 1960, p 339
- 9- ابراهيم بن عمر ببيوض، أعمال في الثورة، منشورات جمعية التراث، القرارة - غرداية، 1990، ص 80.
- 10- محمد بن دارة، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية ما بين 1952- 1962م، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة الجزائر، 1998-1999، ص152.
- 11- محمد بن دارة، المرجع السابق، ص 152.
- 12- المجاهد، "مناورات في الصحراء" ع113، 22 جانفي 1962، (ج4، طبعة خاصة 2007)، ص3

وللتوضيح أكثر فإن كاطنغا انفصلت عن الكونغو في جوان 1960 بعد وقوع تمرد عسكري كونغولي وإعلان لويس تشومبي انفصال كاطنغا، وقيام بلجيكا بإرسال قوات للدفاع عن مصالحها لاسيما في مجال التعدين، وموافقة مجلس الأمن على إرسال قوات للمحافظة على استقرار الأوضاع في البلاد، بيد أن هذه القوات لم يسمح لها بالتدخل في الشؤون الداخلية مما أدى إلى تأكيد الانفصال

13- المجاهد، "مناورات في الصحراء"، المصدر السابق، ص5

14- المصدر نفسه، ص3

15- ابراهيم بن عمر بيوض، المصدر السابق، ص64.

16- محمد العربي الزبيري، «ديغول والصحراء»، أعمال الملتقى الوطني الأول بورقلة حول: "فصل الصحراء في السياسة الاستعمارية"، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، 1998، ص 202

17- شهادة المجاهد محمد شنوفي (ضابط بالولاية السادسة التاريخية)، أعمال الملتقى الوطني الأول بورقلة حول: "فصل الصحراء في السياسة الاستعمارية"، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، 1998، ص327

18- شهادة المجاهد محمد شنوفي، المصدر السابق، ص328

19- ابراهيم بن عمر بيوض، المصدر السابق، ص 34

20- المصدر نفسه، ص ص: 35-36.

21- المصدر نفسه، ص ص: 34-35.

22- C.D.A.W.O, B62 : Voyage au Sahara de M. le Ministre délégué de M. le premier Ministre du 3 Février 1959

23- C.D.A.W.O, B62 : Traduction de l'alloction prononcée le 01/02/1959 par le Cheikh SI AHMED TIDJANI à l'occasion de la visite de M. le Ministre SOUSTELLE

24- ابراهيم بن عمر بيوض، المصدر السابق، ص 115.

25- حمو محمد عيسى النوري، دور الميزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا، باريس، دار الكروان، 1984، مج2، ص ص: 296-300.

26- C.D.A.W.O , B298 , Conseil Général des Oasis , procès verbal de la session extraordinaire 1961, seance des 16 et 17 Juin 1961, pp 5- 6.

27- ابراهيم بن عمر بيوض، المصدر السابق، ص45.

28- المجاهد، "مناورات في الصحراء"، المصدر السابق، ص3.

29- مسعود كواتي، «محاولات فرنسا لفصل الصحراء عن الجزائر مناورات أم حقيقة؟» ؛ ضمن أعمال الملتقى الوطني الأول بورقلة حول: "فصل الصحراء في السياسة الاستعمارية"، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، 1998، ص149.

30- الحاج موسى بن عمر، السياسة النفطية في الجزائر 1952-1962، جمعية التراث، ط1، غرداية، 2004، 189-190

31- المجاهد، "مناورات في الصحراء"، المصدر السابق، ص 3.

نظريّة المعنى ومقاصد الخطاب من خلال -مدخل الإعجاز- لعبد القاهر الجرجاني

عقيلة مصيطفى

قسم اللغة العربية وآدابها المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000, الجزائر

تداولية، ارتكازا على نظرية التلقي ونظرية
الأنساق.

نظرية المقصدية من خلال-خطاب المقدمات- البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني

ظهر التأويل في الثقافة الإسلامية أول ما ظهر لسد
ثغرة حصلت بعد غياب الرسول -عليه الصلاة
والسلام- إذ كان هو الشارح المفسر، والمؤول المفتي،
فبدا التأويل في أول الأمر حرجا، ثم تطور مع تطور
الأحداث في العصر الأول، وبروز أحزاب وشيع
استعملت التأويل أداة لخدمة مذهبها، وترويج
اتجاهاتها التي كان لها خطرهما على الفكر
الإسلامي⁽¹⁾

إن البحث في الخطاب البلاغي العربي مجال
اقتضاه البحث في النص القرآني، أو النص النبوي،
إضافة إلى الآراء الكلامية واتباع المناظرات بين
الفرق المختلفة، مما أدى إلى "تشعب المنطقات
والمصادر، وتعدد المؤثرات والخلفيات، تنوعت معه
الأسئلة والاهتمامات، وبذلك امتد مجال البلاغة
العربية".⁽²⁾

والتأويل بهذا المفهوم لم يفرض، ولم يكن وليد
اتجاهات عقلية، وإنما هو ظاهرة استوجبتها خصائص
اللغة العربية، وما تتميز به من كثرة الوجوه، وحسن
المطاوعة، ويأتي مفهوم المقصدية من أن كل فعل من
أفعال الشعور البشري فعل قصدي. فهذه النظرية تعنى
بالجانب الدلالي في اللغة، والتي نمت في ظل
"قضية اللفظ والمعنى" في التراث العربي، والتي
تعددت الآراء من حولها واختلفت، من ذلك التنظير
البلاغي الذي قدمه الجرجاني حول مسألة النظم، في
ارتباط وثيق بتوجهه الأشعري،
والتي وسع مجالها من حدود اللفظ لتشمل المعنى
أيضا المرتبط أساسا "بقصد المتكلم".⁽³⁾

عرف صلاح إسماعيل القصديّة قائلا: "القصديّة

إنّ البحث في موضوع التداولية في شكلها
التراثي العربي ليس تأصيلا للمفاهيم المعاصرة،
إنما هو ضروري لبيان امتدادات المدونة العربية
المعرفية، من أجل ذلك تروم هذه الدراسة تقديم
مدخل لإعادة بناء تصور عن حقيقة البلاغة العربية
من منظور معرفي يتجاوز بعض التصورات القابلة
للدحض في البلاغة العربية، مما يسمح بتشييد
بلاغة معرفية تأويلية.

إن أهم سؤال يرد الذهن، ونحن نروم قراءة
الإرث البلاغي العربي، هو: ما الكيفية المثلى لتلقي
هذا الخطاب؟ وذلك تجنباً لمتاهات التأويل الموهل
في الذاتية، ولمحاكمة القديم بالجديد، أو الجديد
بالقديم، فقبل الخوض في الأبعاد التداولية في
التراث العربي الإسلامي، يسعى هذا المقال إلى
مسألة إشكالية "نظرية المقصدية" كنظرية معرفية
باعتبارها تتحكم في كل فعل لغوي، وتحدد شكله
ومعناه، من أجل تأكيد جدواها، أهميتها ودورها في
الدرس اللغوي وكذا "قضية معنى المعنى"،
وغيرها من القضايا اللغوية الأخرى، نثمينا لجهود
علماء العربية قديما.

تهدف هذه الدراسة إلى تبيان موقع هذه الرؤية
التداولية من البحث العربي، وكذا أصول هذا
التوجه في دراسات القدماء عامة، خاصة عند عبد
القاهر الجرجاني، إن هذه الأسئلة المشروعة
وغيرها يمكن أن تكون مدخلا نظريا وتأسيسيا،
بهدف الكشف عن أبعاد التداولية في أبحاث
القدماء، خاصة في تراث البلاغيين الذين استوت
في تصوراتهم الأسس التداولية لقراءة الخطاب
القرآني، فتطمح جهود كهذه إلى وضع إطار معرفي
للسانيات تداولية عربية تدرس الاستعمال اللغوي،
في تجاوز لوصف البنية وشكلها النحوي، لعلها
تكون دافعا لدراسة نصية متكاملة، من وجهة نظر

والحجاج التقويمي الإصلاحي من الإستراتيجيات الأخرى التي وظفها الجرجاني لبلوغ مقاصد بعينها. وبالعودة إلى "خطاب المقدمات" كأهم استراتيجية وظفها الجرجاني والمتعلقة بموضوع القصدية والتي سنركز الدراسة حولها، فإن القارئ يستدل على ذلك من خلال إلحاحه له بأنه لم يدخل بعد في صميم كتابه، وهو أسلوب يعكس استراتيجية هامة في التأليف ذات بعد تمهيدي لما سيأتي بعده، توثق عرى التواصل بين الاستهلال وفصول المتن، من ذلك قوله

«وليس يتأتى لي أن أعلمك من أول الأمر في ذلك آخره، وأن أسمى لك الفصول التي في نيتي أن أحررها بمشيئة الله عز وجل. حتى تكون على علم بها قبل مودها عليك»⁽⁶⁾.

كما وقف الجرجاني كثيرا عند قضية التفاعل بين التغيير الدلالي (اللفظي) والتغيير التركيبي النظمي، مضيفا رابطا جديدا لثنائية البلاغة والفصاحة والمتمثل في ثنائية (اللفظ، النظم، وبالتالي يربط خطاب الاستهلال بخطاب المتن)⁽⁷⁾ فالعلامات الموظفة من المخاطب غير عديمة القصد: "ذلك أنه لا وجود للتواصل عن طريق العلامات دون وجود قصدية وراء فعل التواصل ودون وجود إبداع، وعلى الأقل دون وجود توليف للعلامات،⁽⁸⁾ فعن طريق اللغة يتم توصيل تلك المقاصد وإفهامها للمتلقى.

تتشرط العملية التواصلية معرفة بمستويات عدة بين المرسل والمتلقي منها: المستوى الدلالي عن طريق إدراك العلاقة بين الدوال ومدلولاتها، والمستوى النحوي التركيبي في علاقة ذلك بسياق الاستعمال والتوظيف، وكذلك ارتباط ذلك كله بضرورة معرفة الظروف والسياقات المحيطة التي تتشارك جميعا في إنتاج الخطاب⁽⁹⁾، فتقديم بعض الألفاظ مثلا يعكس الاهتمام بها بناء على طبيعة اللغة المستعملة، ومقصدية المتكلم، تمر هذه المقاصد من كونها أنساقا معرفية على مستوى الذهن، لتستقر تراكيب لغوية تستوي خطابا، ذلك أن المقاصد اللغوية الموضوعية في الخطاب تترتب عن مقصد تواصلية إجمالي يتم إدراكه من خلال المجموع الكلي للخطاب.⁽¹⁰⁾

فحتى يحقق القول أغراضه لا بد من مطابقته لمقتضى الحال، وهو من صميم عمل المتكلم، فهو الذي يطلب منه أن يراعي المقامات وتفاوتها طبقا للقواعد والأصول الموضوعية "لأن تنزيل الكلام هذه المنزلة يحتاج إلى إتمام الآلة وإحكام الصنعة".⁽¹¹⁾ كما

هي تلك الحالات التي تملك مضمونا قصديا يدل على شيء أو موضوع، وتأتي هذه الحالات في شكل سيكولوجي معين، وقصدية العقل هي الأساس العميق الذي تشتق منه الصور الأخرى من القصدية، مثل قصدية اللغة أو الصور أو الرموز وغيرها، وتسمى هذه الصور بالقصدية المشتقة⁽⁴⁾.

إن مقاصد الجرجاني في كتبه لا تبدو منفصلة عن سياق عصره الاجتماعي والإيديولوجي الذي يتمثل في الأفكار المذهبية التي اعتنقها، واستعان بها في تأليفه، فتبدو البنية اللغوية محملة بكتلة مقاصدية، والتي هي مدار العملية التواصلية بين المرسل والمتلقي، فإنجاز الأفعال على نحو مخصوص يدل على أن ما اتصل بالوعي منها هو غرض تجب نسبته إلى الأنا.

تحمل كتب عبد القاهر الجرجاني قصدية ما، حين توجه إلى متلقين مخاطبين محددين تبتغي تواصلها ما، من أجل تحقيق التأثير، إذ دعا في خطابه العام إلى: "تجاوز وصف الخطاب وصفا شكليا، وقوفا عند بيان علاقة أدوات الخطاب ببعضها البعض، وتحليلها مؤكدا ضرورة الاهتمام بعناصر السياق في إنتاج الخطاب وفي تأويله⁽⁵⁾، كل ذلك في ضوء البلاغة التي ليست صناعة لغوية صرفة، بل هي العلم بالمعاني كما فهمها عبد القاهر الجرجاني.

ولتواصل أفضل يمكن استخدام وسائل كثيرة، من بينها "خطاب المقدمات" الذي يهدف إلى إثارة اهتمام المتلقي، وهو أمر حرص الجرجاني على اعتماده في مقدمات كتبه، وهو ما يصطلح عليه "بخطاب الاستهلال" الذي يأتي مثقلا بمقاصد صاحبه، ودواعي تأليفه، إلى جانب ذلك اعتماده استراتيجية الإستفهام كآلية لبلوغ القصد من الخطاب، تمثله في خطاب الجرجاني تلك التساؤلات المضمرة التي يوجهها إلى مخاطبيه.

يشير الجرجاني في مقدمات كتبه خاصة "دلائل الإعجاز" إلى مكانة العلم وأهميته وقيمته، وأهمية إنقان علم النحو، مفصحا بذلك عن أهداف التأليف، ومقصدية ذلك تفعيل دور المتلقي في عملية التخاطب ويتشكل الخطاب الشعري/الأدبي وفق الأحوال النفسية لقائله ضمن بنية نفسية وسياق عام، وهو يتحول من حال إلى حال تبعا لمقصديته قائله وحالته النفسية.

يروم الجرجاني من وراء هذا المنهج المعتمد في كتبه إطلاع القارئ على مضمون الخطاب وتهيئة للإقناع والإقتناع، فالإقناع القائم على التدليل أو الحجاج بنوعيه: الحجاج التوجيهي التعليمي

لتصبح الكلمة ملتصقة ومقرونة بتجاوبه وميوله، ونزاعاته ورغباته وانفعالاته الخاصة.

وحسب الجرجاني فالمعنى هو الذي يتحكم في اختيارات المتكلم اللفظية والتركيبية قصد حصول فائدة ما، وجاء تقسيم الجرجاني المعنى على هذا النحو: "المعنى" و"معنى المعنى" ويشرح الجرجاني تقسيمه هذا في كتابه الدلائل قائلا: نعني "بالمعنى": ذلك المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة، و"بمعنى المعنى": أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر (14)

فتظهر الإرادة الاستعمالية في ظهور القول المنجز استنادا إلى قصد المتكلم، وقد يقتضي لسياق المقام انحراف القول عن الأصل المتواضع عليه إلى ما يعرف "بالعدول أو الانزياح" يقول في ذلك الجرجاني: "وإنما تكون المزية ويجب الفضل إذ احتمل في ظاهر الحال غير الوجه الذي جاء عليه" (15)، فالعدول والانزياح إذن انتقال في الصياغة اللفظية التركيبية، يؤدي إلى انتقال في المعنى إلى المعنى التالي الأبعد المرتبط بالسياق، ذلك أن "الدينامية هي التي تنشئ التغيير في المعرفة اللسانية" (16)

يتأتى ذلك أكثر مع صفة العدول المهيمنة في القول، فإضافة إلى المعنى المتواضع عليه، تنقل حمولة (المعنى) التراكيبي لمعنى آخر مرتبط بمقام التخاطب وظروف إنتاجه "وهو ما اصطلح عليه الجرجاني بمعنى المعنى"، لبلوغ المقاصد الخفية في التراكيبي يستوجب توظيف آليات مضاعفة نحو التأويل، فيسمى اكتشاف معنى المعنى - عند الجرجاني - أهم مرحلة من مراحل الفهم والتأويل في النصوص والخطابات، وبذلك يرى الجرجاني أن معنى المعنى يرتبط أساسا بالغموض، المتأني من الجانب الفني الجمالي الذي يمثله العمل الأدبي في شكله الشعر أو النثر.

يقول محمد يونس علي إن التصور المقصدي في الدلائل قد حاول استيعاب المادة الإنزياحية وتهذيبها، بجعلها مشروطة بالنظم وتابعة له برغم الاضطراب الواقع في ذلك، مما يكشف الأبعاد التداولية في ذلك، إن مصطلح معنى المعنى مثير للجدل فيما إذا حاولنا إدراجه تحت أحد طرفي التقابل الثنائي:

"الدلالة المركزية والدلالة الهامشية"، ذلك أن مقصوده من هذا المصطلح هو ما يمكن تسميته بالمعنى الاستنتاجي في مقابل المعنى الحرفي. (17)

يلح الباحث محمود يونس علي على ضرورة التمييز بين "معنى المعنى" ومصطلحي المعاني

يحتاج إلى اقتناع المتكلم بأن "سياسة البلاغة أشد من البلاغة" (12)

وبذلك فلا "وجود للتلفظ إلا بتوفر قصد المرسل، وذلك يتجاوز مجرد النطق بأصوات فقط". (13) فكل عبارة تعبر عن اعتقاد وقصد من المتكلم، وبذلك كان سيرل ينظر إلى الكلام على أنه نوع من الفعل القصدي، فيعتبر المخاطب (المستمع / المتلقي) قطبا آخر من أقطاب العملية التواصلية، فمراعاته ومراعاة مقامه وجلب انتباهه مما يؤثر في تركيب الجمل، وفق ترتيب معين، ذلك أن امتلاك حالة قصدية ما يستوجب امتلاك مجموعة أخرى من الحالات القصدية.

- معنى المعنى - فى النظم وقضايا العدول والانزياح عند الجرجاني، التركيب المجازي نموذجاً:

ينشأ الإنسان مجردا من أية لغة، لكنه يكتسبها بمرور الزمن، حتى يصبح كيف اللغة ويتداولها حسب المقامات المختلفة، ومقتضى حال المخاطبين، مما يستوجب توظيف طرائق وأساليب متعددة للغة، ويتميز الكلام بتعدد أنماطه الخطابية، مما يمنح الحرية للمتكلم في اختيار النمط الكلامي المتلائم مع مقاصده والمقامات التي يوجد فيها.

انطرحت "قضية معنى المعنى" في النقد العربي القديم في ضوء البحث عن "وظيفة الشعر"، أي بين إبلاغ يحقق فائدة أو مجرد المتعة الفنية، إذ غالبا ما يبنى الأديب جملته يقصد بها معنى بعيدا غير ذلك المؤلف المفهوم عادة من ظاهر القول، وهو ما اصطلح عليه "بمعنى المعنى"، لقد اهتم الجرجاني بعملية التخاطب من خلال اهتمامه بأطرافها

(المتكلم-المخاطب-الخطاب-السياق-الكفاءة) فالصلة وثيقة بين نظم الكلام، وقصدية التواصل بين طرفي الخطاب، بعيدا عن العفوية والارتجال، يشير الجرجاني إلى وجود ضربيين في استعمال الكلام "ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن أحد مثلا بالخروج على الحقيقة، فقلت (خرج زيد)، وبالاتفاق عن (عمرو) فقلت عمرو منطلق، وعلى هذا القياس، وضرب آخر أنت لاتصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن بدلالة اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والإستعارة والتمثيل". فتتعدد مستوياته في الدلالة والتأثير، فالتركيب اللغوي على هذا النحو يمنح المتكلم فرصة إضفاء ذاتيته الخاصة على اللغة، لتصبح جزءا من ذاته ومقاصده،

معنى المعنى⁽²²⁾.

يصبح من الواجب أن نفحص اللغة، ونرقب الدلالات، وهل احتملت هذه الألفاظ الرغائب والمقاصد على متونها إلى عقولنا، أم أنها نبهت بألفاظها إلى الشيء، هذا الشيء هو الآخر نبه إلى شيء آخر، وأن اللغة لم تحمل إلينا معاني قائلها، وإنما حملت إلينا مقاصدهم⁽²³⁾، فحسن الدلالة حسب الشيخ راجع إلى العلاقات والروابط والأنساق اللغوية.⁽²⁴⁾

فالترتيب الذي جعله رأس كلامه هو ضرب واحد من الصيغة، تكون به المعاني متتابعة لها أول وآخر ووسط، وأن أمرا منصوبا أو عقليا اقتضى هذا الترتيب، فجعل الأول أولا والآخر آخرًا والوسط وسطًا، وهذا الترتيب يتضمن خصوصيات المعاني وصورها وهيئاتها⁽²⁵⁾، وبذلك كانت عناية القدامى منهم عبد القاهر عناية شديدة ببيان أصل الكلام وروابطه وعلاقاته، ذلك أن جهود المتكلم إنما تتجه إلى هذه الروابط وهذه العلاقات، وأن جوهر النص ليس هو هذه الألفاظ، وإنما هو هذه الروابط والصلات، وما هذه الروابط والصلات إلا عمل العقل في اللغة، فهو الذي يحدث تلك المشابك وتلك الروابط إذ لا يصير الكلام شكلا لغويا إلا بهذه الروابط.⁽²⁶⁾

إن بحث عبد القاهر في مسألة الغموض لا تعكس تأييده لهذا النمط من الكتابة، إذ لم يجعله علامة الجودة حين ميز بين الغموض المطلوب في العمل الأدبي، والتعقيد السلبي الناشئ عن ضعف وعجز من المبدع عن التعبير المناسب عن مقاصده، لتحقيق التأثير المناسب. فلا بد من الوقوف على الخصائص التي تعرض في نظم الكلام، فإن كانت فعلا سألت عن سر مجيئها فعلا، وإن كانت معرفة سألت عن سر تعريفها، ولماذا كان التعريف بالإشارة أو الاسم الموصول، والألف واللام، وهو باب واسع، كان الجرجاني يرى أنك إذا فتحتة حصلت منه على فوائد جليلة⁽²⁷⁾، فالنص الفني الأصيل، هو ذلك الذي تتعدد وجوه الرؤى والتأويل فيه، مما يحرض المتلقي على التأمل والتفكير وبذل الجهد للوصول إلى مكانه الخفية.

وهكذا يربط الجرجاني الأعمال الجميلة كلها في نسق واحد، فمنهج البحث عن الجمال حسبه وفي هذا كله منهج واحد، كما لا تكون على شيء من معرفة الكلام ما لم تتفقد كل خصوصية، فيقول: "حتى ترى عينا كيف تذهب تلك الخيوط وتجيء؟ وماذا يذهب منها عرضا، وثم يبدأ؟ وبم يثني؟ وبم يثلث؟ وتبصر من الحساب الدقيق، ومن عجيب تصرف اليد ما تعلم

المركزية والمعاني الهامشية كمفهومين عند الجرجاني لا يوازنان مصلحي المعاني المركزية والمعاني الهامشية، وحسبه "معنى المعنى" عند الجرجاني هو القصد بلا إبلاغ، يتحقق فيه الغرض الإبلاغي للمتكلم المخاطب، بينما يتوجه المتلقي إلى معنى المعنى ولا يقتصر على المعنى الحرفي في الملفوظ.⁽¹⁸⁾

فالمعنى الأول هو المعنى المباشر، إنه يتمثل في كل معنى مرتبط مباشرة بمكونات الجملة، ويمثل الحاصل الدائم والمباشر لتألف العناصر المكونة لهذه الجملة، ولا يكون في هذا المستوى الحصول على المعنى في حاجة إلى تأويل، حيث لا يمكن الحديث عن قيام التأويل أو عدمه، لأن المعنى في هذه الحدود، ويكون في السياق الصفر، ولا حديث عن تأويل أو عدمه إلا بعد الاستعمال، ولمزيد من التوضيح في التفرقة بين المعنيين يوضح الجرجاني: "فالمعاني الأولى المفهومة من أنفس الألفاظ هي المعارض والوشي والحلي، وأشبه ذلك المعاني الثواني التي يشار إليها بتلك المعاني، هي التي تكسي تلك المعارض وتزين بذلك الوشي والحلي"⁽¹⁹⁾

وبذلك يلتقي الجرجاني في تقسيمه هذا للمعنى بسورل في تقسيمه هو الآخر: "المعنى المباشر والمعنى غير المباشر، حيث يطابق المعنى (الحرفي) المباشر حرفية الملفوظ في استعماله المباشر، ويقتزن المعنى الثاني باستعمال غير مباشر، متعلق بالتلفظ وظروف التخاطب"⁽²⁰⁾، إذن فالوصول إلى معنى الملفوظ مترتب على واحدة المحيط الثقافي الذي ينتمي إليه المتكلم والمخاطب، وهي وحدها المسؤولة عن تحقيق الفهم المشترك للمعنى الحرفي.⁽²¹⁾

فهذه المعرفة هي التي تمكن المخاطب من تحديد ما إذا كان المعنى المباشر هو المقصود، أو أنه يتوجب عليه القيام بتأويل، يرى الجرجاني أن الوصول إلى الدلالة المضمررة القائمة في القول يكون بالتوسل إلى اللفظ والمعنى معا، إذ كلاهما له دور مهم في النظم.

فموقف الجرجاني بضرورة الغموض أو درجة منه في الشعر الجيد، هو ما يعكس مقدار الوعي النقدي الكبير، غير أن المبالغة فيه قد تؤدي إلى سوء النظم والتأليف، وانغلاق الكلام وتعقيده، كما ينم الغموض لأن صاحبه يجعل السهل صعبا، ويجعل طريق الوصول إلى المعنى شائكا، والمراد حسبه بغموض كلام العلماء هو غموض الدلالة لا دلالة اللفظ، فالمراد إذن حسب الشيخ هو ترتيب اللفظ، وهو الكناية عن ترتيب المعاني التي تقضي بناء إلى المقصود الذي هو

مجرد التفكير في موقف نموذجي ليشمل كل جوانب عملية الاتصال من الإنسان والمجتمع والتاريخ... والغايات والمقاصد⁽³¹⁾

ومن المصطلحات التي تستعمل استعمال المقام والحال نجد: الموضوع، المشكلة والمطابقة والاقتضاء، والظرف والسياق، وجميعها فروع عن أصل ثابت في تفكير اللغويين العرب⁽³²⁾، يكون بذلك المقام هو الموقف المأخوذ من نسيج الثقافة الشعبية في زمن من الأزمنة في تطورها من الماضي إلى الحاضر.⁽³³⁾

وفي ضوء ما سبق تصبح المقامات هي جملة الظروف الحافة بالنص بما في ذلك السامع نفسه، وهو إجمالاً التلازم بين نوع الحديث وملابساته، ونوع اللفظ، فلجد موضع وشكل، وللهلز موضع وشكل⁽³⁴⁾.

قامت النظرة البلاغية عند العرب على اشتراط "موافقة الكلام لمقتضى الحال"، التي توافق المقولة السائدة "لكل مقام مقال"، سياق الحال خاصة وهي حال المتكلم والمخاطب وسائر ما يأتلف منه "المقام"، ورصد ما يكون من تأثير ذلك في تشكيل الكلام وتأليفه على هيئات في القول تنتوع وفقاً لتتوع المقامات.⁽³⁵⁾

لما قال البلاغيون "لكل مقام مقال" ولكل كلمة مع صاحبها مقام". أرادوا أن يقرروا من الوجهة العلمية مبدأ يصح تطبيقه على جميع الاتجاهات والمدارس في العلوم اللسانية والإنسانية عامة، هذا المبدأ هو وجود علاقة لا يمكن تجاوزها تنظيراً وتحليلاً بين المقال وما يكتنفه من ظروف ومواقف وسياق اجتماعي.

ولأمر ما جعل المفسرون والأصوليون من المعرفة بأسباب النزول أصلاً من أصول تفسير القرآن الكريم واستنباط الأحكام لا يقوم إلا به، وما المعرفة بأسباب النزول إلا استحياء للمقام لا مندوحة عنه لفهم المقال⁽³⁶⁾، والحال أمر يقتضي أن يؤتى بالكلام على صفة مخصوصة تناسبه، كالإنكار مثلاً إذا اقتضى أن يورد الكلام مع صاحب ذلك الإنكار مؤكداً، فالكلام الموصوف بالتأكيد مقتضاه⁽³⁷⁾، فمثلاً كون المخاطب منكراً للحكم حال يقتضي تأكيد الحكم، والتأكيد مقتضى الحال.

بناء على ذلك تصبح مقامات الكلام متفاوتة ومتباينة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنية يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يباين مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يباين مقام البناء على الإنكار، ومقام الكلام مع الذكي يباين مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك

معه مكان الحذق، وموضع الأستاذية⁽²⁸⁾.

يرى الجرجاني أن باب معنى المعنى أكثر ما يظهر يظهر في الكناية، والاستعارة والتمثيل، نحو قولك: رأيت غيثاً، وأنت تريد الجواد، إنما دل لفظ الغيث فيه على معناه الموضوع له في اللغة، وهو ماء السماء على فلان، إلا إذا أريد من الغيث معنى من معانيه، تقرب من المشبه مثل الوفرة، وأنه غامر لكل ما حوله لا يخص أحداً، وأن عطاءه للناس حياة ونظارة... والباقي عليك أيها المتلقي، فتصبح متكلماً تملأ الفجوات، فيكون الكلام الذي تدرسه بعضه لقائله، وبعضه لك، لأنك أوقدت ناره وقحنت ناره وأسرجت أنواره. فباب التشبيه والاستعارة أخوان يتفقان مع الكناية في أن الدلالة فيهما هي من باب "معنى المعنى"، وأن المعنى الذي تنتقل منه هنا إلى المعنى المراد هو المشبه به، أو هو المستعار، فيجب أن يكون وجه الشبه مفتوحاً.⁽²⁹⁾

الجرجاني مما تقدم لا يعارض الوضوح والقرب في المعاني الأدبية، شريطة أن لا يصل هذا الوضوح إلى حد السطحية والركاكة والضعف، وإن كان الغموض عنده أولى.

التبدل المعنوي وظروف المقال غير اللغوية:

تتم عملية التخاطب وفق شبكة معقدة، تؤكد مدى أهمية ظروف المقال غير اللغوية كالمتكلم والسماع، مما يسمح بتحديد خصائص الخطاب، إذ لا تلغى الخبرة المشتركة في تحديد معاني المفردات والجمال بين المتكلم والمتلقي.

لم يغفل علماء العربية منذ وقت مبكر في دراساتهم اللغوية والبلاغية عما يحيط بظاهرة الكلام من الملابسات، كالسامع والمقام وظروف المقال، وكل ما يقوم بين هذه العناصر غير اللغوية من روابط، وهو مبدأ أصيل في تراثنا البلاغي العربي، وما أكثر ما أفاض الباحثون في علوم القرآن في بحثهم عن أسباب النزول قصد الوصول إلى التفسير الصحيح لأي القرآن، كما تحدث علماء الحديث عن أسباب ورود، وتحدث الأدباء والنقاد عن أسباب وظروف الإنشاد... ومن ذلك ما أورده الجاحظ في قوله: "جماع البلاغة التماس حسن الموقع والمعرفة بساعات القول، وأن لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوق... ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم"⁽³⁰⁾

يوضح تمام حسان المقصود بالمقام قائلاً:

"فالذي أقصده بالمقام ليس إطاراً ولا قالباً وإنما هو جملة الموقف المتحرك الاجتماعي، الذي يعتبر المتكلم جزءاً منه كما يعتبر السامع والكلام نفسه وغير ذلك مما له اتصال بالكلام، وذلك أمر يتخطى

مقتضى غير مقتضى الآخر.⁽³⁸⁾

يؤكد الجرجاني تباين صيغ المقال تبعاً لتغير المقام، يقول: "أن مقام التنكير أو الإطلاق من الممدوح أو التقديم أو الذكر أو قصر الحكم أو الإيجاز... غير مقام التعريف أو التقييد أو التأخير أو الحذف، أو عدم القصر أو الوصل أو الإطناب"⁽³⁹⁾. وبذلك فإن المقام موقف يتطلب نوعاً من الألفاظ تجاوزت بطريقة ما لتؤدي مراداً ما، بناء على ذلك يتحكم المقام في توزيع الظواهر الأسلوبية من تقديم وتأخير وتعريف وتنكير وحذف وذكر، وقصر، وفصل ووصل، وإيجاز وإطناب.

فبالعلاقة التضامنية بين (المقام والمقال) يظهر المعنى الدلالي ويتوضح المقصود منهما، فالمعنى المقالى يتكون من ظروف أداء المقال، تلك التي تشمل على المحددات الدلالية الحالية فيما تعرف باسم المقام.⁽⁴⁰⁾

ومن العناصر البلاغية التي يمكن أن يفهم من خلالها معنى المقام "الاستعارة التمثيلية" التي تلعب دوراً مهماً في المقام، إذ قد يستعار لمقام مقال مشابه ذائع ومشتهر، نحو قولهم (قطعت جبهة قول كل خطيب) أو (لا تجني من الشوك العنب)، إذ قيلاً في موقف مماثل لما وضع له أصلاً رغم تباعد الزمن، وانتهاء المقام الأصلي الذي قيل فيه، بينما بقي عنصر المشابهة بين الموقفين هو مسوغ الاستدعاء، فيصير المقال القديم جزءاً من المقام الجديد، فيدخل في تحليله.⁽⁴¹⁾

إن قضية فهم المعنى أو المقال قضية شائكة خلفت ردوداً كثيرة لكل منها آلياته، إذ اختلاف المعنى مترتب عن اختلاف المقام، وبالتالي تتعلق معرفة المعنى الدلالي بمعرفة المقام الذي سبق فيه.

وعليه فإن الحصول على مقاصد الأقوال، يتجاوز المعنى الوظيفي والمعنى المعجمي فقط على أفراد أو مجتمعين، ولكن يفهم أخيراً من المقام الاجتماعي الذي سبقت فيه هذه العبارة⁽⁴²⁾، مثال ذلك حرف النداء (يا) إذا سبق لفظ (سلام)، فهذه العبارة صالحة لأن تدخل في مقامات اجتماعية كثيرة، يتغير ويتبدل معها المعنى الدلالي المراد (فمن الممكن أن نقال هذه العبارة في مقام التأثير، وفي مقام التشكيك أو في مقام السخط، وفي مقام التوبيخ، وفي مقام الإعجاب، وفي مقام التلذذ وفي مقامات أخرى كثيرة غير ذلك).⁽⁴³⁾

إن اللغة ظاهرة وفعل اجتماعي تحكمه ضوابط وعوامل اجتماعية، فغالباً ما تحدد هذه العوامل اختيار العبارة اللغوية المناسبة للمقام، أو اختيار اللغة المناسبة في المجتمعات متعددة اللغات⁽⁴⁴⁾، وبذلك يتجسد المعنى في اختيار المتكلم مستوى لغوي بعينه، وعبارات لغوية

محددة حسب متطلبات الموقف والمقام.

إن العلاقة بين المقام والمقال تسير في اتجاهين على نحو مستمر، فكما أن المقال دليل على المقام، فكذلك نجد المعرفة بالمقام جوهرية في فهم المقال.⁽⁴⁵⁾

إن للعربية عدة مستويات منها لغة المثقفين، واللغة الفصحى، والعامية، ولكل من هذه المستويات وظائف، فالعامية للتسوق مثلاً، والفصحى للإذاعة الأخبار في الإذاعة والتلفاز، ولغة المثقفين للحوار الشفهي بين المثقفين العرب من الوطن أو خارجه، يجرى فيها التهذيب للعامية باتجاه الفصحى أصواتاً ومعجماً ونحواً، فمن يستمع مثلاً إلى حديث ديني لسماحة الشيخ الشعراوي -رحمة الله عليه- يلاحظ أن لغة خطابه هي الفصحى، غير أنه يتحول في بعض الأحيان إلى العامية القاهرية لغاية اجتماعية، رغبة منه في توصيل مفهوم أو تفسير أية لفريق مستمعيه، ممن قد لا تؤهلهم قدرتهم اللغوية لفهم كامل اللغة الفصحى.

فالوظيفة النصية تختص ببناء الحدث اللغوي (المقال)، وذلك باختيار الجمل المناسبة للمقام ولقوانين النحو، ولتنظيم المحتوى بطريقة منطقية مترابطة تتسق مع عملية الاتصال في مجموعها⁽⁴⁶⁾، فقد يخاطب المعلم طلابه بالاسم الأول، غير أن الطالب يلجأ عند مخاطبة معلمه إلى استعمال لقب نحو (يا أستاذ)، (يا دكتور).

ونلمس الأمر ذاته عند استعمال ضمير المخاطب، فالمشارك الأدنى رتبة أو مكانة في الموقف اللغوي يخاطب محدثه باستعمال ضمير الجمع، بانتقاء مفردات التبجيل والاحترام نحو: أنتم أمرتم بهذا، سيادتكم قلتم كذا، سيادتكم أصدرتم قراراً، علماً بأن الشخص المخاطب في كل هذه الأمثلة وما يشابهها هو شخص واحد مفرد، وميم الجمع والمفردات المختارة هنا هي مجرد أدوات لغوية ذات مدلولات اجتماعية يفهمها الناطقون بالعربية، بينما يكتفي المشارك الأعلى رتبة أو مكانة باستعمال ضمير المفرد، ولا يكون ملزماً بالعرف الاجتماعي باستعمال عبارات التبجيل، ولكن إذا استعمل المتكلم الأعلى رتبة عبارات التبجيل في مخاطبة من هم دونه رتبة ومكانة، فإن ذلك غالباً ما يحمل محمل السخرية والتهكم اجتماعياً.

ولهذا أصبح لزاماً على الكاتب أو القارئ -عندما يتعلق الأمر بالنصوص المدونة التي فقدت عنصر المقام الاجتماعي، فخفي علينا من ظروف قولها أشياء كثيرة- أن يعيد تكوين هذا المقام بتصور ما يمكن تصوره من أحداث⁽⁴⁷⁾ وغالباً ما يترتب استعمال الفصحى في الأحاديث العائلية غير الرسمية عن دوافع رئيسية وقومية، فحتى يكون الكلام بليغاً يجب أن يلائم

فيه اللفظ المعنى، والكلام والمتلقي، والظروف الخاصة المحيطة بكل خطاب والتي يتجدد بتجدها.

فهذه المعاني الاجتماعية تؤدي إلى قيود على اختيار اللغة ومستوياتها، تحددها العلاقات الاجتماعية والوظيفية بين المتحدثين، إضافة إلى المقام أين يتمكن المتكلم من توظيف إمكاناته اللغوية من أجل نجاح الخطاب، ولأداء المعنى الاجتماعي المراد، وكفاءة الاتصال دور في اختيار الأنسب منها من المقام والمعنى الاجتماعي المقصود، فالمعنى الدلالي لا يتضح بمجرد النظر إلى معنى "المقال". وعليه فالمقام يعتبر عاملاً مهماً في تحديد محتوى القضية "وكما كان وصف المقام أكثر تفصيلاً، كان المعنى الدلالي الذي نريد الوصول إليه أكثر وضوحاً" (48). وبذلك فنجاح القول مرهون بمناسبته لظروف أخرى غير لغوية، إذ تضمن المناسبة توحي معاني النحو وأحكامه أولاً.

صلة النظم البياني بالدلالة من خلال دلالة الإعجاز:

البيان في اللغة هو الكشف والإبانة والوضوح، إذ ورد في مقاييس اللغة لابن فارس قوله: "البيان من بان الشيء وأبان، إذا اتضح وانكشف، وفلان أبين من فلان أي أوضح كلاماً منه" (49).

ولقد عرف البلاغيون علم البيان بأنه إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه (50)، وذلك بمطابقة كل منها لمقتضى الحال، وعرف الجاحظ البيان بأنه: "الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي" (51).

ويقول أيضاً عنه إنه: "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهناك الحجاب دون الضمير... فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع" (52)، فكانت رؤيته هذه بذورا لمباحث متعددة نماها البيانون، فانطلقوا منها في نظرتهم للدلالة البيانية في البلاغة العربية، وكان الجرجاني من أبرز هؤلاء الذين جاؤوا بعد الجاحظ (53).

وقد حاول الجرجاني توضيح مفهوم لفظ البيان بقوله: "ثم إنك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً وأسبق فرعاً من علم البيان، الذي لولاه لم تر لساناً يحرك الوشي أو يصوغ الحلي" (54)، لذلك يشترك الجرجاني مع سابقه في نظرتهم إلى "البيان" الذي يعني الكشف والإيضاح عما في النفس والدلالة عليه، اقتراباً من التعريف الاصطلاحي الذي يعرف البيان بأنه علم ذو "أصول وقواعد، يعرف بها إيراد المعنى الواحد بطرق يختلف بعضها عن بعض في وضوح الدلالة

العقلية على نفس ذلك المعنى" (55).

غير أن الجرجاني تجاوز ما تداول في هذا العلم من علماء زمانه بإضافة على ما قدموه سواء في تناول أو التحليل والأسلوب، يقول في ذلك شفيع السيد: "إن الجرجاني قد اختلف عن سابقه في تناوله للبيان بإضافته إلى البحث البلاغي، ووصف التقاليد الفنية للبيان العربي، والحديث عن أصوله وظواهره التي تتراءى من خلال النصوص الأدبية، ناهيك بالدراسة المستفيضة العميقة الأبعاد" (56)، بناءً على ذلك كان تناول الجرجاني للبيان تناولاً دلالياً معتمداً المنهج التحليلي الذي يوظف اللغة كعنصر تحليلي في دراسات البلاغة. تتوضح أكثر علاقة النظم البياني بالدلالة في تناول الجرجاني لمسألة الانحراف؟ أو العدول عن الأداء المألوف، إذ لاحظ وجود نمط دلالي أولي في المستوى المستقيم أطلق عليه "المعنى" ثم نمط دلالي مولد عنه في المستوى المنحرف أو المعدول عنه، أطلق عليه "معنى المعنى"، مع الإشارة إلى أن النمط الأخير سيمتد قوامه من ركيزتين تتصل إحداها بالصياغة اللفظية، والأخرى بحركة العقل وقدرته الاستنباطية (57).

الخاتمة:

أظهرت هذه الدراسة أن الجرجاني قد بين الكيفية المثلى لتلقي الخطاب البلاغي بعيداً عن التأويل المتأثر بمعالم الذات القارئة، حينما أكد جدوى "نظرية المقصدية" وأهميتها في الدرس اللغوي والبلاغي خاصة، باعتبارها أساس كل فعل كلامي، مما يعكس الأبعاد التداولية المبكرة في أبحاث القدامى، فهذه النظرية التي تعنى بالجانب الدلالي في اللغة، والتي نمت في ظل "قضية اللفظ والمعنى" اتضحت أكثر من خلال ذلك التنظير البلاغي الذي قدمه الجرجاني حول مسألة النظم، إذ تحمل كتبه قصيدة ما، حين توجه إلى مخاطبين محددين ابتغاء تواصل ما.

ومن الإستراتيجيات الكثيرة المتعلقة بموضوع القصدية لضمان تواصل أفضل، وظف الجرجاني وسائل كثيرة، من بينها "خطاب المقدمات" الذي يستهدف اهتمام المتلقي أساساً، ويحمل مقاصد صاحبه، ودواعي تأليفه، والذي يروم الجرجاني

من وراء اعتماده هذا المنهج المعتمد في كتبه- إطلاع القارئ على مضمون الخطاب وتهيئة للإقناع، مما يوثق عرى التواصل بين الاستهلال وفصول المتن، فيترتب عن هذه المقاصد اللغوية الموضوعية في

الخطاب مقاصد تواصلية إجمالية يتم إدراكها من خلال المجموع الكلي للخطاب.

ولقد تميز الجرجاني عن معاصريه وسابقيه بمعالجته لفنون البيان من (حقيقة، مجاز، استعارة، تشبيه وتمثيل)، مبينا أثرها الدلالي في النصوص الأدبية وربطها بسياق المعنى، فهناك علاقة وطيدة بين البلاغة وعلم الدلالة، فإذا بتعدد الألوان البلاغية وتنوعها يتبدل المعنى الدلالي، فتتفاعل البلاغة مع علم الدلالة لتثمر المقال والمقام، ويظل المعنى المحدد من صنع السياق، سواء كانت الكلمة أو الكلام على سبيل الحقيقة أو على سبيل المجاز، فكل كلمة معنيان: المعنى الأساسي المعجمي، والمعنى السياقي الذي تأخذه الكلمة حينما توضع في سياق يحدد معنى الجملة بأكملها، يصبح بذلك السياق مسؤولاً عن المعنى المحدد للكلمة. وبذلك فالجرجاني في بحثه لعلم البيان أوضح انطلاقه من (معنى المعنى)، أي في تعلق المدلول الأصلي بالمدلول المجازي، إذ اللفظة الموضوعية أصلاً بالمطابقة لمدلول أصلي تحيل بسبب علاقة ما على مدلول آخر، ثم إن وصف الكلمة بالمجاز متعلق بدلالاتها في الجملة لا بخصوصيتها اللغوية، أو

بجملة الأحوال التي تتعلق بمحلها من النسق اللغوي. فالكلمة المفردة خالية من حرارة الانفعال، مجردة من أية علاقة بين ما سبقها ولحقها من كلمات تحدد هويتها فلا بد من أن توضع في سياق ما حتى يتحدد معناها، فالعلاقة بين اللفظ المفرد والمعنى تحدد بشكل واضح نوعية الأسلوب ومقصوده، وما أراد المتكلم منه، فإذا استغلق الموفق علينا إلى حد لا نستطيع معه القطع بشيء، حملناه على المجاز، فالمجاز نموذج من نماذج تبدلات المعنى، كما يتم تبدل المعنى وتغييره نتيجة لعنصري المقال والمقام، فاستخدام اللفظ في غير ما وضع له أصلاً، إكساب له معنى جديداً غير معناه الأليف المشتهر، وهو المعروف دلالياً بانزلاق المعنى. وقد لاحظ الجرجاني مسألة الانحراف عن الأداء المؤلف الذي يطلق عليه "المعنى"، ثم نمط دلالي مولد عنه في المستوى المنحرف يطلق عليه "معنى المعنى"، وهو ما بسطه في نظريته "النظم"، التي بين فيها أن المزية في الكلام لا تعود إلى الألفاظ من حيث كونها ألفاظاً، وإنما إلى النظم والتركيب.

الهوامش:

- 1- ينظر: السيد أحمد عبد الغفار-النص القرآني بين التفسير والتأويل، دار المعرفة بيروت، ط: 2، 1982، ص: 25.
- 2- محمد عبد المطلب: البلاغة العربية (قراءة أخرى)، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، القاهرة، ط: 1، 1997، ص: 30.
- 3- ينظر علي النجدي ناصف: من قضايا اللغة والنحو -القاهرة، ط: 1، 1975، ص: 82 .
- 4- صلاح إسماعيل: نظرية جون سورل في القصيدة، دراسة في فلسفة العقل، مجلس النشر العلمي، الكويت، ط: 1، 2007، ص: 109.
- 5- ينظر عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المستحدث، لبنان، ط: 1، 2003، ص: 36.
- 6- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، السعودية، ط: 03، 1992، ص: 42.
- 7- ينظر المصدر نفسه، ص ن
- 8- ينظر عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، م س، ص: 30.
- 9- ينظر المرجع نفسه، ص: 10
- 10- ينظر أن روبرول و جاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان، ط: 1، 2003، ص: 206.
- 11- الجاحظ : البيان والتبيين ،شرح علي أبو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت ، ط: 1، 1988، ج 1، ص: 161
- 12- المصدر نفسه 197/1.
- 13- طه عبد الرحمان: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي ، ط: 2، 2006، ج 1 ص: 191.
- 14- الجرجاني: دلائل الإعجاز، م س، ص: 203.
- 15- الجرجاني: دلائل الإعجاز، م س، ص: 257.
- 16- محمد نظيف: الحوار وخصائص التفاعل التواصل، إفريقيا الشرق ، 2010 ، ب ط، ص: 55 .
- 17- ينظر محمد يونس علي: المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الإسلامي للتوزيع، 2007، ب ط، ص: 206.
- 18- ينظر المرجع نفسه، ص: 207.
- 19- المرجع نفسه، ص: 264
- 20- حافظ إسماعيل علوي: التداوليات، علم استعمال اللغة، منشورات عالم الكتب الحديثة، الأردن، 2011، ب ط، ص: 208.
- voir : J. Searl : sens et expression, traduction et préface par j, Proust éd minuit, - 21 1982,p : 170.
- 22- ينظر: المرجع السابق، ص: 89.
- 23- ينظر: المرجع نفسه، ص: 78.
- 24- ينظر: المرجع نفسه، ص: 87.
- 25- ينظر: المرجع نفسه، ص: 89.
- 26- ينظر: المرجع نفسه، ص ن
- 27- ينظر: محمد محمد أبو موسى: مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، مكتبة وهبة ، القاهرة ط : 1، 1998، ص: 309 .
- 28- المرجع نفسه، ص: 87.
- 29- ينظر: محمد محمد أبو موسى، م س، ص: 74.
- 30- الجاحظ: البيان والتبيين، م س، ج 1/92-93
- 31- تمام حسان: الأصول (دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب) الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط، 1988، ص: 333
- 32- ينظر حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب، وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة) دار الكتاب الجديد المتحدة، ط: 1، 2010، ص 208-209
- 33- ينظر: تراث حاكم الزبيدي: الدرس الدلالي عند عبد القاهر الجرجاني، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 1، 2010، ص: 281.
- 34- ينظر حمادي صمود :التفكير البلاغي عند العرب، م س، ص: 302
- 35- ينظر أحمد العلوي :لطبيعة والتمثال، مسائل عن السلام والمعرفة، الشركة المغربية للنشر المتحدين، ب ط، 1988، ص: 254
- 36- ينظر سعد مصلوح: الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، عالم الكتب، ط: 03، 2002، ص: 114

- 37-ينظر الجرجاني: أسرار البلاغة، مكتبة مشكاة الإسلامية، تحقيق محمود شكر، مكتبة الخانجي، مج1، ب ط، 1991، ص 48-49
- 38 -ينظر السكاكي: مفتاح العلوم ن تحقيق عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، ب ط، ب ت ص: 168-169
- 39-الجرجاني: لإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ب ط، 2002، ص: 1
- 40-ينظر:تراث حاكم الزيايدي: الدرس الدلالي عند عبد القاهر الجرجاني، م س، ص: 2
- 41-ينظر المرجع نفسه ص: 281.
- 42-ينظر المرجع نفسه ص ن
- 43-ينظر المرجع نفسه ص ن
- 44-ينظر سعد مصلوح: الدراسات الإحصائية للأسلوب، م س ، ص 114
- 45-ينظر تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: 02، 1979، ص : 351
- 46-ينظر سعد مصلوح: الدراسات الإحصائية للأسلوب، م س، ص: 118
- 47-ينظر محمود السعمران :علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، دار الفكر، القاهرة، ب ط، ب ط ، ص: 265
- 48-تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، م س، ص: 346
- 49-ابن فارس مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر مادة (بَيْن)، ب ط، 1979، ج 13: 62 (50) ينظر الخطيب القزويني، التلخيص في علوم البلاغة، شرح عبد الرحمان البرقوقي، دار الفكر العربي، ط: 02، 1932 ص: 235 وما بعدها.
- 51-الجاحظ: البيان والتبيين، م س، ج: 01، ص: 75
- 52-المصدر نفسه، ج 1 ، ص: 76
- 53-ينظر: تراث حاكم الزيايدي: الدرس الدلالي عند عبد القاهر الجرجاني، م س، ص: 281.
- 54-المصدر السابق، ص: 35.
- 55-تراث حاكم الزيايدي: الدرس الدلالي عند عبد القاهر الجرجاني، م س، ص: 281.
- 56-المرجع نفسه، ص ن
- 57-ينظر المرجع نفسه، ص ن.

مذهب النبي عليه السلام في استشفاف أنماط الذكاء لدى المتفكرين ونوجيها. (مقارنة مقارنة مع نظرية الذكاء المتعدد لجورج جاردنر)

قاسم حاج امحمد

قسم علم النفس جامعة غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000، الجزائر

مقدمة:

تمثل السيرة النبوية التجسيد العملي الحي لقيم القرآن الكريم على أرض الواقع، والضابط الواضح لكيفية تعامل البشر معه، والأمة الإسلامية اليوم بحاجة ماسة إلى مرجعية صحيحة تجسد مبادئ وقيم الإسلام، وتسائر الواقع بمتغيراته ومتطلباته، وكل ذلك متضمن في سيرة رسول الله عليه السلام قولاً وسلوكاً، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: 21).

ولا يقتصر التأسي والإفادة من سيرة رسول الله عليه السلام في الشؤون الدينية فقط كما هو معلوم، بل نجد فيها الكثير من المواقف والنصوص المتعلقة بأسس التربية وأساليبها، وطرق تعليم الناس ورعايتهم نفسياً واجتماعياً.

والبحث الذي بين أيدينا محاولة لإجراء مقارنة ومقارنة في هذا المجال بين ما ورد في السنة النبوية وما تحدثت عنه إحدى أبرز النظريات التربوية المعاصرة، والتي تعرف بنظرية الذكاء المتعدد، لصاحبها هورارد جاردنر، هذه النظرية التي لاقت رواجاً كبيراً، وأصبحت معتمدة في عدد معتبر من المؤسسات التربوية في العالم الغربي والعربي والإسلامي على حد سواء، إذ تعد ثورة على النمط القديم في التقويم الدراسي ورعاية الناشئة، المعتمد على اعتبار القدرات الذهنية فقط على حساب قدرات أخرى لا تقل عنها أهمية.

فأصبح للنجاح والتفوق وفق النظرية الجديدة أبعاداً أخرى أكبر وأوسع، وذلك ما استهوى الكثير من المشتغلين بالتربية والتعليم فتبنوا النظرية وطبقوها عملياً.

فإلى أي مدى تضمنت السنة النبوية من خلال توجيهات النبي ﷺ وأحاديثه ما جاءت به تلك النظرية من مفاهيم وأنواع للذكاء، والتي نسلم إلى حد كبير بصوابها وصحتها، وما أوجه الشبه والاختلاف بينهما؟، وهل ثمة أبعاد أخرى تربوية وردت في السنة وغفلت عنها النظرية بخصوص الذكاء الإنساني بمختلف صوره وأنواعه؟ وطرق تنميته وتوجيهه؟

فالهدف بيان سبق السنة النبوية في الطرح الجديد الذي أتت به النظرية، وما تميزت به عنها، وإبراز جانب هام في السنة النبوية متعلق بتطوير الذات وتقديرها.

وقد راعت في الاستدلال بالنصوص صحة الحديث ما أمكن، وتركت عدداً كبيراً منها مما يمكن الاستدلال به، لكن تركته لضعفه.

ولم أجد في حدود اطلاعي - عملاً مقارنة بين السنة النبوية وهذه النظرية كما سأورده الآن، لكن توجد بحوث درست الموضوع بشكل جزئي في بعض أنماط الذكاء، ودون اعتماد منهج مقارنة بهذه النظرية خصوصاً، أبرزها دراسات الدكتور علي إبراهيم سعود عجيين، منها بحثه: الذكاء العاطفي الذاتي وتطبيقاته في السنة النبوية، وبحثه أيضاً: رعاية الموهوبين في السنة النبوية.

وقد تناولت الموضوع من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: مفهوم نظرية الذكاء المتعدد.

المطلب الثاني: مظاهر الذكاء والعبقرية عند النبي ﷺ، وهديه في استكشافها وتوجيهها.

المطلب الثالث: أوجه الاتفاق والاختلاف بين السنة النبوية ونظرية الذكاء المتعدد.

نتائج البحث وتوصياته.

المطلب الأول: مفهوم نظرية الذكاء المتعدد.

Visual/Spatial intelligence: أي القدرة على التخيل والتفكير بصريا في الأشياء.

النوع الخامس: الذكاء الإيقاعي intelligence Musical/Rhythmi: وهو القدرة على تشخيص النغمات الموسيقية والإحساس بالمقامات الموسيقية وجرس الأصوات وإيقاعها.

النوع السادس: الذكاء الاجتماعي Interpersonal intelligence: وهو قدرة الفرد على فهم وإدراك وملاحظة وتحديد رغبات ومشاعر الآخرين والتواصل والتعاون معهم.

النوع السابع: الذكاء الذاتي intelligence Intrapersonal: وهو القدرة على فهم الفرد لذاته وانفعالاته وأهدافه ونواياه.

النوع الثامن: الذكاء الطبيعي intelligence Naturalist: وهو قدرة الفرد على التمييز بين الأشياء الطبيعية، جمادات ونباتات وحيوانات، وتصنيفها وفهم ملامحها وخصائصها.

النوع التاسع: الذكاء الروحي intelligence Spiritual/Existential: هو قدرة الإنسان على معرفة الإجابة على الأسئلة المتعلقة بالوجود الإنساني والمعنى العميق للحياة الشخصية والعامة، كأهمية قيمة الحياة ومعنى الموت والمصير النهائي للعالم المادي والروحي، كما يتحدد في السعي إلى معرفة المعنى والقيمة الحقيقية للحياة والكون.

النوع العاشر: الذكاء الأخلاقي intelligence Moral: هو قدرة الإنسان على الالتزام بما يؤمن به من فضائل وأخلاق وقيم اجتماعية ودينية، ويتمثل في ضبط النفس والاحترام والعطف والتسامح والإنصاف، المسؤولية، التعاون، المواطنة، الإيثار، التعاطف، العدالة... إلخ.¹

والملاحظ هنا أن النظرية قد توسعت جدا في مفهوم الذكاء، إذ يمكن أن يطلق على الموهبة، والهواية، والمهارة، والميول، والرغبات، والمشاعر النبيلة... إلخ.

المطلب الثاني: مظاهر الذكاء والعبقرية عند النبي ﷺ، وهدية في استكشافها وتوجيهها.

لم يرد في السنة النبوية ذكر للفظ الذكاء أو تحديد معنى له كما هو معروف في نظرية جاردنر أو غيرها، ولكن نجد في نصوص السنة ما يمكن إسقاطه على المفاهيم المذكورة عن الذكاء بأنواعه المختلفة، إذ كان النبي عليه السلام يحرص على تقصي وملاحظة التميز والتفوق والموهبة في الصحابة، ويوجههم لتنميتها لمصلحة أنفسهم، ونفع غيرهم بها.

ظهرت هذه النظرية سنة 1983 على يد العالم الأمريكي الدكتور هوارد جاردنر (Howard Gardner)، وفحوى هذه النظرية أن لكل إنسان قدرات متعددة، وأن الذكاء ليس نوعا واحدا وإنما أنواع مختلفة، مما يتوجب على الممارس العملية التربوية تنويع أساليبه في التدريس والتعليم من أجل اكتشافها وتنميتها لاسيما في فئة الأطفال.

وقد حاول بنظريته هذه تصحيح الممارسة التربوية والتعليمية التي كانت سائدة قبل ظهورها، والتي كانت تستخدم أسلوباً واحداً في التعليم، لاعتقادها بوجود صنف واحد من الذكاء لدى كل المتعلمين، الشيء الذي يفوت على أغلبهم فرص التعلم الفعال، وفق طريقتهم وأسلوبهم الخاص في التعلم.

وقد أوصل جاردنر تلك الأنواع إلى عشرة، وهي: الذكاء اللغوي، الذكاء الرياضي، الذكاء المكاني، الذكاء الحركي، الذكاء الإيقاعي، الذكاء الاجتماعي، الذكاء الذاتي، الذكاء الطبيعي، الذكاء الروحي والوجداني، الذكاء الأخلاقي.

وتقوم النظرية على مجموعة من مبادئ عامة هي:

- الذكاء متعدد وليس مفرد.
- يمتلك كل إنسان أنواع الذكاءات كلها.
- كل إنسان لديه مركب من ذكاءات ديناميكية.
- يستحق كل فرد الفرصة التي تمكنه من التعرف على ذكاءاته المتعددة وتطوير أكبر قدر من قدراته.
- تختلف الذكاءات في تطورها بين الأفراد.
- يمكن استخدام نوع من هذه الذكاءات لتعزيز نوع آخر من الذكاء.

- قلما ينظر إلى الذكاء بشكل مجرد، أي هو نتاج تفاعل بين عدة عوامل نفسية وبيئية واجتماعية... إلخ.

فالنوع الأول: من الذكاء هو الذكاء اللغوي Verbal/Linguistic intelligence: ومعناه القدرة على استخدام اللغة أفضل استخدام سواء مكتوبة أو منطوقة بشكل يؤثر في الآخرين.

النوع الثاني: الذكاء المنطقي الرياضي Logical/Mathematical intelligence: وهو القدرة على تنظيم العلاقات واستخدام الأرقام والرموز المجردة بمهارة إضافة لقوة الاستنتاج والتصنيف.

النوع الثالث: الذكاء الجسمي الحركي Bodily/Kinesthetic intelligence: وهو القدرة على استخدام الجسم بمهارة للتعبير عن النفس والتواصل والإنتاج.

النوع الرابع: الذكاء المكاني البصري

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى
وينتو كتابا كالمجرة نيرا
بلغنا السماء مجدنا وجدودنا
وإننا لنرجو فوق ذلك مظهرنا

فغضب النبي ﷺ، وقال: إِيَّاكَ يَا أَبَا لَيْلَى؟ قَالَ:
فَقُلْتُ: إِيَّا الْجَنَّةَ. قَالَ: نَعَمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.⁶

فقضت له دعوة النبي ﷺ بالجنة، وسبب ذلك
شعره، وكان النبي فهم من كلمة "المظهر" نزعة
من الشاعر نحو الفخر بالحسب والنسب، فلما بين
له مراده حمده عليه ودعا له، وهذه صورة رائعة
من صور التوجيه النبوي لرسالة الشعراء.

كما يظهر استثمار النبي ﷺ لهذا الجانب في
اختياره لسفراءه إلى الملوك والأمراء في بداية الدعوة،
إذ كان يتخير الأفصح والأقدر على تبليغ الرسالة.

كما يظهر اهتمام النبي ﷺ بهذا الجانب في
مسامراته مع الأصحاب بالألغاز والأحاجي، التي
تحتاج إلى شيء من الذكاء لحلها، من ذلك مثلاً ما رواه
عبد الله بن عمر ﷺ قال: «بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ
جُلُوسٌ، إِذْ أَتَى بِجَمَارٍ نَخْلَةٍ، فَقَالَ وَهُوَ يَأْكُلُهَا: إِنَّ مِنْ
الشَّجَرِ شَجَرَةً خَضْرَاءَ، بَرَكْتُهَا كِبْرَكَةُ الْمُسْلِمِ، لَا يَسْقُطُ
وَرَفْهًا، وَلَا يَنْحَاتُ، وَتُوتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا،
وإنها مثلُ المُسْلِمِ، فحدَّثوني ما هي؟ قال عبد الله: فوقَ
النَّاسِ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي، فَقَالَ الْقَوْمُ: هِيَ شَجَرَةُ كَذَا،
هِيَ شَجَرَةُ كَذَا، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَجَعَلْتُ
أُرِيدُ أَنْ أَقُولَهَا، فَإِذَا أَسْنَانُ الْقَوْمِ، فَأَهَابُ أَنْ أَتَكَلَّمَ وَأَنَا
غُلَامٌ شَابٌّ، ثُمَّ التَّقْتُ فَإِذَا أَنَا عَاشِرُ عَشْرِ أَنَا أَحَدُهُمْ
أَصْغَرُ الْقَوْمِ، وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعَمْرٌ لَا يَتَكَلَّمَانِ، فَسَكَتُ.
فَلَمَّا لَمْ يَتَكَلَّمَا، قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هِيَ النَّخْلَةُ. فَلَمَّا قُمْنَا قُلْتُ لِعَمْرِ أَبِي:
وَاللَّهِ يَا أَبَتَاهُ، لَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَقَالَ: مَا
مَنْعَكَ أَنْ تَقُولَهَا؟ قُلْتُ: لَمْ أَرْكَمْ تَتَكَلَّمُونَ، لَمْ أَرْكَ وَلَا
أَبَا بَكْرٍ تَتَكَلَّمُمَا، وَأَنَا غُلَامٌ شَابٌّ، فَاسْتَحْيَيْتُ، فَكَرِهْتُ
أَنْ أَتَكَلَّمَ أَوْ أَقُولَ شَيْئًا، فَسَكَتُ. قَالَ عَمْرٌ: لِأَنْ تَكُونَ
قُلْتُمَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي كَذَا وَكَذَا».⁷

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: «أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ
كَانَ اسْمُهُ زَاهِرًا، وَكَانَ يُهْدِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْهَدِيَّةَ
مِنَ الْبَادِيَةِ، فَيَجْهَرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ،
فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ زَاهِرًا بَادِيَّتًا، وَنَحْنُ حَاضِرُونَ. وَكَانَ
النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّهُ، وَكَانَ رَجُلًا دَمِيمًا، فَتَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا
وَهُوَ يَبِيعُ مَتَاعَهُ، فَاحْتَضَنَهُ مِنْ خَلْفِهِ وَلَا يُبْصِرُهُ الرَّجُلُ،
فَقَالَ: أَرْسَلَنِي مِنْ هَذَا، فَالْتَقْتُ فَعَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ، فَجَعَلَ لَا

وسأعرض هنا نماذج من ذكائه وعبقريته ﷺ،
وهديه في ملاحظة كل نوع من أنواع الذكاءات
المذكورة، وكيف كان يحرص على إبرازها وتتمينها.

أولاً: الذكاء اللغوي.

يتمتع المتصف بالذكاء اللغوي بخصائص عدة
منها: التفوق في الكتابة، القدرة على تأليف الحكايات
والسرد القصصي، التمتع بذاكرة جيدة للأسماء
والأماكن والتواريخ، الشغف بالقراءة والمناظرات
اللغوية، التمتع بموهبة الخطابة، وسعة الرصيد
اللغوي، القدرة على التوظيف الدقيق للكلمات.

وبعد هذا النوع من الذكاء بالغ الأهمية في تحقيق
الفرد لحضوره الشخصي والتأثير في الآخرين، ونجد
في السنة النبوية إشارة إلى هذا الأمر في الحديث الذي
رواه عبد الله بن عمر ﷺ أنه قدم رجلان من المشرق
فخطبا فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ
مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا أَوْ إِنَّ بَعْضَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا».²

فربط الرسول ﷺ بين البيان والسحر إشارة إلى
ما يتركه الكلام البليغ في النفس من أثر وتحول مثلما
يفعله السحر ببعض النفوس.

وقد بلغ رسول الله ﷺ الغاية بين العرب في
الفصاحة والبيان، وقال عن نفسه: «أوتيت جوامع
الكلم».³

وقد حرص النبي على استغلال هذه الموهبة التي
كان يلاحظها في بعض الصحابة في وقت الحاجة،
لاسيما الشعر، وهو بريد العرب الأول ووسيلتهم
المثلى في تبليغ رسائلهم، نجد ذلك مثلاً في حثه لحسان
بن ثابت للتصدي بلسانه وشعره للكفار رغم أن النبي
ﷺ ليس ممن يقرض الشعر أو يقوله، ورغم أن الشعر
قد ذم في مواضع من القرآن، ومع ذلك كان النبي ﷺ
يوجه حسنا لاستخدام موهبته في خدمة الإسلام إذ كان
يقول له: «اهْجُهُمْ، أَوْ هَاجِهِمْ، وَرُوحُ الْفُتُوسِ مَعَكَ».⁴

ومن شأن مثل هذا التوجيه أن يجعل الشاعر
يجتهد في نظم الشعر بأقصى ما لديه من قدرة، وهو
يرى نفسه مأجورا في ذلك.

وقد أشاد النبي ﷺ بلبيد بن ربيعة لا لشيء، إلا لأنه
نظما بيتا من الشعر، عده ﷺ أصدق ما قيل من شعر،
حيث قال: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة
زائل».⁵

كما كان عليه السلام يحتفى بالشعر ويتفاعل معه
ويحب سماعه، من ذلك الخبر الذي يفيد أن النابغة
الجعدى أنشد بين يدي رسول الله ﷺ قصيدته التي جاء
فيها قوله:

فالشاهد في هذا النص: قيمة التواضع للأطفال ومشاركتهم واقعهم ويومياتهم، والتوجيه بالحسنى دون تعنيف أو توبيخ، واستعمال العبارة القصيرة السهلة الفهم، وكل ذلك يثمر امتثالا سريعا من الطفل المتلقي، ونجد ذلك في قول الراوي: "فَمَا زِلْتُ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ".

وقد استعاض النبي ﷺ بتلك المميزات من الفصاحة وحسن البيان وحسن التبليغ عن الكتابة، إذ لم يكن عليه السلام يحسنها، كما هو معروف.

ثانياً: الذكاء المنطقي.

يُظهر المتَّصف بهذا النوع من الذكاء ميلا وقدرة على إجراء العمليات الحسابية والمنطقية والتفكير الناقد، وموهبة في الألعاب التي تحتاج للتفكير كالشطرنج والألغاز المنطقية، كما يظهر شعورا بالحاجة لقياس الأشياء، وتصنيفها، ووزنها، وتحليلها، والتفكير في المفاهيم المجردة بلا كلمات أو صور، وموهبة في حل المشكلات، وقدرة في التعامل مع الرسوم البيانية.

ويمكن ملاحظة هذا الذكاء لدى العلماء والعاملين في المصارف والمهتمين بالرياضيات والمبرمجين والمحامين والمحاسبين والفلاسفة.

ولا نجد في السنة النبوية بالضرورة ما يطابق كل هذه الجوانب والخصائص الدالة على هذا النوع من الذكاء، واهتمام النبي ﷺ به، إذ يتعلق معظمها بفنون وعلوم حادثة لم تكن شائعة في بيئة النبي ﷺ والصحابة، والذي نجده في السنة النبوية استخدام المنطق في توضيح المفاهيم وتصحيح الأخطاء، وكان ﷺ يحث الصحابة في بعض المواقف الشائكة على التفكير المنطقي والنظر العقلي لحلها ذاتيا، وهذا تصرف حكيم من النبي ﷺ يجعل السائل يقتنع بالحل الذي توصل إليه بنفسه، وقد كان يظهر أماله لغزا محيرا.

نجد ذلك في موقفين اثنين، الأول ما رواه أبو هريرة: «أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: إِنْ أَمَرْتَنِي وَلَدْتُ غُلَامًا أَسْوَدَ وَإِنِّي أَنْكَرْتُهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا أَلْوَانُهَا؟، قَالَ: حَمْرٌ، قَالَ: هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقٍ؟، قَالَ: إِنْ فِيهَا لَوْرَقًا، قَالَ: فَأَنَّى تَرَى ذَلِكَ جَاءَهَا، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَرِّقْ نَزْعَهَا، قَالَ: وَلَعَلَّ هَذَا عَرِّقَ نَزْعَهَا»¹².

نلاحظ هنا استخدام النبي ﷺ قواعد المنطق لإزالة الشبهة التي راودت الرجل حول زوجته، لما جعله يعود إلى التجربة التي يراها يوميا لينظر ويتأمل ويقيس الأشياء بأشباهها، فيوصل إلى الحكم الصحيح، وأن ما يحدث في عالم الحيوان، وهو يراه أمرا طبيعيا، يمكن أن يقع للبشر أيضا.

والموقف الثاني ما رواه أبو أمية ﷺ: «أَنَّ فَتًى

يَأْلُو مَا أَلَصَقَ ظَهْرَهُ بِصَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ، حِينَ عَرَفَهُ، وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا وَاللَّهِ تَجِدْنِي كَاسِدًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَكِنْ عِنْدَ اللَّهِ لَسْتُ بِكَاسِدٍ. أَوْ قَالَ: لَكِنْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَ غَالٍ»⁸.

وقد استخدم النبي عليه السلام القصة -وهي من صور الذكاء اللغوي- كأسلوب تربوي في توجيهاته لمختلف فئات الناس، لاسيما الأطفال منهم، لما للقصة من أثر بليغ في تبسيط المفاهيم وترسيخ الأفكار، أكثر من الكلمات والمعاني النظرية المجردة.

وغالبا ما تأتي القصة في التعبير النبوي في مشهد مقتضب دون تطويل، كما في هذا الحديث الذي رواه أبو هريرة عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «دَخَلْتُ أَمْرَأَةَ النَّارِ فِي هَرَّةٍ، رِبَطْتُهَا فَلَا هِيَ أَطْعَمْتُهَا، وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ، حَتَّى مَاتَتْ»⁹.

فالطفل عند سماع هذا الحديث تتحرك مخيلته لتصور تلك المرأة السيئة وقد أقفلت الباب على قط جائع في غرفة مظلمة وهو يصيح ويستغيث حتى الموت، فترسخ في ذهنه قيمة الإحسان والرفق بالحيوان ونزب التعدي والظلم، وهذا أبلغ بالنسبة للطفل من أن يرد الحديث بهذه اللفظ مثلا: من قتل نفسا ظلما ولو حيوانا دخل النار.

كما كانت لرسول الله ﷺ مهارة اختيار الوقت والأسلوب واللهجة المناسبة أثناء توجهه بالحديث إلى طفل صغير، ولو كانت المعاني التي يريد بثها عميقة وهامة.

ف نجد مثال ذلك في حوار مع عبد الله بن عباس وقد استغل فرصة ركوبه معه الفرس، ليعلمه أصول العقيدة الصحيحة بما لا مزيد عليه، وكل ذلك في نص أدبي موجز العبارة سهل الأسلوب، يقول عبد الله بن عباس: «كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: يَا غُلَامُ إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ، أَحْفَظُ اللَّهُ يَحْفَظْكَ، أَحْفَظُ اللَّهُ تَجِدَهُ نَجَاحًا، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنَيْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَتِ الصُّحُفُ»¹⁰.

ونجده مرة أخرى يعلم صبيًا آداب الأكل لما رآه لا يحسن التصرف، وكان يأكل معه في نفس الصحن، فعن عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: «كُنْتُ غُلَامًا فِي حَبْرٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصُّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا غُلَامُ سَمَّ اللَّهُ، وَكُلَّ بِيَمِينِكَ، وَكُلَّ مِمَّا بِيَدِكَ، فَمَا زِلْتُ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ»¹¹.

البخاري عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ دخل الخلاء، فوضعت له وضوءاً قال: من وضع هذا؟، فأخبر، فقال: اللهم فقهه في الدين».¹⁵

إن مبادرة الغلام لوضع الوضوء للنبي ﷺ دون أن يطلب منه ذلك علامة على فقهه، ودقة ملاحظته وقوة تركيزه فيما يحتاجه النبي ﷺ، ولذلك سأل النبي ﷺ من وضع هذا؟! والعادة أن يصنع ذلك أحد الكبار من أهل أو أصحاب، أما أن يبادر غلام صغير لمثل هذا التصرف، فهذه علامة نبوغه، فبادره النبي ﷺ بالدعاء له في الفقه في الدين، لما رأى من استعداد ذاتي للعلم والفقه في شخصيته.

ومن تلك المواقف أيضاً ما رواه ابن عباس ﷺ قال: «قال لي رسول الله ﷺ غداة جمع (يعني مزدلفة): هلم ألقط لي، فلقطت له حصيات هن حصى الخنف، فلما وضعهن في يده قل: نعم، بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين».¹⁶

فإقرار النبي ﷺ لاختيار ابن عباس لحجم الحصى التي تستعمل لرمي الجمار، بل وفي استشهاده ﷺ لهذا الاختيار على قضية خطيرة في الدين ألا وهي التطرف والغلو، لدليل على نجاح ابن عباس فيما وكل به، ولا سيما أن النبي ﷺ لم يبين له حجم الحصيات، وإبداع ابن عباس في اختيار الحصى أن غيره من أقرانه بل ومن هو أكبر منه سيختار الحصى الأكبر حجماً، وهو حل تقليدي، إلا أن فقه الغلام أدى به إلى أن يختار ما تقوم به الحاجة لأداء منسك من مناسك الحج، وأبعد من ذلك أنه أدرك قضية قد لا تخطر على بال، وهي أن في تكبير الحصى غلو وتشدد لم يطلبه الشارع الكريم، ولو في مثل هذه القضية اليسيرة، لأن بذرة الغلو تبدأ بسلوك يسير ثم ما تلبث أن تصبح ثقافة وديناً. فجاء الإقرار النبوي على اختيار الحصى، ولسان حاله ﷺ يقول أحسنت الاختيار، ولسان المقال: «إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم بالغلو في الدين».¹⁷

ثالثاً: الذكاء الجسمي الحركي.

يتمثل هذا النوع من الذكاء في مهارات استخدام الجسم للتعبير عن النفس والتواصل والإنتاج، والتفوق في الألعاب الرياضية، وكثرة استخدام تعبيرات الوجه والجسد عند التعبير عن الأفكار والمشاعر، ويكون لدى هذا النوع من الأذكاء ميل واستمتاع باللعب بالطين والعجائن أو غيرها من الخبرات التي تتطلب اللمس، وألعاب الفك والتركيب كالمكعبات والبناء، والقدرة على تقليد ومحاكاة الآخرين، وكثرة التنقل والحركة. ويظهر هذا الذكاء لدى الممثلين، الرياضيين، الجراحين، المقلدين،

شأبا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي في الزنا، فأقبل القوم فزجروه، وقالوا: مه، مه. فقال له النبي ﷺ: ادنه، أي اقترب مني، فدنا منه قريباً، قال: أتعبه لأمك؟، قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم. قال: أفنحبه لابنتك؟، قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم. قال: أفنحبه لأختك؟، قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم. قال: أتعبه لعمتك؟، قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم. قال: أتعبه لخالتيك؟، قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم. قال الراوي: فوضع النبي ﷺ يده عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحسن فرجه. فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء».¹³

فلم يستعمل النبي ﷺ مع ذلك الشاب أسلوب الوعظ، والعاطفة، والوعد والوعيد، بل استحدث تفكيره ونظره العقلي ليعرف أن ما يفكر فيه خطأ محض، وتلك مسحة من الذكاء في عقل ذلك الشاب غابت عنه في لحظة شهوة، فاستنهضها النبي ﷺ بأسلوبه الحكيم ليعالج بها الموقف.

ومن مظاهر هذا النوع من الذكاء عند النبي ﷺ ما رواه على كرم الله وجهه قال: «لما سار رسول الله ﷺ إلى بدر وجدنا عندها رجلين، رجلاً من قريش، ومولى لعقبة بن أبي معيط. فأما القرشي فأقلت، وأما مولى عقبة فأخذناه، فجعلنا نقول له: كم القوم (كم عدد الجيش القادم نحو بدر؟)، فيقول: هم والله كثير عددهم، شديد بأسهم، فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه حتى انتهوا إلى النبي ﷺ فقال له: كم القوم؟ فيقول: هم كثير عددهم، شديد بأسهم، فجهد النبي ﷺ أن يخبره كم هم فأبى، ثم أن النبي ﷺ سأل: كم ينحرون من الجزر؟، فقال: عشرة لكل يوم، فقال ﷺ: القوم ألف، كل جزور لمئة وتبعها».¹⁴

وهذا من دقة وبعد نظر رسول الله ﷺ وحسن قياسه وتمييزه للأمور، وقد وفق في تقديره لعدد الجيش برابط حسابي قد يغيب عن أكثر الناس، وقد أظهر النبي ﷺ بذلك مقدرة على حسن استثمار المعلومات مهما تكن بسيطة.

كما يظهر اهتمام النبي ﷺ بهذا النوع من الذكاء في صحابته من خلال تعليقاته الإيجابية على بعض أجوبتهم الموقفة على أسئلته أو طلباته.

وأكثر من حظي بهذا الاهتمام من الصحابة عبد الله بن عباس ﷺ، إذ كانت له مع النبي ﷺ مواقف جعلته عليه السلام يدعو له بالتفقه والعلم لما رأى من نجابته ونباهته، ومن تلك المواقف ما رواه الإمام

والمختارين، والنحّاتين.

وفي السنة النبوية إشارات إلى اهتمام النبي ﷺ بهذا النوع من التفوق في صحابته، وحثه إياهم على تنميته، لما له من دور في تعزيز ثقة المؤمن بنفسه وتقوية صف المسلم، وكان حريصا على الاستكثار من ذلك النوع من الناس حوله، لاسيما في بداية عهد الإسلام.

ولا شك أن أبرز من تجمعت فيه تلك الصفات من القوة والموهبة الجسمية في الجاهلية عمر بن الخطاب وأبو جهل، مما جعل النبي ﷺ يرجو إسلام أحدهما، وذلك فيما رواه ابن عمر رضي الله عنهما عنه ﷺ قال: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب».¹⁸

كما يظهر حرص النبي على تنمية تلك المهارات في جانب القتال والحرب لدى خيرة صحابته الذين يلاحظ فيهم أمارات الحنكة والقوة العسكرية، من خلال الألقاب التي كان يخلعها عليهم، مما يترك في نفوسهم أثرا عميقا، وسعيا وانفعا أكثر في الجهاد، بما نسميه اليوم بالترقية في الرتب العسكرية، كما حدث مع خالد بن الوليد الذي لقبه الرسول عليه السلام بسيف الله، لما رأى من شجاعته ودهائه وفروسيته، إذ قال فيه عند قصه لأحداث غزوة مؤتة وكان أحد قادتها: «أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم».¹⁹

ومن ذلك إطلاقه لقب الرّاكب المهاجر على عكرمة بن أبي جهل، حيث ترك ذلك اللقب في نفسه أثرا بالغا، فروي عنه قال: «قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ جُنْتُ مُهَاجِرًا: مَرْحَبًا بِالرَّاكِبِ الْمُهَاجِرِ، مَرْحَبًا بِالرَّاكِبِ الْمُهَاجِرِ، مَرْحَبًا بِالرَّاكِبِ الْمُهَاجِرِ. فَقُلْتُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا أَدْعُ نَفَقَةً أَنْفَقْتُهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ مِثْلَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».²⁰

وأما حب الألعاب والتفوق فيها، وهو من مظاهر الذكاء عند الأطفال خاصة، فقد حفظت لنا السيرة مواقف عن النبي ﷺ تبرز حبه للعب الصبيان ومداعبته إياهم، كما روي عن عائشة قالت: «خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْزِنِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: تَقَدَّمُوا، فَتَقَدَّمُوا. ثُمَّ قَالَ لِي: تَعَالَى حَتَّى أَسَابِقَكَ، فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ، فَسَكَتَ عَلَيَّ، حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدَنْتُ وَنَسِيتُ، خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: تَقَدَّمُوا. فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَى حَتَّى أَسَابِقَكَ، فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ، وَهُوَ يَقُولُ: هَذِهِ بَيْتُكَ».²¹

وفي القصة ملمح آخر، وهو نجاح النبي عليه السلام في حياته الأسرية، وذلك هو قمة النجاح الاجتماعي، وقد قال عليه السلام فيما روته عائشة

أيضا: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي».²²

وجاء في صحيح البخاري عن سلمة بن الأكوع قال: «مرّ النبي ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون بالسوق، فقال: ارموا بني إسماعيل، فإن أبلكم كان راميا، ارموا وأنا مع بني فلان. قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: ما لكم لا ترمون؟ قالوا: كيف نرمي، وأنت معهم؟ فقال: ارموا وأنا معكم كلكم».²³

وهنا يظهر النبي ﷺ من خلال قوله: «ارموا وأنا معكم كلكم». البعد الإنساني في الرياضة، حيث أنها وسيلة ترفيه ونفع للجسم، وتلاق بين الناس، وليست وسيلة خصومة أو نزاع.

وقد كان النبي ﷺ يتخذ القوة البدنية معيارا لاختيار من يصلح للمعارك والغزو، ويتغاضى عن عامل السن في بعض الفتيان، إذا أظهروا تفوقا واستعدادا جسديا، من ذلك ما ذكره المقريزي عن قصة رافع بن خديج وسمره بن جندب وتنازعهما للمشاركة في غزوة أحد بسبب صغر السن، قال: «لما خرج النبي ﷺ إلى أحد وعرض أصحابه فردّ من استصغر، ردّ سمره بن جندب، وأجاز رافع بن خديج، فقال سمره لزوج أمه مري بن سنان: يا أبت، أجاز الرسول ﷺ رافع خديج وردّني، وأنا أصرع رافع بن خديج، فقال مري بن سنان: يا رسول الله، ردّدت ابني، وأجّزت رافع بن خديج، وابني يصرعه، فقال النبي ﷺ لرافع وسمره: تصارعا، فصرع سمره رافعا، فأجاز رسول الله ﷺ في أحد فشدها مع المسلمين».²⁴

وكان هذا الاهتمام من قبل النبي ﷺ بالشباب، وتقديره لهم، سبب في أعمال بطولية قاموا بها أثناء المعارك، تماما مثلما يقاتل الرجال الأشداء، ومعروف أن أبا جهل -وهو من صناديد قريش- قد قتل على يد شابين يافعين من صحابة رسول الله ﷺ، إذ روى عبد الرحمن بن عوف قال: «إني لفي الصفّ يوم بدر إذ التقت، فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأنني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سرا من صاحبه: يا عم، أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي، فما تصنع به؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، قال: والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك. قال: وغمزني الآخر، فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس. فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه، قال: فابتدراه فضرّباه حتى قتلاه.

ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ، فقال: أيكما قتله؟ فقال كل واحد منهما: أنا قتلتُه، قل: هل مسحتما سيفكما؟ فقالا: لا. فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين فقال: كلاكما قتله، وقضى رسول الله ﷺ بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح،

والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومُعَوِّذ بن عفراء».²⁵

رابعاً: الذكاء المكاني البصري.

من خصائص هذا الذكاء: القدرة على التخيل والتفكير بصرياً في الأشياء، القدرة على ترجمة الأفكار والمشاعر في رسوم تعبيرية مرئية، التخطيط على الورق، واللوحات، والرمل، وغيرها من الخلمات، التذكر الجيد للوجه والأمكن التي سبقت زيارتها، الحساسية العالية للون، الخط الشكل، التكوين، المساحة، العلاقات بين هذه الأشياء. ويوجد هذا الذكاء عند المختصين في فنون الخط ورسم الخرائط والمصممين والمهندسين المعماريين والنحاتين.

وقد ورد في السنة المطهرة أنّ الرسول ﷺ قد لجأ إلى استخدام بعض من تلك الوسائل في بعض الأحيان لتعليم أصحابه رضي الله عنهم، وتوضيح المعاني المجردة لهم، ذلك لأنه كما يقول التربويون- كلما زاد عدد الحواس التي تشترك في الموقف التعليمي، زادت فرص الإدراك والفهم، كما أن المتعلم يحتفظ بأثر التعليم فترة أطول.

من ذلك ما روى عن ابن مسعود ﷺ قال: «خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسْطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خَطًّا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسْطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسْطِ، وَقَالَ: هَذَا الْإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ، أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ، وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطُطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا».²⁶

ففي رسم بياني واحد، لخص النبي عليه السلام العوامل المتحركة في حياة الإنسان والموجهة لسلوكه.

وعنه أيضا قال: «خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا، قَالَ: ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ السَّبِيلُ لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا) فَاتَّبَعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرُقَ بَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» [الأنعام: 153].²⁷

وهذا التوضيح العملي لمقتضى الآية الكريمة، يجعلها تقع أعظم موقع في نفس السامع المشاهد وعقله، لاشتراك البصر مع السمع في بيان المراد منها.

وقد أحسن الرسول ﷺ استغلال موهبة معرفة الأماكن وحفظ المسالك والطرق والتي هي من صور الذكاء المكاني في بعض الصحابة، نجد ذلك في استنائه في هجرته إلى المدينة المنورة بعامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق ليده على مسالك الصحراء غير المألوفة.

ولم يكن النبي ﷺ يستأثر برأيه في المواقف الصعبة التي تحتاج لبعد النظر وحسن التخطيط، بل كان يستحث عقول الصحابة وتفكيرهم عند مواجهة المشكلات، فتظهر عقريتهم وحسن تدبيرهم، ويأخذ بأرائهم متى كانت صائبة موفقة.

ومثال ذلك أخذه عليه السلام برأى الحباب بن المنذر بن الجموح في غزوة بدر، حيث قال له بعد أن نزل الجيش في إحدى الجهات من أرض المعركة: «يا رسول الله، أرايت هذا المنزل، أمنزلا أنزلك الله ليس لنا أن ننقذمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟»، قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي.

فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب فغورت، وبنى حوضا على القلب الذي نزل عليه، فملئ ماء، ثم قذفوا فيه الأنية».²⁸

خامساً: الذكاء الإيقاعي.

ويسمى أيضا الذكاء الموسيقي، ونجد فيمن يتمتع بهذا النوع من الذكاء خصائص فنية تتمثل في الحس المرفه للنغمات الموسيقية، وأنواع المقامات، ومعرفة بجرس الأصوات وإيقاعها، والانفعال بالآثار العاطفية لها، وقدرة على تأليف الأشعار وتلحينها، ويوجد هذا الذكاء لدى كتاب كلمات الأغاني والملحنين وأساتذة الفن.

ولئن كان الغناء المرتبط بالآلات الطرب مضموما منها عنه شرعا، فلا يعني ذلك غياب هذا الحس الجمالي في بيئة الرسول عليه السلام والصحابة، غير أنّ له مجالا آخر ظهر فيه، إذ كان الرسول عليه السلام حريصا على سماع الصوت الحسن والطرب به، لكن في تلاوة القرآن الكريم خاصة.

وقد تميز بذلك من الصحابة أبو موسى الأشعري، وصحّ أنّ النبي ﷺ لما سمعه يقرأ القرآن ويتغنّى به قال له: «لقد أوتيت مزمرا من مزامير آل داود».²⁹

وقد ترك ذلك المدح في نفسه أثرا جميلا، حتى قال للرسول ﷺ: «لو علمت مكانك لحبّرت لك تحبيراً».³⁰

وممن تميز بذلك أيضا عبد الله بن مسعود ﷺ، الذي قال فيه ﷺ: «من سرّه أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد».³¹

وقال له النبي ﷺ ذات مرة: «اقرأ علي، فقال:

فشكا إليه جاره، فقال: يا رسول الله، إن جاري يؤذيني، فقال: أخرج متاعك، فضعه على الطريق، فأخرج متاعه، فوضعه على الطريق، فجعل كل من مرّ عليه قال: ما شأنك؟، قال: إني شكوت جاري إلى رسول الله ﷺ، فأمرني أن أخرج متاعي فأضعه على الطريق. فجعلوا يقولون: اللهم عنه، الله أخزه. قال: فبلغ ذلك الرجل، فأتاه، فقال: ارجع، فو الله لا أؤذيك أبداً.³⁷

ومن حكمة رسول الله وحكمته تخير الوقت لمعالجة الأوضاع والأخطاء، ومراعاة استقرار المجتمع ولو على حساب بعض الأمور التي فيها مصلحة ونفع، نجد ذلك في رأيه في تجديد بناء الكعبة، إذ تخلى عنه حتى لا يستثير مشاعر بعض الناس.

عن لعائشة قال: «سألت النبي ﷺ عن الجدار أمن البيت هو؟ قال: نعم. قلت: فما بالهم لم يدخلوه في البيت؟ قال: إن قومك قصرت بهم النفقة أو قصرت بهم النفقة. قلت: فما شأن بابهم مرتفعاً؟ قال: فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا، ولولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية، فأخاف أن تنكر قلوبهم أن أدخل الجدار في البيت وأن ألصق بابهم في الأرض».³⁸

سابعاً: الذكاء الذاتي.

من مواصفات هذا الذكاء: القدرة على فهم الفرد لذاته وانفعالاته وأهدافه ونواياه، القدرة على اتخاذ قرارات واختيارات مبنية على المعرفة بذاته، التمتع بالثقة بالنفس للتحفيز على العمل دون انتظار دعم خارجي، حب العزلة والانفراد من حين لآخر، الاعتماد على النفس في حل المشكلات الخاصة، ويزر هذا الذكاء غالباً لدى الفلاسفة والأطباء النفسانيين.

ويرى جاردنر أن هذا الذكاء يصعب ملاحظته، والوسيلة للتعرف عليه تكمن في ملاحظة المتعلمين وتحليل عاداتهم في العمل وإنتاجهم، ومن المهم أن نتجنب الحكم على المتعلمين الذين يحتبون العمل على انفراد أنهم يتمتعون بهذا الذكاء إلا بعد الدراسة والتحصين.

ولعل أبرز من اتصف بهذه المعاني من الصحابة أبو بكر الصديق، الذي كان فريداً في قوة إيمانه وبقائه بصدق دعوة رسول الله ﷺ دون تردد، وقد أشاد عليه السلام بهذه الخصلة فيه، حيث قال: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبره ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر الصديق بن قحافة ما عكم (أي ما أحجم) عنه حين ذكرته له، وما تردد فيه».³⁹

وفي مجال الاعتماد على النفس في حل المشكلات الخاصة-وهو من مظاهر هذا الذكاء-

أقرأ عليك وعليك أنزل؟، فقال: إني أشتي أن أسمع من غيري، قال: فقرأت النساء، حتى إذا بلغت: (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) [النساء: 41]، قال لي: كف أو أمسك، فإذا عيناه تذرفان».³²

ولم ينه النبي ﷺ عن الإنشاد والغناء المباح بل كان يسمعه، ويرى فيه ترويحاً عن النفس، فعن عائشة رضي الله عنها: «أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تغنيان وتضربان ورسول الله ﷺ مسجى بثوبه، فانتهرهما أبو بكر، فكشف رسول الله عنه، وقال: دعهما يا أبا بكر، فإنها أيام عيد».

وقالت: «رأيت رسول الله ﷺ يسترنى بردائه، وأنا أنظر إلى الحبشة، وهم يلعبون، وأنا جارية، فاقدروا قدر الجارية العربية الحديثة السن».³³

سادساً: الذكاء الاجتماعي.

يتمتع الذكي اجتماعياً بجملة من الخصائص منها: القدرة على فهم وإدراك وملاحظة وتحديد رغبات ومشاعر الآخرين والتواصل معهم، اتساع دائرة الصداقة لديه، الرغبة في تقديم النصيحة للآخرين وتعليمهم، التوسط في حل الخلافات، الانتماء للتنظيمات والتجمعات، الرغبة في الحوار والمشاركة في المناقشات الجماعية والإطلاع على وجهات نظر الآخرين وأفكارهم، القدرة على قيادة الآخرين وتنظيمهم، إجراء المفاوضات والوساطة، ويتجسد هذا الذكاء لدى المعلمين والأطباء والمستشارين والسياسيين والزعماء الدينيين والمقاولين ورجال الدعوة ومرشدي الشباب والعاملين في المجال الاجتماعي.

نجد في السنة النبوية توجيهات عدة للمؤمن ليهتم بالبعد الاجتماعي في حياته، حيث فاضل النبي ﷺ بين المؤمن المخالط للناس والمؤمن المنعزل عنهم، فمدح الأول على حساب الثاني، قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أعظم أجراً من الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم».³⁴

وقد كان النبي ﷺ حريصاً على حل الخلافات والصالح بين الناس، وجعله أفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة».³⁵

بل دعا المصلح لاستخدام ما أمكنه من فهم وذكاء للتقريب بين المتخاصمين، ولو اقتضى الأمر منه تعمد الكذب، إذ قال: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فيمنّي خيراً أو يقول خيراً».³⁶

وكان يعلم الصحابة كيف يحلون منازعاتهم بذكاء وحكمة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رجلاً أتى النبي ﷺ

ومن مظاهر الاهتمام بالحيوان تعظيم الأجر لمن يقوم برعايته وصون حياته من الهلاك، ولو كان كلباً غير مرغوب في اقتنائه، وذلك فيما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بَيْراً فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَأْهُتُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ فَقَالَ الرَّجُلُ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلَ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي. فَنَزَلَ الْبَيْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَمِينِهِ حَتَّى رَفَعَهُ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ لَنَا فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ لِأَجْرٍ أَفَقَالَ «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ»⁴².

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضاً قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْخِصْبِ فَأَعْطُوا الْإِبِلَ حَظَّهَا مِنَ الْأَرْضِ وَإِذَا سَافَرْتُمْ فِي السَّنَةِ فَأَسْرِ عَوَا عَلَيْهَا السَّيْرَ وَإِذَا عَرِسْتُمْ بِاللَّيْلِ فَاجْتَنِبُوا الطَّرِيقَ فَإِنَّهَا مَأْوَى الْهُوَامِ بِاللَّيْلِ»⁴³.

كما شدد التأكيد على تعذيب الحيوان بحبسه عن الطعام والتسبب في هلاكه بذلك، حيث روي عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «عَذَّبْتُ امْرَأَةً فِي هَرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلْتُ فِيهَا النَّارَ لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذْ هِيَ حَبَسَتْهَا وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»⁴⁴.

وأما في البيئة والمحافظة عليها، فنجد أن النبي عليه السلام لم يبالغ في شيء كما بالغ في الحرص على الزرع، إذ حث عليه ولو كان المرء يعيش لحظة قيام الساعة، فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا»⁴⁵.

ورتب على الزراعة أجراً عظيماً لا يقل عن أجر العبادات المعروفة، إذ هي حرفة قد تستفيد منها البهائم والدواب ولا يقتصر نفعها على الإنسان فقط، فعن عطاء عن جابر قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْساً إِلَّا كَانَ مَا أَكَلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ وَلَا يَزُرُّهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ»⁴⁶.

ومن شأن هذا الحديث حفز همة الناس على الاشتغال بخدمة الأرض، وفي ذلك ضمان كبير لقوتهم.

ومن مظاهر هذا النوع من الذكاء أيضاً عند النبي عليه السلام محبته للجمال والنظافة، فقد روى مسلم عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ. قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ»⁴⁷.

نجد هذا المثال الذي يبرز حسن تربية النبي لصحابته وحثهم على العمل والكسب بطريقة عملية، حيث يتحول أحدهم من رجل فقير محتاج إلى عامل ينفع نفسه وغيره.

فعن أنس بن مالك ﷺ: «أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْأَلُهُ، فَقَالَ: أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟ قَالَ: بَلَى، جُلُسٌ نَلْبَسُ بَعْضُهُ وَنَنَسُطُ بَعْضُهُ، وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ، قَالَ: أَنْتَبَيْ بِهِمَا، قَالَ: فَأَتَاهُ بِهِمَا، فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ، وَقَالَ: مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟ قَالَ رَجُلٌ: أَنَا، أَخَذَهُمَا بِيَرِّهِمْ، قَالَ: مَنْ يَزِيدُ عَلَى بِيَرِّهِمْ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، قَالَ رَجُلٌ: أَنَا أَخَذَهُمَا بِيَرِّهِمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ، وَأَخَذَ الدَّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ، وَقَالَ: اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَأَنْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قِدُومًا فَأَنْتَبِ بِهِ، فَأَتَاهُ بِهِ، فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَوْدًا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَذْهَبَ فَاحْتَطَبَ وَبِعَ، وَلَا أَرَيْتَكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطَبُ وَيَبِيعُ، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ، فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا، وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةَ نَكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنْ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لثَلَاثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُنْقِعٍ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُقْطِعٍ، أَوْ لِذِي نَمٍّ مُوجِعٍ»⁴⁸.

ويقول في توجيه عام: «لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بِحِزْمَةِ حَطَبٍ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعُهَا، فَيَكْفِ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ»⁴⁹.

ثامناً: الذكاء الطبيعي.

من خصائص هذا النوع من الذكاء: قدرة الفرد على التمييز بين الأشياء الطبيعية، من الجمادات والنباتات والحيوانات، وتصنيفها وفهم ملامحها وخصائصها، الميل والاستمتاع بزيارة الحدائق، المتاحف الطبيعية، الخروج إلى الطبيعة والعيش لفترات في الخلاء، الاهتمام بالحيوانات الأليفة، وبالمشكلات البيئية، جمع مكونات البيئة مثل الفراشات، الزهور، أوراق الشجر، الأحجار، الأصداف. ويتجسد هذا الذكاء لدى علماء الطبيعة، والمهتمين بالبيئة، ومروحي الحيوانات، والمزارعين.

وقد وجدت بعض هذه الصفات في بعض الصحابة، فلم يغفلها النبي عليه السلام، كما حدث للصحابي الجليل أبي هريرة ﷺ، إذ كان اسمه قبل إسلامه عبد شمس، فلما شرح الله صدره للإسلام سماه الرسول عبد الرحمن، وكناه الصحابة بأبي هريرة، ولهذه الكنية سبب طريف، حيث كان عبد الرحمن يعرف بعطفه الكبير على الحيوان، وكانت له هرة (قطة) يحنو عليها، ويطعمها، ويرعاها، فكانت تلازمه وتذهب معه في كل مكان، فسمي بذلك أبا هريرة، وكان رسول الله يدعوها أبا هريرة.

تاسعا: الذكاء الروحي الوجداني.

من خصائص هذا النوع من الذكاء: قدرة الإنسان على معرفة الإجابة على الأسئلة المتعلقة بالوجود الإنساني والمعنى العميق للحياة الشخصية والعامة، كأهمية قيمة الحياة ومعنى الموت والمصير النهائي للعالم المادي والروحي، كما يتحدد في السعي إلى معرفة المعنى والقيمة اللتين يضيفيهما الإيمان بالله على حياة الإنسان. وفي البحث عن الترابطات الخفية بين السبب والنتيجة، و الصحيح والخطأ، والإجابة على التساؤلات التالية: لماذا نحيا؟ ولماذا نموت؟ لماذا نحب؟ ولماذا هناك شر؟... إلخ.

وقد برز هذا التفكير الرفيع عند رسول الله ﷺ بجلاء قبل بعثته، إذ حبيب إليه الخلاء، والتأمل في ملكوت الله، وهواه الله بالفطرة فلم يسجد لصنم قط.

واتصف بهذا النوع من الذكاء وعمق التفكير في الكون والحياة صحابة كثيرون أمثال حمزة بن عبد المطلب، الذي كان يقول في جاهليته: "عندما أجوب الصحراء في الليل أدرك أن الله أكبر من أن يوضع بين أربع جدران"، وهو الذي لقبه الرسول ﷺ بأسد الله.

ومنهم سلمان الفارسي، الذي هرب من أبيه لطلب الحق وكان مجوسيا، فلحق براهب، ثم براهب ثم بآخر، وكان يصحبهم إلى وفاتهم، حتى دله الأخير إلى الحجاز، وأخبره بظهور رسول الله ﷺ، فقصده مع بعض الأعراب فغدروا به، وباعوه في وادي القرى ليهودي، ثم اشتراه منه يهودي آخر من بني قريظة، فقدم به المدينة، فلما قدم رسول الله ﷺ، ورأى علامات النبوة أسلم.

وكان لتلك الرحلة الطويلة في البحث عن الإيمان إلى أن من الله به عليه دور في أن يتبوأ مكانا خاصا في نفس رسول الله ﷺ حتى بشره بالجنة حيث قال: «إن الجنة تشاق إلى ثلاثة، علي، وعمر، وسلمان».⁴⁸

ومنهم عمر بن الخطاب ﷺ، الذي كان النبي ﷺ يشيد برجاجة عقله وتمييزه للصواب من الخطأ، وقد وافقه القرآن في أكثر من موضع، حتى قال النبي ﷺ فيما رواه عنه عقبة بن عامر: «لو كان نبي بعدي لكان عمر بن الخطاب».⁴⁹

وعن ابن عمر مرفوعا قال: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلمه».⁵⁰

وكان يمكن لرجل آخر زعيم في قومه غير رسول الله ﷺ أن يغار من رجل مثل عمر ويبري في مواقفه الصائبة دائما منازعة له في زعامته، لكنه عليه السلام كان أرفع من ذلك.

ويمكن أن نقيس هذا النوع من الذكاء عند ابن

الخطاب بالفراسة التي يتمتع بها المسلم التقى والتي تعينه على تمييز الحق من الباطل، وقد أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) [الأنفال: 29].

ولعل العامل الحاسم في تنمية هذا الذكاء الروحي هو صفاء النفس وورعها، وقد كان عمر يتمتع بقدر كبير من ذلك، حتى كان الشيطان يهابه لشدة تقواه، إذ قال رسول الله ﷺ فيما رواه سعد بن أبي وقاص: «والذي نفسي بيده، ما ليك الشيطان قط سالكا فجًا، إلا سلك فجًا غير فجك».⁵¹

عاشرا: الذكاء الأخلاقي.

من خصائصه: قدرة الإنسان على الالتزام بما يؤمن به من فضائل، وأخلاق، وقيم اجتماعية، ودينية، ويتمثل أيضا في القدرة على ضبط النفس، والاحترام، والعطف، والتسامح، والإنصاف، والشعور بالمسؤولية.

وقد يسمى هذا النوع أيضا الذكاء العاطفي، وهو القدرة على التحكم في الانفعالات النفسية والتصرف بالحكمة في مختلف المواقف مهما بلغت شدتها.

وقد أعطى النبي ﷺ أروع المثل في ذلك، وكان يحث على التحكم في العواطف الشديدة، فيقول: «ليس الشديد بالصرعة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».⁵²

وقالت عائشة ﷺ: «ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء يؤتى إليه، حتى تنتهك من حرمان الله، فينتقم لله».⁵³

وقال أنس ﷺ: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، لا والله، ما سبني سبة قط، ولا قال لي: أف، قط، ولا قال لي لشيء فعلته: لم فعلته؟، ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟».⁵⁴

وكان يحتقى ويثني على من اتصف بربطة الجأش والتحمل، كما روى عن أبي سعيد الخدري قال: قال نبي الله ﷺ لأشج عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله، الحلم والأناة».⁵⁵

وكان من طبعه عليه السلام المداواة وتكليف مشاعره مع بعض الناس ذوي الطباع السيئة تجنباً لشهرهم، فعن عائشة رضي الله عنها: «أن رجلا استأذن على النبي ﷺ، فلما رآه قال: بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة. فلما جلس تطلق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت عائشة: يا رسول الله: حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلعت في وجهه وانبسطت إليه؟ فقال رسول الله ﷺ: يا عائشة متى عهدتني فحاشا، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره».⁵⁶

الرابط هو عقيدة الثواب والعقاب أو الجنة والنار، وهو غير موجود في نظرية جاردنر.

- تختلف السنة النبوية عن النظرية في بعض مجالات الذكاء من حيث المشروعية، كالذكاء الإيقاعي، الذي يقتصر على ما هو مسموح به شرعا من الإنشاد والشعر، بينما يشمل عند جاردنر كل ألوان اللهو والغناء والموسيقى والألعاب.

- نجد في تطبيقات السنة النبوية لنظرية الذكاء أبعادا غائبة تماما في نظرية جاردنر، مثل تسخير موهبة الإنسان لأداء مهمات رسالية دعوية، أو للجهد في سبيل الله، بينما اقتصر الأمر عند جاردنر في تحقيق غايات الفرد الحياتية العادية، أو ما يسمى بالسعادة الذاتية.

نتائج البحث وتوصياته

يمكن في هذا البحث تسجيل النتائج والتوصيات الآتية:

أولاً: النتائج:

- سبق السنة النبوية في مجال رعاية النفس الإنسانية وتربيتها وتهذيبها، مما يبين أن السنة ليست أحكاما فقهية فحسب، وإنما هي منظومة تربوية تعليمية بالدرجة الأولى.

- شمول السنة النبوية لأدق التفاصيل التي توصل إليها الفكر الإنساني في علوم التربية متمثلا في نظرية الذكاء المتعدد، وهذا من مظاهر الإعجاز في السنة النبوية.

- تضمنت السنة النبوية عناصر تعد تصحيحا وتكملة للثغرات التي جاءت في نظرية جاردنر، لاسيما ما تعلق بمصير الإنسان والغاية من خلقه، مما يوجب على المسلم العودة دوما إلى معين القرآن والسنة كميزان يقيس عليه ما يتلقاه من علوم ومعارف. وليؤكد من مشروعية بعض الوسائل التربوية كما مر في عنصر الذكاء الإيقاعي.

ثانياً: التوصيات:

- ضرورة استثمار المسلمين للتراث النبوي في صياغة مقررات التعليم ومناهج الدراسة، لما فيها من الشمول، والصدق، والاستجابة لحاجات الفرد المسلم الدينية خاصة باعتباره مسلما بالدرجة الأولى، وهذا سيجنبنا كثيرا من النقائص الموجودة في منظوماتنا التربوية بسبب اعتماد الاستيراد الحرفي للنظريات الغربية دون تمحيص.

- الاهتمام بشكل أفضل بالإعجاز النبوي في التربية وعلوم النفس، وتأسيس مجامع لها على غرار مجامع الفقه وهيئات الإعجاز العلمي.

- مواصلة البحث وإجراء دراسات مقارنة أوسع وأعمق بين السنة ونظرية الذكاء المتعدد، لكونها واسعة التطبيق في العالم، وفي ذلك خدمة للسنة النبوية وتعريف بالجوانب المضيئة في التراث الإسلامي.

وقد ورد عنه عليه السلام ما يدل على تمتع كل شخص بهذا النوع من الذكاء والقدرة على التمييز بين الصواب والخطأ، بما لا يحتاج معه الإنسان إلى توجيه من أحد، وهو ما سماه بالفطرة، فقال فيما رواه أبو هريرة عنه: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء».⁵⁷

وبين أن الإنسان بمقدوره تمييز الإثم بنفسه، إذا ما شعر بعدم الطمأنينة لفعل يقوم به، فروى النواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه قال: «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم، فقال: البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس».⁵⁸

المطلب الثالث: أوجه الاتفاق والاختلاف بين السنة النبوية ونظرية الذكاء المتعدد.

من خلال استعراض النصوص والتطبيقات السابقة في السنة النبوية عن أنماط الذكاء وفق النسق الذي عرضه جاردنر في نظريته يمكن تحديد بعض أوجه الاتفاق والاختلاف بينها كالآتي:

أولاً: أوجه الاتفاق:

- اتصفت نظرة كل من السنة النبوية وهذه النظرية بالشمول والاستيعاب لكل جوانب القوة والتميز التي أودعها الله في النفس البشرية.

- أولت السنة كما نظرية جاردنر للعمل والاحتراف اهتماما خاصا، وفي ذلك رفع من شأن فئات كبيرة من الناس ممن يسمون بالعاملة، فليس التميز والنجاح مقتصرًا فقط على أهل العلم والمعرفة دون سواهم.

- رسخت السنة النبوية ونظرية جاردنر قيمة المشورة والروح الاجتماعية ومحبة الآخرين، باعتبارها صورا من صور الذكاء والعبقرية.

- أولت السنة النبوية وتلك النظرية للجانب الروحي اهتماما كبيرا، باعتباره محرك الإنسان وموجها لسلوكه، على عكس كثير من الفلسفات المادية المعاصرة.

ثانياً: أوجه الاختلاف:

- أعطت السنة النبوية للذكاء أبعادا روحانية أوسع مما أشارت إليه نظرية جاردنر، من حيث المصدر والغاية، فالمصدر في السنة النبوية هو الله تعالى الواهب لتلك القدرات، والغاية هي تحقيق العبودية لله بكل ما يقوم به الإنسان، وهو ما لم تفصح عنه نظرية جاردنر.

- نجد في السنة النبوية رابطا مهما يساعد على تحفيز الأداء عند الإنسان في فعل الخير وتجنب الضرر كما رأينا في الذكاء الأخلاقي، وهذا

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت تسليماً كثيراً،
أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وسلم

الهوامش:

- 1- أنظر تفاصيل هذه الأنواع في كتابه: أطر العقل ونظريات الذكاء المتعددة (Frames of mind)، وكتابه: الذكاء المتعدد في القرن الحادي والعشرين. حيث ذكر في الكتاب الأول ثمانية أنواع، وأضاف نوعين آخرين في كتابه الثاني، وهما: الذكاء الروحي العاطفي، والذكاء الأخلاقي.
- 2- صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم 4851.
- 3- مسند أحمد، رقم 7397. وإسناده حسن.
- 4- صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب أحب عني اللهم أيده بروح القدس، رقم 3041.
- 5- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك، رقم 6124.
- 6- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، رقم 307، 78/4. من حديث نابغة بن جعدة. وإسناده حسن.
- 7- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، رقم 61.
- 8- مسند أحمد، رقم 12648: 161/3.
- 9- صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، رقم 3140.
- 10- سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب 59، رقم 2516. وقال: حسن صحيح.
- 11- صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، رقم 5061.
- 12- صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب سورة قل أعوذ برب الفلق، رقم 6371.
- 13- مسند أحمد، رقم 21708، وإسناده صحيح.
- 14- مسند أحمد، رقم 948: 117/1. وإسناده صحيح.
- 15- صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب وضوء الماء عند الخلاء، رقم 143.
- 16- سنن النسائي، كتاب مناسك الحج، باب التقاط الحصى، رقم 3057، ومسند أحمد، رقم 1854، وإسناده عندهما صحيح.
- 17- أنظر بحث: رعاية الموهوبين في السنة النبوية، علي إبراهيم سعود عجيين، المجلة الأردنية للدراسات الإسلامية، ص: 162.
- 18- سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رقم 3681. وقال: حديث حسن صحيح.
- 19- صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب خالد بن الوليد رضي الله عنه، رقم 3547.
- 20- سنن الترمذي، كتاب الاستئذان، باب ما جاء في مرحبا، رقم 2954. ولكن في إسناده ضعف وانقطاع.
- 21- مسند أحمد، رقم 26320: 264/6، وإسناده جيد، رجاله ثقات.
- 22- سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، رقم 3895. وقال: حديث حسن غريب صحيح.
- 23- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على الرمي، رقم 2743.
- 24- إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال، تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، رقم 136/1.
- 25- صحيح البخاري، كتاب الخمس، باب من لم يخمس الأسلاب، رقم 2972.
- 26- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله، رقم 6054.
- 27- مسند أحمد، رقم 4142: 435/1. وإسناده حسن.
- 28- السيرة النبوية، ابن هشام: 167/3. ولكن في سند الرواية ضعف للانقطاع بين ابن إسحاق راوي القصة والحباب، قال: حدثت عن رجال من بني سلمة عنه.
- 29- صحيح البخاري، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، رقم 4761.
- 30- صحيح ابن حبان، رقم 7197، وإسناده صحيح.
- 31- صحيح ابن حبان، رقم 7066: 542/15. وإسناده حسن.
- 32- صحيح البخاري، باب البكاء عند قراءة القرآن، رقم 4768.
- 33- صحيح مسلم، كتاب صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه، رقم 2100.
- 34- سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب مخالطة المسلم للناس، رقم 2696. وإسناده صحيح.
- 35- سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب صلاح ذات البين، رقم 2698. قال الترمذي: حديث صحيح.
- 36- صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس، رقم 2546.
- 37- المستدرك على الصحيحين، رقم 7302: 183/4. وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه. وأخرجه البخاري بنحوه في الأدب المفرد، كتاب الجار، باب شكاية الجار، رقم 124، وإسناده صحيح.
- 38- صحيح البخاري، كتاب التمني، باب ما يجوز من اللؤ، رقم 6816.
- 39- السيرة النبوية، ابن كثير الدمشقي: 433/1، وفي سنده إرسال.

- 40- سنن أبي داود، كتاب (9) الزكاة، باب (27) ما تجوز فيه المسألة، رقم 1643.
- 41- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستغفار عن المسألة، رقم 1402.
- 42- صحيح البخاري، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، رقم 2234.
- 43- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب مراعاة مصلحة الدوس في السير والنهي عن التعريس في الطريق، رقم .
- 44- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم تعذيب الهرة ونحوها من الحيوان الذي لا يؤذي، رقم 2242.
- 45- مسند أحمد، مؤسسة قرطبة، القاهرة، دت، رقم 13004 : 191/3.
- 46- صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، رقم 1552.
- 47 - صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم 147.
- 48- سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب سلمان الفارسي ﷺ، رقم 3797، وقال: حسن غريب.
- 49- سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب في مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب ﷺ، رقم 3686. وقال: حسن غريب.
- 50- سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب في مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب ﷺ، رقم 3682، وقال: حسن غريب.
- 51- صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم 3120.
- 52- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم 5763 : 2267/5.
- 53- صحيح البخاري، كتاب المحاربين، باب كم التعزيز والأدب، رقم 6461.
- 54- مسند أحمد، رقم 13057 : 197/3، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.
- 55- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، رقم 25 : 46/1.
- 56- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، رقم 5681 : 2243/5.
- 57- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصل عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، رقم 1292.
- 58- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، رقم 2553.

مجلد ومؤشرات أبحاث الاقتصاد الجزائري

الفترة 1962-2012

مصطفى عبد اللطيف

قسم العلوم الاقتصادية جامعة غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000 الجزائر

مقدمة:

عرف الاقتصاد الجزائري العديد من التغيرات والتعديلات، حيث ابتدأت التجربة التنموية بسياسات التخطيط المركزي والكبح المالي وامتلاك قطاعات النشاط الاقتصادي، لكن لم تتجح هذه التجربة في إحداث التنمية المطلوبة، وظهرت العديد من الاختلالات وعلى مستويات متعددة، فباشرت بذلك الدولة العديد من الإصلاحات لإحداث قطيعة شاملة مع المنظومة الاقتصادية السابقة وذلك بوضع الإطار المؤسسي المنظم والموجه للاقتصاد الوطني في محاولة لتحريره من التوجه المركزي، وقامت كذلك بمحاولات لتطهير وإصلاح المؤسسات الاقتصادية والبنكية، لجأت فيها الجزائر إلى تطبيق سياسات إصلاحية شاملة مع بداية التسعينات متمثلة في برنامج التثبيت والتكيف الهيكلي المدعومة من صندوق النقد والبنك الدوليين والتي تهدف إلى استعادة التوازن المالي الداخلي والخارجي وتحقيق النمو الاقتصادي المطلوب والقبال للاستمرار وتحسين مستويات المعيشة، ثم باشرت بعد ذلك بمرامح للنمو والتنمية الاقتصادية مع بداية الألفية الثالثة قصد تحقيق الاستقرار الاقتصادي، وضمان التنمية المستدامة، فسطرت برنامجين للإنعاش الاقتصادي ودعم النمو وخصصت لهما مبالغ مالية ضخمة، لتنشيط الطلب الإجمالي وخلق وظائف جديدة، من خلال الاستثمار في البنية الأساسية، ودعم الإنتاج وتنويع النشاطات المنتجة في مختلف القطاعات.

من خلال ذلك نحاول التعرف في هذه الورقة البحثية على مسار التنمية الاقتصادية في الجزائر خلال مسيرة 50 سنة من الاستقلال، فكيف كانت نتائج ومؤشرات التنمية خلال هذه الفترة؟

إستراتيجية التنمية المعتمدة في الجزائر قبل الإصلاحات :

استندت إستراتيجية التنمية المتبعة في الجزائر على

سياسات التخطيط المركزي وكبح السياسات المصرفية والمالية، مما نتج عنه اختلالات حادة، وكان الاعتماد في إطار تلك الإستراتيجية على الدور المهيمن للقطاع العام في إدارة الاقتصاد، ومن ثم احتكاره للإنتاج والتوزيع والتوظيف والتجارة الخارجية، ولم تكن مساهمة القطاع الخاص في أحسن الأحوال أكثر من 5 %.

ولقد شكلت عوامل التحكم والرقابة جزءا من نظام إدارة الاقتصاد ولم يكن لها إرتباط يذكر بأوضاع ميزان المدفوعات ومدى توافر العملات الأجنبية وبشكل القطاع المالي والمصرفي الذي تملكه الدولة أداة التخطيط المركزي حيث اقتصر دوره على الإيفاء بالاحتياجات التمويلية للقطاع العام، وعدم قيامه بوظائفه الأساسية، كما ساعد على كبح القطاع المالي والمصرفي توفر الإيرادات النفطية التي تم توجيهها من خلال الجهاز المصرفي إلى المشاريع العامة¹.

ولقد انتهجت الجزائر سياسة التصنيع الثقيل الذي يعتبر النفط فيها عنصرا أساسيا وذلك بغرض بناء قاعدة صناعية محلية متكاملة واعتبرت الصناعة التي تحتاج إلى رؤوس أموال ضخمة من الأولويات في إطار المخططات التنموية والتي يعول عليها للنهوض بالاقتصاد الوطني من خلال القوة الدافعة للصناعة، كما اعتمدت على نظرية إحلال الواردات لترقية المنتجات النهائية، وإن تطبيق هذه الاستثمارات الضخمة لا يمكن أن تتولاه إلا الدولة، حيث تبنت نظام التخطيط المركزي².

ولقد تمحورت إستراتيجية التنمية المتبعة في الجزائر على المؤسسات الصناعية والتي كان على عاتقها مهام ثقيلة لقيادة التنمية، ولقد عرفت هذه المؤسسات العديد من الاختلالات، ظهرت بوادرها في بداية الثمانينات، ويمكن إرجاع فشل هذه المؤسسات في تحقيق الأهداف الطموحة للدولة للأسباب التالية³:

- ارتفاع العمالة والأساليب غير العقلانية المتبعة من طرف الدولة في التوظيف .

- ثنائية اقتصادية : التي تعتبر أبرز نتيجة هيكلية عرفها الاقتصاد الجزائري من خلال إدخال علاقات إنتاج رأسمالية، تظهر هذه الثنائية بتعايش نظاميين اقتصاديين أحدهما متطور والآخر متخلف (تقليدي)، خاصة في القطاع الزراعي، وتظهر هذه الثنائية إقليمية، حيث توجد مناطق اقتصادية نامية وباقي التراب متخلف .

- اقتصاد مسيطر عليه: حيث تظهر التبعية الاقتصادية في أشكال مختلفة تجارية، تكنولوجية، مالية وبشرية .

- اقتصاد ضعيف: وذلك نتيجة للتبعية الاقتصادية والذي يتمثل في ضعف هيكل المبادلات الخارجية وفي العلاقات المالية .

- هيمنة القطاع النفطي الريعي علي الاقتصاد: حيث انطلقت إستراتيجيات التنمية إعتقاداً على عائدات الصادرات النفطية ولن يتحقق أي نمو إلا بسبب نمو القطاع النفطي والذي ساهم لوحده بنسبة 97% من إيرادات العملة الأجنبية و 3/2 من ميزانية الدولة .

- هيمنة الدولة على النشاط الاقتصادي .

- ضعف القطاع الخاص ومحدوديته : وذلك بسبب النموذج التنموي المتبع، وضعف البيئة الإستثمارية وسيطرة الدولة على النشاط الاقتصادي وهيمنتها على القطاع المالي والمصرفي.

أما بالنسبة للوضع الإجتماعي فقد عرفت هذه الفترة البطالة والأمية .

أما فيما يخص الوضعية الاقتصادية الكلية فيمكن إظهارها من خلال المؤشرات التالية⁷ :

- ارتفاع حجم الواردات بالكمية والقيمة، حيث جعل الاقتصاد الجزائري شديد الحساسية للتمويل الخارجي، وتبعية الصناعة الجزائرية لهذه الواردات، مع ضعف تغطيتها بالصادرات خارج المحروقات من خلال انخفاض معدل التغطية والمقدر بـ 16 % فقط، وهو ما يعكس ضعف المقدرة على التناقص الخارجي .

أما بالنسبة لميزان المدفوعات فهناك عجز مستمر، وتزايد خدمات المديونية خاصة بعد سنة 1986 .

بالنسبة للقطاع الفلاحي، فالزراعة عموماً غير قادرة على ضمان وجبة غذائية أساسية للمستهلك الجزائري، فالمنتجات الغذائية الأساسية التي تعطي للفرد الجزائري طاقة من الغذاء هي منتجات مستوردة بنسبة 87% كما أن معدل التغطية الزراعية في الجزائر هو أدنى معدل في منطقة المغرب العربي حيث يعادل فقط 1% مقابل 70% و 35% لكل من المغرب وتونس .

ومقابل هذا الضعف فقد بلغت الفاتورة الغذائية أكثر من 2 مليار دولار، وهو ما يعادل 1/4 من العائدات الخارجية للجزائر وهو ما يشكل ضغطاً قوياً على

- ضعف الهياكل وهشاشة الظروف وعدم إستغلال الطاقات المتاحة .

- سوء التنسيق بين الهيئات والإدارات وصعوبة المراقبة .

- عدم ملائمة التكنولوجيا المستوردة للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والمعرفية .

- ضعف إنتاجية العامل وسوء التسيير .

- الحاجة إلى الدعم المالي من الدولة، مع غياب النجاعة والمردودية.

وبشكل عام فإن إستراتيجية التنمية المتبعة في الجزائر قد انجر عنها جملة من الإختلالات ذات مستويات متعددة يمكن ذكر أهمها في ما يلي⁴:

- الطابع التضخمي للاستثمار في الصناعة والهياكل القاعدية .

- إختلالات بين العرض والطلب .

- إنبهار الإستراتيجيات القطاعية وذلك من خلال النقص المزمن الذي تعرفه الطاقة الإنتاجية.

- إرتفاع حجم الواردات والذي جعل الاقتصاد شديد الحساسية للتمويل الخارجي .

- تبعية مفرطة للاقتصاد الوطني للعائدات البترولية . وبالتالي فإن هذه الإستراتيجيات التنموية أدت إلى النتائج التالية⁵:

- وصول النموذج المتبع في تنمية الاقتصاد الجزائري إلى نفاذ قدراته في إحداث الحركة التنموية المرغوبة وتحقيق الأهداف المعلنة، وانهباء التوازنات الاقتصادية الكلية والمالية وبروز الإختلالات الاجتماعية.

- تقادم القيود الواردة على الاقتصاد الوطني، فمقابل زيادة الطلب الاجتماعي فهناك محدودية في الموارد المالية التي إنعكست خصوصاً في التأثير المفرط للاقتصاد الوطني بالإختيارات ذات المنشأ الخارجي، إضافة إلى الأفاق الضيقة فيما يخص تطور التوازنات المالية الخارجية .

1- الوضع الاقتصادي قبل سنة 1988:

قبل إعطاء بعض المؤشرات عن الوضع الاقتصادي قبل سنة 1988 نحاول إعطاء نظرة وجيزة عن الوضع، وذلك حتى نفهم طبيعة ومسببات الإجراءات التي أتبعت بعد 1988، وأهم هذه الخصائص ما يلي⁶:

- تخلف لم يحل : وقد نتج عن هذا التخلف تشابك المعطيات التالية، ثقل وزن الزراعة في الاقتصاد الجزائري وضعف التصنيع، البطالة، انخفاض الدخل الفردي .

وارتفاع عمليات إعادة التمويل أمام البنك المركزي، حيث بلغت هذه النسبة 0.84 سنة 1988 مقابل 0.76 في سنة 1985 .

- تنذب كبير في الأسعار النسبية مع ارتفاع نسبة التضخم رغم التعديلات التي مست معدل الصرف ابتداء من 1986 .

- تقام مشكلة المديونية : فبسبب الإستثمارات الضخمة وضعف الموارد المالية لجأت الدولة إلى الإستدانة من الخارج قصد تغطية هذا النقص، وقد ازدادت الحاجة إلى التمويل الخارجي خاصة مع الشروع في تنفيذ المخططات التنموية والجدول التالي يوضح تطور المديونية في السبعينات من القرن الماضي .

وسائل الدفع الخارجية .

- الإختلال الهيكلي للمالية العامة والناجم بدوره عن اللجوء المفرط إلى تغطية عجز الخزينة العمومية بالإصدار النقدي في الفترة 83 و 1989 فقد بلغ عجز الخزينة المغطى بالإصدار النقدي سنة 1988 نسبة 12.7% من الناتج المحلي الإجمالي، أي كتلة نقدية لا يقابلها إنتاج حقيقي ودرجة تأثير ذلك في معدل التضخم .

- تقام الإختلالات المالية للمؤسسات العمومية وما ترتب عنه من قروض قصيرة المدى غير مجدية بالنسبة للبنوك .

- ارتفاع مذهل في نسبة السيولة (M2/PIB) حتى سنة 1988، في ظرف أهم ما ميزه ضعف الوساطة المالية

جدول رقم : 01 الدين الخارجي للجزائر 70- 1979 الوحدة : مليون دولار أمريكي

السنة	الدين الخارجي	مؤشر الزيادة	الفائدة	الأصل	خدمة الدين
1970	944	100	10.10	34.60	44.70
1971	1260	133.47	16.50	52.60	69.10
1973	2991	316.84	67.20	232.90	300.10
1974	3412	316.44	221.00	494.60	715.60
1975	4593	486.55	215.20	250.50	465.70
1978	13687	1449.89	611.40	903.30	1514.70
1979	16510	1748.94	1249.70	1558.90	2808.60

source: Ahmed benbitour, l'Algérie au troisième millénaire, Ed: marinoor, Alger, 1998, p: 57.

تصحيح المسار الاقتصادي وفي ظل استمرار السياسات غير الرشيدة، تدهور الأداء الاقتصادي خلال هذه الفترة، وهو ما يعكسه تطور المديونية خلال الفترة .

نلاحظ النمو المتسارع للمديونية خلال هذه الفترة، والارتفاع الهائل لخدمتها، وبالتالي غياب إستراتيجية واضحة لسياسة الاقتراض، ورغم تغير أولويات التنمية بداية الثمانينات ومحاولات

جدول رقم: 2 تطور المديونية خلال الفترة 80- 85 الوحدة : مليون دولار أمريكي

السنة	الدين الخارجي	معدل خدمة الدين
1980	17040	27
1981	16066	26.7
1982	14891	31
1983	14412	34
1984	14133	37
1985	16398	36

source: IBID, p: 71.

إن السياسة التنموية التي اتبعتها الجزائر صاحبها مساوئ عديدة وأفرزت نتائج سلبية تمثلت في وجود لا

2- الإصلاحات وإعادة هيكلة المؤسسات الاقتصادية:

الجزائري برزت من خلال قوانين 1988 وذلك على إثر انهيار أسعار النفط ابتداء من سنة 1986، فباشرت الدولة تطهير وتقويم المؤسسات الاقتصادية وذلك على مرحلتين وفقا لمقاربتين متميزتين، تمثل الأولى المقاربة الممركزة، حيث أوكلت للخرينة العمومية مهمة إيجاد منافذ للإشكالات المطروحة، بينما تمثل الثانية المقاربة اللاممركزة، حيث أنها تقوم على إشتراك البنوك في تفعيل الإصلاح¹¹، فقامت بإعادة هيكلة المؤسسات الاقتصادية والصناعية وعملية الخصخصة.

وقامت الدولة كذلك بمحاولات لتطهير وإصلاح المؤسسات البنكية، وذلك بسبب محدودية الإصلاحات التي باشرتها بداية السبعينات ونتيجة لما تميزت به المؤسسات البنكية من ضعف وهشاشة محافظها المالية، أصبح من الضروري تطهير محافظها وإعادة هيكلتها من أجل تسهيل إنتقالها إلى اقتصاد السوق بأقل تكلفة اقتصادية ممكنة، وهو ما شرعت فيه الجزائر منذ سنة 1986 بإدخال إجراءات الرقابة، ثم قوانين سنة 1988، ثم قانون النقد والقرض والذي فتح المجال لانتقال الجزائر من الاقتصاد الموجه إلى اقتصاد السوق وهو (ما سنتعرض له في النقاط اللاحقة).

وقد كان الهدف من بداية هذه الإصلاحات هو استعادة التوازن الاقتصادي والمالي الكلي في البلاد، خاصة بعد الصدمة البترولية لسنة 1986 والتي أدت إلى تقادم الأوضاع وزيادة العجز الموازني والضغط التضخمي وارتفاع الاستدانة الخارجية، لكن دخول الجزائر إلى إعادة الهيكلة والإصلاح الاقتصادي كان قبل أن تكمل الأطر القانونية وقبل الشروع في الإصلاحات مع صندوق النقد الدولي، وقد كان من نتائجها سوء التسيير وعدم ارتفاع المردودية في أغلب المؤسسات، مما زاد من تعميق الأزمة، وبالتالي فشلت عملية إعادة الهيكلة في هذه المرحلة.

3- الإصلاح الاقتصادي وبرامج التثبيت والتكيف الهيكلي:

لجأت الجزائر إلى تطبيق سياسات إصلاحية شاملة مع بداية التسعينات متمثلة في برنامج التثبيت والتكيف الهيكلي المدعومة من صندوق النقد والبنك الدوليين والتي تهدف إلى استعادة التوازن المالي الداخلي والخارجي وتحقيق النمو الاقتصادي المطلوب والقابل للاستمرار وتحسين مستويات المعيشة، وتعرف برامج التثبيت والتكيف الهيكلي على أنها جملة من الإجراءات والترتيبات التصحيحية الواجب إدخالها على الاقتصاديات التي تعاني أزمت هيكلي حادة داخلية وخارجية على حد سواء، باقتراح من خبراء في شؤون

توازنات اقتصادية ومالية هيكلية تكبدها الاقتصاد الوطني، ولإعادة بعثه قامت الحكومة بإصلاحات اقتصادية عديدة منذ بداية الثمانينات، تمثلت هذه الإصلاحات في إعادة الهيكلة العضوية والمالية والتطهير المالي وإعادة النظر في عدد من القضايا مثل دور المؤسسة العمومية في الاقتصاد الوطني، دور الدولة في الاقتصاد.

وإن الانتقال من تنظيم اقتصادي مبني على أساس التخطيط المركزي إلى اقتصاد السوق يعتبر حتمية تاريخية⁸، حيث يجب في بادئ الأمر التحضير والتنظيم لمرحلة انتقالية ترمي وتطمح إلى تصفية وتطهير هذه الاختلالات عن طريق وضع إطار إصلاحي للجانب النقدي والمالي⁹.

وهنا يجب احترام ميكانزمات السوق والعمل على تحقيق استقرار الاقتصاد الوطني وتطبيق سياسات اقتصادية صارمة، وخلق المناخ المناسب لذلك مع ضرورة الاستفادة من تجارب الدول السابقة في طور الانتقال إلى اقتصاد السوق.

وهو ما باشرتة الجزائر بمجموعة من الإصلاحات، حيث وضعت العديد من التشريعات في العديد من المجالات، وقد شرع في إصدار أولى نصوصها سنة 1988 إيذانا بدخول عهد جديد عرف بعهد الإصلاحات، وتتعلق هذه القوانين بالمؤسسات والتخطيط الاقتصادي وصناديق المساهمة والقانون التجاري والأسعار والعمل والجماعات المحلية وقانون النقد والقرض والأملاك والاستثمار والخصخصة إلى غير ذلك من القوانين المتتابعة¹⁰.

وبالتالي فإن جوهر الأفكار الموجهة لعملية التنمية في هذه المرحلة هي إحداث قطيعة شاملة مع المنظومة الاقتصادية السابقة وذلك بوضع الإطار المؤسسي المنظم والموجه للاقتصاد الوطني في محاولة لتحريره من التوجه المركزي وفي ظل هذا التوجه الجديد فإن دور الدولة ينحصر في أداء ثلاثة وظائف أساسية، الوظيفة الإدارية ووظيفة توزيع الدخل ووظيفة تنظيم الحوار والتشاور الاقتصادي والاجتماعي وتعتبر إعادة هيكلة المؤسسات المالية والنقدية من المتطلبات الأساسية لاقتصاد السوق وبالتالي فإن حتمية الانتقال إلى اقتصاد السوق وإدخال قيود الفعالية في التسيير أمران أساسيان يقود إتباعهما إلى إستئناف عملية النمو في سياق ميزته الأساسية الاستقرار، مع تحقيق المنظومة الأساسية لاقتصاد السوق والمبنية على الأسعار الحقيقية ووجود وساطة مالية جد متطورة والقطاع الخاص.

وإن جوهر التحولات التي عرفها الاقتصاد

وقد أجرت الجزائر مفاوضات مع البنك العالمي حول برنامج التعديل الهيكلي (PAS) وذلك من أجل مواصلة إستراتيجية النمو الاقتصادي ورفع مستوى التنافس في القطاعات وتحسين التنافس الخارجي قصد الاندماج في الاقتصاد الدولي (المنظمة العالمية للتجارة، الشراكة الأورو متوسطية¹⁴).

4- الدور الجديد للدولة ونتائج المرحلة الانتقالية وإنجازات التصحيح الاقتصادي:

5-1 الدور الجديد للدولة :

باعتبار الدولة قوة عمومية فإنها تستمر في الحضور في المنظومة الاقتصادية الجديدة، كتسيير بعض الوظائف، كالوظيفة النقدية، ضبط الأسعار وجباية الضرائب.. ويظهر دور الدولة من خلال الوظائف الثلاث التالية¹⁵ :

- الوظيفة الإدارية للتنظيم والتأطير والتحكيم: سواء على صعيد تحقيق الاستقرار النقدي أو على الصعيد التجاري بضمان حرية الأسعار أو على مستوى تنظيم الجهاز الجبائي لتحفيز النشاط الاقتصادي وحماية الثروات وتوفير الجو المناسب للاستثمار.

- وظيفة إعادة توزيع الدخل الوطني والحماية الاجتماعية.

- وظيفة تنظيم الحوار والتشاور الاقتصادي والاجتماعي والهدف من هذه الوظيفة هو مواجهة الانعكاسات السلبية التي تعرفها المرحلة الانتقالية، من منظومة مبنية على الإحتكار والمركزية إلى منظومة مبنية على اللامركزية والحرية في اتخاذ القرارات، إضافة إلى أنه يجب على الدولة إنشاء الأطر اللازمة للحوار والتشاور وتوفير الخدمات الاجتماعية.

5-2 نتائج المرحلة الانتقالية وإنجازات التصحيح الاقتصادي :

نتيجة للوضعية الحرجة التي عرفها الاقتصاد الجزائري، أعطت الدولة الأولوية لتطبيق سياسات الاستقرار الاقتصادي الكلي، وقد أسفر البرنامج الشامل للإصلاح الاقتصادي عن نتائج جد معتبرة على المستوى الكلي حيث تمكنت من إرساء مقومات الاستقرار الاقتصادي الكلي الذي مكناها من تنفيذ الإصلاحات الهيكلية المكملة لجهود التصحيح وتحقيق النمو القابل للاستمرار.

لم يتعد النمو 2.3 % سنويا في عقد الثمانينات من القرن الماضي، والذي استمر بداية سنوات الإصلاح الاقتصادي والتدهور في الاستهلاك الفردي الخاص نحو 3% عبر الفترة 89-1995، زيادة البطالة ووصل المعدل إلى 28% سنة 1995، ووصول التضخم إلى أعلى مستوياته نهاية ديسمبر 1994 بنسبة 39%، وعجز الموازنة¹⁶.

أما بالنسبة للواقع الذي أفرزه برنامج التصحيح

النقد والمال ومدعومة من قبل هيئات دولية (الصندوق والبنك الدوليين وذلك بهدف القضاء أو التقليل من حدة تلك الأزمات وتحقيق نمو قابل للاستمرار¹².

وتشمل هذه البرامج على حزمة متكاملة من السياسات وتمس المجالات الداخلية والخارجية وتتكون هذه البرامج من¹³:

- الإصلاح الهيكلي : ويشمل الإجراءات التي تهدف إلى التحسين والتوزيع الأمثل للموارد وتشمل الخصخصة والأسعار الحقيقية وتشجيع الاستثمار الأجنبي والوطني.

- السياسة المالية: وذلك بغية الحد من عجز الميزانية وتحسين النفقات والنظام الضريبي وإزالة الدعم السلعي.

- السياسة النقدية: وذلك برفع أسعار الفائدة وتحديد السقوف الائتمانية للائتمان المحلي والتحكم في الإصدار النقدي.

- إصلاح السياسة التجارية وإدارة المديونية.

وقد عرفت الجزائر عدة تحولات في مجالات السياسة الاقتصادية منذ النصف الثاني من الثمانينات وبداية التسعينات، فعقدت عدة إتفاقيات مع صندوق النقد الدولي بداية من سنة 1989، ثم شرعت في تطبيق برنامج الإصلاح الاقتصادي الشامل ابتداء من أفريل 1994 حيث شرعت في تطبيق برنامج الاستقرار الاقتصادي المدعوم من صندوق النقد الدولي لمدة سنة ثم برنامج للتصحيح الهيكلي لمدة ثلاث سنوات متتالية من أفريل 95 إلى مارس 1998، وقد شمل هذا البرنامج مختلف أوجه السياسة الاقتصادية الكلية، وكان يسعى إلى تحقيق الأهداف التالية:

- تحقيق معدل نمو مرتفع.
- تحقيق الاستقرار السريع لمعدل التضخم في مستوى منخفض.
- تحسين وضعية ميزان المدفوعات وتحسين إحتياجات الصرف.
- تخفيف آثار برنامج التصحيح الهيكلي.

وقد سمح هذا البرنامج بامتصاص الكثير من الإختلالات، وتم التحكم في الضغوط التضخمية، وساهم في توازن الأسعار النسبية وتقليص عجز الخزينة وصرامة السياسة النقدية ونتائج جد إيجابية فيما يخص الاستقرار النقدي وتحفيز عملية إستئناف النمو حيث استأنف الاقتصاد الجزائري نموه الفعلي ابتداء من سنة 1995، وتم تحسين وضع ميزان المدفوعات وذلك بتقليص العجز الجاري وتخفيف خدمة الدين، وتم تدعيم مستوى المعيشة للفئات الاجتماعية الأكثر حرمانا.

للوصول إلى هذه النتائج والتي من بينها إعادة الجدولة وما تمخض عنها من تحسين في معدلات خدمة الدين، ارتفاع الأسعار والكميات المنتجة من المحروقات، والظروف المناخية الملائمة والتي أدت إلى تحسين مردودية الإنتاج الفلاحي .

الهيكلية فيظهر أن هناك تحسنا واضحا في معظم المؤشرات الكلية¹⁷.

1-2-5 بالنسبة للنمو الاقتصادي:

حقق الاقتصاد الوطني معدلات نمو إيجابية ولو أنها متواضعة وقد أدت العوامل الخارجية دورا حاسما

جدول رقم : 3 معدل النمو الاقتصادي للفترة 88-98.

السنوات	88	89	90	91	92	93	94	95	96	97	98
معدل النمو (%)	2.8	2.9	0.1	2	2	2.2	0.9	3.9	4	4.5	4.7

المصدر: عبد الباقي روابح وشريف غياط , الآثار الاقتصادية والاجتماعية لبرنامج التصحيح الهيكلي , الملتقى الوطني الأول

حول الاقتصاد الجزائري في الألفية الثالثة، جامعة سعد دحلب، البلدة، يومي 21 و 22 ماي، 2002، ص: 9.

التوالي وذلك كنتيجة طبيعية لسياسة الميزانية العامة المتبعة والمدعومة بتدابير نقدية صارمة .

2-2-5 ميزان المدفوعات : فقد سجل كذلك نتائج طيبة كنتيجة طبيعية لانخفاض ضغط المديونية الخارجية والمساعدات التي تلقتها الجزائر بعد إعادة جدولة ديونها الخارجية .

أما بالنسبة للإحتياطات الدولية فقد شهدت تحسنا غير مسبوق وذلك نظر العوامل الخارجية المساعدة كإعادة الجدولة وتحسن أسعار المحروقات، حيث انتقلت من 2.6 مليار دولار سنة 1994 إلى 4.52 مليار دولار سنة 1996 ثم 8 مليار دولار سنة 1997 .

2-2-5 الميزانية العامة:

سجلت هي الأخرى تحسنا مستمرا خلال فترة البرنامج أو حتى بعد ذلك حيث إنخفض العجز من 8.7 % سنة 1993 إلى 4.4 % سنة 1994 لتسجل الميزانية فائضا بلغ 3 % ، 2.4 % ، 2.9 % من الناتج المحلي الإجمالي خلال السنوات 96،97،98 على التوالي، ويرجع ذلك إلى تحسين الإيرادات الضريبية وإنخفاض النفقات العامة، وفي المقابل شهدت معدلات التضخم تراجعها هاما ومستمر مع نهاية فترة البرنامج حيث انخفض المستوى العام للأسعار حسب مصادر صندوق النقد الدولي من 29 % سنة 1994 إلى 18.7 % سنة 96 ثم 5.7 % و 5 % سنتي 97 و 98 على

جدول رقم: 4 تطور المديونية والاحتياطات الدولية للفترة 90-1998 الوحدة: مليار دولار

السنوات	90	91	92	93	94	95	96	97	98
تطور المديونية الخارجية	28.37	27.8	26.67	25.72	29.48	31.57	33.65	31.22	30.47
تطور خدمة الدين	8.89	9.50	9.27	9.05	4.24	4.24	4.48	4.46	5.18
تطور الاحتياطات الدولية	-	-	-	1.5	2.6	2.1	4.2	8	6.8

المصدر : نفس المرجع والصفحة .

4-2-5 الناحية الاجتماعية:

فقد عرفت ظاهرة البطالة تزايدا مستمرا خلال سنوات البرنامج بسبب عمليات تسريح العمال إذ انتقلت من 23 % سنة 1993 إلى أكثر من 29 % سنة 1997 ثم 29.2 % سنة 1999 وقد تراجعت النفقات العامة المخصصة لقطاع التربية وكذلك قطاع الصحة كنسبة من النفقات العامة لميزانية

الدولة، مع تسجيل تراجع مستويات المعيشة نتيجة لارتفاع الأسعار من جهة وانخفاض متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي الذي انخفض من 1822.8 دولار سنة 1993 إلى 1596 دولار سنة 1997 ثم 1500 دولار سنة 1999 وقد كان لها انعكاسات سلبية على المجتمع الجزائري رغم تحقيق درجة من الاستقرار الاقتصادي الكلي.

إحداث تحسن حقيقي في وضع الميزان التجاري وميزان المدفوعات، على الرغم من التخفيضات المتتالية التي عرفها سعر صرف الدينار تجاه العملات الأجنبية الأخرى، وقد سجل رصيد ميزان المدفوعات في غالب فترة الإصلاح عجزا كما يوضحه الجدول التالي:

5-2-5 على مستوى التضخم: حيث كانت نتائج البرنامجين في كبح التضخم وخفضه إلى مستوى معقول، فتمو الكتلة النقدية تراجع من 21.5 % عام 1993، إلى 10.5 % عام 1995، ليعود للارتفاع إلى 17.8 % عام 1998.

6-2-5 على مستوى الميزان التجاري وميزان المدفوعات: فإن سياسات التصحيح، وبصورة خاصة سياسة سعر الصرف، التي طبقتها الجزائر لم تؤد إلى

جدول رقم: 5 رصيد الميزان التجاري وميزان المدفوعات للفترة 2000-96

البيان	1996	1997	1998	1999	2000
رصيد الميزان التجاري	4.13	5.69	1.51	3.36	12.30
رصيد ميزان المدفوعات	-2.09	1.16	-1.74	-2.38	7.57

SOURCE: Banque d'Algérie, bulletin statistiques de la banque d'Algérie, juin 2006, pp:72-73.

النشاطات المنتجة في مختلف القطاعات، ورصدت لذلك اعتمادات مالية ضخمة بإفاق مبلغ إجمالي 525 مليار دينار جزائري (حوالي 7 ملايين دولار أمريكي).

ويهدف هذا البرنامج إلى تحقيق ثلاثة أهداف رئيسية، هي¹⁹:

- الحد من الفقر وتحسين مستوى المعيشة.
- خلق مناصب عمل والحد من البطالة.
- دعم التوازن الجهوي وإعادة تنشيط الفضاءات الريفية.

ويكون تحقيق هذه الأهداف بتنشيط الطلب الكلي، ودعم المستثمرات الفلاحية والمؤسسات الصغيرة والمتوسطة، وتهيئة وانجاز هياكل قاعدية لبعث النشاط الاقتصادي.

2-6 البرنامج الخماسي التكميلي (برنامج دعم النمو 2009-2005) :

مواصلة للمشاريع التي تم إقرارها وتنفيذها في برنامج الإنعاش الاقتصادي، انطلقت الجزائر في برنامج خماسي تكميلي للبرنامج السابق، يكون في مستوى التحديات التي كان لا بد للجزائر من رفعها، حيث قدرت الاعتمادات المالية الأولية المخصصة له بمبلغ 8705 ملايين دينار (114 مليار دولار) بما في ذلك مخصصات البرنامج السابق ومختلف البرامج الإضافية له لا سيما برنامج الجنوب والهضاب العليا، والبرنامج التكميلي الموجه لامتصاص السكن الهش، والبرامج التكميلية المحلية، أما الغلاف المالي الإجمالي المرتبط بهذا البرنامج عند اختتامه نهاية سنة 2009 فقد قدر بـ 9680 مليار دينار (حوالي 130 مليار دولار)، بعد إضافة عمليات إعادة التقييم للمشاريع الجارية ومختلف التمويلات الأخرى²⁰.

وجاء هذا البرنامج لتحقيق جملة من الأهداف، نذكر منها²¹:

- تحديث وتوسيع الخدمات العامة.

وبسبب التبعية القوية لقطاع المحروقات فقد تأثر الاقتصاد الوطني بالصدمة الخارجية لعام 98-1999 المتمثلة في الانخفاض الحاد لأسعار البترول، ثم في سنة 2000 تمت العودة للاستقرار الاقتصادي الكلي وإرساء دعائم تعزيز الاستقرار المالي الكلي خصوصا النجاعة المالية المبررة بما يلي¹⁸:

- الانتعاش المتزايد لميزان المدفوعات وملائمة مؤشرات المديونية الخارجية.
- تعزيز الوضعية المالية، لا سيما تراكم الادخار المالي من طرف الخزينة.
- التحسين الملحوظ في سيولة البنوك المدعومة بتحسين معتبر في السيولة العمومية.
- تحسين شروط تمويل الاقتصاد لاسيما الاستثمارات المنتجة في وضعية تنسم يتضخم متحكم فيه.

5- المسار التنموي الجديد للجزائر :

في محاولة لتنمية الاقتصاد الجزائري وإدماجه في منظومة الاقتصاد العالمي ومسايرة الظروف الدولية الجديدة، من خلال التطلع إلى إبرام الشراكة مع الاتحاد الأوروبي والانضمام إلى المنظمة العالمية للتجارة، باشرت الجزائر جملة من البرامج التنموية، نتعرف عليها فيما يلي:

1-6 برنامج الإنعاش الاقتصادي (المخطط

الثلاثي 2001 - 2004) :

بدأت الحكومة الجزائرية في أفريل عام 2001، مخططا للتنمية الاقتصادية والاجتماعية أطلق عليه اسم برنامج الإنعاش الاقتصادي، مستخمة في ذلك عائدات البترول لتنشيط الطلب الإجمالي وخلق وظائف جديدة، من خلال الاستثمار في البنية الأساسية، ودعم الإنتاج وتوزيع

- تحسين ظروف معيشة المواطنين (بناء مليون مسكن، تنمية منشآت التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي، تعزيز المنشآت الأساسية للصحة، توصيل الغاز والكهرباء والتزود بالماء الصالح للشرب.
- تطوير الموارد البشرية والبنى التحتية.
- ترقية التشغيل والتضامن الوطني .
- تمويل برامج البلدية للتنمية .
- تحسين التوازن الجهوي، وتنمية مناطق الجنوب والهضاب العليا .
- رصد قرابة 350 مليار دينار لدعم التنمية الاقتصادية ورفع معدلات النمو الاقتصادي .
- وقد كانت القيمة المخصصة للبرنامج والمشاريع المضافة له كما يلي:

جدول رقم: 6 البرنامج التكميلي لدعم النمو والمخصصات المضافة له 2005-2009 الوحدة: مليار دج

البيان	مخطط دعم الإنعاش الاقتصادي	البرنامج التكميلي لدعم النمو	برنامج الجنوب	برنامج الهضاب العليا	تحويلات حسابات الخزينة	المجموع
المبالغ	1071	5394	432	668	1140	8705

المصدر: كريم بودخدوخ، مرجع سبق ذكره، ص: 203 (بتصرف) نقلا عن:

world Bank: a public expenditure review, report n: 36270, vol1, 2007, p: 2.

3-6 نتائج برنامج الإنعاش الاقتصادي وبرنامج دعم النمو: يمكن أن نلخص أهم النتائج المتحصل عليها من خلال البرنامجين من خلال الجدول التالي:

جدول رقم: 7 أهم المؤشرات الاقتصادية خلال الفترة 2001-2009

البيان	2001	2002	2003	2004	2005	2006	2007	2008	2009
الناتج المحلي (مليار دينار)	4222	4537.7	5264.2	6112	7544.1	8514.8	9366.6	11090	10034.3
التضخم	4.2	1.4	2.59	3.6	1.6	2.53	3.51	4.46	5.4
نمو الناتج المحلي %	2.7	4.7	6.9	5.2	5.1	2	3	2.4	2.4
النمو السكاني %	-	1.5	1.5	1.6	1.6	1.7	1.8	1.4	1.9
نصيب الفرد من الناتج المحلي	132	141	159	181	225	249	264	306	270
معدل البطالة %	27.3	25.7	23.7	17.7	15.3	12.3	11.8	11.3	10.2
القيمة الإجمالية للواردات (مليون دولار)	9482	12010	13222	17954	19857	20681	26348	37993	37400

Source:- Banque d'Algérie, tableaux statistiques, Rapport :2004,2005,2006,2007,2008,2009,2010.

- محمد مسعي ، مرجع سبق ذكره، ص: 158.
- كريم بودخدوخ، مرجع سبق ذكره، ص: 215، 216، 223، 224.
- لقد سجل الناتج المحلي الإجمالي زيادة معتبر خلال برنامج الإنعاش الاقتصادي بمعدل: 44.76 %، وخلال الفترة 2005-2009 نموا بمعدل 33%،

وقد كان لهذه الإصلاحات نتائج إيجابية على صعيد استعادة التوازنات المالية والنقدية الكلية، وأثار سلبية على الناحية الاجتماعية.

وموازاة مع ذلك وفي إطار الانتماء الإيجابي في الاقتصاد العلمي باشرت الجزائر سياسة جديدة من التعاون والشراكة والانفتاح والتحرير الاقتصادي، والانضمام إلى المنظمة العلمية للتجارة والقيام بالعديد من جولات المفاوضات والتي كان لها العديد من الآثار الإيجابية والسلبية على الاقتصاد الوطني.

وفي ظل الألفية الجديدة وتزامنا مع ارتفاع أسعار المحروقات والفوائض الإيجابية المحققة من قطاع المحروقات، باشرت الجزائر برامج تنموية، امتد البرنامج الأول (برنامج الإنعاش الاقتصادي) من سنة 2001 إلى سنة 2004، بهدف إنعاش الاستثمار ودفع عجلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية ورفع مستوى الطلب الكلي .

ثم استكملت الجزائر المسار التنموي الجديد بالبرنامج الخماسي الأول وهو برنامج تكميلي لبرنامج الإنعاش الاقتصادي، بهدف دعم النمو الاقتصادي وتنمية القدرات التكنولوجية،

وتنمية البنى التحتية والمنشآت القاعدية للاقتصاد الوطني، امتد من سنة 2005 إلى سنة 2009، حيث كانت لهما نتائج إيجابية ممتدة في إنجاز العديد من المشاريع التنموية وتراجع مستويات البطالة وتحسن متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي، لكنه شهد عدم احترام مواعيد وأجل تنفيذ المشاريع، وارتفاع حجم التكاليف بسبب سوء التسيير وعدم الرشادة في الإنفاق، إضافة إلى ضعف الجهاز الإنتاجي وعدم مرونته للاستجابة للزيادة في الطلب الكلي.

وبذلك بذلت الجزائر مجهودات جبارة في سبيل تحقيق التنمية الاقتصادية، وتحسين المستوى المعيشي لكافة أفراد المجتمع، وسطرت برامج تنموية (برنامج الإنعاش وبرنامج دعم النمو الاقتصادي) ومن خلال نتائج هذه الدراسة يمكننا القول بأن سياسة التنمية الاقتصادية في الجزائر:

- مازالت لحد الساعة لم توفق في بلوغ أهداف التنمية الاقتصادية وانطلاق الاقتصاد.
- إن الاعتماد على النفط في إحداث التنمية عامل لا يمكن ضمان استمراره وبالتالي لا يمكن ضمان استمرار التنمية الاقتصادية. لذلك لا بد من :
- إيجاد سياسات تنموية تركز على رفع القدرات الإنتاجية والتصديرية والتنافسية (خارج المحروقات).
- الإهتمام بالعنصر البشري الذي يمثل العنصر الأساسي والمحرك لعملية التنمية.

وبالنسبة لمعدل النمو الاقتصادي فقد شهد تحسنا مطردا حيث وصل 6.9% سنة 2003 بسبب نمو قطاع المحروقات، ويرجع سبب تراجع معدلات النمو الاقتصادي لاحقا إلى تراجع نمو قطاع المحروقات خلال السنوات الموالية، بالتزامن مع التحكم في التضخم إلى غاية 2007، مع تحسن مستوى التشغيل حيث نلاحظ انخفاض مستمر لمعدلات البطالة، في حين شهد نصيب الفرد من الناتج المحلي تحسنا معتبرا خلال الفترة.

ورغم الزيادة في حجم العمالة وزيادة نصيب الفرد من الناتج المحلي وما تولد عنها من زيادة في الطلب الكلي لم تستغل من طرف جهاز الإنتاج المحلي، بل وجه الجزء الأكبر منه إلى الخارج ، وهي ما تبرره الزيادة المعتبرة في قيمة الواردات بمعدل 294% خلال الفترة 2001-2009.

وبشكل عام كتحقيق لبرنامج الإنفاق العام للفترة 2001-2009 يمكن تسجيل ما يلي²²:

- تسجيل تحسن في النشاط الاقتصادي مع تزايد الإنفاق العام.

- عدم احترام مواعيد وأجل تنفيذ المشاريع المقترحة وارتفاع حجم التكاليف بسبب سوء التسيير وعدم الرشادة في الإنفاق.

- هشاشة نظام الاستثمارات العامة في الجزائر.

- ضعف الجهاز الإنتاجي وعدم مرونته للاستجابة للزيادة في الطلب الكلي.

4-6 برنامج توظيف النمو (المخطط الخماسي الثاني 2010-2014) :

خصص لهذا البرنامج غلاف مالي إجمالي قدره 21.214 مليار دينار (ما يعادل حوالي 286 مليار دولار) بما في ذلك الغلاف المالي الإجمالي للبرنامج السابق، أي خصص للبرنامج الجديد مبلغ أولي بمقدار 11.534 مليار دينار (155 مليار دولار)²³.

الخاتمة:

نتيجة للمسار التنموي الذي اتبعته الجزائر منذ الاستقلال وإلى غاية بداية الثمانينات من القرن الماضي وعلى إثر أزمة انهيار أسعار المحروقات انكشف الاقتصاد على العديد من الاختلالات في التوازنات الداخلية والخارجية، وركود وانكماش النشاط الاقتصادي، وتزايد خطير لأعباء المديونية الخارجية، مما جعل الجزائر تلجأ إلى شروط صندوق النقد الدولي والقبول بها، ومباشرة إصلاحات اقتصادية وبرنامج للتثبيت والتعديل الهيكلي، كدعوة لإنعاش الاقتصاد الوطني والانتقال إلى اقتصاد السوق ومواصلة التحرير الاقتصادي.

الهوامش :

- 1-مصطفى قارة، إصلاح القطاع المالي والمصرفي تجارب بعض البلدان العربية، ندوة القطاع المالي في البلدان العربية وتحديات المرحلة المقبلة، 2-3 أبريل، 2000، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2002، ص: 147 .
- 2- رجم نصيب، أمال عياري، فاطمة الزهراء شايب، الإصلاحات الاقتصادية وإستراتيجية المنافسة الخارجية، الملتقى الدولي حول تأهيل المؤسسة الاقتصادية وتعظيم مكاسب الاندماج في الحركة الاقتصادية العالمية، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة فرحات عباس، سطيف، 29 30 أكتوبر 2001، ص : 3.
- 3- نفس المرجع. ص ص : 4-5 (مع التصرف) .
- 4-أنظر : - محمد براق، بورصة القيم المتداولة ودورها في تحقيق التنمية مع دراسة حالة الجزائر، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه الدولة في العلوم الاقتصادية، فرع: نقود ومالية، معهد العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر، (غ م)، 1998-1999، ص : 336 .
- سعدون بوكبوس، الجزائر بين مرحلتين من أجل التنمية (69-90، 89-2005) أطروحة دكتوراه دولة في العلوم الاقتصادية، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر، (غ م) جانفي 1999، ص ص : 185-186 .
- 5-سعدون بوكبوس، مرجع سبق ذكره، ص : 184 .
- 6-بن لوصيف زين الدين ، تأهيل الاقتصاد الجزائري للإندماج في الاقتصاد الدولي، الملتقى الوطني الأول حول الاقتصاد الجزائري في الألفية الثالثة، بجامعة سعد دحلب، البلدة، يومي 21 و 22 ماي، 2002.
- 7-سعدون بوكبوس ، مرجع سبق ذكره ، ص ص : 185-186 .
- 8-المرجع السابق، ص : 197.
- 9-نجيب بوخاتم ، دور الجهاز المصرفي الجزائري في عملية التحول الاقتصادي والانتقال إلى اقتصاد السوق، رسالة تدخل ضمن متطلبات نيل شهادة الماجستير في العلوم الاقتصادية، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر، (غ م)، 2002/ 2003، ص : 158.
- 10-محمد براق ، مرجع سبق ذكره ، ص ص : 337-342.
- 11-نجيب بوخاتم ، مرجع سبق ذكره ، ص : 159.
- 12- عبد الحق بوغتروس، سياسات الإصلاح الاقتصادي في الجزائر .. الإنجازات والتحديات، الملتقى الدولي حول تأهيل المؤسسة الاقتصادية وتعظيم مكاسب الاندماج في الحركة الاقتصادية العالمية، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة فرحات عباس، سطيف، 29/ 30 أكتوبر 2001، ص : 3.
- 13-نفس المرجع ، ص : 4.
- 14- سعدون بوكبوس، مرجع سبق ذكره ، ص ص : 220-223 .
- 15-نفس المرجع، ص ص : 211-215.
- 16-صالح تومي ، ماذا تحقق في الجزائر بعد أكثر من عقد من التحول الاقتصادي، مجلة علوم الاقتصاد والتسيير والتجارة، مجلة دولية متخصصة تصدر عن كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر ، العدد 11، 2004 ، ص ص : 14-23.
- 17- أنظر : عبد الباقي روابح وشريف غياط ، الآثار الاقتصادية والاجتماعية لبرنامج التصحيح الهيكلي في الجزائر، الملتقى الوطني الأول حول الاقتصاد الجزائري في الألفية الثالثة، جامعة سعد دحلب، البلدة ، يومي 21 و 22 ماي، 2002، ص ص : 4-8 .
- 18- محمد لقصاصي، الوضعية النقدية وسير السياسة النقدية في الجزائر ، صندوق النقد العربي ، أبوظبي، 2004 ، ص : 3.
- 19-كريم بودخدخ، أثر سياسة الإنفاق العام على النمو الاقتصادي دراسة حالة الجزائر 2001/2009، رسالة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماجستير في علوم التسيير، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير ، جامعة الجزائر 3، 2009/2010، ص ص : 193، 194.
- 20-محمد مسعي، سياسة الإنعاش الاقتصادي في الجزائر وأثرها على النمو، مجلة الباحث، مجلة سداسية تصدر عن كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير، جامعة قاصدي مرباح بورقلة، عدد 2012/10، ص: 147.
- 21-كريم بودخدوخ، مرجع سبق ذكره، ص: 202 (بتصرف)
- 22-كريم بودخدوخ، مرجع سبق ذكره، ص ص: 224-227 (بتصرف).
- 23-محمد مسعي، مرجع سبق ذكره، ص: 147.